

المجلد الأول

السيد محمد تقي النقوي القايني


بسم الله الرحمن الرحيم

ضیاءالفرقان
فی
تفسیر القرآن

جلد ۱

لِمُؤلّفه سید محمد تقی النّقوی

سرشناسه	: نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸ ـ .
عنوان و نام پدیدآور	: ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.
مشخصات نشر	: تهران: قائن، ۱۳۹۵.
مشخصات ظاهری	: ۱۸ج.
شابک	: دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۱: 978-964-8981-25-4
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا.
یادداشت	: عربی.
موضوع	: تفاسیر شیعه ـ ـ قرن ۱۴.
موضوع	: Qur'an - - Shiite hermeneutics - - 20th century
رده‌بندی کنگره	: BP ۹۸/ ن۷ض۹ ۱۳۹۵
رده‌بندی دیویی	: ۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	: ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن ـ مجلد الاول

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۵ ش. - ۱۴۳۶ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

شابک: ۴ - ۲۵ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

شابک دوره: ۷ - ۲۴ - ۸۹۸۱ - ۹۶۴ - ۹۷۸

◁ المقدمة

الحمد اللّٰه الذّی دلّ علی ذاته بذاته و تنزّه عن مجانسة مخلوقاته کیف یستدلّ علیه بما هو فی وجوده مفتقر الیه، بل متی غاب حتّی یحتاج الی دلیلٍ یدلّ علیه و متی بَعُد حتّی تکون الاثار هی الّتی توصل الیه، عمیت عین لاتراه و لایزال علیها رقیباً و خسرت صفقة عبدٍ لم یجعل له من حبّه نصیباً، المتجلّی بنور جماله علی الملک و الملکوت و المحتجب فی عزّ جلاله بشعشة اللاّهوت عن سکّان الجبروت فضلاً عن قطّان النّاسوت، انار بشروق وجهه کُلّ شَیءٍ، فَنَفَذَ نوره بحیث افنی المستنیر و عند کشف سُبحاتِ جلاله لم یبق الاشارة و المُشیر، نزّل القرآن علی عبده، هدیً للنّاس و بیّنات من الهدی و الفرقان، نوراً یتوقد مصباحه و ضیاءً یتلالأ صباحه و دلیلاً لا یخمد برهانه و حقّاً لا تخذل اعوانه و حبلاً وثیقاً عروته و جبلاً منیعاً ذروته و شفاءً للصدور لیس وراءَهُ شفاء و دواءً للقلوب لیس مثله دواء، و اماماً یقتدی بسمته المقتدون و علماً یهتدی بهداه المهتدون، حمداً یدوم و لا یبید، فطر الخلائق بقدرته و نشر الرّیاح برحمته الذّی لیس لصفته حدٌّ محدودٌ و لا نعتٌ موجودٌ خصّص للصّعود الی عالم السّماء من بین الکلمات و الاسماء کلمة طیّبة کشجرة طیّبة اصلها ثابت و فرعها فی السماء لکونها غایة التکوین و الایجاد و ثمرةَ شجرة عالم الاضداد فکرّم هذه الکلمة بکرامة الخلافة الرّبانیّة فقال للملائکة: «اِنّی جٰاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً» و شرّفها بتعلّم الاسماء فقال: «وَ عَلَّمَ اٰدَمَ الْأَسْمٰاءَ کُلَّهٰا» و جعلها مسجودةً للملائکة تشریفاً و تعظیماً فقال: «وَ اِذْ قُلْنٰا لِلْمَلاٰئِکَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» و اطاع له الملک و الملکوت انقیادً و تسلیماً ثمَّ انشأ من هذه الکلمة کلمات تامّات متعاقبات کلمةً بعد کلمةٍ و رسولاً بعد رسولٍ

فقال: «ثُمَّ اَرسَلنا رُسُلَنا تَترا كُلَّ ما جاءَ اُمَّةً رسولُها كَذّبوُه» متفاضلةً بعضُها على بعض فقال: «تلک الرسول فضلنا بعضهم على بعض» و هکذا حتّى انتهت النوبة الى كلمةٍ جامعةٍ تشتمل على جوامع الكلم صورة اسم اللّٰه الاعظم و القيل اللّٰه الاقوم و الرّسول الخاتم المستشرق بنور عقله الكلّى عقول من تأخّر و من تقدّم المتعلّم فى مدرس علّمک ما لم تکن تعلم بل هو فى نفسه الكتاب الحكيم المُحكم الذّى فيه جوامع الكلم و لطائف الحِكم، نقطة الرّاسمة لكُلّ الحروف المُعجم المختوم به كتاب الرّسالة و المتّصل به دائرة الفضل و الاِجادة، نقطة دائرة الوجود و نكتة سرّ اللّٰه فى كُلّ موجودٍ المقصود بالايجاد اوّلاً و المبعوث بالتكميل اخراً، المذكور اسمه فى التوراة و الانجيل، خير الاوّلين و آلاخرين، المؤكّد دعوته بالتأييد، المخصوص شريعتُه بالتأبيد، الملّقب بحبيب اللّٰه على لسان جبرئيل بامرٍ من ربّ الجليل، ابى القاسم محمّدٍ سيّد الخلائق اجمعين و شافع الامم عند الخالق يوم الدّين و على آله و عترته المقدّسين المطهّرين المستودعين لحكمته، الحافظين لشريعته، مصادر بيوت الوحى و التنزّيل و خزنة اسرار القرآن و التأويل، انوار سماء العصمة و الهداية و آيات كتاب الامامة و الولاية اعلام الاسلام و ائمّة الانام «ما اعتقبت اللّيالى و الايّام» و «اختلف الضّياء و الظّلام» و لا سيّما بقية اللّٰه الاعظم صاحب الولاية الالهية الكبرى و الخلاقة العالمّية العليا الذّى يكون النّصر قائده و الرُعب رائده به يعود الحقّ فى نصابه و يزول الباطل عن مقامه المدخّر لاصلاح هذا العالم المُنغمس بفطرته الظّلم و الفساد و المرتجى الازالة الطّاغوتية الغاشمة و العناد، سليلُ رسول اللّٰه و الحجة على خلقه، سيف اللّٰه المنتقم سيّدى و مولاى حجّة بن الحسن العسكرى عليهما السلام الذّى اذهب اللّٰه عنه و عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً.

امّا بعد: فيقول العبد الضعيف الراجى لطف ربّه اللطيف، خادم كلام اللّٰه محمّدتقى بن محمّدباقر النقوى، القاينى الخراسانى (حشره اللّٰه مع مواليه و

جعل مستقبله خيراً من ماضيه» انّه لا يخفى على النافذ البصير و المطّلع الخبير انّ من البيّن اللائح الذّى لا يرتاب فيه ذوريب انّ الكتاب الكريم هو الاساس القويم الذّى تقوم عليه بُنيّة الدّين الحنيف و هو الروح السّماوية الّتى بها حياة العلّة البيضاء كيف لا و هو الكتاب الذّى يضمن اصلاح البشر و يتكفل بسعادتهم و اسعادهم و عليه تؤسس علوم الدّين و عنه تُؤخذ علوم الاجتماع و السياسة المدنية و القرآن مرجع اللغوى و دليل النحوى و حجة الفقيه و مثل الاديب و ضالة الحكيم و مرشد الوعظ و من ارشاداته تشكف اسرار الكون و نواميس التكوين و انّ لكلّ آيةٍ من آياته بل لكلّ فقرةٍ من فقراته ظهراً و بطناً و تفسيراً و تأويلاً فلهذا انّ النّبى الكريم هو الذّى خصّه اللّٰه ببيان ما انزل الى النّاس من ربّهم و تعليمه كما قال عزّ من قائل:

«لتبيّن للناس ما انزل اليهم من ربهم» و قال: «و يعلّمهم الكتاب و الحكمة» و انّ الطاهرين من اهل بيته هم الذّين قارنهم النّبى صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب اللّٰه فسمّاهما الثقلين و اوقفهم موقف البيان و التعليم و امر بالتّمسّک بهم و اخذ الكتاب عنهم، فهم الهداة يهدى اللّٰه بهم لنوره من يشاء و هم المعلّمون القائلون بتعليم مافيه من حقائق المعارف و شرائع الدّين و قد بعث اللّٰه رجالاً من اولى النهى و البصيرة و ذوى العلم و الفضيلة على الاقتباس من مشكاة انوارهم و الاخذ و الظبط علومهم و آثارهم و ايداع ذخائرهم فى كتبهم و تنظيم شناتِها فى تأليفهم ليذوق بذالک العجائب من منهل الشاهد و يرد به اللاحق مورد السابق و لكن ليس من الانصاف ان نكلّف احداً و ان بلغ ما بلغ من العلم و التبحّر - ان يحيط بمعانى كتاب اللّٰه الاعظم من جميع الجهات لانّ اللّٰه تبارک و تعالى القى على نفوسهم شعاعاً من نوره و وضحاً من هداه فلهذا ننظر بعضهم يفسره من ناحية الادب او الاعراب و الاخر يفسره من ناحية الفلسفه و ثالثاً من ناحية العلوم الحديثه او نحو ذالک، كانّ القرآن لم ينزل الاّ لهذه الناحية الّتى يختارها ذلک المفسّر و تلک الوجهة الّتى يتوجّه اليها و لاكنّ الحق ان يكون المفسّر يجرى

مع الآية حيث تجرى و يكشف معناها حيث تشيرو يوضح دلالتها حيث تدلّ بمعنى ان يكون حكيماً حين تشتمل الآية على الحكمة و خليقاً حين ترشد الآية الى الاخلاق و فقيهاً حين تتعرض للفقه و اديباً حين ترمز على الادب و اجتماعياً حين تبحث فى الاجتماع و شئياً آخر حين تنظر فى اشياء أُخر و من اجل ذلك انّى كثيراً ما يخالج قلبى ان اشرح الكتاب الكريم شرحاً وافياً لجميع الجهات على ما تيسرلى من ظواهر الكتاب و محكماته و ما ثبت بالتواتر او بالطرق الصحيحة من الاثار الوارده عن اهل بيت العصمة من ذريّة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و ما استقل به العقل الفطرى الصحيح الذّى جعله اللّٰه حجة باطنة كما جعل نبيّه صلى الله عليه و آله و سلم و اهل بيته المعصومين حجة ظاهرة و ايضاً انّى كثيراً مّا استعين بالآية على فهم اختها و استرشد القرآن الى ادراك معانى القرآن مع ضيق باعى و قصر ذراعى و تشتت احوالى و تفاقم احزانى، خصوصاً فى ذلک الزّمان، رفعها اللّٰه عنّى و عن جميع الاخوان بحقّ صاحب الزّمان عليه صلوات اللّٰه الرّحمٰن.

و سمّيتُ هذا التفسير به «ضياء الفرقان فى تفسير القرآن» و انّى لاجور من خُلّص إِخوانى المؤمنين الناظرين الى ما كتبتُ فى هذه الاوراق ان يذكرونى بطلب المغفرة و الدّعاء و ان يعفونى اذا عثروا على الذّلات، فانّ العصمة مختصة باهلها.

وفّقنا اللّٰه و اخواننا المؤمنين للصّراط المستقيم و عصمنا من الاهواء الباطلة و النفس الامارة بالسّوء.

الحمد للّٰه على نعمائه و آلائه و الصلوة و السّلام على سيّدنا محمّد و آله الطيبين الطاهرين. و نقول «ايها العزيز مسّنا اهلنا الضّر و جئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل و تصدّق علينا انّ اللّٰه يجزى المتصدّقين.»

■

الجزء
الأوّل

الحمد اللّهِ اَنزَلَ الكتٰاب الى عبدهِ لِيُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ.

ثمّ الصلٰوةُ والسّلام علىٰ مَن ثُميَ فى السّمٰوات بأحمَد و فى الارَضين به ابالقاسم المحمّد ﷺ و علىٰ اوصيائه و خُلفائه ائمّة المَعصومين اوّلهم اميرالمؤمنين عليه‌السلام و آخرهم حجّة بنِ الحسن العسكرى (عج).

الّذى قال رسوُلُ اللّه ﷺ فى حقّ: لَو لَم يبقَ من الدّنيا الاّ يومٌ واحد لَطوّل اللّه ذالكَ اليوم حتّى يخرَج رجُلٌ من وُلدى اسمُهُ اسمى، يملأ اللّهُ الارض بهِ قسطاً و عدلاً بَعدَ ما مُلئت ظلماً و جوراً. صلواة اللّه عليهم اجمعين.

امّا بعد، فيقولُ العبده الفقير المحتاجُ الىٰ ربّه الغنّى **محمّد تقى بن محمّد باقر الحسينى القاينى**: انّى لمّا فرّغتُ من تأليف شرحى المَبسوط علىٰ نهج البلاغة لمولاٰنا اميرالمؤمنين المسمّىٰ به مفتاح السعادة فى شرح نهج البلاغة (١٨ مجلد) شرعتُ فى تفسيرِ كلام اللّه بقَدر استطاعتى و هو هذا الكتاب سمّيتُ بالضياء الفرقان فى تفسير القرآن. و قد وفّقنى اللّه تعالىٰ به اتمامه و ارجو مِن اللّه تعالىٰ نحن يَنفعنى بهِ فى الآخرة حيث لا ينفعُ فيها مالٌ و لا بَنون الاّ من اتا اللّه قلب سليم.

فنقول الحمد للّه رب العالمين والصّلٰوة والسّلام علىٰ جميع الانبياء و المُرسلين، آمين ربَ العالمين.

■

سورة الحمد

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ ﴿٢﴾ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ اِيّٰاکَ نَعْبُدُ وَ اِيّٰاکَ نَسْتَعِينُ
﴿٥﴾ اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرٰاطَ الَّذِينَ
اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لاَالضّٰالِّينَ ﴿٧﴾

إعلم انّ الباء حَرف جرٍّ أصله الألصاق والحرُوف الجارّة علىٰ ما قيل موضوعة لمعنىٰ المفعُوليّة و ذلك لأنّها توصِل الأفعال الىٰ الأسماء وتوقعها عليها فاذا قلت مررتُ بزيد اوقعت الباء المرُور علىٰ زيد و محلّه النَّصب لأنّه مَفعول به للفعل المَحذوف اي ابدا بِسْمِ اللّٰهِ او قولوا **بِسْمِ اللّٰهِ** و انّما حُذف الفعل لأنّ دلالّة الحال أغنت عن ذكره و قيل محلّه الرّفع بناءً علىٰ أنّه خبرٌ لِمبتدءً محذوف والتّقدير ابتدائي بِسْمِ اللّٰهِ فالباء علىٰ هذا متّعلق بالخبر المحذُوف و هو ثابت اي ابتدائي ثابتَ بِسْمِ اللّٰهِ او ثَبَتَ بِسْمِ اللّٰهِ وعلىٰ أي تقدير لا يجوز أن يتّعلق الباء بابتدائي لانّه مصدر واذا تعّلق الباء به يصير من صِلّته و بقىٰ المبتدء بلا خبر، و امّا تحريك الباء مع أنّ الأصل في الحروف البناء و أصل البناء السّكون كما قال ابن مالك في الْأَلْفيّة في النمّو (والأصل في المَبنّىٰ أن تَسّكينا) فللزوم الأبتداء و لا يمكن بالسّاكن وأنّما حرِّکَ بالكسر لوجوهٍ.

أحدها: أنّ عمل الباء الجرّ فحرّكَ بالكسر ليناسب العمل اللّفظ.

ثانيها: أنّ الباء لا يدخل الاّ على الأسماء والجّر أيضاً لا يكون اِلاّ في الأسماء و لذلك حرِّك بالكسر.

ثالثها: ليفرق بين الباء و بين ما يكون من الحروف اسماً نحو الكاف في قول الشّاعر: «وَرُحنا بكابنِ الماء يُجنَب وسُطنا» أي بمثل ابن الماء أو ماكان مثله.

و قول الشّاعر: «ليَضحكن عن كالبرد المُنّهم» ولأجل هذا قالوا أنّ الكاف لا يلزم الحرّفية بخلاف الباء فأنّه يلزمها هذا قول أبي عمر الجرمى.

و أمّا الفارسي فقد نُقل عنه جواز الضّم والفتح في الباء واستدلّ على المدّعىٰ بأنّ الغرض التَّوصل الىٰ الإبتداء فباي حركةٍ توصل اليه جاز و كيف كان لا يبعد أن يكون المراد به تضمين الإستعانة اي استعينوا بانِ تسّموا اللّه بأسمائه الحسنىٰ وتَصفوه بصفاته العُليا هذا كلّه في الباء.

أمّا **الأسم** فقد اختلفوا في اشتقاقه علىٰ وجهين، فقال البصريّون هو مشتقّ من **السَّمُو** و هو العُلو والرَّفعة. إمّا لأنّ الأسم علىٰ بقوّته علىٰ قِسمي الكلام، الحرف و الفعل فلِعلّوه عليهما مسمّىٰ إسماً امّا لانّ صاحب الأسم بمنزلة المرتفع به او لانّ الأسم يسموا بالُمسمّى فيرفعه من غيره.

و قال الكوفيون أنّه مُشتقّ من **السَّمة** و هي العلامة لأنّ الأسم علامة لمن وضع له و عليه فالأصل فيه **وسم** و المشهور عند المحقّقين هو قول البَصريين و ذلك لانّ تصغيره **سُمّي** و جَمعُه علىٰ أسماء و قد ثبَت أنّ الجمع والتصغّير يرّدان الأشياء الىٰ أُصولها فلو كان مشتقاً من السمّة كان الأصل فيه **وسم** و تصغيره علىٰ **وَسَم** وجمعه علىٰ **أوسام** ولم يقل به احَد و انّما حُذفت الهَمزة من الأسم في بِسْمِ اللّهِ في اللفظ لأنّها هَمزة الوصل و هي تسقط في الدّرج و في الخَط أيضاً لكثرة الإستعمال فيما لا يخاف فيه اللبس و لهذا لا يُحذف في نحو قوله تعالىٰ: **اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**[1] لقلّة الإستعمال ثم أنّهم اختلفوا



١- العلق = ١

في أنّ الأسم هو المُسمّىٰ بعينه ام غيره فَذهب ابوعبيدة و سيبويه الىٰ أنّ الأسم هو المُسمّىٰ و عليه فاذا قال قائل (اللّه عالم).

فقوله دالّ علىٰ الذّات الموصوفة بكونه عالماً.

و كذلك اذا قال **اللّه خالق** فالخالق هو الرَّب بعينه و هو بعينه الأسم و ذَهب الاخرون الىٰ انّه غيره و الحَق في المقام أنّ هذا البحث ممّا لا طائل تحته و ذلك لأنّ الأسم إن أُريد به اللّفظ فلا شكّ انّه غيره اذ اللفظ يتالف من اصوات مُقطعة غير قارّةٍ يختلف باختلاف الامم والعصور و يتعدّد تارّةً و يتحدّ اخرىٰ والمُسمّىٰ لا يكون كذلك و ان أُريد به ذات الشّئ فهو المُسمّىٰ لكنّه لم يشتهر هكذا قال بعض المحققين والّذي يخطر بالبال هو أنّ الأسم غيره قولاً واحداً و لا يجوز ارادة الذّات من اللّفظ الاّ علىٰ وجه الدّلالة والحكايّة و أمّا أنّه هو علىٰ سبيل العينيّة فلانفهم معناه و ذلك لانّه قد يعرِف الأسم من لا يَعرِف المُسمّىٰ والاسم قد يكون مُدركاً و ان لم يدرك المُسمّىٰ ولو كان هو فاذا قال القائل نار احترق لسانه و اذا قال **عَسَل** وجد الحَلاوة في فمه و القول بانّ هذا من التسميّة دون الاسم، باطل لانّ القائل لو قال (أكلتُ إسم العَسل) لَكان جاهلاً و قد اطالوا الكلام في المقام بما لا فائدة فيه علماً و عملاً.

و امّا قول الشّاعر «الىٰ الحَول ثمّ إسم السّلام عليكما. ومن يبكِ حَولاً كاملاً فقد إعتَذر» فلا يدّل علىٰ انّ الاسم هو المسمّىٰ و انّ التّقدير السّلام عليكما فأسم هو السّلام وذلك لأنّ الشّاعر اراد به إسم اللّه تعالىٰ لأنّ السّلام من اسمائه في قوله تعالىٰ: **اَلسَّلَامُ اَلْمُؤْمِنُ اَلْمُهَيْمِنُ**[1] و عليه فلا دلالة له علىٰ العَيّنية **اللّه** هذا الإسم علَم علىٰ الاصّح للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة حتّىٰ قيل أنّه إسم اللّه الأعظم ولم يُسَّم به غيره، ولذلك لَم يثَّن ولَم يجمع، و قيل معناه الّذي يستحقّ ان يعبد، و قيل معناه واجب الوجود الذّيلم

١- الحشر = ٢٣

يزل و لا يزال والمآل في الكّل واحد ثمّ أنّهم اختلفوا في كونه مُشتقّاً فمنهم من قال به و منهم من لَم يقل به فمن قال بعدم الاشتقاق قطع بكونه اسماً موصُوفاً لِلّذات الواجب الوجود اذ ليس يجب في كلّ لفظٍ أن يكون مشتقاً لانّه لو وَجب ذلك لتَسلسل والتسلسل باطل عقلاً فكذلك كلّ ما يُوجبه و هذا قول الخليل أمّا من قال باشتقاقه و هو غير واحد من المُحققين اختلفوا في اشتقاقه علىٰ وجوهٍ:

أحدها: انّه مشتقّ من **الألُّوهية** التّي هي العبادة والتّأله التعبُد يُقال فلان متاله اي مُتعبّد فعلىٰ هذا يكون معناه الّذي يجب له العبادة و لذلك لا يُسمّىٰ به غيره تعالىٰ و يوصف فيما لم يزل بانّه اله.

ثانيها: أنّه مُشتق من **الوَلَه** و هو التَّحير يقال ألَه يألَه اذا تحيّر نقل هذا القول عن أبي عمرو و عليه فمعناه أنّه الّذي تحيّرت العُقول في كُنه ذاته.

وثالثها: أنّه مُشتق من **أَلَهْتُ** الىٰ فلان أي فزعت اليه لان الخلق يألهُون اليه أي يفزعون اليه في حوائجهم.

رابعها: أنّه مُشتقّ من **ألهتٌ** اليه اي سكنت اليه نقلَ هذا عن المُبرّد و معناه أنّ الخلق يسكنون الىٰ ذكره كما قال تعالىٰ: **أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**[1].

وخامسها: أنّه مُشتق من **لاه** اي احتجب و عليه فمعناه أنّه تعالىٰ إحتجب بالذّات عن الاوهام و ظهر بالدّلائل و الاعلام كما قيل (يا من هو اختفىٰ لِفرط نوره، الظّاهر و الباطن في ظهُوره).

قال الخليل أنّ أصله **الاه** مثل فِعال فأدخلت الألف واللاّم بَدلاً من الهَمزة.

قال سيبويه مِثل النّاس أصله إناس و قيل اصل الكلمة **لاه** و عَليه دخلت **الألف** للتّعظيم و هذا اختيار سيبويه و أنشدّ:

لأهُ ابْنُ عَمِّک لا أفضلت في حَسَبٍ عَـنّي ولا أنتَ ديّـاني فَـتَحزوني.

١- الرعد = ٢٨

قال الكسائي و الفرّاء معنا بِسْم اللّٰهِ، بسم الاٰله فَحذفوا الهَمزَة و أدغَمُوا اللّام الأولىٰ في الثّانية فصارتا لاماً مشدَّدة كما قال عّز وجَل: لٰكِنَّا هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى[1] و معناه لكن أنا و لكّلٍ من هذه الوجوه وجهُ وجيه و في المقام قول آخر ذهب اليه الشّافعي و ابوالمعالي و الخطابي و الغَزالي و غيرهم و هو أنّ الألف و اللّام لازمة له لا يجوز حذفهما منه و نُقل هذا القول عن الخليل و سيبويه أيضاً و إستدلوا علىٰ المدعىٰ بدخول حرف النّداء عليه كقولك يااللّٰه و حَرف النّداء لا تجتمع مع الألف و اللّام للتّعريف ألا ترىٰ أنّك لاتقول **ياالرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)** و عَليه فالألف و اللّام من لبُنيةِ هذا الأسم و هذا القول يناسب عدم اشتقاقه و أنّه موضوع لِلّذات اذ علىٰ الإشتقاق لا محيص عن زيادة الألف و اللّام كما هو ظاهر و أنّما قال: بِسْمِ اللّٰه و لَم يَقل باللّٰه لأنَ التَّبرك و الإستعانة بإسمه و للفرق بين اليمين و التَّبركَ و قيل المراد به ابتدء بتَسمية اللّٰه فوضع الأسم موضع المبتدء كما يقال أكرمته كرامةً أي إكراماً و أهنته هَواناً أي إهانة ومنه قول الشّاعر:

أكُفراً بعد رَّد المَوت عنّى وبعد عطائك المائة الرّتاعا

أي بعد إعطائك و قال الأخر:

فأن كان هذا البُخل منك سجّيةً لقد كنت بي طولاً رجائك أشعبا

أي في إطالتي رجائك فعلىٰ هذا يكون تقدير الكلام أبتدء قرأتي بتسميّة اللّٰه و هذا القول أولىٰ بالصّواب لأنّا امرنا بأن نفتح أمورنا بتسميّة اللّٰه لا بالخبر عن كبريائه و عظمته كما أمرنا بالتّسمية في الأكل و الشّرب و الذّبائح ألا ترىٰ أنّ الذّابح لو قال باللّٰه ولم يقل بسم اللّٰه لكان مُخالفاً لِما أمر به الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اختلفوا في اشتقّاق الرَّحمٰن.

أيضاً فقال بعضهم لا إشتقاق له لأنّه من الأسماء المُختّصة به سبحانه و لأنّه لو كان مُشتقّاً من الرَّحمة لَاتَّصل بذكر المرحوم فجاز أن يقال، اللّٰه رحمٰن

---

١ - الكهف = ٣٨

بعباده كما يقال رحيم بعباده و أيضاً لو كان مُشتقّاً منها لم تنكره العرب حين سمعوه و قد قال اللّه عزّ وجلّ: **وَ إِذاْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَ مَا ٱلرَّحْمٰنُ**[1].

و قال تعالىٰ: **وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ**[2] وذهب الجمهور من النّاس الىٰ أنّ **الرَّحمٰن** مُشتقّ من **الرَّحمة** مبنّي علىٰ المبالغة و معناه ذوالرَّحمة الّذي لا نظير له فيها و لذلك لا يثنىٰ و لا يجمع و قال بعض المفسّرين الرّحمٰن و الرَّحيم اسمان بنيا للمُبالغة من رحم كالغضبان من غَضب و العليم من عَلِمَ.

الرَّحمة في أصل اللّغة رقّة القلب و انعطاف يقتضي التفضّل و الإحسان و منه الرّحم لانعطافها علىٰ ما فيها و اسماء اللّه تعالىٰ أنّما تؤخذ باعتبار الغايات التّي هي أفعال دون المبادى التّي تكون إنفعالات ثمّ أنّ **الرَّحمٰن** ابلغ من **الرَّحيم** لأنّ زيادة البَناء تدّل علىٰ زيادة المعنىٰ و ذلك أنّما تُؤخذ تارةً باعتبار الكميّة و اُخرىٰ بإعتبار الكيفيّة فعلىٰ الأوّل قيل يا رحمٰن الدّنيا لأنّه يعم المؤمن و الكافر و رحيم الأخرة لأنّه يختصّ المؤمن.

و علىٰ الثّاني قيل يا**رحمٰن** الدّنيا و الأخرة و **رحيم** الدّنيا لأنّ النّعم الأخروية كثيرة دائمة جليلة و أمّا النّعم الدّنيوية حقيرة قليلة، و هل هما بمعنىٰ واحدٍ أو بمَعنيين فيه قولان فقيل هما بمعنىٰ واحد كندمان و نديم قاله أبوعبيدة.

و قيل ليس بناء فعلان كفعيل فأنّ فعلان لا يقع الاّ علىٰ مُبالغةِ الفعل نحو قولك غضبان للممتلى غضباً و فعيل قد يكون بمعنىٰ الفاعل و المفعول كقول الشّاعر:

فأمّا إذا عضَّت بك الحَرب عَضَّةً فأنّك معطوفٌ عليك رحيم.

فالرّحمن خاصّ الأسم عام الفعل و **الرَّحيم** عامّ الأسم خاصّ الفعل.

١- الفرقان = ٦٠ ٢- الرعد = ٣٠

قال أبو علي الفارسي **الرَّحمٰن** إسم عام في جميع أنواع الرَّحمة يختصّ به اللّٰه و **الرَّحيم** أنّما هو في جهة المؤمنين كما قال تعالىٰ: **وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**(١)

قال العرزمي **الرَّحمٰن** بجميع خلقه من الأمطار و نعم الحواس و النِّعم العامّة و **الرَّحيم** بالمُؤمنين في الهِداية لهم واللطف بهم.

قال ابن المُبارك **الرَّحمٰن** إذا سُئل أعطىٰ و **الرَّحيم** اذا لم يُسأل غضب.

قال الشّاعر:

اللّـه يَـغضب أن تَـركت سؤاله ونُـهّي أدم حـين يُسأل يَغضب

قال ابن عبّاس هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الأخر أي أكثر رَحمة) و انّما قدم الرَّحمٰن علىٰ الرَّحيم لأنّ الرَّحمٰن بمنزلة إسم العَلم من حيث لا يوصف به الاّ اللّه فوجب لذلك تَقديمه بخلاف الرَّحيم لأنَه يُطلق عليه و علىٰ غيره.

قد روىٰ أبو سعيد الخدّري عن النّبي ﷺ: أنّ عيسىٰ ابن مَريم قال الرَّحمٰن رحمٰن الدّنيا و الرَّحيم رحيم الأخرة)

عن بعضٍ آخر: أنّه قال الرَّحمٰن بجميع الخلق و الرَّحيم بالمؤمنين خاصّة).

قال بعض أهل التَّحقيق وجه عموم **الرَّحمٰن** بجميع الخَلق هو انشائه و ايجاده ايّاهم و خَلقهم أحياء قادرين و وجه خصوص **الرَّحيم** بالمؤمنين هو ما فعله بهم في الدّنيا من التَّوفيق في الآخرة من الجنّة والاكرام و غفران الذّنوب و الآثام و الىٰ هذا المعنىٰ يرجع.

ما رُوّي عن الصّادق عليه‌السلام: أنّه قال الرَّحمٰن إسم خاصّ بصفة عامّة والرَّحيم إسم عامّ بصفةٍ خاصّة.

١- الاحزاب = ٤٣

و عن عَكرمة قال: الرَّحمٰن برحمةٍ واحدة والرَّحيم بمائة رَحمة).

ذلك لما رُوّي عن النّبي ﷺ: أنّ للّه عزّ وجلّ مائة رحمَةٍ وأنّه أنزل منها واحدةٍ الىٰ الأرض فقَسّمها بين خَلقه بها يَتعاطفون ويَتراحمون وآخر تسعاً وتسعين لنفسه يَرحم بها عباده يَوم القيامة.

و عن أمير المؤمنين عليه السلام: الرَّحمٰن الّذي ببَسطه الرّزق علينا.

و في روايّة العاطف علىٰ خلقه بالرّزق ولَم يقطع عنهم موّاد رزقه وانّ انقطعوا عن طاعته والرَّحيم العاطف علينا في أدياننا و دنيانا و آخرتنا خفَّف علينا الدّين و جَعله سَهلاً خفيفاً و هو يَرحمنا بتمييزنا من أعدائه انتهىٰ.

قال بعض الفلاسفة أنّما كان **الرَّحمٰن** إسماً خاصّاً و **الرَّحيم** إسماً عامّاً لأنّ الاوّل من اسمائه الخاصّة به لا يطلق علىٰ غيره بخلاف **الرَّحيم** و أمّا عمُوم الصّفة في الرَّحمٰن و خصوصها في **الرَّحيم** فلأنّ **الرَّحمٰن** إسم لِلحّق تعالىٰ بإعتبار الجمعّية الأسمائيّة التّي في الحَضرة الإ لأهية الفائض منه الوجود و ما يتبعه من الكمالات علىٰ جميع الممكنات، و**الرَّحيم** إسم له باعتبار فيضان الكمالات المعنويّة علىٰ أهل الايمان كالمعرفة و التّوحيد انتهىٰ.

ثمّ أنّ **الرّحمٰن** صفة للّه و **الرَّحيم** صفة بعد صفةٍ قال قطرب يجوز أن يكون الرّاغبين و وَعد لا يخيب امله هذا تمام الكلام في تفسير البسملة بقىٰ في المقام امران لابدّ من ذكرهما ليَتّم البَحث فيه.

أحدهما: أنّها جزء من السّورة.

ثانيهما: ما ورد في الأثار من فضلها.

أمّا البحث في الأوّل: فنقول لا خلاف عندنا أنّها آية من الحَمد و من كلّ سورةٍ، الأسورة النَّمل فأنّها بعض آيةٍ منها و لذلك فمن تركها في الصّلاة فريضةً

كانت او نافلة بطلت صلاته والوجه فيه أنّه لا صلاة الاّ بفاتحة الكتاب و حيث أنّ البسملّة منها فتركها يُوجب بطلان الصّلاة و أيضاً عندنا أنه يجب الجهر بها فيما يجهر فيه بالقراءة ويُستّحب الجهر بها فيما لا يُجهر فيه.

و قد رُوي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال:البسمّلة تيجان السّور).

عن تفسير العيّاشي عن يونس ابن عبد الرّحمٰن عمّن رفعه قال: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه تعالىٰ: وَ لَقَدْ آتَيْنٰاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثٰانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ[1] قال هي سورة الحمد و هي سبع آيات منها بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وأنّما سُمّيت المثاني لأنّها تثنّىٰ في الرّكعتين انتهىٰ.

و عن صفوان الجمال قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام ما أنزل اللّه من السّماء كتاباً الاّ وفاتحته، بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ وأنّما كان يعرف إنقضاء السّورة بنزول، بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم إبتِداء لِلاخرىٰ،

عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلامقال: سَرقوا أكرم آية في كتاب اللّه، بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ انتهىٰ.

والاحاديث في الباب كثيرة جدّاً و حيث لا خلاف عندنا في المقام فلا نحتاج الىٰ ذكرها ازيد ممّا ذكرناه و أمّا العامّة فقد اختلفوا علىٰ ثلاثة أقوال:

الأوّل: أنّها ليست بآية من الفاتحة و لا غيرها و هو قول مالك.

الثّاني: أنّها آية من كلّ سورةٍ و هو قول عبد اللّه ابن المبارک.

الثّالث: قول الشّافعي و هو أنّها آية في الفاتحة و أمّا سائر السُور فقد تَرَدّد قوله فمرّةً قال هي آية من كلّ سورةٍ و مَرةً قال ليست بآية، و لاخلاف عند العامّة في أنّها آية من القرآن في سُورة النَّمل هكذا.

١- الحجر= ٨٧

قال القرطبي في تفسيره ثمّ نقل في كتابه حُجة الشّافعي و ابن المبارك فقال، الصّحيح من هذه الأقوال قول مالك لأنّ القرآن لا يثبُت بأخبار الأحاد و أنّما طريقه التّواتر القطعي الّذي لا يختلف فيه ثمّ قال:

قال ابن العربي و يكفيک أنّها ليست من القرآن إختلاف النّاس فيها و القرآن لا يختلف فيه و الأخبار الصّحاح التّي لا مطعَن فيها دالّة علىٰ أنّ البَسملة ليست بآيةٍ من الفاتحة و لا غيرها الاّ في النَّمل و حدها انتهىٰ. ما نقلناه عنه و الحّق أنّها جزءٌ من كلّ سُورةٍ.

قد روىٰ السّيوطي في تَفسيره المُسّمىٰ بالدُّر المَنثور روايات كثيرة دالّة علىٰ المُدّعىٰ و هكذا غيره من المفسّرين الاّ أنّه ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

الثّانى: ماوَرَدَ في الآثار من فضلها.

قال الصّادق عليه السلام: احتجبوا من النّاس كلّهم بِسْمِ الّلهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ وبقل هو اللّه أحد إقرأها عن يمينک و عن شمالك و من بين يَديك و من خَلفك و من فوقك و من تحتك و إذا دخَلت علىٰ سلِطانٍ جائرٍ فاقرأها حين تنظر اليه ثلاث مرات و أعقد بيدک اليسرىٰ ثمّ لا تُفارقها حتّىٰ تخرج من عنده) انتهىٰ.

عن كتاب التّوحيد بأسناده الىٰ أبي عبد اللّه في حديثٍ طويل و فيه قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من حزنه أمر يتعاطاه فقال بِسْمِ الّلهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ و هو يخلص لِلّه و يقبل بقلبِه اليه لم يَنفك من إحدىٰ إثنتين إمّا بلوغ حاجته في الدّنيا و امّا تعدّله عند ربّه و تدخر لَدّيه و ما عند اللّه خير و أبقىٰ للمؤمنين انتهىٰ.

و فيه عن الصّادق عليه السلام و لربما تَرك بعض شيعتنا في افتتاح أمره بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ فيمتحنه اللّه عزّ وجلّ بمكروهٍ لينبهه علىٰ



شكر اللّه تبارك و تعالىٰ و الثّناء عليه و يمحق عنه و صمة تقصيره عند تركه قوله: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

و عن تهذيب الأحكام بأسناده عن أبي عبد اللّه عن أبيه عليه السلام قال: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أقرب الىٰ إسم اللّه الأعظم من ناظر العين الىٰ بياضها.

و به رواية عن ابن عبّاس قال: بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إسم من أسماء اللّه الأكبر ما بينه و بين إسم اللّه الأكبر الاّ كما بين سواد العين و بياضها.

و عن علّي ابن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال فاذا جعلتَ رجلك في الرّكاب فقل بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ بسم اللّه واللّه أكبر انتهىٰ.

الاحاديث كثيرة و فيما نقلناه كفاية. و قد روى العامّة و الخاصّة عن النّبى صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: كلّ أمرٍ ذي بال لم يُبدء فيه **بِسْمِ اللّٰهِ** فهو أقطع أو أبتر انتهىٰ.

اَلْحَمْدُلِلّٰه رَبِّ الْعٰالَمِينَ.

قال الرّاغب في المفردات الحمدُ لّله تعالىٰ الثّناء عليه بالفضيلة و هو أخصّ من المَدح و أعمّ من الشّكر انتهىٰ.

أقول: اَلْحَمْد بفتح الحاء و سكون الميم مَصدر قولك **حمدته حمداً** و هو نقيض الذّم و اللّام فيه امّا للجنس أو لِلإستغراق فعلىٰ الأوّل معناه جنس الحمد له تعالىٰ و علىٰ الثّاني كلّ الحمد له تعالىٰ و اللّام في **لِلّٰهِ** لِلإختصاص أي أنّ الحمد يَختصّ به و عليه فالحمد مبتدأ و **لِلّٰهِ** خبره.

رَبِّ أيضاً مصدر يقال علىٰ المالك والسّيد المصلح جمعه أرباب **وربُوب** و هو من أسمائه تعالىٰ لأنّه تعالىٰ مالك الكلّ و سائنهم.

الْعَالَمِينَ جمع **عالم** والعالم جمع لا واحد له من لَفظه كالنَّفر و الجَيش و إشتقاقه من **العَلامة** لأنّه يدّل علىٰ صانعه و قيل من العلم لأنّه اسم يقع علىٰ ما يعلَم و أمّا في عرف اللّغة فهو عبارة عن جماعة من العقلاء لأنّهم يقولون جائني عالم من النّاس و لا يقولون جائني عالِم من البَقرة و عرف النّاس يطلق علىٰ جميع المخلوقات كما ستقف عليه انشاء اللّه وكيف كان فهو مضاف اليه لِلرّب و الجملة صفة للّٰه و المجموع خبر لِلمبتدأ.

قيل الخبر محذوف و تقدير الكلام، الحمد ثابت أو حق لِلّٰه ربّ العالمين والأمر سَهل بعد وضوح المقصود.

قال الزّمَخشري أصلَه النصب الّذي هو قراءة بعضهم باضمار فعله علىٰ أنّه من المصادر التّي تنصبها العرب بافعال مضمرة في معنىٰ الأخبار كقولهم شكراً أو كُفرا الىٰ أن قال و العدول بها عن النّصب الىٰ الرّفع علىٰ الإبتداء لِلدّلالة علىٰ ثبات المعنىٰ و إستقراره و منه قوله تعالىٰ: قال سلاماً قال سلام) رُفع السّلام الثّاني لِلدّلالة علىٰ أنّ ابراهيم حيّاهم بتَحية أحَسن من تحيتهم لأنّ الرّفع دلّ علىٰ معنىٰ ثبات السّلام لهم دون تَجدّده و حدوثه و المعنىٰ: نحمدُ اللّه حمداً. انتهىٰ كلامه.

أقول: يظهر من كلامه أنّه إختار الرّفع علىٰ الإبتداء لإثبات التَّجدد و الحدوث و أنّىٰ له باثبات ذلك و قد قيل أنّ في النّصب إشعاراً بالفعل و في صيغة الفعل إشعار بالتَّجدد و ليس كذلك الرّفع فأنّه يستدعي إسما ذلك الأسم صفة ثابتة ألا ترىٰ أنّ المقدّر مع النّصب نحمد اللّه الحَمد و مع الرّفع الحمد ثابت أو مستقر فليس لكلّ واحدٍ من الطّرفين الاّ مجرّد الدّعوىٰ من غير دليل و لا مشاحة فيه بعد اتفاقهم علىٰ الرّفع علىٰ الإبتداء هذا كلّه من حيث الإعراب و اللّغة و التفسّير.

والحَمد والمَدح اخوان و هما الثّناء علىٰ الجميل نعمة كان او غيرها تقول حمدت الرّجل علىٰ انعامه و حَمدتُه علىٰ حسنه و شجاعته و أمّا الشّكر فعلىٰ النّعمة خاصّة و هو بالقلب و اللّسان و الجوارح، والحَمد باللّسان وحده قال الشّاعر:

أفادتكم النّعماء مِنّي ثلاثة يَدي ولساني والضّمير المُحّجبا

ونقيض الحَمد الذّم كما أنّ نقيض الشّكر الكفران انتهىٰ ما قاله الزّمخشري في الكشّاف.

والمشهُور بين المحقّقين أنّ الحمد هو الثّناء علىٰ الجميل الإختياري من نعمةٍ أو غيرها والمدح هو الثّناء علىٰ الجميع مُطلقاً سواء كان إختيارياً أم لا و لهذا تقول حمدت زيداً علىٰ علمه وكرمه و لا تقول حمدتُه علىٰ حسنه بل تقول مَدحتُه لإنّ حسنه ليس تحت اختياره بخلاف عِلمه وكرمه و أمّا الشّكر فهو مُقابلة النّعمة قولاً و عملاً و إعتقاداً فالشّكر أعَم منها من وجهٍ و أخصّ من آخر وكيف كان فلاشكّ أنّ جميع المحامد في الحقيقة ترجع اليه تعالىٰ لأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه مضافاً الىٰ أنّه تعالىٰ منشأ الخيرات و مفيضها و مُوجِد النِّعم و واهبها و قد ثبت أنّ ما للغير من صِفات الكمال فهو له بالحقيقة وإتّصاف الغير بها باعتبار مظهَرته له لا باعتبار ذاته و نفسه و عليه فلا فرق بين كون اللّام للجنس أو الإستغراق و هو ظاهر.

قد روي صاحب كشف الغمّة عن الباقر عليه السلام قال الصّادق عليه السلام فقد لابي بغلة فقال عليه السلام لأن رَدّها اللّه علّى لاحمدته بمحامِد يرضاها فما لبِث أن أتىٰ بها بسرجها ولجامها فلّما إستوّىٰ وضمّ اليه ثيابه رفع رأسه الىٰ السّماء وقال، الحمدُ لِلّه ولم يزد ثمّ قال ما تركتُ و لا بقيت شيئاً جعلتُ جميع أنواع المحامد لِلّه عزّ وجّل فما من حمدٍ إلاّ و هو داخل فيما قلت) إنتهىٰ.

يظهر من هذا الحديث أنّ جميع أنواع المحامد داخلة تحت قولنا الحَمد لِلّه ربّ العالمين و هو كذلك.

إعلم أنّ هذه السّورة مكيّة كما عن ابن عباس و قتادة و مدنيّة كما عن مجاهد و قيل أنزلت مرّتين مرّة بمكّة و مرّة بالمدينة و لها أسماء كثيرة و المشهور منها عشرة:

الأول: فاتحة الكتاب سُميّت بذلك لإفتتاح المصاحف بكتابتها ولوجوب قراءتها في الصّلاة فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرأن و قيل سميت بها لأنّها أوّل سورة أنزلت في القرآن فهي فاتحة النّزول و ابتدائه.

الثّانى: أُمّ الكتاب قيل سُمّيت بذلك لأنّها مُتقدّمة علىٰ سائر سُور القرآن و قيل سُميت بذلك لأنّها أصل القرآن والام الأصل و انّما صارت أصل القرآن لأنّ اللّه أودع فيها جَميع ما في السُّور لأنّ فيها إثّبات الرّبُوبية و العبودّية و هذا هو المقصود بالقرآن.

الثّالث: سَبع المثاني، سُميت بذلك لأنّها سبع آيات لاخلاف فيها و بالمثاني لأنّها تثنىٰ بقراءتها في كلّ صلٰوة فرض و نفل و قيل لأنّها نَزلت مرّتين.

الرّابع: الوافية فسمّيت بها لأنّها لا ينتصف في الصّلاة..

الخامس: الكافية لأنّها تكفي عمّا سواها و لا يكفي ما سواها عنها.

السّادس: الشّافية، **كما رُوي عن النّبي** ﷺ **فاتحة الكتاب شفاء من كلّ داء).**

السّابع: الأساس لما روي أنّ لكلّ شيءٍ أساساً و أساس القرآن الفاتحة و أساس الفاتحة: **بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.**

الثّامن: الصّلاة لما روي عن النّبي ﷺ **قال اللّه تعالىٰ قسمَت الصّلاة بينى وبين عبدي نصفين نصفها لي و نصفها لعبدي فاذا قال العبد اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ يقول اللّه حَمدني عَبدي فاذا قال**

اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ يقول اللّه أثنىٰ علَّي عبدي فاذا قال العَبد مٰـالِكِ يَوْمِ الدّيْنِ يقول اللّه مجدَّني عَبدي فاذا قـال اِيّٰاكَ نَعْبُدُ وَ اِيّٰاكَ نَسْتَعِيْنُ يقول اللّه هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سَأل فاذا قـال اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيْمَ الىٰ آخره، قال هذا لعـبدي ولعـبدي مـا سَأه.

التّاسع: الحَمد سمّيت بذلك لأنّ فيها ذكر الحَمد.

العاشر: أمّ القرآن و معناه قريب من أمّ الكتاب و قد مَرَّ باقي الكلام في ما وَرَد في فضلها فنقول الأخبار الواردة في فضلها كثيرة.

في كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أربع من كنَّ فيه كان في نور اللّه الأعظم الىٰ قوله صلى الله عليه وآله وسلم و من إذا أصاب خيرا قال الحمد لِلّه ربّ العالميّن إنتهىٰ.

بأسناده الىٰ علي إبن الحسين قال عليه السلام: ومن قال الحمدُ لِلّه فقد أدىٰ شكر كلّ نعمة لِلّه تعالىٰ إنتهىٰ.

في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه قال: قال لي ما أنعم اللّه علىٰ عبدٍ بنعمة صغُرَت أو كبُرَت فقال الحَمد لِلّه إلاّ أدّىٰ شكرَها إنتهىٰ.

بأسناده الىٰ حماد بن عثمان قال: خرج أبو عبد اللّه من المسجد و قد ضاعت دابتّه فقال: لإنّ رَدّها اللّه علَّي لاشكُرَنَ اللّه حقّ شُكـره قال فما لبث أن أتىٰ بها فقال الحمدُ لِلّه فقال قائل جُعلت فِداك أليسَ قُلت لإشكُرنّ اللّه حقّ شُكره فقال عليه السلام ألم تسمعني قلتُ الحمدُ لَلّه إنتهىٰ.

في من لايحضره الفقيه بأسناده عن الرضا قال عليه السلام: اَلْحَمْدُلِلّٰهِ انّما هو اداء لِما أوجب اللّه عزّ وجّل علىٰ خَلقه من الشكر و شكر لما وفقّ عبده مِن الخير ربّ العالمين) توحيد له و تحميد و إقرار بأنّه هـو الخالق المالك لا غيره.

في مجمع البيان قال رسول اللّه ﷺ :أنّ اللّـه تـعالىٰ مـنَّ عـلّى بفاتحة الكتاب الىٰ قوله اَلْحَمْدُلِلّٰه رَبِّ الْعٰالَمِينَ دعوىٰ أهـل الجـنّة حين شكروا اللّه حُسن الثواب».

و في الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه ؏ قال: مَن قال أربع مرّات اذا أصبح، اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ، فقد أدّىٰ شكر يومه ومن قالها اذا أمسىٰ فقد أدّىٰ ليلته).

بأسناده عنه ؏ قال: كان رسـول الّـله ﷺ اذا أصـبح. قـال: اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ كثيراً علىٰ كلّ حالٍ ثلاثمائة و ستّين مرّة واذا أمسىٰ قال مثل ذلك.

في مجمع البيان قال رسول اللّه ﷺ: أنّ الّـله تـعالىٰ مَـنَّ عـلّي بفاتحة الكتاب الىٰ قوله: إِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ صراط الأنبياء و هم الّذين أنعم اللّه عليهم.

الأخبار في فضلها كثيرة وفيما ذكرناه كفاية لأولي الدّراية، ولنختم الكلام في تفسير الأية بذكر أمورٍ لا تخلو من فائدة.

الأمر الأوّل: لِمَ قال الّله تعالىٰ :**اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** ولم يقل احمدوا الّله مثلاً بصيغة الأمر، قال بعض المحققين الوَجه فيه أنّ التكلّيف بما لا يطاق محال و قد قال الّله في كتابه: **لَا يُكَلِّفُ اَللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** [1] و حيث الأمر بالحَمد داخل فيه لذلك لم يأمرنا به و توضيحه أنّ الحَمد عبارة عن مَدح الغير بسبب كونه منعِماً مُتفضلاً و مالم يحصل شعور الإنسان بوصول النِّعمة اليه أمتنع تكليفه بالحَمد و الشّكر فوجب كون الإنسان عاجز عن حَمده و شكره لوجوهٍ:

أحدها: أنّ نعم الّله كثيرة لا يقوىٰ عقل الإنسان عليها كما قال تعالىٰ: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا** [2] و اذا أمتنع وقوف الإنسان عليها أمتنع إقتداره

١- البقرة = ٢٨٦
٢- ابراهيم = ٣٥

علىٰ الحمد والشّكر والثّناء اللاّئق بها.

ثانيها: أنّ الإنسان أنّما يمكنه القيام بحمده و شكره اذا قَدره الّله تـعالىٰ عليه و الأقدار لايوجد الاّ بإيجاد المقتضىٰ أعني به الدّاعي اليه و رفع المانع و لاشكّ أنّهما خارجان عن قدرة العبد و عَليه فالعَبد ينبغي له الحمد علىٰ هذا التّوفيق منه تعالىٰ قبل الحَمد علىٰ النّعمة وهكذا الىٰ غير النّهاية والموقوف علىٰ المحال محال فالحَمد علىٰ النّعم محال.

ثالثها: أنّ الإنسان محتاج الىٰ إنعام الّله في ذاته و صفاته و أحواله والّله تعالىٰ غنّي بالذّات كما قال تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**[1] فبهذه الوجوه ظهر لک سِر العدول عن صيغة الأمر و يؤيده ما نقل عن داود النّبي عليه‌السلام حيث قال يارَبّ كيف أشكرك و شكري لك لا يتمّ الاّ بإنعامك علّي و هو أن توفقَني لذلك الشّكر فقال تعالىٰ لِما علمت عجزک عن شكري فقد شكرتني بحسب قدرتك و طاقتك.

أمّا قوله تعالىٰ: **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** فقد دّل علىٰ أنّ الحَمد حقّه و ملكه سواء قدر الخلق علىٰ الإتيان به أم لا.

الامر الثانى: روي عن النّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّه قال **اذا أنعم الّله علىٰ عبده نعمة فيقول العَبد اَلْحَمْدُلِلّٰهِ يقول الّله تعالىٰ إنظروا الىٰ عَبدي أعطيته مالا قدر له فأعطاني مالا قيمة له).**

توضيحه أنّ النّعم الدنيويّة التّي توجب الحمد علىٰ العبد لا قدر لها عند الّله تعالىٰ و ذلك لأنّ الدّنيا و مافيها أقلّ قدراً من جناح بعوضةٍ عنده تعالىٰ كما ورد في الحديث فاذا حَمد العبد علىٰ النّعمة أيّ نعمة كانت حَمد الّله علىٰ مالا قدر له عنده و هو واضح و هذا معنىٰ قوله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أعطيته مالا قدر له، و أمّا قوله فأعطاني مالا قيمة له فمعناه أنّ الحَمد الّذي أتىٰ به فهو ممّا لا قيمة له

١- الفاطر = ١٥

كثرة و ذلك لأنّه لم يقل حمدي للّه بل قال **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** ولما كانت الّلام فيه للجنس أو الإستغراق فلا محالة يشمل كلّ حمدٍ صَدر من الموجودات فيما مضىٰ و في الحال المستقبل من الإنسان أو من غيره من الموجودات من أوّل الدّنيا الىٰ أخره.

بعبارةٍ أُخرىٰ اذا قال العبد، **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** فكأنّه قال جنس الحمد أوكلّ الحمد له تعالىٰ لا لغيره لدلالة لام الإختصاص عليه في كلّ عصر و زمان و من أي موجود صَدر فيدخل فيه حَمد جميع الأنبياء والملائكة والنّاس بل و جميع الموجودات الىٰ أخر الدّهر و من المعلوم أنّ الحَمد بهذا المعنىٰ لا قيمة له بل فوق القيمة و هذا معنىٰ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأعطاني مالا قيمة له فثبت و تحقق أنّ قول العبد **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** لا يعلم قيمتها الاّ الّله تعالىٰ.

الامر الثّالث: قال الّله تعالىٰ: **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمِينَ** ولم يقل مثلاً الحَمد لِلّه علىٰ ما أنعم علينا أو علىٰ سائر الموجودات و فيه دقيقة لابأس بالإشارة اليها و هي أنّ الّله تعالىٰ يستحقّ الحَمد من حيث ذاته الّتي يصدر منه الفيض والايجاد في عالم الوجود فهو مستحقّ له من حيث صدور النِّعم منه لا من حيث وصولها الينا و ان شئت قلت من حيث أنّه منشأ الكمالات و مبدأ الخيّرات و مفيضها علىٰ ما سواه و لذلك جعله مختصّا بإسم الجلالة الّذي جمع فيه الكمال كله فقال: **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** ولَم يقل الحَمد للخالق أو الرّازق مثلاً ثم وَصفه بقوله ربّ العالمين فكأنّ العَبد يقول الحَمد ثابت للذّات الواجب الوجود الجامع لجميع الصّفات الكمالّية لأنّه أوجد العالم و أعطىٰ كلّ موجودٍ ما يليق به و لا شكّ أنّ الحامد من الموجودات في العالم الاّ أنّ حمده ليس لأجل النّعمة التّي وصلت اليه بل لأجل ما صدر منه تعالى.

الامر الرّابع: نعم الّله تعالىٰ التّي توجب علىٰ المنعم عليه الحَمد والشّكر ينقسم الىٰ قسمين نِعمة الدّنيا و نعمة الدّين، و من الواضح أنّ نعمة الدّين



أفضل من نِعمة الدّنيا فالحمد علىٰ نِعمة الدّين أفضل منه علىٰ نعمة الدّنيا ثم أنّ النّعم الدّنيوية علىٰ نوعين مادّي كالمأكول و المشروب و الملبوس و أمثاله و معنّوي روّحي كالعلم و الشجاعة و الحلم و غيرها و من المعلوم أنّ المعنّوي العقلي أفضل من المادّي الحِسّي فالحمد عليه أولىٰ و هكذا نعم الدّينية علىٰ قسمين قسم منها تتعلق بالقلب كالمعرفة و الإيمان و الإعتقاد الصّحيح و قسم تتعلق بالجَوارح كالصّلاة و الصّوم و الحَج و أمثالها و ما يتعلق بالقلب أفضل من غيره فالحَمد عليه أفضل و أولىٰ فينبغي للعبد مراعاة هذه الأمور في محامده.

الامر الخامس: ما معنىٰ النّعمة التّي توجب الحَمد فَمن النّاس مَنْ يقول أنّها عبارة عن كلّ ما يصل من الّله تعالىٰ الىٰ العبد اذا كان موافقاً لطبعه و غريزته مثل المال و المقام و الصّحة والاولاد و أمثال ذلک و لذلک تراهم يحمدون الّله علىٰ هذه الأمور و لا يحمدونه علىٰ غيرها بل قد يعبّرون عن كلّ مالا يوافق الطّبع والغريزة بالنِّقمة والعذاب و ليس كذلك فأنّ النِّعمة لا تختّص بما يلائم الطبع بل تطلق علىٰ كلّ ما يصل من الرّب الىٰ الخلق سواء كان مطابقاً لهواه و موافقاً لغريزته أم لم يكن و ذلك لأنّ الخالق خير محض و لا يُفاض منه الاّ الخَير فكلّ ما صَدر أو يصدر منه خير فكلّ ما يصل منه الىٰ العبد خير له سواء علم به العبد أم لا والوجه فيه أنّ أفعال الّله تابعة للمصالح الموجودة فيها فما لا مصلحة فيه لا يوجد الاّ أنّ العبد قد يعلم المصلحة و قد لا يعلم و علمه أو جهله بها لايخرج الفعل عنها و علىٰ هذه القاعدة يرتفع الأشكال و يتضح المقال و هو أنّ الّله تعالىٰ إن شاء للعبد المال فهو نعمة منه اليه و إن شاء الفقر هو أيضاً نعمة له و هكذا إن شاء الصّحة فهي نعمة و إن شاء المرض فكذلك و بالجملة كلّ ما يقدر له و يصل اليه فهو نعمة من خالقه يجب له **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** فينبغي للعبد أن يقول **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** في كلّ حال و علىٰ كلّ حال ليكون عبداً شكوراً.

الامر السّادس: ربّما يظن أنّ الحمد عبارة عن قول القائل **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ** فاذا قال به فقد حَمِد اللّه وأدّىٰ وظيفته و ليس كذلك لأنّ الحَمد بالحقيقة عبارة عن كلّ فعلٍ يشعر بتعظيم المُنعم بسبب كونه مُنعماً و ذلك الفعل أمّا أن يكون فعل القلب أو فعل اللّسان أو فعل الجوارح فالحامد الحقيقي هو الّذي يحمده قلباً و لساناً و عَملاً فالحَمد بالقلب عبارة عن الإعتقاد بكونه واحداً أحداً متّصفاً بصفات الكمال و الجلال و الحمد باللّسان هو أن يذكر ألفاظاً دالّة علىٰ توحيده و مَعبوديته في الوجود و أنّه يستّحق الحَمد و بالجملة كلّ لفظٍ يقرب العبد الىٰ الرّب والحمد بالجوارح هو أن يأتي بالطّاعات والواجبات و يجتنب عن المنهيّات والمحرّمات فالحامد في الحقيقة لا يكون الاّ عبداً خالصاً بقوله و فعله و قلبه.

اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قد مضىٰ الكلام في معنىٰ **اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيم** عند بحثنا في البسملة و قلنا هناك أنّهما وَصفان لِلّه تعالىٰ و في المقام أيضاً كذلك و نزيد في المقام مضافاً علىٰ ما ذكرناه سابقاً أنّه تعالىٰ وصف نفسه بعد ربّ العالمين، بأنّه الرّحمٰن الرّحيم، لأنّه لمّا كان في إتصافه بالرّبوبية ترهيب قرنه **بالرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**.

لما تضمّن من التّرغيب ليجمع في صفاته بين الرّهبة منه والرغبة اليه فيكون زهون علىٰ طاعته و أمنَع كما قال تعالىٰ في موضعٍ آخر **نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ**(١).

قد روي بطريق العامّة عن رسول الّله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لو يعلم المؤمن ما عند الّله من العقوبة ما طمع في جنته أحد و لو يعلم الكافر عن ما عند الّله من الرّحمة ما قنط من جَنته أحَد.

١- الحجر= ٤٩

هكذا قال القرطبي في تفسيره و لقائل أن يقول أيُّ ترهيب في قوله تعالىٰ **رَبِّ العالمين**، بل الرّبوبية بالتّرغيب أولىٰ منه بالترهيب فانّ المُربّي أكثر رقّة علىٰ مُربّاه من غيره و هو واضح ألا ترىٰ أنّ مُرّبي الطّفل كيف يواظب علىٰ تربيته إشفاقاً منه والحاصل أنّ اللّه تعالىٰ حيث وصف نفسه بالرّبوبية و أنّه ربّ العالمين بمعنىٰ أنّ جميع ما سواه تحت تعليمه و تربيته فقد أعلمنا بذلك مقام رحمته و رافته بخلقه ثم اردف ذلك بقوله :**اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**ليدّل الكلام علىٰ أنّ تربيته لما سواه مَبنية علىٰ الرّحمانية والرّحيمية و إن شئت قلت لا يكون ربّاً حقيقياً الاّ لكونه رحماناً و رحيماً فلو لم يكن رحماناً رحيماً لم يكن ربّاً واقعاً فالرّحمٰنية والرّحيمية أصلان لصدق الربوبيّة فما ذهب اليه القرطبي لا يرجع الىٰ محصّل.

مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

قرأ محمد ابن السميقع بنصب مالك و الجمهور علىٰ كسره، فَمن قرأه بالنَّصب لابدّ له من التّقدير و تقدير الكلام، أعني **مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ،فحَذف العامل و بقىٰ المعمول منصوبا علىٰ المفعوليّة و عليه فلا يكون وصفاً بعد وصف بل هي مقطوعة عن الوصفيّة، و من قرأه بالكسر فقد جعل، **مٰالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** وصفاً بعد وصف لكلمة الجلالة أي أنّ اللّه تعالىٰ موصوف بالرّبوبية والرّحمانية و الرّحيمية والمالكيّة ليوم الجزّاء.

في كلمة**مٰالِكِ** أربع لغات، **مالِك** بكسر اللاّم، **مَلِك** بفتح الميم وكسر الاّم نجد الألف، **مَلْك** بفتح الميم و سكون اللاّم و الكاف، **مَلِيك** بفتح الميم وكسر الاّم و سكون الياء و الكاف.

و قال الشيخ ﴿رحمه الله﴾ في التّبيان قرأ عاصم والكلائي و خلف و يعقوب، مالِك بالألف، والباقون ملك بغير ألف ولم يمل أحد ألف مالك وكسر جميعهم الكاف و رويّ عن الاعمش أنّه فَتحها علىٰ النّداء و ربيعة بن نزار يخفّفون مالك و

يسقطون الألف فيقولون مَلك، بتسكين اللاّم و فتح الميم ثّم قال و الألف ساقط في الخطّ في القرائتين والمعول علىٰ الأوليتين دون النّصب و اسكان اللاّم و معنىٰ، مَلِك يوم الدّين بإسقاط الألف أنّه المَلِك يومئذٍ لا ملِك غيره و أنّه لا يؤتي في ذلك الوقت أحدا الملك كما أتاه في الدّنيا و قوّي ذلك بقوله تعالىٰ: **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ**[1] و بأنّه يطابق ما تقدّم من قوله: **رَبِّ الْعَالَمِينَ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**، ومَن قرأ مالك بألف معناه أنّه **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** و الحساب لا يملكه غيره و لا يليه سواه انتهىٰ.

و يظهر من كلامه أنّ الصّحيح المُعوَّل عليه قرائتان، مالك، و ملِك والباقي شاذّ.

◁ اللّغة

والمالك هو القادر علىٰ التّصرف في ماله وأن يتصرّف فيه علىٰ وجه ليس لأحد منعه منه و يوصف العاجز بأنّه مالك من جهة الحكم، و الملِك هو القادر الواسع القدرة الّذي له السياسّة والتّدبير و أختلف العلماء فيهما من حيث البلاغة أيّهما أبلغ بعد الإتّفاق علىٰ كون القرائتين مَرّويتان فقيل ملك أعّم و أبلغ من مالك إذ كلّ ملك مالِك وليس كلّ مالِك ملِك، و لأنّ أمر الملك نافذ علىٰ المالك في ملكه حتّىٰ لا يتصرّف إلاّ من تدّبير الملك، و قيل مالك أبلّغ لأنّه يكون مالكاً لِلنّاس و غيرهم فالملك أبلغ تصرّفاً و أعظم إذ اليه إجراء قوانين الشّرع ثمّ عنده زيادة التملّك، و قال بعض حق القراءة في الآية ملِك، و إنّ كان مالِك أبلغ تصرفاً منه و ذلك لأنّ اللّه تبارك و تعالىٰ قد وَصف نفسه بأنّه مالِك كلّ شى بقوله: **رَبِّ الْعَالَمِينَ** فلا فائدة في قراءة مالِك لأنّها تكرار و رُدّها القول بأنّ في التّنزيل له نظائر و هكذا في كلمات البلغاء و ذلک لأنّ ذكر

١- الغافر= ١٦

الخاص بعد العام شائع في الإستعمال قال اللّه تعالىٰ: **اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**، فذكر الرّحيم بعد الرّحمٰن من ذكر الخاصّ بعد العامّ و قال في أوائل البقرة: **اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**، ثم قال: **وَبالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** و معلومٌ أنّ الإيمان بالغيب يعّم الأخرة و غيرها و لكن ذكرها يعظمها والتّنبيه علىٰ وجوب إعتقادها والرَّد علىٰ الكفرة الجاحدين لها و أمثال ذلك كثيرة.

◁ الإعراب

إن قلنا **مِلك** يوم الدّين بكسر اللّام و اسكانها فالإضافة فيه علىٰ هذا محضة و هو معرفة فيكون مجروراً علىٰ الصّفة أو البَدل من، اللّه و لا حذف فيه.

و ان قلنا، **مالک** يوم الدّين، بإثبات الألف فهو نكرة و جرّه علىٰ البدل لا علىٰ الصّفة.

أمّا أنّه نكرة لأنّ إسم الفاعل اذا أُريد بـه الحـال أو الإستقبال لا يـتّعرف بالإضافة.

و أمّا أنّ جرّه علىٰ البَدل لا علىٰ الصِّفة فلأنّ المعرفة لا توصف بالنّكرة و في الكلام حذف مفعول هو الأمر تقديره و مالک أمر يوم الدّين أو مالك يوم الدّين الأمر و بالإضافة الىٰ يوم، خرج عن الظّرفية لأنّه لا يصحّ فيه تقديره في، لأنّها تفصل بين المضاف و المضاف اليه و قد يقرأ مالكَ بالنّصب علىٰ أن يكـون باضمار، أعني، أو يكون حالاً و أجاز قوم أن يكون نداءً، و يقرأ بالرَّفع أيضاً علىٰ إضمار، هو، أو يكون خبراً، للرَّحمٰن الرّحيم، علىٰ قراءة من رفع الرَّحمٰن و يقرأ مليك يوم الدّين، رفعاً و نصباً و جرّاً و من قرأ ملَك يوم الدّين، علىٰ أنه فِعل، ويوم مفعول أو ظرف.

◁ المعنىٰ

قد وَصف اللّه تعالىٰ نفسه بأنّه **مٰالِكِ يَوْمِ الدّيْنِ** أي مـالكه و صـاحبه يتصرّف فيه كيف يشاء و ليس لأحدٍ مَنعه منه و المراد بيوم الدّين يوم الجزاء

فأنّ الدّين بمعنىٰ الجزاء علىٰ الأعمال والحساب علىٰ قول ابن عبّاس و ابن مسعود و جريح و قتادة و غيرهم و يدّل عليه.

قال اللّٰه تعالىٰ: **يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ** [١] أي حسابهم.

قال اللّٰه تعالىٰ: **ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ** [٢]

قال اللّٰه تعالىٰ: **الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** [٣]

قال اللّٰه تعالىٰ: **ءَأِنَّا لمَدينون** أي مَجزّيّون محاسبون.

قال لبيد:

حصادك يَوماً مازَرَعت وأنّما　　　يُدان الفتىٰ يَوماً كما هو دائِنُ

و قال :

اذا مارَمونا رَميناهم　　　ودِنّاهم مثل ما يُقرضونا

وأيضاً:

وإعلم يقيناً أنّ ملكك زائل　　　وإعلم بأنّ كما تُدين تُدان

و هو من قول رسول اللّه ﷺ **(كما تُدين تُدان)** وقد جاء الدّين بمعنىٰ الطّاعة أيضاً و عليه قول الشّاعر:

وأيّام لنا غُرٍّ طوالٍ　　　عَصينا المَلك فيها أن ندينا

و يطلق علىٰ العادة والشّأن كما قال الشّاعر:

كَدِينك من أُمّ الخُويرث قبلها

كقول المثقب:

تقول اذا دَرأتُ لها وَضينى　　　أَهذا دينه أبداً ودينى

و جاء بمعنىٰ سيرة الملك كما قال الشّاعر:

لإن صلَلَت بجوٍ في بني أسَدٍ　　　وفي دين عمرٍ وحالت بيننا فَدَك

١- النور = ٢٥　　٢- الغافر= ١٧

٣- الجاثيه ٢٨=

و بمعنیٰ الدّاء کما قیل:

یادین قلبك من مسلمي وقد دینا

والانسب بالمقام هو الّذي ذکرناه و عوّلنا علیه وفاقاً لجمهور المفسّرین.

و الیوم في الآیة عبارة عن زمان الجزاء کلّه و لیس المراد به ما بین المشرق و المغرب و طلوع الشّمس الیٰ غروبها اذ لا شَمس هناك فلا طلوع و لا غروب و لا الیوم بالمعنیٰ المتعارف في الدّنیا فالکلام خَرج مخرج الإستعارة فأستعیر فیما بین مبتدأ القیامة الیٰ وقت إستقرار أهل الدّارین فیها ولایّهمنا البحث فیه بعد وضوح المقصود في المقام.

◁ التّفسیر

إعلم أنّه تعالیٰ لمّا بیّن ملکه في الدّنیا بقوله: **رَبِّ الْعٰالَمِینَ** بَیَّن ملکه في الأخرة بقوله: **مٰالِکِ یَوْمِ الدِّینِ** والمقصود من الیوم الوقت کما قال تعالیٰ:**فَإِنَّکَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِینَ،إِلٰی یَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ**(١)

ولیعلم أنّ مالکیّته تعالیٰ للموجودات لیست کمالکیّة غیره لأملاکه و لا کمالکّیة المملّوك لمالکه و لا کمالکیّة النّفوس لاعضائها بل کمالکیّتها لقواها و صورها العلمیّة الحاصلة الحاضرة عندها متیٰ شاءت یفني ماشاء منها و یوجد ماشاء و یمحو و یثبت و عنده أُمّ الکتاب و تخصیص مالکیّة تعالیٰ بیوم الدّین مع أنّه تعالیٰ مالك الدّنیا أیضاً للاشارة الیٰ أنّ المکلّف اذا تصوّر ذلك لابدّ أن یرجو و یخاف في الدّنیا مع إستعداده للموت و أنّه لابّد له من الورود علیٰ الحساب فینبغي أن لا یغفل في الدّنیا عن الأخرة و لازم ذلك مواظبته علیٰ أقواله و أفعاله ضرورة أنّ الإنسان اذا اعتقد بالحساب و الجزاء غداً ان خیراً فَخیرا و ان شرا فَشراً و إنّ الیوم عمل و لا حساب و غداً حساب و لا عمل و أنّه

١- الحجر = ٣٧/٣٨

يوم لا ينفع فيه مال و لا بنون الاّ من أتىٰ اللّه بقلبٍ سليم فَمن يعمل مثقال ذَرةٍ خيراً يَره ومن يَعمل مثقال ذرةٍ شراً يَره لا محالة لايتبع هَواه و لا يسلك مسلك الشّيطان و بالجملة يعمل في الدّنيا عملاً ينتفع به في الأخرة.

فعن الزهّري قال: قال علي ابن الحسين عليه السلام لو مّت بين المشرق والمغرب لَما استوحشت بعد أن يكون القرأن معي، و كان عليه السلام اذا قرأ مالك يوم الدّين يكرّرها حتّىٰ يكاد أن يموت انتهىٰ [١]

و في تفسير نور الثقلين بأسناده عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: مالك يوم الدّين إقرار له بالبعث والحساب و المجازاة و إيجاب ملك الأخرة له كإيجاب ملك الدّنيا.

و من طريق العامّة عن أبي هريرة عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال يقبض اللّه الأرض و يطوي السّماء بيمينه ثم يقول أنا الملك، أين ملوك الأرض، أين الجبّارون، أين المتكبّرون) انتهى.

و من هنا يعلم أنّ تسمية غيره تعالىٰ بالمالک أو الملِك في الدّنيا تكون على سبيل المجاز هذا.

إعلم: أنّ الآية الشّريفة حاوية لامُورٍ لا بأس في الإشارة اليها علىٰ سبيل الإجمال لأنّها توجب زيادة بصيرة في كلام اللّه تعالىٰ.

الأول: أنّه لابّد من الفَرق بين المُحسن والمُسيئ والمُطيع و العاصي و الموافق و المخالف و ذلك لايظهر الاّ في يوم الجزاء كما قال في كتابه:

قال اللّه تعالىٰ: لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [٢]

قال اللّه تعالىٰ: **أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** [٣]

١-تفسير البرهان ج ١
٢- النجم = ٣١
٣-ص = ٢٨

قال اللّٰه تعالیٰ: **إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**(١)

و أمثال ذلك من الأيات الدّالة علیٰ المدّعیٰ أعني يوم الجزاء و العَقل السّليم أيضاً يحكم به لأنّ من سَلّط الظّالم علیٰ المظلُوم ثم لا ينتقم منه فذلك إمّا للعجز أو للجهل أو لكونه راضياً بذلك الظّلم و هذه الوجوه محال علیٰ اللّه تعالیٰ: **لأنَّه عَلیٰ كُلّ شيءٍ قَدير، و هُوَ بِكُلّ شَيءٍ عَليم، وَ إِنَّهُ لَيسَ بِظَلّامٍ لِلعَبيد، وَ أِنَّهُ قال ألا لَعنَة اللّه عَلیَ الْقُوم الظّٰالِمِين.**

و من المعلوم أنّ من ليس بظالم لا يرضیٰ به أيضاً و إذا كان كذلك فلا محالة ينتقم من الظّالم بمقتضیٰ عدله و هذا الإنتقام ليس لِلتشّفي كما هو كذلك في حَقنّا بل لإجراء العَدل و انجاز الوعد و احقاق الحقّ، ثمّ أنّ هذا الإنتقام أو ما شِئّت فسمّه لا يخلو من الدّنيا و الأخرة و حيث أنّ الدّنيا ليست بدار الجزّاء بل هي مزرعة الأخرة فلا جرم يكون في عالم آخر وراء هذا العالم و لا نعني بالأخرة إلاّ هذا فقوله :**مٰالِكِ يَوْمِ الدّيـنِ** إشارة بهذه الدقيقّة العقّلية والشّرعية و ان شِئت قلت الآية تدّلنا و تهدينا الیٰ معاد و هو المطلوب.

الثّانية: يمكن أنّ يقال انّ كان الملك بمعنیٰ القدرة كما فسّرتم المالك بالقادر علیٰ التّصرف فكونه تعالیٰ مالِكاً أو مَلِكاً عبارة عن كونه قادراً و القدرة لا تخلو حالها من وجهين،.

أحدهما: تعلقها بالعدم و ثانيهما: تعلّقها بالموجود و لا ثالث في المقام و بعبارة أخریٰ إمّا أنّه تعالیٰ قادر علیٰ الموجودات قبل وجودها و هو العَدم.

أو أنّه قادر عليها بعد وجودها فأن كانت القدرة تعلّقت بالأول يلزم أن يكون متّعلق القدرة لإعدام و هو كما تریٰ و أن كانت بالثاني يلزم تحصيل الحاصل و لا فائدة فيه و الجواب عن الإشكال إنّه تعالیٰ قادر علیٰ الإيجاد و

١- طه = ١٥

الإعدام و هما أي الايجاد و الإعدام واسطتان بين الوجود والعدم فأنّ إخراج الشّيء من العدم الىٰ الوجود و بالعكس لا يقدر عليه أحد غير اللّٰه تعالىٰ هذا **أولاً.**

ثانياً: قد ثبت في العلوم العقلية أنّ الممكن كما أنّه محتاج الىٰ المؤثر في حدوثه محتاج اليه في بقائه و المقصود من الإحتياج في البقاء الإفاضات من المَبدء الىٰ المخلوق آناً فآناً اذ في صورة قطع الفيض لا يبقىٰ الموجود أصلاً و عليه فالممكن محتاج الى مؤثره حدوثاً و بقاءً و لا نعني بالقدرة إلاّ هذا.

الثالث: أنّ القدرة في المقام ناظرة الىٰ الحشر والنّشر و الحساب للثواب و العقاب و هذه الأمور مترتّبة علىٰ إحياء الموتىٰ بعد الموت و لا يقدر علىٰ الإحياء إلاّ هو، فهو تعالىٰ قادر علىٰ الإحياء أوّلاً و ثانياً و سيأتي لهذه الإصول زيادة تحقيق في الآيات الواردة في الباب إن شاء اللّٰه تعالىٰ.

اِيّاکَ نَعْبُدُ وَاِيّاکَ نَسْتَعِينُ

◁ اللّغة



كلمة اِيّا إسم مظمر عنده الخليل و سيبويه والكاف فيها حرف خطاب عند سيبويه و لا موضع لها و لا تكون إسماً لأنّها لو كانت إسماً لكانت. اِيّا مضافة اليها و المضمرات لا تضاف و أمّا عند الخليل فهي إسم مضمر اضيف أيّا اليه لأنّ اِيّا تشبه المظهر لتقدمها علىٰ الفعل و الفاعل و لطولها بكثرة حروفها و حكي عن العرب اذا بلغ الرّجل السّتين.

فأيّاه: وإيّاه الثّواب، و الكوفيون ذهبوا الىٰ أنّ.

أيّاك:بكمالها إسم و هذا بعيد لانّ هذا الإسم يختلف آخره بحسب إختلاف المتكلم و المُخاطب و الغائب فيقال، **أيّاى**، **إيّاك**، إيّاه و قال قوم الكاف إسم و أيّا عماد له و هو حرف وموضع **اِيّاکَ نَعْبُدُ**

نَعْبُدُ: فعل مضارع من، **عَبَد يعبُد، أعبُد نَعبُد** و هو مُتكلّم مع الغير مشتقّ من العبادة و هي الخضوع والتذلّل

نَسْتَعِينُ: ايضاً متكلّم مع الغير من **أستعان نستعين،** مأخوذ من **الإستعانة** و هي طلب النُّصرة والعَون، و قيل أصله **نَستعون**، من العَون فأستثقلت الكسرة علىٰ **الواو** فقُلِبت الىٰ العين ثّم قُلِبَت ياء لسكونها و إنكسار ماقبلها.

◁ الإعراب

الجمهور علىٰ كسر الهمزة و تجديد الياء و قرء شاذاً بفتح الهمزة و الأشبه ان يكون لغة مسموعة و قرء بكسر الهمزة و تخفيف الياء والوجه فيه أنّه حذف إحدىٰ اليائيين لإستثقال التّكرير في حرف العلّة و قد جاء ذلك في قول الفرزدق حيث قال :

تنظّرت نصراً والسّماكين أيّهما   علّي مع الغيث أستهلّت مواطره

و موضع **أيّاك** نصب علىٰ أنّه مفعول قدّم علىٰ فعله و هو **نَعبُد** لإفادة الحصر و فاعل الفعل مُستترٌ فيه و هو **نحن** و هكذا الكلام في قوله: **اِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** من حيث تقديم المفعول علىٰ الفعل لإفادة الحصر وسيأتى البحث فيه.

◁ المعنى

نَعْبُدُ ولا نعبُد غيرك و **نستعينك** و لا نستعين بغيرك و إنّما قلنا ذلك لانّ تقديم المفعول علىٰ الفعل يوجب حصر الفعل عليه فإذا قلنا، ضربتُ زيداً معناه وقوع الضّرب علىٰ زيد و لا ينافيه و قوعه علىٰ عمرو و بكر أيضاً لانّ المقصود هو الإعلام بكون زيد مضروباً و هو حاصل ولم يقصد المتكلّم حصر الضرب عليه و هذا بخلاف قولنا زيدا ضربت بتقديم المفعول فأنّه يشعر بكون الضّرب واقعاً علىٰ زيد فحسب اذا علمت هذا فنقول في المقام قدّم المفعول

في الموضعين علىٰ الفعل والغرض منه إفادة الحصر أي حصر العبادة في اللّه تعالىٰ أي نعبدك و لا نعبد غيرك و نستعينك و لا نستعين بغيرك، ثّم أنّ العبادة كما قيل ضرب من الشّكر و غاية فيه لانّها الخضوع بأعلىٰ مراتبه مع التعظيم بأعلىٰ مراتبه و لا يستحق إلاّ بأصول النّعم الّتي هي خلق الحياة، والقدرة و الشّهوة و من المعلوم أنّه لا يقدر عليه غير اللّه تعالىٰ و لذٰلك أختصّ سبحانه بأن يعبد و يحسن الطّاعة لغير اللّه و لا تحسن العبادة لغيره و بذلك قد ظهر لك فساد قول من قال أنّ العبادة هي الطّاعة للمعبود و ذلك لانّ الطّاعة موافقة الامر فقط و قد يكون موافقاً لأمره مُطيعاً له و لا يكون عابداً له ألاترى أنّ الإبن يوافق أمر الأب و كذلك العبد يوافق أمر مولاه و يطيعه و لا يكون عابداً له و الكفّار يعبدون الأصنام و لا يكونون مطيعين لها اذ لا يتصوّر من جهتها الأمر فالمعنىٰ في قوله تعالىٰ: **اِيّاكَ نَعْبُدُ** نعبدك و لا نعبد غيرك.

و أمّا الإستعانة في قوله: **اِيّاكَ نَسْتَعِينُ** فالمعنىٰ نستوفق و نطلب المعونة علىٰ عبادتك و علىٰ أمورنا كلّها و لا نطلب المعونة والتّوفيق من غيرك وفيه دلالة علىٰ أنّ مجاري الأمور بيده والخَلق محتاج اليه في جميع شئونه كما قيل:

أزمّة الأمور طرّاً بيده　　　والكلّ مستمدة من مَدَده

اِيّاكَ نَعْبُدُ وَاِيّاكَ نَسْتَعِينُ و فائدة التّكرير في **اِيّاكَ** قيل أنّها للتأكيد و ليس بشئ لأنّ التأكيد لا يحصل الاّ فيما اذا كان المحمول واحداً كما تقول أنا قلت، أنا قلت، أو تقول زيداً ضربت، زيداً ضربت.

و أمّا في المقام فليس المحمول واحد فأنّ **اِيّاكَ** في الأوّل محمول علىٰ **نَعْبُدُ** و في الثّاني علىٰ **نَسْتَعِينُ** و الاستعانة غير العبادة لأنّ التّفكر في عظمة اللّه مثلاً عبادة و ليس من الاستعانة بشئ و ربما يكون العبد مستعيناً باللّه في أمور لعلمِه بأنّه قادر علىٰ كلّ شئ و لا يعبده فعلىٰ هذا يكون المقصود بقولنا **اِيّاكَ**

في الأوّل غير ما نقصده في الثّاني فالقول بأنّ التّكرير للتأكيد لا معنىٰ له في المقام، و احتمل بعض المفسّرين أنّ تكراره لدفع التّوهم و هو أنّه لا يمكن التّقرب الىٰ اللّه الاّ بالجمع بين العبادة و الإستعانة و أنّ الفصل بينهما غير ممكن، فكأنه قيل له ليس الأمر كما توهّمت بل هما أعني العبادة والإستعانة شيئان كلّ واحدٍ منهما مؤثر و مقّرب الىٰ اللّه تعالىٰ وأنّ أحدهما لا يغني عن الأخر قاله الطّبرسي في مجمع البيان بتوضيحٍ منا.

و الوجه الثّالث أنّه تعليم لنا في تجديد ذكره عند كلّ حاجةٍ و هو كما ترىٰ و قد ذكروا وجوهاً كثيرة كلّها لا يرجع الىٰ محصلٍ والّذي حصل لنا في المقام هو أنّ البحث في مقامين:

تقديم الضمير علىٰ الفعل، و تكريره في الآية الشّريفة أمّا الوجه في التّقديم مضافاً الىٰ ما مرَّ سابقاً من إفادة الحصر هو أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ أصل الوجود و حقيقته و ما سواه فَيئه و ظله والاصل مقدم علىٰ الفرع فاذا قال العبد **اِيّٰاكَ نَعْبُدُ وَاِيّٰاكَ نَسْتَعِينُ** بتقديم اِيّٰاكَ علىٰ الفعل فكأنّه قدّم الخالق المعبود علىٰ نفسه في الذكر كما هو مقدم عليه في الواقع و بعبارةٍ أخرىٰ بدأ بمعبوده أولاً وبنفسه ثانياً و هذا من أدب العبد في مقام العبودية والإستعانة هذا أولاً.

أمّا ثانياً:ففي التّقديم إشارة الىٰ أنّ العبد يكون نظره الىٰ المعبود أولاً و بالذّات و منه الىٰ العبادة ثانياً و بالعرض لا من حيث أنّها عبادة بل من حيث أنّها نسبة اليه وصلة بينه و بين الحقّ.

أمّا ثالثاً: فيه إشارة الىٰ أنّ العبادة ليست مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لأجل التّقرب بها الىٰ جنابه و لذلك قدمه عليها.

و أمّا المقام الثّاني أعني تكرير اللّفظ ففيه أيضاً فوائد:

الأولىٰ: أنّ تقديم الوسيلة علىٰ طلب الحاجة أَقْرَبُ الىٰ الإجابة فكأنّ العبد يجعل عبادته وسيلة للاستعانة منه تعالىٰ و هذا المعنىٰ لا يستفاد الاّ بالتّكرير.

الثّانية : أنّ العبد لما نسب العبادة الىٰ نفسه في أوّل الكلام فقال :**إِيَّاكَ نَعْبُدُ** و هم ذلك غروراً فَعقبه بقوله: **إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ليكسر غروره و يعلم بأنّ العبادة الحقيقية لاتوجد الاّ بالإستعانة والإستمداد منه تعالىٰ و هذا أيضاً لا يحصل الاّ بالتّكرير والوجوه المحتملة في المقام كثيرة بقىٰ في الآيـة سؤال للسائل و هو أنّ المصّلي اذا قال :**إِيَّاكَ نَعْبُدُ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** فلا محالة أراد العبادة والإستعانة كما هو مقتضي الصّيغة مع أنّه حين القراءة واحد.

فحقّ الآية إيّاک أعبدُ، و إيّاک أستَعين فما وجه العدول في الصّيغة مـن الأفراد الىٰ الجمع نقول في الجواب العدُول الىٰ الجمع لوجوهٍ.

احدها: أنّه لو قال إيّاک أعبُد لكان ذلك مُوهماً للتكبّر و ذلك لأنّ معناه أنا العابد والأنانية من العَبد دليل علىٰ ضعف معرفته و إيمانه و أنّه لم يذُق طعم العبُودية واقعا أين التّراب و ربّ الأرباب و بعبارةٍ أخرىٰ هو إظهار الوجود في حضور الخالق المعبود و ليس هذا من شأن العَبد و هذا بخلاف قوله :**إِيَّاكَ نَعْبُدُ** فأنّ معناه أنّي واحدٌ من عبيدك و هو عين التّواضع الممدوح شـرعاً و عقلاً.



ثانيها: أنّ النّون في **نَعْبُدُ** و**نَسْتَعِينُ** نون الجمع فإذا قال العَبد، **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**، فكأنّه قال جميع العابدين يَعبدونك لا أنا وحدَه و من جملة العابدين الملائكة والأنبياء و الأوصياء و العُلماء فَصلٰوة المُصّلي و عبادته و إن كانت ناقصة في حدّ ذاتها ألاّ أنّها حيث تشترك صلاة الصُلحاء و هي مقبولة فصلوته أيظاً مقبولة لعدم جواز التّبعض في الصّفقة عقلاً و شرعاً ولاجل هذه الدّقيقة تكون الصّلاة مع الجماعة أفضل من غيرها لأنّ اللّه تعالىٰ مـع الجـماعة والمسـلمون يـد واحدة علىٰ من سِواهم ألا ترىٰ أنّ الرّجل إذا باع من غيره عشرة من العبيد فالمشتري أمّا أن يَقبل الكّل أو لا يقبل واحداً منها و ليس له أن يَقبل البعض دون البَعض في تلك الصّفقة و هذا معنىٰ قـولنا (لعـدم جـواز التّـبعض فـي

الصّفقة، ففي المقام أيضاً لا يليق بكرمه تعالىٰ أن يُميّز البعض عن البعض و يقبل البعض دون البَعض فأمّا أن يردّ الكلّ و هو غير جائز و أمّا أن يقبل الكلّ فصلاته مقبولة لكونها من الكلّ و هو المطلوب.

هذان الوجهان ذكرهما الرّازي في تفسيره مع توضيح منّا في عباراته و نحن نقول أمّا الوجه الأوّل فلا بأس به و أمّا الوجه الثّاني فلا و إن تلقاه بالقبول أكثر من تأخر عنه من العامّة والخاصّة بل ظنّ بعض المحققّين إنّ ما ذكره الرّازي في المقام أحسن الوجوه وأدّق الإستنباط في فهم الآية و وجه ضعفه هو أنّ قياسه في الصّفقة قياس مع الفارق فعدم جواز التّبعض فيها لا ربط له بما نحن فيه أصلاً.

به عبارةٍ أُخرىٰ نحن أيضاً نقول بعدم جواز التّبعض فيها و أمّا في المقام فنقول بجوازه بل لابّد منه و عدم التّبَعض منافٍ للعدل و الشّرع وتوضيحه إجمالاً أنّ الصّفقة الّذي صارت مبيعة لم يشترط البائع أو المُشتري فيها أن تكون صحيصة كلّها بل البيع تعلّق بالصفقة الموجودة مع مافيها من الصحيح و الفاسد و المشتري أيضاً عالم به و لذلك لايجوز له التّبعض فلو إشترط كونها صحيحة و وجد المشتري فيها جزءً فاسداً فله الأخذ بالصّحيح والردّ للفاسد و ليس للبائع أن يقول لمَ تبعضت فيها لأنّ المشتري يقول أنّما إشتريتُ منك جنساً صحيحاً و حقّ لي أن أردّ الفاسد دون الصّحيح و هو واضح فعدم تبعض الصّفقة لأجل تعلق البيع من أول الأمر الىٰ كلّ الصّفقة من حيث هي مع علم البائع و المشتري بكيفية المعاملة في الصّفقات والأمر في المقام ليس كذلك لأنّ الّله تبارك و تعالىٰ قد أخبر العبيد بواسطة الكتاب والسّنة أنّه لا يقبل العبادة صلاةً كانت أو غيرها من أيّ عبد و في أيّ حال الاّ بالتّقوىٰ فقال: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ**[1] ثم جعل لكلّ عبادةٍ شروطاً تُوجب صحّتها فاذا

١- المائده = ٢٧

فرضنا عبداً صلّىٰ مثلاً من عند نفسه و لم يراع ما قرره الشّرع فيها مثل الصّلاة في المكان المغصوب واللّباس المغصوب و غيرهما من المحذورات فصلاته باطلة قطعاً و إن صلّىٰ مع الجماعة.

بل و إن صلّىٰ مقتدياً برسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم ضرورة إشتراط الصّحة في الصّلاة حتّىٰ تكون مقبولة و لم يقل أحد أنّ شرط الصّحة كونها مع الجماعة و محصل الكلام هو أنّ العبادة لا تكون مقبولة عند اللّه الاّ بعد تحقّق شرائطها علىٰ ما قرّره الشّرع فهي عند انتفاء الشّروط لا تقبل قطعاً و عليه فلا إشكال عقلاً و شرعاً في قبول بعض العبادات دون البعض بل في فردٍ دون فرد.

و مجرد قول القائل **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** مثلاً لا يوجب صحّته صلاته و الاّ يلزم أن تكون الصّلاة من أيّ شخص كانت مقبولة لقوله: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** و عدم جواز التّبعض في الصّفقة مع أنّا نعلم أنّ الأمر ليس كذلك وكيف يقول عاقل فضلاً عن مؤمنٍ مسلم أنّ صلاة سلمان و أبى ذر و أمثالهما مقبولة و صلاة أبى سفيان و معاوية و أمثالهما من المنافقين الملحدين أيضاً مقبولة لعدم جواز التّبعض في الصّفقة.

و هل هذا الاّ من الخرافات والموهومات و كيف يقول المُسلم،انّ كرمه تعالىٰ يقتضي قبول الكلّ دون رَدّه، ألا يعلم أنّه ليس من الكرم بشيْ بل هو تعالىٰ منزّه عن نسبة هذه الأمور اليه و ليس فيه الاّ ترفيع المنافق المُعاند لِلّه و رسوله فأن لم نقُل بأنّه خروج عن طور العدالة نقول أنّه بعيد من الخالق العادل و تكذيب لأياته و أنبيائه نعوذ باللّه منه ثم أنّىٰ لا اتعَجّب من الرّازي والعَجب مِمن تلّقاه بالقبول من علماء الشيعة و لم يعلم أنّ الأمر في العبادة لو كان كما ذكره الرّازي في قياسه الىٰ الصّفقة فعلىٰ الإسلام السلام.

والحاصل أنّ للمُشتري ليس التبعيّض و لِلّه تعالىٰ التَّبعيض ثابت والقياس مع الفارق.

◁ التّفسير

عن تفسير الإمام قال الّله تعالىٰ: (قولوا ياأيّها الخلق المُنعم عليهم إيّاك نَعبد أيّها المُنعِم علينا نُطيعك مُخلَصينَ مُوحدّين مَع التذَلّل والخضُوع بلا رياء و لا سمعة).

و في رواية العامّة عن الصّادق عليه السلام: يعني لا يزيد منك غيرك و لا نعبدك بالعوض والبَدل كما يَعبدك الجاهلون بك المنيبون عنك.

عن كتاب من لا يحضره الفقيه عن الرّضا عليه السلام في حديثٍ قال عليه السلام: إيّاك نَعبُد رغبةً و تقربا الىٰ الّله تعالىٰ ذكره و إخلاص له بالعَمل دون غيره و إيّاك نستعين إستزادةً من توفيقه وعبادته و إستدامة لما أنعم الّله عليه و نَصَره انتهىٰ.

و عن الإحتجاج للطّبرسى رحمه الله في حديثٍ طويل عن النّبى صلى الله عليه وآله وسلم: انه قال لأصحابه قولوا إيّاكَ نَعْبُدُ أي واحداً لا نقول كما قالت الدّهرية أنّ الأشياء لابَد و لها و هي دائمة و لا كما قال الثّنوية الّذين قالوا أنّ النّور والظّلمة هما المدّبران.

و لا كما قال مشركوا العَرب أنّ أوثاننا ألهة، فلا نشرك به شيئاً ولا ندعو من دونك أنّها كما يقول هؤلاء الكفّار و لا نقول كما تقول اليهود والنّصارىٰ أنّ لك ولداً تعاليت عن ذلك عُلّواً كَبيراً.

و من طريق العامّة علىٰ ما ذكره أبو جعفر الطّبري في تفسيره بأسناده عن عبد الّله ابن عبّاس قال: قال جبرئيل لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم قل يامحّمد إيّاك نَعبُد إيّاك نُوحّد و نخاف و نَرجُو ياربّنا لا غيرك انتهىٰ.

و قال في إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ و إيّاك ربّنا نستعين علىٰ عبادتنا إيّاك و طاعتنا لك و في امورنا كلّها لا أحد سواك اذ كان من يكفر بك يستعين في أموره معبوده الّذي يعبده من الأوثان دونك و نحن بك نَستعين في جميع أمورنا مُخلصين لك العبادة.

ثمّ رَوىٰ عن عبد اللّه ابن عبّاس أنّه قال إيّاك نَستعين علىٰ طاعتك و علىٰ أمورنا كلّها اللّهم إجعلنا من العابدين والمستعينين ولا تجعَلنا من الغافلين المعرضين بحقّ أوليائك المقرّبين آمين ربّ العالمين.

اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ

◁ اللّغة

اِهْدِنَا: بكسر الألف فعل أمرٍ من هَدىٰ يَهدي والفاعل مستتر فيه وكلمة نا مفعول للفعل.

الصِّرٰاطَ: أصله السَّراط بالسّين المُهملة لأنّه من سرط الشّيء إذا بلعه و سُمّي الطّريق سراطاً لجريان النّاس فيه كجريان الشيّ المبتلع فمن قرأه بالسّين جاء به على الأصل و من قرأه بالصّاد قلَّب السّين صاداً لتجانس الطّاد في الأطباق و من قرأ، بالزّاي قلَّب السّين زاياً لأنّ الزّاي و السّين من حروف التّصغير و الزّاي أشبه بالطاء لأنّهما مجهورتان.

الْمُسْتَقِيمَ: اصله المستقوم و هو إسم فاعل من إستقام يستقيم و أصله إستقوم يستقْوم ثّم عمل فيه ما ذكرنا في نستعين من كون الكثرة ثقيلة علىٰ الواو فنُقلت الىٰ العين ثّم قُلبَت ياءً لسكونها و إنكسار ما قبلها،

والمُستَفعل هنا بمعنىٰ الفعيل أيّ السّراط القويم ويجوز أن يكون بمعنىٰ القائم أي الثابت.

◁ الإعراب

اِهْدِنَا لفظه أمر والأمر مبنّي علىٰ السّكون عند البصريّين و معرّب عند الكوفيّين فحذف اليّاء عند البصريّين علامة السّكون الّذي هو بناء.

و هو عند الكوفيّين علامة الجزّم و هدىٰ يتعدّىٰ الىٰ مفعول بنفسه فأمّا

تعدّيه الىٰ مفعولٍ آخر فقد جاء متعدّياً اليه بنفسه و منه هذه الآية و قد جاء مُتعدّياً **بإلىٰ** كقوله تعالىٰ: **هَدىٰنِى رَبّىٓ إِلىٰ صِراٰطٍ مُسْتَقِيمٍ**[۱].

و باللاّم كقوله تعالىٰ: **اَلَّذِي هَدىٰنا لِهٰذا** و عليه فكلمة **نـا** مفعوله الأوّل و **الصِّراٰطَ** مفعوله الثّاني و موضع المفعول النَّصب.

◁ المعنىٰ

ذكروا في معنىٰ **اِهْدِنَا** وجوهاً:

أحدها: التَّثبيت أي ثبتّنا علىٰ الدّين الحّق و ذلك لأنّ الإنسان قد يـزّل و يخطئ و ترد عليه الخواطر الفاسدة فيحسن أن يسأل اللّه تعالىٰ أن يثبته علىٰ دينه و يديمه عليه و يعطيه زيادات الهدىٰ الّتي هي أحد أسباب الثّبات علىٰ الدّين كما قال تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ اَهْتَدَوْا زاٰدَهُمْ هُدًى**[۲].

ثانيها: الثّواب لقوله تعالىٰ: **يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمٰانِهِمْ**[۳] و صار معناه، اِهْدنَا الىٰ طريق الجنّة ثواباً و يؤيده قوله تعالىٰ: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي هَدىٰنا لِهٰذا**[۴]

ثالثها: الدّين الحّق أيّ **اِهْدنَا** و إرشدنا الىٰ الدّين الحقّ في مُستَقبل عُمرنا كما دَلَّتنا عليه في الماضي و هذه الوجوه نقلتها من مجمع البيان.

ذكر بعض المحققّين في المقام إنّ العبد في جميع اموره مُحتاج الىٰ الهداية آناً فآناً و لحظة فَلحظة فإدامة الهداية هي هداية أُخرىٰ بعد الهداية الأولىٰ فتفسير الهداية بأدامتها ليس خروجاً عن ظاهر اللّفظ انتهىٰ.

أنا أقول: ما ذكره ﴿قدس سره﴾ مشعر بأنّه فَسرّ الهداية في قولنا **اِهْدِنَا الصِّراٰطَ الْمُسْتَقِيمَ** بأدامة الهداية أي أدِم لنا الهداية فيما بَقىٰ من عُمرنا و هذا أمرٌ معقولٌ مشروع لا بأس به ولكن حقّ المعنىٰ في هذه الآية يستدّعي التّكلم فيها بوجه ابسط و هو لايتّم إلاّ في فصلين:

۱- الانعام = ۱۶۱
۲- المحمد = ۱۷
۳- يونس = ۹
۴- اعراف = ۴۳

الفصل الأوّل: في معنىٰ الهداية. **والفصل الثّاني**: في معنىٰ الصّراط.

أمّا البحث في الفصل الأوّل: فنقول **الهداية** في أصل اللّغة الإرشاد الىٰ الخير و هو علىٰ قسمين:

ارائة الطّريق، والإيصال الىٰ المطلوب و قد جاءت الهداية في القرآن بكلا المعنيّين:

فمن الأوّل: قوله تعالىٰ: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[١]

ومن الثّاني: قوله تعالىٰ: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ**[٢]

ذَهَب أكثَر عُلماء الأَدَب الىٰ أنّ الهِداية إذًا تعدّتَ **بإِالىٰ** فهيَ بمعنىٰ ارائة الطّريق.

كقوله تعالىٰ: **وإِنَّكَ لِتَهْدِي الىٰ صراطٍ مُستَقيم)** وإنّ تعدّت الىٰ المفعول الثّاني بنفسها فهي بمعنىٰ الإيصال الىٰ المطلوب كقوله تعالىٰ: **وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**[٣] والفرق بين ارائة الطّريق والإيصال الىٰ المطلوب واضح فأنّ الأوّل عبارة عن مجرّد الإرشاد الىٰ الخير سواء وصَلَ الىٰ مقصده أم لا.

و في الثّاني الإرشاد الموصل الىٰ المطلوب فالأوّل ارشاد مُطلق و الثّاني مقيّد بالإيصال و قد أنكَرَ هدا التفصيل صاحب تفسير الميزان و حاصل كلامه أنّه لا يتفاوت معنىٰ الهداية بإختلاف التّعدية و ذلك لأنّ النفي أعني نفي الايصال الىٰ المطلوب في صورة تعدّيتها الىٰ المفعول الثّاني بنفسها نفيٌ لحقيقة الهداية الّتي هي قائمة باللّه لا نفي الهداية مُطلقا.

ثمّ قال و بعبارةٍ أُخرىٰ هو نفي الكمال دون نفي الحقيقة مضافاً الىٰ أنّه مَنقُوص بقوله تعالىٰ حكايةً عن مؤمن آل فرعون: **يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ**[٤] انتهىٰ.

١- الانسان = ٣
٢- القصص = ٥٦
٣- الانعام = ٨٧
٤- الغافر = ٣٨

يعني أنّ الهداية في هذه الآية تعّدت الىٰ المفعول الثّاني بنفسها و مع ذلك ليس بمعنىٰ الإيصال الىٰ المطلوب بل هي فيها بمعنىٰ إراءة الطّريق قطعاً.

ثمّ قال و بالجملة فالهداية هي الدّلالة و اراءة الغاية باراءة الطّريق و هي نحو إيصالٍ الىٰ المطلوب و أنّما تكون من اللّه سبحانه و سنته سنّة الأسباب بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب و يتحقّق به وصول العبد الىٰ غايته في سيره و قد بَيَّنه اللّه سُبحانه بقوله: **فَمَنْ يُرِدِ ٱللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلٰامِ** [1] انتهىٰ.

أقول: تطويل الكلام في هذا الباب لا فائدة فيه علماً و عملاً و ذلك لأنّ أصل الهداية ممّا لا خلاف فيها و أمّا أنّها بمعنىٰ إراءة الطّريق أو إيصال الىٰ المطلوب فهو أمرٌ لا يهّمنا البحث فيه بعد وضوح أصل الّلغة و من المعلوم أنّ الهداية من الّله و رسُوله و لكن يَنبغي أن يُعلم أنّ الهداية من الرّسول تَشْريعي محّض و أمّا الهداية من الّله فهي علىٰ قسمين: تشّريعي و تكّوينى.

أمّا أنّها من الرّسول تشّريعي محض فلأنّ الرّسول مأمور بـتَبليغ الأحكـام التَّشريعية الىٰ الخَـلق مـن صـلٰوةٍ و صـومٍ و حـجٍّ و غـيرها مـن العـبادات و المعاملات و الاخلاق و هو واضح:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱدْعُ إِلٰى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلٰى هُدًى مُسْتَقِيمٍ** [2]

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَ دِينِ ٱلْـحَقِّ لِـيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ** [3]

و أمّا بالنّسبة اليه تعالىٰ فتارة تكون تكوينيّة و أخرىٰ تَشريعية.

والأولىٰ تَضّم المَوجُودات كلّها لأنّ الهداية بهذا المعنىٰ عبارة عن الغَريزة والجبّلة والطبيعة و حيث نرىٰ أنّ كلّ موجودٍ من الموجودات لا يتخطىٰ عن قانون الطبيعة بل لا يشتبه الأمر عليه أصلاً في طول حياته نستكشف منه أنّ

١-الإنعام= ١٢٥

٢- الحجّ =٦٧

٣- الصّف= ٩

الّله تبارك و تعالىٰ لمّا خَلق الموجود أودع في طَبعه و ذاته ما يوجب إيصاله الىٰ كماله و أهدافه و لا يَنحرف عن مسيره الطبيعي أبداً و نعبّر عنه بالهداية التكوينيّة ولأجل أنّ الهداية مودّعة في طبعه و ذاته فهو فيها لا يحتاج الىٰ غيره.

و أمّا الهداية الثّانية أعني التّشريعي فهي مخصوصه بالمكلّف البالغ العاقل و هو الإنسان فقط و لذلك أرسل الرّسُل و أنزَل الكتب و شرع الدّين ليستفيد الإنسان بواسطة النّبي منها و لولا الهداية بهذا المعنىٰ لم تكن فائدة في بعث الرّسول و جعل الأحكام:

قال الّله تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا بِالْبَيِّنٰاتِ وَ أَنْزَلْنٰا مَعَهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْمِيزٰانَ لِيَقُومَ ٱلنّٰاسُ بِالْقِسْطِ**(١).

قال الّله تعالىٰ: **الٓرٰ كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنّٰاسَ مِنَ ٱلظُّلُمٰاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلٰى صِرٰاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ**(٢).

فالهداية التكوينيّة لا واسطة بين الخالق والمَخلوق في إيصالها اليه بل جعلها الّله في خَلقه بدون واسطة النّبي و هذا بخلاف التشريعي اذ لابّد لها من الواسطة اذا عرفت هذا فنقول فائدة الهدايّة بحسب التكوين ترجع الىٰ جسم الموجود و أن شئت قلت توجب إيصال الجسم بكماله الطّبيعي و فائدة الهّداية بحسب التشريع ترجع الىٰ الرّوح لأنّها توجب إيصاله الىٰ الكمال المَعنوي والإنسان يشترك غيره من الموجودات في التكوّيني و يختصّ من بينها بالتّشريعي فهو جامع بينهما و يستفيد منهما ثّم أنّ الّله تعالىٰ فوضّ أمر التّشريعي الىٰ الأنبياء والأوصياء و من يحذو حذوهم و جَعل التّكويني لِذاتّه ولم يشرك فيه أحد و حيث أنّ الإنسان في الوصول الىٰ كماله الرّوُحي محتاج الىٰ الهداية آنّاً فآنّاً فلا مُحالة تطلبها مِن خالِقه و يقول **إهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقيمَ**.



١- الحديد = ٢٤
٢- ابراهيم = ١

أمّا البحث في الفصل الثّانى: أعني به المُراد من **الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ** فنقول قد مرّ معنىٰ **الصِّرٰاطَ** بحسب اللّغة و أنّ الأصل فيه السّراط **بالسّين**.

قال الرّاغب في المُفردات، **الصِّرٰاطَ** الطّريق المُستهل أصله من سَرطت الطّعام و زردتُه، ابتلعته ثّم قال وكذا سُمّي الطّريق اللّقم والملتقم إعتباراً بأنّ سالكه يلتقمه إنتهىٰ.

فالصِّرٰاط عبارة عن الطّريق والمُراد من الطّريق طريق الدّين لا طريق الدّنيا أو المُراد به الطّريقان معاً و وصفه بالمسقيم لأنّ الصِّراط قد لا يكون مستقيماً و إذا كان كذلك فهو غير مطلوب للسالِك الى اللّه و هذا بخلاف المُستقيم منه فأنّه يوصل السّالك الىٰ المطلوب قطعاً و مع ذلك هو أقصر من غيره والسِّر فيه هو أنّ الخطّ المُستقيم اقصر خطٍّ بين النقطتين المبدء والمُنتهىٰ من حيث المسافة و طول الخّط و هو واضح لا خفاء فيه و هكذا الأمر في طريق الدّين و قد قيل أنّ طريق الحّق لا يكون إلاّ مُستقيماً.

قال اللّه تعالىٰ :**وَ هٰذاٰ صِراٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا**(١)

قال اللّه تعالىٰ :**وَ أَنَّ هٰذاٰ صِراٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ** (٢)

قال اللّه تعالىٰ :**وَ يَهْدِيهِم إِلَيْهِ صِراٰطًا مُسْتَقِيمًا**(٣) وأمثالها من الأيات.

بل لا ترىٰ في القرآن صراطاًيوصف بكونه غير مُستقيم لأنّ صراط الحّق لا يكون إلاّ كذلك واليه أشار الشّبستري في مدح رسول اللّه حيث قال :

چه كرد او بر صراط حق اقامت　　　بأمرنا مُستقيم ميداشت قامَت

و فيه إشارة الىٰ قوله تعالىٰ مُخاطباً لرسوله (**فأستقم كما أُمِرت**).

و قال رسول اللّه ﷺ شيبتّني سورة هود لِمكان هذه الآية ويظهر منه أنّ الوصول الىٰ الحّق و ان كان مُشكلاً إلاّ أنّ الثّبات أشكل و هذا هو السّر في

١- الأنعام= ١٢٤
٢- الأنعام= ١٥٣
٣- النّساء= ١٧٥

طلب المكلّف الهداية من اللّه تعالىٰ لحظةً فلحظة و في كلّ آنٍ.

فأنّ الإنسان كما أنّه في بقائه من حيث الوجود محتاج الىٰ المؤثر بمعنىٰ أنّه لابّد من الإفاضة من مبدأ الفيّاض علىٰ المستفيض في كلّ الآنات كذلك في بقائه علىٰ الهداية محتاج الىٰ توجه الحقّ و قد ورد في الدّعاء: اللّهم لاتكلنا الىٰ أنفسنا طرفة عين أبداً.

فاذا قال الانسان **اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ** طلب من خالقه الهَداية و الإرشاد الىٰ الطّريق المستقيم الّذي لا عوج فيه و تكرار الطّلب في كلّ يومٍ و ليلة في الحقيقة لأجل التّثَبت علىٰ الحقّ بعونه تعالىٰ و مَدَده فالإنسان محتاج الىٰ الرّب في حدوث الهداية و بقائها و هو المطلوب.

◁ التّفسير

عن كتاب من لايحضره الفقيه بأسناده عن الرّضا عليه‌السلام قال: اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ إسترشاد لدينه وإعتصامٌ بحبله، وإستزادة في المعرفة لِرّبه عزّ وجلّ ولِعَظمته و كبريائه انتهىٰ.

و في مجمع البيان قال رسول اللّه ۶: إنّ اللّه مَنَّ عَلَّي بفاتحة الكتاب الىٰ قوله اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صراط الأنبياء و هم الّذين أنعم اللّه عليهم) انتهىٰ.

و في تفسير علّي ابن إبراهيم في المُوّثق عن أبي عبد الّله عليه‌السلام اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ قال عليه‌السلام الطّريق و معرفة الإمام و عنه عليه‌السلام قال والّله نحن الصّراط المستقيم.

و في كتاب معاني الأخبار بأسناده الىٰ أبي عبد اللّه عليه‌السلام: فى قول اللّه عزّ وجلّ اِهْدِنَا الصِّرٰاطَ الْمُسْتَقِيمَ قال: هو أمير المؤمنين و معرفته والدّليل علىٰ أنّه أميرالمؤمنين قول اللّه عزّ وجلّ: وَ إِنَّهُ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ

حَكيمٌ[١] و هو أميرالمؤمنين في أمّ الكتاب في قوله: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.

و بأسناده الىٰ المُفضّل بن عمر قال سألت أبا عبد الّله عليه السلام عن الصّراط فقال هو الطّريق الىٰ معرفة الّله و هما صراطان، صراطٌ في الدّنيا و صراط في الأخرة.

فأمّا الصّراط في الدّنيا فهو الإمام المفترض الطّاعة من عرفه في الدّنيا و اقتدىٰ بهداه مرَّ علىٰ الصّراط الّذي هو جسر جهنم في الأخرة و من لم يعرفه في الدّنيا زلّت قَدَمه عن الصّراط في الأخرة فَتردىٰ في نار جهنم انتهىٰ.

في تفسير علّي ابن إبراهيم بأسناده الىٰ جعفر ابن غياث قال وَصف أبو عبد الّله عليه السلام الصّراط فقال ألف سنّة صُعود و ألف سنّة هبوط و ألف سنة حذاك انتهىٰ.

و بالأسناد عن موسىٰ ابن جعفر عليه السلام عن أبائه عن علّي ابن أبي طالب عليه السلام في قوله: اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ قال عليه السلام: أدِم لنا تَوفيقك الّذي به أطعناك فيما مضىٰ من أيّامنا حتّىٰ نطيعك كذلك في المستقبل من أعمارنا والصّراط المستقيم هو صراطان: صراطٌ في الدّنيا و صراطٌ في الأخرة.

فأمّا الطّريق المستقيم في الدّنيا فهو ماقصر عن الغلّو و إرتفع عن التّقصير و إستقام فلم يَعدل الىٰ شئٍ من الباطل.

و أمّا الطّريق الأخرة طريق المؤمنين الىٰ الجنّة الّذي هو مستقيم لا يعدلون عن الجنّة الىٰ النّار و لا الىٰ غير النّار سوىٰ الجنّة.

قال: و قال جعفر ابن محمّد الصّادق في تفسير الأية: أيّ إرشدنا الىٰ الصّراط المستقيم، إرشدنا لِلزوم الطّريق المؤدي الىٰ محبّتك و المبلغ

١- الزخرف = ۴

دينك و المانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب أو نأخذ بأراءنا فَنهلك انتهىٰ.

و بأسناده عن علّي ابن الحسين عليهما السلام قال: (نحن أبواب الّله ونحن الصّراط المستقيم).

و بأسناده عن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا علّي اذا كان يوم القيامة أقعد أنا و انت و جبرائيل علىٰ الصّراط فَلم يَجز أحد الاّ من كان معه كتاب فيه برائة بولايتك.

و في أصول الكافي الىٰ أبي جعفر عليه السلام قال: أوحىٰ الّله الىٰ نبّيه صلى الله عليه وآله وسلم و استمسك بالّذي أوحي اليك أنّك علىٰ صراطٍ مستقيم قال أنّك علىٰ ولاية علّي و علّى هو الصّراط المستقيم.

و بأسناده عن محمّد ابن الفُضيل عن أبي الحسن الماضي قال: قلت له عليه السلام أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[١] قال عليه السلام أنّ الّله ضَرب مثل من حاد عن ولاية علّي كمَثل من يمشي علىٰ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وجهه لا يهتدي لأمره وجَعل من تَبعه سَوّياً علىٰ صراطٍ مستقيم والصّراط المستقيم أمير المؤمنين انتهىٰ.

و الأحاديث كلّها نقلناها عن تفسير نور الثقلين[٢].

وفي كتاب غاية المرام بأسناده عن أبي عبد الّله عليه السلام قال سألته عن قوله تعالىٰ: وَ أَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ قال عليه السلام هو والّله علّيٌ هو والّله الميزان والصّراط انتهىٰ[٣].

و فيه بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الّله عزّ وجلّ لنبيه: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ[٤] إنّك لتأمر بولاية علّي أمير المؤمنين و تدعو لها و علّيٌ هو الصّراط المستقيم ،صراط الّله يعني علّياً، له ما في السّموات

١- الملک = ٢٢
٢- نور الثّقلين ج ١ ص ٢٠ الىٰ ص ٢٢
٣- نور الثقلين ص ٢٤٦
٤- الشورى = ٥٢

و ما في الأرض يعني عليا أنّه جعَله خازناً علىٰ ما في السّموات و ما فى الأرض وائتمنه عليه ألا الىٰ اللّه تصير الأمور انتهىٰ[1].

أقول: الأحاديث من طرفنا كثيرة جدّاً كلّها تشير الىٰ أمرٍ واحد وهو أنّ الصّراط المستقيم، المراد به أمير المؤمنين و أولاده أئمة المعصومين.

و قد ذكر صاحب غاية المرام أربعةً و عشرين حديثاً بين مفصّلٍ و مختصرٍ إن شئت الإطّلاع عليها فعليك بكتاب غاية المرام و أمثاله من المّطولات و قد ذكر فيه أيضاً من طريق العامّة ثلاثة أحاديث في إثبات المّدعىٰ لَم أتعرّض لِنقلها مُراعاةً لِلإختصار

و أمّا ما ذهب اليه أهل السّنة في تفسير الآية من أنّ المراد **بالصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ الإسلام** أو الجنّة أو الإيمان أوكتاب الّله و أمثال ذلك ممّا ذكروه في كتبهم و تفاسيرهم فنحن لا ننكُر بل نقول به الاّ أنّ البحث في الطّريق لا في المَقصد والمطلوب.

و كيف يقول عاقل فضلاً عمّن يدعي الفضل أنّ الطّريق المستقيم هو الإيمان، و الجنّة و الكتاب و أمثالها و لا يعلم أنّ الطّريق المستقيم هو الّذي يؤصلنا الىٰ هذه المقاصد.

اذ كلّ طالبٍ يعلم مطلوبه و أنّما يَتفحّص عن الطّريق المستقيم الّذي يوصله اليه فلو كان الطّريق الىٰ المقصد نفس المقصَد لدار و هو كما ترىٰ و عليه فأهل الحقّ يقولون بأنّ الطّريق المستقيم المؤدي الىٰ المطلوب هو التّمسك بولاية علّي والائمة عليهم السّلام إن قلت المقصود التّقَرُب الىٰ الّله تعالىٰ والإيمان والإسلام والكتاب من الأسباب المؤدية اليه، قلت فهم الكتاب و درك حقيقة الإيمان لايمكن لأحد من النّاس الاّ عن طريق أهل البيت الّذين طهرهم الّله عن الأرجاس و جعلهم من الرّاسخين في العلم والشّاك فيه مُعاند



١- نور الثقلين ص ٢٤٦

و تفصيل الكلام في هذا الباب موكولٌ الىٰ محلّه و لنعم ما قيل في علّي عليه السلام:

ولا يُنجي من الرّحمٰن شيءٌ ومن هول القيامة والحساب
ومن نارٍ تلّهب في جحيم سوىٰ حبّ الإمام أبي ترابٍ
شفيع الخلق في يوم التّلاق هو المنعوت في أيّ الكتاب

و قال ابن حمّاد:

يا أية الّله التي قدرها ليس له في الخلق من قادرٍ
ويا صراطاً لم يجزه سوىٰ كلّ تقي مؤمنٍ صابر
و يا حجاباً ليس من غيره الىٰ إلٰه العرش من صائرٍ
لا يغفر الّله لمن لم تكن له غداة البعث بالغافر

و قال الحميري:

ولدىٰ الصّراط ترىٰ علّياً واقفاً يدعو اليه ولّيه المَنصورا
اللّه أعطىٰ ذا علّيا كلّه وعطاء ربّي لم يكن مَحظورا

و قال ابن شهر آشوب:

أنّي وجبرئيل و أنّك ياأخي يوم الحساب وذو الجلال يراني
لَعلىٰ الصّراط فلا مجاز بجائزٍ الاّ لِمن من ذي الجلال أتاني
ببراءةٍ فيها ولايتك التّي ينجو بها من ناره الثّقلانِ

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ**[1] وستقف انّ شاء اللّه في تضاعيف الكتاب من فضائله ومناقبه المستفاد من الأيات ما يكفيك ويُغنيك.

وأنّي لأرجو ياإلهي سلامةً بعفوك من نارٍ تلّظىٰ همومها
أبا حسنٍ لو كان حبّك مُدخلي جهنّم كان الفوز عندي جحيمها
وكيف يخاف النّار من كان مُؤمناً بأنّ أمير المؤمنين قسيمها

والحمد لِلّه ربّ العالمين.

١- محمد= ١٤

صِراطَ الَّذِينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضّالِّينَ

◁ اللّغة

صِراطَ: بكسر الصاد قد مضىٰ الكلام فيه في الآية الشريفة السّابقة،
الَّذِينَ: جمع والّذي، وهو إسم موصول.
اَنْعَمْتَ: بِفَتح الألف فعل ماضٍ من أَنعَم يُنعِم إنعاماً، والإنعام الإحسان بإعطاء النّعمة.
عَلَيْهِمْ: علىٰ من حروف الجارة و هُم،ضمير جمع يرجع الىٰ الّذين وكلمة غير، لِلإستثناء.
والْمَغْضُوبِ: إسم مفعول من غضب يغضب.
وَلاَ الضّالِّينَ: كلمة لالِلنّفي والضّالِّينَ جمع ضّال و هو إسم فاعل من ضَلّ يَضّل بمعنىٰ العدُول عن الطّريق المستقيم و يضّاده الهداية و قد يقال الضَلال لكلّ عدولِ عن المنهج عَمداً كان أو سَهواً قليلاً كان أو كثيراً فأنّ الطّريق المستقيم ولضح.

◁ الإعراب

صِراط مضاف الىٰ الَّذِينَ و محّل الصّراط النّصب لأنّه بدل من الصّراط الأوّل أعني قوله تعالىٰ :صِراطَ الَّذِينَ و لذلك قُرأ بفتح الطّاء اذ البدل في حكم الميدل منه اَنْعَمْتَ صلّة، الّذين، والعائد عليه في عَلَيْهِمْ و الألف و اللّام في الّذي زائدتان و تعريفها بالصّلة والأصل في الَّذِينَ اللّذيون، لأنّ واحدة الّذي، الاّ أنّ ياء الجمع حذفت ياءالأصل لئلا يجتمع ساكنان.

والَّذِينَ بالياء في كلّ حال لأنّه إسم مَبني و من العرب من يجعله في الرّفع بالواو و في الجرّ والنّصب بالياء كما جعلوا تثنية بالألف في الرّفع والياء في الجرّ والنّصب و في الّذي خمس لغات:

أحدها: الّذي بلام مفتوحة من غير لام التّعريف و قد قرأ به شاذاً.

الثانية: الّذى بسكون الياء.

الثالثة: بحذفها و إبقاء كسرة الذّال.

الرّابعة: حذف الياء و إسكان الذّال.

الخامسة: به ياء مشّددة **غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** بالجرّ و فيه ثلاثة أوجه:

أحدها : أنّه بَدلٌ من الَّذِينَ.

الثاني: أنّه بَدلٌ من الهاء و الميم في **عَلَيْهِمْ**.

الثالث: أنّه صفة للّذين فأن قُلت الّذين معرفة، و غير، لا يتّعرف بالأضافة فهو نكرة فلا يصحّ أن يكون صفة له قلت أجابوا عنه بوجهين:

أحهدهما: أنّ غير، اذا وقعت بين متضّادتين وكانا معرفتين تَعرّفت بالأضافة كقولك حجبت من الحركة غير السّكون وكذلك الأمر هنا لأنّ المنعم عليه والمغضوب عليه متضّادتان معرفتان.

الثّاني: أنّ الّذين قريب من النكّرة لأنّه لم يقصد به قوماً بأعيانهم و **غَيْرِالْمَغْضُوبِ** قريبة من المعرفة بالتخصّيص الحاصل من الأضافة فكلّ واحدٍ منهما فيه إبهام من وجهٍ و اختصاص من وجهٍ و قرأ (غير) بالنّصب أيضاً بناءً علىٰ أنّه حال من **هم** و العامل فيها،**اَنْعَمْتَ** أو أنّه حال من الّذين، لأنّه مضاف اليه و يمكن أن يكون منصوباً علىٰ الإستثناء من الّذين، أو من هم.

الثالث: أنّه منصوب بإضمار **أعنى** و **الْمَغْضُوبِ** مفعول من غضب عليه و هو لازم و القائم مقام الفاعل هو **عَلَيْهِمْ** والتّقدير غير الفريق المغضوب و لا ضمير في المغضوب لقيام الجار و المجرور مقام الفاعل و لذلك لم يجمع فيقال غير المغضوبين عليهم لأنّ إسم الفاعل والمفعول اذا عمل فيما بعد لم يُجمع جمع السّلامة و هو مجرور باضافة الغير اليه.

وَلاَ الضّآلِّينَ كلمة لا زائدة عند البصريّين للتّوكيد و عند الكوفيّين بمعنىٰ

غير، والجمهور علىٰ ترك الهَمز في **الضّآلّين** و قرأ بهمزة مفتوحة و هي لغة فاشية في العَرب في كلّ ألف وقع بعدها حرف مشّدد نحو، ضالّ، و دابّة، والعلّة أنّه قلّب الألف همزة لتُصّح حَركتها ولئلا يجمع بين ساكنين و محلّها الجرّ لأنّه معطوف علىٰ المغضوب عليهم فكأنّه قيل و غير الضّالين.

◁ المعنىٰ

إعلم أنّ الآية في الحقيقة بيان و توضيح للأية السّابقة و هي قوله تعالىٰ: **اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** فكأنّه سئِل و ما الصِّراط المستقيم، فقيل صراط الّذين أنعمتُ الآية أي إهدنا صِراط من أنعمت عليهم بطاعتك كما قال الّله تعالىٰ: **وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ فَأُولٰـئِكَ مَـعَ اَلَّـذِينَ أَنْـعَمَ اَللّٰـهُ عَـلَيْهِمْ مِـنَ اَلنَّـبِيِّنَ وَ اَلصِّدِّيقِينَ وَ اَلشُّهَدٰآءِ وَ اَلصّٰالِحِينَ**[1].

غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ يعني غير اليهود عند جميع المفسّرين وإستدلوا عليه بقوله تعالىٰ: **مَنْ لَعَنَهُ اَللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ اَلْقِرَدَةَ وَ اَلْخَنٰازِيرَ**[2]

و هؤلاء هم اليهود **وَلاَ الضّآلِّينَ** قالوا يعني النّصارىٰ بدليل قوله تعالىٰ: **وَ لا تَتَّبِعُوٓا أَهْوٰآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوٰآءِ اَلسَّبِيلِ**[3]

و قيل المراد بغير المغضوب عليهم و لا الضّالين جميع الكّفار من اليهود والنّصارىٰ و غيرهما من أصناف الكفّار و أنّما ذكروا بالصِّفتين لإختلاف الفائدتين نقل هذين القولين صاحب مجمع البيان.

ثم نقل قولاً ثالثاً عن عبد القاهر الجرجاني و حاصل ما نقل عنه هو أنّه قال حقّ الّلفظ أن يكون خَرج مَخرج الجنس كما تقول نعوذ بالّله أن يكون حالنا حال **الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** و لا تقصد به قوماً خاصّاً بأعيانهم الىٰ أخر ما قال.

١- النساء = ٦٩ ٢- المائدة = ٥٩

٣- المائدة= ٧٧

أقول كلام الجرجاني لا بأس به و عليه فذكر اليهود والنّصارىٰ لكوهما مصداقين كاملين للأية و هو لا ينافي دخول غيرهما من أصناف الكفّار فيها.

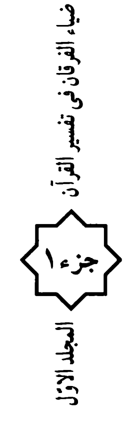
و أمّا الغضب منه تعالىٰ فقد قال صاحب المجمع في المقام ما لفظه.

و أمّا الغضب من اللّه فهو ارادته إنزال العقاب المستحّق بهم ولعنهم و براءته منهم و أصل الغَضب الشّدة و منه الغضبة و هي الصخّرة الصّلبة الشدّيدة المركبة في الجَبل والغضوب الحيّة الخشبية والنّاقة العبوس و أصل الضّلال الهلاك و منه قوله تعالىٰ: **(أءِذا ضَللنا في الأرض)** أي أهلكنا ومنه قوله: **(وأضّل أعمالهم)** أي أهلَكها والضّلال في الدّين الذّهاب عن الحقّ و أنّما لم يقل الَّذين غضبت عليهم مراعاة للأدَب في الخطاب وإختيار الحَسَن الّلفظ المستطاب انتهىٰ.

و قال المحقّق الفيض ﷺ **في الصّافي بعد نقله ما نقلناه في معنىٰ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضّالّينَ نقلاً عن تفسير الإمام ما لفظه ثم قال أمير المؤمنين** عليه السلام**: (كلّ من كَفَر باللّه فهو مغضوب عليه وضّال عن سبيل اللّه.**

وفي المعاني عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم**: الَّذينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ شيعة علّيٍ يعني أنعَمت عليهم بولاية علّي ابن أبي طالب لم تَغضب عليهم ولم تضلّوا.**

و عن الصّادق عليه السلام**: يعني محمّداً وذُرّيته الىٰ أن قال** ﷺ **أقول و يدخل في صراط المنعم عليهم كلّ وسَط و استقامة في إعتقاد أو عَمل فهُم الّذين قالوا ربّنا اللّه ثمّ إستقاموا، و في صِراط المَغضوب عليهم كلّ تفريط و تَقصير و لا سيّما اذا كان عن علمٍ كما فعلت اليهُود بموسىٰ و عِيسىٰ و محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم **و في صِراط الضّالين كلّ إفراط و غلّو و لا سيّما اذا كان عن جهلٍ كما فعلت النّصارىٰ بعيسىٰ**



و ذلك لأنّ الغضب يلزمه البعد والطّرد و المقصر هو المدبر المُعرض فهو البعيد الضّلال هو الغيبة عن المقصود والمُفرط هو المقبل المجاوز فهو الّذي غاب عنه المطلوب انتهىٰ. ماذكره ﷺ في معنىٰ الآية وتَفسيرها.

و يظهر منه أنّه لا وجه لإختصاص الآية باليهود والنّصارىٰ بل هي عامّة لكلّ من كَفَر و خالَفَ الحقّ و أنّ المراد، بالمُنعَم عليهم، كلّ من كان مُعتدلاً في الإعتقاد والعَمل.

ثّم أنّ الّذي ذكرناه و نقلناه عن المجمع والصّافي في معنىٰ المغضُوب عليهم والضّالين هُوَ المُعتَمد عند مُفَسِّري الشّيعة مِمّن تقدم منهما أو تأخر فأنّهم قدّس اللّه أسرارهم فسرواكتاب اللّه وأخذُوا تفسيره عن أهل البيت و أمّا أهل السّنة فقد إتّفقوا في تفاسيرهم علىٰ أنّ المُراد بالمغضُوب عليهم اليهُود، و بالضّالين النّصارىٰ. نقل الألوسي في تفسيره عن ابن أبي حاتم أنّه قال لا أعلم فيه فلاناً للمفسّرين فمن زعم أنّ الحمل علىٰ ذلك ضعيف لأنّ مُنكري الصّانع أو المشركين أخبث ديناً من اليهود والنّصارىٰ فكان الإحتراز منهم أولىٰ بل الأولىٰ أن تحمل المغضوب عليهم علىٰ كلّ من أخطأ في الأعمال الطّاهرة و هو الفسّاق و يحمَل الضّالون علىٰ كلّ من أخطأ في الإعتقاد لأنّ اللّفظ عام و التّقييد خلاف الأصل فقد ضلّ ضلالاً بعيداً إن كان قد بلغه ما صّح عن رسول اللّه ﷺ وإلاّ فقد تجاسر علىٰ تفسير كتاب اللّه مع الجهل بأحاديث رسول اللّه ﷺ.

و ما قاله في منكري الصانع لا يعتّد به لأنّ من لا دين له لا يعتّد بذكره والعجب من الإمام الرّازي أنّه نقل هذا و لم يتّعقبه بشيءٍ سوىٰ أنّه زاد في الشّطرنج بغلاً فقال و يحتمل أن يُقال المغضُوب عليهم هم الكفّار و الضالون هم المنافقون وَ عَلله بما في أوّل البقرة

من ذكر المؤمنين ثمّ الكفّار ثمّ المُنافقين فقايس ما هنا علىٰ ما هناك و هل بعد قول رسول اللّه الصّادق الأمين قول لقائل أو قياس لِقائس هيهات هيهات دون ذلك أهوال إنتهىٰ.

ما ذكره الألوسي بلفظه و عبارته و انّما نقلنا ما نقلنا عنه بعين عباراته لِتعلم أنّ العّامة قد أجمَعوا في تفاسيرهم علىٰ الحديث المرّوي بعقيدتهم عن رسول اللّه صلّی الله علیه و آله و سلّم أنّ المراد بغَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ، اليهود والنّصارىٰ ولأجل هذا قال القُرطبي في تفسيره فالجمهور علىٰ أنّ المغضوب عليهم اليَهود والضّالين النّصارىٰ و جاء ذلك مُفسِّرا عن النّبي صلّی الله علیه و آله و سلّم في حديث عدّي إبن حاتم و قصّة إسلامه أخرجه أبو داوُد الطيانسي في مسنده والتّرمذى في جامعه ألخ.

و بالجملة ما رأيت بعد التّفحُص التّام في تفاسيرهم الموجودة عندنا ما يُشعر بَخلافه سوىٰ ما ذكره الرّازي مِن أنّ المغضوب عليهم الكفّار والضّالين المنافقين علىٰ سبيل الإحتمال و نحن نقول أمّا أولاً.

أنّ الحديث الّذي تمسّكوا به في تفسير الآكسائر الأحاديث المّروية عنه صلّی الله علیه و آله و سلّم في كتبهم إذ لم يدّع مُدّع أنّه سَمعه من رسول اللّه صلّی الله علیه و آله و سلّم بإذنيه حتّىٰ يُقال من مشىٰ علىٰ خلافه فقد تَجاسر علىٰ تفسير كتاب اللّه مُضافاً الىٰ أنّ التّجاسر يصدق إذاكان السّامع قال بخلاف ما سمعه منه صلّی الله علیه و آله و سلّم و أمّا غيره فلا لجواز أن يكون مُدّعي السّمع كاذباً في دعواه وثانياً علىٰ فرض صحّة الحديث نقول ذكر اليَهود والنّصارىٰ من باب تعيين المصداق و لا تخصيصه أو أنّ اليَهود والنّصارىٰ من أكمل المصاديق في زمانه صلّی الله علیه و آله و سلّم حيث خالفوه وأذوه مع علمهم بصدق دعواه و أمثال ذلك من الإحتمالات كثيرة.



وكيف يمكن أن يقال أنّ اليهود والنّصارىٰ كانوا كذلك و عَبَدت الأوثان و سائر المُشركين لم يكونوا من مصاديق الآية فأنّ الإنسان لا يخلو من المغضوب عليهم و المنعَم عليهم فعبدة الأوثان مثلاً إن كانوا من المغضوب عليهم أو الضّالين فالمُدّعي ثابت و إلاّ يلزم عدّهم من المُنعم عليهم إذ لا واسطة بين الحالين وبِعبارةٍ اخرىٰ لكّل إنسانٍ باالنّظر الىٰ دينه أوصاف أربعة.

١- أحدُها الهداية.

٢- و ضدّها الضّلالة، فإن كان في طريق الهُدىٰ لا يكون في طريق الضّلال و بالعكس لإستحالة إجتماع الضّدين

و ثانيها.أن يكون من المنعَم عليهم، و ضَدها المغضوب عليهم فإن كان من الأوّل لا يكون من الثّاني و بالعكس لما ذكرناه من الإستحالة بل نقول بإرجاع الوصفين الأخيرين الىٰ الأوّلَين لأنّ الهادين المهديّين هم الّذين قد أنعم اللّه عليهم و أيّ نعمةٍ أعلىٰ وأفضل من كون الإنسان علىٰ طريق الهُدىٰ ببركة الإيمان والمعرفة.

والمغضوب عليهم هم الضّالون بلاكلام إذ لو لم يكن الانسان ضالاً لم يكن مغضوباً و علىٰ هذا التّقرير فلا مجال للقول بإختصاص الآية باليهود والنّصارىٰ و خروج سائر الكفّار عنها لانّ الإجماع والعقل حاكمان بخروج هؤلاء من صِنف المؤمنين المُنعم عليهم و من خرج عنهم دخل فى غيرهم و هم الضالّون و هذا واضح لمن له أدنىٰ تأمّلٍ و تعمّقٍ ثمّ أنّي كنت مُتحيراً مُتعجباً من إتّفاقهم علىٰ تخصيص الآية باليَهود والنّصارىٰ بِمُجّرد روايةٍ رووها عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و حكموا صّحتها و انسابهم اليه هوالتّجاسُر علىٰ تفسير كتاب اللّه لمن خالفهم و حكم بضعف الرّواية أو بكلاهما أو أنّها ناظرة الىٰ تعيين المِصداق لا الىٰ التخصّيص و لم يحكموا بالتّجاسُر لمن أنكَر أكثر من ألف حديث من الفريقين:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ**[٣]

و أمثالها ممّا ورد في علّيٍ عليه السلام وأهل البيت كما ستقف عليها إن شاء اللّه في موضعه.

ثمّ بعد ذلك ألهمت بِعون اللّه وتوفيقه إنّ السِّر في عدم عدولهم عن الحديث الوارد في تفسير الآية و هو تخصيص الأكثر بمعنىٰ أنّ المغضوب عليهم والضّالين إن كان المراد بهم مُطلق الكفار والمُنافقين و بالجملة كل من عدل عن طريق الحّق و أتّبَع هواه فلا يبقىٰ في المقام إلاّ المؤمن المعتقد العامل بما أمره اللّه و رسوله و هو قليل فيلزم منه دخول أكثر المسلمين في المغضوب عليهم والضّالين و هم لا يقولون به.

و أمّا نحن فنقول به ونُثبته بالدّليل القاطع كما ستعرفه إن شاء اللّه تعالىٰ هذا كله ما وصَل إلينا من تفاسير العّامة والخّاصة في تفسير الأية.

و ملخصه أنّ الشّيعة تقول بإطلاق الآية وعُمومها والعّامة تقول بإختصاصها باليَهود و النّصارىٰ.

و الّذي حصل لنا في المقام يظهر من قولنا في إهدنا الصّراط المُستقيم، لأنّ الصّراط الثّاني بَدَلٌ عن الأوّل بدل الكلّ من الكلّ فإذا كان المُراد بالصّراط الأوّل هو الموالاة لأهل البيت والتمسّك بولايتهم والعمل بما أمرونا به ونهونا عنه فلا محالة يكون المراد بالصّراط الّذي أنعم اللّه به علىٰ عباده هو الولاية والموّدة لهم و بالمغضوب عليهم، والضّالين، مخالفوهم و معاندوهم سواء فيهم الكفّار والمُنافقين والمعاندين و غيرهم من المُخالفين المُنكرين للحّق و

١- المائدة = ٥٥
٢- المائدة = ٦٧
٣- الاحزاب = ٣٣

عليه نحيا و نموت و نبعث حيّاً.

◁ التّفسير

عن كتاب معاني الأخبار بأسناده الىٰ جعفر إبن محمّد عليه السلام قال: قول اللّه عزّ وجّل في الحَمد،صِراطَ الَّذينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ يعني محمّداً وذريتّه عليهم السّلام إنتهىٰ.

وروي في تفسير نور الثّقلين عن الإمام الهادي عليه السلام في قول اللّه عزّ وجّل:صِراطَ الَّذينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أي قولوا إهدنا صراط الذّين أنعمت عليهم بالتوفيق لِدينك وطاعتك وهم الّذين قال اللّه عزّ وجّل: وَ مَنْ يُطِعِ اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ اَلَّذِينَ أَنْعَمَ اَللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ اَلنَّبِيِّنَ وَ اَلصِّدِّيقِينَ وَ اَلشُّهَدٰآءِ وَ اَلصّٰالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا[1]

و حكىٰ هذا بعينه عن أمير المؤمنين ثمّ قال عليه السلام: ليس هؤلاء المُنعّم عليهم بالمال و صحّة البَدن و إن كان كل هذا نِعمة من اللّه ظاهرة ألا ترون أنّ هؤلاء قد يكونون كفّاراً أو فسّاقاً فما ندبتم الىٰ أن تدعوا بأن ترشدوا الىٰ صراطهم و أنّما أمرتم بالدّعاء بأن ترشدوا الىٰ صراط الّذين أنعم اللّه عليهم بالإيمان باللّه و تصديق رسوله و بالولاية لمحّمدٍ و آله الطّيبين و أصحابه الخيّرين المنتجبين و بالتقيّة الحسنة الّتي نسلم بها من شرّ أعداء اللّه و من الزّيادة في آثام أعداء اللّه وكفرهم بأن تداريهم و لا تعزّيهم بأذاك و أذىٰ المؤمنين و بالمعرفة بحقوق الإخوان من المؤمنين إنتهىٰ.

و بأسناده قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في قول اللّه عزّ وجّل:صِراطَ الَّذينَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضّالّينَ.

١- النساء = ٦٩

قال صلى الله عليه وآله وسلم: شيعة علّى الّذي أنعَمت عليهم بولاية علّي إبن أبي طالب عليه السلام لم يغضب عليهم ولَم يضّلوا إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: في **غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** قال: عليه السلام المَغضوب عليهم، النصاب، والضّالين الشّكاكين الّذين لا يعرفون الإمام انتهىٰ.

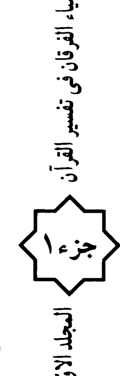
و عن كتاب من لايحضره الفقيه بأسناده عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: **صِرٰاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** توكيد في السؤال والرغبة و ذكر لما تقدم من نعمه علىٰ أوليائه و رغبته في مثل تلك النِّعم **غَيْرِالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ** إستعاذة من أن يكون من المعاندين الكافرين المستخفين به و بأمره و نَهيه **وَلاَ الضَّالِّينَ** إعتصام من أن يكون من الذّين ضلّوا عن سبيله من غير معرفة و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً انتهىٰ.

و في الإحتجاج للطّبرسي عن العسكري عليه السلام أنّ أبا الحسن الرّضا عليه السلام قال: من تجاوز بأمير المؤمنين العبودية فهو من **الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** انتهىٰ.

و في تفسّير الصّافي، قال أمير المؤمنين عليه السلام: كلّ من كَفَر باللّه فهو مغضوبٌ عليه و ضال عن سبيل اللّه.

و عن الصّادق عليه السلام **أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**: يعني محمّداً و ذرّيته انتهىٰ.

أقول في هذه الأخبار كفاية لأولي الأيد والأبصار في الوقوف علىٰ تفسير الأية و من أراد الإطلاع علىٰ أكثر مما ذكرناه فَعَليه بمظانّه، بقي في المقام شئ و هو أنّه ما المراد بالغَضب في حقّ اللّه تعالىٰ و ما الفرق بين الغَضب في حقّه والغضب فينا فنقول:



الغضب فينا، ثوران دَم القَلب لإرادة الإنتقام والتَّشفي واذا وُصف اللّه تعالىٰ به فالمراد به الإنتقام دون غيره و قيل أنّه فيه تعالىٰ بمعنىٰ إنزال العقاب المُستّحق بهم و لَعنهم و براءته منهم و أصل الغَضب الشّدة و قد وَصف اللّه تعالىٰ به نفسه في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بَآءُو بِغَضَبٍ مِنَ ٱللّٰهِ**[1]

قال اللّه تعالىٰ: **فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلٰى غَضَبٍ**[2]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبي**[3]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ غَضِبَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِمْ**[4]

قال بعض الفلاسفة، الغَضب في البَدن ثوران الدَّم و في النَّفس حالة نفسانية إنفعالية في العمل صِفَة فعلّية.

و في الواجب القهارّية و هي روح الغَضب و ما في عالم الصّورة صورته انتهىٰ.

فالفرق بين الموردين هو أنّه فينا بمعنىٰ المبدأ لحصول الغاية و في الواجب بمعنىٰ العامّة والمنتهىٰ لا غير و ذلك لأنّه ليس هناك جسم و بدن فلا دَم و لا ثَوران و لا قلب.

و ثانياً أنّ الإنتقام فيه تعالىٰ ليس كالإنتقام فينا فإنّه في حقّنا لدفع ضررٍ أو جلب منفعة و في حقّه تعالىٰ إحقاق الحقّ و إجراء العَدل و إن شئت قلت هو فينا مسبّب عن ثوران دَم القَلب الّذي هو مسبّب أيضا عن ضرر أو إيذاءٍ وصل من الغير الينا.

و أمّا فيه تعالىٰ فهو سبب عن العصيان والظّلم والتعدّي من شخصٍ أو أشخاصٍ علىٰ غيره و ذلك لأنّه تعالىٰ لا تضره معصية من عَصاه و لا تَنفعه

١- البقرة = ٦١ ٢- البقرة = ٩٠
٣- طه = ٨١ ٤- الفتح = ٦

طاعة من أطاعه فالعاصي من حيث أنّه مُتعدّ والتعدّي مُخل بالنّظم مُضر بالجامعة يصير مَغضوبٌ عليه في الدّنيا والأخرة والحاصل أنّه فينا يدّل علىٰ النّقض و في الواجب يدلّ الكمال والقهر و تفصيل البحث فيه في محلّه هذا تمام الكلام في تفسير سورة الحَمد و لنذكر في خاتمة البحث أموراً لا تخلو من الفوائد في المقام، و غيره من سور القرأن.

الأمر الأوّل: أنّ هاء الضّمير نحو، **عليهم**، **عليه**، **فيه**، **فيهم**،**لهم** و أمثال ذلك قد تكرر في القرأن فَينبغي أن يعلم القارى أنّ الأصل في هذه الهاء الضّم لأنّها تضم بعد الفتحة والضمّة والسّكون، نحو، أنّه و لَهُ و غلامهُ و سَمعهُ و منهُ و غيرها من الألفاظ و أنّما يجوز كسرها بعد الياء نحو، عليهم و أيديهم، و بعد الكسر نحو به و بداره و ضمَّها في المَوضعين جائز لأنّه الأصل و أنّما كسُرت لتجانس ما قبلها من الياء و الكسرة و بكلٍّ قد قرأ و أمّا عليهم ففيها عشر لغات و كلّها قد قرأ به خَمسُ مع ضمّ الهاء و خَمسٌ مَع كَسر الها، فالتّي مَع الضّم إسكان الميم و ضمّها من غير إشباعٍ، و ضمّها مع واوٍ وكسر الميم من غير ياء وكسرها مَع الياء.

و أمّا التّي مع كَسر الهاء فإسكان الميم وكسرها من غير ياء وكسرها مَع الياء، و ضمّها مَع الواو والأصل في ميم الجمع أن يكون بعدها **واو** فالميم لمجاوزة الواحد و**الألف** دليل التّثنية نحو عليهما و **الواو** للجمع نظير **الألف**.

الأمر الثّاني: قال بعض المحقّقين أنّ في سورة الفاتحة عشرة أشياء:

خمسة منها في صفات الرّبوبية و هي، اللّه و الرّب و الرّحمٰن و الرّحيم و المالك، و خمسة منها من صفات العبد و هي العبّودية و الإستعانة و طلب الهداية و طلب الإستقامة و طلب النّعمة.

فإنطبقت تلك الأسماء الخمسة علىٰ هذه الأحوال الخمسة فكأنّه قيل: **اِيّاکَ نَعْبُدُ** لأنّك أنت اللّه: **وَاِيّاکَ نَسْتَعِينُ** لأنّك أنت الرّب: **اِهْدِنَا الصِّراطَ**

الْمُسْتَقِيمَ لأنّك أنت الرّحمٰن، و إرزقنا الإستقامة لأنّك أنت الرّحيم، و أفِض علينا سجال نعمك و كرمك لأنّك: **مٰالِكِ يَوْمِ الدّينِ**.

الأمر الثالث: قال أهل التّحقيق لمّا كانت كلمة **الحمد** فاتحة الشّكر جَعلها اللّه فاتحة كلامه في الكتاب ولمّا كانت خاتمة الشّكر جَعلها اللّه خاتمة كلام أهل الجنّة فقال: **وأخر دَعواهُم أن اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمينَ** ففاتحة كلام العبد وخاتمته به.

رُوي عن علّي عليه السلام أنّه قال خَلق اللّه العقل من نور مكنون مخزون من سابق عِلمه فَجعل العلم نفسه و الفهم روحه و الزّهد رأسه و الحَياء عينه و الحِكمة لسانه و الخير سمعه و الرّأفة قلبه و الرّحمة هَمّه و الصبر بطنه ثمّ قيل له تكلّم فقال الحمد للّٰه لِذّي ذلّ كلّشيء لعزّته فقال الرّب و عزّتي و جلالي ما خلَقت خَلقاً أعّز عَلّيَ مِنك و أيضاً فقل أنّ آدم عليه السلام لمّا عَطَس فقال الحمدُ لِلّٰه فكان أوّل كلامه ذلك ثمّ قال إذا عرفت هذا فنقول أوّل مراتب المخلوقات العقل و آخر مراتبها آدم و قد نقلنا أنّ أوّل كلام العقل، الحَمد لِلّٰه و هكذا آدم فثبت أنّ أوّل كلام لفاتحة المحدثات هو هذه الكلمة و أوّل كلامٍ لخاتمتها أيضاً هو هذه الكلمة فهي الأوّل في الكلمات والآخر فيها فلا جَرَم جعلها اللّه فاتحة كتابه وقال:اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمينَ و فيها أسرار لا يُحصيها إلاّ اللّه تعالىٰ.

* * *

سورة البقرة

إعلم أنّ هذه السّورة مَدَنية كلّها إلاّ آية واحدة منها وهي قوله تعالىٰ: **وَ ٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ**[1].

فأنّها نزلت في حجة الوداع بِمنىٰ، وعَدد الآيات فيها مائتان و ستّ و ثمانون عند الكوفيّين و سَبع عند البصريّين و خمس عند أهل الحِجاز و أربع عند الشّافي، و عدد الكلمات فيها (٦٢٢١) و عدد الحروف (٢٥٥٠٠)

فضلها.

عن أبي إمامة عن أبي إبن كَعب عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال صلى الله عليه وآله وسلم أنّ لكلّ شيئ سناما و سنام القرآن سورة البقرة.

و عنه عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من قرأها فصلوات اللّه تعالىٰ عليه و رحمته و أعطىٰ من الأجر كالمُرابط في سبيل اللّه سنة لا تسكن روعته، و عنه أيضاً قال النّبي لي يا أبي مُرالمسلمين أن يتعلّموا سورة البقرة فإنّ تعلّمها بركة و تركها قسرة لا يستطيعها البطلة قلت يا رسول اللّه ما البطلة قال السّحرة.

و عن سهل إبن سعد قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لكلّ شيئٍ سناما و سنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يدخل بيته شيطان ثلاثة أيّام و من قرأها في بيته ليلاً لم يدخل بيته شيطان ثلاثة ليال.

١- البقرة = ٢٨٠

و عن كتاب ثواب الاعمال باسناده الىٰ أبي عبد اللّه قال عليه السلام: من قرأ سورة البقرة و آل عمران جاء الىٰ يوم القيامة تظلّانه علىٰ رأسه مثل الغيابتين، العياشي عن سعد الإسكاف قال سمعت أباجعفر يقول قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أُعطيت الطّوال مكان التّوراة و أعطيت المائين مكان الإنجيل أُعطيت المثّاني مكان الزّبور و فضّلت بالمفصّل سبّع و ستيّن سُورة.

و عنه قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: مَن قرأ أربع آيات من أوّل البقرة و آية الكُرسي و آيَتين بعدها و ثلاث آيات مِن آخرها لم يَرَ في نفسه و ماله و أهله شيئاً يكرهه و لم يضّر الشّيطان و لم يَنسَ القرآن و الأخبار في فضلها كثيرة جداً.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

أَلَمٓ ﴿١﴾ ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ وَمِمّٰا رَزَقْنٰاهُم يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿۴﴾ أُولٰـئِكَ عَلىٰ هُدىً مِّنْ رَّبِّهِمْ وَ أُولٰـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴿٥﴾

◁ اللّغة

ذٰلِكَ: إسم إشارة و الألف من جملة الإسم و قال الكوفيون الذّال وحدها هي الإسم و الألف زيدت لِتكثير الكلمة، و أمّا اللاّم فحرفُ زيد ليدّل علىٰ بعد المُشار اليه و قيل هي بدل من هاء و تقول هذا و هذاك و لا يجوز، هذلك وكُسرت اللاّم علىٰ أصل إلتقاء السّاكنيين و قيل غير ذلك.

الْكِتٰابُ: كتاب بكسر الكاف مصدر قولك، كتبَ كتباً وكتاباً و هو ما صوّر فيه اللّفظ بحروف الهجاء و قال الرّاغب في المُفردات، الكتّب ضّم أديم الىٰ أديم بالخياطة يقال كتبت الشّتاء و كتبت البغلة جمعتُ بين شفريها بحلقةٍ و في التّعارف ضمّ الحروف بعضها الىٰ بعضٍ بالخطّ و قد يقال ذلك للمضموم بعضها الىٰ بعضٍ باللّفظ فالأصل في الكتابة النظّم بالخطّ لكن يستعار كلّ واحدٍ لِلأخر و لهذا سُمّي كلام اللّه و إن لم يُكتب كتاباً كقوله: **أَلَمٓ، ذٰلِكَ الْكِتٰابُ**، و الكتاب في الأصل مصدر ثمّ سُميّ المكتوب فيه كتاباً و الكتاب في الأصل إسمٌ للصّحيفة مَع المكتوب فيه انتهىٰ.

واللاّم الدّاخل عليه للتّعريف.

لاٰ رَيْبَ فِيهِ: كلمة لا لِنفي الجنس و الرّيب الشّك.

هُدًى: بضّم الهاء مصدر بمعنىٰ إسم الفاعل والألف مُنقلبة عن ياء لقولك هَديتُ:، والهِداية دلالة بلطفٍ و منه الهَدِيّة و قيل الهِداية إرشادٌ للخير و المآل واحد

لِلْمُتَّقِينَ : المُتّقين جمع مُتّقِي و هو إسم فاعل من إتّقىٰ يَتّقى و أصل الكلمة من وقىٰ ففاؤها واو و لامها ياء، فإذا بنيت من ذلك، إفتعل قُلِبَت الواو تاءً و أدغَمتها في التّاء الأُخرىٰ فَقُلتَ، إتّقىٰ، و ياؤه الّتي هي لام محذوفة في الجمع لسكونها و سكون حرف الجمع بعدها كقولك مُتّقون، ومُتّقين، و وزنَه في الأصل مُفتعلون لإنّ أصله مُوتقيُون فحُذِفَت اللاّم لِما ذكرنا فَوزنه الأن مُفتَعُون وَ مُفتَعين و إنمّا حُذفت اللاّم دون علامة الجمع لإنّ علامة الجمع دالة علىٰ معنىٰ إذا حُذفت لا يبقىٰ عليه دليل فكان إبقاؤها أولىٰ.

◁ الإعراب

موضع ذلك رفع علىٰ أنّه خبر ألم. والْكِتٰابُ عطف بيان. لاٰ رَيْبَ في موضع النّصب علىٰ الحال و يمكن أن يكون ذلك مبتداء و الكتاب خبره و لاٰ رَيْبَ حال فموضع ذالک رفع على الابتداء و والْكِتٰابُ على الخبر و لاٰ رَيْبَ فوضعة النصب على الحال وكلمة ريب فمعنى عنه الاكثر لانّه ركّب مع لا و صير بمنزلة (خمسة عشر) و علّة بنائه تَضمنّه معنىٰ مِن إذ التّقدير لا من ريب و أحتيج الىٰ تقدير مِن لتدّل كلمة لا علىٰ نفي الجنس. هُدًى منصوب علىٰ الحالّية من الهاء. فيه أيّ لا ريب فيه هادياً فالمَصدر بمعنىٰ إسم الفاعل. و يُمكن أن يكون موضعه الرّفع علىٰ أنّه خبر مبتدأ محذُوف أيّ هو هُدىٰ أو أنّه مُبتدأ وخبره لِلْمُتَّقِينَ ولِلْمُتَّقِينَ اللاّم متعلّقة بمحذوف تقديره كائن أو كائناً والمُتّقين مجرورٌ به وعلامة جرّه الياء كما هو القاعدة في الجمع فأنّ رفعه بالواو و نَصبه و جره بالياء المكسور ما قبلها.

◁ التفسير

اختلفوا في الحروف المفتّح بها السّور في القرآن فقال بعضهم هي من المُتشابهات الّتي إستأثرها اللّه بعلمها ولا يعلم تأويلها إلاّ اللّه و هو المرّوي عن الأئمة المعصُومين و قال عامر الشّعي و سفيان الثّوري و جماعة من العامّة هي سرّ اللّه في القرآن و لِلّه في كلّ كتابٍ من كُتبه سِرٌّ فهي من المُتشابه الّذي إنفرَد اللّه تعالىٰ بعلمه و لا يجب أنّ يتكلّم فيها و لكن نُؤمن بها و تقرأ كما جاءت و ذكر أبواللّيث السّمرقندي عن عمرو و عثمان و ابن مسعود قالوا الحروف المُقطّعة من المكتوم الّذي لا يفسّر و قال أبو حاتم ما ندري معناها أقول فكأنّه من المتّفق عليه بين الفريقين أنّه لا يعلم تأويلها و لا تفسيرها إلاّ اللّه تعالىٰ و قال جمع من العلماء علىٰ ما نقله القُرطبي في تفسيره.

بل يجب أن نتكلم فيها و نلتمس الفوائد الّتي تحتها الىٰ أن قال قالوا في تفسير **الٓمٓ** **الألف من الله** واللاّم من جبرائيل و **الميم من محمّدٍ** صلى الله عليه وآله وسلم و قيل **الألف** مفتاح إسمه **اللّه** والميم مفتاح إسمه **مجيد** واللاّم مفتاح إسمه **لطيف**.

روي عن ابن عباس أنّ تفسيره أنا اللّه أعلم، و الأقوال فيه كثيرة إلاّ أنّه لا معوّل عليها لأنّها إستنباطات شخصّية لا ربط لها بتفسير القرأن:

ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِّلْمُتَّقِينَ.

لاشكّ أنّ المراد بالكتاب في الآية القرأن و هو المشار اليه بقوله **ذلك** و نفي الرّيب عنه بلاء الّتي لنفي الجنس المشعر لنفي الرّيب عنه بالكلّية دليل علىٰ أنّ الكتاب منزّلٌ من عنده تعالىٰ المنزّه عن النّقص ذاتاً و صفةً اذ لوم كان من عند غيره كائناً من كان لم يكن خالياً من الرَّيب و ذلك لأنّ المخلوق ناقص في حدّ ذاته لأمكانه و فقره و من كان كذلك يكون ناقصاً في جميع صفاته و أفعاله فكيف يمكن أن يكون كتابه ممّا لا ريب فيه بالكلّية إن قُلت كيف نفي الرّيب عن الكتاب و أنّه من عند اللّه مع أنّا نرىٰ كثيراً من النّاس بل أكثرهم في

كلّ عصرٍ و زمانٍ حتّىٰ زمان رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم الىٰ زَمانِنا هذا حكموا بخلافه و أنّه ليس مِن عند اللّه فضلاً عن ريبهم و شكّهم ضرورة أنّهم لو قطعوا بكونه من عند اللّه أمنوا به فَعدم إيمانهم به دليل علىٰ قطعهم بأنّه ليس من عنده تعالىٰ قلت الجواب عنه من وجوهٍ:

أحدها: أن يكون المراد من الآية نفي الرّيب عن الكتاب في الواقع و نفس الأمر لا في الظّاهر أي أنّ ذلك الكتاب لا ريب فيه واقعاً عند من تَعمّق و تَدّبر فيه و حيث أنّ المنكرين لم يتدّبروا فيه حقّ التّدبر لا محالة وقعوا في الشكّ و الإرتياب و هذا كما نرىٰ في كثير من النّاس أنّهم يشكّون في شيء بل ينكرونه ثمّ بعد التّأمل والتدّبر فيه ينكشف لهم الخلاف و بالعكس فأنّ الإنسان محلّ الخطأ والنّسيان ولأجل هذا أمرنا بالتفكّر والتدّبر في كثير من الأيات و عليه فلو تَعمّق و تَدّبر المنكر والشاكّ حقّ التدّبر لِعلم أنّه حقٌّ من عند اللّه و هو المطلوب.

ثانيها: أنّ المنكرين الشاكّين من النّاس علىٰ صنفين، صِنف العلماء، و صنف الجّهال والعوام، أمّا العلماء فيمكن أن يكون مَنشَأ إنكارهم حبّ الدّنيا أو التعصّب والعناد و أمثال ذلك دون قلوبهم فأنّهم كثيراً ما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والوجه فيه ظاهر فأنّ العلماء من أهل الكتاب قد علموا من كتبهم أنّ الإسلام حقّ والرّسول صادق في دعواه و الكتاب منزل من عند اللّه الاّ أنّهم لم يتفوهوا به حبّاً للدّنيا والرّئاسة أو عناداً و تعصباً و أمثال ذلك من الأمور المترتبة علىٰ حبّ الدّنيا فأنّه رأس كلّ خطيئة والدّليل علىٰ ما ذكرناه:

قال اللّه تعالى: **اَلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ يَعْرِفُونَهُ كَمٰا يَعْرِفُونَ أَبْنٰاۤءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ اَلْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ**[١]

قال اللّه تعالى: **اَلَّذِينَ اٰتَيْنٰاهُمُ اَلْكِتٰابَ**[٢]

١- البقرة= ١٤٦ ٢- الأنعام= ٣٠

قال اللّه تعالى: **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ**[1]

فالإنكار من المنكر لا يدّل علىٰ جهله أو إنكاره بقلبه اذا كان عالماً و هو واضح.

و أمّا صِنف الجّهال فالإنكار منهم باللّفظ وان كان حاكياً عن الإنكار القلبي أحياناً الاّ أنّ مَنشأ الإنكار و العلّة فيه هو جهلهم واقعاً و أنّهم لم يصلوا الىٰ الواقع بل لم يَقدروا عليه لجهلهم و عَدم إعلام العلماء حقيقة الأمر لهم لأنّهم إن بَقوا علىٰ جهلهم أولىٰ و أنفع لِعلمائهم من كشف الحقيقة لهم لأنّهم في صورة العلم يالحقيقة يتفرّقُون بل يعرضون عن علمائهم و يتَّبعون الحقّ و هذا هو السرّ في إبقائهم العلماء علىٰ الجهل وكم له من نظير.

ثالثها: أن يكون المراد أنّ ذلك الكتاب لا ينبغي الإرتياب فيه إمّا لأنّه من عند اللّه أو لأنّه جامع الخيرات والسّعادات لمن تَدَّبر فيه وعمل بمقتضاه و عليه فنفي الإرتياب يرجع الىٰ نفيه من جهته هدايته وكونه كافياً وافياً و بعبارةٍ أخرىٰ لا شكّ فيه من هذه الجهة و هو المطلوب.

رابعها: أن يقال الرّيب فيه عند المسلمين المؤمنين لا فى غيرهم من الكفّار و ذلك لأنّ غير المسلم الّذي أنكر خالقه الّذي أوجده من العَدم كيف يقرّبان القرآن منزّل من عنده والإقرار به فرع علىٰ الإقرار بالتّوحيد و غير ذلك من الوجوه المحتملة في المقام.



إن قلت لمّا كان الكتاب حاضراً فحقّ الكلام أن يقال هذا القرآن **لاٰ رَيْبَ فِيهِ** و ذلك لأنّ **هذا**، موضع للإشارة الىٰ القريب **وذلك** ليس للقريب، قلتُ نقل عن الأخفش أنّه قال، **ذلك** في المقام بمعنىٰ، هذا، و أنشد قول الشّاعر:

أقول له والرّمح باطر متنه ... تأمّل خفافاً أنّني أنا ذا بكاء

١- النّحل = ٨٣

أي أنا هذا نقله الطّبرسي ﷺ في المجمع ثمّ قال يمكن إجراءه علىٰ ظاهره أي انّني ذلك الرّجل الّذي سمِعتُ شجاعته و إذا جرىٰ للشيْ ذكر يجوز أن يقول السّامع هذا كما قلت إنتهىٰ.

و قيل إنّ اللّه وعد نبّيه ﷺ أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء و لا يخلق علىٰ كثرة الرّد فلّما أنزل القرآن قال هذا القرآن ذلك الكتاب الّذي وعَدتك و هذا القول منقول عن الفرّاء و أبو علّي الحبائي و قيل معناه هذا القرآن ذلك الكتاب الّذي وعدتك به في الكتب السّالفة عن المبرّد و هذه الوجوه نـقلها المفسّرون في كتبهم.

قال الزّمخشري في الكشّاف ما لفظه ـ فإن قلت لم صحّت الإشارة بذلك إلىٰ ما ليس ببعيد، قلت وقعت الإشارة الىٰ اِلَم بعد ماسَبق التكلّم به وتَقضّي والمقتضّىٰ في حكم المتباعد و هذا في كلّ كلامٍ يحدّث الرّجل بحديث ثمّ يقول و ذلك ممّا لا شكّ فيه الىٰ أن قال ولأنّه لّـما وَصـل مـن المـرسِل الىٰ المُرسَل اليه وقع فيه حدّ البعد تقول لصاحبك و قد أعطيته شيئاً إحتفظ بذلك و قيل معنىٰ ذلك الكتاب الّذي وعدوا به إنتهىٰ ما ذكره بلفظه و عباراته.

أقول يظهر من كلامه في الوجه الأوّل أنّ المُشار اليه اِلَم الّذي سبق ذكره في الكلام و عليه فالمعنىٰ لا يستقيم إلاّ علىٰ القول بأنّ اِلَم إسم الكتاب أو السّورة و **ذلك** إشارة اليه و هذا القول مضافاً الىٰ ضعفه في حدّ نفسه مردودٌ عقلاً و ذلك لأنّه أن أراد بالمشار اليه أعني اِلَم لفظه الّذي وَصَل الىٰ السّامع ف ذلك ليس إشارة اليه بل الىٰ ما دّل به عليه وإن أراد جميع السّورة أو المُنّزل فقبل أن يصل اليه هذا كان لفظ **ذلك** علىٰ حاله فما ذكره لا يرجع الىٰ محصلٍ و هكذا قوله.

و لأنّه لّما وصل من المُرسِل الىٰ المُرسَل اليه وقع في حّد البُعد، إذ القائل أن يقول هذا في غير الخالق والمخلوق له وجه و أمّا فيه فلا إذا الكّل حاضر

عنده ماضى و هو أيضاً حاضر عند الكّل بل هو أقرب اليهم من حَبل الوَريد فالبُعد في المقام ليس بمعقولٍ والّذي نقول في المـقام هـو أنّ الكـتاب هـو المشار اليه و ذلك، ليس للقريب كلّ ذلك صحيح.

إلاّ أنّ القريب قد يُنزّل منزلة البعيد بالنّظر الىٰ الواقع و نفس الأمر و ان كان قريباً بالنّظر الىٰ الظّاهر و بالعكس قد يكون الشّئ بعيداً ظاهراً مع أنّه قريبٌ واقعاً و نعّبر بالقُرب والبُعد التّنزيلى و هو يقابل القُرب والبُعد الواقعي و هذا كما ترىٰ في أبي لهب و سلمان.

فأنّ أبالهب قريب لِلرّسول ظاهراً لأنّه عمةٌ بـعيدٌ عـنه واقـعاً لأنّـه عَـدّوه وسلمان بالعكس بعيدٌ عنه ظاهراً قريباً منه واقعاً ولذا قال ﷺ أنّه من أهل البيت و هذه القاعدة جارية في جميع الموارد وعليها مدار التّـخاطب عـند البُلغاء إذا عرفت هذا فنقول، الكتاب أعني به القرآن و إن كان قريباً في الظاهر حاضراً لدىٰ القارى إلاّ أنّه بعيد عن فهمه و عقله بحسب الواقع و أن شئت قلت ألفاظه ظاهرة قريبة و معناه بعيدة جدّا فنُزّل في المقام القـريب مـنزلة البعيد فقال تعالىٰ :**ذٰلِكَ الْكِتٰابُ** و عليه فالمعنىٰ أنّ ذلك الكتاب الّـذي لا يُحيطون به لأنّ عقولكم قاصرة من إدراك حقائقه و هو بعيد عن أفهامكم هو هذا الّذي بين أيديكم و عليه فالّلام في الكتاب للعهد الحاضر فأفهم.

قوله تعالىٰ: **هُدىً لِلْمُتَّقِينَ** قد مرّ الكلام في معنىٰ الهداية في سورة الحَمد و أنّها بمعنىٰ إراءة الطّريق أو الإيصال الىٰ المطلوب فـلا نـعيد الكـلام بـذكر معناها ثانياً.

والّذي نقول في المقام هو أنّ المصدر بمعنىٰ إسم الفاعل أي أنّ القرآن هادٍ للمتّقين والبحث يقع في مقامين:

المقام الأوّل: في معنىٰ التّقوىٰ وأنّ المتّقين من هُم.

المقام الثّانى: في بيان وجه إختصاص الهداية بالمُتّقين دون غيرهم مـن النّاس.

أمّا المقام الأوّل: فنقول قد مَرَّ في شرح اللّغات أنّ المُتّقين جمع مُتّقي و أصل الكلمة من (وقىٰ والوقاية في اللّغة الحِفظ فالمُتّقون هم الحافظون لأنفسهم و أعمالهم و أقوالهم عن المحرّمات بل المَكروهات و قيل أنّ التَّقوىٰ عبارة عن المواظبة علىٰ فعل الواجب و ترك الحرام وقيل غير ذلك و أحسن ما قيل في تعريف المُتّقين ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المشهورة بخطبة المُتّقين من كتاب نهج البلاغة فقال عليه السلام:

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ وَمَلْبَسُهُمُ الإقْتِصَادُ وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى العِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ الىٰ أخر الخطبة)

بتفصيلها وإن شئت الوقوف على معنى الخطبة فَعليك بكتاب النّهج و شروحه اذ لم تجد أوصاف المتّقين في جميع الأثار مثل ما وَصفهم أمير المؤمنين عليه السلام في كلامه و نحن بعون اللّه وتَوفيقه قد شَرحنا الكتاب من أوّله الىٰ أخره شرحاً جامعاً وافياً مبسوطاً في نحو ثلاثين مجلّد و ذكرنا فيه مالم يسبقنا اليه أحد من الشّراح و نَرجو من اللّه أن يُوفقنا لإتمام التَّفسير الّذي بين أيدينا إن شاء اللّه تعالىٰ والأيات والأثار في مدح التّقوىٰ و أوصاف المتّقين أكثر من أن تُحصىٰ ولاشكّ لأحدٍ أنّه أي التّقوىٰ من أجلّ النِّعم وأحَسن الزّاد ليوم القيامة.

و أمّا في مقام البحث فاللّه تعالىٰ بيّن للمتّقين أوصافاً ستّة هي بمنزلة الأصول:

و هي الإيمان بالغيب، و إقامة الصّلاة، والإنفاق ممّا رَزقهم اللّه سبحانه، و الإيمان بما أنزل علىٰ الأنبياء السّابقين، والإيمان بما أنزل علىٰ رسول الإسلام، و اليقين بلاخرة.

المقام الثّاني: في بيان إختصاص الهداية بهم، فنقول لا شكّ أنّ القرآن هادٍ لجميع النّاس :

قال اللّه تعالىٰ: **شَهْرُ رَمَضٰانَ ٱلَّذيٓ أُنْزِلَ فيهِ ٱلْقُرْاٰنُ هُدًى لِلنّٰاسِ وَ بَيِّنٰاتٍ مِنَ ٱلْهُدٰى وَ ٱلْفُرْقٰانِ**(١)

و قال تعالىٰ في مقام آخر: **وَ نَزَّلْنٰا عَلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ تِبْيٰانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرٰى لِلْمُسْلِمينَ** (٢)

و أمثال ذلك من الأيات و عليه فما وجه إختصاص هداية الكتّاب بالمُتّقين في المقام.

و الجواب عنه هو أنّ اللّه تعالىٰ بيّن أوصاف المُتّقين في أوّل البقرة ليعلم القارئ أنّ الكتاب بعد الحمد والثّناء عليه تعالىٰ موضوع لإيصال المكلّف الىٰ درجة التّقوىٰ بل هي الغاية لإنزال الكتاب علىٰ عبده فأن العمل لا يقبل إلاّ بها لقوله تعالىٰ :**إِنَّمٰا يَتَقَبَّلُ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلْمُتَّقينَ**(٣) وحيث أنّه أراد ذكر المتّقين وبيان أوصافهم ذكر أنّ الكتاب هادٍ لهم و هو كذلك هذا أوّلاً.

و ثانياً أنّ الهداية بالكتاب مَشرُوط بالقابلية والإستعداد و لا شكّ أنّ الموصوفين بالتّقوىٰ أشدّ اهتماما في الإستضائة بنور القرآن من غيرهم فلا جرم هدايتهم به أكثر.

إن قلت ظاهر قوله تعالىٰ يدّل علىٰ انّ المتّقين قبل هدايتهم بالكتاب كانوا م مُتصفين بها أيضاً فَعليه يلزم وجود هدايتين، هداية قبل القرآن و هداية بعده بَسبه و ذلك لأنّهم لو لم يكونوا مَهديّين فكيف صاروا متّقين و إذا كان كذلك فبيّنوا لنا حقيقة الأمر قلت ظاهر الكلام يدّل عليه و لذلك ذهَب بَعض المُفَسّرين الىٰ وجودهما، هداية من اللّه، و هداية من القرآن ونحن ننقل عين

١- البقرة= ١٨٥ ٢- النحل= ٩٠

٣- المائده = ٢٧

كلامه بألفاظه و عباراته قال ﷺ و قد وَصفهم بأنّهم علىٰ هُدىً من ربّهم لعلّه إشارة: قوله تـعالىٰ : **أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِّنْ رَّبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** فدّل ذلك علىٰ أنّ تلبسّهم بهذه الصّفات الكريمة بسبب تلَبّسهم بلباس الهداية من اللّه سبحانه فهم أنّما صاروا مُتّقين أولىٰ هذه الصّفات بهدايةٍ منه تعالىٰ ثّم وصَف الكتاب بأنّه هُدىً لهؤلاء المُتّقين بقوله تعالىٰ :**ذٰلِكَ الْكِتٰابُ لاٰ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ** فَعلمنا بذلك أنّ الهداية غير الهداية و أنّ هؤلاء وهم مُتقون محفُوفون بهدايتين، هداية أُولىٰ بها صاروا مُتّقين و هداية ثانية أكرمهم اللّـه سبحانه بها بعد التّقوىٰ و بذلك صحّت المقابلة بـين المُـتّقين وبـين الكـفّار والمُنافقين فأنّه سبحانه يجعلهم في وَصفهم بين ضلالين وَمماتين ضلال أوّل هو الموجب لاوصافهم الخبيثة من الكفر والنّفاق و ضلال ثان يتأكّد به ضلالهم الأوّل ويتصّفون به بعد تحقّق الكفر والنّفاق كما يقول تعالىٰ في حقّ الكفّار:

قال اللّه تعالىٰ: **خَتَمَ اَللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ**[۱].

فَنسب الختم الىٰ نفسه تعالىٰ والغشاوة الىٰ أنفسهم وكما يقوله في حـقّ المُنافقّين:

قال اللّه تعالىٰ: **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اَللّٰهُ مَرَضًا**[۲]

فَنسب المرض الأوّل اليهم والمرض الثّاني الىٰ نفسه علىٰ حدّ ما يستفاد:

قال اللّه تـعالىٰ: **يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَـثِيرًا وَ مٰـا يُـضِلُّ بِـهِ إِلاَّ اَلْفٰاسِقِينَ**[۳]

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمّٰا زٰاغُوٓا أَزٰاغَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ**[۴].

و بالجملة المُتّقون واقعون بين هدايتين كما أنّ الكفّار واقعون بين ضلالين

۱- البقرة= ۷ ۲- البقرة= ۱۰

۳- البقرة= ۲۶ ۴- الصّف= ۵

ثمّ أنّ الهداية الثّانية لمّا كانت بالقرأن فالهداية الأولىٰ قبل القرأن وبسبب الفطرة الىٰ أخر ما قال مّتِرُّ مُصّراً علىٰ إثبات الهدايتين والضلالين في المقام إن شئت الإطلاع علىٰ ما ذكره فراجعه[1] و أنمّا نقلنا عبارته بطولها لتنظر اليها فلعلك تفهم منها غير ما فهمناه عنه و كيف كان لا نفهم معنىٰ الهدايتين في المقام كما لا نفهم معنىٰ الضّلالين و سيجئ البحث في الضّلالة في محلّه.

و أمّا الهداية فهي محّل البحث في المقام فنقول إن كان مراده مّتِرُّ من الهداية الأولىٰ الهداية التّكويني فهي خارجة عن مورد البحث مضافاً الىٰ أنّها تعمّ جميع الموجودات و جميع أفراد الإنسان ولا إختصاص لها بالمُتّقين وإن كان المراد بها غيرها فَينبغي أن يُبيّنها و مجرد قوله مّتِرُّ في أواخر كلامه أنّها بسبب سلامة الفطرة لا يكفي لإثباتها فقوله أنّما صاروا متّقين أولىٰ هذه الصّفات بهدايةٍ منه تعالىٰ ثمّ وَصف الكتاب بأنّه هُدىً لهؤلاء المتّقين الىٰ أن قال فَعلمنا بذلك أنّ الهداية غير الهداية كلامٌ لا نفهم معناه و أيّ فرقٍ بين هداية الّله تعالىٰ و بين هداية القرأن و هداية الرّسول اذ الكلّ يرشد الإنسان الىٰ ما هو خير له فلو كان ما ذكره مّتِرُّ في الهداية والضّلالة السّابقة قبل الهداية والضّلالة الثّانية حقّاً لزم الجَبر و ذلك لأنّ الّله تعالىٰ هدىٰ قوماً و هم المُتّقون و أضّل قوماً و هم الكفّار قبل أن يهديهم بكتابه و دينه و لا نعني بالجَبر الاّ هذا و كيف يكون ضلالهم الأوّل موجبا لأوصافهم الخَبيثة من الكُفر والنّفاق الّلهم الاّ أن يقال أنّ الهداية و الضّلالة في مرتبة الأولىٰ كانتا بإختيارهم لا أنّ الّله تعالىٰ جعلهم كذلك و لكن كلامه مّتِرُّ يأبىٰ عن ذلك و محصّل الكلام أنّ الهداية في التّشريع واحدة لا ثاني لها وهي الهداية التّي تحصل للإنسان بمتابعة الرّسول والعمل بما أمَرَه به و نَهاه عنه.

١- الميزان في تفسير القرأن لطباطبائي (قده) ج ١ ص٤٤

و أمّا الأيات كقوله تعالىٰ: **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِـالْقَوْلِ ٱلثَّـابِتِ**[1] الخ و أمثالها لا تدّل علىٰ المدّعىٰ أصلاً علىٰ ما سيأتي إن شاء اللّه تعالىٰ.

والّذي أوقَع بعض المُفسّرين في هذه الوَرطات هو جمودهم علىٰ ظواهر الألفاظ كما ذكرناه في صدر المَبحث و قلنا أنّ ظاهر اللّفظ يقتضي ذلك فأنّ هداية الكتاب.

للمُتّقين فرع وجودهم أوّلاً و من المعلوم أنّ المتّقي لا يكون الاّ مهدياً و حيث لا تكون هدايتهم بالقرأن علىٰ الفرض حين إتّصافهم بالتّقوىٰ فلا جَرم هدايتهم باللّه تعالىٰ أولاً و بالقرأن ثانياً و لم يعلموا أنّا اذا قلنا مثلاً، السّـلاح عصمة للمعتصم، و المال غنىٰ للغني، و العـلم نـور للـعالم، ليس مـعناه أنّ السّلاح و المال و العلم كلّ واحد منها سبب لوجود المُسّبب اذ ليس هـناك سبب و مُسبّب واقعاً و أن كان ظاهر اللّفظ يوهمه بل معناه أنّ المال والغنىٰ واحد و العلم و العالم كذلك و بعبارةٍ أخرىٰ ليس كلّ واحدٍ منها سبباً لأمـر حادث غير ما هم فيه و المقام من هذا القبيل فأنّ المُتّقي مهتدٍ بهذا الهُـدىٰ أعني هداية الكتاب حقيقة لا أنّ الكتاب أحدث فيه هداية غير ما هو فيه و لذلك ذهب بعض المحققين الىٰ أنّ، مَن قَتل قتيلاً فَله سَلبه، حقيقة لا مجاز و لا يقال أنّه لا مفاد لإثبات القتل لمقتولٍ به، لأنّ قصد البليغ بـمعونة القـرنية العقلية أنّ القتل المتّصف به صادر عن هذا القاتل دون غيره فكأنّـه قـيل لم يشاركه فيه غيره فسلبه له دونه غيره فقوله تعالىٰ: **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** معناه أنّه لا هُدىٰ لهم الاّ بكتاب اللّه والعلم عند اللّه فهو بكلامه من غيره.

■

١- ابراهيم = ٢٦

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنٰاهُم يُنْفِقُونَ﴿٣﴾

◁ اللّغة

الَّذِينَ: جمع الّذي و أصله اللّذيون الاّ أنّ ياء الجمع حذفت ياء الأصل و قد مرّ الكلام فيه عند قوله تعالىٰ **صَرٰاطَ الَّذِينَ**.

يُؤْمِنُونَ: أصله يأمَنون لأنّه من الأمن و الماضي منه (أمن، فالألف بدل من الهَمزة السّاكنة قلّبت ألفاًكراهية إجتماع همزتين.

بِالْغَيْبِ: هنا مصدر بمعنىٰ الفاعل أي يؤمنون بالغائب عنهم و يجوز أن يكون بمعنىٰ المفعول أي الغَيب كقوله هذا خلق الّله أي مخلوقه.

يُقِيمُونَ: أصله يُوقومون و ماضيه أقام وأصله أقوم قلّبت الواو ألفاً فـصار أقامَ: والثلاثي منه قام و أصله قَوم و النّون فيه مَفتوحة لأنّها نون الجمع.

الصَّلٰوةَ: في أصل اللّغة الدّعاء و في الشّرع عبارة عن الأركان المَخصوصة و ألفها منقلبة عن واو كقولك صَلَوات و الصّلاة مصدر صَلَّىٰ و يراد بها هاهنا الأفعال والأقوال المخصوصة فلذلك جرت مجرىٰ الأسماء غير المَصادر.

وَمِمَّا: كلمة ما بمعنىٰ الّذي، و يعبر عنها بماء المَوصولة.

رَزَقْنٰاهُم: متكلم و أصله من رَزَق و هم مفعوله الأوّل والثّاني محذوف و ذلك لأنّ رزقنا يتّعدىٰ الىٰ مفعولين، و تقديره رزقناهموه أو رزقناهم أيّاه و يجوز أن تكون ما نكرة موصولة بمعنىٰ شئ رزقناهم أو من مالٍ رزقناهم و لا يجوز أن تكون ما مصّدرية لأنّ الفعل لا يَنفق و مِن للتّبعيض و يجوز أن تكون لإبتداء غاية الإنفاق.و أصل يُنْفِقُونَ يؤنفقون، لأنّ ماضيه أَنْفَقَ وقد تَـقدّم نظيره.

◁ الإعراب

قوله: **اَلَّـذِينَ يُـؤْمِنُونَ** فـي مـوضع جرٍّ صـفة للـمتّقين والصّـفة تـابعة للموصوف و يجوز أن يكون في موضع نصب علىٰ موضع **لِلمتّقين** أو بإضمار **أعني** و يجوز الرّفع أيضاً علىٰ اضمار **هُم** أعني هم الّذين يؤمنون، فيكون خبراً لمبتدأ محذوف أو أنّه مبتدأ وخبره أولئك علىٰ هُدىً. **بِالْغَيْبِ الغَيب** مصدر مجرور بالباء. **يُقيمُونَ** في موضع الرفع لأنّه معطوف علىٰ (يؤمنون) كأنّه قيل **اَلّذِينَ يُـقيمُونَ الصَّـلاٰةَ**، والصّـلٰوة مـفعول الفـعل مـوضعها النّـصب. **وَمِـمّٰا رَزَقْنٰاهُم** كلمة **مِـن** متعلّقة بـينفقون والتـقّدير و يـنفقون **مِـمّٰا رَزَقْـنٰاهُم** و **رزقناهم**، لا موضع له من الإعراب لأنّ الصّلة لا موضع لها.

نعم أن قلنا أن **ما** نكرة موصولة بمعنىٰ، شيئ، أي و من مالٍ رزقناهم فيكون رزقناهم في موضع جرٍّ صفةٍ لِما و قد قلنا أنّ **من** للتّبعيض أو لإبـتداء غـاية الإنفاق.

◁ التّفسير

لمّا بيّن الّله تعالىٰ في الآية السّابقة أنّ القرآن **هُدَىً لِّلْمُتَّقِينَ** فكأنّه قيل وما المراد بالمتّقين، و مَن هُم فقال تـعالىٰ: **اَلَّذِينَ يُـؤْمِنُونَ بِـالْغَيْبِ** الىٰ أخـر الأوصاف الخمسة أو السِتّة و قد ذكر الّله تعالىٰ في هذه الآية أوصافاً ثلاثة، الإيمان بالغيب، و إقامة الصّلٰوة، والإنفاق ممّا رزقه الّله.

نحن نبحث في هذه الأوصاف علىٰ ترتيب الآية و عليه فالبحث يقع في فصول ثلاثة:

الفصل الأوّل:

في الإيمان بالغَيب و البحث فيه يقع في مقامين:

المقام الأوّل: في معنىٰ الإيمان.



المقام الثّاني: في معنىٰ الغَيب والمراد به في المقام.

أمّا البحث في المقام الأوّل فنقوّل: الإيمان بكسر الألف مصدر والفعل مِنه أمَنَ وهو مشتق من **الأَمن** وهو طمأنينة النّفس وزوال الخوف و **الأمن** و **الأمانة** و **الأمان** في الأصل مصادر قاله الرّاغب في المفردات و قال في المنجد امنه ايماناً، صَدّقه و وَثق به، له خَضع وانقاد.

و قال في المجمع، الإيمان لغة هو التصدّيق المطلق إتّفاقاً من الكلّ و منه قوله تعالىٰ: **وما أنتَ بِمؤمنٍ لنا** و شرعاً علىٰ الأظهر هو التصدّيق باللّه بأن يصدّق بوجوده وبصفاته وبرّسله لان يَصدّق بأنّهم صادقون في ما أخبَروا به عن اللّه و بكتبه بأن يّصَدق بأنّها كلام اللّه وأنّ مضمونها حقّ و بالبعث من القبور والصّراط والميزان وبالجنّة والنّار و بالملائكة بأنّهم موجودون و أنّهم عباد مكرمون لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرون ويُسبّحون اللّه باللّيل و النّهار لا يفترون مطهّرون من أنواع الشهوّات من الأكل والشّرب والجماع الىٰ غير ذلك مبّرأون عن التّناسُل والتَّوالد ليسوا بذكورٍ ولا إناث بل خلقهم اللّه تعالىٰ من نوره و جعلهم رسلاً الىٰ من يشاء من عباده انتهىٰ.

و قال الرّاغب في المفردات والإيمان يستعمل تارةً للشّريعة الّتي جاء بها محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ ٱلَّذِينَ هَادُوا وَ ٱلصَّابِئُونَ**(١).

و يوصف به كلّ من دخل في شريعته مقرّاً باللّه و بنبوّته قيل و علىٰ هذا قال تعالىٰ: **وَ مَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ**(٢).

و تارةً يستعمل علىٰ سبيل المدح ويراد به إذعان النّفس للحقّ علىٰ سبيل التّصديق و ذلك باجتماع ثلاثة أشياء:

١- المائدة= ٦٩

٢- يوسف = ١٠٦

تحقيق القلب، و إقرار باللّسان، و عَمَلٌ بحَسب ذلك بالجوارح و على هذا قوله تعالىٰ: **وَ اَلَّذِينَ اٰمَنُوا بِاللّٰهِ رُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ اَلصِّدّيقُونَ**(١).

و يقال لكلّ واحدٍ من الإعتقاد والقول الصدّق والعَمَل الصّالح إيمان قال تعالىٰ: **وَ مٰا كٰانَ اَللّٰهُ لِيُضِيعَ اِيمٰانَكُمْ**(٢) أي صلاتكم.

و جعل الحياء وإماطة الأذىٰ من الإيمان قال تعالىٰ: **وَ مٰآ أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنٰا وَ لَوْ كُنّٰا صٰادِقِينَ**(٣).

قيل معناه بمصدّقٍ لنا الاّ أنّ الإيمان هو التصدّيق الّذي مَعه أمنٌ و قوله تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ اَلْكِتٰابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ اَلطّٰاغُوتِ**(٤)

فذلك مذكور علىٰ سبيل الذّم لهم وأنّه قد حصل لهم الأمن بما لا يقع به الأمن اذ ليس من شأن القلب ما لم يكن مطبوعاً عليه أن يطمئن الىٰ الباطل انتهىٰ.

و قد نقلنا كلام الرّاغب وقبله كلام صاحب المجمع لما كان فيه من الفوائد اذا عرفت هذا فنقول الأيمان والأسلام يختلفان و قد يجتمعان.

أمّا مورد الفرق هو أنّ الإيمان يشترط فيه الإعتقاد والتصدّيق بالّله وبرسُله الخ

بعد الإقرار باللّسان و بعبارةٍ أخرىٰ الإيمان هو التّصديق المطلق في الّلغة بالاتّفاق والتصدّيق بالّله و رسله في الشّريعة ففي الموردَين لابدّ له من وجود التّصدّيق و مجرّد الإقرار لا يكفي في تحققه فكلام الرّاغب أنّه يستعمل للشّريعة الىٰ قوله و يوصف به كلّ من دخل في شريعة مُقّراً بالّله و بنبوّته، لا معنىٰ له اذ ليس كلّ من دَخل في الشّريعة بالإقرار الّلساني مؤمن والدّليل علىٰ بطلانه قوله تعالىٰ: **قٰالَتِ اَلْأَعْرٰابُ اٰمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوٓا أَسْلَمْنٰا**(٥).

١- الحديد= ١٩
٢-البقرة = ١٤٣
٣- يوسف = ١٧
٤- النساء = ٥١
٥- الحجرات = ١٤

نعم ما ذكره في ثاني المعينين وعبَّر عنه باستعماله علىٰ سبيل المَدح فهو صحيح و هذا هو المراد بالأيمان في الشَّريعة فأنّ الأيمان الشّرعي عبارة عن الإقرار باللّسان أوّلاً والأعتقاد بالقلب ثانياً، والعمل بالجوارح ثالثاً و ما ليس فليس.

و أمّا الإسلام فهو عبارة عن الإقرار باللّسان بالشّهادتين فقط و لا يشترط فيه الأعتقاد والعمل فعلىٰ هذا كلّ مؤمنٍ فهو مُسلمٌ ولا عكس هذا كلّه في مورد الفَرق بينهما.

و أمّا مورد الإجتماع فهو فيما اذا أُريد من الاسلام ما ذكرناه من الشّروط في الإيمان، و لأجل هذه الدّقيقة قال اللّه تعالىٰ في المقام:**اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ولم يقل يسلمون بالغَيب و لو قال تعالىٰ يُسلمون بالغيب، لكان جميع المسلمين أعني كلّ من أقرّ بالشّهادتين، من المُتّقين و هو كما ترىٰ.

روي صاحب كشف الغُمة بأسناده عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: الإيمان ثابت في القلب واليقين خطرات فمرّة يقوىٰ فيصير كأنّه زُبَر الحديد، و مرّة يصير كأنّه خِرقة بالية إنتهىٰ.

و في حديث رفاعة قال عليه السلام: أتدري يا رفاعة لِمَ يُسّمىٰ المؤمن مؤمناً قال لا أدري قال عليه السلام: لأنّه يؤمن علىٰ اللّه فيُجّز أمانه إنتهىٰ.

والمؤمن من أسماء اللّه تعالىٰ سُمّي اللّه تعالىٰ به لأنّه يؤمن من عذابه من أطاعه والأيات و الأخبار في فضل الإيمان و شرف المؤمن كثيرة لا بأس بالإشارة الىٰ بعضها.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا مَنَعَ اَلنّٰاسَ أَنْ يُؤْمِنُوٓا إِذْ جٰآءَهُمُ اَلْهُدٰى**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْاٰخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذٰا جٰآءَكَ اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاٰيٰاتِنٰا فَقُلْ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ**(٣)

١- الكهف= ٥٥ ٢- آل عمران= ١١٤

٣- الأنعام= ٥٤

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللّٰهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللّٰهُ**[١]
قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ**[٢]
قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلنَّعِيمِ**[٣]
و الأيات في الباب كثيرة جدّاً وستمرّ عليها إن شاء اللّه تعالىٰ.

و من الآثار: ما رواه في البحار بأسناده عن البّاقر والصّادق في قول اللّه: العروة الوثقىٰ قال هي الإيمان باللّه وحدَه إنتهىٰ[٤].

و بأسناده: عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه سأل عن أهل السّماء هل يرون أهل الأرض قال عليه السلام لا يرون إلاّ المؤمنين لأنّ المؤمن من نورٍ كنور الكواكب قيل فهم يرون أهل الأرض قال لا يرون نوره حيث ماتوجّه ثمّ قال عليه السلام: لكّل مؤمنٍ خمس ساعات يوم القيامة يشفع فيها إنتهىٰ[٥].

و عن زرارة قال سئل أبوعيداللّه وأنا جالس عن قول اللّه عزّ وجّل من جاء بالحَسنة فله عشر أمثالها أيجري لهؤلاء مِمن لا يعرف منهم هذا الأمر قال عليه السلام إنّما هي لِلمؤمنين خاصّة إنتهىٰ[٦].

و عنه عليه السلام ليس لأحدٍ علىٰ اللّه ثواب علىٰ عمل إلاّ المؤمنين و أيضاً قال عليه السلام أنّ المؤمن ولّىٰ اللّه يعينه و يصنع له ولا يقول علىٰ اللّه إلاّ الحّق ولا يخاف غيره.

و قال أنّ المؤمنين يلتقيان فيتصافحان فلا يزال اللّه عزّ وجّل مُقبلاً عليهما بوجهه والذّنوب تتّحات عن وجوههما حتّىٰ يفترقا إنتهىٰ[٧].

١- النحل = ١٠٤
٢- محمّد = ٧
٣- لقمان = ٨
٤- ج ١٥ ط كمباني ص ١٧
٥- ص ١٨
٦- صفحة ١٨
٧- ص ١٨

قال النّبي ﷺ: ما من شئ أحبّ الىٰ اللّـه مـن الإيـمان والعَمل الصالح وتَرك ما أمر أن يُترك، وعنه ﷺ قال لا يُعذّب اللّه أهل قريةٍ و فيها مائة مـن المـؤمنين لا يـعذّب اللّـه أهـل قـريةٍ و فـيها خمسون من المؤمنين لا يعذّب اللّه أهل قريةٍ و فـيها عشـرة مـن المؤمنين لا يعذّب اللّه أهل قريةٍ و فـيها خـمسة مـن المـؤمنين لا يعذّب اللّه أهل قريةٍ وفيها رجل واحد من المؤمنين إنتهىٰ[١].

و عنه ﷺ قال من آذىٰ مؤمناً فقد آذاني وَ من آذاني فقد آذىٰ اللّه عزّ وجّل و من آذىٰ اللّه فهو ملعون فى التّوراة والإنجيل و الزّبور و الفرقان.

و عنه ﷺ قال مثَل المؤمن كَمَثَلٍ ملك مقرّب و أنّ المؤمن أعظم حُرمة عند اللّه و أكرم عليه من ملكٍ مُقّرب وليس شئٌ.

أحبّ الىٰ اللّه من مؤمنٍ ثابت (تائب) ومـؤمنةٍ ثـابتة (تـائبة) وأنّ المؤمن يعرف في السّماء كما يعرف الرّجل أهله و ولده انتهىٰ[٢].

و.عنه عن الصّادق عليه السلام قال: المـؤمن أعـظم حـرمة مـن الكـعبّة انتهىٰ[٣].

اذا عرفت معنىٰ الإيمان و فضل المؤمن فلنرجع الىٰ المقام الثّاني و هـو معنىٰ الغيب والمراد به في المقام.

المقام الثّانى: في معنىٰ الغيب، قال الرّاغب في المفردات الغيب مصدر غابت الشّمس و غيرها إذا إستترت عن العَين يُقال غابَ عنّي كذا و استعمل في كلّ غائبٍ عن الحاسّة و عمّا يغيب عن علم الإنسّان بمعنىٰ الغائب الىٰ أن قال و يقال لِلشّئ غيبٌ و غائب بإعتباره بالنّاس لا باللّه تعالىٰ فأنّه لا يغيب عنه

١–ص ٢٠ ٢–ص ٢٠
٣–ص ٢٠

شَيْ الیٰ أن قال والغيب في قوله تـعالیٰ:**يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** مـا لا يـقع تـحت الحّواس و لا تقتضيه بداية العقول و انّما يعلم بخبر الأنبياء و بدفعه يقع علیٰ الإنسّان إسم الإلحاد و مَن قال الغيب هو القرآن و مَن قال هو القدر فإشارة منه الیٰ بعض ما يقتضيه لفظه و قال بعضٌ مَعناه يؤمنون إذا غابوا عنكم و ليس كالمُنافقين الّذين قيل فيهم: **وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ**[١] انتهیٰ ما أردنا نقله عنه.

فقد ظهر أنّ الغيب عبارة عن كلّ غائبٍ عن الحاسّة وعمّا يغيب عن علم الأنسان و عليه فالمراد بالغيب ما لا يقع تحت الحّواس و لا تـقتضيه بـدايـة العقول الیٰ آخر ما قاله الرّاغب في المفردات.

فمعنیٰ الآية أنّ المؤمنين يعتقدون بـقلوبهم بـما وراء عـالم الطّبيعة مـن الحشّر و النشّر و الصّراط و الحساب و بالجملة كلّ ما غاب عن حواسّهم و لا يُدركه العقول و هذا معنیٰ عام يَشمل جميع ما أخبَر به الصّادق المصّدق في ما وراء عالم المادّة و مع ذلك فقد إختلفوا في المراد بالغيب في الآية بـعد إتفاقهم علیٰ معناه اللغوّی.

قال في تفسير الميزان، الغيب خلاف الشّهادة و ينطبق علیٰ ما لايقع عليه الحس و هو اللّه سبحانه وأياته الكبریٰ الغائبة عن حواسنا و منها الوَحي و هو الّذي أشير بقوله تـعالیٰ:**وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْـزِلَ مِـنْ قَبْلِكَ**

فالمراد بالإيمان بالغيب في مقابل الإيمان بالوَحي والإيقان بالأخرة هـو الإيمان باللّه تعالیٰ ليتّم بذلك الإيمان بالأصول الثّلاثة و القرأن يُؤكّد القـول علیٰ عدم القصر علیٰ الحسّ ويَحرص علیٰ إتباع سليم العَقل وخالص اللّب انتهیٰ.

١- البقرة = ١٤

وأنا أقول ما ذكره مُدّ ظِلّه لا بأس به الاّ أنّ تقسيمه الإيمان بالأصول الثلاثة للذّين أعني كون الإيمان بالغَيب في مقابل الإيمان بالوَحي والإيمان بالأخرة ممّا لا يساعده العقل و لا النّقل فأنّ الايمان علىٰ قسمين:

الإيمان بالغَيب، والإيمان بالشّهود فكلّ ما ليس بمشهود و لا محسوس فهو داخل في الغَيب و عليه فالإيمان بالوحي والإيمان باللّه تعالىٰ والإيقان بالأخرة كلّ هذه الأقسام داخل في الإيمان بالغَيب.

و ثانياً: كيف يكون الإيمان بالغَيب أعني به الإيمان باللّه علىٰ تفسيره مُدّ ظِلّه في مقابل الإيمان بالوَحي و الإيقان بالأخرة و الحقّ أنّ الأخيرين داخلين في الأوّل فأنّ المؤمن باللّه واقعاً مؤمن بالوَحي والأخرة أيضاً لأنّ اللّه تعالىٰ قد أخبَر بوجودهما بواسطة أنبيائه فكيف يكون مؤمنا به تعالىٰ و لا يكون مؤمنا بقوله و قوله مُدّ ظِلّه و القرأن يؤكد القول علىٰ عدم القصر ويحرّص علىٰ إتباع سليم العقل، كلام متين و نحن نقول به أيضاً ولم نقل أنّ الإيمان بالغَيب مختصّ بما غاب عن الحوّاس فقط بل هو و ما لا يقتضيه بداية العقول و ما ذكره داخل في هذا القيد فتأمل.

إن قلت لم صار الإيمان بالغيب من أوصاف المتّقين دون مطلق الإيمان ألَيس هذا يدّل علىٰ أنّ الايمان بالغَيب أفضل من الإيمان بالشّهود قلت نعم لاشكّ في أفضّليته عليه و لأجل هذا خصّ بالذِّكر والوجه فيه ظاهر علىٰ المُنصف المتأمل.

ضرورة وجود الفرق بين الرّؤية للشّيءِ والإيمان به و بين عدم الرّؤية والإيمان به والثّاني أفضل من الأوّل بمراتب كثيرة و العجب من الألوسي حيث أنكَرَ هذا الأصل في تفسيره عند البحث في هذه الآية و إستدّل علىٰ إنكاره بخروج الصّحابة عن هذا العُموم:

وأنّما قال ذلك بعد نقله عن سنن الدّارمي عن ابن مسعود أنّ الحرث بن قيس قال له عند اللّه نحتسب ما سَبقتمونا اليه من رؤية رسول اللّـه صلى الله عليه وآله وسلم فـقال له ابـن مسـعود عـند اللّـه نَـحتسب إيمانكم بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ولَم تروه أنّ أمر محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم كـان نـبّياً لِـمن رأه والّذي لا إلٰه الاّ هو ما من أحدٍ أفضَل من إيمانٍ بغيب ثمّ قرأ الآية الىٰ قوله: هم المُفلحون.

قال الألوسي يا ليت ابن مسعود سَكن لوعة الحَرث بما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً (نِعم قوم يكونون بعدكم يؤمنون بي ولَم يَروني)

و ما كان أغناه عليه السلام عمّا أجاب به اذ يخرج الصّحابة عن هذا العموم الّذي في هذه الآية كما يشعر به قراءته لها مستَشهداً بها وبه.

و قال بعض أهل العِلم و أنا لا أميل الىٰ ذلك انتهىٰ ما ذكره بألفاظه.

وأنا أقول أمّا أوّلاً فالحديث الّذي رواه الألوسي نعم قوم يكونون الخ.

و قال ليث ابن مسعود سكن لَوعة الحَرث به، لم يـعلم بـه ابـن مسـعود والحديث من مجعولات بني أُميّة و لو كان من كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لقال به ليرضي الألوسي في آخر الزّمان.

و ثانياً أيّ إشكال عقلا و شرعاً في خروج الصّحابة عن عموم الآية و أيّ دليلٍ دل علىٰ أفضّلية الصّحابة علىٰ من بعدهم من المؤمنين بقول مطلق و هل يحكم العقل السّليم علىٰ أنّ من رأىٰ النّبي و صار من أصحابه بَحسب اللّغة دون الواقع أفضل مِمّن لم يَره وآمن به واقعاً و أيّ فضيلةٍ لِلإنسان إذا رأىٰ النّبي و صاحبه و عاشره لم يؤمن به واقعاً علىٰ غيره و لو كـان الأمـر كـما زَعـمه الألوسي من أنّ صدق الصّحابي يكفي في فضيلة الإنسان كما هو ظاهر كلامه فعلىٰ الإسلام السلام وكيف يقول بهذه المقالة من يدّعي العلم والإسلام بل الإيمان و هو يفسّر كلام اللّه بَزعمه و هو يعلم أنّ مِن الصّحابة أبو سفيان و

معاوية و خالد ابن الوليد و مسلم ابن عُقبة و الأشعث ابن قيس و أمثالهم مِمّن يستحي القَلم عن تحرير أسمائهم و يأبىٰ اللسّان عن بيان حالاتهم، بل و أخبث منهم من غَصب حقّ بعث رسُول اللّه ﷺ مع أعوانه و أنصاره من الصّحابة و لم يقنع به فأحرقُوا داره و فَعلوا بها ما فَعلوا حتّىٰ ماتت ساخطةً عليهم و هؤلاء أصحاب رسُول اللّه ﷺ الّذين يقول الألوسي مُدافِعاً عنهم و أنّا لا أميل الىٰ ذلك أو إذا وصل أَمر الصّحابة الىٰ هذا المقام في صدر الإسلام فللّه درّ ابن مسعود حيث قال عند اللّه نحتسب إيمانكم به محمّدٍ ولَم يَروه، والكلام طويل اللّهم أرزُقنا الإنصاف وجنبنا الاعتساف بمحمّدٍ وآله الطّاهرين.

الفصل الثّانى:

في تفسير قوله تعالىٰ: **وَيُقِيمُونَ الصَّلوٰةَ** والبحث يقع في مقامين:

الأوّل في الصّلاة. الثّاني في إقامتها.

المقام الأوّل في الصّلاة: فَنقول قد مرّ الكلام منا فيها و قلنا أنّها مصدر و الفعل منها صَلىٰ، يقال صلّىٰ صَلاة و ألفها منقلبة عن واو لقولك في جمعها صلوات و هي في أصل اللّغة بمعنىٰ الدّعاء والتّبريك والتّحميد يقال صلّيت عليه أي دعوت له و زّكيت و منه قوله ﷺ إذا دعِيَ أحدّكم الىٰ طعامٍ فليجب و إن كان صائماً فليُصَّل، أي ليدعُ لأهله و صلوات الرّسول و صلاة اللّه للمسلمين في التّحقيق تزكية ايّاهم و من الملائكة هي الدّعاء والإستغفار كما هي من النّاس هذا بحسب الأصل و أمّا في الإصطلاح و إن شِئت قلت في عرف المتشرعة هي العبادة المخصوصة أصلها الدّعاء و سُمّيت هذه العبادة بها كتسمية شيىء بإسم ما يتضّمنه مجازاً.

قاله الرّاغب في المفردات و قيل أصل الصّلاة في الصّلاء و معنىٰ صلّىٰ الرّجل أنّه أزال عن نفسه بهذه العبادة (الصّلاء) الّذي هو نار اللّه الموقدة و قد

سُمّي موضع العبادة الصّلاة و لذلك سمّيت الكنائس (صَلَوات). قال اللّه تعالىٰ: (**لهُدِمّت صَوامِع وبِيَع وصَلواتٌ ومساجد**).

قال الرّاغب فيها و كيف كان الأمر فلا شكّ أنّها عند المُسلمين عبارة عن أفعالٍ مخصوصة من القيام الرّكوع والسجُود و أمثالها مع إذكارٍ مخصوصة أمَرنا الشّرع بها و هي من الواجبات بل من أركان الدّين فأنّه قد ورد أنّ الإسلام بُنِي علىٰ خمس:

أحدها الصّلاة و مع ذلك هي أوّل الفرائض كما قيل و لذلك قد وَرد في فضلها والحّث عليها من الأيات والأخبار ما لا يُحصىٰ كثيرةً و لا بأس بالإشارة الىٰ بعضها تيمّناً و تبرّكاً فنقول.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ ٱلصَّلٰوةِ وَ إِنَّهٰا لَكَبِيرَةٌ إِلّٰا عَلَى ٱلْخٰاشِعِينَ**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلصَّلٰوةَ كٰانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتٰابًا مَوْقُوتًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ ٱتَّقُوهُ وَ هُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**[٣]

قال اللّه تعالىٰ: **رِجٰالٌ لٰا تُلْهِيهِمْ تِجٰارَةٌ وَ لٰا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللّٰهِ وَ إِقٰامِ ٱلصَّلٰوةِ**[٤]

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لِعِبٰادِىَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلٰوةَ**[٥] والايات كثيرة.

جامع الأخبار - قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: الصّلاة عِماد الدّين فمن ترك صلاته مُتّعمداً فقد هَدم دينه و من ترك أوقاتها يدخل الويل

١- البقرة= ٤٥
٢- النّساء= ١٠٣
٣- الأنعام= ٧٢
٤- النّور= ٣٧
٥- إبراهيم= ٣١

والويل وادٍ في جهّنم كما قال تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ،اَلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**[١].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: حافظوا علىٰ الصّلاة فإنّ اللّه تبارك وتعالىٰ إذا كان يوم القيامة يأتي بالعبد فأوّل شيءٍ يسأل عنه الصّلاة فإن جاء بها تامّة وإلاّ زخ في النّار إنتهىٰ.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا تضيّعوا صلاتكم فأنّ من ضيّع صلاته حَشره اللّه مَعَ قارون و فِرعون و هامان لعنهم اللّه و أخزاهم وكان حقّاً علىٰ اللّه أن يدخله النّار مع المُنافقين فالويل لِمن لم يحافظ علىٰ صلاته.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: من ترك صلاته حتّىٰ تفوته من غير عذرٍ فقد حبط عمله ثّم قال صلى الله عليه وآله وسلم: بين العبد وبين الكُفر ترك الصّلاة إنتهىٰ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: من ترك صلاة لا يرجو ثوابها و لا يخاف عقابها فلا أُبالي أيموت يهودّياً أو نصرّانياً أو مجوّسياً إنتهىٰ[٢].

و عن ثواب الأعمال بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: للمصّلي ثلاث خصال إذا قام في صلاته يتناثر عليه البّر من أعنان السّماء الىٰ مفرق رأسه و تحّف به الملائكة من تحت قدميه الىٰ أعنان السّماء و ملكٌ ينادي أيّها المصّلي لو تعلم من تناجي ما أنفلتت إنتهىٰ[٣].

و بأسناده عن البّاقر عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ما بين المسلم و بين أن يكفر إلاّ أن يترك الصّلاة الفريضة متعمّداً و تهاون بها فلا يصلّيها إنتهىٰ[٤].

١- المائون= ٤/٥
٢- بحار الأنوار ج ١٨ ص ٥ ط كمباني
٣-ص ٨
٤-ص ٩

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مثل الصّلاة مِثل عمود الفِسطاط إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد والغِشاء و إذا إنكسر لم يَنفَع طنب و لا وَتد ولا غشاء إنتهىٰ(١).

و عن المحاسن بأسناده عن زرارة قال سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ: ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عَمَله قال عليه السلام: ترك الصّلاة الّذي أقر به قلت فما موضع ترك العَمل حتّىٰ يَدَعه أجمع قال منه الّذي يدع الصّلاة مُتّعمداً إلاّ من سُكرٍ ولا من عِلّةٍ إنتهىٰ(٢).

و عن تفسير الإمام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم من صلّىٰ الخمس كفّر اللّه عنه من الذّنوب ما بين كلّ صلاتين و كان كمَن علىٰ بابه نهرٍ جار يغتسل فيه خمس مرّات لاتبقىٰ عليه من الذّنوب شيئاً إلاّ الموبقات التّي هي مَجد النّبوة و الإمامة أو ظلم أخوانه المؤمنين أو ترك التقيّة حتّىٰ يضرّ بنفسه وأخوانه المؤمنين انتهىٰ(٣).

و الأحاديث كثيرة وسيأتي بعضها في تضاعيف الكتاب إن شاء اللّه تعالىٰ.

المقام الثّانى: في إقامتها قال الطّبرسي قدس سره **وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ** يُؤدونها بحدُودها و فرائضها يقال أقام القوم سُوقهم اذا لم يعطّلوها عن البيع والشّراء.

قال الشّاعر:

اقامت غزالة سوق الظّرب　　　لأهل العراقين حَولاً قميطاً

و قال أبو مسلم يقيمون الصّلاة أي يديمون أداء فَرائضها يقال فلان يقيم أرزاق الحند انتهىٰ.

و قال الفيض قدس سره في الصّافي، يقيمون الصّلاة بإتمام ركوعها وسجُودها و حفظ مواقيتها و حدُودها و صيانتها ممّا يُفسدها أو ينقصها انتهىٰ.

١-ص ٩　　٢-ص ٩

٣-ص ٩

و قال صاحب الكّشاف ومعنىٰ إقامة الصّلاة تعديل أركانها و حفظها من أن يَقع زيغ في فرائضها و سُننها وأدابها و من أقام القُود اذا قوّمه أو الدَّوام عليها و المحافظة عليها كما قال عزّ وجلّ وعلا: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**[1].من قامت السّوق اذا أنفقت وأقامها الىٰ أن قال لأنّها اذا حُوفظ عليهاكانت كالشيئ النّافق الّذي تتوجّه اليه الرّغبات و يتنافس فيه المحصّلون و اذا عُطّلت و أُضيعت كانت كالشيئ الكاسد الّذي لا يرغب فيه أو التجلّد والتَّشمر لأدائها و أن لا يكون في مؤدّيها فتور عنها و لا توانٍ من قولهم قام بالأمر وقامت الحرب علىٰ ساقها.

أو أدائها فعبّر عن الأداء بالأقامة لأنّ القيام بعض أركانها كما عبّر عنه بالقنوت والقنوت القيام الىٰ أخر ما قال و به قال أكثر المفسّرين من العامّة الّذين جاءوا بعده كالألوسي والسّيوطي وغيرهما.

و بالجملة كلمات المفسّرين حَول الآية لا تفاوت فيها الاّ من جهة اللّفظ و العبارة والمأل في الكلّ واحد وأنّىٰ بعد التَّفَحص في تفاسير العامّة و الخاصّة بقدر الإستطاعة لم أجد في معنىٰ إقامة الصّلاة ما يَطمئن به القلب و ما ذكروه في تفسير الآية لا يسمن و لا يَغني اذ لو كان معنىٰ الإقامة ما ذكروه في تفسيرها في المقام يلزم أن يكون المواظب علىٰ الصّلاة والمُديم عليها في أوقاتها مِمّن يقيم الصّلاة و ليس كذلك فأنّ المواظبة علىٰ إتيانها و الإدامة عليها أمر حسن لا بحث فيه الاّ أنّ الإقامة شيئ أخر والدّليل علىٰ ما ذكرناه هو أنّ الخَوارج كانوا من المواظبين عليها ليلاً و نهاراً والمحافظين عليها ركوعاً وسجوداً و قياماً و قراءةً و المُديمين عليها في أوقاتها من غير تعطيل فهل يمكن أن يقال أنّهم من المقيمين لِلصّلاة اذ لو كانوا كذلك لكانوا من المتّقين فأنّ إقامة الصّلاة من أوصافهم والمُتّقي لا يحارب إمام المتّقين لقوله ﷺ.

١- المومنون = ٩

ياعلّي حَربك حَربي وسِلمك سِلمي وأن لم يكونوا منهم كما هو الحقّ فما تقول في صلاتهم وصومهم و غيرهما من العبادات وهكذا الأمر في أكثر المصّلين المُرائين و المنافقين والمُتَزّهدين والذّين لا تجد في صَلاتهم عيب و لا نقص بحسب الظّاهر من جميع الجهات من حيث القراءة والقيام والرّكوع و السّجود و الإذكار و غيرها مع أنّ صلاتهم باطلة بالإتّفاق فضلاً عن كونهم من المُقيمين لها و هذا هو الّذي يوجب الإضطراب فيما ذكروه في تفسيراللّهم إلاّ أن يقال ما ذكره الطّبرسي قدّس سرّه و غيره من مفسري الشّيعة من أنّها عبارة عن تأديتها بحدُودها و فرائضها يشمل كلّ شئ من النّية والقربة والخلُوص و غيرها ممّا يشترط في صحّتها و لاسيّما الولاية فأنّه ما نُودي بشئ كما نُودي بها علىٰ مذهبنا بل نقول هي الأصل في قبول الأعمال و ما سواهاً فرع عليها.

و لا يبعد أن يكون المراد من الإقامة لها هو الإقامة النّاشئة منها لا الإقامة في الظّاهر فَمن صلّىٰ كذلك فقد أقامها و من صَلّىٰ بدونها فقد أدّاها و هذا هو الفرق بين الإقامة **والتّأدية** فتأمل في المقام لعلّك تفهم من الآية غير ما فَهمنا منه فان اقامة الصَّلوة غير ادائها.

الفصل الثّالث:

في تفسير قوله تعالىٰ: **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** و هذا هو الوَصف الثّالث للمتّقين، الإنفاق الإعطاء في سبيل اللّه طلباً لمرضاته و أصله من، نَفَق الشّئ مَضىٰ و نَفَد و قيل أصل الانفاق، الفقر من قولهم أنفقَ الرّجل اذا إفتَقر و ذَهب ماله ثمّ أنّ الإنفاق قد يكون في المال و قد لا يكون فيه بل في شئ أخر و أيضاً قد يكون واجباً و قد يكون تطوعاً و قد وَردت الأيات و الأثار في مدحه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا** (٢)

١- الرّعد= ٣٢ ٢- الفرقان= ٦٧

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ**[(١)]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اَللّٰهَ بِهِ عَلِيمٌ**[(٢)]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ**[(٣)]

قال بعض المفسّرين في معنىٰ الآيـة أي يـتصدّقون و يـحتملون الكـلّ و يؤدّون الحقوق لأهاليها و يقرضون و يسعفون الحاجات و يأخـذون بأيـدي الضّعفاء يقودون الضّرائر و ينجونهم من المهالك و يحملون عـنهم المـتاع و يحملون الرّاجلين علىٰ دَوابّهم و يؤثرون من هو أفضل منهم في الإيمان علىٰ أنفسهم بالمال والنّفس و يساوون من كان في دَرجتهم فيه بهما و يعلمون العِلم لأهله و يَروون فضائل أهل البيت لمحبّيهم و لمن يرجون هدايته.

و في المجمع والعياشي عن الصّادق عليه السلام وممّا عَلمناهم يـبثبون انتهىٰ.

و قال الطّبرسي رحمه الله (ما) هذه حرف موصول و رزَقناهم صلَته و هما جميعاً به معنى المصدر و تقديره، و من رَزقنا إيّاهم ينفقون، قال والرزق هو العطاء الجاري و هو نقيض الحرمان.

و الإنفاق إخراج المال يقال أنفق ماله أي أخرجه عن ملكه انتهىٰ.

و استّدل بعض علماء التّفسير بهذه الآية علىٰ أنّ الرّزق لا يكون حراماً و ذلك لأنّ الرّزق عبارة عن كلّ ما ينتفع به الحيّ و لا يمكن لأحدٍ مَـنعه مـنه فَيشمل جميع ما يَنتفع به كما يقال رزقه اللّه داراً و عقاراً و ولداً و علماً و غير ذلك و من المعلوم أنّ اللّه تعالىٰ لا يُعطي حراماً لأنّه مَمنوع مَحظور و الحاصل أنّ الرّزق لا يختّص بالمال و عليه فالأية تُحمل علىٰ العمُوم أي يُنفقون من كلّ ما رَزقناهم من المال و العلم و الاولاد والنّفس و غيرهما في سبيل اللّه.

١- البقرة= ٢٧٢
٢- البقرة= ٢٧٣
٣- الأنفال= ٦٠

و قد نقل عن ابن عبّاس أنّه قال المراد بالإنفاق هنا الزّكٰوة و عن ابن مسعود أنّ المراد نفقة الرّجل علىٰ أهله و عياله و قال الضّحاك أنّ المراد به الصدّقة و الحقّ ما قلناه من أنّها للعمُوم و سيأتي الكلام في الإنفاق والإيثار في الأيات الواردة بما لا مزيد عليه إنشاء اللّه في تضاعيف الكتاب.

■

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

◁ اللّغة

قد مرّ الكلام في، الّذين يؤمنون في الآية السّابقة **بِمَا أُنْزِلَ**: **ما** هاهنا بمعنىٰ الّذي أي إنّها موصولة و لا يجوز أن تكون موصوفة، أي بشيءٍ أنزل اليك اذ لا يكمل إيمان العبد بشيءٍ ممّا أنزل علىٰ الرّسول بل بَعمل الإيمان بكلّه.

أُنْزِلَ: بضم الألف مجهول، أَنزَل.

إِلَيْكَ: الكاف هنا ضمير المخاطب و هو النّبي ﷺ و يجوز أن تكون ضمير الجنس و تكون في معنىٰ الجمع كما صرّح بهذا المعنىٰ في قوله: **لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ**[1].

مِنْ قَبْلِكَ: كلمة، **من** حرف جّرٍ و **قبل** مضافاً الىٰ الكاف و هي للخطاب.

بِالْآخِرَةِ: الباء متعلّقة به **يُوقِنُونَ** والأخرة، صفة والموصوف محذوف و تقديره بالسّاعة الأخرة أو بالدّار الأخرة كما قال تعالىٰ: **وللدّار الأخرة خير** و قال تعالىٰ: **واليوم الأخر**.

هُمْ يُوقِنُونَ: من **الإيقان** وأصله **الإوقان** قلبت الواو ياء فصارت إيقاناً و**اليقين** ضدّ الشّك.

أُولَٰئِكَ: صيغة جمع علىٰ غير لفظ واحدة و واحدة (ذا) ويكون أولئك للمذّكر والمؤنث و الكاف فيه، للمخاطب وليست إسماً إذ لو كانت إسماً لكانت إمّا مرفوعة أو منصوبة و لا يصّح شيءٌ منهما إذ لا رافع هنا و لا ناصب و إمّا أن

١- الانبياء= ١٠

تكون مجرورة بالإضافة و هي أيضاً لا تصّح لأنّه مُبهم والمُبهمات لا تضاف فبقي أن تكون حرفاً مجرداً للخطاب.

عَلىٰ هُدىً: قد مرّ معنىٰ الهداية.

مِّنْ رَّبِّهِمْ: قد مضّىٰ معنىٰ الرّب أيضاً.

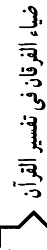
الْمُفْلِحُونَ: بضّم الميم وكسر اللاّم صيغة الجمع و مفرده **المُفلِح** مِن **أَفلَح يُفلِح** وأصل **الفَلح** الشَّق.

◁ الإعراب

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ موضع **الَّذِينَ** خفض علىٰ أنّه نعة **لِلمُتقين** و يجوز الرَّفع علىٰ القطع أيّ هم الّذين و يجوز النّصب علىٰ المَدح **بِالْآخِرَةِ** الباء متّعلقة **بيُوقِنُونَ وهُمْ يُوقِنُونَ هُم** مبتدأ **يُوقِنُونَ** خبره، فموضع، هُم، الرّفع علىٰ الابتداء **أُولٰئِكَ** في موضع الرّفع علىٰ الإبتداء **عَلىٰ هُدىً** خبره و حرف الجّر متّعلق بمحذوفٍ أيّ أولئك ثابتون علىٰ هدىٰ **مِّنْ رَّبِّهِمْ** في موضع جرٍّ صفة لهدىٰ و يتّعلق الجّار بمحذوف تقديره، هدىٰ كائن، **أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**، **أولئك** مبتدأ، **هُم** مُبتدئتان و**الْمُفْلِحُونَ** خبر المبتدأ الثّاني و خبره، خبر الأّول.

◁ التّفسير

ثمّ وصف اللّه المتقين بكونهم مؤمنين بما أنزل اللّه علىٰ محمّدٍ ﷺ و ما أنزل علىٰ من قَبله من الأنبياء والرّسل والإيقان بالأخرة فهذه أوصاف ثلاثة لهم بعد الأوصاف الثّلاثة الّتي مرّ ذكرها و بعض المُفسّرين جعل الأوصاف كلّها خمسة بناءً علىٰ عدّه قوله تعالىٰ: **يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**.



وصفاً واحداً و الحقّ أنّهما وصفان لإنّ الإيمان بِما أُنزل علىٰ محمّدٍ ﷺ لا يلازم الإيمان بما أُنزل علىٰ الأنبياء قبله و بالعكس فمن قال بالمُلازمة قال بأنّ الوصف واحد و من لم يقُل بها جعل الوصف إثنين والأمر سَهل بعد وضوح المعنىٰ وكيف كان فالبحث في المقام يقع في فصول أربعة :

الفصل الأوّل: في تفسير قوله تعالىٰ: **وَالَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ اِلَيْكَ** قد مرّ المعنىٰ منا في الإيمان، و قلنا أنّه ، إقرار باللّسان و إعتقاد بالقلب و عمَلٌ بالجوارح فالمعنىٰ أنّ المُتقين الّذين يقرّون و يعتقدون و يَعملون **بِمٰا أُنْزِلَ اِلَيْكَ** من ربّك في الإسلام بمعنىٰ أنّ كلّ ما جاء به الرّسول من الحلال و الحرام و غيرهما ممّا يرتبط بأمور الأخرة من الحشّر و المعاد و السؤال و أمثال ذلك حقّ لا مرّية فيه و هذا الإعتقاد واجب لازم علىٰ كلّ مُسلم و لا يكفيه الإعتقاد ببعضٍ دون بعضٍ كما يُستفاد من قوله: **بِمٰا أُنْزِلَ اِلَيْكَ** و قد قلنا في شرح اللّغات أنّ كلمة **ما** بمعنىٰ **الّذي** و ليست بموصوفة.

و إذا كانت كذلك فهي عامّ يشمل الجميع فينتج أنّ الإيمان لا يكمل إلاّ بجميع ما أُنزل علىٰ النّبي ﷺ.

أن قلت لا نحتاج الىٰ هذا التوضيح إذ كلّ مسلم فهو معتقِد بالكّل و هل يمكن أن يكون المُسلم مُعتقداً ببعضٍ دون بعضٍ قَلت نعم بل نقول أكثر المسلمين من صدر الإسلام الىٰ زماننا هذا كانوا علىٰ هذا المنوال أيّ إعتقدوا ببعضٍ ما جاء به النّبي دون بعضٍ و بعبارةٍ أُخرىٰ أكثر المسلمين إختاروا بعد النّبي من دينه ما شاؤوا و أرادوا لأنفسهم لا ما شاء و أراد اللّه و رسوله لهم و مع ذلك عدّوا أنفسهم من المُتّقين في الآية و زعموا أنهم من الّذين يُؤمنون بجميع ما أنزل اللّه عليه والأن أيضاً يظنون كذلك.

و لا بأس بالإشارة الىٰ بعض ما أنكروه ممّا أنزِل علىٰ الرّسول فمنه مسألة الخلافة و هي من المنزَل عليه بنّص الكتاب قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ**

ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [١] والأية صريحة في المُدّعىٰ بدليل (ما أُنزل اليك) و قد تبَين الأمر فى غدير خم و اخذ منهم البيعة لعلّي ثمّ بعد موته صلّی الله علیه وآله وسلّم أنكروه و بايعوا غيره.

و سيأتي تفصيل الكلام في تفسير الآية فإن قال قائل أنّه لم ينزل علىٰ رسول اللّه شيئ في أمر الخلافة والرّسول عَمل بها من عند نفسه فقد كذّب القرآن و أن قال نزَلَت الآية في عليٍ والرّسول صلّی الله علیه وآله وسلّم أخذ منهم البيعة بأمرٍ من اللّه تعالىٰ كما هو كذلك فالمدّعىٰ ثابت لإنكارهم بعد موته صلّی الله علیه وآله وسلّم.

٢- و منه مسألة التّوارث بين الرّسول و إبنته فاطمة علیها السلام :

قال اللّه تعالىٰ: **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ** [٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ** [٣].

فأن قالوا بعدم نزول الآية وأنّها ليست من القرآن فقد كذّبوا اللّه في كتابه وأن قالوا نزلت في كتاب اللّه فأنكروها بعد موته صلّی الله علیه وآله وسلّم حيث قالوا أنّ فاطمة علیها السلام لا ترث أباها فَمَنعوها عن إرثها و هو أيضاً واضح وتفصيل الكلام موكول الىٰ محلّه.

٣- و منه تحريم عمر المتعتين لقوله متعتان مُحَلّلتان في عهد النّبي أنا أحرمّهما وأعاقب عليهما، وكلامه صريح بكونهما محللّتين في عهد النّبي و هو حرّمهما.

۴ - و منه إنكار عمر التّيمم بعد رسول اللّه صلّی الله علیه وآله وسلّم قال اللّه تعالىٰ: **فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا** [۴] و هذا أيضاً إنكار لبعض ما أُنزِل عليه صلّی الله علیه وآله وسلّم

۵ - ومنه مسألة الفراش، قال رسول اللّه الوَلد لِلفراش و لِلعاهر الحَجر و معاوية أنكره و جعل الولد لِلعاهر فالحقّ زياد ابن سُمّية بأبيه و هو مشهور.

١- المائدة = ۶٧
٢- النساء = ١١
٣- الانفال = ٧۵
۴- النساء = ١٧

٦ - و منه، قال رسول اللّه ﷺ البيّان بالخيار ما لم يفترها فإذا افترقا وجب البيع، و أبوحنيفة أنكر هذا الحكم و قال بلزوم البيع قبل الإفتراق و نظائرها كثيرة جدّاً.

و قد إدّعىٰ الغزالي و هو منهم أنّ أبا حنيفة ردَّ علىٰ رسول اللّه ﷺ أربع مائة حكم و قِسّ علىٰ هذا الشّافعي و مالك و ابن حنبل و أمثالهم و لو لا خوف الإطالة ثمّ الملالة و خروج كتابنا عمّا هو موضوع له لنقلنا من المُنكرات الّتي صَدرت منهم ما يعجبك و يستوحشكَ و لكن فيما نقلناه كفاية في المقام.

والحاصل أنّ الإيمان بما أنزل عليه ﷺ لا يتّحقق الاّ بعد الأخذ بجميع ما أنزل عليه والأخذ بالبعض لا يكفي و لا يصّدق الإيمان بهذا المعنىٰ إلاّ علىٰ إتّباع أهل البيت وشيعتهم و ذلك ممّا لا يخفي علىٰ أحدٍ من أهل الإنصاف لأنّهم يعتقدون بجميع ما أُنزل علىٰ الرّسول كائناً ما كان و يقرّون بها و يَعملون بها علىٰ قدر طاقتهم.

و أنّما أخذوا ما أخذوا وإعتقدوا ما إعتقدوا من أئمّتهم المَعصومين الّذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهرهم تطهيراً و هو واضح.

الفصل الثّاني: في تفسير قوله تعالىٰ: **مٰا أُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ**، أي أنّ المتّقين كما يلزمهم الإعتقاد بأنّ جميع ما أنزل علىٰ رسول الإسلام حقّ لا مرية فيه كذلك يلزمهم الإعتقاد بأنّ الأنبياء من أدم الىٰ الخاتم كانوا مبعوثين من قبل اللّه تعالىٰ لإرشاد الخَلق و أنّ جميع ما جائوا به حقّ الآنَ كلام فيه إلاّ أديانهم وشرائعهم منسوخة بالإسلام ولذلك لا يجوز العَمل بها بعد مجئ الإسلام:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّهِ ٱلْإِسْلاٰمُ**

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلاٰمِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى ٱلْاٰخِرَةِ مِنَ ٱلْخاسِرِينَ**[١]

١- آل عمران = ٨٥

و أنّ دائرة النبوّة والتّشريع قد ختمت بوجود الرّسول الخاتم فلا رسول بعده و لا دين و هذا هو الإعتقاد الصّحيح الّذي يجب الأخذ به و من كان كذلك فهو من المتّقين حقّاً و من ليس فليس:

قال اللّه تعالىٰ: **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**(٢)

و أمّا المنكرون القائلون بالفرق فقال اللّه تعالىٰ في حقّهم:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا،أُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**(٣)

الفصل الثّالث: في تفسير قوله تعالىٰ: **وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**، الأخرة بكسر الخاء دار البقاء كما أنّ الدّنيا دار الفناء و ذلك لأنّ الأخر ضد الأوّل و مقابله ويُعبّر بالدّار الأخرة عن النَّشأة الثّانية كما يعبّر بالدّار الدّنيا عن النشأة الأولىٰ.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**(۴)

و ربّما ترك ذكر الدّار نحو قوله تعالىٰ: **أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ**(۵) و قد تُوصف الدّار بالأخرة تارةً كما مرّ و تضاف اليها أخرىٰ قال اللّه تعالىٰ: **(ولَلدّار الأخرة خَيرٌ للّذين يتّقون)** إلاّ أنّ الدّار اذا أضيفت الىٰ الأخرة تحتاج الىٰ التّقدير لأنّ الشئ لا يضاف الىٰ نفسه والدّار عين الأخرة والتّقدير

١- أل عمران= ٨۴
٢- النّساء= ١۵٢
٣- النّساء= ١۵٠/١۵١
۴- العنكبوت = ۶۴
۵- هود = ١۶

في قوله تعالىٰ ولَدار الأخرة خير، ولدار السّاعة الأخرة، وكيف كان فالمراد بها في الآية و في كلّ موضعٍ هو النشأة الثّانية واليَقين بوجودها من علامة الإيمان:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلٰوةَ وَ يُؤْتُونَ اَلزَّكٰوةَ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَنَّ اَلَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ أَعْتَدْنٰا لَهُمْ عَذٰابًا أَلِيمًا**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ هُمْ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ كٰافِرُونَ**(٣)

و اليقين، العلم و زوال الشكّ وربّما عبّروا بالظن عن اليقين و بالعكس و في الحديث لم يُقسم بين النّاس شئ أقل من اليَقين.

و قال علماء الأخلاق اليقين ضد الجهل المرّكب و الحيرة و الشكّ و أول مراتبه إعتقاد ثابت جازم مطابق للواقع غير زائل بشبهةٍ فالإعتقاد الّذي لا يطابق الواقع ليس يقيناً و إن جَزم به صاحبه واعتقد مطابقته للواقع بل هو كما أُشير اليه جهلٌ مرّكب ينشأ من إعوجاج القَريحة أو خطأٍ في الإستّدلال أو حصول مانعٍ من افاضة الحقّ كتقليدٍ أو عَصبية فاليقين من حيث إعتبار الجزم فيه يكون ضد الحيرة والشكّ و من حيث إعتبار المطابقة للواقع يكون ضدّاً للجهل المرّكب ثمّ أنّ العلم إن لم يُعتبر فيه المطابقة للواقع ففرقه عن اليَقين ظاهر و إلاّ فيتساويان و يَتَشاركان في المراتب المُثبة في اليقين.

اذا عرفت اليقين و معناه فإعلم أنّ اليقين تارةً يتعلّق بالإيمان و لوازمه من وجود الواجب وصفاته الكماليّة و سائر المباحث الالٰهية من النّبوة وأحوال النشأة الأخرة.

و أخرىٰ بغيرها من حقائق الأشياء الّتي لا يتم الإيمان بدونها.

١- النمل = ٣ ٢- الإسراء= ١٠
٣- يوسف= ٣٧

و قد ثبت في موضعه أنّ الإيمان متوقف علىٰ اليقين بل هو أصله وركنُه.

و أمّا غيره من المراتب فهو فرعَه و غصنه والنّجاة في الأخرة لا تحصل إلاّ به.

و الفاقد له خارج عن زمرة المؤمنين داخل في حزب الكافرين.

و بالجملة اليقين أشرف الفضائل الخلقية و أهمها و أفضل الكمالات النّفسية و أعظمها و هو الكبريت الأحمر الّذي لا يُظفر به إلاّ أو حَدّي من أعاظم العرفاء أو المَعيّ من أكابر الحكماء و من وصل اليه فاز بالرّتبة القصوىٰ والسّعادة العظمىٰ.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: اليقين الإيمان كلّه.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: أقل ما أُوتِيتم اليقين و عزيمة الصّبر ومن أُوتي حظه منها لم يُبال ما فاته من صيام النّهار و قيام اللّيل.

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: ما أدمي إلاّ و له ذنوبٌ و لكن من كانت غريزته العقل و سَجّيته اليقين لم تضره الذّنوب لأنّه كلّما أذنب ذنباً تاب و إستغفر و نَدم فتكفّر ذنوبه و يبقىٰ له فضل يدخل به الجنّة.

و قال الصّادق عليه السلام: أنّ العَمل الدّائم القَليل علىٰ اليقين أفضل عند اللّه من العَمل الكثير علىٰ غير اليقين.

و الأحاديث في فضله كثيرة نقلناها عن جامع السّعادات[1].

اذا عرفت اليقين و فضله فقد علمت لم جعل اللّه تبارك و تعالىٰ اليقين بالأخرة من أوصاف المتّقين و ذلك لأنّ اليقين بالأخرة من الإيمان بالغيب و حيث أنّ الإيمان بالغيب من أوّل الأوصاف له فمن لم يؤمن بالأخرة ليس من المتّقين أصلاً و من ليس منهم فهو خارج عن البحث في المقام.

١- جامع السّعادات ج ١ص ١١٩

إن قلت ما فائدة اليقين و أيّ أثرٍ يَترتب عليه في الدّينا والأخرة و علىٰ فرض ترتّب الأثر عليه هل هو في الأخرة فقط مثل أن يُثاب عليه في عالم البقاء لكونه من الإعتقادات الصّحيحة المطلوبة للشّارع أو أنّ تَرتب الأثر في الدّارين.

و علىٰ الثّاني فما هو، قلت لليقين بالأخرة أثاركثيرة في الدّارين أمّا الأخرة فلا بحث فيه لأنّ صاحب اليقين في أعلىٰ مرتبة الإيمان فالعَمل الصّادر منه مطلوب للشّارع و هو عليه مثاب يوم القيامة.

و ثانياً: أنّه ببَركة اليقين صار أفضل من الملائكة فهو في الحقيقة في زمرة الصدّيقين و معدود في الأولياء الصّالحين و محشور غداً مع الأنبياء المُرسلين.

و أمّا أثاره في الدّنيا فأقلّها المواظبة علىٰ الأعمال و الأقوال و ذلك لأنّ صاحب اليقين بالأخرة لا يَعمل ولا يقول ما ينافي الأخرة فأنّ المفروض يقينه بها والسّؤال عنه فيها و من إعتقد إعتقاداً جازماً بأنّه مسؤل في الأخرة عمّا يعمل و يقول فلا محالة يخالف هواه لأنّه يعلم أنّ النّفس لأمارة بالسّوء فلا يقول إلاّ حقّاً و صدقاً و لا يعمل إلاّ عَملاً صالحاً و لا يظلم و لا يغتاب و هكذا.

و لو لم يكن في اليقين بالأخرة أثرٌ في الدّنيا إلاّ هذا لَكفي، إن قلت إن كان اليقين بالأخرة يوجب الصّلاح والسّداد في الدّينا والخروج من حضيض النّاسوت الىٰ أوج الملكوت والعمل بمقتضىٰ الشّرع فلم لا يحصل لنا هذا المقام في طول حياتنا مع إعتقادنا بالأخرة فأنّ اليقين بالأخرة بعد نشأة الدّنيا ممّا لا يشكّ فيه مُسلم وهو واضح قلت لليقين ثلاث مراتب:

علم اليقين، عين اليقين، حقّ اليقين، و لكلّ مرتبةٍ منها أثر مَخصوص به و لتوضيح المراتب نقول.

الاوّل : علم اليقين فهو عبارة عن الإعتقاد الثّابت الجازم المطابق للواقع و هو يحصل من الإستّدلال باللّوازم علىٰ المَلزوم.

و إن شئت قلت من الأثر علىٰ المؤثر و مثاله اليقين بوجود النّار من مشاهدة الدّخان فأنّ الرّائي اذا رأىٰ الدّخان من بعيد يحصل له اليقين بوجود النّار لأنّ الأثر دالّ علىٰ المؤثر.

ثانيها: عين اليقين، و هو مشاهدة المطلوب ورؤيته بعين البَصيرة والباطن و هو أقوىٰ في الوضوح والجلاء من المشاهدة بالبصر و الىٰ هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه‌السلام بقوله لم أعبد ربّاً لم أره، بعد سؤال ذعلب اليماني منه، أرأيت ربّك، وبقوله عليه‌السلام **(رأىٰ قلبي ربّي)** و مثاله في المحسوسات اليقين بوجود النّار عند رؤيتها عياناً.

ثالثها: حقّ اليقين و هو أن تحصل وحدةٌ معنويّة و ربط حقيقى بين العاقل والمَعقول بحيث يرىٰ العاقل ذاته رشَحّة من العقول ومُرتَبطاً به غير منفكّ عنه و يشاهد دائماً ببصيرته الباطنية فيضان الأنوار والأثار منه اليه.

و مثاله اليقين بوجود النّار بالدخول فيها من غير إحتراقٍ و هذا المقام لا يحصل إلاّ ليكمّل الغارمين باللّه المُستغّرقين في لُجّة حبّه و أنسه و قد زاد أهل السّلوك علىٰ هذه المراتب مرتبة أخرىٰ و عبّر عنها بحقيقة حقّ اليقين و الفناء في اللّه و هو أن يرىٰ العارف ذاته فانياً في أنوار اللّه محترقاً في سمات وجهه بحيث لا يرىٰ إستقلالاً و لا تحصيلاً أصلاً و مثاله اليقين بوجود النّار بدخوله فيها و احتراقه منها، إذا عرفت مراتب اليقين فأعلم أنّ الآثار المترتّبة علىٰ اليقين في النّشأتين مختلفة بإختلاف مراتبها فصاحب اليقين أن كان في المرتبة الأولىٰ منها لا يترتب علىٰ يقينه ما يترتب علىٰ المرتبة الثّانية مثلاً و هكذا كما أنّ الإيمان أيضاً له مراتب فكلّ مرتبة من الإيمان يلزم يقيناً مناسباً لها فقوله تعالىٰ: **وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** يُحمل علىٰ العموم الشّامل للمراتب كلّها وهو أولىٰ.

الفصل الرّابع: في تفسير قوله تعالىٰ: **أُولٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِّنْ رَّبِّهِمْ وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** و هذه الآية بمنزلة النّتيجة لما تقّدم منها في هذه السُّورة وأن شئت قلت كأنّ هذه الآية **جزاءُ من ربّهم** و بشارة لهم حيث يقول اللّه تعالىٰ **أولئك** أعنى المتّقين المتصّفين بالأوصاف المذكورة علىٰ هدىٰ من ربّهم أي علىٰ طريق الهداية و الفلاح و السّعادة في الدّارين ففي الحقيقة لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و قيل في معناها أي علىٰ دين ربّهم و قيل علىٰ دلالة و بيان عن ربّهم و إنّما قال تعالىٰ من ربّهم، لأنّ كلّ خير و هدىٰ فمن اللّه تعالىٰ أمّا لأنّه فعله وأمّا أنّه عوض له بالدلالة عليه والإنابة علىٰ فعله و علىٰ هذا يجوز أن يقال أنّ الإيمان هداية منه تعالىٰ و أن كان من فعل العبد ثمّ كرّر تضخيماً فقال:**وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** قاله الطّبرسي ﷺ في المجمع.

قال بعض العُلماء أنّ الفلاح في العرف الظافر بالمطلوب والنّجاة من المرهوب إنتهىٰ.

و عليه فمعنىٰ قوله تعالىٰ:**وَ أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** أولئك هم الظّافرون بالمطلّوب و الناجّون من المرهوب.

و قال الشيخ في التبيان المفلحون، هم المنجون الّذين ادركوا ما طلبوا من عند اللّه باعمالهم و إيمانهم، والفلاح النجّاح قال الشّاعر:

إعقلي إن كنت لما تعقلى ولقد أفلَح من كان عقل

تذنيب في أولئك لغات فلغة أهل الحُجاز، أوليك بالياء و أهل نجد و قيس و رَبيعة و أسَد يقولون، أولئك به هَمز، وبعض بني سعيد من بني تميم يقولون **الاّك** مشدّدة و بعضهم يقول ألالك كما قال الشّاعر:

ألالك قومُ لم يكونوا شابة وهل يَعَظ الضّليل إلاّ ألالكا

و قالوا أنّ، أولاء للقريب و هؤلائك للبعيد و أولئك لِلمتوسط، و الكاف

لِلخطاب، و أولئك إسم مُبهم يصلح لكّل حاضر تعرفه الإشارة اليه كقولك في الواحد ذاك.

و أولاء جمع ذاك في المعنىٰ و قد قرأ همزة من بين القّراء، اولئك بالمدّ، و الباقون بالقصر إنتهى، ما أردنا ذكره في التّذنيب وأنّما أطنَبنا الكلام فيه لتكّرره في القرآن كثيراً.

■

أِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَـوَاءٌ عَـلَيْهِمْ ءَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَـمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

◁ اللّغة

أِنَّ الَّذِينَ: إنّ من حروف المُشبّهة بالفعل و هو يفيد للتأكيد والتحقّيق.

الَّذِينَ: قد مرّ الكلام فيه.

كَفَرُوا: فعل ماضي والواو للجمع و أصل الكفر السّتر.

سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ: سواء بفتح السّين مصدر واقع إسم الفاعل، و هو مُستو، و هو أي المستوي يعمل عَمل يستوي و من اجل انّه مصدر لايثّنىٰ و لا يُجمع و الهمزة في سَواء، مبدلة من ياء.

ءَأَنْذَرْتَهُمْ: بَهمزَتين و قرأ ابن المحيص به همزة واحدة علىٰ لفظ الخبر و همزة الإستفهام فرادة و لكن حذفوها تَخفيفاً، و أنذَرتهم فعل ماضي من أنذَر و التّاء للمخاطب، نحو أكرمت، و أعلَمت و هم مفعول الفعل.

أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ: أَم، هذه معادلة لهمزة الإستفهام و تَـنذرهم، مضارع أَنَذَر ويُؤمنون قد مرّ معناه.

◁ الإعراب

الَّذِينَ في موضع النّصب لأنّه إسم أنّ وعلامته الياء، وكفروا صلة الّذين و الموصول مع صيلة، في محلّ النّصب و أمّا خَبرها فيمكن أن تكون الجملة أعني بها سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ و عليه فيكون سَوٰاءٌ مرفوع علىٰ الإبتداء و الجملة بعده خبره و المبتدأ و الخبر في موضع رفع بأنها خبر و قوله لاٰ يُؤْمِنُونَ حال من الضّمير المنصوب و قيل أنّ لاٰ يُؤْمِنُونَ خبر أنّ و قوله تعالىٰ سَوٰاءٌ الىٰ قوله أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ، جملة معترضة بين المبتدأ والخَبر وكلا الوجهين ممّا لا بأس به.

◁ التّفسير

لمّا بيّن اللّه تعالىٰ أوصاف المتّقين في الأيات السّابقة أرَدف كلامه بذكر الكفّار فقال **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** الخ. و ذلك لأنّ الكفر يقابل الإيمان ثمّ أنّهم إختلفوا في محلّها علىٰ العموم و الخصوص علىٰ قولين فمن قال بالعموم قال بأنّ المراد مطلق الكفّار و من قال بالخصوص قال أنّها نزلت في ابى جَهل و في خمسةٍ من قومه من قادة الأعراب قتلوا يوم بدر وإختار هذا القول الرّبيع ابن أنس و البلخي و المغربي و قال ابن عبّاس نزلت فى أعيانهم من أحبار اليهود الّذين كانوا حَول المدينة و قال قوم أنّها نزلت في مشركي العَرب ثمّ قال صاحب التّبيان بعد نقله الأقوال المذكورة والّذي نقوله أنّه لابدّ أن تكون مخصوصة لأنّ حملها علىٰ العموم غير ممكن لِأنّا أنّا علمنا أنّ في الكفّار من يؤمن فلا يمكن العموم و أمّا القطع علىٰ واحدٍ ممّا قالوا فلا دليل عليه انتهىٰ.

أقول لابدّ لنا أوّلاً بيان معنىٰ الكفر و الانذار في الآية ثمّ التكلّم في عمومها و خصوصها فنقول الكفر في أصل اللّغة، السّتر.

قال الرّاغب في المفردات الكفر في اللّغة ستر الشّئ و وصف اللّيل بالكافر لِستره الأشخاص، والزّارع لِستره البذر في الأرض الىٰ أن قال و كُفران النّعمة سترها بترك أداء شكرها انتهىٰ.

قال الشّيخ الطّوسي ﷺ في التّبيان، و في الشّرع عبارة عمَّن جحد ما أوجَب اللّه عليه معرفته من توحيده و عدله و معرفته نبّيه و الأقرار بما جاء به من أركان الشّرع فمن جحد شيئاً من ذلك كان كافراً انتهىٰ.

و قد رَوىٰ في تفسير البرهان عن محمّد ابن يعقوب بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال الزّبيري قلت له يابن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أحبرني عن وجوه الكفر في كتاب اللّه عزّ وجلّ قال عليه السلام: الكفر في كتاب اللّه علىٰ خمسة أوجه:

منها كفر الجحُود، و كفر الجحُود علىٰ وَجهين، والكفر بترك ما أمر اللّه و كفر البراءة و كفر النِّعم، فأمّا كفر الجحود بالرّبوبية، و هو قول من يقول لا ربّ و لا جنّة و لا نار و هو قول صنفَين من الزّنادقة يقال لهم الدّهرية و هم الّذين يقولون ما يهلكنا إلاّ الدّهر.

و هو دين وضعوه لأنفسهم بالإستحسان منهم علىٰ غير تثبيت منهم و لا تحقّيق لشيءٍ ممّا يقولون قال اللّه عزّ وجّل (إن هُم إلاّ ليظنّون و قال: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ** يعني بتوحيد اللّه فهذا أحَد وجوه الكفر و أمّا الوجه الآخر من الجحود علىٰ معرفته و هو أن يجحَد الجّاحد و هو يعلم أنّه حقّ قد إستقرّ عنده و قد قال اللّه عزّ وجلّ: **وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اَسْتَيْقَنَتْهٰآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا** [١] وقال اللّه عزّ وجلّ: **وَ كٰانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمّٰا جٰآءَهُمْ مٰا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اَللّٰهِ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ** [٢] فهذا تفسير وجهي الجحود والوجه الثّالث من الكفر كفر النّبي و ذلك قوله تعالىٰ يحكي قول سليمان: **هٰذٰا مِنْ فَضْلِ رَبّى لِيَبْلُوَنّى ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ** [٣] وقال: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابى لَشَدِيدٌ** [٤] و قال: **فَاذْكُرُونى أَذْكُرْكُمْ وَ اَشْكُرُوا لى وَ لاٰ تَكْفُرُونِ** [٥] والوجه الرّابع من الكفر ترك ما أمَر اللّه عزّ وجّل به وهو قول اللّه عزّ وجّل: **وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ لاٰ تَسْفِكُونَ دِمٰآءَكُمْ وَ لاٰ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ،ثُمَّ أَنْتُمْ هٰؤُلاٰءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيٰارِهِمْ تَظٰاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ اَلْعُدْوٰانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ**

١- النمل = ١٤
٢- البقرة = ٨٩
٣- النمل = ٤٠
٤- ابراهيم = ٧
٥- البقرة = ٥٢

أُسارىٰ تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ [1] **فكفرهم بترك ما أمَر اللّه عزّ وجلّ به و نسبهم الىٰ الإيمان ولَم يقبله منهم و لم ينفعهم عنده فقال: فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلىٰ أَشَدِّ ٱلْعَذابِ وَ مَا ٱللّٰهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ** [2]

والوجه الخامس - من الكفر كفر البراءة و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ يحكي قول إبراهيم: **كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَداوَةُ وَٱلْبَغْضاءُ أَبَدًا حَتّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَحْدَهُ** [3] **يعني تبرأنا منكم وقال يذكر إبليس وتَبرئته من أولياءه من الإنس يوم القيامة: إِنّي كَفَرْتُ بِمآ أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ** [4] **وَ قالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَوْثانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** [5] **يعني تبرأ بعضكم من بعضٍ انتهىٰ.**

أقول و يظهر من هذا الحديث أنّ أصناف الكفر في الشّرع علىٰ أقسام الخمسة المذكورة الحديث: كفرالجُحود بقسميه وكفُر النِّعم و ترك ما أمَر اللّه به وكفر البراءة.

و أمّا الكفر المبحوث عنه في الآية الشّريفة التّي نحن بصدد تفسيرها هو الكُفر الجحود بالرّبوبيّة و هو القسم الأوّل من قسمي الجحود كما صَرّح به الإمام عليه السلام في الحديث و عليه فلا خفاء في تفسيرها اذ المعنىٰ أنّ المنكرين لرّبوبيته تعالىٰ يساوي في حقّهم الإنذار و عدمه و ذلك لأنّ معنىٰ الإنذار الإنذار من عقابه تعالىٰ و من المعلوم أنّ الخوف من عقابه فرعٌ علىٰ معرفته فمن لم يعرفه بل أنكر وجوده كيف يخاف من عقابه و هو واضح.

■

١- البقرة = ٥٨
٢- البقرة = ٨٥
٣- الممتحنة= ١٥
٤- ابراهيم = ٢٢
٥- العنكبوت = ٢٥

خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ وَلَهُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

◁ اللّغة

الخَتَم: في الأصل الطّبع و هو تأثير الشّئ كنقش الخاتم والطّابع و قيل، الأثر الحاصل عن النّقش و يتجوّز بذلك تارةً في الاشتياق من الشّئ والمَنع منه إعتباراً بما يحصل من المَنع بالخَتم علىٰ الكُتب والأبواب و تارةً في تَحصيل أثرِ عن شئٍ إعتباراً بالنّقش الحاصل وتارة يعتبر منه بلوغ الأخر ومنه قيل خَتمتُ القرأن أي انتهيتُ الىٰ أخره. قاله الرّاغب في المفردات.

قُلُوب: جمع قلب.

سَمْعِهِمْ: السّمع مصدر قولك سَمَع يَسمع سمعاً.

اَبْصٰارِهِمْ: جمع بَصَر.

غِشٰاوَةٌ: الغَشاوة مصدر غَشي غشاوةً ما يغطّىٰ به الشّئ غَشيه.

عَذٰابٌ:بفتح العين معناه واضح.

◁ الإعراب

خَتَم فعل ماض **اللّٰهُ** فاعله **عَلىٰ قُلُوبِهِمْ** الجار والمجرور متعلّق بقوله **خَتَم** و هكذا قوله: **وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ**، متعلّق به بحكم العَطف و **وَعَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ**،فالغشاوة إن قرأ بالرّفع كما هو المَشهور بين القّراء فهو مبتدأ مؤخر و علىٰ أبصارهم خبره مقّدم عليه، و أن قرأ بالنّصب كما نقل عن بعض القّراء فالعامل فيه فعل مقدّر أي جَعل علىٰ أبصارهم غشاوةً و لا يجوز أن ينتصب بخَتم، لأنّه لا يتعدّىٰ بنفسه و في الغَشاوة ثلاث لغات:

كسر الغيّن و فتحها و ضمّها، والمشهور الكسر **لَهُمْ عَذٰابٌ** مبتدأ و خَبر و الخبر قُدّم **خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ**.

علىٰ المبتدأ و علىٰ قول الأحفش. **عَذٰابٌ** عذاب مرفوع بالجار كارفاع الفاعل بالفعل و هكذا **وَعَلىٰ أَبْصٰارِهِمْ غِشٰاوَةٌ** عظيم، صفة للعذاب و فيه ضمير يرجع اليه كما هو شأن الصّفة.

◁ التّفسير

بعد ما قال اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**، سواء عليهم الإنذار و عدمه قال تعالىٰ في هذه الآية **خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ** أي شَهد عليها بأنّها لا تقبل الحقّ يقول القائل، أراك تَختم علىٰ كلّ ما يقول فلان أي تَشهد به و تصدّقه و قد خَتمت عليك بأنّك لا تعلم أي شهدتّ و ذلك إستعارة و قيل أنّ، **خَتَم** بمعنىٰ طَبع فيها أثراً للذّنوب كالسمة و العلامة لتعرفها الملائكة فَيتبرؤا منهم و لا يوالوهم و لا يستغفروا لهم مع إستغفارهم للمؤمنين و قيل المعنىٰ في ذلك أنّه ذمّهم بأنّها كالمَختوم عليها في أنّها لا يدخلها الإيمان و لا يخرج عنها الكفر كقول الشّاعر:

لقد أسمعتُ لو ناديتُ حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

أي كأنّه لا حياة فيه والختم أخر الشيئ ومنه قوله تعالىٰ و ختامه مسك و منه خاتم النّبيين أي أخرهم و منه ختم الكتاب لأنّه أخر حال الفراغ منه و هذه الوجوه ذكرها الشّيخ ﷺ في التّبيان ثمّ قال و ما يختم اللّه علىٰ القلوب من السِّمة والعلامة التّي ذكرناها ليست بمانعةٍ من الإيمان كما أنّ ختم الكتاب و الظّرف والوعاء لا يمنع من أخذ ما فيه، الىٰ أن قال ﷺ وقيل أنّ قوله تعالىٰ: **خَتَمَ اللّٰهُ**، إخبار عن تكبّرهم و اعراضهم عن الإستماع لما دُعوا اليه من الحقّ كما يقال فلان أصَم، عن هذا الكلام اذا إمتنع عن سماعه و رفع نفسه عن تفهّمه انتهىٰ ما نَقلناه عنه.

و قال الطّبرسي ﵀ في المجمع قيل في معنىٰ الختم وجوه:

أحدها أنّ المراد بالخَتم العلامة و اذا انتهىٰ الكافر من كفره الىٰ حالةٍ يعلم اللّه أنّه لا يؤمن فأنّه يعلم علىٰ قلبه علامة و قيل هي نقطة سوداء تشاهدها الملائكة فيعلمون بها أنّه لا يؤمن بعدها فَيذّمّونه و يدعون عليه الىٰ أخر ما قال.

ثمّ نقل أقوالاً في أمثالها من الأيات وأنّ المراد بالختم ما هو أن شئت الإطّلاع عليه فراجعه في تفسيره.

و قال البيضاوي من العامّة المراد أنّ اللّه تعالىٰ يحدث في نفوسهم هيئة تؤمرّنهم علىٰ إستحباب الكفر والمعاصي و إستقباح الإيمان و الطّاعات بسبب غيّهم و إنهماكهم في التّقليد و إعراضهم عن النّظر الصحّيح فيجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيه الحقّ وأسماعهم تعاف إستماعه فتصير كأنّها مستوثق منها بالختم و أبصارهم لا تجتلي الأيات المنصُوبة لهم في الأنفس والأفاق كما تجتليها أعين المُستبصرين فتصير كأنّها غُطىٰ عليها و حِيل بينها و بين الأبصار و سَمّاه علىٰ الإستعارة خَتماً و تغشية انتهىٰ ما ذكره بألفاظه.

ويه قال الزّمخشري في الكشاف والبيضاوي أخذَ عنه وغيره من مفّسرين العامّة لم يأتوا بشيءٍ يعتمد عليه بل أخذَ هذامن هذا و ذاك من ذاك و الكشّاف من أحسن التفاسّير عندهم لأنّ مّؤلفه من أكابر علماء أهل السّنة وقد إعترفوا بالفَضل له.

و حيث أنّ الآية الشّريفة بظاهرها تدّل علىٰ الجَبر لأنّ اللّه تعالىٰ اذا ختم و طبع علىٰ قَلب العبد الكفر وجعل علىٰ بصره غشاوة فماذا يصنع العبد ضرورة عدم قدرة العبد علىٰ خلاف ما ختم علىٰ قلبه و سمعه و بصره و حيث أنّ المطبوع عليه الكفر فلا يقدر العبد علىٰ الإيمان و اذا لم يقدر عليه فما ذنبه ثمّ كيف يعاقب و يحاسب علىٰ الكفر المطبوع علىٰ قلبه مِن اللّه غداً في القيامة و

المفروض أنّ اللّه تعالىٰ قائم بالقسط و أنّه ليس بظلام للعبيد و هذا هو أصل الإشكال في المقام الّذي جعل النّاس حيارىٰ وإختاركلّ واحدٍ من المفسّرين مسلكاً و حمل الآية عليه ولم يعلم أنّه وَقع فيما هرب عنه و محصّل الكلام أنّ المقام من مزّال الأقدام وكم لها نظير في الأيات.

و قد ذكرنا في صَدر البحث نقلاً عن صاحب التّبيان والمجمع محاملهما في الأية.

و أقوال النّاس فيها وكيف كان لمّا كانت المسألة إعتقادّية قالوا فيها ما قالوا فلابدّ لنا أيضاً أن نتّكلم فيها بقدر الفهم والإستطاعة في هذا المقام ليسهل علينا البحث في نظائرها فيما يأتي.

فنقول إختلف النّاس في هذا الختم والمراد به في المقام فقال بعضهم أنّ العبد لا يقدر مَعه علىٰ الإيمان و قال بعضهم يقدر عليه و ذلك الخلاف أنّما نَشَأ من إختلافهم في أفعال العباد هل هي من اللّه تعالىٰ أو من العبد أو منهما معاً فالأقوال والمسالك ثلاثة:

الأوّل: أن يكون فعل العَبد مخلوقاً له تعالىٰ لا تأثير للعبد فيه أصلاً و أنّما هو في فعله كالألة مثل السّيف في كونه ألة للقتل في يد القاتل والسّهم في يد الرّامي و أمثال ذلك من الألات والأسباب و يعبّر عن القائلين بهذه المقالة بالجبريّين و مفاده سلب الإختيار من العبد في فِعله.

الثّاني: أن يكون فعل العبد مخلوقاً لنفسه لا تأثير لِلّه و لا لغيره في فعل العبد فأنّ اللّه تعالىٰ خلق العبد وفوَضَّ أمره اليه أن شاء فعل و أن لم يشاء لم يفعل.

و هذا القول مخالف للقول الأوّل و ضدّه و يعبّر عن القائلين به بالمفوّضية لأنّ المفروض تفويض الأمر الىٰ العَبد بالكلّية.

الثّالث: أن يكون أفعال العباد لهما أي للخالق والمخلوق معاً فلا يكون

واحداً منهما مستّقلاً في الفعل بحيث لا دخل فيه في تأثير الغير بل التّأثير لهما والفعل صَدر بالحقيقة منهما و يستند اليهما و هذا القول يعبّر عنه بالأمر بين الأمرين الّذي ورَد في الحديث لا جبر و لا تَفويض بل أمر بين الأمرين.

اذا عرفت المذاهب في الأفعال الصّادرة في الخارج من العبد ظاهراً فإعلم أنّ الآية المبحوث عنها في المقام علىٰ مَسلك القائلين بالجَبر لا خفاء فيها و لا كلام لأحدٍ في تفسيرها اذ هو علىٰ هذا المذهب واضح لأنّ المفروض عدم قدرة العبد علىٰ الفعل بل القادر والموجد فيه هو اللّه تعالىٰ مُستّقلاً و لا دخل و لا تأثير للعَبد فيه فصحّ أن يقال أنّ اللّه ختم علىٰ قلوب الكفّار الكُفر بحيث لا يقدرون علىٰ الإيمان أصلاًكما أنّه تعالىٰ خَتَم علىٰ قلوب بعضٍ أخر بالإيمان فلا يقدر علىٰ الكفر اذ المفروض أنّ العَبد لا قدرة له أصلاً و هو واضح.

فحقٌّ أن يقال خَتم اللّه قلوبهم الىٰ أخر الآية اذ لا فرق في عَدم قدرة العَبد علىٰ الفعل بين الأفعال النّفسانية أعني بها الخَواطر و الإرادات وبين الأفعال الخارّجية الصّادرة منه بواسطة الجوارح بل النّفسانيات أولىٰ لكونها الأصل بالنّسبة الىٰ غيرها.

و أمّا القائلون بالتفوّيض، والأمر بين الأمرين فظاهر الآية لا يوافق مَذهبهما فلابدّ لهما من البحث فيها و حمل الآية علىٰ غير ظاهرها.

ثمّ أنّ القائلين بالجبر و هم أكثر الأشاعرة إختلفوا في معنىٰ الخَتم في المقام والمراد به، فقال بعضهم الختم من اللّه تعالىٰ هو خلق الكفر في قلوب الكفّار.

و قال بعض أخر الختم هو خلق الدّاعية الّتي اذا أنضمّت الىٰ القدرة صار مجموع القدرة معها سبباً موجباً لوقوع الكفر و علىٰ التّقديرين فالخاتِم هو اللّه و لا يقدر العبد علىٰ دفعه و رفعه و محصّل إستدلالهم علىٰ المدّعىٰ هو أنّ القادر علىٰ الكفر أن كان قادراً علىٰ تركه أيضاً فكانت نسبة تلك القدرة الىٰ فعل الكفر و الىٰ تركه علىٰ السّواء فإختياره التّرك أو الفعل محتاج الىٰ المُرّجح فأنّ

الترّجيح بلا مُرّجح مُحال فلابدّ له في الخروج عن الإستواء من مرجّح و المُرّجح لا يخلو حاله من وجهين:

أمّا أنّه من فعل اللّه أو من فعل نفسه فأن كان من اللّه فثبت المطلوب و أن كان من نفسه يلزم التّسلسل و أن كان لا بفعل اللّه و لا بفعل العَبد فيلزم حدُوث شئٍ لا لمؤثر و هو محال فلا محالة يستند المرّجح الىٰ اللّه فهو فاعل في الحقِّيقة و العبد لا يؤثر في فعله فالمطلوب ثابت فينتج أنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي خلق الكفر في قلوبهم أمّا بواسطة الدّاعية أعني بها المُرّجح.

و أمّا بلا واسطة و علىٰ التقدّيرين فالفاعل هو تعالىٰ لا غيره هذا مخلّص كلامهم و إستدلالهم علىٰ المدّعي علىٰ ما نقله الرّازي في تفسيزه مَع تلخيص منّافي العبارة و قال في آخر كلامه إذا ثبت هذا كان القول بالجبر لازماً لأنّ قبل حصول ذلك المُرّجح كان صدور الفعل مُمتنعاً و بعد وصوله يكون واجباً ثمّ قال إذا عرفت هذا كان خلق الدّاعية الموجبة لكفر في القلب ختماً علىٰ القلب و منعاً له عن قبول الإيمان فأنّه سبحانه لّما حكم عليهم بأنّهم لا يؤمنون ذكر عقبه ما يجري مجرىٰ السبّب الموجب له لأنّ العلم بالعلّة يفيد العلم بالمعلول والعلم بالمعلول لا يكمل إلاّ إذا أُستفيد من العلم بالعلّة فهذا قول مَن أضاف جميع المحدثات الىٰ اللّه تعالىٰ إنتهىٰ.

ما ذكره و حيث أنّه أي الإمام الرّازي من الأشاعرة القائلين بهذه المقالة أعني الجبر، أطال الكلام في إثبات مدّعاه في تفسيره و سائر كتبه و نحن نجيب عنه بحول اللّه و قوّته فنقول قولهم الختم من اللّه تعالىٰ أمّا خلق الكُفر في قلوب الكفّار و أمّا خلق الدّاعية الموجبة له، كلام لا طائل تحته و ذلك لأنّ خلق الكُفر لا معنىٰ له إذا الكُفر عدم الإيمان والأمر العَدَمي لا يكون مُتَعّلقاً لِلإيجاد وبعبارة أخرىٰ الإيجاد لا يتعّلق بما لا َشيئّتة له فيبقىٰ في المقام تعلّق الإيجاد من الموجد بالدّاعية فالتقسيّم الىٰ الوجهين لا معنىٰ له و علىٰ فرض



التّسليم لِصحّة التّقسيم نختار الشّق الثّاني و هو تعلّق الإيجاد بالدّاعية، قولكم أنّها إذا إنضّمت الىٰ القُدرة صار المجموع سبباً مُوجباً لوقوع الكُفر ممنوع و ذلك لأنّ الإرادة حاكِمة علىٰ الدّاعية فلا تكون الدّاعية مع القُدرة مُوجبة لِلكُفر إذا لم يرد الفاعل الكُفر وقد ثبت أنّ الإرادة مسبوقة بالإختيار و توضيح ذلك إجمالاً انّ الدّاعي علىٰ الفعل في الإنسان ليس إلاّ تصديقه بالفائدة و ذلك لأنّ الإنسان إذا أراد أن يفعل شيئاً، فلابّد له من تصوّره أوّلاً ثمّ التّصدّيق بِفائدته ثانياً سواء كان التّصديق ظنّياً أو تخّييلياً أو علّمياً والمراد بالتصدّيق هو أنّ فيه صلاحاً و منفعة بالنسّبة الىٰ جوهر ذاتنا، ثمّ ينبعث مِن ذلك شوق الىٰ إيجاد الفصل ثمّ أنّ ذلك الشّوق يحرّك القّوة المنبعثة في العضلات و هنالك يتحرّك الأعصاب و الأعضاء فذلك الشّوق المنبعث من القوّة الشّوقية الحيوّانية أو النطقيّة العلمية هو الإرادة وتلك القوّة المنبعثة هي القدرة و عليه فالدّاعي ليس إلاّ التصدّيق بالفائدة إذ ليس في عبادي الفعل شيئاً فَيُسّمىٰ بالدّاعي إذا علمت هذا فنقول ما معنىٰ خلق الدّاعي أو الدّاعية الّتي إذا إنضّمت الىٰ القُدرة توجب الكفر أو الإيمان أليست الإرادة واسطة بين الدّاعية عني بها التصدّيق والقدرة ألَيست الإرادة شيئاً والقدرة شيئاً أخر مع أنّا نقول عَلمنا وأرَدنا و قَدرنا و فعلنا و لتفصيل البحث فيه موضع أخر.

و أمّا قوله في الإستدلال علىٰ المدّعىٰ أن كان المرّجح بفعل اللّه فثبت المطلوب وأن كان بفعل العَبد يلزم التسّلسل فنقول في جوابه أنّ المُرّجح بفعل العبد قولكم يلزم التّسلسل فهو ممنُوع لأنّ المرّجح هنا الأرادة لتّوسطها بين الدّاعي والقُدرة كما عرفت والإرادة مسبوقة بالإختيار و علىٰ هذا لايلزم التّسلسل و هو معلوم لا خفاء فيه.

نعم لو كان المُرّجح من اللّه يلزم الجَبر و لا نقول به و ممّا ذكرناه يظهر لك أنّ كلامه لا أساس له و ما لا أساس له لا يتبنىٰ عليه شئ هذا أوّلاً.

ثانياً:نقول أنّ معنىٰ الإختيار في العَبد هو إستواء الطّرفين (الفعل والتّرك) بالنّسبة الىٰ القُدرة وحَدها و هذا لا ينافي وجوب أحَد الطّرفين بسبب الإرادة فمتىٰ فعل المرّجح و هو الدّاعي علىٰ قولكم، و تعلّق به الإرادة الجازمة وجب الفعل و متىٰ لم يحصل إمتنع و هذا غير منافٍ للقدرة فأنّ القادر هو الّذي يصحّ منه الفعل و التّرك قبل تحقّق الدّاعي و مع قطع النّظر عن الإرادة و لهذا قالوا الوجوب بالإختيار لا ينافي الإختيار بل يحقّقه فالقول بالجَبر لا معنىٰ له.

و أمّا القائلون بالتفوّيض و هو أنّ العبد فاعل مستقل بالإيجاد بلا مدخليّة لإرادة اللّه في فعل العبد فنقول في جوابهم هذا القول تفويض محض و تَشريك في الخالقيّة و قد ورد في ذمّ هؤلاء القدرية، أنّ القدّرية مجوس هذه الأمّة و يأبى اللّه تعالىٰ عزّ وجلّ من أن يجري في ملكه شئ بغير إرادته كما ورد عن النّبى صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ماشاء اللّه كان وما لَم يَشاء لَم يَكن و سيأتي الكلام في بحث الجَبر والتفوّيض في محلّه مفصّلاً إن شاء اللّه تعالىٰ.

فيبقىٰ في المقام القول الثّالث و هو أنّه لا جَبر و لا تفويض بل أمرٌ بين الأمرين، و هذا هو الحقّ الّذي لا مرية فيه وهو المأثور عن أئمتنا الطّاهرين سلام اللّه عليهم أجمعين و حاصله أنّ الإرادة علىٰ الفعل من العبد و التّوفيق أعني به عدم إيجاد المانع أورَفعه من إجراء الإرادة فهو من اللّه تعالىٰ و لأجل ذلك نقول و أياك نستعين ثمّ نقول.

أزمّة الأمور طرّاً بيده　　　والكلّ مستّمدة من مَدَده

فلو كان إيجاد الفعل علىٰ وجه الإستقلال من اللّه تعالىٰ كما يقول به الجَبري أو أنّه كذلك من العبد كما يقول به القَدّري لا معنىٰ للإستعانة من اللّه تعالىٰ لأنّ معنىٰ الإستعانة طلب الإعانة من اللّه تعالىٰ علىٰ الفعل و هو دليل عدم إستقلال العَبد به أو إستقلال اللّه به بل الفعل يصدر من العبد بتَوفيق اللّه

و ارادته و لا شكّ أنّ الجَبر إفراطٌ و التّفويض تفريط و ما نحن فيه هو الوَسَط و خير الأمور أوسَطها.

اذا عرفت هذه المقّدمة الّتي أوضَحنا فيها المسالك في المقام بحسب الأعمال فنقول:

قوله تعالىٰ: **خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ** معنىٰ الخَتم علىٰ القلب والسَّمع ليس ما ذكره الجبري من خلق اللّه تعالىٰ الكفر في العبد بحيث لا يقدر علىٰ الخروج منه اذ لو كان كذلك يلزم الظّلم عليه تعالىٰ وأيّ ظلم أفحش من إيجاد الكفر في الإنسان و سلب القدرة عن دَفعه و رَفعه ثمّ العقاب علىٰ كفره يوم القيامة أليس للعبد أن يقول غداً في موضع الحساب العقاب.

إلٰهي ما ذنبي و تقصيري و لأيّ شئٍ صرت مستحقّاً للعقاب و قد خلقتني كافراً في الدّنيا و لم أقدر علىٰ الخروج من الكفر والدّخول في الإيمان، فما يقول اللّه في جوابه و هذا واضح و لا أظنّ أنّ العقل السّليم يقبل هذا القول واللّه تعالىٰ و رسوله بريئان منه

أن قلت فما معنىٰ الآية قلتُ معنىٰ الآية أنّ الكفّار في قوله تعالىٰ:**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** لما جَحدوا الرّبوبية و أنكروا الخالق بالمرّة علىٰ ما سبق شرحه في السّابقة بحيث لم يفدهم الإنذار من النّبي و كان ذلك أي إختيارهم الكفر بارادتهم و سُوء سريرتهم لا جرم سلب منهم التّوفيق فَوكلهم اللّه الىٰ أنفسهم فبقوا في الكُفر ولم يخرجُوا منه فعبّر عن سلب التّوفيق لِلإهتداء بالخَتم والطّبع مجازاً فقال تعالىٰ: **خَتَمَ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ** ، فإسناد الخَتم الىٰ تعالىٰ مجاز لا حقيقة فكأنّه قال اللّه تعالىٰ لمّا أنكروا الرّبوبية وأصرّوا عليه لم يوفقهم اللّه علىٰ الإيمان.

و حيث أنّ الخَتم علىٰ القلب مسبب عن عدم التّوفيق فالكلام خرج مَخرج الإستعارة من قبيل ذكر المسّبب و إرادة السّبب و هذا ممّا لا إشكال فيه و

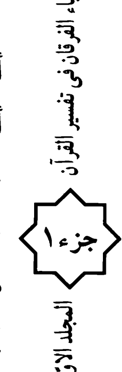
نظائره كثيرة و لا يستفاد من الآية لزوم بقائهم علىٰ الكفر بل المستفاد منها أنّهم ما داموا علىٰ هذا الحال فقلوبهم مختومة علىٰ الكفر و يمكن لهم الخروج عن هذه الحالة بسبب الإقرار بالربوبيّة و من قال أنّ معنىٰ الخَتم علىٰ قلوبهم بقائهم علىٰ الكفر بطريق الحتم و القطع فعليه بالدّليل و اذ ليس فليس.

فأن قلت أنّ اللّه تعالىٰ لمّا علم منهم البقاء علىٰ الكفر في الدّنيا قال خَتم علىٰ قلوبهم، فلو فرضنا قدرتهم علىٰ الخروج منه ثمّ خروجهم منه و دخولهم الىٰ الإيمان يلزم خلاف العِلم في حقّه تعالىٰ و هو كما ترىٰ.

أمّا أوّلاً: فمن أين ثبت أنّ اللّه تعالىٰ علم منهم الكفر الىٰ أخر الحياة ثم حكم بما حكم و علمه تعالىٰ عنده.

ثانياً: علىٰ فرض وجود العلم فأنّه يدّل علىٰ أنّ الكافر لا يخرج عن كفره بإختياره و إرادته و هذا هو متعلّق العلم لا أنّ علمه تعالىٰ صار سَبَباً لعدم خروجه منه و علّةً له اذ العلم الأزلي بشيٍ لا يكون علّة له تعلمه تعالىٰ بشيٍ لا يكون علّة لإيجاده بل إختيار العبد في محلّه و بعبارة أخرىٰ علمه تعالىٰ تعلّق ببقاء الكفر منه مثلاً بإختياره لا مطلقاً و أن شئت.

قلت أنّ اللّه تعالىٰ علم من الأزل أنّ العَبد الفلاني يختار الكفر علىٰ الإيمان أو الإيمان علىٰ الكفر و هذا أمرٌ معقول و ذلك كما أنّ الطّبيب يَعلم أنّ زيداً لو أكل السمّ فهو يموت ثمّ أنّه أكله فمات فهل يقول عاقل بأنّ علم الطّبيب صار علّة باموات زيد والمفرُوض أنّ الطّبيب لم يجبره علىٰ أكل السَّم ففي المثال علّة موته أكلَه السّم الّذي صَدر منه بإختياره لا علم الطّبيب و ما نحن فيه من هذا القبيل فأن قال قائل بين المثالين فرق واضح و هو أنّ الطّبيب يعلم و لا يَقدر علىٰ منعه وردعه عن الأكل و هذا بخلاف المورد فأنّ اللّه يعلم و يقدر علىٰ منع العبد عن إختيار الكُفر و حيث لم يَردعه منه وأبقاه علىٰ حاله إختار الكُفر علىٰ الإيمان.



و لا نعني بالختم علىٰ قلوبهم إلاّ هذا نقول له رَدعٌ اللّه تعالىٰ و مَنعه علىٰ وجهين.

أحدهما: الروع بالقهر والجَبر علىٰ الكفر أو الإيمان بحيث لم يقدر العبد علىٰ مخالفته أمّا بخَلقه إيّاه كذلك أو بإيجاد المانع عن إختيار العبد.

ثانيهما: إعلامه المضّار في الكفّر و المنافع في الإيمان وإقدار العبد علىٰ إختياره أيّهما شاء.

أمّا الأوّل: فهو عين الجَبر سواء كان في الكفّر أم في الإيمان و هو لا يليق بجنابه.

أمّا الثّاني: فقد جعله في حقّ العبد بإيجاد العقل في باطنه و هو الحجّة الباطنة و إرساله الرسل و إنزاله الكُتَب و هو الحجّة الظاهرة: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا**[1].

و إن شئت قلت خَتَم اللّه علىٰ قلوبهم بالعَقل و علىٰ سمعهم بارسال الرُسل وإنزال الكتب أيّ أنّ اللّه تعالىٰ قد ختم علىٰ الكفّار بإعطاء الحُجّة أيّاهم قل فللّه الحجّة البالغة علىٰ عباده.

و أمّا قوله تعالىٰ :**وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** الواو لِلإستئناف بمعنىٰ أنّها جملة مستقلّة و الغشاوة مرفوع علىٰ الإبتداء، و ما قبله خبرٌ والتقدير و غشاوة علىٰ أبصارهم و الغشاء و الغطاء قال الشاعر.

صَحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلمّا أنجلت قطّعت نفسي ألومها

و المقصود أنّ أبصارهم كذلك فكأنّهم لا يبصرون بها إذ لو أبصروا بها لم يكونوا كذلك وتوضيّحه أنّ الأبصار جمع البصر والبَصَر يقال للجارحة الناظّرة و حيث أنّ أبصارهم لا تجتلي آيات اللّه المعروفة و دلائله المنصُوتة كما تجليتّها أعين المعتبرين المُتّبصرين فكأنّما غَطي عليها وحجبت و حِيل بينها و

١- الانسان = ٣

بين الإدارك فلفظ الغشاوة أستعير من معناه الأصلي لحالةٍ في أبصارهم مقتضيّة لعدم إجتلائها آيات اللّه و دلائله فهو إستعارة مصّرح بها أصلّية من محسوس لمعقول و قال بعض المفسّرين و ذلك أنّهم لمّا أعرضوا عن النظر فيما كلفّوه و قصّروا فيما أريد منهم جهلوا بإلزامهم الإيمان به فصاروا كمن علىٰ عينه غطاء لا يبصر أمامه انتهىٰ.

والّذي يحصل من مجموع كلماتهم هو أنّ النظّر والرّوية بالبصر لِلإعتبار فإذا لم يعتبر الناظّر فكأنّ علىٰ عينيه غطاء. أمّا قوله تعالىٰ: **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** فالمقصود أنّ الكفّار الّذين مَرّت أوصافهم إن بقوا علىٰ كفرهم و ماتوا عليه فلهم عذاب عظيم يعني في الأخرة، قيل في معنىٰ العذاب أنّه مشتق من الحبس و المنع يقال في اللّغة، أعذبه عن كذا، أي أحبسه و أمنعه و منه سميّ عذوبة الماء لإنّها قد أعذبت و استعذب بالحبس في الوعاء ليصفوا و يفارقه ما خالطه و منه قول الإمام عليّ عليه‌السلام أعذبوا نسائكم عن الخروج أي إحبسوهنّ و عنه عليه‌السلام و قد شيَّع سرّية فقال عليه‌السلام أعذبوا عن ذكر النّساء أنفسكم فأنّ ذلك يكسركم عن الغزو، و يُقال، أعذب أي أمتَنع و أعذب غيره، فهو لازم ومتعدّ فسمّي العذاب عذاباً لإنّ صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير و يهال عليه أضدادها.

■

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

◁ اللّغة

الواو: للعطف من للتبّغيض.

النَّاسِ: أصله عن سيبوية، أناس حذفت همزته و هي فاء الكامة و جعلت الألف و اللاّم كالعِوض منهما فلا يكاد يستعمل النّاس إلاّ بالألف و اللاّم كما لا يكاد يستعمل، اناس، بألف واللاّم فالألف في النّاس علىٰ هذا زائدة و إشتقامة من الإنس و قال غيره ليس في اللّغة حَذف و الألف منقلبة عن واو و هي عين الكلمة و إشتقاقه من، ناسَ ينُوس نوساً إذا تحرك و قالوا في تصغيره نُوَيس.

مَنْ يَقُولُ مَن: نكره موصوفة و يقول، صفة لها و لَيست بموصولة بمعنىٰ الّذي لإنّ الّذي يتناول قوماً بأعيانهم و المعنىٰ هيهنا علىٰ الإبهام والتّقدير، و من، موّحدة للفظ و تستعمل في التّثنية و الجمع و التأنّيث بلفظٍ واحد و أمّا الضمير الرّاجع اليها فيجوز أن يفرد حَملاً علىٰ لفظها و أن يـثّني و يُـجمع و يؤنث عملاً علىٰ معناها، والأصل في، يقول، يقول، ليكون القاف و ضَم الواو فَنقلت ضمّة الواو الىٰ القاف ليخّف اللّفظ بالواو.

آمَنَّا: أصل الألف همزة ساكنة فقلت ألفاً لئلاّ تجتمع همزتان و كاف قلبها ألفاً من اجل الفَتحة قبلها و وزن آمن افعل من الأَمَن.

الْآخِرِ، فاعل فالألف فيه غير مبدلة من شئ.

وَمَا هُمْ:كلمة، ما نافية و هم ضمير منفصل مرفوع بما، عند أهل الحجاز، و مبتدأ عند تميم.

بِمُؤْمِنِينَ: الباء زائدة و مؤمنين مجرور، بها و الجار و المجرور خبر، و هُم، مبتدأ و قيل بالعكس. و كلمة ما لنفي الحال و قد تُستعمل لنفي المستقبل.

◁ الإعراب

وَمِنَ النَّاسِ معطوف علىٰ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** و أنّما فُتحت نون من، لئّلا تتوالىٰ الكسرتان، و النّاس مجرور بها **مَنْ يَقُولُ، مَن** موضعها الرّفع علىٰ الإبتداء و ما قبله الخبر و هو مرفوع بالجار قبله علىٰ ما تقدّم في قول الأخفش و**يَقُولُ** صفة لها **آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ** يتعّلق بقوله تعالىٰ و يقول: **وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ما حرف نفيٍ مُشبه بليس **هُم** إسمه **بمؤمنين** خبره و هو في موضع النّصب بكونه، خبر ماً.

◁ التّفسير

لمّا بيّن اللّه تعالىٰ أوصاف المُتّقين في أوائل السّورة الىٰ قوله: **هُم المفلحُون** ثمّ بيّن أوصاف الكفّار من قوله: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** الىٰ قوله: **عَذَابٌ عَظِيمٌ** شرح في بيان أوصاف المنافقين فقال ومن النّاس من يقول الأية و ذلك لأنّ هذه الآيات إستوعبت أقسام النّاس و من المعلوم أنّ الإنسان لا يخلو من هذه الأوصاف الثّلاثة فأنّه أمّا أن يكون مؤمناً مخلصاً بِقلبه ولِسانه و عَمَله أو لا يكون و الأوّل هو المؤمن و الثّاني أمّا أن يكون مُنكِراً بالكلّية أعني باللّسان و القلب و الجوارح أو لا يكون بل يؤمن باللّسان و يكفر بالقلب و الأوّل كافر والثّاني هو المُنافق فالحصر عقلّي دائر بين النفى و الإثبات.

قيل أنّ هذه الأيات نزلت في عبد اللّه إبن أُبَي إبن سلول وجّد إبن قيس و مغّبة إبن قشير و أصحابهم و أكثرهم من اليَهود إلاّ أن خصوصّيت المَورد لا تنافي عمومّيت الحكم.

قال الطّبرسي ﴿قدس سره﴾ في معناها أنّه تعالىٰ قد أخبر بأنّهم يقولون صدّقنا باللّه وما أُنزل علىٰ رسله من ذكر البعث فيظهرون كلمة الإيمان و كان قصدهم الإطّلاع علىٰ أمور المسلمين فينقلوها الىٰ الكّفار الىٰ أن قال ﴿قدس سره﴾ فبيّن أنّ ما

قالوه بلسانهم مخالف لِما في قلوبهم و هذا يدّل علىٰ فساد قول من يقول الإيمان مجرّد القول إنتهىٰ.

أقول أنّما سُمّي المُنافق مُنافقاً لإظهاره غير ما يضمر تشبيهاً بـاليربوع له حَجِر يقال له النّافقاء و آخر يقال له القاصعاء و ذلك أنّه يخرق الأرض حتّىٰ إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرّق التّراب فإذا رأىٰ به ريبٌ دفع ذلك التّراب برأسه فخرج فظاهر حُجره تُراب وباطنه حفر وكذلك المُنافق ظاهره إيمان و باطنه كفر. قاله القُرطّبي في تفسيره.

إعلم أنّهم اختلفوا في أنّ المُنافقين قسمٌ من الكفّار أو قسيمٌ لهم فعلىٰ الأوّل أقسام النّاس مُنحصرة في الأيمان و الكُفر و علىٰ الثّاني فالأقسام ثلاثة، إيمان، وكُفر و نِفاق.

والمشهور عندهم هو القول الثّاني لأنّ المُنافق مُذبذَبٌ بين المؤمن و الكافر لا من هؤلاء و لا من هؤلاء و هو واضح.

و أختار الزّمخشري و بعض من تأخّر عنه القول الأوّل و أستّدلوا عليه بأنّ الكُفر في الأصل السّتر و المُنافق يستر كُفره و يظهر الأيمان فهو كافر لغةً و إن كان غيره شرعاً من حيث عدم ترتّب أحكام الكُفر عليه قال ما لفظه الكُـفر جمع الفريقين معاً و صَيّرهـم جنساً واحداً وكون المُنافقين نوعاً من نوعَي هذا الجنس مغايراً لِلنّوع الأخر بزيادةٍ زادوها علىٰ الكُفر الجّامع بينها من الخديعة والإستهزاء لا يخرجهم من أن يكون بعضاً من الجِنس فأنّـما الأجـناس إنّـما تنّوعت لمغايرات وقعت بين بعضها و بعض و تـلك المـغايرات إنّـما تأتـي بالنّوعيته و لا تأبىٰ الدّخول تحت الجنسيّة إنتهىٰ ما ذكره.

وأنا أقول هذا البحث ممّا لا طائل تحته بل الحَق إنّه لفظّيٌ وذلك لأنّه يرجع الىٰ القول في الإيمان فأن قلنا أنّ الإيمان عبارة عن الإقرار باللّسان فقط و لا دخل له في الإعتقاد القلبي فالمنافق مؤمن بهذا الإعتبار و لا يدخل في الكُفّار

و أن قلنا بلزوم الإعتقاد القلّبي في الإيمان شطراً أو شرطاً فالمُنافق خارج عنه لا مُحالة و يدخل في الكُفّار.

فقول الزّمخشري بدخول المُنافق في الكُفّار بقول مطلق لا معنىٰ له فعلىٰ قول الشّيعة من إشتراطهم الإعتقاد القّلبي في تحقّق الإيمان يصير المُنافق خارجاً عنه لكونه منكراً بالقلب و خارجاً من الكفر أيضاً لكونه مُقّراً بالتّوحيد بلسانه وقد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم **أُمرت أن أقاتل النّاس حتّىٰ يقولوا لا إلٰه إلاّ اللّه فإذا قالوها عصموا منّي دِمائهم وأموالهم وحسابهم علىٰ اللّه.**

فالمُنافق داخل في الإسلام خارج من الأيمان والكُفر و أمّا علىٰ مَسلك القوم من أنّ الإيمان عبارة عن الإقرار بالتّوحيد و الرّسالة باللّسان فقط فالمُنافق داخل في زمرة المؤمنين وأمّا علىٰ مسلك الزّمخشري حيث أنّه يقول في معنىٰ الإيمان ما نقول به فلا يتّم ما ذكره من دخول المُنافق تحت الكُفر و ذلك لأنّ هذا الحُكم مُخالف لِمذهبه في الإيمان و الكُفر فأنّه قال في قوله تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ** فأن قلت ما الإيمان الصّحيح قلت أن يعتقد الحّق و يعرف عنه بلسانه و يصّدقه بعمله فمن أخل باالإعتقاد و إن شهد و عَمل فهو مُنافق و من أخلّ بالشّهادة فهو كافر، و من أخّل بالعمل فهو فاسق إنتهىٰ.

أقول، المُنافق لم يخّل بالشّهادة فهو ليس بكافر علىٰ قوله فكيف يقول في مقام البحث الكُفر جمع الفريقين و صيّرهم جنساً واحداً، أليس هذا من التّهافت، وكيف كان فقد وَردت الأيات و الأخبار في ذّم المُنافقين أمّا الأيات فكثيرة جدّاً و ستقف عليها إن شاء اللّه تعالىٰ.

وكفاك ما ورد في ذمّهم في المقام فأنّاللّه تعالىٰ أنزَل أربع أيات في هذه السُّورة في مَدح المؤمنين و إثنتان في نعت الكافرين و ثلاث عشرة في المنافقين مضافاً الىٰ ما ذكره في سائر السُّور ولا نحتاج الىٰ ذكرها في المقام.

و أمّا الأخبار:

ما رواه في البحار بأسناده قال: رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم خلّتان لا تجتمعان في منافق، فقه الإسلام وحسن سمة الوجه.



ما رواه أيضاً بأسناده عن الصّادق عليه السلام قال: أربع علامات للنِّفاق، قساوة القلب، و جمُود العين، والإصرار علىٰ الذّنب و الحرص علىٰ الدّنيا.

ما رواه عن عباد بن صُهيب قال: سمعت أبا عبد اللّه يقول لا يجمع اللّه لمنافقٍ و لا لفاسقٍ حُسن السّمة، والفقر، و حُسن الخلق أبداً.

ما رواه بأسناده عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام في حديثٍ الىٰ أن قال عليه السلام: أنّ المنافقين يخادعون اللّه و هو خادعهم الىٰ قوله سبيلاً ليسُوا من عترة رسول اللّه و ليسوا من المؤمنين و ليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويسرّون الكفر والتّكذّيب لعنهم اللّه انتهىٰ[1].

الأحاديث كثيرة أردنا ذكر شطرٍ منها تيمّناً و تبرّكاً به، والحمد لِلّٰه ربّ العالمين.

إعلم أنّه في رأس المنافقين في الإسلام من بايع علّياً عليه السلام في غدير خمّ ثمّ نقضوا بيعته و نكثوا عهده بعد موت الرّسول لانّهم أظهروا الإيمان هناك و أبطنوا الخلاف في المَدينة بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ يقول: **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ** فَجعل ملاك النّفاق الإيمان باللّه واليوم الأخر فى ظاهر الآية وحكم بنفاق من أظهر الإيمان بهما بلسانه و قوله ولم يَعتَقد بقلبه و من المعلوم أنّ ذكر اللّه واليَوم الأخر أعني بهما الاعتقاد بالمبدء والمعاد لا يكفي في الإيمان اذ لم يَعتقد بالرّسالة و لم يذكر الرّسالة في الأية لأنّه من الواضحات و لم تكن الآية بصدد بيان الحَصر في تَحقّق الإيمان و عليه جميع المفسّرين.

اذ لو قلنا أنّ أمر الإيمان منحصر في الإعتقاد بالمبدأ و المعاد و أن لم يعتقد

١- ج ١٥ جزء الثّالث ص ٢٣ ط كمباني

الإنسان بالرّسالة و ما جاء به الرّسول من عند اللّه من الصّلاة و الصّوم و الحجّ و أمثال ذلك من ضرّوريات الإسلام يلزم أن يكون الإنسان المُعتقد بهما مؤمناً و أن لم يَعتقد بالرّسالة و ما أنزل علىٰ الرّسول و لا أظنّ أنّ مُسلماً قال بهذه المقالة فضلاً عن المؤمن كيف و قد اتّفقوا علىٰ كفر من أنكر ضرورياً من الدّين كالصّلاة و الزّكاة فضلاً عن الرّسالة.

اذا عرفت هذا فنقول المؤمن من إعتقد باللّه ويرسوله و بكلّ ما جاء به الرّسول من البعث و الحَشر و السّؤال و الواجبات و غيرها إعتقاداً جازماً ثمّ الإقراربالّلسان و العَمل بالجوارح و عليه فالمنافق من يقول بها و لم يعتقد فعلىٰ هذا يدخل في المنافقين كلّ من أقّر لساناً بالرّسالة و ما أنزل علىٰ الرّسول و أنكرها بقلبه و لا شكّ أنّ الإعتقاد بالرّسالة هو المحور و المدار في المقام لأنّ المعتقد بالرّسول معتقد باللّه و اليوم الأخر و لا عكس فأنّ اليهود و النّصارىٰ و أمثالهما من أتباع الأديان السّابقة معتقدون باللّه و باليوم الأخر قطعاً و لا يعتقدون بالرّسالة في حقّ رسول الإسلام و لم يقل أحد بكونهم مؤمنين بل حكموا بكفرهم و منه يعلم أنّ مدار الإيمان علىٰ الرّسالة التّي يلزم منها التّوحيد والإعتقاد باليوم الأخر و المنافق من يقول بها ظاهراً لا باطناً و لا شكّ أنّ المعتقد بالرّسالة معناه إعتقاده بأنّ الرّسول رسول من اللّه فأمره أمر اللّه و نهيه نهي اللّه و إطاعته إطاعة اللّه و معصيته معصية اللّه و هكذا.

فأنّه ما ينطق عن الهوىٰ إن هو إلاّ وحيٌ يُوحىٰ، فمن قال بالرّسالة و شهد بها بلسانه و لم يقبل قول الرّسول فهو منافق لأن عدم قبول أمره يرجع الىٰ عدم الإعتقاد به والمفروض أنّه من علائم النّفاق فالمطلوب ثابت و لأجل هذا قلنا أنّ المنافقين لبيعته عليه السلام بعد رسول اللّه في رأس المنافقين في الإسلام فتدّبر فيه.

■

يُخٰادِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمٰا يَخْدَعُونَ اِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ وَمٰا يَشْعُرُونَ﴿٩﴾

◁ اللّغة

يُخٰادِعُونَ: فعل مضارع والماضي فيه، **خادَع** و المصدر **المخادعة** و هو من **الخَدع** و أصل **الخَدع الإخفاء** و الإبهام بخلاف الحقّ قاله الطّبرسى.

و قال الرّاغب في المفردات **والخِداع** إنزال الغير عمّا هو بصدده بأمرٍ يبديه علىٰ خلاف ما يخفيه.

وَ مٰا يَخْدَعُونَ: **ما** نافية و **يخدعون** مضارع و ماضيه **خَدَع**، و مَصدره **الخَدع** بسكون الدّال و الواو و النّون علامة الجمع و الفرق بين الفعلَين من حيث المعنىٰ أنّ الأوّل أعني به **يخادعون** يلزم الطّرفين لأنّه من باب المفاعلة بخلافه في الثّانى.

اِلاّٰ أَنْفُسَهُمْ، **اِلاّ**: حرف إستثناء و **أنفسهم**، جمع **نفس** بمعنىٰ الذّات.

وَمٰا يَشْعُرُونَ: **ما** نافية و**يشعرون** مضارع من **شَعر**، **يَشعُر**، **والشّعور** الفهم والدّرك.

◁ الإعراب

يُخٰادِعُونَ فيه وجهان، أحدهما أنّه لا موضع لها من الإعراب وكلمة **ما** فى الموضعين، موضعها نَصب علىٰ الحال وكلمة **من** فى قوله **من يقول** صاحب الحال و العامل فيه وجهان:

أحدهما: هي من الضّمير في يقول، فيكون العامل فيها، يقول في قوله تعالىٰ: **وَمِنَ النّٰاسِ مَنْ يَقُولُ و** التقدّير، أمنّا مخادعين.

ثانيهما: هي حال من الضّمير في قوله بمؤمنين، و العامل فيها إسم الفاعل والتّقدير و ما هم بمؤمنين في حال خداعهم، و في الكلام حذف و تقديره يخادعون نبّي اللّه و قيل هو علىٰ ظاهره من غير حذفٍ و **ومٰا يَخْدَعُونَ** أكثر

القرّاء قرؤها بالألف و المشهور المكتوب في المصاحف، بدونها و قيل المفاعلة هنا من واحد كقولك سافر الرّجل، و عاقبتٌ اللصّ، و قرأ بعضهم بضمّ الياء من باب أَخدَعَ يَخدع و عليه يكون الفاعل للخدع الشّيطان فكأنّه قال و ما يخدعهم الشّيطان إلاّ أنفسهم أي عن أنفسهم وكيف كان، يكون، اللّه، مفعول الفعل في الأوّل وَالَّذِينَ آمَنُوا معطوف، علىٰ اللّه وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاّ أنفسهم، كلمة ما نفي، و إلاّ، إيجاب أَنْفُسَهُمْ منصوب لكونه مفعول، يَخدعٌون، الثانية وَمَا يَشْعُرُونَ ما، نفي و يشعرون فعل و فاعل و هو واضح.

◁ التفسير

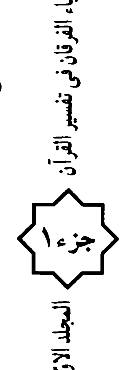
لمّا أشار اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة الىٰ المنافقين و أنّهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم شرع في بيان أوصافهم و هي أمور تأتي الإشارة اليها بترتيب الأيات:

منها أنّهم يخادعون اللّه و المؤمنين بزعمهم الفاسد و لم يعلموا أنّهم لا يخدعون إلاّ أنفسهم و ما يشعرٌون هذا المعنىٰ و هو أنّ الخدع يرجع اليهم بالأخرة.

إن قلت يخادعون، من باب المفاعلة و هي تلزم الطّرفين كما يقال ضارب زيد عمراً و لا يقال ضارب زيدٌ بدون عمرٌ و عليه فالمعنىٰ أنّهم يخدعون اللّه واللّه يخدعهم.

قلت أجابوا عنه بوجهين أحدهما، أنّ الأمر كذلك كما قال في الأخرىٰ، يخادعون اللّه و هو خادعهم و لأجل هذا قرأه بعضهم، يخدعون اللّه.

ثانيها: هو أن ينزّل ما يخطر بباله من الخدع بمنزلة أخر يجازيه ذلك و يعارضه أيّاه فيكون الفعل كأنّه من إثنين و في المقام قول ثالث ذكرناه في شرح اللّغات و الإعراب و هو أنّ المفاعلة قد تكون من واحد كقولك، سافر الرّجل، و عاقبتٌ اللّص، و ما نحن فيه من هذا القبيل.



و قال بعضهم تقدير الكلام يخادعون رسول اللّه، و عليه فالإشكال مرتفع بتمامه، و ذلك لأنّ خداعهم لرسوله خداعهم له تعالىٰ في الحقيقة لأنّه دعاهم برسالته وكذلك اذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا اللّه و مخادعتهم ما أظهروه من الإيمان و ما أبطَنوه من الكفر لِيَحصنوا بذلك دمائهم و أموالهم و يظنّون أنّهم قد نجوا و خدعُوا هكذا قال بعض المتأولين و قال بعضهم أصل الخدع في كلام العَرب الفساد حكاه ثعلب عن ابن الأنباري و أنشَدَ:

أبيَض اللّون لذيذ طَعمه طيّب الرّيق اذ الرّيق خَدع

أي فَسد انتهىٰ.

و في كلامه تعالىٰ و المؤمنين إشارة الىٰ أنّ خدع المؤمنين هو خداع اللّه في الحقّيقة ولذلك صار معطوفاً علىٰ اللّه في الآية والوجه فيه هو أنّ المنافقين أنّما خدعوهم لإجل إيمانهم باللّه و برسوله بحيث أنّهم لو لم يكونوا مؤمنين لِمَ تخدموهم فالمخدوع في الحقيقة هو الإيمان أو الإنسان من حيث كونه لا مؤمناً لا مطلقاً و لذلك صار خدعهم خَدع اللّه، و في قوله تعالىٰ: **وَمٰا يَخْدَعُونَ اِلاّ أَنْفُسَهُمْ** إشارة الىٰ أنّ عاقبة المكر و الخدع ترجع الىٰ أنفسهم و قوله تعالىٰ: **وَمٰا يَشْعُرُونَ** يدّل علىٰ عدم شعورهم برجوع ضرر الخدع الىٰ أنفسهم بل ظّنوا بزعمهم الفاسد أنّهم خدعوا اللّه و المؤمنين، ثمّ أنّ المراد من الخدع في المقام أنّهم يعملون عمل المخادع لأنّ اللّه تعالىٰ لا يصّح أن يخادعه من يعرفه و يعلم أنّه لا يخفىٰ عليه خافية، و قيل المعنىٰ يخادعون رسول اللّه ﷺ لأنّ طاعته طاعة اللّه و معصيته كذلك فحذف المضاف و أقيم المضاف اليه مقامه و هكذا كقوله و أن يريدوا أن يخدعوك.

و أمّا خداعهم بالنّسبة الىٰ المؤمنين فمعناه أنّهم إذا رأوهم قالوا آمنّا و هم غير مؤمنين و أرادو من إظهارهم الإيمان مجالستهم و مخالطتهم إيّاهم حتّىٰ يفشوا اليهم أسرارهم فينقلوها الىٰ أعداءهم و معنىٰ قولهم و ما يخدعون إلاّ أنفسهم و ما يشعرون، أنّ وِبال الخداع راجع الىٰ أنفسهم في الدّنيا و الأخرة أمّا

في الأخرة فمعلوم و أمّا في الدّنيا فلقوله صلى الله عليه و آله و سلم من حفر بئراً لأخيه وَقَع فيه.

فعن كتاب ثواب الأعمال بأسناده أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم: سُئِل فيما النّجاة غداً قال صلى الله عليه و آله و سلم: إنّما النّجاة فيه أنّ لا تخادعوا اللّه فيخدعكم فأنّه من يخادع اللّه و يخدعه يخلع منه الإيمان و نفسه يخدع لو يشعر قيل له و كيف يُخادع اللّه قال صلى الله عليه و آله و سلم يَعمل ماأمر اللّه عزّ و جّل ثمّ يريد به غيره فإتقوا اللّه و الرّياء فأنّه شرك باللّه انتهىٰ.

و عن مصباح الشّريعة قال الصّادق عليه السلام: و إعلم إنّك لا تقدر علىٰ إخفاء شئٍ من باطنك عليه تعالىٰ و تصييره مخدوعاً بنفسك قال تعالىٰ: يُخَادِعُونَ اللّهَ.

و من طريق العامّة، ما رواه في الدّر المنثور بأسناده أنّ قائلاً من المسلمين قال يا رسول اللّه ما النّجاة غداً قال صلى الله عليه و آله و سلم: لا تُخادع اللّه قال و كيف نُخادع اللّه قال إن تَعمل بما أمرك اللّه به تريد به غيره فإتّقوا الرّياء فأنّه الشّرك باللّه فأنّ المرّائي يُنادي به يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق بأربعة أسماء، ياكافر، يافاجر، ياخاسر، ياغادر، ضلّ عملك و بطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند اللّه فإلتمس أجرك فمن كنتَ تَعمل له يا مُخادع و قَرأ آيات من القرآن (فَمَن كانَ يَرجوا لقاء ربّه فَليَعمَل عملاً صالحاً) و أنّ المنافقين يخادعون اللّه)الأية انتهىٰ.

و أيضاً عن قيس ابن سعد قال لولا أنّي سمعتُ رسول اللّه يقول المكر والخديعة في النّار لكنت أمكر هذه الأمّة انتهىٰ.

و الأحاديث من طرق العامّة و الخاصّة في ذمّ النِّفاق و المكر و الخدع كثيرة أعاذنا اللّه منها.

■



فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

◁ اللّغة

في حرف جرٍ و **قلوب** جمع قلب، **هُم** ضمير يرجع الىٰ المنافقين المخادعين.

مَّرَضٌ: مصدر قولك مَرِض مَرَضاً ومَرَضاً و هو في اللّغة الخروج عن الإعتدال.

فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً: زاد فعل ماضٍ و الباقي معلوم.

عَذَابٌ: قد مرّ الكلام فيه.

◁ الإعراب

فِي قُلُوبِهِمْ خبر مقدم **مَّرَضٌ** مبتدأ مؤخر **فَزَادَهُمُ اللَّهُ** زاد يستعمل لازماً كقولك زاد الماء و متّعدياً الىٰ مفعولين كقولك زدته درهماً و علىٰ هذا جاء في الأية فمفعوله الأوّل **هُم**، و مفعوله الثّاني، **مَرَضاً** و فاعل الفعل اللّه **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**، **عذاب** مبتدأ، مؤخر **ولهم** خبر مقدّم و التّقدير، و عذابٌ أليم لهم، فقوله: **أليمٌ** صفة للعذاب **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** هو في موضع رفع، لأنّه صفة، **أليم** و الباء تتعلّق بمحذوفٍ تقديره، أليم كائن بتكذيبهم أو مستحق، و ما، هنا مصدّرية و صلتها يكذبون و يكذبون في مَوضع نَصب، خبر كان و ما المصّدرية حرفٌ عند سيبويه و إسم عند الأحفش.

◁ التّفسير

المرض علىٰ قسمين جسمّي و روحيّ فمن الأوّل قوله تعالىٰ: **وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** و من الثّاني هذه الآية و أمثالها.

و ذلك لأنّ الإنسان مرّكب من الرّوح و البَدَن و كلاهما قد يخرجان عن الإعتدال الطّبيعي و مَرض الجسم معلوم و مَرض الرّوح عبارة عن الرّذائل الخلقيّة كالجهل و الجبن و البخل و النّفاق و غيرهما من الأمراض القلبية و لأجل ذلك قال اللّه تعالىٰ: **فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ** ولم يقل في أبدانهم مَرض أنّ النّفاق والكفر و أمثالهما محلّها القلب ثمّ أنّ التّعبير بالمَرض من باب التّشبيه أمّا لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل النفسانيّة كالمَرض المانع للبدن عن التصرّف الكامل، و أمّا لكونها مانعةً عن تحصيل الحياة الأخرويّة المذكورة في قوله تعالىٰ: **وَ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٰخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوٰانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**(١).

و أمّا لميل النَّفس بها الىٰ الإعتقادات الرّديئة مثل ميل البدن المَريض الىٰ الأشياء المضّرة و لكون هذه الأشياء متصوّرة بصورة المرض قيل دوي صدر فلان و نَغِل قلبه و قال عليه‌السلام و أيّ داءٍ أدوء مِن البخل.

محصل الكلام في المقام هو أنّ كلّ ما يخرج نفس الإنسان عمّا هي عليه بحَسب التكوين أو التّكليف فهو مَرضها.

و قال بعض المحقّقين أنّ المَرض صفة توجب وقوع الضّرر في الأفعال الصّادرة عن موضع تلك الصّفة و لمّا كان الأثر الخاصّ بالقلب أنّما هو معرفة اللّه و طاعته و عبودّيته فاذا وقع في القلب منها ما صار مانعاً من هذه الأثار كانت الصّفات أمراضاً للقلب انتهىٰ.

ثمّ أنّ قوله تعالىٰ: **فَزٰادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضاً** ففيه وجوه:

أحدها: أنّ معناه إزدادوا شكّاً عند ما زاد اللّه من البيان بالأيات و الحججّ إلاّ أنّه لمّا حَصل ذلك عند فعله نسب اللّه كقوله في قصّة نوح: **فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعٰاءِىٓ إِلَّا فِرٰارًا**(٢).

لمّا إزدادوا فراراً عند دعاء نوح فَنسب اليه و كذلك قوله تعالىٰ: **فَزٰادَتْهُمْ**

١- العنكبوت = ٦٤ ٢- نوح = ٦

رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ[۱] و الأيات لم تزدهم رجساً عندها و أنّما كانت اسباباً له و حيث أنّ الأيات و الحجج من اسباب إزدياد الشكّ و الأيات من اللّه تعالىٰ فنسب الفعل اليه مجازاً.

ثانيها: ما قاله أبو علّي الجبائي أنّه أراد في قلوبهم غمّ بنزول النّبي المدينة و بتّمكنه فيها و ظهور المسلمين و قوّتهم فَزادهم اللّه غمّاً بما زاده من التّمكين والقّوة و أمدَّه به من التّأييد و النّصرة.

ثالثها: ما قاله السّدي أنّ معناه زادهم اللّه عداوة اللّه مَرضاً، و في هذا حذف المضاف مثل قوله تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اَللّٰهِ** [۲] أي من ترك ذكر اللّه.

رابعها: أنّ المراد به في قلوبهم حُزن بنزول القرأن بفضائحهم و مخازيهم فَزادهم اللّه مَرضاً بأن زاد في إظهار مقابحهم و مساوئهم و الأخبار من خُبث سَرائرهم وسوء ضمائرهم و سمّي الغَمّ مرضاً لأنّه يضيق الصّدر كما يضيقه المَرض.

خامسها: ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني و هو أنّ ذلك علىٰ سبيل الدّعاء عليهم كقوله: **ثُمَّ اَنْصَرَفُوا صَرَفَ اَللّٰهُ قُلُوبَهُمْ** [۳] فكأنّه دعا عليهم بأن يخليهم اللّه و ما إختاروه و عدم إعطائهم من زيادة التّوفيق و الألطاف ما يُعطي المؤمنين، فهذه الوجوه الخمسة نقلها الطّبرسي ﴿ره﴾ و غيره من العامّة و الخاصّة و أمّا نحن فَنقلناها عن تفسير المجمع له ﴿ره﴾.

و نقل الرّازي في تفسيره في عداد الوجوه أنّ العرب تصف فتور الطّرف بالمَرض فيقولون جارية مريضة الطّرف قال جُرير:

أنّ العيون التّي في طَرفها مَرضُ ... قتلتنا ثمّ يحسبن قتلانا

۱- التوبة = ۱۲۵
۲- الزمر = ۲۲
۳- التوبة = ۱۲۷

ثمّ قال فكذلك المَرض هنا أنّما هو الفتّور في النّية و ذلك لأنّهم في أوّل الأمر كانت قلوبهم قويّة علىٰ المحاربة و المنازعة و إظهار الخصومة ثمّ إنكسرت شوكتهم فأخذوا في النّفاق بسبب ذلك الخوف و الإنكسار فقال تعالىٰ: **فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً** أي زادهم ذلك الإنكسار و الجُبن و الضّعف و لقد حقّق اللّه ذلك بقوله:**وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ** (١).

و وجه أخر و هو أن يّحمل المَرض علىٰ ألم القلب و ذلك أنّ الإنسان اذا صار مبتلي بالحسد و النّفاق و مشاهدة المكروه فاذا دام به ذلك فربّما صار ذلك سبباً لتغيّر مزاج القلب و تألّمه و حمل اللّفظ علىٰ هذا الوجه حَملٌ له علىٰ حقيقته فكان أولىٰ من سائر الوجوه انتهىٰ ما ذكره الرّازى.

أقول الوجوه المذكورة لا بأس بها اذ لا يخلو كلّ واحدٍ منها من حسنٍ.

والّذي يقوّي في النّظر و هو جامع لجميع الوجوه هو أنّ اللّه تعالىٰ وكلهم الىٰ أنفسهم و مَنَع عنهم التّوفيق و اللّطف لنفاقهم و الإيكال الىٰ النّفس يوجب زيادة المرض فيها و لذلك ورد في الأدعية، اللّهم لا تكلنا الىٰ أنفسنا طرفة عينٍ أبداً.

و المراد باللّطف تقليب القلب عمّا هو عليه فأنّه تعالىٰ مقلّب القلوب و الأبصار و المنافق المخادع لمّا قطع رابطته مع خالقه فلا محالة حرّم عن ألطافه و لازمه زيادة المَرض في القلب.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ** فقال صاحب الكشّاف يقال ألم فهو أليم كوَجع فهو وَجيع و وصف العذاب به فهو نحو قوله، (تحيّةٌ بينهم ضَربٌ و جيعٌ) و هذا علىٰ طريقة قولهم جدّ جدّه والألم حقيقة للمؤلم كما أنّ الجدّ للجادّ، فالأليم مبالغة في الألم و في قوله تعالىٰ: **وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ** إشعار بل إعلامٌ بأنّ العلّة للعذاب هو الكذب و المراد منه قولهم أمنّا باللّه و باليوم الأخر و أنّهم لَم يُؤمنوا أبداً.

■

١- الاحزاب = ٢۶

وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ قَالُوا اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

◁ اللّغة

اذا: ظرف زمانٍ.

قِيلَ: بكسر القاف مجهول، قال.

لاَ تُفْسِدُوا: بضَّم التّاء فعل نهيٍ من أفسَد يفسد.

فِي الْاَرْضِ: الهمزة في الأرض، أصل، و أصل الكلمة علىٰ الإتّساع و منه قولهم أرضت القرصة اذا إتسعت.

مُصْلِحُونَ: إسم فاعل من أصلَح.

والْمُفْسِدُونَ: فاعل من أفسَد، و الواو و النّون فيها علامة الجمع.

◁ الإعراب

اذا في موضع نَصب علىٰ الظّرف و العامل فيها جوابها و هو قوله **قالوا** و قيل العامل فيها **قيل** و هو خطأ لأنّه في موضع جرٍّ بإضافة اذا، اليه و المضاف اليه لا يَعمَل في المضاف **لَهُمْ** قيل هو القائم مقام الفاعل و قال بعض تقدير الكلام اذا قيل لهم قول هو لا تفسِدو، و عليه فالقائم مقام الفاعل هو **قولٌ** و ضمير في **هم** يرجع الىٰ المنافقين **لَهُمْ** في موضع نَصب مفعول، قيل: **لاَ تُفْسِدُوا فِي الْاَرْضِ في الأرض** ظرف متّعلق، بتفسدوا **قَالُوا اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**، أنّما، تفيد حصر الخبر كقوله تعالىٰ: **أنّما اللّه إلهٌ واحد** و **نا** هيهنا كافّة و نحن، إسم منفصل مبنيّ علىٰ الضَّم و هو في موضع رفع بالابتداء و مصلحون، خبره **ألا** هي حرف يفتح به الكلام لتَنبيه المخاطب

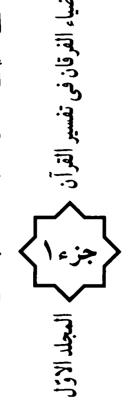
هُمُ الْمُفْسِدُونَ مبتدأ و خبر و الجملة خبر إنّ و لكن لا يشعرون معطوف على المفسدين فموضعه الرّفع بحكم العَطف.

◁ التّفسير

يقول اللّه تعالىٰ: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** أي المنافقين **لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** أي نريد الإصلاح لا الفَساد و لا يعلمون أنّهم مفسدون **وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ** بافسادهم لجهلهم به.

قال الرّاغب الفَساد خروج الشّيء عن الإعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً و يضّاده الصّلاح و يستعمل ذلك في النّفس و البَدن يقال فَسَد فساداً و فسوداً انتهىٰ.

و اذا قيل للمنافقين لا تفسدوا في الأرض قيل المراد بالفساد المعاصي و قيل صدّهم النّاس من الإيمان و قيل ميلهم الىٰ الكفّار و قيل تحريفهم الكتاب و قيل غير ذلك و لا شكّ أنّ الفساد له معنىٰ عامّ يشمل الكلّ يقولون في الجواب **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** أي نريد الإصلاح بين النّاس أو انّ أعمالنا في الدّنيا بصلاح النّاس و فيه إشارة الىٰ أنّ كلّ حزبٍ بما لديهم فَرِحُون و لا يبعد أن يكون قولهم هذا أي **إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ** منهم علىٰ سبيل النّفاق لا علىٰ سبيل التّشخيص و الفَهم و ذلك لأنّ المنافق كما يظهر الإيمان و يُبطن الكفر كذلك يقول الحقّ و يريد الباطل فهو يعلم أنّ فعله من مصاديق الفَساد ولكن لا يقّر به لأنّه بصدد إغفال النّاس و إنحرافهم عن مسلك الحقّ و الحاصل أنّ المنافق لا يقّر بنفاقه و افساده و أن كان من أعظم مصاديق المفسد و لذلك قال اللّه تعالىٰ في جوابهم **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ** و هذا الكلام منه تعالىٰ ردّ لِما إدّعوه أبلغ ردٍّ للإستئناف به و تصديره بحَرّفي التأكيد و ألا المُنبهة علىٰ تحقيق ما بعدها فأنّ همزة الإستفهام التّي للإنكار اذا دَخلت



علىٰ النَّفي أفادَت تَحقيقاً و نظيره، أَلَيس اللّه بكافٍ عَبده، و لذلك لا تكاد تقع الجملة بعد إِلاّ مصدرة بما يتلقىٰ به القسم قاله البيضاوي في تفسيره.

و كيف كان فالمعنىٰ لا خفاء فبه إعلم أنّ الفساد في الأرض لا يختصّ بالقتل و النّهب و أمثالها بل هو علىٰ قسمين:

فساد في الأرض، و فَساد في القلب و إن شئت قلت فسادٌ في الدّين و عليه فالمفسد أيضاً علىٰ قسمين، مُفسد علىٰ النّاس دنياهم، و مُفسد عليهم دينهم والأية بإطلاقها تشمل القسمين و قد يوجد من يفسد علىٰ النّاس دينهم و دنياهم معاً و هو من أَخَبَث المفسدين و أمثالهم كثيرة في المسلمين بل هم في المسلمين أكثر بمراتب منهم في الكفّار أعاذنا اللّه من شرورهم لَعن اللّه من أسَسّ أساس النّفاق في الإسلام أمين.

■

وَ إِذٰا قيلَ لَهُمْ اٰمِنُوا كَمٰآ اٰمَنَ النّٰاسُ قٰالُوا اَنُؤْمِنُ كَمٰا اٰمَــنَ السُّــفَهٰآءُ أَلاٰ إِنَّــهُمْ هُــمُ السُّــفَهٰاءُ وَلٰكِــنْ لاٰ يَعْلَمُونَ﴿١٣﴾

◁ اللّغة

وَ إِذٰا قيلَ لَهُمْ: قد مرّ الكلام فيه.

اٰمِنُوا: فعل أمر من أمَنَ و الواو علامة الجمع و قد مرّ معنىٰ الإيمان غير مرّة.

كَمٰآ اٰمَنَ النّٰاسُ: فعل و فاعل.

اَنُؤْمِنُ: الهمزة لِلإنكار و أصلها الإستفهام ونؤمن فعل مضارعٍ من أمَنَ و هو يتكلم مع الغير.

السُّفَهٰآءُ: بضمّ السّين جمع سَفيه و السَّفيه الضّعيف الرّأي الجاهل القليل المعرفة بالمنافع و المضّار و باقي اللّغات معلوم.

◁ الإعراب

وَ إِذٰا قيلَ لَهُمْ اٰمِنُوا القائم مقام المفعول هو القول و يفسّره، أمنوا لأنّ الأمر والنّهي قول كَمٰآ اٰمَنَ النّٰاسُ الكاف في موضع نَصب صفة لمصدرٍ محذوف أي إيماناً مثل إيمان النّاس و مثله كَمٰا اٰمَنَ السُّفَهٰآءُ، النّٰاسُ فاعل أمَنَ و كذلك السُّفَهٰآءُ و الباقي واضح.

◁ التّفسير

و اذا قيل لهم أي للمنافقين، أمنوا، باللّه و رسوله و ما أنزل عليه كما أمن به سائر النّاس من المؤمنين قالوا في الجواب اَنُؤْمِنُ بـه كَمٰا اٰمَنَ السُّـفَهٰآءُ و الجهال ثمّ كذّبهم اللّه و حكم عليهم بأنّهم هُم الجهّال في الحقيقة و لكن لا يَعلَمون.

اعلم أنّ هذا هو النّوع الثّالث من قبائح أفعال المنافقين و ذلك لأنّه سبحانه لمّا نهاهم في الآية المتّقدمة عن الفَساد في الأرض أمرهم في هذه بالإيمان الّذي يوجب سعادة الدّارين و كمال النشأتّين أنّ كمال الإنسان لا يحصل إلاّ بجموع الأمرين **أحدهما**: ترك ما لا ينبغي فعله.

ثانيهما: فعل ما لا ينبغي تركه و إن شئت قلت تَرك المَنهيات و فعل الواجبات و في المقام أبحاث:

الأوّل: أنّ قوله تعالىٰ :**أَمِنُوا كَمَآ أَمَنَ النَّاسُ** كما أمن النّاس، المراد بالنّاس ليس العوام و الجهّال منهم كما زعمه بعض المفسّرين بل المراد بهم النّاس المعلوم حالهم فالألف و اللّام للعهد أمثال سلمان و أبوذر و عمّار و غيرهم من المؤمنين الّذين قالوا بألسنتهم ما كان ثابتاً في قلوبهم و ظاهراً في أعمالهم فالإيمان المأمور به في الآية هو هذا الإيمان و بذلك إندفع ما قيل أنّ الأية تدّل علىٰ أنّ الإيمان عبارة عن مجرّد الإقرار باللّسان و ذلك لانّ اللّه تعالىٰ قال: **كَمَآ أَمَنَ النَّاسُ** و إيمان النّاس ليس إلاّ الإقرار باللّسان.

وَوجه الدّفع قد ظهر مما ذكرنا في تفسير الآية و هو أنّ المراد بالنّاس المعهود منهم لا مطلقاً.

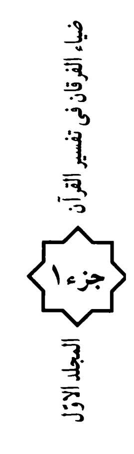
الثّاني: أنّ المنافقين **قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَآءُ** يعني أنّ العاقل لا يؤمن والّذي يؤمن باللّه و برسوله سفيه لا عقل له و هذا الكلام منهم يدّل علىٰ سفاهة كلّ مؤمنٍ و اذا كان المؤمن سفيهاً لإيمانه فلا محالة يكون الكافر عاقلاً لكفره و هو كما ترىٰ خارج عن طور العلم و العقل اذ العاقل لا يتّفوه بمثل هذه المقالة التّي يضحك بها الثّكلىٰ.

الثّالث: أنّ اللّه تعالىٰ قال في جوابهم **أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَا يَعْلَمُونَ** نفي اللّه تعالىٰ عنهم العِلم يمكن أن يقرّر بوجهين:

الأوّل: أنّهم لا يعلمون واقعاً لكونهم جاهلين بالجهل البسيط.

الثّانى: أنّهم جاهلون بالجهل المرّكب أي أنّهم لا علم لهم بجهلهم و يمكن أن يكون المراد أنّهم لا يعلمون معنىٰ السِّفيه اذ لو كانوا عالمين بمعناه لعلموا أنّهم هم السّفهاء و ذلك لأنّ السّفيه من أعرض عن الدّليل و إتَّبع هَواه أو أنّ السّفيه من باع أخرته بدنياه و هذا ظاهر.

■



وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ ﴿١٤﴾ اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴿١٥﴾

◁ اللّغة

لَقُوا: أصله لَقِيُوا، فأسكَنت الياء لثقل الضمّة عليها ثمّ حذفت لسكونها و سكون الواو بعدها و حرّكت القاف بالضّم تبعاً للواو و قرأ ابن السّميقع، **لاقَوْا** بألف و فتح القاف و ضمّ الواو.

وَإِذَا خَلَوْا: بتحقيق الهَمزة و هو الأصل و أصل **خلوا خلوو** فقلبت الواو الأولىٰ ألفاًلتحرّكها و إنفتاح ما قبلها ثمّ حذفت الألف لئلا يلتقي ساكنان و بقيت الفتحة تدّل علىٰ الألف المحذوفة.

إِنَّا مَعَكُمْ: الأصل إِنّنا، فحذفت النّون الوسطىٰ علىٰ القول الصّحيح كما حذفت في أن، اذ أخفقت كقوله تعالىٰ: **وأنّ كلّ لما جميع**، و **معكَم**، ظرف قائم مقام الخبر أي كائنون معكم.

مُسْتَهْزِؤُنَ: بتحقيق الهمزة و هو الأصل، إسم فاعل من، إستهزءَ و الواو و النّونِ علامة الجَمع.

يَمُدُّهُمْ: من مدَّ، يمُدّ، فعل مضارع.

يَعْمَهُونَ: فعل مضارع و هو حال من الهاء و هم في، يمُدّهم، و في طغيانهم، متعلق به.

◁ الإعراب

يَعمهون، جملة في موضع الحال.

◁ التّفسير

ذكر اللّه تعالىٰ وصفاً آخر للمنافقين و هو أنّهم **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا** باللّه و رسوله أمثال سلمان و أبي ذر و عمّار و المقداد قالوا لهم آمنّا باللّه و رسوله كما آمنتم و إذا خلو الىٰ شياطينهم أعني بهم المنافقين قالوا لهم إنّا مَعَكم في الكفّر و عدم الإيمان **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ** بالمؤمنين أي نستهزؤا بأصحاب محمّدٍ ونسخر لهم في قولنا لهم آمنّا ثمّ قال اللّه تعالىٰ في جوابهم: **اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** كما إستهزؤا بأصحاب الرّسول **وَيَمُدُّهُمْ**، أي يطيل لهم المُدّة و يَمهلهم و يملي لهم **فِي طُغْيَانِهِمْ** و نفاقهم **يَعْمَهُونَ** أي يَتردّدون فتحيّرين في الكفّر يقال عَمه الرّجل يعمّه عموهاً و عَمهاً فهو عَمه و عامه إذا حارَ و تَردَّد إعلم أن هذه الآية لغيرها من الأيات السّابقة و اللاّحِقة أنزلت في المنافقين الّذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقلوبهم ثابتة علىٰ الكفّر و ألسنتهم تجري علىٰ وفق مصالحهم في الدّنيا فأن كانت المصلحة في إظهار الإيمان يظهرون الإيمان و أن كانت في الكفّر يظهرون الكُفر كما حكىٰ اللّه تعالىٰ عنهم في الآية و إنّما عبّر عن جلسائهم المنافقين بالشياطين و قال و إذا خلوا الىٰ شياطينهم، لإنّ الشيطان في رأس المنافقين ألا ترىٰ أنّه قال لآدم و حواء علىٰ سبيل القسم **إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ**[1] مع أنّه كان من أعداءهمابلا شكّ و لذلك صار سبباً لخروجهما من الجنّة و الشيطان مشتّق من شَطن، أي تباعد سُمّيَ به لِبعده عن رحمة الحقّ و هو اسمٌ لكلّ عارمٍ من الجنّ و الإنّس و الحيوانات قال اللّه تعالىٰ: **شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَ ٱلْجِنِّ و** سُمّي كلّ خلق ذميم لِلإنسان شيطاناً **قال** عليه السلام **الحَسَد شيطان، والغَضَب شيطان** و سيأتي الكلام فيه مفصلاً في موضعه.

١- الاعراف = ٢١

و أمّا قوله تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** ففيه وجوه:

أحدها: أنّه ينتقم منهم و يُعاقبهم و يجزيهم و يجازيهم علىٰ إستهزائهم فسمىٰ العقوبة بإسم الذّنب هذا قول الجمهور و العرب تستعمل ذلك كثيراً و منه قول الشّاعر.

ألا لا يَجهَلن أحدُ علينا فَنَجهل فوق جَهل الجاهلينا

سمىٰ إنتصاره جهلاً و الجاهل لا يفتخر به ذو عقلٍ:

قال اللّه تعالى: **وَ جَزٰآؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهٰا**(١).

قال اللّه تعالى: **فَمَنِ اعْتَدٰى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدٰى عَلَيْكُمْ**(٢).

و من المعلوم أنّ الجزاء لا يكون سيئةَ و القصاص لا يكون إعتداء لإنّه حقٌّ وجَبَ، و مثله.

قال اللّه تعالى: **وَمَكَرُوْا وَمَكَرَ اللّٰه**.

قال اللّه تعالى: **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا،وَ أَكِيدُ كَيْدًا**(٣)

قال اللّه تعالى: **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّٰهُ مِنْهُمْ**(٤).

و لا شكّ أنّه ليس من اللّه مكرٌ و لا كيدٌ و لا هزءٌ، و أنّما هو جزاء لِمكرهم و كيدهم و إستهزائهم.

ثانيها: أن يكون المعنىٰ في إستهزاء اللّه بهم تخطئته أياهم و تجميله لهم في إقامتهم علىٰ الكفر و إصرارهم علىٰ الضّلال و العرب يقيم الشيءمقام ما يقاربه في معناه.

ثالثها: أن يكون معنىٰ الإستهزاء المضاف اليه أن يستدرجهم و يهلكهم من حيث لا يعلمون و عن ابن عبّاس أنّه قال في معنىٰ الإستدراج أنّهم كلما

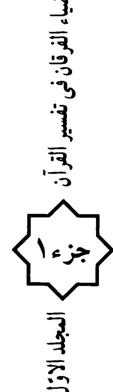
١- الشورى = ٤٠
٢- البقرة = ١٩٤
٣- الطارق =١٥/١٦
٤- التوبة = ٧٩

أحدثوا خطيئة جددّ اللّه لهم نعمة و إنّما سمّي هذا الفعل إستهزاء لأنّ ذلك في الظاهر نعمة و المراد إستدراجهم الىٰ الهلاك و العقاب الّذي إستّحقوه بما تقدّم من كُفرهم انتهىٰ.

رابعها: أنّ معنىٰ إستهزءه بهم أنّه جعل لهم بما أظهروه من موافقة أهل الإيمان ظاهر أحكامهم من الموارثة و المناكحة و المداهمة و غيرها من الأحكام وأن كان قد أعدّ لهم في الأخرة العِقاب بما أبطنوه من النِفاق فهو كالمستهزء بهم من حيث أنّه جَعَلَ لهم أحكام المؤمنين ظاهراً ثمّ مَيَزّهم منهم في الأخرة انتهىٰ.

خامسها: ما رويَ عن ابن عباس أنّه قال يفتح لهم و هم في النّار من باب الجنّة فيقلبون اليه من النّار مُسرعين حتّىٰ إذا إنتهوا اليه سُدَّ عليهم فيضحك المؤمنون منه في الأخرة كما قال: **فَالْيَوْمَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ**.

و هذه الوجوه الأربعة الأخيرة ذكرها الطّبرسي قدّس سرّه في المجمع و قال في الكشّاف معناه إنزال الهوان و الحقارة بهم لإنّ المُستهزء غرضه الّذي يرميه هو طلب الخفّة و الزراية بمن يهرء به و إدخال الهوان و الحقارة عليه الىٰ أن قال والمراد به تحقير شأنهم وإزدِراء أمرهم و الدّلالة علىٰ أنّ مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها السّاخرون و يضحك الضّاحكون.



والقول الأوّل أحسن الأقوال في المسألة و يؤيده ما رُوي عن عيون الأخبار عن ابن فضال عن أبيه قال سألت أبا الحسن الرضّا عليه السلام الىٰ أن قال عليه السلام أنّ اللّه تعالىٰ لا يسخر و لا يستهزء و لا يمكُر و لا يُخادع و لكنه تعالىٰ يجازيهم جزاء السخّرية و جَزاء الإستهزاء و جزاء المكر و الخديعة تعالىٰ عمّا يقول الظالمون علّواً كبيراً.

أقول أنّما قال عليه السلام أنّ اللّه لا يسخر و لا يَستهزء الخ.

لأنّ هذه الأوصاف لا تليق بجنابه و الوجه أنّ اللّه مُنزّه عن النقائص في ذاته

كما ثَبت في محلّه و النقص ذاتاً و صفَةً من لوازم المُمكن و عليه فإسناد هذه الأمور اليه تعالىٰ علىٰ سبيل المَجاز دون الحقيقة و الأمر واضح.

و أمّا قوله تعالىٰ:**وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** فمعناه نطيل لهم المدّة بطول العُمر حتىٰ يزيدٌ في الطّغيان فيزيد في عذابهم و قوله يَعمهون أي يترَدَدون متحيّرين في الكُفر فهو كقوله تعالىٰ: **إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا**(١).

و محّصل الكلام أنّه تعالىٰ يمهلهم في الدّنيا لِيزدادوا غيّاً.

رُويَ فى الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه لو علم المُنافقون لعنهم اللّه ما عليهم من ترك هذه الأيات الّتي بيّنت لك تأويلها لأسقطوها مع ما أسقطُوا منه و لكّن اللّه تبارك و تعالىٰ ماض حكمه بإيجاب الحجّة علىٰ خلقه كما قال فللّه الحجّة البالغة، أغشىٰ أبصارهم و جَعَل علىٰ قلوبهم أكنّة عن تأمّل ذلك فتركوه بحاله و حجبوا عن تأكيد المُلتَبس بإبطاله فالسّعداء يتنبّهون عليه و الأشقياء يَعمهون عنه انتهىٰ.

و أمّا العّامة فقد روىٰ السيّوطي في تفسيره لِهذه الآية أنّها نزلت في عبد اللّه إبن أبي و أصحابه فقال.

أخرج الواحدي و الثّعلبي عن إبن عبّاس قال: نزلت هذه الآية في عبد اللّه إبن أبي و أصحابه و ذلك أنّهم خرجوا ذات يوم فأستقبلهم نفر من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال عبد اللّه إبن أبي أنظروا كيف أرّد هؤلاء السّفهاء عنكم فذَهَب و أخذ بيد أبي بكر فقال مَرحَباً بالصّديق سيّد بني تميم و شيخ الإسلام و ثاني رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في الغار الباذل نفسه و ماله لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ أخذ بيد عُمر فقال مرحباً بسيّد عُدّي بن كعب الفاروق القوّي في دين اللّه الباذل

١- آل عمران = ١٧٨

نفسه و ماله لِرسول اللّه ﷺ ثمّ أخذ بيد علّي و قال مرحباً بإبن عمّ رسول اللّه و ختمه سيّد بني هاشم ما خلا رسول اللّه ﷺ ثمّ، إفترقوا فقال عبد اللّه لأصحابه كيف رأيتموني فعلت فإذا رأيتموهم فأفعلوا كما فعلت فأثنوا عليه خيراً فرجَع المُسلمون الیٰ النّبي ﷺ و أخبره بذلك فأُنزلت الآية إنتهیٰ.

وأخرج إبن جرير و إبن أبي حاتِم عن إبن عبّاس في قوله تعالیٰ: **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا** قال كان رجال من اليَهود إذا لقوا أصحاب النّبي ﷺ أو بعضهم قالوا إنّا علیٰ دينكم و **إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ** و هم إخوانهم قالوا إنّا معكم أي علیٰ مثل ما أنتم عليه **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** قال ساخرون بأصحاب محمّد ﷺ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** قال يسخر بهم لِلنقمة منهم **وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ** قال في كُفرهم **يَعْمَهُونَ** يتردّدون إنتهیٰ.

وأخرج البيهقي في الأسماء و الصّفات عن إبن عبّاس في قوله: **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا** وهم مُنافقوا أهل الكتاب فذكرهم و ذكر إستهزاءهم و أنّهم **وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ** علیٰ دينكم **إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** بأصحاب محمّد ﷺ يقول اللّه: **اَللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** في الآخرة يفتح لهم باب من الجّنة ثمّ يقال لهم تعالیٰ فَينقلبون يسبحون في النّار، و المؤمنون علیٰ الأرائك و هي السّرر في الحجل ينظرون اليهم فاذا انتهوا الیٰ الباب سدّ عنهم فَضحك المؤمنون منهم فذلك قول اللّه: **اَللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ** في الأخرة) و يضحك المؤمنون منهم حين غلّقت دونهم الأبواب فذلك قوله تعالیٰ: **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ** انتهیٰ.

و عن ابن عبّاس أنّ نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عزّ و جلّ **يَعْمَهُونَ** قال يلعَبون يتّرددون قال و هل تعرف العَرب ذلك قال نعم أما سَمعت قول الشّاعر:

أراني قد عَمهتُ و شابَ رأسي وهــذا اللّـعب شـينٌ بـالكَبير

ما أردنا نقله منه و قد نقل الطّبري أيضاً في تفسيره بهذه المضامين أخباراً كثيرة لا فائدة في نقلها فأنّ حكم الأمثال واحد والّذي تَجّده في تفاسير العامّة من أوّلهم الىٰ أخرهم هو أنّهم قد أتعبوا أنفسهم في إثبات أصلٍ واحدٍ و هو أنّ شأن نزول الآية أنّ عبد اللّه أبي و أصحابه فعلوا كذا و كذا فَنزلت الآية فهي نزلت في حقّهم و هذا ممّا إتفّقوا عليه و لم يخالف فيه أحد، و نحن نقول لا نَنكر أنّ عبد اللّه و أصحابه كانوا كذلك إلاّ أنّ إختصاص الآية بهم و أنّ المراد منها هم لا غيرهم من المُسلمين محلّ تأملٍ بل مَنع.

أمّا أوّلاً فلأنّ خصوص المَورد في الآية لا يوجب خصوص المراد والمعنىٰ و عليه فالأية و إن كانت نزلت في حقّهم كما إعترفوا به إلاّ أنّ المراد بها العمّوم فتشمل كلّ منافقٍ كان كذلك يَهو دياً كان أم لا اذ لا نشكّ في أنّ أكثر المسلمين كانوا متصّفين بهذه الصّفات في صَدر الإسلام و الأن أيضاً كذلك فالحقّ أنّ هذه الآية و غيرها من الأيات، يّستفاد منها العمُوم و لا يقول عاقل أنّ عبد اللّه أبي الّذي قال كذا و كذا كان نفاقه أكثر و أشّد ممّن قال في غدير خمّ، بخّ بخّ لك ياعلّي أصبحتَ مولاي و مولىٰ كلّ مؤمنٍ و مؤمنة بلسانه و أَبطَن عداوته في قلبه ولذلك بعد مَوت رسول اللّه ﷺ أنكَر البَيعة بالكلّية كأن لم يكن شيئاً مذكوراً.

أَلَيس هذا من النّفاق بشيئٍ فإن كان كما هو كذلك فهو و أمثاله أَلَيَق بنزول الأية في حقّهم من عبد اللّه ابن أبي و لا أقل من شمول الآية لهم.

و أنّما قلنا أكثر المسلمين كانوا في صدر الإسلام من المنافقين الّذين **اِذٰا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قٰالُوا آمَنّٰا وَاِذٰا خَلَوْا اِلىٰ شَيٰاطِينِهِمْ قٰالُوا اِنّٰا مَعَكُمْ** لانّ نرىٰ إنّ البائعين لعلّي عليه السلام في غدير ثمّ تَخلّفوا من بيعته بعد النّبي و هم كانوا أكثر المسلمين، الّذين لَقوا الّذين أمنوا يعني الرّسول و من تابعه حقّاًفي غدير خمّ قالوا أمَنّا معكم في بيعتنا لعلّي و اذا خلوا الىٰ شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستَهزؤون بالنّبي و أصحابه و أتباعه فقال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ يَسْتَهْزِؤُ بِهِمْ**.

والحاصل أنّ حَمل الآية علىٰ العموم أولىٰ كما هو مقتضىٰ القاعدة إن لم نقل أنّ شأن نزولها في المنافقين من المسلمين و تشمل غيرهم من اليهود و النّصارىٰ وسائر الفرق في المرتبة الثّانية و لنعم ما قيل في الفارسيّة:

مـن از بـيگانگان هـرگز نـنالم		كه هر چه كرد با من آشنا كـرد

و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ يَنقلبُون إنّا لِلّه و إنّا اليه راجعون.

■

اوُلٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاٰلَةَ بِالْهُدىٰ فَمٰا رَبِحَتْ تِجٰارَتُهُمْ وَمٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

◁ اللّغة

اشْتَرَوُا: فعل ماض من إشترىٰ يشتري و الواو علامة الجمع و أصله، إشتريوا ، فقلبت الياء ألفاً ثمّ حذفت الألف لئلا يلتقي ساكنان، الألف، و الواو و حقيقة **الإشتراء**، الإستبدال، و ذلك لأنّ الشّراء و التّجارة راجعان الىٰ الإستبدال و العرب تستعمل ذلك في كلّ من إستبدل شيئاً بشيئ قال الشّاعر:

فإن تَزعمني كنتُ أجهل منكم فأنّي شَريتُ الحِلم بعدَك بالجَهل

الضَّلاٰلَةَ: في الأصل الحيرة و يّسمّىٰ النّسيان **ضلالة** لما فيه من الحيرة قال تعالىٰ: (فعلتها اذاً و أنا من الضّالين) أي النّاسين و يُسمّىٰ الهلاك ضلالة قال تعالىٰ: (و قالوا اَإذا ضلنا في الأرض).

تِجٰارَتُهُمْ: مصدر كالهداية و الوقاية و **التّجارة** التّعرض للربح في البيع.

مُهْتَدِينَ: إسم فاعل من إهتدىٰ يَهتدى.

◁ الإعراب

اوُلٰئِكَ: مَوضعه الرّفع علىٰ الإبتداء **اشْتَرَوُا الضَّلاٰلَةَ بِالْهُدىٰ** خبره **ما** حرف نفي

رَبَحتْ: فعل **تجارتهم** فاعله **وَمٰا كٰانُوا مُهْتَدِينَ** إسم **كان** مستّتر فيه و **مهتدين** خَبره و علامة نَصبه الياء.

◁ التّفسير

المشار اليهم ،**باوُلٰئِكَ** المنافقون الّذين مَرّت أوصافهم في الأيات السّابقة والمعنىٰ أنّ المنافقين الّذين مرَّ ذكرهم **اشْتَرَوُا الضَّلاٰلَةَ بِالْهُدىٰ**، لأنّهم تركوا

الهداية و أخذوا الضّلالة فكأنّهم باعوا الهداية بالضّلالة فلا جَرم **مٰا رَبِحَتْ تِجٰارَتُهُمْ** بل خسرت و إسناد الرّبح الىٰ التجارة مجاز فأنّ الرّبح و الخسران في الحقيقة يُسندان الىٰ البيع يقال رَبحَت و خَسرَت في بيعك، فهو من قبيل قولهم، ليلٌ قائم، و نهارٌ صائم، حيث إسند القيام الىٰ اللّيل و الصّيام الىٰ النّهار مجازاً والأصل قُمتَ في ليلك و صمتَ في نهارك، و ما كانوا، أي المنافقون مهتدين في هذه المعاملة لأنّهم باعوا الهداية بثمنٍ بخسٍ و هو الضّلالة أعنىٰ بها النّفاق النّاشئ من الكُفر.

إعلم أنّ التّجارة في الأصل التّعرض للرّبح في البَيع كما مرّ بمعنىٰ أنّ التّاجر يريد في تجارته أن يَربح بها و لا بدّ له في التّجارة من أمور ثلاثة:

أحدها: رأس المال فَمن لا مال له لا يكون تاجراً.

ثانيها: المبيع.

ثالثها: الثّمن.

و إن شئت قلت البائع و المشتري فهذه الأمور الثّلاثة ينبغي التّحفظ عليها في التّجارة و الكَسب في دار الدّنيا و الرّبح الحاصل منها الدرهم و الدينار هذا ظاهر لا خفاء فيه.

و أمّا التّجارة بالنسبة الىٰ سوق الأخرة فلها أيضاً أجزاء و شرائط لابدّ للمكلّف العاقل مراعاتها ليَحصل له الرّبح، فرأس ماله هو عُمره و البائع و المُشتري هو نفسه بإعتبارين و قد يكون أحدهما ثَمن صرف عمره في الدّنيا و جمع عقائد باطلة، فكأنّه باع عُمره و إشترىٰ الباطل فهو بإعتبار الأوّل بائع و بالإعتبار الثّاني يصّدق عليه المشتري و من باع دينه بدنيا غيره فهو بائع و المشتري غيره و من إشترىٰ الضّلالة بالهُدىٰ فالبائع تارةً يكون غيره كما اذا تابع إماماً ضّالاً فالبائع للضّلالة هو الإمام الضّال و المشتري هو و هكذا فأنّ العناوين تختلف بالإعتبارات.

و أمّا في المقام فأنّ المنافق كان علىٰ هدىً من ربّه لأنّ المفروض أنّه أمَن

باللّه وبرسوله بلسانه ظاهراً و كان قادراً علىٰ حفظه و الإعتقاد به بقلبه إلاّ أنّه باعه و إشترىٰ الضّلالة و النّفاق و من المعلوم أنّ الضّلالة لا ربح لها بل كلّها خسران و وبال و الهداية بالعكس فمن باع الهداية و إشترىٰ الضّلالة لم يَربح بل يخسر و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ.**

وأمّا أقوال المفسّرين في الأية: فمنها ما رَووه عن ابن عبّاس أنّه قال معنىٰ أنّهم إستبدلوا الكُفر بالإيمان فأن قيل لم يكن هناك إيمان حتّىٰ يقال أنّهم إستبدلوه لأنّ المفروض أنّهم لم يؤمنوا و اقعاً يقال في الجواب هذا الإشكال يتم لو قلنا أنّ الآية نَزلت في عبد اللّه بن أبي و أصحابه و هي مختّصة بهم و هو اَحَد الأقوال في المسئلة و أمّا علىٰ المختار من العموم نزولاً و دلالةً فتشمل من أمن و نافق و هم أكثرهم كافرٌ كما مرّ و عليه يقول كما إستبدلوا الكفر بالإيمان و منها أنّ المراد بالإشتراء الإختيار أي إختاروا الضّلالة بالهدىٰ لأنّ كلّ مشتر مختار ما في يد صاحبه علىٰ ما في يده و منها أنّهم ولدوا علىٰ الفطرة كما جاء في كلّ مولودٍ يولد علىٰ الفطرة فتركوا ذلك فكأنّهم إستبدلوه به و منها أنّهم قبل البعثة كانوا مؤمنين بنبوّة محمّد صَلَّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علىٰ ما في كتبهم فلما بُعث كفروا به فكأنّهم إستبدلوا الكُفر بالإيمان، نقلها الطّبرسي في المجمع.

و منها: أنّهم باعوا دين اللّه و إعتاضوا منه الكفر باللّه و منها ماذهب اليه في الكشّاف و هو أنّهم كما متمكّنين من الإيمان و مع ذلك لم يقبلوه و أعرضوا عنه فاذا تركوه الىٰ الضّلالة فقد عَطلوه وإستبدلوها به وإستبدالها به علىٰ سبيل الإستعارة لأنّ الإشتراء فيه إعطاء بدل و أخذ أخرٌ قال الشّاعر:

أخذتُ بالجملة رأساً أزعراً ... وبالثّنايا الواضحات الدّردرا
و بالطّويل العُمر عُمراً حَيدرا ... كما إشتَرىٰ المُسلم اذ تَنَّصرا

و الاقوال فيها كثيرة كلّها يرجع الىٰ شيءٍ واحد كما ترىٰ.

■

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نٰاراً فَلَمّٰا اَضٰاءَتْ مٰا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فى ظُلُمٰاتٍ لاٰ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهَمْ لاٰ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

◁ اللّغة

مَثَلُهُمْ،المَثَل عبارة في قولٍ في شيٍ يُشبه قولاً في شيٍ أخر بينهما مشابهة يَبيّن أحدهما الأخر و يصّور.

اسْتَوْقَدَ فعل ماضٍ مصدره **الإستيقاد** و هو من الوقود يقال و قَدت النّار وقوداً و وَقداً والوقُود و يقال للحطب المجعول للوقُود يقال إستوقدت النّار اذا ترشحت لإيقادها.

حَوْلَهُ، **الحَول** بفتح الحاء المهملة الجانب و حَول الشّئ جانبه الّذي يمكنه أن يَحوّل اليه قال تعالىٰ: **الّذين يحملون العَرش ومَن حَوله**.

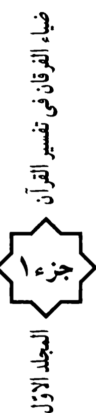
ظُلُمٰاتٍ جمع ظلمة و هي عدم النّور قال تعالىٰ: **ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ**[١].

صُمٌّ **الصُّم** بضمّ الصّاد جمع أصمّ، كَحمر جمع أحمر و هو من لا يسمع والمراد هنا من لا يهتدي و لا يقبل الحقّ و قد يسند الفعل الىٰ الشّخص أيضاً فيقال **صمّ يصّم صَمّها** قال الشّاعر:

صمّ اذا سمعوا خيراً ذكرت بـه　　　و إن ذكـرت بشرٍ عـندهم أُذنُ

بُكْمٌ ، **البُكمٌ**، الخُرس و الأبكم الّذي لا يفصح يقال صُمٌّ عن إستماع الحقّ بكمٌ عن النّطق به، عمّى عن العبارة، و **البُكم** جمع أبكَم و هو الّذي لا نطق له.

عُمْىٌ بضمّ العين جمع أعَمىٰ و هو الّذي لا يبصر و لا يقع العمىٰ إلاّ علىٰ العينين جميعاً و يستعار للقلب كناية عن الضّلالة و عـلامة المشـابهة، عـدم الإهتداء و العماية بفتح العَين الضّلالة و التَّعمية الإخفاء و التَّلبيس.



١- النور = ۴٠

◁ الإعراب

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ مبتدأ و خبر و الكاف يجوز أن يكون حرف جرٍّ متّعلق بمحذوفٍ ويجوز أن يكون إسماً بمعنىٰ مثل فلا يتعلّق بشئٍ **الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً**الّذي في المقام في اللّفظ مفرد و في المعنىٰ جمع بدليل قوله تعالىٰ: **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**.

و في موقع المفرد موقع الجمع وجهان:

أحدهما: هو جنسٌ مثل، مَن و ما، فيعود الضّمير اليه تارةً بلفظ المفرد و تارةً بلفظ الجمع.

ثانيهما: أنّه تعالىٰ أراد الّذين فحذفت النّون لطول الكلام بالصّلة و مثله قوله تعالىٰ: **وَ الَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ به** ثم قال **أُولٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون**. **اسْتَوْقَدَ** بمعنىٰ، **أوَقَد**، مثل، إستَّقر، بمعنىٰ، قَرّ، و قيل إستَوقد إستدعىٰ عن الإيقاد ناراً. علىٰ المَفعّولية **فَلَمَّا اَضَاءَتْ** ،**لّما** هنا إسم و هي ظرف زمان وكذا في كلّ موضعٍ وقع بعدها الماضي وكان لها جواب و العامل فيها جوابها مثل، إذا، و أضاءت، متعّدٍ فيكون، ما، مفعوله و قيل لازم من ضاءت النّار و أضاءت بمعنىٰ فعلىٰ هذا يكون، ما ظرفاً و في **ما** ثلاثة أوجه.

أحدها: بمعنىٰ، الّذي.

الثّانى: أنّها نكرة موصوفة أي مكاناً حَوله.

الثّالث: هى زائدة.

مٰا حَوْلَهُ، **ما** إسم موصول منصوب في المحّل لكونه مفعولاً لقوله أضاءت و **حوله**، منصوبٌ علىٰ الظّرف و هو صلّة، ما **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ الباء** هنا معدّية للفعل كتعّدية الهمزة له و التّقدير أذهَبَ اللّه نورَهم و عليه، **فاللّه** فاعل الفعل، وبنورهم، في موضع النّصب علىٰ المفعولية، و الباء في بنورهم متّعلق، بذَهب، **فِي ظُلُمٰاتٍ** متّعلق بقوله **تركهم** و هم في تَركهم ،مفعول

الفعل **لاٰ يُبْصِرُونَ** منصوب علىٰ الحال و العامل فيه، **تَرَكهم** أي تركهم غير مبصرين و قيل قوله، تَركهم، يتعدّىٰ الىٰ مفعولين لأنّ المعنىٰ صيّرهم و ليس المراد به التّرك الّذي هو الإهمال فعلىٰ هذا يكون **فِي ظُلُمٰاتٍ** مفعوله الثّاني فلا يتعلّق الجّار بمحذوفٍ و يجور أن يكون، **لاٰ يُبْصِرُونَ** هو المفعول الثّاني **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ** الجّمهور علىٰ الرّفع علىٰ أنّه خبر لمبتدأٍ محذوف أي هُم صُمٌ و هم بكمٌ و هم عُميٌ و قرأ شّاذاً بالنّصب علىٰ أنّ الحال من الضّمير في، يُبصرُون، أنّه **لاٰ يَرْجِعُونَ** جملة متّأنقة مبتدة و خبر.

◁ التّفسير

مَثَلُهُمْ أي مثل المنافقين **كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نٰاراً** أي كمن طلب الضّياء بإيقاد النّار في ليلةٍ مسلمة ليستضئ بها و يرىٰ ما حوله فبينا هو كذلك في حال الإستضاءة و الإستنارة طفئت ناره فبقىٰ في الظّلمة خائفاً متّحيراً لا يبصر شيئاً، شبّ المُنافق بالمُستوقد و إيمانهم في الظّاهر بالنّار الّتي أوجدها المُستّوقد و وجه الشّبه هو النُّورالموجود في المقامين إلاّ أنّها في أحد الطّرفين معقول و هو الإيمان و في الطّرف الأخر محسوس و هو النّار و الجّامع النّور و لذلك قيل أنّ النّور و النّار واحد في الأصل بدليل تصغير النّار علىٰ، نُوَيرة ثمّ أنّ هذا من تشبيه المعقول بالمحسوس أن قلنا بأنّ المشبه في المقام الإيمان و المشبّه به، النّار، و إن قلنا بأنّ المشبّه المنافق و المشبّه به المستَوقِد فهو من تَشبيه المحسوس بمحسوسٍ قال صاحب الكشّاف و المَثل في أصل كلامهم بمعنىٰ المثل و هو النّظير يقال مَثل و مِثل و مَثيل كشبه و شُبه و شَبيه ثمّ قيل للقول السّائر المُمَثل مَضربه بمورده مَثل الىٰ أن قال و لم يَضربوا مَثلاً و لا رأوه أهلاً للتّيسير إلاّ قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه قال.

فإن قلت ما معنىٰ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نٰاراً** و ما مثل المنافقين و مثل الّذى إستوقد ناراً حتّىٰ شبّه أحد المثلين بصاحبه قلت قد إستَعير المَثل

إستعارة الأسد المقدّام للحال أو الصّفة أو القصة اذا كان لها شأن و فيها غرابة كأنّه قيل حالهم العجيبة الشأن كحال الّذي إستوقد ناراً الىٰ أن قال فأن قلت كيف مَثلّت الجماعة بالواحد، قلت و ضع، الّذي، مَوضع، الّذين كقوله و خُضتم كالّذي خاضوا، و أطال الكلام الىٰ أن قال أو قصد جنس المستوقدين و أريد الجمع أو الفوج الّذي إستوقد ناراً علىٰ أنّ المنافقين و ذواتهم لم يُشبّهوا بذات المستوقد حتّىٰ يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد أنّما شبّهت قصتهم بقصة المستوقد و نحوه:

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرِىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ**(٢).

و وقود النّار سطوعها و إرتفاع لهبها و النّار جوهر لطيف مضيئ حار مذحرق والنّور ضوءها وضوء كلّ نيّرٍ و هو نقيض الظّلمة و إشتقاقها من نار ينور اذا العزلان فيها حركة و إضطراباً و النّور مشتّق منها و الإضاءة فرق الإنارة انتهىٰ ما أردنا نقله من كلامه فأنّ كلامه في أمثال هذه الموارد حجّة و الّذي يظهر من مجموع كلامه أمران:

أحدهما: أصل التّشبيه و الإستعارة.

ثانيهما: أنّ النّار و النّور في الحقيقة واحد.

فنقول أنّ معنىٰ الآية أنّ مثل إستضاءة المنافقين بما أظهروا من الإقرار باللّه و بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و بما جاء به قولاً، و هم به مكذّبون إعتقاداً كمثل إستضاءة المُوقد ثمّ أسقط ذكر الإستضاءة وأضاف المَثل اليهم كقول النابغة:

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مَرحبٍ

أي كخلالة أبي مَرحب و أسقط لدلالة الكلام عليه و أمّا اذا أرادَ تَشبيه

١- الجمعة = ٥

٢- المحمد = ٢٠

الجماعة من بني آدم و أعيان ذوي الصّور و الأجسام، بشيءٍ فالصّواب أنّ يشبّه الجماعة بالجماعة و الواحد بالواحد لأنّ عين كلّ واحدٍ منهم غير أعيان الأخر:

قال الله تعالىٰ: **كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ**[١]

قال الله تعالىٰ: **كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**[٢]

وأراد جنس النّخل، و قيل أنّ، الّذي، بمعنىٰ الّذين و عليه قال الشّاعر:

و أنّ الّنهي مانت بفلج دمائهم   هم القوم كلّ القوم ياأم خالدٍ

وَ ٱلَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ[٣]

قال الشّيخ ﷺ في التّبيان بعد ما نقلناه عنه، و ضعف هذا الوجه من حيث أنّ في الآية ٱلَّذِي جَاءَ بِالصِّدق و البيت دلالة علىٰ أنّه أريد به الجمع و ليس ذلك في الآية التّي نحن فيها ثمّ قال ﷺ و قيل فيه وجه ثالث:

و هو أنّ التّقدير **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ** إتباع الّذي **اسْتَوْقَدَ نَاراً** كما قال و إسأل القرية، و أنّما أراد أهلها و في الآية حذفت، إطفأت عليهم النّار، انتهىٰ.

أقول هذا ما وقفنا عليه من أقوال المفسّرين في الآية فأنّهم قد أخذوا الأقوال بعضهم من بعضٍ و مُحصّل كلامهم ما ذكرناه و أن كانت عباراتهم و ألفاظهم مختلفة متفاوتة ترجع كلّها الىٰ أنّ المراد في الآية تشبيه حال المنافقين في أخذهم بظاهر الإيمان اللّفظي من دون إعتقادٍ قلبي بحال المُستَوقد للنّار في إكتفائه بظاهر الضّوء و غفلته عن عدم دوامه و من المعلوم أنّ العاقل لا يقنع بشيءٍ لا إعتبار به و عليه فالمراد من التّمثيل في الآية هو أنّ الإيمان ينبغي أن يكون راسخاً في القلب ملازماً للعَمل ليكون مَورداً لِلإعتماد مستّقراً ثابتاً في الحوادث و الأفات و ما ليس كذلك فلا يعتمد عليه لأنّه يّوقع صاحبه في الظّلمة، و الحيرة و هذا المعنىٰ و أن كان حقّاً لا كلام لنا فيه إلاّ أنّ

١- المنافقون = ٤   ٢- الحاقة = ٧

٣- الزمر = ٣٣

الآية الشّريفة لا تنحصر فيه بل فيها أسرار و دقائق و نحن نُشير الىٰ بعضها ممّا رزقنا اللّه فَهمه فنقول:

الدّقيقة الأولىٰ: أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ شبّه أحوال المنافقين بأحوال المستوقدين بناءً علىٰ إرادة الجمع من الّذي، أو شبه أحوالهم بجنس المستوقد و علىٰ التّقديرين لا كلام في أصل التّشبيه و وَجه الشّبه هو أنّ المنافق له ظاهر و باطن فظاهره مؤمن و باطنه كافر و كذلك النّار لها ظاهر و باطن فظاهرها الإضاءة التّي هي خير و باطنها الإحراق الّذي هو شرّ فكما أنّه لا ينبغي للإنسان العاقل أن يقرب النّار لظاهرها كذلك لا ينبغي أن يقرب المنافق لظاهره و يغفل عن باطنه و فيه إيماء الىٰ عدم جواز الإعتماد عقلاً و شرعاً علىٰ مَن لا يُعلم باطنه قولاً و فِعلاً.

الثّانية: أن يكون المراد بالنّار في الآية نار الفتنة لا النّار الحقيقي المَحسُوس و ذلك لأنّه قد يراد منها هذا المعنىٰ فيقال فلان أوقد نار الحَرب قال اللّه تعالىٰ: **كُلَّمَآ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ** [1] و عليه فالمعنىٰ أنّ مَثَل المنافقين **كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً** للحرب و وجه الشّبه هو أنّ الموقد لنار الحرب يحرق فيها لا محالة في الدّنيا والآخرة و المُنافق أيضاً كذلك لأنّه بِنفاقه يوجد الإختلاف بين النّاس و أحياناً يوقعهم في الحَرب و العَداوة و البغضاء و غيرها و هو أيضاً معهم ألا ترىٰ أنّ المنافقين في وقعة أحد لمّا أظهروا نفاقهم و خالفوا النّبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قُتلوا مع غيرهم في المعركة هذا في الدّنيا و أمّا في الأخرة فهم في الدّرك الأسفل من النّار و الحاصل أنّهم كالمستوقد لنار الحَرب و يمكن أن يكون الشّبه في هذه الصّورة هو أنّ المستوقد لنار الحرب يتصّور و يعتقد النّصر و الغلبة كذلك المُنافق أو أنّه يبقىٰ بعد الحَرب متحيّراً متردداً كذلك المُنافق فأنّ من حفر بئراً لأخيه وقع فيه.

١- المائدة = ٦٤

الثّالثة: أنّ المستوقد لِلنّار يعتمد علىٰ ظنّه دون عقله لان الإعتماد علىٰ ضوء النّار الّذي يكون مؤقتاً لا محالة ممّا لا يحكم العقل به كذلك المُنافق فأنّه يعتمد علىٰ ظنّه في جميع الموارد فلو إعتمد علىٰ عقله خرج من النّفاق إذ العقل يحكم بأنّ الحوادث و المتغيّرات لا يصحّ الإعتماد عليها لزوالها و عدم بقائها علىٰ حالها.

الرّابعة: أنّ المستوقد للنّار بعد إطفائها اللّه بالرّيح و المطر و أمثالهما يبقىٰ في الحيرة و التردّيد في الظلمة الّتي وقع فيها إلاّ أنّ هذا من فعله و لا يصح له أن يقول لِمَ اطفأها اللّه النّار و أبقاني في الحيرة إذ يقال له لِمَ عوّلت علىٰ ضوء النّار مع علمك بعدم دوامه و قَصَر عُمره و هكذا المُنافق لا يصحّ له أن يقول لِمَ حيّرني اللّه إذ يقال له أنت أوقعت نفسك في الحيرة بيدك و ما ربّك بظّلام للعبيد فالنفاق بيده كما أنّ الإتقاد بيد المُستوقد و الوجوه المحتملة كثيرة في الأية بل و في كلّ آيةٍ و عليك بالتدبّر فيها فأنّها كلام الخالق فكما لا يمكن للمخلوق الوصول الىٰ كنه ذاته لا يمكن له البلوغ الىٰ مراده في كلامه.

و أمّا قوله تعالىٰ: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهَمْ لاٰ يَرْجِعُونَ** فكأنّه قيل لِمَ كانوا كذلك فقال في الجّواب **صُمٌّ** الخ أي أنّهم موصوفون بهذه الأوصاف الثّلاثة، أو يقال أنّ كونهم كذلك علّة لعدم رجوعهم عن ضلالتهم فكأنّه قيل لِمَ لا يرجعون الىٰ الحقّ فقال هم كذلك.

أي كيف يرجع الىٰ الحقّ من لا يسمع الحقّ و هو صُمٌّ و لا ينطق به فهو بكم و لا يبصر به فهو عُميٌ، فعلىٰ التّوجيه الأوّل، قوله تعالىٰ:**لاٰ يَرْجِعُونَ** جملة مستّقلة مستأنفة.

و علىٰ الثّاني متعلّق بقوله: **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**.

توضيح الكلام هو أنّ اللّه تعالىٰ أعطىٰ السّمع للإستماع ثمّ ترتيب الآثار عليه و كذلك البصر للرؤية و الإعتبار بها فمن سمع أو إستمع أو أبصر و لم

يترتّب علىٰ السّمع و الرؤيّة ما يلزمهما فهو كمن لا سَمع و لا يبصر و أيّ فرق بين من سمع و أبصر و لم يتّعظ و لم يعتبر و بين من لا يسمع و لا يبصر أصلاً و هكذا الأمر في اللّسان الّذي و ضع للنطق بالحقّ و لمّا كان المنافقون حالهم في السمع و البصر و النّطق هكذا عبّر عنهم بالصُّم و البكم و العمي كما قال تعالىٰ في موضع آخر فيهم: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ اذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهآ أُولٰئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**[١].

و قوله تعالىٰ في آخر كلامه فهم **لا يَرْجِعُونَ** إشارة الىٰ عدم رجوعهم عن النّفاق الىٰ الإيمان الواقعي أو من الباطل الىٰ الحقّ و ذلك لِما ذكره من أنّهم **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**.

و محصّل الكلام فيه هو أنّ قبول الحقّ و الرّجوع من الباطل اليه لا يمكن لأحدٍ إلاّ من طريق السّمع و البصر لأنّه بالسّمع يسمع كلام الحقّ و بالبصر يرىٰ آثار عظمة اللّه في عالم الملك ثمّ يعتبر بها و يعتقد بوجود المؤثر فيها و باللّسان يجري الحقّ في كلماته و المفروض أنّ وجود الأعضاء فيه كالندم فكيف يمكن له الرّجوع عمّا هو عليه فلذلك قال فهم لا يرجعون و من المعلوم أنّهم لا يرجعون ما داموا علىٰ هذه الصفة فإذا تغيّرت الأوصاف و ترتّبت الأثار علىٰ السّمع و البصر واللّسان أمكن لهم الرّجوع من النّفاق الىٰ الإيمان و الخروج من هذه الحالة الىٰ الحالة الثّانية بإختيارهم و ليس خارجاً عن قدرتهم كما يقول به القائل بالجّبر.

فمعنىٰ قوله تعالىٰ: **لا يَرْجِعُونَ** ليس علىٰ إطلاقه بل معلق علىٰ الوصف الّذي هو ثابت في حقّهم حال النّفاق وقد ثبت أنّ الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار، و هذا أصل يعوّل عليه في جميع الموارد في أفعال العباد و أقوالهم فتدّبر فيه.

■

١- الاعراف = ١٧٩

اَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فيهِ ظُلُمٰاتٌ وَّ رَعْدٌ وَّ بَـرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصٰابِعَهُمْ في اٰذٰانِهِمْ مِّنَ الصَّوٰاعِقِ حَـذَرَ الْمَوْتِ وَاللّٰهُ مُحيطٌ بِالْكٰافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكٰادُ الْـبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصٰارَهُمْ كُلَّمٰا اَضٰآءَ لَهُمْ مَّشَـوْا فـيهِ وَاِذٰا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قٰامُوا وَلَوْ شٰآءَ اللّٰهُ لَـذَهَبَ بِسَـمْعِهِمْ وَأَبْصٰارِهِمْ اِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴿٢٠﴾

◁ اللّغة

اَوْ كَصَيِّبٍ:، صيب بفتح الصّاد وكسر الياء المشدّدة من صابَ يَصوُب إذا نزل من السّماء و يقال للسحاب أيضاً صَيّب و سحاب صيّب، ذوي الصّوب والصّوب بالفتح نزول المطر و منه غيث صَوبه متبطر أي شديد و الكاف الدّاخل عليه بمعنىٰ المثل.

السَّمَآءِ: جهته العلو.

ظُلُمٰاتٌ: جمع ظُلمة و هي ضد النّور.

رَعْدٌ وَّ بَرْقٌ : الرّعد، صوت السّحاب و روي أنّه مَلك يسوق السّحاب و البرَق: لمعان السّحاب.

الصَّوٰاعِقِ: جمع صاعِقة و هي و الصاقعة يتقاربان و هما الهدّة الكبيرة إلاّ أنّ الصّقع في الأجسام الأرضية و الصَعِق في الأجسام العلوّية.

يَخْطَفُ:فعل مضارع و ماضيه خطف و المصدر منه الخَطف و الخَطف و الإختطاف الإختلاس باالسّرعة.

اَضٰآءَ: ماضٍ مصدره الإضاءة بمعنىٰ الإنارة و باقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

اَوْ كَصَيِّبٍ أو للشكّ أو التّخيير أو الإباحة أو الإبهام علىٰ ما يأتي في التّفسير و الكاف في موضع رفعٍ عطفاً علىٰ الكاف في قوله كمثل الّذي و يجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف و تقديره، أو مثلهم كصيب و في الكلام حَذف و تقديره أو كأصحاب صيب و كيف كان يكون، صيب مجروراً بها مِّنَ السَّمَآءِ الجارّ والمجرور متعلّق بمحذوفٍ و التّقدير أو كصَيبٍ كائن من السّماء و عليه تكون الجملة في موضع جرٍّ علىٰ الصّفة، كصيّبٍ و الهمزة في السّماء بدل من الواو فِيهِ ظُلُمٰاتٌ الهاء تعود علىٰ صيّب و ظُلّمات، مبتدأ و فيه، خبر مقدّم و الجملة في موضع جرٍّ صفة يصّب و الجمهور علىٰ ضمّ اللّام فيها و قد قرأ بإسكانها تخفيفاً، و قيل بالفتح أيضاً ورَعدٌ وبَرقٌ الواو للعطف و الرّعد و البَرق مصدران مرفوعان بحكم العَطف علىٰ قوله: ظُلُمٰاتٌ.يَجْعَلُونَ أَصٰابِعَهُمْ يجوز أن يكون في موضع جرٍّ صفة، يَصب، و يجوز فيه الإستئناف و قيل فيه أنّه حال من الهاء في، فيه و عليه فموضعه النّصب فِي اٰذٰانِهِمْ الجار و المجرور يتعلّق بالأصابع فمحلّه النصّب بحكم العطف علىٰ المفعول به مِّنَ الصَّوٰاعِقِ أي من صوت الصّواعق حَذَرَ الْمَوْتِ مفعول له وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِـالْكٰافِرِينَ واللّه مبتدأ و مُحِيطٌ خَبره، بالكافرين، الجارّ و المجرور متعلّق بـه و أصـل المّحيط، مُحّوِط لأنّه من حَوَط يَحوط فنقلت كسرة الواو الىٰ الحاء فإنقلبت ياء.

يَكٰادُ فعل يدّل علىٰ مقاربة وقوع الفعل بعدها و أصله، يكودُ مثل خافَ يَخاف الْبَرْقُ فاعله يَخْطَفُ في موضع نَصب لأنّه خبر، كادَ، أَبْصٰارَهُمْ، في موضع النّصب علىٰ المفعولّية كُلَّمٰا، هي هنا ظرف وكذلك في كلّ موضع كان لها جواب و ما، مصدرية و الزّمان محذوف أي كلّ وقت أضاء لهم فيه اَضٰآءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ أضاءَ في موضع جزمٍ بالشّرط و مَشوا فيه في موضع الجزاء

فموضع، **كلّما**، نَصب علىٰ الظّرف و العامل فيه أضـاء **وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا** قد قدّم إعراب مثله لو **وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ** حرف شرطٍ و شاء، مثل فعل، **اللّٰهُ** فاعله، والباقي واضح.

◁ التّفسير

قد قلنا في تفسير اللّغات أنّ كلمة، أو، علىٰ وجوه أربعة:

الشكّ، التخيير، الإباحة، الإبهام و هاهنا نُوضحه فنقول أنّ قلنا أنّها للشكّ فالمعنىٰ لا يدري النّاظر في حال المنافقين أيشبههم بالمستوقد أو بأصحاب الصّيب كقوله تعالىٰ: **إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**[1] أي يشكّ الرّائي لهم في مقدار عددهم و ذلك لأنّ الشكّ يرجع الىٰ النّاظر في حال المنافقين و أن قلنا بالتّحيير فالمعنىٰ، شبهوهم بأيّ القبيلتين شئتم.

و أن قلنا بالإباحة فالمعنىٰ الجواز كما اذا قيل لك جالس الفقهاء أو المحدّثين فالمعنىٰ جواز الجلوس لكلا الفريقين فأن جالستَ أحدهما فأنت مطيع و أن جالستهما فأنت مطيع و أن قلنا بالإبهام فالمعنىٰ أنّ بعض النّاس يشبههم بالمستوقد و بعضهم بأصحاب الصَّيب كقوله تعالىٰ: **كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**.

أي قالت اليهود كونوا هوداً و قالت النّصارىٰ كونوا نصارىٰ و لا يجوز عند أكثر البّصريين أن تحمل، أو، علىٰ **الواو** و لا علىٰ بَل، اذا عرفت الوجوه المحتملة في كلمة (أو) فنقول، شَبَّه اللّه تعالىٰ حال المنافقين في المتقدّمة بالمستوقد، علىٰ ما مرّ تفسيره و في المقام بالمطر النّازل من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ و بَرقٌ و قد تقّرر في محلّه أنّ للتّشبيه أجزاء أربعة:

المُشبه، و المشّبه به، وأداة التّشبيه، و وجه الشّبه، و الكلّ في المقام موجود.

١- الصافات = ١٤٧

أمّا المشبّه فهو المنافقون، والمشبّه به أصحاب المَطر النّازل من السّماء بالاوصاف المذكورة و حرف التّشبيه، هي الكاف، وَوجه الشّبه، فيه أقوال:

أحدها: ما نقله الطّبرسي ﷺ عن ابن عبّاس و هو أنّه شبّه المَطَر المُنزل من السّماء بالقرأن و ما فيه من الظّلمات بما في القرأن من الإبتلاء و ما فيه من الرّعد بما في القرأن من الرّجس و ما فيه من البرق بما فيه من البيان و ما فيه من الصّواعق بما في القرأن من الوعيد أجلاً و الدّعاء الىٰ الجهاد عاجلاً.

ثانيها: أنّه الدّنيا و شبه ما فيها من الشدّة و الرّخاء بالصّيب الّذي يجمع ضرّاً و نفعاً و أن المنافق يدفع عاجل الضرّر و لا يطلب أجل النّفع.

ثالثها: أنّه مثل للإسلام لأنّ فيه الحياة كما في الغيث الحياة و شبّه ما فيه من الظّلمات بما فيه من إسلامهم من ألطاف الكفر و ما فيه من الرّعد بما في الإسلام من فرض الجهاد و خوف القتل و بما فيه من وعيد الأخرة لشكّهم في دينهم و ما فيه من البَرق و بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم و مناكحتهم و موارثتهم و ما فيه من الصّواعق بما في الإسلام من الزّواجر بالعقاب في الأجل و العاجل و يقوي ذلك ما روي عن الحسن أنّه قال مثل إسلام المنافق كصَّيب هذا وصفه.

رابعها: ما رُوي عن ابن مسعود و جماعة من الصّحابة أنّ رجلين من المنافقين من أهل المدينة هَرَبا من رسول اللّه فأصابهما المطر الّذي ذكره اللّه تعالىٰ فيه رَعدٌ شديدٌ و صواعقٌ و بَرقٌ فكلّما أضاء لهما الصّواعق جعلا أصابعهما في أذانهما مخافة أن تدخل الصّواعق في أذانهما فتقتلهما و اذا لمع البَرق مَشَيا في لمعه و اذا لم يلمع لم يبصرا فجعلا يقولان يا ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمّداً فَنَضع أيدينا في يَده فأصبحا فأتياه و أسَلَما و حَسُن إسلامهما فضرب اللّه شأن هذين الرّجلين مثلاً لمنافقي المدينة فأنّهم اذا حَضروا النّبي ﷺ جَعلوا أصابعهم في

أذانهم فرقاً من كلام النّبي من أن ينزل فيهم شئ كما كان ذلك لِرجـلان يجعلان أصابعهما في أذانهما و كلّما أضاء لَهم مَشوا فيه يعني اذا كثرت أموالهم و أصابوا غنيمة أو فتحاً مشوا فيه و قالوا دين محمّدٍ صحيح و إذا أظلم عليهم قاموا يعني إذا هلَكت أموالهم وأصابهم البلاء قالوا هـذا مـن أجل دين محمّدٍفإرتّدوا كما قام ذلك الرّجلان إذا أظلم البَرق عليهما انتهىٰ.

ما ذكره الطبّرسي في المقام و قال الفيض ﷺ في الصّافي، أوكصيب، يعني مثل.

ما خطبوا به من الحقّ و الهدىٰ كَمثل مطرٍ إذا به مياه القلوب كما بالمَطر حياة الأرض، من السّماء، من العلو، فيه ظُلمات مثَل للشبّهات و المصيبات المتّعلقة به ورعدٌ و برقٌ مثَل للتخويف و الوعيد و الأيات الباهرة المتّضمنة للتّبصير والتسدّيد، يجعلون أصابعهم الآية لئلّا يخلع الرّعد أفئدتهم أو ينزل البرق بالصّاعقة عليهم فأنّ هؤلاء المنافقين فيما هم من الكفر و النّفاق كانوا يخافون أن يعثر النبيّ علىٰ كفرهم و نفاقهم فيقتلهم أو يستأصلهم الخ.

و قال صاحب الكشّاف، شبّه دين الإسلام بالصّيب لأنّ القلوب تحيىٰ به حياة الأرض بالمطر و ما يتعلّق به من شبه الكفّار بالظّلمات و ما فيه من الوَعد و الوَعيد بالرّعد و البَرق و ما يصيب الكفرة من الإفزاع و البلايا و الفتن من جهة أهل الإسلام بالصّواعق و المعنىٰ أو لمثل ذوي صَيّبٍ و المـراد كـمثل قـوم أخذتهم السّماء علىٰ هذه الصّفة فلقوا منها ما لقوا انتهىٰ ما أردنا نقله عنه ثمّ أنّه أطال الكلام في المقام إن شئت فراجعه و قد أطال المفسّرون الكلام في الأية و سلك كلّ واحدٍ منهم مسلكاً فـي التشّبيه و تـعيّين المشبّه بـه و إلاّ فالمشبّه معلوم و هو المُنافقون.

و نحن نقول هذا هو المـثل الثّـاني لِـلمُنافقين و يـمكن أن يكـون كـيفيّة المشابهة من وجوه كثيرة لا يمكن إحصاؤها فالبحث عنها قليل النفع و الّذي



ينبغي الإلتفات اليه التوجّه الىٰ أصل المعنىٰ و المقصود و هو معلوم فأنّ اللّه تعالىٰ شبّه المُنافقين أوّلاً بالمستوقد لِلنّار و ثانياً بـالمطر النّـازل مـن السّـماء الموصوف بالصّفات المذكورة في الآية فكما أنّ المطر إذاكان بهذه الصّفات لا نفع فيه كذلك إيمان المُنافق لا نفع فيه و كما أنّ المطر المذكور داخـل فـي جنس المطر لفظاً لا معنىٰ كذلك إيمان المنافق داخل في جنس الإيمان لفظاً لا حقيقةً وكما أنّ هذا المَطَر لا أثَر له في إحياء الأرض كذلك إيمان المنافق لا أثر له في إحياء القلب والحاصل أنّ النفاق يشبه المَطَر الذّي فيه رعدٌ و برق من جهة فقدان الخاصّية فيه وعدم ترتّب الأثر علىٰ وجوده و قد ثبت أنّ قيمة كلّ موجودٍ إنّما هي بآثاره المترتبة عليه و أيّ أثرٍ يترتّب علىٰ الصّيب الّذي فيه رعد و برق غير الإخافة وهكذا أيّ أثرٍ يتّرتب علىٰ إيمان المنافق غير المَكر و الخدعة في لباس الإيمان و هذا واضح لا خفاء فيه.

ولنرجع الىٰ توضيح كلمات الآية فقوله تعالىٰ: **اَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ** أي مَثَل المُنافق مثَل المطر النّازل من السّماء **فِيهِ ظُلُمٰاتٌ وَّ رَعْدٌ وَّ بَرْقٌ** فأنّ المنافق أيضاً فيه ظلمات و رعدٌ و برقٌ، لأنّه لا يعتقد بالقلب و القلب الخالي عن الإعتقاد والصحيح الّذي يُوجب المعرفة مملوءٌ من الظّلمة أمّا رعده و برقه فإشارة الىٰ إدّعاء المـنافق الإيـمان أكـثر مـن المـؤمن الواقـعي و قـال أمـير المؤمنين عليه السلام في وصف أصحاب الجمل و هم طـلحة و الزّبـير و عـائشة و أتباعهم، قد أرعَدوا وأبرقوا بينهما الفَشل، أي ليس لهم من الدّين إلاّ الإدّعاء المحض و التّظاهر بالإسلام و الايمان و ليس لهم غير الإدعاء شئ إلاّ الفشل و هذا شأن المنافق في جميع أموره.

يَجْعَلُونَ أَصٰابِعَهُمْ فِي ءٰاذٰانِهِمْ مِّنَ الصَّوٰاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ أي كما أنّ الناظرين الواقعين في المطر الموصوف بـالظّلمة و الرّعـد و البـرق يـجعلون أصابعهم في أذانهم من شدة الصّوت حذراً من الموت كـذلك المـنافق فـي

ظلمته و رعده و برقه، فأنّ المؤمنين يجعلون أصابعهم في أذانهم و هو كناية عن عدم إستماعهم لكلمات المنافقين و دعاويهم الباطلة حذر الموت أي الموت القلبي لا الموت الطبيعي و بعبارةٍ أخرىٰ أنّهم لا يسمعون كلام المنافقين الّذين هم أموات بالحقيقة لئلّا يقعوا فيما وقع المنافقون فيه من الموت القلبي، و اللّه محيطٌ بالكافرين فلا يمكن الفرار من حكومته لأحدٍ من مخلوقاته فهو تعالىٰ محيطٌ بكلّ ما سواه وجوداً و علماً و قدرة **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ** أي يكاد البرق الّذي في كلام المنافقين و أعمالهم يخطف أي يأخذ أبصار النّاظرين اليهم و هو كناية عن وقوع النّاظرين اليهم تحت تأثير أقوالهم و أعمالهم بحيث يتعجّبون و يتحيّرون من تمسّكهم بظواهر الشّرع مع غفلتهم عن قلوب المُنافقين و أنّها خالية من الإيمان فلا جرم كلمّا أضاء البَرق أعني قول المنافق مَشوا فيه و أخذوا به و إضائته كناية عن كونه مطابقاً لِلشّرع ظاهراً و من المعلوم أنّ العّوام من النّاس لا يرون إلاّ الظّواهر و أمّا البواطن فلا علم لهم بها.

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا أي إذا سكَت المنافق قام النّاس و لا يمشون **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** أي لو شاء اللّه لذَهب بسمع النّاس و أبصارهم حتّىٰ لا يسمعون كلامهم و لا يرون أعمالهم أنّ اللّه قادر عليه و علىٰ كلّ شيءٍ هذا خلاصة ما خطر ببالنا في تفسير الآية خلافاً لجميع المُفسّرين فأنّا لم نجدً فيما بأيدينا من التفاسّير من العامّة و الخاصّة من قال في تفسير الآية ما ذهبنا اليه فأن كان ما قلناه في تفسير الأية حقاً فلنا و إن لم يكن فعلينا.

و أنّما لم نسلك مَسلك القوم في تفسير الآية لأنّ ظاهر الآية يدّل علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ شبّه المنافقين في الآية السّابقة بالمستوقِد و قد مرّ الكلام فيه.

و في هذه الآية قال أو كَصَيّبٍ من السّماء أي أنّ المنافقين كَصَيّب من السّماء الخ.

فما ذكروه في المقام من الوجوه التّي نَقلناها في مصدر البحث خارج عن محلّ البحث و هو ظاهراً علىٰ المتأمل المنصف فعلىٰ ما ذكرناه في المقام.. فى قولهم يجعلون، أصابعهم، أذانهم، لهم، عليهم، بسمعهم، و أبـصارهم، كـلّها يرجع الىٰ النّاظرين الرّائين، و علىٰ مسلك القوم يرجع الىٰ المنافقين و بينهما بون بعيد و ذلك لأنّهم يقولون بالتّقدير في الآية كما عرفت في شرح اللّغات و الإعراب و التقدّير أو كأصحاب صيّبٍ و عليه شبّه المنافقون بـقومٍ أصـابهم المطر الّذي فيه رَعدٌ و بَرقٌ و ظُلمات، و أمّا علىٰ ما إخترناه و ذَهبنا اليـه لا نحتاج الىٰ التقدّير مع أنّه خلاف الأصل بل نقول شبّه المنافقين بالصّيب نفسه لا بأصحابه وأنّ التقدّير في قوله تعالىٰ: **يَجْعَلُونَ أَصٰابِعَهُمْ** و التّقدير و النّاس يجعلون أصابعهم في أذانهم، حُذف النّاس لأنّ نحوي الكـلام يـدّل عـليه و العلم عند اللّه.

و أمّا قوله تعالىٰ:**إِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ** فسيأتي البحث فيه فـي موضع أخر بوجهٍ أبسط و ألا معموم قدرته تعالىٰ إجمالاً ممّا لا كلام لأحدٍ فيه عقلاً و نقلاً و لنختم الكلام في تفسير الآية و نقول: **اَلْحَمْدُلِلّٰهِ رَبِّ الْعٰالَمينَ**.

■

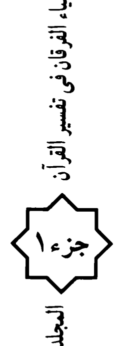
يٰا اَيُّهَا النّٰاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّـذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

◁ اللّغة

أيّ إسم مُبهم لوقوعه علىٰ كلّ شيءٍ أتىٰ به في النّداء توّصلاً الىٰ نداء ما فيه الألف و اللاّم اذاكانت ياء لا تباشر الألفَ و اللاّم وبُنيت لأنّها إسم مفرد مقصود و هاء مقحمة للتّشبيه لأنّ الأصل أن تباشر ياء النّاس فلمّا حيل بينهما بأيّ عوّض من ذلك، هاء، و النّاس وصف لأيّ لابد منه لأنّه المنادي في المعنىٰ و من هاهنا رفع و رفعه أن يجعل بدلاً من ضمّة البناء و أجاز المازني نَصبه كما يازيد الظّريف مِن لإبتداء الغاية في الزّمان لَعَلَّ معناه الترّجي و هو ينصب الأسم و يرفع الخَبر.

◁ الإعراب

النّٰاسُ منادىٰ في المعنىٰ و محلّه النّصب و أنّما رفع في المقام لأنّ رفعه بدل من ضمّة البناء بناءً علىٰ أنّه وصفٌ لأيّ. اعْبُدُوا رَبَّكُمُ فعل و فاعله مستتر فيه و ربّكم، مفعول به.الَّذي خَلَقَكُمْ صفة موضحة مميزة لقوله ربّكم فمحلّه النّصب و خلقكم، فاعله مستتر فيه. وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ في موضع نَصب لأنّه عطف علىٰ الكاف والميم في قوله خَلَقَكُمْ و من قبلكم صلة، الّذين، وكم، في لعلّكم، في موضع نصب بكونه إسم، لعلّ، وتتقّون جملة في موضع الرّفع بأنّه خبره.



◁ التّفسير

الخطاب عام لجميع المكلّفين من المؤمنين و الكافرين قاله الطّبرسي ﷺ و يشكل لانّ الخطاب في حقّ المؤمنين من قبيل يحصل الحاصل اذ المفروض

أنّه أمن باللّه و برسوله و لازم الإيمان العبادة فكأنّه قيل ياأيّها المؤمن العابد، إعبد ربّك و هو كما ترىٰ و يمكن الجواب عنه أمّا أوّلاً فبأنّ الإيمان محمول علىٰ الإعتقاد فقط و العبُودّية إظهار التذلّل فكأنّه قيل أظهَر عبوديتك و تذلّلك.

ثانيا: أنّ المؤمن مخاطب بالعبادة التّي هي العَمَل بالأركان بعد الإيمان.

ثالثاً: أن يكون المراد بالعبادة في المقام الإخلاص فيها من جهة أنّها مخصوصة باللّه تعالىٰ اذ لا يستّحقها كذلك إلاّ من له غاية الأفعال و هو اللّه تعالىٰ، ثمّ أنّ العبودّية علىٰ ما قيل عبارة عن إظهار التذلّل و العبادة أبلغ منها لأنّها غايته و لأجل ذلك قال تعالىٰ إعبدوا، و العبادة تارةً تكون بالتّسخير و هي في السجود الّذي أصله التّطامن و التذلّل و العبادة بهذا المعنىٰ عامّ في الإنسان والحَيوان و الجماد قال الّله: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ**[1] و تارةً بالإختيار و هي لذوي النطق و هي المأمور بها في المقام.

أمّا قوله تعالىٰ:**رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ** الخ. فكأنّه بمنزلة العلّة و السّبب للعبادة فكأنّه قيل و لم نعبد، قال لأنّه خلقكم و ربّاكم الخ.

و العقل يحكم بأن المخلوق يتذلّل لخالقه و يعظمه و ذلك لأنّ شكر المُنعم واجب عقلاً بالإتّفاق و أيّ نعمةٍ أعلىٰ و أشَرف من نعمة الوجود و ما يتبعه و هو تعالىٰ أوجد الخلق و ربّاه فالعقل يحكم بوجوب شكره و الشّكر العملي هو العبادة و هو المطلوب ففي الآية إشعار بل دلالة علىٰ أنّ العبادة منحصرة في حقّه و لا يستّحقها غيره تعالىٰ و ذلك لأنّه تعالىٰ علّلَ الحكم علىٰ الخلقة و إن شئت قلت علّقه عليها فمعناه أنّ العبادة لا تكون إلاّ للخالق و حيث أنّ الإيجاد منحصر فيه فالعبادة أيضاً له و هو المطلوب.

إعلم أنّ الخَلق أصله التّقدير المستقيم و يستعمل فى إبداع الشّئ من غير أصل و لا إحتذاء قاله الرّاغب في المفردات.

١- الرعد = ١٥

فنقول فعله تعالىٰ أي خلقه و إيجاده لما سواه ينقسم بحسب الإصطلاح الصّناعي علىٰ أقسام أربعة و ذلك لأنّ المَخلوق أمّا أن يكون مسبوقاً بالمادّة والمدّة أو لا يكون و الأوّل هو الكائن و الثّاني أمّا أن لا يكون مسبوقاً بهما و هو المبتدع.

و أمّا أن يكون مسبوقاً بالمادّة دون المدّة و هو المخترع و أمّا بالمدّة دون المادّة و هو لا يوجد في الخارج و نعني بالمدّة الزّمان و عليه فيكون الفعل علىٰ أقسام ثلاثة لا رابع لها، الكائن، المبتدع، المخترع، و بعبارةٍ أخرىٰ الفعل أمّا شيءٌ من لا شيء و هو الأجسام فأنّها خلقت من المادّة الأولىٰ و هي اللا شيء يعني لا مشيئة بالفعل لها فأنّها قوّة محضة و قوّة الشّيء بما هي قوّة الشّيء ليست بشيء.

و أمّا شيءٌ من شيء كالنّفوس من العقول علىٰ رأي الفلاسفة.

و أمّا شيء لا من شيء كالعقول علىٰ مَذهب الفلاسفة أو المَواليد من الأمهات و قد عبّروا عن هذه الثلاثة بالجسم و النّفس، و العَقل.

فأنّ الجسم شيء خلق من لاشيءأعني به المادّة الأولىٰ التّي هي قوة محضة، والنّفس.

خلقت من شيء أعني به العقل علىٰ مذهبهم، و العقل خلق من لا شيء محض اذا عرفت هذا فإعلم أنّ قوله تعالىٰ: **الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** يشمل هذه المراتب لأنّ الإنسان الّذي هو مخاطبٌ في الآية و غيرها من الأيات بالعبادة له جسمٌ، و نفسٌ، و عقلٌ، و اللّه تعالىٰ خالق الكلّ، فمن حيث أنّه خالق لجسمه قال منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارةً أخرىٰ.

فقوله منها خلقناكم إشارة الىٰ خلق جسمه حيث أنّه مخلوق عن المادّة الأولىٰ و هي المادّة الترابيّة كما سيأتي البحث عنها في محلّه، و الىٰ الثّاني أشار بقوله: **فَإذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدينَ**[1] و المراد بالرَّوح

١- الحجر= ٢٩

النّفس النّاطقة القدسّية التّي خلقت من العقول علىٰ قولهم، و الىٰ الثّالث أشار بقوله و لما بَلغ أشدّه آتيناه حكماً و علماً و لقد آتينا داوٗد و سليمان علماً، و قوله و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، و قوله، ذلكما علمّني ربّي و الفرق بين العلم والعقل بالإعتبار و سيأتي البحث فيه و الحاصل أنّ الجسم و النّفس و العقل مخلوق له تعالىٰ فالواجب علىٰ الإنسان بناءً علىٰ وجوب شكر المنعم عقلاً الشّكر له تعالىٰ بِجسمه و نفسه و عقله و قد قلنا أنّ أعلىٰ مراتب الشّكر الشّكر العملي و هو لا يتّحقق إلاّ في قالب العبادة في الشّريعة المطهرة و لذلك أمرنا اللّه تعالىٰ في كثير من الأيات بالعبادة.

قال اللّه تعالى: **وَ اَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ اَلْيَقِينُ**[١]

قال اللّه تعالى: **بَلِ اَللّٰهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ اَلشّٰاكِرِينَ**[٢]

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا خَلَقْتُ اَلْجِنَّ وَ اَلْإِنْسَ إِلاّٰ لِيَعْبُدُونِ**[٣]

قال اللّه تعالى: **إنّني أنا اللّه لا إله إلاّ، فَاعْبُدِ اَللّٰهَ مُخْلِصاً لَهُ اَلدِّينَ**[٤]

و أمثالها من الأيات.

إن قلت الخلق لا يختصّ به تعالىٰ بل قد يُطلق علىٰ فعل الغير و بعبارةٍ أخرىٰ قد يكون غيره تعالىٰ ايضاً خالقاً فإن كان العبادة مختصّةٍ بالخالق بمعنىٰ أنّ كلّ خالقٍ مستّحق لِلعبادة كما تقولون لا غيره حتّىٰ أنّها جعلت معلولة لِلخلق في الأية لأنّه تعالىٰ أمَرنا بها لأجل الخلقة و المفروض أنّ غيره تعالىٰ ايضاً قد يكون خالقاً فيجب أن يُعبد و لا تقولون به فيظهر من هذا أنّ السّبب و العلّة لها ليس الإيجاد و الخلق و هو منافٍ لِظاهر الآية و أمثالها من الأيات أمّا إطلاقه علىٰ غيره كقوله تعالىٰ في عيسىٰ ابن مريم:

قال اللّه تعالى: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ**[٥]

قال اللّه تعالى: **وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً**[٦]

١- الحجر= ٩٩ ٢- الزّمر= ٦٦
٣- الذاريات= ٥٦ ٤- الزّمر= ٢
٥- المائدة = ١١٠ ٦- العنكبوت = ١٧

قال اللّه تعالى: **خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشٰابَهَ اَلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**[١]

قال اللّه تعالى: **أَنِّيَ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اَللّٰهِ**

وقوله تعالىٰ حكايةً عن عيسٰ:**أَنِّيَ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اَللّٰهِ** [٢] وغيرها.

قلتٌ، الجواب من وجوه:

أحدها: أنّ الخَلق الّذي يوجب العبادة علىٰ قاعدة الشّكر هو الخلق في الجهات الثلاثة التّي تكلّمنا فيها أعني خلق الجسم و النّفس و الرّوح، و العقل و هو مختصّ به تعالىٰ و أمّا الخلق بالنّسبة الىٰ غيره كامثال الأيات المتقدّمة فليس إلاّ من جهة الجسم فقط و أمّا إيجاد الرّوح في المَخلوق مثلاً فهو من اللّه تعالىٰ ولذلك قال تعالىٰ بإذني في أخر الآية و بإذن اللّه في الأخرىٰ.

ثانيهما: أنّ الخلق اذا أطلق علىٰ غيره فهو مجاز لا حقيقة و أن كان المخلوق جسماً فقط لأنّ الإنسان لا يتّصف بالخالق حقّاً بل هو من الأسباب في عالم السّبب وكيف كان يكون خالقاً بالحقيقة و هو بنفسه مخلوق لغيره و هذا واضح.

ثالثها: أنّ الخلق الّذي يكون مُوجباً أو علّةً للعبادة أنّما هو الخلق علىٰ سبيل الإبداع الّذي لا يكون مسبوقاً بالمادّة و المدّة و الخلق بهذا المعنىٰ من مختصّاته تعالىٰ بل نقول الخلق بمعناه الواقعي هو هذا و أمّا غيره من أقسام الخلق فهو في المرتبة المتأخرة عنه.

ثمّ أنّ العبادة المأمور به في الآية و أمثالها علىٰ أقسام ثلاثة: عبادة العبيد، عبادة الأجراء، عبادة الأحرار، و ذلك لأنّ عبادة العَبد لخالقه أن كانت لأجل الخوف منه تعالىٰ فهي عبادة العبيد، و أن كانت لطلب الثّواب فهي عبادة الأجير وأن كانت لحبّه أيّاه فهي عبادة الأحرار من المعلوم أنّ الأخيرة أفضلها.

١- الرّعد= ١۶

٢- آل عمران= ۴٩

حكىٰ الأصمعي أنه رأىٰ ببعض السّواحل جماعة من الفقراء، يبكون و فيهم شابّ يضحك فسأله عن حاله و حالهم فأنشأ يقول:

أنّهم عبدوك من خوف نارٍ ويَرون الثّواب فضلاً جزيلاً
أو لأن يَسكنوا الجنان فَيسقوا من عيون رياضها سلسَبيلاً
لَيس لي في الجنان ياقوم رأيٌ أنا لا أبتغي لحبّي بديلاً

و في المقام أمور يجب التّنبيه عليها:

الأوّل: أنّ اللّه تعالىٰ جَبَر الكُلفَة و المَشَقة في العبادة بلَذة المخاطبة و أتىٰ في الخطاب بالياء التّي وضعت لنداء البعيد للقريب تنزيلاً له منزلة البّعيد أمّا لعظمته تعالىٰ كقول الدّاعي ياربّ و يا اللّه و هو أقرب اليه من حبل الوَريد، أو لغفلته و سوء فهمه أو لِلإعتناء بالمدعوّ له و زيادة الحَث عليه.

الثّاني: أنّه تعالىٰ قدّم في كلامه الرّب علىٰ الخَلق فقال: **رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** مع أنّ التّربية بعد الإيجاد و الخلق اذ لو لم يكن للشّئ وجود في الخارج لا معنىٰ لتربيته، لأنّ توجه العبد الىٰ الرّبوبية قبل الخالقية لأنّ الأوّل من المحسوسات الّتي يمكن لكلّ أحدٍ التوّجه اليه بخلاف الثّاني فأنّه من المعقولات الّتي لا تنكشف للعبد إلاّ من طريق المحسوس و هو واضح.

الثّالث: أنّ الأمر بالعبادة إرشادى محض بمعنىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قد أرشد العبد الىٰ كونه مربّوباً و مخلوقاً له تعالىٰ و لأجل هذا أمره بها ففيه إيماء الىٰ أنّه ينبغي للعبد التّعقل في الأمور ثمّ ترتيب الأثار علىٰ المعقول بإختياره و إرادته لا أنّه مجبورٌ علىٰ العبادة علىٰ كلّ حالٍ شاء أم لم يشاء عَقل أم لا كما في العبادة التّسخيري الّتي ثبتت في الموجودات بحسب التكوين و الحاصل أنّ المطلوب في الآية و أمثالها العبادة التشّريعية التّي مناطها التعقل و الإختيار لا التّكوينية التيّ مناطها الجبر و الإستئصال.

الرّابع: قال تعالىٰ في أخر الآية **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** و فيه إشارة الىٰ أنّ الغاية في

العبادة الوصول الىٰ مقام المتّقين فأن التّقوىٰ لا تحصل إلاّ من طريق العبادة و كلمة، **لَعلّ** التّي هي في الأصل بمعنىٰ الترّجي قد عَدَل عن معناه الأصلي الىٰ معنىٰ الوجوب و اللّزوم في كلامه تعالىٰ في جميع الموارد و المعنىٰ أنّ العبادة موصلة الىٰ التّقوىٰ قَطعاً كقوله تعالىٰ: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**[1] و أمثالها من الأيات.

والوَجه فيه أنّ اللّه تعالىٰ عالمٌ بالأسرار و الخفيات و لا يخفىٰ عليه شئ فلو أُريد من لعلَّ في كلامه التّرجي يلزم جهله بعواقب الأمور كما هو كذلك فينا.

و أمّا معنىٰ التّقوىٰ و البحث فيها فسيأتي الكلام فيه إن شاء اللّه تعالىٰ.

و قال بعض المحقّقين من المفسّرين أنّ كلمة، لعلَّ، إستعملت في معناها اللّغوي في الآية و نظائرها و المعنىٰ **اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ** راجين أن تَنخرطُوا في سلك المتّقين الفائزين بالهُدىٰ و الفلاح انتهىٰ و عَليه فالتَّرجي يرجع الىٰ العبد و ما ذكرناه أولىٰ.

الخامس: أنّ الخطاب في الآية عامٌ لجميع النّاس و هو مُشكل ظاهراً لأنّ العبادة فرعُ علىٰ المعرفة و الكافر لا معرفة له بخالقه فلا تتّمشىٰ العبادة منه ألَيس هذا من التّكليف بما لا يطاق و الجواب أنّ الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار و الكافر قادرٌ علىٰ تحصيل المعرفة و بعدها العبادة فلا إشكال فيها و من هذا القبيل الإشكال بأنّ الخطاب أن كان للموجودين فقط يلزم عدم تكليف المَعدُومين و أن كان للأعمّ منهما فلا معنىٰ له لأنّ الخطاب الىٰ المعدوم غير معقول.

و الجواب أنّ الخطاب يشمل المعدوم بعد وجوده لا قبله و هو واضح لعدم صدق النّاس علىٰ المَعدوم و أمّا بعده فلأدّلة الإشتراك في التكلّيف كما مرّ في الأصول.

■

١- البقرة = ١٨٣

﴿الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ فِراشاً وَّالسَّماءَ بِناءً وَّأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاٰ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ اَنْداداً وَّاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٢)

◁ اللّغة

فِراشاً: الفراش مصدر قولك فرش فرشاً و فراشاً، يقال فَرش الشّئ اذا بَسَطه قال الرّاغب، الفَرش بَسط الثّياب و يقال للمفروش، فرش و فراش.

وَّالسَّماءَ: سماء كلّ شئ أعلاه قال بعضهم كلّ سماء بالإضافة الىٰ ما دونها فسماء و بالإضافة الىٰ ما فوقها.

الثَّمَراتِ: جمع ثَمرة و الثَّمر إسمٌ لكلّ ما يُتَّطعم من أعمال الشّجر و الواحدة، ثَمرة، و الجمع ثمار و ثمرات.

رِزْقاً: الرّزق مصدر يقال للعطاء الجاري تارةً و للنّصيب أخرىٰ و أيضاً يقال لما يصل الىٰ الجوف و يتغذىٰ به.

اَنْداداً: جمع نِدّ، و هو المثل و قيل نَديد الشّئ مشاركة في جوهره فكلّ نِدٍّ مثل و لَيس كلّ مثلٍ ندّاً.

◁ الإعراب

الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الاَرْضَ فِراشاً، الَّذي جَعَلَ في موضع نصبٍ بيتّقون أو بَدلٌ من ربّكم أو صفة مكرّرة أو بإضمار أعني و يجوز أن يكون في موضع رفع علىٰ إضمار، هو، الّذي، و جَعَل، فعل ماضٍ متعدٍّ الىٰ مفعول واحدٍ و هو الأرض و فاعله مستتر فيه و فِراشاً حال و مثله، وَّالسَّماءَ بِناءً و يجوز أن يكون جَعَل، بمعنىٰ صيّر فيتعدّىٰ الىٰ مفعولين و هما الأرض و فراشاً، و مثله و السّماء بناءً، و لكم متّعلق بجعل أي لأجلكم.

وَّالسَّمٰاءَ بِنٰاءً الواو للعطف أي و جَعل لكم السّماء بناءً والوجوه السّابقة محتملة فيه ايضاً و بناءً مصدر بمعنىٰ المفعول أي مبيّناً وَّأَنْزَلَ مِنَ السَّمٰآءِ مٰاءً أي و هو الّذي أنزَل من السّماء، الجار و المجرور متعلّق، بأنْزَل، و يجوز أن يكون حالاً و التقدّير، ماءً كائناً من السّماء، و الأصل في، ماء، موه لقوله لهم أمواه، ثمّ قلبت الواو ألفاًثمّ أبدلوا من الهاء همزة علىٰ غير القياس و تصغيره، مُويه و كيف كان فهو منصوب علىٰ المفعوليّة،فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرٰاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ،من الثّمرات، متعلق بأخرج فيكون، من، الإبتداء الغاية و يجوز أن يكون في موضع الحال و تقديره، رزقاً كائناً من الثّمرات، و قوله:(لكم) أي لأجلكم و الرّزق هنا بمعنىٰ المرزوق و ليس بمعنىٰ المصدر فَلاٰ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ اَنْدٰاداً وَّاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ، فلا تجعلوا أي فلا تصيروا فيكون متّعدياً الىٰ مفعولين، و أنتم تعلمون، الواو للحال و أنتم مبتدأٍ و لا تعلمون خَبره و مفعول الفعل محذوف أي تعلمون بطلان ذلك.

◁ التّفسير

لمّا أمر اللّه تعالىٰ في الآية المتقدّمة بالعبادة و عَلّل الحكم بأنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي خَلقكم من قبلكم فهو بذلك مستحق لها أردَف تَعليله بأمورٌ هي من لوازم الإيجاد و توابعه بحيث لولاها لم يكن للخلق إدامة الحياة فأنّ مجرّد الإيجاد لا يكفي في البقاء فقال تعالىٰ:اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فِراشاً أي أنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي جعل لكم الأرض فراشاً، بساطاً مكنّكم أن تستقروا عليها إذ لو لم تكن الأرض مبسوطة لا يمكن الإستقرار عليها و الإستفادة منها بالزّراعة و إيجاد الأبنية و غيرها من الفوائد وَّالسَّمٰاءَ بِنٰاءً أي جَعَل السّماء سقفاً مرفوعاً مبنيّاً فذّكر بذلك عباده نِعَمه عليهم و آلاءه لديهم ليذكروا أياديه عندهم فيثبتوا علىٰ اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فِراشاً الىٰ قوله اَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. طاعته تعَطّفاً منه بذلك عليهم و رأفةً منه بهم و رحمةً لهم من غير حاجةٍ



منه الىٰ عبادتهم ليتمّ نعمته عليهم لعلّهم يهتدون و سمّي السّماء لعلوها علىٰ الأرض وعلو مكانها من خلقه و كلّ شئٍ كان فوق شئ فهو لِما تحته سماء و قيل لسقف البيت سماءٌ لأنّه فوقه قال الفرزدق.

سَموا لِنجران اليماني و أهله ونجران أرض لم تديث تعادله

و قال النّابغة الذّبياني :

سَمت لي نظرة فرأيت منها تحيت الجذر واضحة القرام

قال الزجاج كلّ ما علىٰ الأرض فهو بناء لإمساك بعضه بعضاً فيأمنوا بذلك سقوطها فخلق السّماء بلا عَمَدٍ و خلقّ الأرض بلا سَندٍ يدّل علىٰ توحيده و قدمه لأنّ المحدث لا يقدر علىٰ مثله و قال الشّاعر:

بنىٰ السّماء فَسَّواها بِبنيتها ولم تمدّ بأطنابٍ و لا عَمدٍ

قال الرّاغب الأرض الجرم المُقابل لِلسّماء و جمعه أرضون و يُعبّر عنه أسفل الشئ كما يُعبّر بالسّماء عن أعلاه و أنشَدَه:

و أحمَر كالدّيباج أمّا سماؤها فرياً و أمّا أرضها فمحولُ

و حيث إنجر الكلام الىٰ الأرض و السّماء فلا بأس بالإشارة الىٰ بعض خواصّهما و آثارهما و عجائب ما أودع اللّه فيهما من الأسرار فأنّ هذه الأمور كلّها مؤدٍ الىٰ المطلوب فنقول.

أمّا **الْأَرْضَ** بفتح الألف مصدر قولك أَرَض أرضاً و هي في أصل اللّغة كلّ مكانٍ كثر عشبه و إزدهىٰ و حسن في العين و لذلك سميّت الأرض بها من بين الكواكب فأنّها أحسن الكواكب صفاءً و منظرةً و الىٰ هذا المعنىٰ أشار أبو نؤاس حيث قال.

تأمل في نبات الأرض و انظر الىٰ آثار ما صنع المليك
عيونٌ من الجن شاخصاتٍ وأزهارُ كما الذّهب السّبيك
علىٰ قضب الزّبرجد شاهدات بأنّ اللّه ليس له شريك

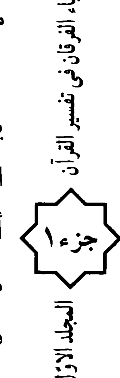
ثمّ أنّ الأرض هي هذا الكوكب الّذي أوجدنا اللّه في و هي كرةٌ كبيرة سابحة في الفضاء حول الشّمس مثل سائر الكواكب و سُرعنها في كلّ ثانيةٍ ثلاثون و نصف كيلو متر (٣٠٥٠٠ متر) و مُحيطها أربعون ألفاً كيلو متر (٤٠٠٠٠ كيلو متر) و قطرها (٣٠٠٠ فرسخ) أي (٨٠٠٠ كيلو متر) و هي أصغر من الشّمس بنحو مليون و أربع مائة ألف مرّة و لها دورتان، دورة رحوّية حول محورها من الغرب الىٰ الشّرق و تتمّها في أربعة و عشرين ساعة و فائدتها تكوين الّليل و النّهار و لها دورة محيطة حول الشّمس تتمّها في (٣٦٥ يوماً) و سُرعة حركتها في اليوم الواحد أكثر من خمس مِائة ألف (٥٠٠٠٠٠ فرسخ) سابحة في الفضاء قالوا كُروية الأرض معروفة منذ القِدم من أول تكون الجرثومة الأوّلية لِلعلم تقريباً و إستدّلوا عليها بوجوهٍ:

أحدها: إختلاف شكل السّماء بالنسّبة لِلسائر علىٰ وجه الأرض فأنّه لو كانت الأرض مستوية لحفظت السّماء شكلها دائماً المِرائي مهما تستدّل علىٰ ظهرها.

ثانيها: ما رأوه عند كسوف القمر من ظِل الأرض عليه فقد رأوا ذلك الظّل مستديراً و هو يدّل علىٰ أنّ الأرض كرة كالشّمس و القمر.

ثالثها: ما ذهب اليه المتأخرون و هو أنّ الرّجل يخرج من مدينةٍ شرقاً فلا يزال يسير حتىٰ يصلها من جهة الغرب، قالوا ثلاثة أرباع الكرة مغطّىٰ بمياه البحر والرّبع موزع عليه أقسام الدّنيا الخمس كان اليونانيون الأقدمون يعتقدون أنّ الأرض قرص مستديرة مركزه بلادهم و هذا القرص كان في إعتقادهم محاطاً بنهرٍ يدعونه الإقيانوس تخرج منه الشّمس صباحاً و تغرب فيه مساءً فلما ظهرت الفلسفة في اليونان و نبغ فيه سُقراط و إفلاطون و أرسطو و إرتقت معلوماتهم قرروا أنّ الأرض كروية الشّكل و أنّ بلادهم جزء صغير فيها.

و أول من قال بدوران الأرض فيثاغورس قبل ميلاد المسيح بنحو خمسة



قرون فقبل النّاس نظريته زماناً طويلاً حتّىٰ ظهر بطليموس الّذي كان عائشاً قبل الميلاد بنحو قرن و نصف (١٥٠) فقرَر أنّ الأرض و أن كانت كرّوية إلاّ أنّها ساكنة غير متحرّكة و أنّ الشّمس هي الّتي تدور حولها و بقيت هذه النظّرية شائعة سائدة بين النّاس الىٰ أن ظهر الفلكي المشهور في القرن السادس عشر من الميلاد كوپرنيك فقرَر رأي فيثاغورس و أيدّه بالأدلة القاطعة الرّياضية و تلّقاها علماء الهيئة بالقبول في كلّ مكانٍ الىٰ زماننا هذا و قد ورد ذكر دوران الأرض في بعض الكتب الإسلامية قبل ظهور كوپرنيك، فتكلم فيها عضد الدّين عبد الرّحمان ابن أحمد المتوفي سنة (٧٥٦ هجري) في كتابه المواقف و تابعه فيه شارحه علّي ابن محمد الجرجاني المتوفي سنة (٨١٦ هجري) و قررها بهاء الدّين العاملي في كتابه تشريح الأفلاك ايضاً و الكلام حول الأرض و السّماء طويل و قد ألّفوا فيها كتباً كثيرة و ما ذكرناه في المقام نقلناه عن دائرة المعارف فريد وجدي[١]

و في المقام إشكال لابد لنا من الإشارة اليه و الجواب عنه أمّا الإشكال فهو أنّ الآية قد صرّحت بأن الأرض جُعِلت فراشاً و الفراش لا يكون إلاّ مُسَطحاً يمكن الاستقرار عليه و قد أشار اللّه تعالىٰ الىٰ هذا المعنىٰ في غيرها من الأيات أيضاً:

كقوله تعالىٰ: وَ ٱلسَّمَآءِ وَ مَا بَنَىٰهَا،وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَا طَحَىٰهَا[٢] أىَ بَسَطها من طَحىٰ يَطحىٰ أي بَسَط يَبسطُ.

قوله تعالىٰ :**وَ إِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ، وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ**[٣].

والمَّد و البَسط.

قوله تعالىٰ:**وَ هُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَ أَنْهَٰرًا** [٤] أي بَسَط الأرض.

١- ج ١ مادة، أَرَض ص ١٨١
٢- الشمس = ٦
٣- الانشقاق = ٣/٤
٤- الرعد = ٣

قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْأَرْضَ مَدَدْنٰاهٰا وَ أَلْقَيْنٰا فِيهٰا رَوٰاسِيَ** [١] أي بَسَطناها.

قوله تعالىٰ: **وَ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** [٢].

و أمثال ذلك من الأيات الدّالة علىٰ كونها مسّطحة و اذا كانت كذلك فكيف تكون كروّية و الكُّرة تنافي التّسطيح.

وقد أجيب عنه بما حاصله أنّ الكرة اذا عظمت جدّاً كانت القطعة منها كالسّطح في إمكان الأستقرار عليه و الّذي يزيده تقريراً أنّ الجبال أوتاد الأرض ثمّ يمكن الإستقرار عليها.

ثانياً: أنّ المراد من البَسط هو مايراه الرّاؤن و كلّ ما يمكن الإستقرار عَليه فهو مبسُوط و لعَلَّ تفصيل الكلام في الأرض سيجيئ في موضع أخر إن شاء اللّه.

و أمّا السّماء، فهي الفلك الشّامل لسائر الأجرام و تطلق علىٰ كلّ سقفٍ قال القدماء من علماء الهيئة أنّ السّماء جرمٌ محسوسٌ و أنّ الكواكب مثبتته فيها و قال المتأخرون أنّ السّماء هي الفضاء الّذي فوقنا مِمّا لا يحدّه التّصور تسبح الكواكب فيها بلا ماسكٍ لها إلاّ قدرة اللّه تعالىٰ و هو الحقّ الحقيق بالإتّباع و سأتي الكلام فيهابوجهٍ أبسط عند قوله تعالىٰ: **ٱللّٰهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ وَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** [٣] فنتكلم هناك في معنىٰ السّبع و ما يتعلّق بـه اذا عـرفت الأرض و السّماء بحسب ماهيّتهما فلنرجع الىٰ تفسير الآية و نبّين كيف تكون الأرض فراشاً و السّماء بناءً فنقول قد ذكروا في مـعنىٰ كـون الأرض فـراشـاً وجُوهاً كثيرة نشير الىٰ بعضها:

منها أنّ الأرض لا تكون في غاية الصّلابة لئلا يكون النّوم و المَشي عليها صَعباً اذ لو كانت مثلاًكالحَجر لم يمكن لأحد الزّراعة فيها بل و لا إتّخاذ الأبنية منها لتعذّر

١- الحجر = ١٩ ٢- الغاشية = ٢٠

٣- الطلاق = ١٢

حفرها و تركيبها كما يراد و لا تكون في غاية اللّين أيضاً كالماء الّذي تغوص فيه الرِّجل بل جَعَلها اللّه تعالىٰ متّوسطاً بين الصّلابة و اللّين و هو عَجيب.

و منها أنّها لا تكون في غاية اللّطافة و الشفّافية فأنّ الشّفاف لا يستقر النّور عليه و ما كان كذلك لا يَتَّسخن مِن الشّمس فكان يبرد جدّاً فجعل اللّه الأرض بقدرته الكاملة و حكمته البالغة أغبر ليستقرّ النّور عليه فيتسخن فـيصلح أن يكون فِراشاً للحيوانات.

و منها أنّها تكون بارزة لنا من الماء لأنّ طبع الأرض أن تكون غائصاً فـيه فكان يجب أن تكون البحار محيطة بالأرض و لو كانت كذلك لما كانت فراشاً لنا فقلّب اللّه طبيعة الأرض و أخَرج بعض جوانبها من الماء كالجزيرة البارزة حتّىٰ صلحت لأن تكون فراشاً لنا فهذه هي الشّروط التّي ذكروها لكونها فراشاً و أمّا المنافع المتّرتبة عليها فكثيرة أيضاً.

و منها الأشياء المتّولدة من الأرض من المعدن و النّبات و الحيوان و الآثار العلّوية و السفّلية الّتي لا يعلم تفصيلها إلاّ اللّه تعالىٰ.

و منها ضَمِّر الرّطب بها فيحصل التّماسك به في أبدان المرّكبات.

و منها إختلاف بقاع الأرض في الرّخوة و الصّلبة و الرّملة و السبّخة و الحرّة:

قال اللّه تعالى: **وَ فِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ ٱلَّذى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلّا نَكِدًا**(٢).

و منها إختلاف ألوانها فمنها أحمر و منها أبيض و منها أسود و منها رماديّ اللّون وأغبر و الىٰ هذه الأُمور أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

قال اللّه تعالى: **وَ مِنَ ٱلْجِبالِ جُدَدٌ بيِضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابيِبُ سُودٌ**(٣).

١- الرعد = ٣ ٢- الاعراف = ٥٧

٣-الفاطر= ٢٧

و منها إنعدامها بالنّبات:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلْأَرْضِ ذاتِ ٱلصَّدْعِ**(١).

و منها كونها مخزناً للمطَر النازّل من السّماء:

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْزَلْنا مِنَ ٱلسَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِى ٱلْأَرْضِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها**(٣)

قال اللّه تعالى: **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتيكُمْ بِماءٍ مَعينٍ**(٤).

و منها جريان العيون والأنهار فيها:

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ فيها رَواسِىَ وَ أَنْهارًا**(٥)

و منها، مافيها من المعادن و الفلزّات واليه الإشارة:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فيها رَواسِىَ وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ**(٦).

و منها خروج الحَبّ و النّوىٰ:

اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فِراشاًالى قوله: وَّاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

ما جَعَل اللّه فيها من الدوّاب و الألوان و الصوّر المختلفة:

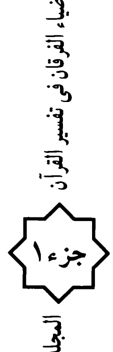
قال اللّه تعالى: **وَ بَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ**.

و منها ما جعل اللّه فيها من أنواع النّباتات:

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ**

وجَعَل اللّه فيها قوت البشر والبهائم:

قال اللّه تعالى: **وَأرعوا أنعامكم**



١- الطارق =١١
٢-المؤمنون =١٨
٣- الرعد = ١٦
٤- الملک =٣٠
٥- الرعد = ٣
٦- ق =٧

أمّا مطعوم البشر فمنها الطّعام و منها الأدام و منها الدّواء و منها الفَواكه و منها الأنواع المختلفة في الحلاوة و الحموضة و منها كسوة البشر من القُطن و الصّوف و الأبريسم و الجلود و الملبوس أيضاً:

قال اللّه تعالى: **وَ يَخْلُقُ مٰا لا تَعْلَمُونَ.**

و فيه إشارةٌ الىٰ منافع كثيرة لا يعلمها إلاّ اللّه ثمّ أنّه تعالىٰ جعل الأرض ساترة لقبائحك بعد موتك.

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفٰاتًا، أَحْيٰآءً وَ أَمْوٰاتًا**[1].

قال اللّه تعالى: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فيهٰا نُعيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ**[2]

و منها ما جعل اللّه فيها من الأحجار المختلفة من الذّهب و الفَضة و الياقوت والعقيق و أمثالهما و لا سيّما الحجر الكبريت الّذي تستخرج النّار منه.

و منها ما جَعَل اللّه علىٰ الجبال والأراضي من الأشجار و النّباتات الّتي لا يمكن لأحد إحصائها ومنافعها فمن تأمّل في هذه اللّطائف والعجائب الّتي جعلهما اللّه في الأرض لا يبقىٰ له شكّ في وجوده صانعٍ حكيم الّذي أوجَدنا و خلق لنا الأرض و جعلها فراشاً ثمّ أودَعَ فيها ما أودع و سخّرها لنا لنكون من الشّاكرين.

و أمّا السّماء و ما جعل اللّه فيها من الفوائد و المنافع بحيث لولاها لما أمكن الموجود أن يعيش في الأرض فموكولٌ الىٰ موضع أخر إن شاء اللّه تعالىٰ.

وَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَخْرَجَ بِهِمِنَ ٱلثَّمَرٰاتِ رِزْقًا لَكُمْ ففيه إشارة الىٰ أنّ البقاء في الأرض و الحياة فيها لا يمكن إلاّ بوجود السّماء وذلك لأنّ الإنسان في بقائه يحتاج الىٰ الرزّق و أصوله ثلاثة، المأكولات، و المشروبات،

۱- المرسلات =۲۶/۲۵ ۲- طه =۵۵

و الملبوسات والكل يخرج من الأرض ببركة السّماء و ذلك لأنّ الأرض بما هي هي ميتة وحياتها بالمطر الّذي ينزّل عليها من السّماء فلولا المطر ليس لها حياة و ما لا حياة له لا أثَر له:

قال اللّه تعالى: **وَ مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مِنْ مٰآءٍ فَأَحْيٰا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا**(١)

قال اللّه تعالى: **وَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ نَبٰاتَ كُلِّ شَىْءٍ**(٢)

قال اللّه تعالى: **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً لَكُمْ مِنْهُ شَرٰابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ**(٣)

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ**(٤) و أمثالها كثيرة.

فثبت أنّ حياة الأرض بالماء النازّل من السّماء إذا عرفت هذا فنقول:

المأكول علىٰ قسمين: الأوّل الأغذية، والثّاني الفواكه.

أمّا قسم الأوّل: أعني به الأغذية كالحنطة والشّعير، والأرز، والذّرة وغيرها مما يستفاد منه لأجل الطّعام فلا شكّ أنّها تنبت من الأرض بسبب الماء و قد أثبت أنّ الماء كلّه من السّماء فأن الأرض تراب خالص و التّراب في ذاته يغاير الماء لأنّ الماء سيّال والترّاب لا سَيَلان له و لذلك يقال أنّ الأرض في حدّ ذاتها مَوات و حياتها بالماء و هو من بركات السّماء فلولا نزول الماء منه لا نبات في الأرض أصلاً و اذا لم يكن نبات فيها فكيف تدفع اليها حبّة واحدة و هي تَردها عليك سبع مائة كَمَثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل و هذا ممّا لا خفاء فيه و اذا ثَبت أنّ المأكولات من الأرض بواسطة أو بغيرها فقد ثبت أنّ اللّه تعالىٰ جَعَل هذا القسم من الرِّزق فيها.

١- البقرة = ١٦٤
٢- الانعام =٩٩
٣- النحل = ١٠
٤- الزمر =٢١

وأمّا القسم الثّاني: أعني به الفواكه فهي من الأشجار والنّبات وقد مرّ أنّ النّبات ينبت من الأرض ببركة الماء ولذلك لا ترىٰ في الأرض التّي لا يوجد الماء فيها نبات و أشجار و الفواكه من ثمرات النّباتات و هو المطلوب هذا كلّه في المأكولات.

و أمّا المشروبات، علىٰ أقسامها فهي من الماء بل هي هو مع تغيّير ما في كيفية الماء و لا شكّ أنّ الموجود اذا كان حيّاً محتاج اليه كما هو محتاج الىٰ الطّعام قال اللّه تعالىٰ: **مِنَ الْماء كلّ شَئٍ حيّ و اما** المَلبوسات، فأن كانت من جنس القطن وما يشبهه فلا شكّ في أنّه من النّبات و أن كان الملبوس من الصوف أو الجلود و أمثالها فهو أيضاً من ثمرات الأرض بواسطة الحيوان اذ لو لم تكن أرضٌ في العالم لم يكن حيوان فيه و قلنا أن حياتها بالماء فَثَبت أنّ الحيوان من ثمرات الماء و الصّوف و الجلد من ثمرات الحيوان و هذا معنىٰ قولنا أنّ الملبوس من ثمرات الماء بواسطة الموجود فثبت أنّ ما يحتاج اليه الإنسان في أكله و شُربه ولباسه من الأرض التّي جعلها اللّه فراشاً لنا ثمّ أحياها بالماء النازّل عليها من السّماء و هذا هو المراد بقوله تعالىٰ: **وَ أَنْـزَلَ مِـنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ** في المقام فالمراد بالثّمرات في الآية الشّريفة ليس الفواكه فقط كما يظنّ في باديءِ الرّأي و النّظر بل المراد بها كلّ ما يخرج من الأرض ويستفاد منه و أن شئت قلت ثَمرات الأرض فقط.

فَلاَ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ اَنْدٰاداً وَّاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. فالفاء للتّفريع و الأنداد جمع ندٍّ كما مرّ في شرح اللّغات و النِّد المِثل و الفرق بينهما أنّ المثل يقال لكلّ مشاركٍ في جوهر الشّيءِ و النِّد يقال لشيءٍ يشارک غيره في جوهره بضربٍ من المماثلة و بينهما عموم و خصوص مطلقٌ:

قال اللّه تعالىٰ: **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ أَنْدَادًا**[١]

١- البقرة = ١٦٥

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدادًا**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِهِ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبيلِهِ**[٣] وغيرها من الأيات.

أي اذا علمتم أنّ اللّه تعالىٰ: هو **رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ** ثمّ هو **الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فِراشاً وَّالسَّماءَ بِناءً وَّأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاٰ تَجْعَلُوا لِلّٰهِ اَنْداداً وَّاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** هذه الأمور التّي لا يمكن إيجادها من غير اللّه تعالىٰ، أو أنتم تعلمون عجز ماسواه كائناً من كان او انتم تعلمون ان ما تتّخذونه مثلاً له تعالىٰ في العبودّية والخالقيّة ليس بمثلٍ لما ذكرناه وكيف يكون مثلاًله و هو لا يقدر علىٰ شيءٍ بل هو لا يقدر علىٰ نفسه فضلاً عن غيره ثمّ أنّه مع ذلك مخلوق لغيره موجودٌ به حُدوثاً و بقاءً و أنّما قال تعالىٰ :**وَّاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** و لم يقل و أنتم لا تعلمون مثلاً، لأنّ هذه الأمور التّي ذكرها اللّه تعالىٰ في الأيتين في الحقيقة من المحسوسات التّي يعلمها و يفهمها و يُدركها كلّ إنسانٍ بحواسّه الظّاهرة والباطنة و ليست من المعقولات التّي لا يدركها إلاّ أوحدّى من العلماء مثل أنّ الصّفات فيه عين ذاته أو أنّه تعالىٰ منّزه عن الجسمية و النّقائص ذاتاً وصفةً أو أنّه تعالىٰ قديمٌ ذاتاً وصفةً و أمثالها من العَويصات العقلّية انّى لا يمكن الوصول اليها إلاّ بصعوبةٍ و اما المذكور في الأيتين فهو مُدركٌ لكلّ فردٍ من النّاس اذا كان سليم العقل والحوّاس و لنعم ما قيل بالفارسية:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار

هر وَرقش دفتری‌است معرفت كردگار

١- فصلت= ٩ ٢- الزّمر= ٨

٣- إبراهيم= ٣٠

و لذلك قلنا، الواو في **أنتم تعلمون** للحال، أي فلا تَـجعلوا له تـعالىٰ نـداً والحال أنتم تعلمون أنّه بعيدٌ عن الصّواب ليس كمثله شئ و لا يقاس به غيره و لا يَشبهه غيره تعالىٰ اللّه عمّا يقول الظّالمون علّواً كبيراً.

■

وَاِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دوُنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَاِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

◁ اللّغة

رَيْبٍ: الرَّيب مصدر من رابَه يَريبه رَيباً ،والرَّيب أن تَتَوهم بالشّئ أمراً ما فينكشف عمّا تَتوهّمه.

بِسُورَةٍ: السُّورة بضمّ السّين، في الأصل المنزلة الرّفيعة كما قال الشّاعر:

ألَـم تَـر أنّ اللّـه أعطاك سـورةٍ ترىٰ كـلّ مـلَكٍ دُونـها يـتذّبذبُ

و المراد بها في المقام طائفة من القرأن أقلها ثلاث أيات ثمّ أنّها إمّا من سور المدينة لأنّها طائفة من القرأن محدُودة فكأنّها سُورّةٌ بسُورٍ، و اما من السورة التّي هي الرّتبة و المنزلة كما مرّ و اما من السّور الّذي هو البّقية من الشّئ فقلبت همزتها، واواً لأنّها قطعة من القرأن وجمعها علىٰ سُورٍ كغرفةٍ و غُرف.

وَقُودُهَا، الوقود: بفتح الواو الحطب و بالضمّ مصدر و الوَقَد بفتحتين النّار نفسها.

وَالْحِجَارَةُ: بكسر الجيم جمع حَجَر و هو معروف و باقي اللّغات واضح و بعضها شرحناها سابقاً.

◁ الإعراب

إن حرف شرطٍ يجزم الفعل المضارع و يدخل علىٰ الماضي فيصرفه الىٰ الإستقبال و لا بدّ للشرط من جزاء فقوله كنتم في موضع الجزم، بأن و قوله

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ جواب الشّرط و قوله فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلىٰ عَبْدِنَا وقع بين الشّرط والجزاء من مِثْله كلمة مِن للتبعيض و قيل للتّبيين و قيل زائدة و مثله، مجرور به وَادْعُوا شُهَدَاءَ كُمْ الفعل و الفاعل الواو مستتر فيه و شُهَدَاءَ كُمْ في موضع النّصب على المفعولّية مِنْ دُونِ اللّٰهِ الجار و المجرور في موضع الحال من الشّهداء و العامل فيه محذوف و تقديره شهداءكم منفردين عن اللّه أو عن أنصار اللّه فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا الجزم بلَم، لا، بأن، لأنّ لَم، عامل شديد الإتّصال بمعموله ولَن تفعلوا كلمة لَن حرف نفي للأبد، وتفعلوا منسوب به فَاتَّقُوا النَّارَ الفعل و الفاعل الواو مستتر فيه والنّار مفعوله الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ الجملة صفة للنّار أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ جملة في موضع الحال من النّار والعامل فيها فاتّقوا.

◁ التّفسير

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلىٰ عَبْدِنَا الىٰ قوله أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ.

إعلم أنّ الأيتين نزلتا في إثبات كون القرأن من اللّه تعالىٰ و أنّه كلامٌ مُنزلٌ من عنده علىٰ عبده و ذلك لأنّهم كانوا منكرين بهذه الحقيقة و إدّعوا أنّ القرأن من عند نفسه لا من عند اللّه فقال اللّه تعالىٰ: **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ** و شُبهةٍ **مِمَّا نَزَّلْنَا** من القرأن علىٰ عبدنا، و هو النّبي ﷺ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ** و أقلّها ثلاث أيات **مِنْ مِثْلِهِ** أي من مثل النّبي لأنّ حكم الأمثال واحد فاذا اتى النّبي بزعمكم كلّ القرأن فكيف لا يقدر مثله من النّاس أن يأتي بسّورةٍ، أو أنّ الضّمير يرجع الىٰ القرأن أي فأتوا بسورةٍ مثل القرأن **وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ** يعني أعوانكم و أنصاركم **مِنْ دُونِ اللّٰهِ** أي من غيره كما يقال ما دون اللّه مخلوق **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** في دعواكم و هو أنّ القرآن ليس من عند اللّه، أو يقال إدعوا ألهتكم إن كنتم صادقين **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا** ذلك **وَلَنْ تَفْعَلُوا** أبداً **فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي**

وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أي إحذروا أن تدخلوا النّار الموصوف بكذا التّي **أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ** المكذبين، و في المقام أبحاث شريفة نافعة نُشير اليها لِيَنتفع الطّالب بها فأنّ المسألة من أهم المسائل الإعتقادّيه فنقول:

البحث الأوّل: إعلم أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ لمّا أقام الدّلائل الواضحة علىٰ إثبات الصّانع و أنّه لا شريك له في المُلك عقّب الكلام بذكر النّبوة و ما يدّل عليها ليتمّ أصل الإعتقاد و ذلک لأنّ أساس الدّين التّوحيد والنبوّة و اما المعاد والعَدل و الإمامة وجميع ما جاء به النّبي من الأحكام الشّرعية فهي من فروع النبوّة كما هى فرع علىٰ التوحّيد فالإسلام في الحقيقة له أصلان التّوحيد، والنبوّة، و لأجل هذا اتفقّوا علىٰ أنّ المُقر بهما مسلِمٌ و قال رسول اللّه ﷺ أُمرت أن أُقاتل النّاس حتّىٰ يقولوا **لا إله إلاّ اللّه** فاذا قالوها عَصَموا منّي دمائهم و أموالهم، و قال ﷺ في أوّل دعوته **قولوا لا إله إلاّ اللّه تفلحُوا،** فالأصل التّوحيد ثمّ النّبوة و الباقي من فروعهما اذا عرفت هذا فقد ظهر لك سِرّ ذكر الأية بعد قوله: **يا اَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذيِ خَلَقَكُمْ** الىٰ قوله **وأنتم تعلمون** و هو أنّ العبد بعد معرفة الخالق لابدّ له من معرفة الرّسول حتّىٰ يكون مسلماً و لمّا كانت النّبوة قرينّته علىٰ كون القرأن مُعجزاً أقام الدّليل عليه في الآية.

أن قلت الدّليل علىٰ إثبات النبوّة لا ينحصر بكون القرأن معجزاً قلت نعم مجزاته ﷺ كثيرة إلاّ أنّها علىٰ ضربين، فانية و باقية و القرأن من الثّاني و هو الّذي ينفع النّاس بعد موته ﷺ الىٰ يوم القيامة لأنّ غيره من المعجزات التّي صدرت منه ﷺ في حياته مخصوص بمن أدرَكه في حياته ورأىٰ المعجزات علىٰ يده.

و أمّا من كان بعده الىٰ أخر الأيام فلا طريق له إلاّ من طريق المعجزة الباقية و هي القرأن بل الحقّ في المقام هو أنّ القرأن ليس مصدّقاً لنبيّ الرّحمة فقط بل

هو مصدّق لسائر الأنبياء والأوصياء قبله و بعده و به قال الرّاوندي ﴿رحمه الله﴾ ثمّ قال و ليس جملة الكتاب معجزة واحدة بل مُعجزات لا تُحصىٰ لأنّ أقصر سُورةٍ فيه أنّما هو الكوثر و فيه الإعجاز من وجهين:

أحدهما: أنّه قد تضّمن خبراً عن الغيب قطعاً قبل وقوعه فوقع كما أَخبر عنه و هو قوله أنّ شانئك هو الأبتَر.

الثّاني: من طريق نظمه لأنّه علىٰ قلّة عدد حروفه وقصر أياته يجمع نظماً بديعاً و أمراً عجيباً و بشارة للرّسول و تعبّد العبادات بأقرب لفظٍ و أوجَز بيان انتهىٰ.

البحث الثّاني: ثمّ قال ﴿رحمه الله﴾ أنّ كون القرأن معجزاً لا يتّم إلاّ بعد بيان خمسة أشياء:

أحدها: ظهُور محمّد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بمكّة و إدعائه أنّه مبعوث الىٰ الخلق و رسول اليهم.

ثانيها: تحدّيه العرب بهذا القرأن الّذي ظهر علىٰ يديه و إدعائه أنّ اللّه أنزَله عليه و خصّه به.

ثالثها: أنّ العرب مع طول المدّة لم يعارضوه.

رابعها: أنّهم لم يعارضوه للتّعذر والعجز.

خامسها: أنّ هذا التّعذر خارق للعادة.

و قال الرّازي - في تفسيره القرأن لا يخلو أمّا أن يقال أنّه كان بالغاً في الفصاحة الىٰ حدّ الإعجاز أو لَم يَكن كذلك فأن كان الأوّل ثبت أنّه معجز وأن كان الثّاني كانت المعارضة علىٰ هذا التّقدير ممكنة فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة و مَع توّفر دواعيهم علىٰ الإتيان بها أمرٌ خارق للعادة فكان ذلك معجزاً فثبت أنّ القرأن معجزٌ علىٰ جميع الوجوه و هذا الطّريق عندنا أقرب الىٰ الصّواب انتهىٰ.

البحث الثّالث: ذكروا أنّ للمعجزة شروط لابدّ من وجودها في تحقيقّها:

منها أن يعجز المبعوث اليه عن مثله أو عمّا يقاربه.

و منها أن يكون من فعل اللّه أو بأمره و تمكينه لأنّ المصدّق للنبيّ بالمعجز هو اللّه فلابدّ أن يكون من جهته تعالىٰ ما يصّدق به النبيّ أو الوّصي.

و منها أن يحدث بعد دعوىٰ المدّعي أو جارياً مجرىٰ ذلك.

و منها أن يظهر ذلك في زمان التكلّيف لأنّ إشتراط السّاعة ينتقض بها عادته تعالىٰ و لا يدّل علىٰ صدق مدّعٍ والشّروط في المقام موجودة فالقرأن معجز.

البحث الرّابع : في بيان وجوه إعجاز القرأن وعمدتها سبعة أو ثمانية.

الأوّل : ما إختاره المرتضىٰ ﷺ و هو أنّ وجه الإعجاز فيه أنّ الّه صَرَف العَرب عن معارضته و سلبهم العلم بكيفية نظمه و فصاحته و قد كانوا قادرين علىٰ المعارضة و متمكّنين منها لولا هذا الصَّرف.

الثّاني: أنّه معجز من حيث أنّه كان قديماً أو أنّه حكاية للكلام الفديم و عبارة عنه.

الثّالث: ما ذهب اليه المفيد ﷺ و هو أنّه كان معجزاً من حيث إختصّ بمرتبةٍ في الفصاحة خارقة لِلعادة لأنّ مراتب الفصاحة تتفاوت بحسب العلوم الّتي يفعلها اللّه في العباد فلا يمتنع أن يجري اللّه العادة بقدر من المعلوم فَيَقع التّمكين بها من مراتب الفصاحة محصورة متناهية ويكون ما زاد علىٰ ذلك زيادة غير معتادة معجزاً خارقاً لِلعادة.

الرّابع : أنّ أعجازه من حيث كانت معانيه صحيحة مستّمرة علىٰ النّظر موافقة لِلعقل.

الخامس: أنّ جماعة جعلوه مُعجزاً من حيث زال عنه الإختلال والتّناقض علىٰ وجه لم يجر العادة بمثله.

السّادس: أنّ جهة أعجازه في أخباره عن الغيوب.

السّابع: أنّ القرآن إنّما كان معجزاً لإختصاصه بنظمٍ مخصوص مخالفاً لِلمعهود.

الثّامن: ما ذهب اليه أكثر المُعتزلة و هو أنّ تأليف القرآن ونظمه مُعجزٌ لا لأنّ اللّه أعجزَ عنها بمنع خلقه في العباد وقد كان يجوز أن يرتفع فيقدر عليه لكن محال وقوعه منهم كإستحالة إحداث الأجسام و الألوان و إبراء الأكمه و الأبرَص من غير دواءٍ إنتهىٰ وقد نقل المجلسي ﷺ هذه الوجوه عن الرّاوندى ﷺ في البّحار ثمّ نقل كيفيّة إستدلال كلّ فريقٍ علىٰ مدّعاه بما لا مزيد عليه و نحن أعرضنا عن نقلها حذراً عن الأطناب أن شئت الإطّلاع عليها فراجع البحّار.

و الحقّ أنّ القرآن معجز من جميع الوجوه و لذلك إتفقوا علىٰ كونه معجزاً و إختلفوا في وجوه الإعجاز و هذا الإختلاف ناشٍ عن إختلاف العقول و الإستنباطات في النّاس والفرق بين المقامين واضح والمدّعي هو أصل ثبوت الإعجاز و هو ثابت بالإجماع عقلاً و نقلاً و هو المطه.

البحث الخامس: لِمَ قال اللّه تعالىٰ، **نزّلنا** و لم يَقُل أنزلنا علىٰ عبده، و أُجيب عنه بأنّ المراد النزّول علىٰ سبيل التّدريج فذكر هذا اللّفظ هو اللآئق بهذا المقام لأنّهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند اللّه و مخالفاً لما يكون عند النّاس لم ينزل هكذا نجوماً سورةً بعد سورةٍ علىٰ حسَب النّوازل و وقوع الحوادث الىٰ آخر ما ذكره الرّازي في تفسيره فكأنّه إستفاد من قوله تعالىٰ **نزّلنا**، النزّول التّدريجي و هو مساوق للحدوث فالقرآن حادث.

و أنا أقول ما ذكره في المقام لا يرجع الىٰ محصّلٍ و لا يستفاد منه التّدريج ثمّ الحدوث وذلک لأنّ اللّه تعالىٰ ذكر في كثير من الأيات أنزَل:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**[1]

١- القدر = ١

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِيٓ أَنْزَلَ عَلىٰ عَبْدِهِ اَلْكِتٰابَ**[١]
قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰآ أَنْزَلْنٰآ إِلَيْكَ اَلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ**[٢]
قال اللّه تعالىٰ: **نَزَّلَ عَلَيْكَ اَلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ**[٣]
والأيات كثيرة.

ثمّ لقائل أن يقول أيّ دليل قام من العقل أو النّقل علىٰ أنّ نَزَل يدّل علىٰ التّدريج دون، أنزل، بل الحّق في المقام أن يقال أنّ تغيّير الألفاظ في المحاورات والتخاطب مع حفظ المعنىٰ من محسنات البلاغة لئّلا يلزم التّكرار في اللّفظ فأنّه بعيد عن الحلاوة قريب الىٰ النّفرة في الطّباع والقرآن ملجأ البُلغاء و مأخذ الفصحاء.

إذا عرفت هذا وأحطت بما تلوناه عليك من الوجوه الخمسة فلنرجع الىٰ تفسير الألفاظ في الآية الشّريفة فنقول قوله تعالىٰ: **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ** الخ.

إنّما أتىٰ **بالرّيب** دون الشكّ أي قال في **ريبٍ** ولم يقل في شكّ مع أنّهم كثيراً ما يفسّرون الّريب بالشكّ و بالعكس لانّ منشأ الرّيب قلق النّفس و إضطرابها والشكّ ليس كذلك و لذلك قالوا الشكّ إعتدال النقيضّين عند الإنسان و تساويهما و قالوا في تفسير الرّيب، أنّ تتوهّم بشيئٍ أمراً ما فينكشف عمّا تتوهّمه و حيث أنّ المنكرين في كون القرآن كلام اللّه تعالىٰ لم يعتدل النفيضّين أعني الوجود والعدم عندهم متساويان بل توهّموا أنّه من كلام المخلوق رأساً قال تعالىٰ: **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ** ففيه إيماء الىٰ أنّه لا ريب فيه واقعاً و سينكشف لكم خلاف توهّمكم و قوله مِمّا نزلنا علىٰ عَبدنا، حيث أتىٰ بكلمة العبد دون الرّسول، والنّبي فيه وجهان.

أحدهما: أنّ مقام العبوّدية فوق مقام الرّسالة والنبوّة و مقدّم عليهما إذ لو لم يَصير الإنسان عبداً لم يَصلَح للرسالة و النّبوة.

١- الكهف =١ ٢- النساء =١٠٥
٣- آل عمران =٣

قال اللّه تعالىٰ: **سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ**[٣]

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ** وغيرها من الأيات.

والوجه الثّانى: أنّهم أي المشركين المنكرين كانوا غير مُصدّقين برسالته و نبوّته و أمّا كونه عبداً له تعالىٰ ممّا لم ينكره أحَد فخاطبهم اللّه علىٰ طريق إعتقادهم لتكون الحجّة أبلغ و يُحتمل أن يكون التّعبير بالعَبد لِلإيماء الى أنّ الرّسول من جنس البَشَر و أنّه عبدٌ من عباد اللّه فلا تتعجّبوا في نزول القرآن عليه.

و في قوله:**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ**، إشارة الىٰ أنّ العاقل لا ينبغي له الإنكار من غير حجّةٍ و لا دليل و توضيحه أنّ القرآن لا يخلو حاله من وجهين لا ثالث لهما.

أمّا أن يكون من اللّه تعالىٰ بمعنىٰ أنّه كلامه أو ليس كذلك فأن كان الأوّل فلا مجال لإنكاره للعاقل و أن كان الثّاني فلا محالة يكون كلاماً للمخلوق إذ ما سواه تعالىٰ مخلوق له كائناً من كان وإذا كان كذلك فلا يخلو أمّا أن يكون كلاماً للنّبي أو أنّه كلام غيره من النّاس وعلىٰ كلا التقدّيرين لا يمتنع الإتيان به من غيره فأنّ حكم الأمثال واحد، **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ** فضلاً عن كلّه، **وَادْعُوا شُهَدَآءَكُمْ** أي إدعوهم الىٰ نصرتكم إن كنتم صادقين **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ** وفي هذا الكلام إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ لا يعذّب أحداً يوم القيامة إلاّ بعد إكمال الحجّة و إتّمامها عليه وذلك لأنّه تعالىٰ قال: **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ** و لا شكّ أنّ الحجّة

١- الاسراء =١ ٢- الكهف =١

٣- مريم= ٢

قد تمّت عليهم فليس لهم إلاّ الإقرار بكون القرآن من عند اللّه، أو العذاب المسّبب من الإنكار تعصّباً و عناداً، و في قوله تعالىٰ: **وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجارَةُ** إشارة الىٰ أنّ نار جهنّم حطبها الكفّار والمنافقين والمعاندين كأنّهم بسب أعمالهم و إعتقاداتهم في دار الدّنيا صاروا بمنزلة الحطب للنّار و أن شئت قلت أنّهم موّاد إحتراقها و امّا ذكر الحجارة بعد النّاس فقيل فيه وجوه.

أحدهما: أنّهما معاً و قودها.

ثانيهما: أنّ ذكر الحجارة دليل علىٰ عظيم تلك النّار.

ثالثها: أنّ أجسادهم تبقىٰ علىٰ النّار بقاء الحجارة التّي توقد بها النّار و يويّد ذلك قوله تعالىٰ:**كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ**[١]

رابعها: أنّهم يعذّبون بالحجارة المَحمية بالنّار، و في المقام وجه آخر ذكره بعض المفسّرين من العّامة و حاصله أنّ الحجارة جعلت معهم وقوداً لأنّهم قرّبوا أنفسهم بها في الدّنيا حيث نحتوها أصناماً و جعلوها لِلّه أنداداً و عبدوها من دونه قال تعالىٰ: **إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**[٢] و هذه مفسّرة لها فقوله: **إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ** في معنىٰ النّاس و الحجارة و حطب جهنّم في معنىٰ وقودها الىٰ آخر ما قال ولقائلٍ أن يقول هذا لو تَم فهو بالنسّبة الىٰ الكفّار الّذين نَحتوا الحجارة أصناماً و امّا غير هؤلاء الكفّار من المنكرين الّذين أنكروا اللّه و الرّسول وكانوا من سائر الفرق فلا تشملهم الأية.

أو أنّهم وقود النّاس وليست معهم حجارة لأنّهم لم ينحتوها أصناماً فليس إلاّ من التفسّير بالرأي أعاذنا اللّه عنه.

و أمّا قوله تعالىٰ: **أُعدّت النّار لهم** أن قلت فما وجه تخصيص النّار بالكافرين مع أنّ المنافقين والفاسقين أيضاً يدخلون فيها بلاكلام.

١- النساء =٥٦ ٢- الانبياء = ٩٨

قلتُ قالوا أنّ النّار الّتي أعدّت للكافرين نار مخصوصة بهم لا يدخل فيها غيرهم كما قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ** (١)

نقل هذا القول الطّبرسي ﷺ والأحسن أن يقال إثبات شيءٍ لشيءٍ لا ينفي إثباته لما عداه فقوله تعالىٰ: **أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ** لا ينافي كونها أُعِدَّتْ لغيرهم أيضاً، مع إمكان حمل الكافرين علىٰ معناه اللّغوي الّذي يشمل المنافق و الفاسق أيضاً لأنّ الكُفر في الأصل السّتر ألاّ أنّ مراتب الكُفر متفاوتة كما أنّ العذاب أيضاً كذلك.

■

١- النساء =١٤٥

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

◁ اللّغة

بَشِّرِ: أمر من البشارة وهي في الأصل يقال للخبر السّار على سبيل الحقيقة ولغيره على سبيل التّوسع والمجاز كما قال تعالى: **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**[1].

جَنَّاتٍ: جمع **جنّة** وهي البُستان وأصلها من **الجّن** وهو السّتر ومنه الجّن لتسترها عن عيون النّاس والجنون لأنّه يَستُر العقل والجنّة لأنّها تستر البدن، والجنين لتسّتره بالرّحم.

أَزْوَاجٌ: جمع **زوج** وهو يقال على الرجل والمرأة ويقال للمرأة **زوجة**.

خَالِدُونَ: من **الخلود** وهو الدّوام والبقاء وباقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ ، بَشّر فعل أمرٍ وفاعله مُستتر فيه والّذين موصول وهو مع صلته في موضع النّصب على المفعولية **وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** معطوف على، الّذين آمنوا وتقدير الكلام وبَشّر المؤمنين **أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ** تقديره بأنّ لهم جنّات فحذفت الياء وافضى الفعل الى، أنّ فنصب وأجاز الخليل أن يكون في موضع جرّ بالباء المحذوفة فعلى القول الأوّل موضع، أنّ، مع إسمه وخبره نصب.



١- آل عمران = ٢١

و علىٰ الثّاني في موضع جرٍّ، و لهم، خبر أنّ و جنّات، إسمه **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** الجملة في موضع نصب صفة للجنّات **الْأَنْهَارُ** مرفوعة.

بتجري، **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا** الىٰ قوله **مِنْ قَبْلُ** في موضع نصب علىٰ الحال من، الّذين آمنوا، تقديره مرزوقين علىٰ الدّوام **وَأُتُوا بِهِ** يجوز أن يكون حالاً و، قد، معه مرادٌ تقديره قالوا ذلك و قد اتوا به و يجوز أن يكون مستانفاً **مُتَشَابِهاً** حال من الهاء في، به، **وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** أزواج مبتدأ و، **لهم**، الخبر، **وفيها** ظرف لِلإستقرار و، فيها، الثّانية تتعلّق بقوله **خَالِدُونَ** و هاتان الجملتان مستأنفتان و قيل، الثّانية حال من الهاء والميم في لهم.

◁ التّفسير

إعلم أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ أمَر النّاس أوّلاً بالتّوحيد والعبادة فقال :**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ**.

ثانياً: بالاعتقاد بالنبوّة و الرّسالة من طريق القرآن الّذي هو كلام اللّه المُنزل علىٰ عبده فقال **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ومن المعلوم أنّ الإيمان بالنبوّة الّذي حَصل من القرآن يلزم الإيمان بما جاء به النبىّ و عليه فقد كمل الإيمان بحسب الإعتقاد لمن إعتقد باللّه والنبىّ و ما جاء به من عند اللّه فكأنّه قيل و ما جزاء من كان كذلك فقال تعالىٰ مخاطباً لنبيّه **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** أي وبَشّر الّذين آمنوا بقلوبهم باللّه و برسوله، **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** فيه إشارة الىٰ أنّ مجّرد الإيمان بالقلب لا يكفي بل لابّد له من العمل الصّالح الّذي به يتّم الإيمان المطلوب من الشّارح فمن آمن بقلبه و لسانه و لم يعمل عملاً صالحاً لا يكون من مصاديق الآية فالبشارة لا تشمله و هو دليل علىٰ أنّ العَمل جُزء الإيمان أو شرطه و ذلك لأنّ القيد و ان كان خارجاً عن المقيّد إلاّ أنّ التقييد داخل فيه كما قيل.

والحُـــصّة الكّـلي مُـقّيداً تـقّيدُ جـزءُ و قـيدُ خـارجـي

و قد ذكرنا سابقاً السّر فيه و هو أنّ الأثار تتّرتب علىٰ الوجود الخارجي والوجود الذّهني لا أثر له وحيث أنّ الإيمان لا يوجد في الخارج الاّ في قالب العمل فلا محالة يكون الأثر مُترتّباً عليه مقّيداً به و هذا هو السرّ في كون الإيمان مُقيّداً بالعَمل الصّالح في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْاٰخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَمّٰا مَنْ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَلَهُ جَزٰآءً اَلْحُسْنٰى**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **إِلّٰا مَنْ تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ اَلْجَنَّةَ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنّى لَغَفّٰارٌ لِمَنْ تٰابَ وَ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا ثُمَّ اَهْتَدٰى**(٤)

أَنَّ لَهُمْ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰارُ بمنزلت المُبشّر به أي بشّر المؤمنين الّذين يعملون عملاً صالحاً بأنّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار، أي من تحت أشجارها و مساكنها تجري الأنهار و النّهر لا يجري وأنّما يجري الماء فيه فنسبة الجرّي الىٰ النّهر من باب التوسّع مجازاً مثل جري الميزاب و جنّات جمع جنّة و هي مأخوذة من الجنّ و هو في الأصل ستر الشّئ عن الحّاسة يقال جنّه اللّيل و أجّنه و جنّة عليه فجنّه، ستره و الجنّة كلّ بستانٍ ذي شجرٍ يستر بأشجاره الأرض وقد تسمّىٰ الأشجار السّاترة جنّة و سميت الجنّة أبّىٰ تشبيهاً بالجنّة في الأرض و أن كان بينهما بون بعيد و امّا لستره نِعَمها عنّا المُشار اليها بقوله تعالىٰ:**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مٰآ أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**(٥) قال أبن عبّاس أنّما قال تعالىٰ جنّات بلفظ الجمع لكون الجنّان سبعاً.

١- البقرة= ٦٢
٢- الكهف= ٨٨
٣- مريم= ٦٠
٤- طه= ٨٢
٥- السجدة =١٧

جنّة الفردوس، وجنّة عدن، وجنّة النّعيم و دار الخلد، و جنّة المأوىٰ و دار السّلام و عليّين، **كُلَّمٰا رُزِقُوا مِنْهٰا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قٰالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنٰا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشٰابِهاً** أي كلّما رزقوا من الجنات أي من أشجارها والتقدّير كلّما رزقوا من أشجار البساتين الّتي أعدها اللّه لِلمؤمنين **مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً** الرّزق عبارة عمّا يصحّ الإنتفاع به و لا يكون لأحدٍ المنع منه والمعنىٰ كلّما أطعموا منها طعاماً **قٰالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنٰا مِنْ قَبْلُ** قيل أنّ ثمار الجنّة إذا جُنيت من أشجارها عاد مكانها مثلها فيشتبه عليهم فيقولون هذا الّذي رزقنا من قبل.

و قيل معناه هذا الّذي رزقنا من قبل في دار الدّنيا بسبب الإيمان والأعمال الصّالحة، و قيل معناه أنّ هذه الثمرّة هي الّتي وعدنا اللّه بها في الدّنيا و قيل معناه، هذا الّذي رزقنا من قبل في الجنّة أي كالّذي رزقناهم يعلمون أنّه غيره و لكنّهم شبهّوه به في طعمه و لونه و ريحه و طيبه وجودته **وَأُتُوا بِهِ مُتَشٰابِهاً** أي جيئوا به متشابهاً، حال من الظّمير في، به، أي يشبه بعضه بعضاً في المنظر و يختلف في الطّعم.

و قال عكرمه يشبه ثمر الدّنيا و يباينه في جلّ الصفات و ليس في الدّنيا شئ ممّا في الجنّة سوىٰ الأسماء فكأنّهم تعجّبوا لمّا رأوه من حسن الثّمرة و عظم خلقها.

و قال قتادة خياراً لا رذل فيه كقوله تعالىٰ: **كِتٰابًا مُتَشٰابِهًا** و ليس كثمار الدّنيا الّتي لا تتشابه لأنّ فيها خياراً وغير خيار، فأن قيل التشابه هو التماثل في الصّفة و هو مفقود بين ثمرات الدّنيا والأخرة كما نقل عن إبن عبّاس أنّه قال ليس في الجنّة من أطعمة الدّنيا إلاّ الأسماء، قلت التّشابه بينهما حاصل في الصّورة و هو يكفي فى الصّدق.

و قال بعض المحققين من العّامة في المقام أنّ مستلّذات أهل الجنّة في

مقابلة ما رزقوا في الدّنيا من المعارف والطّاعات متفاوتة في اللّـذة بـحسب تفاوتها فيحتمل أن يكون المراد من هذا الّذي رزقنا من قبل أنّه ثوابه و مـن تشابهها تماثلها في الشّرف والمزّية وعلّو الطبقة فيكون هذا في الوعد نـظير قوله تعالىٰ: **ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1] انتهىٰ.

و قد روت العّامة عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال والّذي نفس محمّد بيده أنّ الرجل من أهل الجنّة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي بواصـلةٍ الىٰ فـيه حتّىٰ يبدّل اللّه مكانه مثلها فإذا أبصروها والهّيئة هيئة الأولىٰ قـالوا ذلك إنتهىٰ.

هذا ما قيل في تفسير الآية الىٰ هنا و امّا قوله: **وَّلَهُمْ فِيهَآ اَزْوٰاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَّهُمْ فِيهٰا خٰالِدوُنَ** فقيل هي الحور العين و قيل هُنّ من نساء الدّنيا إلاّ أنى طهرنّ من قذراتها، مطهّرة، قيل في الأبدان والأخلاق والأعمال و لا يحضن و لا يلدن و لا يتّغوطن و لا يبلن قد طهرن من الأقذار والأثام و هو قول جماعة من المفسّرين نقله الطّبرسي قدس سره في المجمع، و هم فيها خالدون، أي في الجنّة خالدون دائمون يبقون ببقاء اللّه لإنقطاع لبقائهم و لا نفاد لأنّ النّعمة لا تتم إلاّ بالخلود والبّقاء وما ليس كذلك فهو ناقص والخلود هو الدّوام من وقت مبتدأ و لهذا لا يقال اللّه خالد لأنّه لا إبتداء لوجوده، فأن قلت فـهلاّ جـاءت الصّـفة مجموعة كما في الموصوف.

قلت هما لغتان فصيحتان يقال النّساء وهّن فـاعلات و فـواعـل والنّسـاء فعلت و هي فاعلة و منه بيت الحماسة.

وإذا العـذارىٰ بـالدّخان تـقنّعت   وأستعجلت نصب القدور فملّت

والمـعنىٰ وجـماعة أزواج مـطهّرة، و قـرأ زيـد بـن عـلّي، مـطهّرات قـاله الزّمخشري في الكشّاف إنتهىٰ.

١- العنكبوت = ٥٥

ولنختم الكلام في تفسير الآية بذكر رواية رواها المجلسي ﷺ في المجلّد الثّالث من البحار[1] في تفسير الآية الشّريفة، قال: **وَبَشِّرِ الَّذِينَ اٰمَنُوا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ** أي من تحت شجرها و مساكنها **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ** من ثمارها طعاماً يؤتون به **قَالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ** في الدّنيا فأسماءُه كأسماء ما في الدّنيا من تفاحٍ و سفرجلٍ و رّمان و كذا و كذا و أن كان ما هناك مخالفاً لما في الدّنيا فأنّه في غاية الطّيب وأنّه لا يستحيل الىٰ ما يستحيل اليه ثمار الدّنيا من عذرة و سائر المكروهات من صفراء و سوداء و دمّ بل لا يتولد من مأكولهم إلاّ العَرق الّذي يجري من أعراضهم أطّيب من رائحة المسك **وأُتوا به** بذلك الرّزق من الثمار من تلك البساتين متشابهاً يشبه بعضه بعضاً بأنّها كلّها خيار لا رذل فيها وبأنّ كلّ صنفٍ منها في غاية الطّيب واللّذة ليس كثمار الدّنيا بعضها متجاوز حدّ النّضج والإدراك الىٰ حدّ الفساد من حموضةٍ ومرارةٍ و سائر ضروب المكاره متشابهاً أيضاً متّفقات الألوان مختلفات الطعوم **وَلَهُمْ فِيهَا اَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** من أنواع الأقذار والمكاره مطّهرات من الحيض والنّفاس لا ولاّجات و لا خواجات و لا ختّالات ولا متغايرات ولا لأزواجهّن فِركات و لاضحايات و لا عيابات و لا فحاشات و من كلّ المكاره و العيوب برّيات **وهم فيها خالدون** أي مُقيمون في تلك البساتين والجنّات انتهىٰ.

وأنا أقول اللّهم ارزقنا من ثمارها و مساكنها و أزواجها و اجعلنا فيها خالدين بحقّ محمّدٍ وأله الطّاهرين أمين.

■

١- ط كمباني ص ٣٣١

إِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِي اَنْ يَّضْرَبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمٰا فَوْقَهٰا فَاَمَّا الَّذيِنَ اٰمَنُوا فَيَعْلَمُونَ اَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ وَ اَمَّا الَّذيِنَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مٰاذآ اَرٰادَ اللّٰهُ بِهٰذٰا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثيِراً وَّيَهْدي بِهِ كَثيِراً وَّمٰا يُضِلُّ بِهِ اِلاَّ الْفٰاسِقيِنَ ﴿٢٦﴾

◁ اللّغة

يَسْتَحيِي:فعل مضارع من إستَحىٰ و هو مأخوذ من **الحَياء** و هو إنحصار النّفس وإنفعالها من إأرتكاب المحرّمات الشّرعية والعقلية والعادّية حَذراً من الذّم واللّوم.

بَعُوضَةً: بفتح الباء واحدة **البَعُوض** الّذي هو صغار البَق وإشتقاقها من **البَعض** لأنّها كبعض البقّة و هي علىٰ خلقة الفيل إلاّ أنّها أكثر أعضاءً كما سيأتي.

الحقّ: ضدّ الباطل والباقي واضح.

◁ الإعراب

اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِي اَنْ يَّضْرَبَ تقديره من أن يَضرب فموضع **اَنْ يَّضْرَبَ** نصب عند سيبويه و جرٌّ عند الخليل **ما** حرف زائد للتّوكيد **بَعُوضَةً** بدلٌ من، مثلاً فنصبه علىٰ البدّلية للمفعول، ما، نكرة موصوفة **بَعُوضَةً** بدل من ما و يقرأ شاذاً، بعوضة، بالرّفع علىٰ أن تجعل، ما، بمعنىٰ الّذي، و يحذف المبتدأ أي الّذي هو بعُوضة **فَمٰا فَوْقَهٰا** الفاء للعطف وما، نكرة موصوفة أو بمعنىٰ، الّذي، والعامل في فوق، علىٰ الوجهين الإستقرار والمعطوف عليه البعُوضة، **فَاَمَّا الَّذيِنَ اٰمَنُوا** أمّا حرف شرطٍ و قيل نابَ عن حرف الشّرط وفعل الشّرط، و يقع

الإسم بعده مبتدأ و تلزم الفاء خَبره والأصل مهما يكن من شئ فالّذين أمنوا يعلمون مِنْ رَّبِّهِمْ في موضع نَصبٍ علىٰ الحال والتقدّير أنّه ثابت أو إستقرّ من ربّهم و العامل معنىٰ الحقّ و صاحب الحال الضمّير المستتر فيه مٰاذٰا اَرٰادَ اللّٰهُ في، ماذا قولان.

أحدهما: **ما** إسم للإستفهام موضعها رفع بالإبتداء و ذا، بمعنىٰ الّذي و أراد، صلة له و العامل محذوف وصلته خبر المبتدأ.

ثانيها: أنّ **ما**، و ذا، إسم واحد للإستفهام وموضعه نصب، بأراد، و لا ضمير في الفعل والتقدّير أيّ شئٍ أراد اللّه، مثلاً، تمييز أي من مثل و يجوز أن يكون حالاً من هذا، أي متمثّلاً بهٖ فيكون حالاً من إسم اللّه، **يُضّل** في موضع نَصب صفة للمثل و يجوز أن يكون حالاً من إسم اللّه، و يجوز أن يكون مستأنفاً اِلاّ الْفٰاسِقِينَ مفعول، يضلّ، و ليس بمنصوبٍ علىٰ الإستثناء كما قيل لأنّه لم يستون مفعوله قبل إلاّ.

◁ التّفسير

إعلم أنّ المقصود من ضرب الأمثال أنّها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشّئ نفسه و ذلک لأنّ الغرض منه تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشّاهد فيتأكد الوقوف علىٰ ماهيته و يصير الحسّ مطابقاً للعقل و ذلک هو النّهاية في الإيضاح ألا ترىٰ أنّ الترغّيب اذا وقع في الإيمان مجرّداً عن ضرب المَثَل له لم يتأكّد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه اذا مثل بالنّور و هكذا في الكفر لم يتأكد قُبحه في العقل والنّفس كما يتأكد اذا مثّل بالظّلمة و اذا أخبر بضعف أمرٍ من الأمور و ضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلک أبلغ في تقرير صورته من الأخبار بَضعفه مجرّداًعن المثل ولهذا أكثر اللّه تعالىٰ في كتاب المبين أمثاله:

قال اللّه تعالى: **وَ تِلْكَ اَلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ وَ مٰا يَعْقِلُهٰآ إِلَّا اَلْعٰالِمُونَ**[1]

١- العنكبوت= ٤٣

قال اللّه تعالى: **وَ يَضْرِبُ ٱللّهُ ٱلْأَمْثٰالَ لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**[١]

قال اللّه تعالى: **وَ تِلْكَ ٱلْأَمْثٰالُ نَضْرِبُهٰا لِلنّٰاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**[٢]

وغيرها من الأيات إذا عرفت هذا فنقول.

اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِيٓ اَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مّٰا بَعُوضَةً فَمٰا فَوْقَهٰا قيل في شأن نزول الآية أنّ اللّه تعالىٰ لمّا ضرب المثلين قبل هذه الآية للمنافقين يعني قوله: **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نٰاراً** و قوله:**اَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمٰٓاء**، قال المنافقون أنّ اللّه أعلىٰ وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال فأنزَل هذه نقل هذا القول عن إبن عباس و ابن مسعود وروي عن قتادة والحسن، لما ضرب اللّه المثل بالذّباب و العنكبوت تكلّم فيه قوم من المشركين و عابوا ذكره فأنزل اللّه هذه الآية نقله الطّبرسي في المجمع و قال بعض العّامة أنّه تعالىٰ لمّا بيّن بالدّليل كون القرآن معجزاً أورد هاهنا شبهة أوردها الكفّار قَدحاً في ذلك و أجاب عنها وتقريرها أنّه جاء في القرآن ذكر النّحل والذّباب والعنكبوت والنّمل و هذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء فإشتمال القرآن عليها يقدّح في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً فأجاب اللّه تعالىٰ عنه بأنّ صِغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة إذاكان ذكرها مشتملاً علىٰ حكم بالغة فهذا هو الإشارة الىٰ كيفيّة تعلّق هذه الآية بما قبلها انتهىٰ، وكيف كان فلنرجع الىٰ تفسير الكلمات في الآية فقوله: **اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِيٓ** قد مرّ معنىٰ الحياء في شرح اللّغات و هو إنحصار النّفس و انفعالها، و قيل في معنىٰ الحياء هو إنكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به و يذّم وعلىٰ التقديرين إستحال الحياء علىٰ اللّه تعالىٰ لأنّه تغيرٌ يلحق البدن و ذلك لا يعقل إلاّ في الجسم واللّه تعالىٰ منزّه عن ذلك فكيف نُسِبَ اليه تعالىٰ و قد أجيب عنه بوجوه:

١- إبراهيم= ٢٥ ٢- الحَشر= ٢١

أحدها: ما ذكره الطّبرسي ﷺ في تفسيره لهذا الكلام فأنّه قال أي لا يدع و قيل لا يمتنع إلاّ أن قال و معناه أنّ اللّه لا يدع ضرب المثَل بالأشياء الحقيرة لحقارتها إذا رأىٰ. الصّلاح في ضرب المثل بها.

ثانيها: ما ذكره أيضاً و هو أنّ الّذي يستحي منه ما يكون قبيحاً في نفسه و يكون لفاعلّيته عيبٌ في فعله فأخبر اللّه أنّ ضرب المثل ليس بقبيح و لا عيبّ حتّىٰ. يستحي منه.

ثالثها: ما ذكره أيضاً و هو أنّ الحياء بمعنىٰ الخشية فيه تعالىٰ والمعنىٰ أنّ اللّه لا يخشىٰ أن يضرب مثلاًكما قال: **وَ تَخْشَى ٱلنَّاسَ وَ ٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَيٰهُ**(١) أي تستحي النّاس واللّه أحقّ أن تستحيه فالإستحياء بمعنىٰ الخشية هناكما أنّ الخشية بمعنىٰ الإستحياء هناك انتهىٰ.

رابعها: ما روي عن علّي إبن عسىٰ أنّ معنىٰ الآية لا يحل ضـرب المـثل بالبعوض محلّ ما يستحى عنه.

خامسها: ما ذكره بعض العّامة في تفسيره و هو أنّ هذه العبارة وقع في كلام الكفّار في الأصل واللّه تعالىٰ نقلها منهم و ذلک لأنّهم قالوا أما يستحي ربّ محمّدٍ أن يضرب مثلاً بالذّباب و العنكبوت فجاء هذا الكلام علىٰ سبيل إطباق الجواب علىٰ السؤال و هذا فن بديع من الكلام و طراز عجيب و منه قول أبي تمام.

مِـن مـبلغٍ أفـناء يـعرب كـلّها   أنّـي بـنيّت الجار قـبل المـنزل

و من المعلوم أنّ بناء الدّار قبل الجار فلولا بناءها لم يصّح بناؤه والأقوال كثيرة إلاّ أنّها قريبة المأخذ لا فائدة في إستقصائها وإطالة الكلام بذكرها والّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكار مضافاً الىٰ ما ذكروه هو أنّ كلّ صفةٍ من صفات العبد لها مَبدأٌ و منتهىٰ و نعني بالمنتهىٰ الغاية و المَقصد و بعبارةٍ أخرىٰ لها

١- الاحزاب =٣٧

غايات و نهايات فأنّ الغضب مثلاً مبدأه غليان دم القلب و غايته الإنتقام من المغضوب عليه بإجراء العذاب عليه فاذا أنسب هذه الصّفة مثلاً الىٰ اللّه تعالىٰ كما قال صلى الله عليه وآله وسلم **أنّ اللّه لِيَغضب لغَضَب فاطمة ويَرضىٰ لرضاها** فالمقصود أنّ اللّه تعالىٰ ينتقم و يجري العذاب علىٰ من كان مبغوضاً لها و امّا مَبدأ الغضب فلا يطلق عليه اذ غليان الدّم لا يكون إلاّ لمن كان جسمٌ و دَمٌ و امّا ما لا جسم له فلا دَم له فلا غليان له و هكذا فيما نحن فيه فأنّ مَبدأ الحياء تغير و إنكسار و هو من لوازم الجسم و غايته و نهايته ترك الفعل لئلا يَنسب الىٰ القبيح فاذا قيل أنّ اللّه حَى كريم معناه أنّ يترك الفعل و هذا ممّا لا إشكال فيه اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالىٰ: **اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِيٓ اَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً** معناه لا يترك المثل اذا كان فيه صلاحٌ لِلنّاس و أن كان الممثل به حقيراً ضعيفاً اذا الغَرض من المثل تفهيم المخاطب و هو حاصل و لأجل ذلك أطبق العَرَب والعَجم علىٰ ذكر الأمثال في كلماتهم و أشعارهم بل دونّوا في الأمثال كُتباً مستقّلة نحو الحِكَم والأمثال، و مجمع الأمثال و غيرهما بل الحقّ أنّ بعض المسائل العقلّية ممّا له غموض لا يمكن تفهيمها إلاّ بالمثل ليكون أوقع في نفس المخاطب و بالجملة أساس التّفهيم والتشفّهم في المحاورات والتخاطب علىٰ ذكر الأمثال في أكثر الموارد والقرأن ليس بمستثنىٰ منه ولذلك ترىٰ فيه الأمثال كثيراً فقد مَثل اللّه تعالىٰ في المقام بالبَعوضة و قال: **اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِيٓ اَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَما فَوْقَهَا** وأنّما خصّ اللّه البَعُوضة بالذكر في المقام لأنّها صغيرة جدّاً بالنّظر الىٰ جسمه وكبيرة جدّاً بالنّظر الىٰ أسرار الخلقة المّودّعة فيها فهي صغيرة ضعيفة ظاهراً كبيرةً عجيبة واقعاً و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ خلق فيها علىٰ صغر حجمها جميع ما خلق في الفيل مع كَبره وعظم جثته إلاّ أنّها أكثر أعضاءً منه فأنّ للفيل أربَعة أرجل و خرطوماً و ذَنباً و لها مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان فلها ستّة أرجل و للفيل أربعة ثمّ لها

أربعَة أجنحة و ليس للفيل جناح، و خُرطوم الفيل مصمّت و خُرطوم البعوضة أعني بها، البقّ، مجوّف فاذا طعن به جسد الإنسان إستسقىٰ الدّم و قذف به الىٰ جوفه فهو له كالبلعوم والحُلقوم بل قيل أنّ خرطُومه مع صغر جثّته يغوص في جلد الفيل و الجاموس علىٰ ثخانته كما يعرف الرّجل إصبعه في الخبيص و ذلك لِما ركّب اللّه في رأس خرطُومه من السَّم و امّا قوله تعالىٰ **فَمَا فَوْقَهَا**، أي ما فوق البعوضة يُحتمل فيه أمران:

أحدهما: أن يكون المراد ما فوق البعوضة في القلّة والحقارة.

ثانيها: أن يكون المراد ما فوقها في الحجم وعظم الجثّة فعلىٰ الأوّل معنىٰ الأية **اِنَّ اللّٰهَ لاٰ يَسْتَحيِيَ** أي لا يترك **اَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مّٰا بَعُوضَةً فَمٰا فَوْقَهٰا** في صِغر الحجم والحقارة و علىٰ الثّاني يكون المراد أنّ اللّه لا يستحي الىٰ قوله فما فوق أي ما فوق البعوضة كالعنكبوت والنّمل مثلاً و لنعم ما قيل:.

يامن يرىٰ قَدّ البعوض جناحها ... في ظلمة اللّيل البهيم الألَيل
ويرىٰ عروق نياطها في بَخرها ... والمُخّ في تلك العظام النّحل
إغفر لعبدٍ تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزّمان الأوّل

أيضاً:

لا تحقرّن صغيراً في عداوته ... أن البعوضة تدمي مقلة الأسد

قال الدّميري في حياة الحيوان ما لفظه، البعوض دونية قال الجوهري أنّه ألبقّ، الواحدة بعوضة و هو وهم والحقّ أنّه صنفان و هو يشبه القراد لكن أرجله خفيفة و رطوبته ظاهرة وسُمّي بالعراق والشّام الجرجس قال الجوهري و هو لغة في القِرقس انتهىٰ.

حيث إنجّر الكلام الىٰ البعُوضة وقد ضرب اللّه تعالىٰ بها المثل فلا بأس بالإشارة الىٰ بعض خصوصياتها و ما أودع اللّه تعالىٰ في هذه الدّويبة الصّغيرة فأنّ فيها تنبيهٌ للعاقل و تذكير للمتدبر وتوحيد لِلمتوّحد قال الدّميري و ممّا

ألهمه اللّه تعالىٰ أنّه اذا جلس علىٰ عضوٍ من أعضاء الإنسان لا يزال يتوّخىٰ بخرطومه المسام الّتي يخرج منها العرق لأنّها أرَّق بشرةً من جلد الإنسان فاذا وجدها وضع خرطومه فيها و فيه من الشّره أن يمصّ الدّم الىٰ أن ينشقّ ويموت أو الىٰ أن يعجز عن الطّيران فيكون ذلك سبب هلاكه ومن عجيب أمره أنّه ربما قتل البعير و غيره من ذوات الأربع فيبقىٰ طريحاً في الصّحراءفتجمع السّباع حَوله والطّير التّي تأكل الجيف فمن أكل منها شيئاً مات لِوقته وكان بعض الجبابرة من الملوك بالعراق يعذّب بالبعوض فيأخذ من يريد قتله فيخرجه مجرّداً الىٰ بعض الأجسام الّتي بالبطائح و يتركه فيها مكتوفاً فيقتل في أسرع وقت و أقرب زمان و ما أحسن قول أبي الفتح البستي في هذا المعنىٰ حيث قال:

لا يستخفنّ الفتىٰ بعداوةٍ — أبداً وأن كان العَدّو ضيئلاً
أنّ القَذىٰ يؤذي العيون قليله — ولربّما جَرح البعوض الفيلا

و قال بعضهم:

ولا تحقّرن عدّواً رماك — وأن كان في ساعَديه قَصِر
فأنّ الحسام يخرّ الرّقاب — و يعجز عمّا تنال الإِبَر

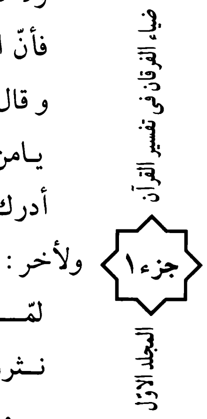
و قال:

يامن لبست عليه أثواب الضّنا — صفراً مُوشّحة بحمر الأدمع
أدرك بقية مهجةٍ لو لم تذب — أسفاً عليك رميتها عن أضلعي

ولأخر:

لمّا وقفنا للوداع وصارماً — كنّا نظنّ مِن النّوىٰ تحقيقاً
نثروا علىٰ ورق الشّقائق لؤلؤاً — ونثرت من ورق البحار عَقيقاً

وقد رُوي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بطرق الخاصّة والعامّة أنّه قال لو كانت الدّنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ماسقىٰ منها كافراً شربة ماء.



في هذا المعنىٰ قال الشّاعر:

اذا كـــــان شـــئ لا يســـاوي جـــميعه
جـــناح بـــعوضٍ عـــند مـــن كـــنتَ عـــبده
وإســـفل جـــزءٍ مـــنه كـــلّك بـــالّذي يكـــون
عـــــلىٰ ذا الحـــــال قـــــدرك عـــــنده

و قد أطال الدّميري في حياة الحيوان الكلام فيها وتكلم الغزالي أيضاً في كتاب الأحياء فَمن أراد الإطلاع عليها والوقوف علىٰ خصوصّياتها فعليه بـالكتابين المذكورين وغيرهما من الكتب المّدّونة في هذا الفنّ والحمد لِلّه علىٰ كـلّ حال.

و أمّا قوله تـعالىٰ: **فَاَمَّا الَّذينَ اٰمَنُوا فَيَعْلَمُونَ اَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ** الىٰ أخر الأية. فحاصل الكلام فيه هو أنّ اللّه تعالىٰ قسم النّاس الىٰ قسمين مؤمن، وكافرٌ.

ثمّ قال تعالىٰ أنّ المؤمنين باللّه و برسوله فيعلمون أنّ هذا المَثل حـقّ لا مرية فيه فقال فأمّا الّذين أمنوا الىٰ قوله الحقّ، و امّا الكافرين فقد قالوا ماذا أراد اللّه بهذا المثَل الّذي يضلّ به كثيراً فقال تعالىٰ في جواب الكفّار و ما يضلّ به إلاّ الفاسقين لأنّهم يقولون هذا ليس من عـند اللّـه فـيضلّون بسـببه و مـعنىٰ الإضلال تشديد الإمتحان الّذي يكون عنده الضّلال و ذلک بأن ضَرب لهـم الأمثال لأنّ المِحنَة اذا إشتدّت علىٰ الممتحن فضّل عندها سمّيت إضلالاً و اذا سهلت فإهتدىٰ عندها سمّيت هداية فالمعنىٰ أنّ اللّه يمتَحن بهذه الأمثال عباده فيضّل بها قوم كثير و يهدي بها قوم كثير.

■

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مٰا اَمَرَ اللّٰهُ بِهِۤ اَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْاَرْضِ اُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

◁ اللّغة

النّقض: فى الأصل إنتشار العقد من البناء والحبل والعقد و هو ضدّ الإبرام يقال نَقضت البناء والعقد والحبل و من نقض العقد والحبل إستعير نقض العهد.

عَهْدَ اللّٰهِ: العَهد مصدر معناه حفظ الشّئ و مراعاته حالاً بعد حالٍ.

مِيثٰاقِهِ: الميثاق بكسر الميم أصله مِوثاق لأنّه مفعال من وثق و الميثاق في الأصل حبل أو قيدٌ يشد به الأسير والدّابة صارت الواو ياء لإنكسار ما قبلها والجمع المَواثيق.

يُفْسِدُونَ: فَسَد الشّئ فَسوداً من باب، قعد فهو فاسد والإسم منه الفساد و هو خروج الشّئ عن الإعتدال.

الْخٰاسِرُونَ: الخُسر والخسران إنتقاص رأس المال و ينسب ذلك الىٰ الإنسان فيقال خبر فلان، و الىٰ الفعل فيقال خسرت تجارته و يستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدّنيا و هو الأكثر في المقتنيات النفسّية كالصّحة والسّلامة والعقل والإيمان والثّواب و هو الّذي جعله اللّه تعالىٰ الخسران المبين.

◁ الإعراب

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ في موضع نصب صفة للفاسقين ويجوز أن يكون نصباً بإضمار، أعني وأن يكون رفعاً علىٰ الخبر والمبتدأ محذوف أي هُم

الّذين وفاعل الفعل مستتر فيه، **عَهْدَ اللّٰهِ** مضاف ومضاف اليه في موضع المفعول **مِنْ بَعْدِ** من لابتداء غاية الزّمان علىٰ رأي من أجاز ذلك وزائدة علىٰ رأي من لم يجزه **ميثاقه** مجرور بإضافة، بعد اليه، والضّمير يرجع الىٰ اللّه، أو الىٰ العَهد **وَيَقْطَعُونَ** عطف علىٰ ينقضون.

مٰا اَمَرَ اللّٰهُ، ما بمعنىٰ، الّذي و يجوز أن يكون نكرة موصوفة و محلّه النّصب علىٰ المفعولّية و، أمَرَ، فعل واللّه فاعله و **الهاء** تعود الىٰ **ما. اَنْ يُوَّصَلَ** في موضع جرٍ بدلاً من الهاء أي يوصله و يجوز أن يكون بَدلاً من ما، بدل الإشتمال تقديره ويقطعون وصَل ما أمَرَ اللّه به ويجوز أن يكون في موضع رفع أي هو أن يُوصل **أولئك** مبتدأ و، هم، مبتدأ ثانٍ أو فصل و، **الخاسرون**، خبره.

◁ التّفسير

وصف اللّه تعالىٰ الفاسقين في قوله في الآية المتقدّمة **وَمٰا يُضِلُّ بِهِ اِلاَّ الْفٰاسِقِينَ**، بنقض العَهد بعد الميثاق فقال: **اَلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ ميثٰاقِهِ**، ويقطع **مٰا اَمَرَ اللّٰهُ بِهِ اَنْ يُّوصَلَ**، وبالفساد في الأرض ثالثاً ثمّ حَكَم عليهم بأنّهم **هُمُ الْخٰاسِرُونَ** فالكلام في ثلاث مسائل:

المسألة الأولىٰ: في نقض العَهد.

الثّانية: في قَطع **مٰا اَمَرَ اللّٰهُ بِهِ اَنْ يُّوصَلَ**

الثّالثة: في الفساد في الأرض و خاتمة البحث في الخُسران و يظهر من الشّريفة أنّ الفاسق موصوف بها جميعاً و أنّها من علائم الفسق و أنّ المؤمن لا يوصف بها و هو كذلك و نحن نتكلّم فيها فنقول:

المسألة الأولىٰ: في نقض العهد و لاشكّ أنّه مَذمُومٌ عقلاً و شرعاً،

أمّا العقل: فلأنّ العقلاء قد أطبقوا قديماً و حديثاً مسلماً أو كافراً شيخاً أو شابّاً ذكوراً أو إناثاً علىٰ حسن الوفاء بالعهد و قبح نقضه ونكثه و لم يرتابوا فيه أبداً و يكفيك في إثبات المدّعىٰ أنّ النّاس يذّمون و ينكرون علىٰ كلّ ناقض

العَهد كائناً من كان و هو واضح.

أمّا شَرعاً: فالأيات الواردة والأخبار المأثورة في ذَمّه:

قال اللّه تعالى: **وَ لا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهٰا** (١)

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ**(٢)

قال اللّه تعالى: **فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآيٰاتِ ٱللّٰهِ**(٣)

قال اللّه تعالى: **فَبِمٰا نَقْضِهِمْ مِيثٰاقَهُمْ لَعَنّٰاهُمْ وَ جَعَلْنٰا قُلُوبَهُمْ قٰاسِيَةً**(٤)

و أمثالها من الأيات الواردة في الباب ومن الأخبار:

ما رواه المجلسي قدّس سرّه في البحار بأسناده عن أبي مالك قال: قلت لعلّي ابن الحسين أخبرني بجميع شرائع الدّين قال عليه السلام: أقول الحقّ، والحكم بالعَدل، والوَفاء بالعهد.

و بأستاده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: ثلاثة لا عُذر فيها لأحدٍ أداء الأمانة الىٰ البّر والفاجر والوفاء للعهد للبّر والفاجر و برّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين.

و بأسناده عن الرّضا عليه السلام عن أباءه قال رسول اللّه من عامل النّاس فَلم يظلمهم و حَدَّثهم فلم يكذبهم و وعدهم فلم يخلفهم فهو ممّن كملت مروّته و ظهرت عدالته و حرمت غَيبته انتهىٰ.

و بأسناده عن الصّادق عليه السلام عن أباءه قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: أقَربكم منّي عداً في الموقف أصدقكم للحديث و أداء الأمانة و أوفاكم بالعَهد الحديث.

و بأسناده عن موسىٰ ابن جعفر عليه السلام عن أباءه قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: لا دين لِمن لا عهد له انتهىٰ(٥)

١- النّحل= ٩٢
٢- الأنفال= ٥٦
٣- النّساء= ١٥٥
٤- المائدة= ١٣
٥- ج ١٦ ط كمباني ص ١٤٦

ثمّ أنّهم إختلفوا في معنىٰ العَهد والمراد به في الآية الشّريفة علىٰ وجوهٍ:

أحدها: أنّ المراد به ماركب في عقولهم من أدلّة التّوحيد و العدل و تصديق الرّسل و ما إحتّج به لرسله من المعجزات و نقضهم لذلك تركهم الإقرار بما قد بينت لهم صحّته بالأدلة.

ثانيها: أنّه وصيّة اللّه الىٰ خَلقه علىٰ لسان رسوله بما أمرهم به من طاعته و نهاهم عنه من معصية و نَقضهم لذلك تركهم العمل به.

ثالثها: أنّ المراد به أهل الكتاب من الكفّار والمراد بعَهد اللّه الّذي نقضوه من بعد ميثاقه هو ما أخذه عليهم في التّوراة والإنجيل من إتّباع محمّد والتصدّيق بما جاء به من عند ربّه و نقضهم لذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته و كتمانهم ذلك عن النّاس بعد أن أخَذ اللّه ميثاقهم ليبيّنه للنّاس و لا يكتمونه و أنّهم أن جاءهم نذير أمنوا به فلمّا جاءهم النّذير إزدادوا نفوراً و نَبذوا العهود وراء ظهورهم و إشتروا به ثمناً قليلاً.

رابعها: أنّه العهد الّذي أخذه عليهم حين أخرجهم متن صلب آدم كما وردت به القّصة و هذه الوجوه الأربعة نقلها الطّبرسي ﵀ في تفسيره.

و قال البيضاوي و قيل عهود اللّه ثلاثة:

عهد أخذه علىٰ جميع ذرّية آدم بأن يقّروا بربوبيّته وعهد أخذه بأن يقيموا الّدين و لا يَتفرقوا فيه.

وعهد أخذه علىٰ العلماء بأن يبيّنوا الحقّ و لا يكتموه انتهىٰ.

و قال الزّمخشري في الكشّاف فأن قلت فما المراد بعهد اللّه قلت ما ركز في عقولهم من الحجّة علىٰ التّوحيد كأنّه أمَر و وصاهم به و وثقه عليهم و هو معنىٰ قوله تعالىٰ : **وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ**[1] أو أخذ الميثاق عليهم أنّهم اذا بُعث اليهم رسول يُصّدقه اللّه بمعجزاته صدّقوه

١- الاعراف = ١٧٢

وإتّبعوه و لم يكتموا ذكره فيما تقدّمه من الكتُب المنزلّة عليهم كقوله تعالىٰ:**اَوْفُوا بِعَهْديٓ اُوفِ بِعَهْدِكُمْ**.

الىٰ أن قال و قيل هو أخَذ اللّه العَهد عليهم أن لا يسفكوا دماءهم و لا يبغي بعضهم علىٰ بعضٍ و لا يقطعوا أرحامهم انتهىٰ.

أقول هذه الوجوه كلّها ممّا لا بأس به والّذي يختلج بالبال بقرينة المقام هو أنّ المراد بالعَهد، العَهد المأخوذ بالعقل الّذي جَعَله اللّه حجّة باطنة قائمة علىٰ عباده الدّالة علىٰ وجوده و وحدته و صدق رسله و لازم ذلك أن يكون العَبد مطيعاً لِلّه ولِرسوله في أوامره و نواهيه و حيث أنّ الفسق يوجب الخروج عن هذا العَهد فلا محالة يكون الفاسق ممّن ينقض عهد اللّه ولأجل هذه الدّقيقة صارت الآية بمنزلة الصِّفة للفاسقين وفي هذا إشعار بأنّ الفاسق ناقض للعَهد لا محالة وأن شئت قلت كلّ فاسقٍ ناقض للعَهد وكلّ ناقضٍ فهو فاسق اذ المؤمن لا ينقضه أبداً و قوله تعالىٰ من بعد ميثاقه، مشعر بأنّ الميثاق في بمعنىٰ المصدر و من، للإبتداء و عليه فإبتداء النَّقض بعد الميثاق لا قبله و امّا علىٰ قول من جعل الميثاق إسماً لما يقع به الوثاقة وهيّ الأحكام فالمراد به ما وثق اللّه به عهده من الأيات والكتب الخ.

و ما ذكرناه أوَفق بسياق الآية واللّه أعلم بكلامه.

المسألة الثّانية: في قطع مٰا اَمَرَ اللّٰهُ بِهٖٓ اَنْ يُّوصَلَ كما قال: **وَيَقْطَعُونَ مٰا اَمَرَ اللّٰهُ بِهٖٓ اَنْ يُّوصَلَ** إختلفوا في المراد بقوله أمَرَ اللّه به أن يوصل، فقيل أمروا بصلّة النّبي والمؤمنين و قيل أمروا بصلّة الرّحم والقرابة و قيل أمروا بالإيمان بجميع الأنبياء والكتب فقطعوا ما أمر اللّه به أن يوصل و قيل معناه الأمر بوّصل كلّ ما أمَرَ اللّه بِصِلة من أوليائه و القطع و البراءة من أعداءه و إختاره الطّبرسي و قال هذا أقوىٰ لأنّه أعمّ و يدخل فيه الجميع.

و قال بعض المفسّرين من العامّة المراد به كلّ قطيعةٍ لا يرضاه اللّه تعالىٰ

كقطع الرّحم والإعراض عن مولاة المؤمنين والتّفرقة بين الأنبياء والكُتب في التصدّيق و ترك الجماعات المفروضة و سائر ما فيه، رفض خيرٍ أو تعاطي شرّ فأنّه يقطع الوصلة بين اللّه وبين العبد المقصودة بالذّات من كلّ وصل وفصل انتهىٰ.

والأمر هو القول الطّالب للفعل و قيل مع العلّو و قيل مع الإستعلاء و بـه سُمّي الأمر الّذي واحد الأمور تسميةً للمفعول به بالمصدر فأنّه ممّا يؤمر به قاله في الكشّاف.

و قال الرّازي في تفسيره أنّ المراد به قطيعة الرّحم و حقوق القرابات الّتي أمَرَ اللّه بوصلها و هو كقوله تعالىٰ: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ**[1] و فيه إشارة الىٰ أنّهم قطعوا ما بينهم و بين النّبي من القرابة و علىٰ هذا التّأويل تكون الآية خاصّة.

ثانيها: أنّ اللّه تعالىٰ أمرهم أن يصلوا حبلهم بحبل المؤمنين فهم إنقطعوا عن المؤمنين و إتّصلوا بالكفّار فذاك هو المراد من قوله: **يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ**.

ثالثها: أنّهم نهوا عن التّنازع وإثارة الفِتن وهم كانوا مشتغلين بذلك انتهىٰ.

فهذه وجوه الأقوال من العامّة والخاصّة في تفسير الآية والحقّ ما إختاره الطّبرسي ﷺ من أنّ المراد وصل كلّ ما أمَرَ اللّه بصلته والقَطع والبراءة من أعداءه ونزيد عليه أنّ محبّة أهل البيت و ولائهم من أكمل مصاديق قوله تعالىٰ: **مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ** و قطع المحبّة والولاية لهم من أكمل مصاديق **يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَنْ يُوصَلَ** فَمَن أخَذ بولايتهم وصَل ما أمَرَ اللّه به أن يُوصل ومن تركها قطَع ما أمَرَ اللّه به أن يّوصل كما أنّه نَقَض عَهد اللّه بعد ميثاقه و فسد في الأرض فأولئك هم الخاسرون حقّاً.

١- محمد= ٢٢

المسألة الثالثة: في الفساد في الأرض واليه الإشارة بقوله (ويفسدون في الأرض).

قد قلنا في شرح اللّغات أنّ الفساد هو الخروج عن حدّ الإعتدال قليلاًكان أو كثيراً فنقول الفساد ضدّ الصّلاح و يستعمل ذلك في النّفس و البَدن و الأشياء الخارجة عن الإستقامة:

قال اللّه تعالى: **ظَهَرَ ٱلْفَسٰادُ فِى ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ** (١)

قال اللّه تعالى: **وَاللّٰه لاٰ يُحِبُّ الْفسٰاد.**

قال اللّه تعالى: **لِيُفْسِدَ فيهٰا وَ يُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَ ٱلنَّسْلَ** (٢)

قال اللّه تعالى: **قٰالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذاٰ دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهٰا** (٣)

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ** (٤)

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ** (٥)

و غيرها من الأيات الدّالة علىٰ ذمّ الفساد وقد حكم العقل يقبحه و ذمّه قبل الشّرع بل العقل إستقل بقبحه و أنّه من المستقّلات العقلية كيف و هو الخروج عن حدّ الإعتدال و ماكان كذلك فهو داخل في أقسام الظّلم الّذي أطبقوا علىٰ أنّه من المستّقلات العقّلية ثمّ أنّهم إختلفوا في المراد في الآية فقال قوم إستدعاءهم الىٰ الكفر هو الفساد، و قيل إخافتهم السبيل و قطعهم الطّريق، و قيل نقضهم العهد، و قيل كلّ معصيةٍ تعدّىٰ ضررها الىٰ غير فاعلها، و قيل منعهم النّاس من الإيمان، و قيل استهزاءهم بالحقّ وقطع الوَصل الّذي به نظام العالم و صلاحه و أمثال ذلك من الأقوال.

لا شكّ أنّها داخلة في الفساد فأنّ مصاديق الفساد كثيرة جداً و قد تكلّمنا

١- الروم =٤١
٢- البقرة=٢٠٥
٣- النمل =٣٤
٤- يونس =٨١
٥- البقرة =٢٢٠

في معناه والمراد به في لسان الشّرع عند قوله تعالىٰ: **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ** فلا نطيل الكلام بذكره في المقام إن شئت فراجعه، و امّا قوله تعالىٰ: **أُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ** فالمشار اليهم بقوله: **فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفٰاسِقُونَ** المتّصفون بنقض العَهد أوّلاً، و قطع ما أَمَر اللّه به أن يُوصل ثانياً، والفساد في الأرض ثالثاً و من المعلوم أنّهم من أكمَل مصاديق الخاسرين في الدّنيا و الأخرة و ذلک بسبب إهمالهم العقل عن النظّر و إقتباس ما يفيدهم الحيّاة الأبديّة أوّلاً و إستبدالهم الإنكار والطَّعن في الأيات بالإيمان بها ثانياً و إستهزائهم النّقض بالوفاء و الفساد بالصّلاح والعقاب بالثّواب ثالثاً.

فلو لم يكن هؤلاء القوم من الخاسرين فلا يوجد لهذا الكلام مصداق أبداً لقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطٰانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللّٰهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرٰانًا مُبِينًا**(١)

و أنّما جعلهم اللّه من الخاسرين لأنّهم خَسرُوا أنفسهم و من كان كذلك لا يؤمن باللّه أبداً:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مٰا كٰانُوا يَفْتَرُونَ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ خَفَّتْ مَوٰازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خٰالِدُونَ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ الْعَصْرِ،إِنَّ الْإِنْسٰانَ لَفِي خُسْرٍ ،إِلَّا الَّذِينَ اٰمَنُوا**(٥)

■

١- النّساء= ١١٩
٢- الأنعام= ١٢
٣- الأعراف= ٥٣
٤- سورة المؤمنون آية ١٠٣
٥- العصر= ١

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ اَمْوٰاتاً فَاَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

◁ اللّغة

اَمْوٰاتاً: المَوت بفَتح الميم ضدّ الحياة كما أنّ الحياة ضدّ الموت.

◁ الإعراب

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ كيف في موضع نصب علىٰ الحال والعامل فيه، **تكفرون** و صاحب الحال الضمير في تكفرون و هو أنتم و **تكفرون** يتعدّى بحرف الجرّ و قد عدّى بنفسه في قوله تعالىٰ: **إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ**[1] و ذلك حمل على المعنىٰ إذ المعنىٰ جحدوا **كُنْتُمْ** قد، معه مُضمِرةٌ و الجملة حال و تقديره **وقد كنتم** أمواتاً، حال و صاحب الحال الضّمير في كُنتم ،**فَاَحْيٰاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** معطوف على أموتاً، و كذلك **ثُمَّ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** والهاء ضمير يرجع الى اللّه.

◁ التّفسير

كَيْفَ لفظٌ يسأل به عمّا يصحّ أن يقال فيه شبيهٌ وغير شبيهٍ كالأبيض والأسود والصّحيح والسّقيم ولهذا لا يصحّ أن يقال في اللّه عزّ وجلّ كيف و قد يعّبر بكيف، عن المسؤول عنه كالأسود والأبيض فأنّا نسّميه **كَيْفَ** إذا عرفت هذا فأعلم أنّ كلّ ما أخبر اللّه تعالىٰ بلفظه، كيف، عن نفسه فهو إستخبارٌ علىٰ طريق التّنبيه للمخاطب أو توبيخاً نحو قوله تعالىٰ: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ** كيف يهدي اللّه، كيف يكون للمشركين عهد، أنظر كيف ضربوا لك الأمثال، فأنظر

١- هود = ٦٠

كيف بدأ الخلق، أو لم يرد كيف يُبدئ اللّه الخلق ثمّ يعيده، قال الرّاغب في المفردات.

أقول و لاجل ذلك يقال كيف، في الأصل سؤال عن حال و قال الزّجاج هو إستفهام في معنىٰ التعجّب و هذا التعجّب إنمّا هو للخلق أو للمؤمنين أي اعجبوا من هؤلاء كَيف تكفرون و المعنىٰ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ** أي ويحكم كيف تكفرون باللّه أو عجباً منكم، **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ** وفيه إحتجاج من اللّه تعالىٰ على الكفّار في إنكارهم البُعث و جحودهم لرسلهم وكُتبه بما أنعم به عليهم ثمّ أشار بقوله: **وَكُنْتُمْ اَمْوٰاتاً فَاَحْيٰاكُمْ** أي والحال أنّكم كنتم أمواتاً لا حياة لكم فأحياكم أي أوجدكم من العدم الىٰ الوجود قدّم اللّه تعالىٰ الوجود علىٰ غيره لأنّ الموجود هو الأصل **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** بالموت الطَبيعي **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** في القبر للمسائلة **ثُمَّ اِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** أي يبعثكم يوم الحَشر للحساب والمجازات على الأعمال و المقصود كيف تكفرون ربوبيّته أو معرفته والحال أنّه تعالىٰ فعل بكم كذا ويَفعل كذا والبّحث في المقام في بيان أمُور.

أحدها: أنّ المراد بالكفر في الآية ما هو من أقسام الكفر وقد مرّ سابقاً أنّ أقسام الكفر خمسة علىٰ ما رُوي عن الصّادق عليه‌السلام

و الحديث نقلناه فى قوله تعالىٰ: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوٰاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ** فراجعه و حاصله أنّ للكفر في كتاب اللّه علىٰ خمسة أوجه منها كُفر الجحود و هو علىٰ قسمين، الجحود بالرّبوبيّة، و الجحود بمعرفته، و ثالثها كفر النّعِم، و رابعها الكفر بترك ما أمر اللّه عزّ وجّل به و خامسها كفر البراءة، و يظهر من كلمات المفسّرين في المقام أنّ المراد بالكُفر في الآية هو كفر الجحود بالمعنىٰ الأوّل أعني إنكار ربوبيّته تعالىٰ و لذلك قال تعالىٰ في ردّ إنكارهم **كَيْفَ تَكْفُرُونَ** أي كَيف تنكرون ربُوبيتّه تعالىٰ والحال أنه أوجدكم من العدم الىٰ آخر الآية الدّالة علىٰ عموم قُدرته و تقرير الإحجاج أنّكم لا تشّكون في

وجودكم و أنّكم من الموجودين في الدّنيا فلا يخلو هذا الوجود من أمرين **أحدهما:** أن يكون منكم أي أنّكم بأنفسكم خالقكم وموجدكم.

ثانيهما: أنّ غيركم اوجدكم و الحَصر عقلي لا ثالث له و أنّما قلنا لا ثالث له لأنّ المخلوق معلول لابّد له من علّةٍ و لا يمكن وجود المعلول بدون العلّة فهذه العلّة أمّا نفس المعلول و امّا غيره.

الأوّل: محالٍ لأنّ الممكن نسبته الىٰ الوجود والعدم سواء بمعنىٰ أنّه في حدّ ذاته لا إقتضاء فيه وجوداً وعدماً و لذلك قيل في تعريفه الممكن من ذاته أن يكون ليساً ومن شأنه أن يكون آيساً فإن قلنا أنّ الموجد والعلّة في خروجه عن حدّ الإستواء بين الوجود والعدم هو نفسه من غی ر مرجّح و هو محال و أن كانت العلّة غيره فهذا الغير لا يخلو حاله من وجهين لأنّه أمّا أن يكون موجداً ممكناً أو واجباً فأن كان الأوّل عاد المحذور لأنّ الكلام فيه كالكلام فيه.

وأن كان الثّانی: أعني به الواجب فهو المطلوب فإذاً ثبت أنّ المخرج عن حدّ الإستواء هو الواجب الوجود و عليه فَصحّة الإحتجاج بأن يقال كَيف تكفرون أي تنكرون الخالق و الحال أنّكم كنتم أمواتاً فأحياكم أي أخرجكم من العَدَم الىٰ الوجود هذا تقرير البحث علىٰ مذاق القوم و هو أنّ المراد بالكفر في الأية إنكار الخالقيّة والرّبوبية.

وأنا أقول لا دليل علىٰ حمل الكفر في الآية علىٰ ماذكروه لا عقلاً و لا نقلاً بل الكفر في الآية يشمل جميع أقسامه الخّمسة المذكورة في الحديث بلا تفاوت فيها.

و نحن نشير الىٰ سائر الأقسام أيضاً فنقول أن أُريد بالكفر معناه الثّاني و هو الجحود علىٰ معرفته بمعنىٰ أن يجحد الجّاحد و هو يعلم أنّه حقّ قد إستقر عنده فالمعنىٰ كيف تجحدون و تنكرون معرفة الخّالق بألسنتكم و أنتم تعلمون أنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي أخرجكم من العدم و ذلک لأنّ الإنسان العاقل مؤمناً

كان أو فاسقاً بل مسلماً كان أو كافراً يعلم بأنّ له خالق لا محالة أوجده من العَدَم الىٰ الوجود بل هو أمرٌ ضروريّ فطّري فصّح أن يقال له كيف تكفرون الآية بل التعّجب منه أشّد من غيره.

وأمّا القسم الثّالث: و هو كفر النّعم فالوجه فيه أنّ الوجود نعمة بل أفضل النّعم و أشرفها لأنّ كلّ نعمةٍ من نعم اللّه تعرَف بِبركة الوجود والمعدوم لا يعرف نعمة و لا غيرها كما أنّ كلّ نعمةٍ أيضاً فضلها و شرفها بوجودها فالوجود رأس جميع النّعم و إذا كان كذلك فيصدق علىٰ الكافر بهذا المعنىٰ ما يصدق علىٰ غيره فيقال لهم كيف تكفرون بنعم اللّه تعالىٰ و قد أخرجكم من العَدَم الىٰ الوجود الّذي هو أفضل النّعم وأحسنها.

و أمّا الكفر بالمعنىٰ الرّابع و هو ترك ما أمر اللّه عزّ و جّل به، فيقال لهم كيف تكفرون بما أمر اللّه به من التّوحيد والإقرار بالرّسالة و جميع ما جاء به النّبي و كنتم أمواتاً فأحياكم أي كنتم أمواتاً بالقلب والإعتقاد فأحياكم اللّه بالدّين أو كنتم معدومين فأخرجكم من العَدَم الىٰ الوجود و إذا عرفتم الخالق و علمتم بأنّه واحد أحد لا شريك له فيجب عليكم عقلاً شكر المُنعم و شُكره العملي هو الإتيان بما أمر به لا تركه.

و على الخامس و هو أن يكون المراد به كفر البراءة فالمعنىٰ فيه كيف تتّبرَؤن من اللّه و رسوله و المؤمنين و هو تعالىٰ أوجدكم و خلقكم فقد ظهر ممّا ذكرناه و قرّرناه أنّ الكفر في الآية علىٰ عمومه أولى و هو المطلوب.

الأمر الثّاني: ما المراد بالمَوت والحياة في قوله تعالىٰ: **اَمْوٰاتاً فَاَحْيٰاكُمْ** لا خلاف بين المفسّرين من أنّ المراد بقوله تعالىٰ **كُنْتُمْ اَمْوٰاتاً** أي كنتم غير موجودين وبقوله تعالىٰ **فَاَحْيٰاكُمْ** أي أوجَدَكم فأنّ الموت ضّد الحياة والحياة ضّد المَوت.

و نقل عن قُتادة أنّه قال المراد بقوله تعالىٰ **اَمْوٰاتاً** ، أي أمواتاً في أصلاب آباءهم يعني نَطفاً ثمّ أحياهم اللّه.

و عن إبن عبّاس أنّه قال أي لم تكونوا شيئاً فخلقكم، عن بعضٍ أخر، أي كنتم خاملي الذّكر فأحياكم بالظّهور و أمثال ذلك من الأقوال الّتي كلّها إستنباط و إستحسان والّذي نقول به كنتم غير موجودين في الخارج واللّه تعالىٰ أوجدكم فهذا القدر مسلّمٌ في معنىٰ الأموات و امّا تعيين موضع الإنسان قبل الوجود فلا نفهم معناه.

نعم يظهر من بعض الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **أنّ اللّه خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ.**

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذاٰ هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**(١)

و يظهر من بعض أخر أنّه خلق من ماءٍ.

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا** (٢)

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخّارِ** (٣)

قال اللّه تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ** (٤)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئًا**(٥)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**(٦)

و أمثالها من الأيات مضافاً الىٰ أنّ البحث لليس في مادّة الخلقة بل البحث في الإيجاد و الأحياء و هو معلوم لا كلام فيه.

الأمر الثّالث: في تفسير قوله: **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**الخ، و لا شكّ أنّ المراد بقوله: **يُمِيتُكُمْ** أي بعد الحياة و يحيكم عند البعث للمسائلة أمّا الموت بعد الحياة فهو معلوم بل محسوس و هو ممّا لابدّ منه لكلّ مخلوق و منه الإنسان.

قال اللّه تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ،وَ يَبْقىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلالِ وَ ٱلْإِكْرامِ**(٧)

١- النّحل = ٤
٢- الفرقان = ٥٤
٣- الرّحمٰن = ١٤
٤- العَلَق = ٢
٥- مريم = ٩
٦- الأعراف = ١٢
٧- الرّحمٰن = ٢٦/٢٧

مخاطباً لنبيّه.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقيكُمْ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ ٱلْمَوْتُ**(٣)

و أمّا قوله تعالىٰ: **ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فهو معركة الأراء بين الطّوائف و الملل في طول حياة البَشَر فأنكره قوم.

و أثبته قوم كذلك وذهب الى التفصّيل فرقة أُخرىٰ وحيث أنّ البحث من أهّم المسائل بالنّظر الى الإعتقاد بالمعاد وعدمه و هو من أركان الدّين بحيث يُعّد مُنكره من المرتدّين و قد ألفوا في إثباته كتباً مستقلّة وردت آيات كثيرة في وجوده و إثباته كما ستقف عليها إن شاء اللّه ونحن أيضاً نتكلّم فيه مفصّلاً في مَوضعه: والّذي نقول في المقام بطريق الإجمال هو أنّ الأحياء في المرتبة الثّانية كالأحياء في المرتبة الأولىٰ أمّا الأولىٰ فقد ثبت لنا بالحسّ والعيان فكذلك في الثّانية و أيّ فرقٍ بين المرتبتين حتّىٰ يقال بإمكان الأولىٰ بل وقوعها دُون الثّانية مع أنّ تفرّق الأجزاء و تلاشيها في القبر لا يمنع من الإيجاد إذا كانت مادّته الأصلية باقية مضافاً الىٰ أنّ عمُوم القُدرة يقتضي الوجود إذا لم يدّل دليل علىٰ الإمتناع وعلىٰ القائل بالإمتناع الإثبات وأنّي له بإثباته بعد تحقّق مثله في المرتبة الأولىٰ **وَ أَنَّ اللّٰه عَلىٰ كُلّ شَيْءٍ قَديرٍ**.

و أمّا قوله تعالىٰ: **إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** فهو علىٰ طبق القاعدة لأنّ كلّشيْ يرجع الىٰ أصله.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **كُلٌّ إِلَيْنا راٰجِعُونَ**(٥)

١- الزّمر= ٣٠ ٢- الجّمعة= ٨
٣- النّساء= ٧٨ ٤- البقرة= ١٥٦
٥- الأنبياء= ٩٣

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَى ٱللّٰهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ**[٣]

و غيرها من الأيات.

أن قلت: لم يرجعون الىٰ اللّه و كيف يرجعون تعالىٰ يرجعون والجَسد بعد المَوت يصير رفاتاً.

قلت الجواب عن الأوّل: أنّهم يرجعون اليه تعالىٰ للحساب والجزاء أن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً كما قال تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلٰى عٰالِمِ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[٤].

وعن الثّانى: أنّ الإنسان له روح و جسد والّذي يصير رفاتاً هو الجَسد ومع ذلك يبقىٰ فيه المادّة الأصلية التّي خلق منها كما يأتي في إثبات المعاد و امّا الرّوح أعني به النّفس النّاطقة فيرجع الىٰ محلّه الأصلي.

والىٰ الأوّل: أشار اللّه تعالىٰ بقوله: **مِنْهٰا خَلَقْنٰاكُمْ وَ فِيهٰا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهٰا نُخْرِجُكُمْ تٰارَةً أُخْرىٰ**[٥].

والىٰ الثّانى: بقوله: **يٰآ أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ،اِرْجِعيٓ إِلٰى رَبِّكِ رٰاضِيَةً مَرْضِيَّةً**[٦] و قد ثبت أنّ الإنسان عبارة عن النّفس النّاطقة أعني بها الرّوح المنفوخ في الجسد و امّا الجسد العنصري فلا دخل له في حقيقة الإنسانيّة أصلاً و سيأتي تحقّيقه إن شاء اللّه تعالىٰ.

■

١- لُقمان= ١٥
٢- المائدة= ٤٨
٣- سورة يونس أية ٤
٤- الجمعة =٨
٥- طه =٥٥
٦- الفجر=٢٨/٢٧

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

◁ اللّغة

ثُمَّ اسْتَوَىٰ: استوىٰ يَستوي إستِواء و هو من باب الإفتعال والثلاثي منه، سَوىٰ: والتّاء فيه للقبول يقال سوّيت المعوج فما إستوىٰ، أي لم يقبل التّسوية.

قال الرّاغب في المفردات **الإستواء** يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: يسند اليه فاعلان فصاعداً نحو إستوىٰ زيد و عمرو في كذا أي تَساويا قال اللّه تعالىٰ: **لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّهِ**[1].

الثّانى: أن يقال الإعتدال الشّئ فى ذاته نحو، ذو مرّةٍ **فإستوىٰ**، الىٰ أن قال و متىٰ عدّي لعلى إقتضىٰ معنىٰ **الإستيلاء** كقوله تعالىٰ: **الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوىٰ**[2].

و قيل معناه إستوىٰ له ما في السّموات و ما في الأرض أي إستقام الكلّ علىٰ مراده بتسوية اللّه تعالىٰ إيّاه كقوله: **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّىٰهُنَّ** انتهىٰ.

فَسَوَّىٰهُنَّ: اي سَوَّىٰ السّماء.

سَمَٰوَاتٍ: جمع سماء، و سَماء كلّ شئ أعلاه.

عَلِيمٌ : مبالغة في العِلم والموصوف به في الحقيقة هو اللّه تعالىٰ.

◁ الإعراب

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مُبتدأ و **مَا فِي الْأَرْضِ** خبره **ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ** فاعل الفعل مستتر فيه و الجار و المجرور متعلّق به **فَسَوَّىٰهُنَّ** أنّما جمع

١- التوبة = ١٩ = ٢- طه =٥

الضّمير لأنّ السّماء جمع سماوة أبدلت الواو فيها همزة لوقوعها طرفاً بعد ألفزائدة **سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ** سَبع منصوب علىٰ البَدل من الهاء و النّون أي فَسَوىٰ سبع سموات **وَّهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ** و خبر وقد مرّ الكلام في معنىٰ الأرض و مأخذ إشتقاقها و هكذا في معنىٰ الخلق و أنّ أصله التّقدير.

◁ التّفسير

قيل لما إستعظم المشركون أمر الإعادة عرّفهم اللّه خلق السّموات والأرض ليدّلهم علىٰ قدرته فقال: **هُوَ الَّذِي خَلَقَ** أي أوجد و قدّر **لَكُمْ مَّا فِى الْاَرْضِ جَمِيعاً** لتنتفعوا به **ثُمَّ اسْتَوٰىٓ اِلَى السَّمَآءِ** أي تحوّل و فعله و تدبيره نحو السّماء **فَسَوّٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ** أي فسوّىٰ سبع سَمٰوات **وَّهُوَ** أي اللّه تبارك وتعالىٰ: **بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ** والبحث هنا في فصولٍ:

الفصل الأوّل: في تفسير قوله تعالىٰ: **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْاَرْضِ جَمِيعاً** أصل الخلق، التقدّير و**الجمَع** الضمّ و نقيضه الفرق و سمّيت الجمعة جمعة لإجتماع النّاس فيه و المقصود أنّ اللّه تعالىٰ خلق و قدر لكم ما في الأرض من النِّعم لتنتفعوا بها في الدّين والدّنيا.

أمّا في الدّين فللإستدلال بها علىٰ التّوحيد ثمّ الإعتبار بها بأنّها لا بقاء لها و ما لا بقاء لها لا ينبغي الإعتماد عليه.

و أمّا في الدّنيا فلتصلحوا بها أبدانكم و تتّقوا بها علىٰ طاعاتكم و بهذا التّقرير ظَهَر أنّ اللاّم في قوله: **لَكُمْ**، للغاية يمعنىٰ أنّ الغاية في خلق الأرض و ما فيها إنتفاع النّاس بها و هو دليل علىٰ أنّ الحكيم لا يخلق شيئاً عبثاً و امّا الأشاعرة فقد أنكروا هذا الأصل و قالوا أنّ فعل اللّه تعالىٰ لا يعلّل بغرضٍ لأنّ التعلّيل به يوجب النّقص في ذاته.

قال الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه قال أصحابنا أنّه سبحانه لا يفعل

فعلاً لغرضٍ لأنّه لو كان كذلك كان مستكملاً بذلك الغرض والمستكمل بذاته لا يكون مستكملاً بغيره لأنّ المستكمل بغيره ناقص في حدّ ذاته و هو علىٰ اللّه محال.

ثمّ قال فأن قيل فعله معلّل بغرضٍ غير عائد اليه بل الىٰ غيره، قلنا عود ذلك الغرض الىٰ ذلك الغير هل هو أولىٰ لِلّٰه تعالىٰ من عود ذلك الغرض اليه أو ليس أولىٰ فأن كان أولىٰ فهو تعالىٰ قد إنتفع بذلك الفعل فيعود المحذور المذكور و أن كان الثّاني لم يكن تحصيل ذلك الغرض المذكور لذلك الغير غرضاً للّٰه تعالىٰ فلا يكون مؤثراً فيه.

ثانيها: أنّ من فعل فعلاً لغرضٍ كان عاجزاً عن تحصيل ذلك الغرض إلاّ بواسطة ذلك الفعل والعجز على اللّه تعالىٰ محال.

ثالثها: أنّه تعالىٰ لو فعل فعلاً لغرضٍ لكان ذلك الغَرض أن كان قديماً لزم بقدم الفعل و أن كان محدثاً كان فعله لذلك الغرض لغرض أخر و يلزم التّسلسل و هو محال.

رابعها: أنّه تعالىٰ لو كان يفعل لغرض لكان ذلك الغرض هو رعاية مصلحة المكلّفين ولو توّقضت فاعلّية علىٰ ذلك لما فعل ماكان مفسدة في حقّهم لكنّه قد فعل ذلك حيث كلّف من علم أنّه لا يؤمن ثمّ أنّهم تكلّموا في اللّام في قوله تعالىٰ: **خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً** وفي قوله **إلاّ لِيَعبدون** فقالوا أنّه تعالىٰ لمّا فعل ما لو فعله غيره لكان فِعله لذلك الشّيئ لأجل الغرض لا جرم أطلق اللّه عليه لفظ الغرض بسبب هذه المشابهة انتهىٰ ما ذكره بألفاظه و عباراته.

أقول ماذكره الرّازي لا يرجع الىٰ محصّل و ذلک لأنّه أن أراد بنفي الغرض نفيه مطلقاً بمعنىٰ أنّ فعله لا يترّتب عليه غرض أصلاً فهو ممنوع مَردود و ذلک لأنّ الفعل الصّادر من الفاعل لا يخلو عقلاً من وجهين عبَث و غير عبَثٌ و

لا ثالث في المقام ثمّ أنّهم فرّقوا بين العَبث و غيره بأنّ العبث ما لا نفع فيه، و غير العبث ما فيه نفع.

و بعضهم قال العبث ما لا غرض للفاعل فيه و غير العبث بخلافه وكيف كان فلو قلنا بأنّ فعل اللّه بلا غَرض فما الفرق بينه و بين العبث، اذا عرفت هذا فنقول، قوله لو كان كذلك كان مستكملاً بذلك الغرض الخ.

يصحّ لو كان الغرض زائداً على ذاته و امّا اذا كان الغرض نفس ذاته لا زائداً عليه فكيف يكون مستكملاً بغيره فكأنّه لم يفرق بين الغرض الزّائد علىٰ الذّات و الغرض الّذي هو عين الذّات ونفسه والّذي يوجب الإستكمال هو الأوّل.

و أمّا الثّانى: فلا إستكمال فيه أصلاً وبذلك يظهر فساد قوله أيضاً حيث قال فأن قيل فعله مُعلّل بغرضٍ غير عائد اليه بل الىٰ غيره قلنا ذلك الغَرض الخ.

والوجه في فساده أنّ الغرض لا يعود الىٰ غيره و لا يعود الىٰ ذاته كما مرَّ بل الغرض نفس ذاته لا شئ عائد اليه وأعجب من هذا قوله أنّ الغرض أن كان قديماً لزم قدم الفعل و أن كان محدثاً الخ ما قال و ذلك لأنّ الغَرض أن كان نفس ذاته لا شئ عائد اليه فكيف يلزم قدم الفعل مع أنّ الفاعل مختار علىٰ الغَرض هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الغَرض ليس علّة تامّة للفعل حتّىٰ يلزم بقدمه أليس فرق بين العلّة الفاعل والعلة الغائى على مسلكه و بذلك يظهر الجواب عن الكلّ اذ أساس الإشكال علىٰ عود الغرض الىٰ الذّات أو الىٰ الغير والوجهان مَمنوعان أن قلت ما معنىٰ قولك أنّ الغاية هي الذّات قلتُ المراد بأنّ الغاية لإيجاد الموجودات هي الذّات نفي وساطة الغير في الغائيّة بمعنىٰ أنّ ترّتب العوائد والفوائد ذاتّيٌ لا يعلّل كقولنا الّه تعالىٰ موجودٌ بذاته و لذاته وكم فرق بين كون الغرض الحقيقي نفس ذاته كما نقول به و بين من قال بنفس الغرض والدّاعي مطلقاًكما قالت الأشاعرة.

قال بعض المحقّقين في كون الغاية لإيجاد الموجودات هي الذّات كما أنّ الفاعل هو الذّات و أيضاً لا إلتفات للعالي الىٰ السّافل حتّىٰ يجعل فعله ذريعة اليه و لا جميل فوقه حتّىٰ يقصده فما في الكتاب الإلهي و ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعبدون أي ليَعرفون يرجع الىٰ هذا المقام لأنّ معرّوفيته تعالىٰ عين ذاته كصفاته الأخرىٰ فلا معنىً في ذاته سوىٰ صريح ذاته انتهىٰ.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً حيث أنّ **اللاّم** في، لكم لام الغاية ليس معناه أنّ الغاية في الإيجاد إيصال النّفع الىٰ الغير بل المـعنىٰ أنّ الغاية في الإيجاد هو ذاته كما أنّ الفاعل أيضاً ذاته و عَليه فالأنسب بالمقام هو أن يقال أنّ **اللاّم** في **لكم لام** الإنتفاع في الحقيقة وأن كان في الظّاهر يَعبّرون عنه به **لام** الغاية و لا منافات بين كون الغاية في إيجاد الأرض و ما فيها هي الذّات و إنتفاع الغير بها و هو واضح.

ثُمَّ اسْتَوٰىٓ إِلَى السَّمٰآءِ فَسَوّٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ فالبحث فيه يـقع فـي مقامين:

المقام الأوّل: قوله تعالىٰ: **ثُمَّ اسْتَوٰىٓ إِلَى السَّمٰآءِ**.

المقام الثّانى: **فَسَوّٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ**.

أمّا المقام الأوّل: فنقول قد مَرّ معنىٰ السّماء مراراً و قد ذكروا في تفسير **ثُمَّ اسْتَوٰىٓ إِلَى السَّمٰآءِ** وجوهاً:

أحدها: أنّ معناه قَصَد **السَّمٰآءِ** لتسويتها أي تحوَّل فعله و تدبيره اليها.

ثانيها: أنّ معناه **اسْتَوٰىٓ إِلَى السَّمٰآءِ** بالقهر فعلىٰ هذا يكـون مـعناه ثـمّ إستوىٰ الىٰ السّماء في تفّرده بملكها و لم يجعلها كالأرض ملكاً لخلقه و منه قول الشّاعر حيث.

قـــال قـــد إســـتوىٰ بشـــر عـــلىٰ العـــراق

مـــــن غـــــير ســـيفٍ ودَمٍ مـــهراقٍ

و قال الأخر:

فــلمّا عَــلونا وإســتوينا عــليهم

تــركناهم صــرعىٰ لنســرٍ وكــاسرِ

ثالثها: أنّ معناه **ثُمَّ اسْتَوٰىٓ** أمره و صعد الىٰ السّماء لأنّ أوامره و قضاياه تتنزل من السّماء الىٰ الأرض.

رابعها: أنّ معناه أقبل الىٰ السّماء و عليه فالإستواء بمعنىٰ الإقبال ذكر هذه الوجوه الطّبرسي ﷺ.

و نقل عن البيهقي أنّه قال، **إستوىٰ** بمعنىٰ ارتفع و عليه فالمعنىٰ ارتفع أمره الىٰ السّماء و قال الرّازي إستوىٰ اليه اذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلتفت الىٰ شئ أخر و منه إستعير قوله ثمّ إستوىٰ الىٰ السّماء أي خَلق بعد الأرض السّماء، و لم يجعل بينهما زماناً و لم يقصد شيئاً أخر بعد خلقه الأرض أخذه من الزّمخشري في الكشّاف، و أنت ترىٰ أنّ هذه الأقوال كلّها يرجع الىٰ معنىٰ الإستواء و أنّه ما معناه.

و أمّا السّماء الّتي تعلّق بها الإستواء فلم نرَ في تفاسيرهم شيئاً فيها و لم يبيّنوا المراد منها و أنّها ما هي وقد ذكروا في تَفسيرها بأنّها جهة العلّو، أو سماء كلّ شئ أعلاه و أمثال ذلك من العبارات الرّاجعة الىٰ شرح اللّفظ.

و أمّا حقيقتها و ماهيّتها ما هي فقد سَكتوا عنها و هو عجيب و لم يعلموا أنّ القَصد أو الإستيلاء أو ما شئت فَسمّه الىٰ جهة العلّو و جعلها سبع سموات لا معنىٰ له اذا لم يعلم حقيقة السّماء والحقّ أنّهم قدّس اللّه أسرارهم لم يَصلوا الىٰ هذه الحقيقة فأنّ حقيقة السّماء كانت مختفية عن عقولهم و أفكارهم و لذلك جعلوا السّموات السّبع عبارة عن القمر والعطارد و الزّهرة و الشّمس و المريخ و المشتري و زحل.

و عليه فلا يبعد أن تكون السّماء عندهم هي كلّ واحدٍ منها واللّه أعلم

بحقيقة الأمر فنقول السّماء الفلك الشّامل لِسائر الأجرام و يطلق علىٰ كلّ سقف علىٰ قول فريد وجدي في دائرة المعارف.

ثمّ قال ذهب الفلكيّون الأقدمون أنّ السّماء جرم محسوس و أنّ الكواكب مُثبتة فيه و ذهب الفلكيّون المحدّثون الىٰ أنّ السّماء هي الفضاء الّذي فوقنا ممّا لا يجده التصّور تسبح الكواكب فيهما سبحاً بلا ماسِكٍ لهما إلاّ قدرة اللّه تعالىٰ والحقّ ما ذهب اليه المعاصرون و ليس في كتاب اللّه ما يرجّح فذَهب الأوّلين فأن كلّ ما ورد عن السّماء وطبقاتها و إنفراجها و إنفطارها يمكن توجيهه الىٰ أجرامها و سيّاراتها و هكذا انتهىٰ ما ذكره بلفظه.

و قال الطّنطاوي في تفسيره لهذه الآية أنّ أقدم ما وصل الينا من العِلم بذلك ما ذكره اليونانيون وقضىٰ علىٰ أثارهم علماء الإسكندّرية أيام البطالسة وإستقرّت أراء هؤلاء علىٰ أنّ الأرض في مركز العالم و أنّ القمر وعطارد و الزّهرة و الشّمس و المريخ و المشتري وزُحل سيّارات حولها وكلّ واحدٍ منها في فلكٍ دائر حول الأرض من الشّرق الىٰ الغَرب.

فأمّا السّيارات فأنّ لها مسيراً خاصّاً بها تسير الىٰ جهة الشّرق في عكس الحركة اليّومية للأفلاك السّبعة و تكون تلك الكواكب علىٰ أفلاكها أشبه بنملةٍ دائرة علىٰ عجلةٍ ليس في طريقٍ يخالف سيرها و بهذه الحركة الكوكبّية يكون شهر القَمر و سنّة الشّمس وسنون لسائر الكواكب ويقولون أنّ هناك فلكين أخرين يحيطان بالأفلاك السّبعة و هما فلك الثّوابت والأطلس و قالوا نحن علينا أن نفرض فلكاً ثانياً لتكون فيه الكواكب الثّابتة و فلكاً تاسعاً يكون مَبدأ الحركة اليومّية الىٰ أن قال المَسيح (في إنجيل برنابا) الحقّ أقول أنّ لاسّموات تسع موضوعة بينها السّيارات التّي تبعد إحداها عن الأخرىٰ مسيرة رجل خمس مائة سنّة و كذلك الأرض علىٰ مسيرة خمس مائة سنة من السّماء الأولىٰ و هكذا تزيد السّماء الثّانية عن الأولىٰ والثالثة عن االثّانية و هلم جرّاً.

ثمّ أطال النّقل الىٰ أن قال هذا ما في كلام القدماء و ما في الإنجيل ثمّ أنّ فلسفة اليونان نقلت الىٰ العربية علىٰ يَدَي الفارابي و إبن سينا، و قَرَّرت أنّ الأفلاك تسع فوثق بذلك علماء الإسلام الّذين دَرسوها و قالوا هي سَبع سمٰوات و الكُرسي و العَرش فالسّموات السَّبع تقدّم ذكرها و الكُرسي فَلَك الثّوابت و العرش هو الفلك المُحيط الّذي به الحَركة اليَومّية لسائر الأفلاك و بها الشّروق و الغروب مضت قرون فإستيقظ أجلّة العلماء وكبار الحكماء من الأمّة الإسلامية و رأوا أنّ هذا المذهب باطل لمخالفته الشّرع و العقل و قالوا أنّ القول بأنّ السّموات سبع في القرأن ليس حاضراً فالعَدد ليس له مفهوم فاذا قال رجل عندي فرسان لا ينافي أن يكون عنده ألف و هذه الأفلاك القديمة لا يمكن فناؤها عندهم و كذلك الكواكب و هذا مخالف للعقل و الدّين معاً و قالوا أنّ الأرض تدور حول نفسها و ليس هناك فلك أطلس و لا غيره و أنّما هذه الكواكب دائرة في الفضاء الىٰ أن قال أنّ هذه العوالم كلّها من شموسٍ و أقمار و أرضين كانت في قديم الزّمان كالدّخان المنتشر سريعة الحركات فبسرعة الحركة ألاف ألاف من السّنين تكونت الشّموس و دارت ملايين من السّنين ثمّ إنفصلت عنها السّيارات و شمسنا إحدىٰ تلك الشّموس فولدت عطارد، و الزّهرة، و الأرض، و المريخ و المشتري و زحل و أورانوس و نبتون فهذه ثمان سيّارات ثمّ أنّهم و جدوا بين المريخ و المشتري نحو ست مائة (٦٠٠) نجمة صغيرة جدّاً و لو إجتمعت كلّها لم تصل لمقدار جرم القَمر و أكبرها المَسّماة (سرس) لا يزيد قطرها عن خمس مائة ميل و بعضها لا يزيد قطره عن عشرة أميال و ربّما كان هناك نجمات أصغر منها لا يمكن رؤيتها ثمّ أنّ هذه السيّارات تدور حول الشّمس فعطارد يتّم دورته في (٢٨) يوماً من أيامّنا و الزّهرة في (٣٢١) و الأرض في سنة و المشتري في (١١سنة و ٣١٣) يوماً و زُحَل في (٢٩ سنة و١٦٧) يوماً وأُرانوس في (٤٨ سنة و٧ يوم) ونبتون في (١٦٨ سنة و

٢٤٨) يوماً و يظنّ أنّ هناك سيّارات آخر حول الشّمس لم تظهر الىٰ أن قال هذا ما أردت ذكره في المجموعة الشمسّية أمّا الكواكب الثّابتة فأنّها لا يحصىٰ عَدَدها إلاّ اللّه و لقد بحثها العلماء فوصلوا منها الىٰ معرفة مئات الملايين بالمنظار المُعظم وبالألة الرّاسمة المُسمّات فتوغرافيا انتهىٰ.

ما نقلناه عنه بعباراته إذا عرفت هذا فنقول ما ذكره الطّنطاوي في المقام لا يرجع الىٰ محصّل بل هو بالأوهام والخيالات أشبه منه بالتّحقيق و ذلك لإنّ حفظ الحدود في طبقات السّماء مِمّا لا يمكن إنكاره فقد ورَد في كثير من الأيات أنّ السّماوات سبع:

قال اللّه تعالىٰ: **فَقَضيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰواٰتٍ فِي يَوْمَيْنِ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواٰتٍ طِباٰقًا**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اَللّٰهُ سَبْعَ سَمٰواٰتٍ طِباٰقًا**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **تُسَبِّحُ لَهُ اَلسَّمٰواٰتُ اَلسَّبْعُ** (٤)

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ اَلَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰواٰتٍ وَ مِنَ اَلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**(٥)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بَنَيْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِداٰدًا**(٦)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنٰا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرٰآئِقَ وَ مٰا كُنّٰا عَنِ اَلْخَلْقِ غٰافِلِينَ**(٧)

و غير ذلك من الأيات الدّالة علىٰ أنّ السّموات منحصرة في هذا العدد فَكيف يُمكن أن يقال أنّ العَدد ليس له مفهوم كما قال الطّنطاوي به و إستَدلَ عليه بأنّه إذا قال الرّجل عندي فرسان لا ينافي أن يكون عنده ألف فَرس فأنّ القياس مع الفارق والمدار في التّفهيم و التّفهم و المحاورات و المخاطبات

١-الفصلت = ١٩
٢- الملک =٣
٣- نوح = ١٥
٤- الاسراء= ٤٤
٥- الطلاق = ١٢
٦- النبا= ١٢
٧- المؤمنون = ١٧

والمعاملات و غيرها علىٰ ضبط العدد فإذا أقرّ المقرّ و قال في إقراره له علىّ عشرة دراهم يؤخذ باقراره و لا يقال إقراره بعشرة دراهم لا ينافي أن يكون له عليه مائة درهم إذ لو كان الأمر علىٰ هذا المنوال يلزم أن لا يؤخذ المقرّ بإقراره و هو كما ترىٰ لا يساعده العقل و الشّرع و العرف اللّهم إلاّ أن يُراد بـالعُرف المجانين و الطّنطاوي لا يقول به.

محصل الكلام في المقام هو أنّ القرآن نـاطق بـالصّراحـة بأنّ السّـماوات محصورة في عدد السّبع لا أقلّ و لا أكثر و لا يمكن العدول عنه بهذه الخرافات و الملفّقات مضافاً الىٰ أنّ الرّوايات من الخاصّة و العامّة أيضاً تشهد بأنّ الأمر كذلك فأنّك لا تجد روايةً في الإسلام و لا آيةً في الكتاب إلاّ و هي مصرّحة بذكر العدد و هو السّبع فلو لو نفهم حقيقة السّماء وكيفيّة طباقها كما هو كذلك لا يجوز لنا عقلاً و شرعاً حمل الأيات والاخبار علىٰ آرائنا وعقائدنا الفاسدة المنبعثة عن الأوهام و الخيالات قال اللّه تعالىٰ:**وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ**[١] و الإنصاف أنّ حقيقة السّماء و السّماوات و كيفية طباقها و سائر خصوصياتها علينا غير منكشفة و نحن عاجزون عن فهمها و الوصول الىٰ حقيقتها فلا بدّ لنا في فهم كلام اللّه من التمسّك بالرّوايات المأثورة عن أهل البيت الّذي جعلهم اللّه من الرّاسخين في العلم و أمرنا بإتّباعهم والأخذ عنهم و لا سيّما في الأيات المتشابهات فقد قال اللّه تـعالىٰ: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّـهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ**[٢].

و قال الصّادق عليه السلام: نحن الرّاسخون في العلم، و عليه فما تبيّنوه في تفسّير الأيات من المُتشابهات والمعضلات فأخذ به و ما سكتوا عنه نسكت عنه فأنّ القرآن ليس مثل سائر الكُتب المؤلفة بين أيدينا حتّىٰ نقول فيه ما شئنا و فهِمنا.

١- الصافات = ٢٤ ٢- آل عمران = ٧

و ما نحن فيه من هذا القبيل إذا عرفت هذا فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الّتي يذكر فيها إبتداء خلق السّماء والأرض و خلق آدم و هي الخطبة الأولىٰ من نهج البلاغة قال عليه السلام:

ثُمَّ أَنْشَاءَ سُبْحٰانَهُ فَتْقَ الْأَجْوٰاءِ، وَشَقَّ الْأَرْجَاء، وَسَكٰائِكَ الْهَوٰىِ، فَأَجْرٰى فِيهٰا مٰاءً مُتَلاٰطِماً تَيّٰارُهُ، مُتَرٰاكِماً زَخّٰارُهُ، حَمَلَهُ عَلٰى مَتْنِ الرِّيحِ الْعٰاصِفَةِ، وَالزَّعْزَعِ الْقٰاصِفَةِ، فَأَمَرَهٰا بِرَدِّهِ ، وَسَلَّطَهٰا عَلٰى شَدِّةِ، وَقَرَنَهٰا إِلٰى حَدِّهِ، الْهَوٰاءُ مِنْ تَحْتِهٰا فَتيقٌ، وَّ الْمٰاءُ مِنْ فَوْقِهٰا دَفِيقٌ ثُمَّ أَنْشَاءَ سُبْحٰانَهُ رِيحاً اِعْتَقَمَ مَهَبَّهٰا، وَ أَدٰامَ مُرَبَّهٰا ،وَ أَعْصَفَ مَجْرٰايِهٰا، وَ أَبْعَدَ مَنْشَائَهٰا، فَأَمَرَهٰا بِتَصْفِيقِ الْمٰاءِ الزَّخّٰارِ، وَإِثٰارَةِ مَوْجِ الْبَحٰارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السِّقٰاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهٰا بِالْفَضٰاءِ، تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلٰى اٰخِرِهِ ،ـوَسٰاجِيَهُ إِلٰى مٰائَرِهِ، حَتّٰى عَبَّ عُبٰابُهُ، وَرَمٰى بالزَّبَدِ رُكٰامُهُ، فَرَفَعَهُ فِى هَوٰاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَّجَوٍّ مُنْفَهِقٍ فَسَوّٰى مِنْهُ سَبْعَ سَمٰواتٍ جَعَلَ سَفْلاٰهُنَّ مَوْجاً مَّكْفُوفاً، وَ عُلْيٰاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَسَمْكاً مَّرْفُوعاً، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعَمُهٰا، وَ لاٰدِسٰارٍ يَّنْظِمُهٰا، ثُمَّ زَيَّنَهٰا بِزِينَةِ الْكَوٰاكِبِ، وَضِيٰاءِ الثَّوٰاقِبِ، وَأَجْرٰى فِيهٰا سِرٰاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً، فِى فَلَكٍ دٰائِرٍ، وَ سَقْفٍ سٰائِرٍ، وَ رَقِيمٍ مٰائِرٍ، انتهىٰ موضع الحاجة منها ويستفاد من كلامه عليه السلام أُموراً نشير اليها إجمالاً.

أحدها: أنّ الفضاء مخلوق له تعالىٰ كسائر مخلوقاته لقوله عليه السلام فَتْقَ الْأَجْوٰاءِ، جمع **جوّ** و هو هذا الفضاء العالي بين السّماء والأرض و من المعلوم أنّ فقت الجوّ مؤخر عن وجوده إذ الفتق لا يصدق إلاّ علىٰ الشئ الموجود و امّا المعدوم فلا فتق له و يدّل على المدّعىٰ قوله عليه السلام وَشَقَّ الْأَرْجَاء، وَسَكٰائِكَ الْهَوٰىِ فأنّ الأرجاء، الجوانب، و السّكائك جمع **سُكا كة** بضمّ السين و هي الهواء الملاقي عنان السّماء، و ما لا وجود له خارجاً لا جوانب له.

ثانيها: أنّ مادّة خلق السّماء والأرض هي الماء لقوله عليه السلام: فَأَجْرٰى فِيهٰا مٰاءً مُتَلاٰطِماً تَيّٰارُهُ، مُتَرٰاكِماً زَخّٰارُهُ.

ثالثها: وجود الرّيح العاصفة ثمّ بعده أنشأ ريحاً إعتقم مهبّها.

رابعها: أنّه تعالىٰ أمر الرّيح بتصفيق الماء الزّخار فمخضته مخض السّقاء الىٰ آخر الكلام.

خامسها: أنّ السّماوات خلقت من زبد الماء فسوّىٰ منه سبع سموات الخ.

و تفصيل الكلام في شرّح هذه الكلمات يطلب من شرحنا المبسوط علىٰ نهج البلاغة أن شئت فراجعه.

و أما حمل كلامه عليه‌السلام علىٰ أنّ المراد من السّماوات السّبع الكرات السّبعة وأنّ العرش والكرسي، الأورانوس، و نبتون فهو مخالف لِنصّ كلامه عليه‌السلام حيث يقول بعد هذا الكلام ما لفظه ثمّ زيّنها بزينة الكواكب وضياء الثّواقب الخ.

و هو دليل بل صريح في أنّ الكواكب خلقت بعد السّماوات و إلاّ فما معنىٰ كلامه ثمّ زيّنها، و إذا كان كذلك فهذه الكرات السّبعة أو التسّعة أوجدهنّ اللّه تعالىٰ بعد خلق السّماء والسّماوات فكيف يقال أنّ المراد بالسّموات السّبع هو هذه الكرات السّبعة أو مطلق الكّرات والكواكب و أهل البيت أدرىٰ بما في البيت فكلامه عليه‌السلام في تفسير كلام اللّه حجة و عليه تحمل الأيات الواردة في المقام لا علىٰ كلمات القوم قديمهم و حديثهم فأنّ كلام اللّه بعيد عن عقولنا غاية البعد.

فتلخّص ممّا ذكرناه أنّ السّماء شئ والكوكب شئ أخر و أنّ المراد بالسّموات السّبع ليس ما ذهبوا اليه بل الكواكب فيها وبعبارة أخرىٰ أنّ السّموات محلّ الكواكب و محلّ الشّئ غير الحال فيه كما أنّ المظروف غير الظّرف هذا ما نفهم من الآية الشّريفة بضميمة الأثار و امّا حقيقتها وكيفيّتها فلا علم لنا به واللّه تعالىٰ أعلم بها و ذلک لأنّه لا يعقل أن يكون اللّه تعالىٰ خالقاً للأرض وما فيها وللسّموات و ما فيها من العجائب إلاّ اذا كان عالماً بها محيطاً بجزئياتها كلّياتها و ذلک يدّل علىٰ فساد قول من زعم أنّ اللّه تعالىٰ لا يعلم

الجزئيات و العقل أيضاً يحكم بأنّه عالم بها وبالكلّيات و لا فرق بينهما من حيث كونهما معلومين له تعالىٰ.

أمّا أوّلاً: فلأنّ العلم بالكلّي يستدعي العلم بالجزئي

ثانياً: لو لم يكن عالماً بالجزئيات يلزم النّقص في ذاته لأنّ الجهل نقص والنّقص ينافي الواجبية.

ثالثاً: أنّه تعالىٰ خالق للجزئيات والكلّيات و كيف يعقل أن يكون الخالق جاهلاً بمخلوقه.

رابعاً: أنّا نرىٰ الخلق في غاية الإتّقان والإحكام و هو يكشف لنا عن علمه الوافي.

خامساً: أنّه تعالىٰ عالم بذاته بل العلم عين ذاته مصدّاقاً و أن يغايره مفهوماً و حيث أنّ ذاته علّة لما سواه والعلم بالعلّة مستلزم للعلم بالمعلول علىٰ وجه التفصّيل و لا عكس فلا جَرم يكون عالماً بالمعلولات الكلّية والجزئية و سيأتي البحث في علمه تعالىٰ و سائر صفاته في موضعه إن شاء اللّه.

■

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّى أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

◁ اللّغة

لِلْمَلائِكَةِ: الملائكة جمع مَلَك وأصله مألَكَ فقَدّم اللاّم و أُخرّ الهمزة فقال مَلَئكَ و وزنه مفعل و هو مشتق من الأنوكة و هي الرّسالة ثمّ تركت الهمزة لكثرة الإستعمال فقيل مَلَك فلمّا جَمعوه ردّوه الىٰ أصله فقالوا ملائك فزيدت التّاء للمبالغة أو لتأنيث الجمع فصار ملائكة و نُقل عن ابن كيسان أنّه، فعال من المَلَك و عن أبي عبيدة أنّه مفعل من لاكَ اذا أرَسَل، قال في المُنجد، الملاك: فخّفف مَلاَك و هو أحد الأرواح السّماوية ملائكة و ملائك انتهىٰ.

كيف كان فلاكلام في كون الملائكة من، ألَك، ألُوكة و هي الرّسالة يقال ألَكَ :لىٰ فلان أي أرَسَل اليه والملائكة رسل اللّه تعالىٰ لقوله جاعل الملائكة رُسلاً.

جاعِلٌ: وزنه فاعل من جعَل.

خَليفَةً:التّاء فيها للمبالغة و أصلها الخَليف بفتح الخاء و كسر اللاّم من الخَلَف: ويقال لِمن خَلَف أخر فسَّد مَسدّه خَلَف والخِلفة يقال في أن يُخلف كلّ واحدٍ الأخر كما قال تعالىٰ: **و هو الّذي جَعَل اللّيل والنّهار خَليفةً** وجمع الخَليف ،الخلفاء و جمع الخَليفة، الخَلائف.

يَسْفِكُ: مضارع، سَفَك و السّفك الإراقة يقال سَفَك الدَّم اى اراقة والدّماء.

الدِّماءَ: جمع، دَم، أصله دَمَيٌ، و هو موصوف.

نُسَبِّحُ :من التّسبيح و هو مأخوذ من، سَبَح سَبحاً والسّبح المَر السّريع في الماء و في الهواء والتّسبيح المَر السّريع في عبادة اللّه.

نُقَدِّسُ: من التّقديس بمعنىٰ التطّهير.

◁ الإعراب

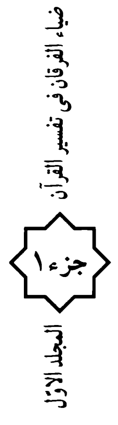
وَّاِذْا قٰالَ، اذ، مفعول به ومحلّه النّصب والتقدّير وإذكر اذ قال، و قيل موضعه الرّفع علىٰ أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره وابتداء خلقي **اِذْا قٰالَ رَبُّكَ**، و قيل زائدة و قال ربّك، فعل و فاعل **اِنّى جٰاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَليفَةً** جملة في موضع نصب يقال **قٰالُوٓا اَتَجْعَلُ فيهٰا مَنْ يُّفْسِدُ فِيهٰا وَيَسْفِكُ الدِّمٰاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** في موضع نصب بقالوا، و الواو في قوله، و نحن واو الحال و الباء في، بحمدك متعلّق بقوله نُسبّح، و اللاّم في، لك، متّعلق بقوله نُقدّس وما، موصولة صلّته، لا تعلمون، والعائد محذوف أي لا تعلمونه.

◁ التّفسير

وَّاِذْا قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ إختلفوا فيه أنّ المراد كلّ الملائكة أو بعضهم فروي عن ابن عبّاس أنّه قال، أنّه سبحانه و تعالىٰ أنّما قال هذا القول للملائكة الّذين كانوا محاربين مع إبليس لأنّ اللّه تعالىٰ لمّا أسكن الجنّ فى الأرض فأفسدوا فيها و سفكوا الدّماء قتل بعضهم بعضاً بعث اللّه إبليس في جندٍ من الملائكة فقتلهم إبليس بعسكره حتّىٰ أخرجوهم من الأرض وألحقوهم بجزائر البحر فقال تعالىٰ لهم **اِنّى جٰاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَليفَةً** و قال الأكثرون أنّه تعالىٰ قال ذلك لجماعة الملائكة من غير تخصيص لأنّ لفظ الملائكة يفيد العموم والتّخصيص خلاف الأصل.

في البحار بأسناده عن جابر الجُعفي عن أبي جعفر الباقر عليه‌السلام عن

أباءه عن علّي عليه السلام قال: أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ أراد أن يخلق خلقاً بيده و ذلك بعد ما مضىٰ من الجنّ والنّسناس في الأرض سبعة ألاف سنة و كان من شأنه خَلق آدم كشف (خ ل) عن أطباق السّموات وقال للملائكة إنظروا الىٰ أهل الأرض من خلقي من الجنّ والنسناس فلمّا رأوا ما يعملون فيها من المعاصي و سفك الدّماء و الفساد في الأرض بغير الحقّ عظم ذلك عليهم و غضبوا للّٰه و أسفوا علىٰ أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم فقالوا ربّنا أنت العزيز القادر العظيم الشأن و هذا خلقك الضّعيف الذّليل يتقلّبون في قَبضتك و يعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك وهُم يَعصونك بمثل هذه الذّنوب و لا تأسف عليهم و لا تَغضب و لا تنتقم لنفسك لما تسمع منهم و ترىٰ و قد عظم ذلك علينا أكبَرناه فيك فلمّا سَمع ذلك من الملائكة قال **اِنّى جاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَليفَةً** يكون حجّة لي في أرضي علىٰ خلقي فقالت الملائكة سبحانك **اَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُّفْسِدُ فيها** كم أفَسدت بنو الجان و يسفكون الدّماء كما سَفَكه بنو الجانّ ويتحاسدون و يتباغضون فإجعل ذلك الخليفة مِنّا فإنّا لا نتحاسد و لا نتباغض و لا نسفك الدّماء و **نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** فقال جلّ وعزّ **اِنّيَ اَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ** إنّي أريد أن أخلق خلقاً بيّدي وأجعل من ذرّيته أنبياء و مرسلين و عباداً صالحين وأئمّة مُهتدين أجعلهم خلفاء علىٰ خلقي في أرضي ينهونهم عن معصيتي وينذرونهم من عذابي و يهدونهم الىٰ طاعتي و يسلكون بهم طريق سبيلي وأجعلهم لي حجّة عليهم و عذراً و نذراً و أنقل مردة الجنّ العصاة عن برّيتي و خلقي و خيرتي و أسكنهم في الهواء و في أقطار الأرض فلا يجاورون نَسل خلقي و أجعل بين الجنّ و بين خلقي



حجاباً فلا يرىٰ نَسل خلقي الجنّ و لا يجالسونهم و لا يخالطونهم فمن عصاني من نَسل خلقي الّذين إصطفيتهم أسكنتهم مساكن العصاة و أوردتهم مواردهم و لا أبالي فقالت الملائكة ياربّنا إفعل ما شئت الحديث.

أقول و يظهر من هذا الحديث تفسير الآية و في المقام أبحاث ينبغي الإشارة اليها علىٰ سبيل الإجمال فنقول:

البحث الأوّل : في حقيقة الملك فأن ذكره قد تَكرّر في القرأن فلابدّ لنا من البحث في ماهّيته و حقيقته.

قال المجلسي ﵀ في المجلّد الرّابع عشر من البحار ما لفظه، إعلم أنّه أجمعت الأمّامية بل جميع المسلمين إلاّ من شذ منهم من المتفلسفين الّذين أدخلوا نفوسهم بين المسلمين لتخريب أصولهم و تضييع عقائدهم، علىٰ وجود الملائكة و أنّهم أجسام لطيفة نوّرانية أُولي أجنحة مثنىٰ و ثلاث و رباع و أكثر قادرون علىٰ التشكّل بالأشكال المختلفة و أنّه سبحانه يورد عليهم بقدرته ماشاء من الأشكال والصُّور علىٰ حسب الحكم والمصالح ولهم حركات صعوداً و هبوطاً وكانوا يراهم الأنبياء و الاوصياء، و القَول بتجرّدهم و تأويلهم بالعقول والنّفوس الفلّكية و القوىٰ والطّبائع و تأويل الأيات المتظافرة و الأخبار المتواترة تعويلاً علىٰ شُبهات واهية و إستبعادات و همّية زيغ عن سبيل الهُدىٰ و إتباع لأهل الجهل والعمىٰ.

قال المحقق الدّواني في شرح العقائد الملائكة أجسام لطيفة نورانيّة قادرة علىٰ التشكلاّت بأشكالٍ مختلفة كاملة في العلم والقدرة علىٰ الأفعال الشّاقة شأنها الطّاعة و مسكنها السّموات هم رَسل اللّه الىٰ أنبياءه وأمناءه علىٰ وحيه يُسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون و لا يعصون ما أمرَهم و يفعلون ما يؤمرون و قال الملائكة عند الفلاسفة هُم العقول المجرّدة والنّفوس الفلّكية و يخصّ

بإسم الكرّوبين ما لا تكون له علاقة مع الأجسام و لو بالتأثير و ذَهب أصحاب الطّلسمات الىٰ أنّ لكلّ فَلكٍ روحاً كلّياً يدّبر أمره و يتّشعب منه أرواح كثيرة مثلاً للعرش أعني الفَلك لأعظم روح يرىٰ أثره في جميع ما في جوفه يُسمّىٰ بالنّفس الكلّية والرّوح الأعظم ويتشعّب منه أرواح كثيرة متعلّقة بأجزاء العرش و أطرافه كما أنّ النّفس النّاطقة تدّبر أمر بَدن الإنسان ولها قوّة طبيعية و حيّوانية و نفسانية بحسب كلّ عضوٍ وعلىٰ هذا يُحمل:

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ صَفًّا**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَرَى ٱلْمَلَآئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**[٢]

هكذا سائر الأفلاك و أثبتوا لكلّ درجةٍ روحاً يظهر أثره عند حلول الشّمس تلك الدّرجة و كذا لكلّ من الأيّام و السّاعات و البحار و الجبال و المفاوز و العمران و غير ذلك علىٰ ما ورد في لسان الشّرع من ملك الأرزاق ومَلك البحار و ملك الأمطار و مَلك الموت و نحو ذلك وبالجملة فكما ثبت لكلٍّ من الأبدان البّشرية نفس مدّبرة فقد أثبتوا لكلّ نوعٍ من الأنواع بل لكلّ صنفٍ روحاً يدّبره يُسمّىٰ بالطّبائع التّام لذلك النّوع تحفظه من الأفات و المخافات و يظهر أثره في النّوع ظهور أثر النّفس الإنسّانية في الشخص انتهىٰ.

و قال الرّازي في تفسيره أنّه لا خلاف بين العقلاء أنّ أشرف الرّتبة للعالم العلوي هو وجود الملائكة كما أنّ أشرف الرّتبة للعالم السفلّي هو وجود الإنسان فيه إلاّ أنّ النّاس إختلفوا في ماهيّة الملائكة و حقيقتهم و طريق ضبط المذاهب أن يقال الملائكة لابدّ و أن تكون ذوات قائمة بأنفسها ثمّ أنّ تلك الذّوات أمّا أن تكون متّخيرة أو لا تكون أمّا الأوّل ففيه أقوال:

١- النبأ= ٣٨ ٢- الزمر= ٧٥

أحَدها:، أنّها أجسام لطيفة هوائية تقدر علىٰ التّشكل بأشكالٍ مختلفة مسكنها السّموات و هذا قول أكثر المسلمين

ثانيها: قول طوائف من عبدة الأوثان و هو أنّ الملائكة في الحقيقة هي هذه الكواكب الموصوفة بالأسعاد والأنحاس فأنّها بزعمهم أحياء ناطقة و أنّ المعدات منها ملائكة الرّحمة والمُنحسات منها هي ملائكة العذاب.

ثالثها : قول معظم المجوس و الثنويّة و هو أنّ هذا العالم مرّكب من أصلين أزليّين وهما النّور والظّلمة وهما في الحقيقة جوهران شفافان حسّاسان مختاران قادران متّضاد النّفس و الصّورة مختلفا الفعل و التدّبير فجوهر النّور فاضل خير نقي طيّب الرّيح كريم النّفس يَسرّ و لا يضرّ و ينفع و لا يمنع و يحي و لا يبلي و جوهر الظّلمة علىٰ ضدّ ذلك ثمّ أنّ جوهر النّور لم يزل يوّلد الأولياء و هم الملائكة علىٰ سبيل التّناكح بل علىٰ سبيل توّلد الحكمة من الحكيم والضّوء من المضئ وجوهر الظّلمة لم يزل يوّلد الأعداء و هُم الشّياطين علىٰ سبيل توّلد السّفه من السّفيه لا علىٰ سبيل التّناكح فهذه أقوال من جعل الملائكة متحيّزة جسمانيّة.

القول الثّاني: أنّ الملائكة ذوات قائمة بأنفسها و ليست بمتحيّزة و لا أجسام فهاهنا قولان:

أحدهما: قول طوائف من النّصارىٰ و هو أنّ الملائكة في الحقيقة هي الأنفس النّاطقة بذاتها المفارقة لأبدانهاعلىٰ نَعت الصّفا والخيّرية و ذلك لأنّ النّفوس المفارقة أن كانت صافية خالصة فهي الملائكة و أن كانت كدرة خَبيثةِ فهي الشّياطين.

ثانيها: قول الفلاسفة و هي أنّها جواهر قائمة بأنفسها ليست يمتحيّزة ألبتة و أنّها بالمهّية مخالفة لنوع النّفوس النّاطقة البشّرية و أنّها أكمل قوّةً منها و أكثر علماً و أنّها النّفوس البّشرية جارية مجرىٰ الشّمس بالنّسبة الىٰ الأضواء ثمّ أنّ هذه الجواهر علىٰ قسمين:

منها ما هي بالنّسبة الىٰ الأجرام الأفلاك والكواكب كنفوسنا النّاطقة بالنّسبة الىٰ أبداننا و منها، ما هي أعلى شأناً من تدبير أجَرام الأفلاك بل هي متفرقة في معرفة اللّه تعالىٰ ومحبّته و مُشتغلة بطاعته و هذا القسم هُم الملائكة المقرّبون و نسبتهم الىٰ الملائكة الّذين يدّبرون السّموات كنسبة أولئك المدّبرين الىٰ نفوسنا النّاطقة فهذان القسمان قد إتّفقت الفلاسفة علىٰ إثباتهما.

و منهم من أثبت نوعاً أخر من الملائكة و هي الملائكة الأرضية المدّبرة لأحوال هذا العالم السّفلي ثمّ أنّ مدّبرات هذا العالم أن كانت خيرات فهُم الملائكة و أن كانت شريرة فهم الشّياطين ثمّ إختلف أهل العلم في أنّه هل يمكن الحكم بوجودها من حيث العقل أو لا سبيل الىٰ إثباتها إلاّ بالسّمع فالفلاسفة علىٰ الأوّل ثمّ ذكر بعض دلائلهم فقال و امّا الدّلائل النفسّانية فلا نزاع ألبتة بين الأنبياء في إثبات الملائكة بل ذلك كالأمر المجمع عليه بينهم انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

البحث الثّانى: في كثرة الملائكة:

و قد روي عن النّبي ﷺ أنّه قال: أطّت السّماء وحقٌّ لها أن تَئّط ما فيها موضع قدم إلاّ وفيه مَلَكٌ ساجد أو راكع.

و روي أنّ بنّي آدم عشر الجنّ والجنّ و بنو آدم عُشر الحيوانات البّرية و هؤلاء كلّهم عُشر الطّيور و هؤلاء كلّهم عُشر حيوانات البحر و هؤلاء كلّهم عشر ملائكة الأرض الموّكلين بها و كلّ هؤلاء عشر ملائكة سماء الدّنيا و كلّ أولئك عُشر ملائكة السّماء الثّانية و علىٰ هذا التّرتيب الىٰ ملائكة السّماء السّابعة ثمّ الكلّ في مقابلة ملائكة الكرسي نزر قليل ثمّ كلّ هؤلاء عُشر ملائكة السّرادق الواحد من سرادقات العرش التّي عددها ست مائة ألف طول كلّ سرادقٍ و عرضه وسمكه اذا قُوبلت به السّموات والأرضون و ما



فيها و ما بينها فأنّها كلّها تكون شيئاً يسيراً و قدراً صغيراً و ما من مقدار موضع قدمٍ إلاّ و فيه ملك ساجد أو راكع أو قائم ثمّ كلّ هؤلاء في مقابلة الملائكة الّذين يُحومون حول العرش كالقطرة في البحر و لا يعلم عددهم إلاّ اللّه و هم كلّهم ساطعون ميطعون لا يفترون و مشتغلون بعبادته سبحانه و تعالىٰ يتسابقون في ذلك مذ خلقهم لا يستكبرون عن عبادته أناء اللّيل والنّهار و لا يسأمون لا يـحصىٰ أجناسهم و لا مدّة أعمارهم و لا كيفيّة عبادتهم إلاّ اللّه علىٰ ما قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**[1] صَدق اللّه العليِ العظيم.

البحث الثّالث: في أصناف الملائكة فقيل أنّها ثمانية:

وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ الى قوله: **ما لا تَعْلَمُونَ**

أحدها: حملة العرش كما قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ**[2].

ثانيها: الحافّون حول العرش كما قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَرَى ٱلْمَلآئِكَةَ حآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**[3]

ثالثها: أكابر الملائكة فمنهم جبرائيل وميكائيل قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلّٰهِ وَ مَلآئِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَمِيكالَ فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ**[4]

رابعها: ملائكة الجنّة قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمَلآئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدّارِ**[5]

خامسها: ملائكة النّار قال اللّه تعالىٰ: **عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ**[6] ورئيسهم مالك وأسماء جملتهم الزّبانية قال اللّه تعالىٰ: **فَلْيَدْعُ نادِيَهُ، سَنَدْعُ ٱلزَّبانِيَةَ**[7]

١- المدثر= ٣١
٢- الحاقة = ١٧
٣- الزمر= ٧٥
٤- البقرة = ٩٨
٥- الرعد = ٢٣/٢٤
٦- المدثر= ٣٠
٧- العلق = ١٧/١٨

سادسها: الموكولون ببني آدم قال اللّه تعالىٰ: **عَنِ ٱلْـيَمِينِ وَ عَـنِ ٱلشِّـمٰالِ قَعِيدٌ، مٰا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلّٰا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**[۱]

لَهُ مُعَقِّبٰاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ[۲]

سـابعها: كتبة الأعمال قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ عَـلَيْكُمْ لَـحٰافِظِينَ، كِـرٰامًـا كٰاتِبِينَ،يَعْلَمُونَ مٰا تَفْعَلُونَ**[۳]

ثامنها: الموكلون بأحوال هذا العالم وهـم المُرادون قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلصّٰآفّٰاتِ صَفًّا**[۴]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلذّٰارِيٰاتِ ذَرْوًا**الى قوله: **فَالْمُقَسِّمٰاتِ أَمْرًا**[۵]

قال الرّازي في تفسيره أعلم أنّه ليس بعد كلام اللّه وكلام رسُوله كلاماً في وصف الملائكة أعلىٰ و أجلّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قال في بعض خطبه:

ثُمَّ فَتَقَ السَّمٰوٰاتِ الْعُلىٰ، فَمَلَاَهُنَّ اَطْوٰاراً مِّن الْمَلاٰئِكَةِ(مِـنْ مَـلاٰئِكَتِهِ)، مِـنْهُمْ سُجُودٌ لاٰ يَرْكَعُونَ، وَ رُكُوعٌ لاٰيَنتَصِبُونَ، وَ صٰافُّونَ لاٰيَتَزٰايَلُونَ، وَ مُسَبِّحُونَ لاٰ يَسْأَمُونَ، لاٰ يَغْشٰاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَ لاٰ سَهْوُ الْعُقُولِ، وَ لاٰ فَتْرَةُ الْاَبْدٰانِ، وَ لاٰ غَفْلَةُ الْنِّسْيٰانِ، وَ مِنْهُمْ اُمَنٰاءُ عَلٰى وَحْيِهِ، وَ اَلْسِنَةٌ اِلٰى رُسُلِهِ، وَ مُخْتَلِفُونَ بِقَضٰائِهِ وَ اَمْرِهِ، وَ مِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبٰادِهِ، وَ السَّدَنَةُ لِاَبْوٰابِ جِنٰانِهِ، وَ مِنْهُمُ الثّٰابِتَةُ فِى الْاَرَضِـينَ السُّفْلٰى اَقْدٰامُهُمْ، وَالْمٰارِقَةُ مِنَ السَّمٰاءِ الْعُلْيٰاء اَعْنٰاقُهُمْ، وَالْخٰارِجَةُ مِنَ الْاَقْـطٰارِ اَرْكٰانُهُمْ، وَالْمُنٰاسِبَةُ لِقَوٰائِمِ الْعَرْشِ اَكْتٰافُهُمْ، نٰاكِسَةٌ دُونَهُ اَبْـصٰارُهُمْ، مُـتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَن دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَاَسْتٰارُ الْقُدْرَةِ، لاٰ يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ ،وَ لاٰ يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفٰاتِ الْمَصْنُوعِينَ ،وَلاٰ يَـحُدُّونَهُ بِالْاَمٰاكِنِ، وَ يُشِيرُونَ اِلَيْهِ بِالنَّظٰائِرِ انتهىٰ.

۱- ق = ۱۷/۱۸
۲- الرعد = ۱۱
۳- الانفطار = ۱۰/۱۱/۱۲
۴- الصافات = ۱
۵- الذاريات = ۱ الى ۴

و أنا أقول ما نقله الرّازي من الخطبة أنّما هو في الخطبة الأولىٰ من النّهج.

أولها: (الحمدُ لالّه لِّذي لا يبلغ مُدحته القائلون) ذكر عليه السلام في هذه الخطبة إبتداء خلق السّماء والأرض ثمّ ذكر عليه السلام إبتداء خلق آدم عليه السلام و قد إستوفينا الكلام فيها وفي سائر الخطب الىٰ آخر نهج البلاغة بما لا مزيد عليه في شَرحنا المبسوط علىٰ هذا الكتاب الّذي هو دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق بعد رسُول اللّه.

والعجب من الرّازي حيث إعترف في تفسيره قبل نقل الكلام أنّه لا كلام أعلىٰ و أجلّ من كلام أمير المؤمنين بعد كلام اللّه وكلام رسوله و هو كلامٌ حقٍ جرى علىٰ لسانه ليكون حجة عليه يوم القيامة و مناقب شهد العدّو بفضلها، والفضل ما شهدت به الأعداء هذا تمام البحث في الملائكة في هذا المقام.

البحث الرّابع: في قوله تعالىٰ:**إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً** و فيه مسألتان.

المسألة الأولىٰ: في قوله:**إِنِّى جَاعِلٌ** والفرق بين الجَعل والخَلق.

المسألة الثّانية: في معنىٰ **الخَلِيفَة**.

أمّا المسألة الأولىٰ: لم قال اللّه تعالىٰ إنّي جاعل في الأرضِ ولم يقول إنّي خالقٌ في الأرضِ لأنّ الجعل لفظ عامٌ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من، فعل و صنع، و خَلق و توضيحه أنّه تارةً يكون لازماً نحو جَعَل زيدٌ يقول كذا أي صار و طفق قال الشّاعر:

فقد جَعلتَ قلُوص بني سُهيلٍ
من الأكوار مريقها قريبُ

وأخرىٰ يكون متعدّيا بمعنىٰ أوجد فيتّعدىٰ الىٰ مفعولٍ واحدٍ نحو قوله عزّ و جلّ قال اللّه تعالى : **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَ ٱلنُّورَ**[1].

١- الانعام = ١

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**[١]

ثالثاً: يستعمل في إيجاد شيئٍ من شيئٍ و تكوينه منه:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبٰالِ أَكْنٰانًا**[٣]

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمْ فيهٰا سُبُلًا**[٤]

رابعاً: في تصيير الشيئ علىٰ حالةٍ دون حالةٍ:

قال اللّه تعالى: **اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ الْاَرْضَ فِراشاً**.

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً**[٥].

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ ٱلْقَمَرَ فيهِنَّ نُورًا**[٦]

خامساً: في الحكم بالشيئ علىٰ الشيئ حقاً كان أو باطلاً، أمّا الحقّ:

قال اللّه تعالى: **إِنّٰا رٰآدُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ**[٧]

والباطل :

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ نَصيبًا**[٨]

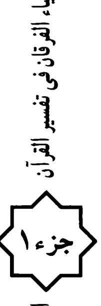
قال اللّه تعالى: **وَ يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ ٱلْبَنٰاتِ**[٩]

قال اللّه تعالى: **اَلَّذينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْاٰنَ عِضينَ**[١٠]

وأمّا الخلق، أصله التّقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيئ من غير أصلٍ ولا إحتذاءٍ:

قال اللّه تعالى: **خَلقَ السَّمٰاوٰات وَالْاَرضْ** أي أبدعهما.

قال اللّه تعالى: **بَديعَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْض**.



١- النحل = ٧٦
٢- النحل = ٧٢
٣- النحل = ٨١
٤- الزخرف = ١٠
٥-النحل = ٨١
٦- نوح = ١٦
٧- القصص = ٧
٨- الانعام = ١٣٦
٩- النحل = ٥٧
١٠- الحجر= ٩١

و قد يستعمل في إيجاد الشيءَ من الشيءَ:

قال اللّه تعالى: **خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وٰاحِدةٍ.**

قال اللّه تعالى: **خَلَقَ الْإِنسٰانَ مِنْ نُطْفَةٍ**

قال اللّه تعالى: **خَلَقَ الْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَة**

و أمثالها من الأيات و من الواضح أنّ الخلق الإبداعي لا يكون لغير اللّـه تعالىٰ و لهذا قال تعالىٰ في الفصل بين الخلقين: **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ**[1] أي أفمن يخلق الخلق علىٰ سبيل الإبداع كمن لا يخلق كذلك إذ الخلق في غير الإبداع يطلق علىٰ غيره قال تعالىٰ: **وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ اَلطِّينِ كَهَيْئَةِ اَلطَّيْرِ بِإِذْني**[2] إذا عرفت هذا فأعلم أنّ اللّه تعالىٰ قال أنّي جاعل و لم يقل خالق، لأنّ الخلافة من الأوصاف و العناوينالثّابتة للذّات لا من الموجودات المستقلّة بالذّات و بعبارةٍ أخرىٰ هـي مـن الإعـراض القـائمة بـغيرها لا مـن الجّواهر القائمة بذاتها والخلق لا يتعلّق بالصّفة فلا يقال خلق اللّه فيك العلم أو الشّجاعة و أمثالهما بل يقال جعل اللّه فيك العلم و الشّجاعة و السخاوة مثلاً و حيث أنّ الإيجاد تعلق في المقام بالخلافة فالأنسب أن يقال جاعلٌ في الأرض خليفة أن قلت أليس الجَعل قد تعلّق بإيجاد آدم و هو ليس من الصّفة بشيءٍ قلت نعم الإيجاد تعلّق به إلاّ أنّ تعلّقه به في المرتبة الثّانية إذ الغرض الأصليّ مقام الخلافة لا وجود آدم كيف كان فهو مخلوق للخلافة فهي غاية الإيجاد و لاجل هذا قال تعالىٰ أنّي جاعلٌ، وأن شئت قلت، الخلق علىٰ وجهين:

أحدهما: إبداع الشيءَ من غير أصلٍ.

ثانيهما: إيجاد الشّيءَ من الشيءَ، وكلا المعنين لا يصدق في المقام.

أمّا الأوّل: فلأنّ الخلافة ليست من المبدعات.

امّا الثّانى: فلأنّها ليست من إيجاد الشّيءَ من الشّيءَ فلَيست بمخاوق وإذا لم

١- النحل = ١٧ ٢- المائدة= ١١٠

يصدق عليها الخلق فهو مجعول و هو المطلوب إذا علمت هذا فقد دريت أنّ الجّعل في المقام جعلٌ مرّكب لا جعلٌ بسيط لأنّ اللّه تعالىٰ جعل آدم خليفته في الأرض لا أنّه خلقه و أوجده كسائر خلقه فتأمّل في المقام فانّه من مزّال الأقدام.

أمّا المسئلة الثّانية: في معنىٰ الخلافة والمراد بها في المقام فتقول قد مرّ الكلام منّا في معناها بحسب اللّغة عند شرح اللّغات وقلنا أنّ الخليفة عبارة عمّن يشّد مسّد غيره والآن نقول لفظة الخليفة قد جاءت في موضعين من كتاب اللّه أحدهما هذا المقام في حقّ آدم، و ثانيهما في حقّ داوُد:

قال اللّه تعالىٰ: **يا داوُودُ إِنّا جَعَلْناكَ خَليفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنّاسِ** [1].

و أمّا الخلائف، الّتي هي جمع خليفة، فقد جاءت في ثلاث آيات

أحدها قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلآئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ** [2]

ثانيها قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْناهُمْ خَلآئِفَ وَ أَغْرَقْنَا ٱلَّذينَ كَذَّبُوا** [3]

ثالثها قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذي جَعَلَكُمْ خَلآئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ** [4]

و أمّا الخُلفاء فليست جمع خليفة بل هي جمع، خليف و قد جاءت ايضاً في ثلاث أيات.

أحدها قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفآءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** [5]

ثانيها قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفآءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ** [6]

ثالثها قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ يُجيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفآءَ ٱلْأَرْضِ** [7].

۱- ص ۲۶
۲- يونس= ۱۴
۳- يونس= ۷۳
۴- فاطر= ۳۹
۵- الأعراف= ۶۹
۶- الأعراف= ۷۴
۷- النّمل= ۶۲

إذاعرفت هذا فنقول الخليفة في العُرف لها معنيان

أحدهما كونها خلفاً لمن كان قبلها و ثانيها كونها مدّبراً للأمور من قبل غيره.

أمّا الأوّل: فكما إذا إستخلف إمام جماعةٍ غيره في غيابه ليصلّي في مسجده و يأتمّ النّاس به فحسبُ ولم يفوّض اليه تدبير أمور المسجد و غيره فهو أي الخليفة يصلّي وينصرف.

أمّا الثّاني: فكما إذا إستخلف السّلطان غيره في غيابه لتدبير أمور المملكة و قد يجتمعان معاً كما هو واضح و عليه فتكون خلافة آدم لِلّه تعالىٰ لتدبير الأمور إذ لا معنىٰ لخلافته بالمعنىٰ الأول نعم في خلافة داوُد يتصور هذا المعنىٰ بأن يقال أنّه كان خلفاً لمن كان قبله من الرّسل و امّا في حقّ آدم فلا إذ لم يكن قبله رسول بل و لا إنسان ليكون خلفاً له فهو خليفة اللّه في تدبير الأمور فكلّما أمَر أو نهىٰ فكأنّ اللّه أمَر و نهىٰ فأمره أمر اللّه و نهيه نهيه و طاعته طاعة اللّه و معصيته معصيته و هكذا و هذا المعنىٰ جارٍ في جميع الأنبياء والأوصياء الّذين هم خلفاء اللّه في أرضه أن قلت أن كانت الخلافة بمعنىٰ تدبير الأمور من قبل اللّه تعالىٰ فيلزم التفّويض الممنوع عقلاً وشرعاً إذ المراد به تفويض الأمور الىٰ العبد و هذا هو بعينه قلت ليس الأمر كذلك فأنّ التفوّيض ممنوع عبارة عن تفويض أمور كل عبدٍ الىٰ نفسه بمعنىٰ أنّه يفعل مايشاء و يحكم ما يريد في الدّنيا وليست لإرادة اللّه و مشيئته دخلٌ في فعله و قوله و امّا تفويض الأمر الىٰ عبدٍ خاصٍّ كاملٍ في العبودية الّذي لا يريد إلاّ ما أراد اللّه و لا يحكم إلاّ بما حكم اللّه به و لا يشاء إلاّ أن يشاء اللّه وهكذا في جميع الأمور فليس فيه إشكال عقلاً و شرعاً عُرفاً و سيأتي الكلام في هذا الموضوع في موضعه إن شاء اللّه تعالىٰ بوجهٍ أوفىٰ وَأبسَط ثمّ أنّ هذه الخلافة مختصّته بالأرض كما هو الظّاهر من الآية.

البحث الخامس: في قوله تعالىٰ :**قَالُوٓا اَتَجْعَلُ فِيهٰا مَنْ يُّفْسِدُ فِيهٰا وَيَسْفِكُ الدِّمٰاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.**

يظهر من ظاهر الكلام أنّ الملائكة لم يفهموا معنىٰ الخليفة و لم يعلموا المراد بها و لذلك قالوا أتجعل فيها أي في الأرض من كان كذا و كذا.

أو يقال أنّهم فهموا من الخليفة هذا المعنى الّذي ذكروا و هو الفساد و اسفك الدّماء و امّا المعنىٰ الّذي كان مراده تعالىٰ فلا و يحتمل ثالثاً أنّ الملائكة ظنّوا أنّ اللّه أراد أن يجعل خليفته في الأرض لأجل التسبّيح والتقدّيس فقالوا أن كان المراد هذا فنحن **نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** والكّل محتمل والأّول أقرب الىٰ اللّفظ.

و أنّما قالوا: **يُّفْسِدُ فِيهٰا وَيَسْفِكُ الدِّمٰاءَ** لأنّ اللّه تعالىٰ كشط عن أطباق السّموات و قال لهم أنظروا الى أهل الأرض من خلقي من الجّن والنّاس فلّما رأوا ما يعملون فيها من المعاضي و سفك الدّماء والفساد في الأرض بغير الحّق عظم ذلك عليهم و غضبوا لِلّه وتأسّفوا على أهل الأرض و قالوا ربّنا أنت العزيز الحكيم القادر الىٰ أخر الحديث و قد نقلناه سابقاً فعند ذلك قال اللّه تعالىٰ:**إِنِّى جٰاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً** فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها **اَتَجْعَلُ فِيهٰا مَنْ يُّفْسِدُ فِيهٰا**الخ.

ظنّاً منهم أنّ الّذي أخبرهم اللّه به و قال إنّي جاعل في الأرض خليفة مثل الجنّ والنّاس الّذين رأوهم بفسدون في الأرض ويسفكون الدّماء فقالوا ما قالوا فقول الملائكة ليس بإعتراضٍ في الحقيقة بل منشأه الجهل بمعنى الخليفة و قياسهم الخليفة علىٰ الجن والنسنّاس و هو دليل علىٰ عدم جواز القياس أن قلت ما الفرق بين الجنّ و النسنّاس الّذين كانوا قبل آدم وكانوا يفسدون فيها و يسفكون الدّماء فأهلكهم اللّه تعالىٰ و بين أولاد آدم أعني بهم الإنسان فأنّهم أيضاً كذلك يفسدون و يسفكون الدّم بغير الحقّ ويعصون اللّه بل يعبدون

اللاّت والعزىٰ و النّار و الكواكب و الأصنام و غيرها و اذا كان كذلك فأي فضيلةٍ و شرفٍ لم عليهم حيث أهلَكهم اللّه و أوجدهم قلت الفضيلة و الشّرف ثابتة للخَليفة الّذي تعلّق الجعل به أولاً و بالذّات لا لجميع أولاده فأنّ الجعل تعلّق بهم ثانياً و بالتّبع و من المعلوم أنّ خليفة اللّه لا يعبد غير الّله و لا يعصيه أبداً هذا أوّلاً.

ثانياً: مقول لو قيست معصية النّاس بعبادة الخلفاء و أتباعهم لرَّجحت العبادة علىٰ المعصية والحاصل أنّه يظهر من الآية أنّ النّظر في الجَعل الىٰ الخليفة في كلّ عصر و زمانٍ و هو يكفي لتعلّق الجَعل بغيره ببركة وجوده و لنِعم ما قيل بالفارسيّة:

نه در اختر حركت بود ونه در قطب سكون

گر نبودی بر زمين خاک نشينانی چند

البحث السّادس: في قوله تعالىٰ: **اِنِّيَ اَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** و يُستفاد من هذا الكلام امور.

أحدها: أنّ اللّه تعالىٰ يعلم ما لا يعلمه غيره و هو مسلم عقلاً و نقلاً.

أمّا العقل: فلأنّ المخلوق كائناً من كان كما أنّه في وجوده محتاج بخالقه كذلك في جميع صفاته و منها العلم فأنّ الصّفات من توابع الوجود.

ثانياً: أنّ العلم ممّا أفاض اللّه علىٰ خلقه و لا شكّ أنّ الإفاضة بقدر إستعداد المستفيض وقابليته و قابلية المخلوق في جنب الخالق معلوم.

أمّا نقلاً فلقوله تعالىٰ:**وَ مٰآ أُوتيتُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ إِلّا قَليلًا**[1] و حيث أنّ المِلاك المخّلوقية فالملائكة أيضاً من مصاديق الآية لأنّهم مخلوقون مربوبون.

ثانيها: أنّ الملائكة لمّا لم يعلموا مراد اللّه تعالىٰ من جعل الخليفة أو لَم يعلموا معنىٰ الخليفة أصلاً وكيف كان ما كان ينبغي لهم أن يقولوا أتجعل فيها

١- الاسراء = ٨٥

من يفسد فيها الخ. فقولهم هذا كان من غير علمٍ لهم بحقيقة الأمر و كلّ قولٍ كذلك يستحقّ التّوبيخ والنّدم ولذلك قال تعالىٰ توبيخاً لهم أنّي أعلم ما لا تعلمون و هو بمعنىٰ إسكتوا عمّا لا تعلمون فهو موعظة لنا أيضاً.

ثالثها: أنّ اللّه تعالىٰ لم يطلب منهم الرأي والنظّر و لذلك لم يقل لهم ما تقولون مثلاً بل قال:**إِنّی جاعِلٌ فِی الْاَرْضِ خَلیفَةً** و هو إعلام مَحض لا المَشورة لإستغنائه عنها و عليه فقولهم:**اَتَجْعَلُ فیها** الخ.

كلام لا محلّ له و لذلك و بخّهم بقوله أنّي أعلم ما لا تعلمون هذا تمتم الكلام في تفسير الآية الشّريفة علىٰ سبيل الإجمال و أن كان للبحث فيه مجال واسع إلاّ أنّ إطالة الكلام توجب الملال والحمد لِلّه ربّ العالمين.

■



وَعَلَّمَ ادَمَ الْاَسْمٰآءَ كُلَّهٰا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاٰئِكَةِ فَقٰالَ اَنْبِئُوني بِاَسْمٰاءِ هٰؤُلاٰءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقينَ ﴿٣١﴾ قٰالُوا سُبْحٰانَكَ لاٰ عِلْمَ لَنٰآ اِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا اِنَّكَ أَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيمُ ﴿٣٢﴾ قٰالَ يٰا آدَمُ اَنْبِئْهُمْ بِاَسْمٰآئِهِمْ قٰالَ أَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ اِنّيَ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَمٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

◁ اللّغة

آدم: قيلَ سمّي بذلك لكون جسده من اديم الأرض و قيل سمرة في لونه يقال رجلٌ أسمر و قيل سُمّي بذلك لكونه من عناصرٍ مختلفة و قُوىً متفرِقة يقال جعلت فلاناً، آدمة علىٰ أهل خلطته بهم و قيل سمّي بذلك لِما طيّب من الرُّوح المنفوح فيه المذكور في قوله: **وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي** [1] و ذلک من قولهم إلاّ آدم و هو ما يطيب به الطّعام.

الْاَسْمٰآءُ: جمع الإسم و قد مرّ معناه و أنّه مشتقّ من أيّ شيٍ

اَنْبِئُوني: أمرٌ من أنباء يُنْبِئُ إنباءً

سُبْحٰانَكَ سُبحان: بضمّ السّين في الأصل مصدر نحو خضران والسَّبح المرَّ السّريع في الماء و سُبحان من أسماءه تعالىٰ وقد مرّ الكلام في التّسبيح في الأية السّابقة.

العليم: مبالغة في العِلم.

الْحَكيمُ: مبالغة في الحِكمة.

١- الحجر= ٢٩

◁ الإعراب

وَعَلَّمَ اٰدَمَ الْاَسْمٰآءَ كُلَّهٰا قيل الواو واو الإستئناف و عليه عَلَم، فعل و فاعله اللّه و هو مستتر فيه و آدَم مفعوله الأوّل الْاَسْمٰآءُ مفعوله الثّاني وكُلّ لِلتأكيد و ضمير،ها، يرجع الىٰ الأسماء، و قيل الجملة معطوفة علىٰ قوله تعالىٰ وإذ قال ربّك، و عليه فموضعها الجرّ لإنّها معطوفة علىٰ الكاف المجرور بباء ثُمَّ عَرَضَهُمْ أي عرض أصحاب الأسماء فلذلك ذكر الضّمير، و عَرَض، فعل و فاعل و هُم مفعوله هٰٓؤُلاٰءِ لفظ مبنّي على الكسر اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ شرط وجزاء قٰالُوا سُبْحٰانَكَ منصوب علىٰ المصدر عند الخليل و قال ألكسائي منصوب علىٰ أنّه نداء مضاف اِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا ما مصّدرية و موضعه رُفع علىٰ البدل من موضع، لا علم كقولك لا إلّه إلاّ اللّه اِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أنتَ مبتدأ والعَلِيم خبره، والجملة خبر، أنّ والحَكِيم خبر ثان أو صفة للعليم علىٰ قول من أجاز صفة الصّفة قٰالَ يٰاۤ اٰدمَ، آدَم، منادي اَنْبِئْهُمْ بِاَسْمٰآئِهِمْ فاعل الفعل مستتر فيه و هُم مفعوله الأوّل و أسماءهُم مفعوله الثّاني و قد تعدىٰ اليه بحرف الجرّ و هو با و هكذا في الجملة الثّانية قٰالَ أَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ الهَمزة للإستفهام الإنكاري أي قلت لكم و، اَقل مجزوم بلَم، اِنّيۤ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ أنّ من حروف المشبهة بالفعل، و الياء إسمه و أعلم في موضع الخبر وَاَعْلَمُ مٰا تُبْدُونَ وَمٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ، ما في الموضعين موصولة و التقدّير ما تُبدونه، و تكتمونه فالرّابط بين الموصول والصلّة محذوف و هو شايع كثير الإستعمال.

◁ التّفسير

لمّا بيّن اللّه تعالىٰ في الآية المتقدّمة اِنّى جٰاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةًو قال الملائكة اَتَجْعَلُ فيهٰا ألخ... وأجاب بقوله: اِنّىۤ اَعْلَمُ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ أراد إثبات

ذلك لِلملائكة فقال :**وَعَلَّمَ ادَمَ الْاَسْمٰآءَ كُلَّهٰا** الىٰ آخر الآية ليبيّن فضل آدم عليهم وعلىٰ جميع خلقه بما خصّه من العلم بالأسماء كلّها و أختلف المفسّرون في معنىٰ الأسماء والمراد بها في المقام علىٰ أقوال.

أحدها: أنّه تعالىٰ علّمه جميع الأسماء والصّناعات و عمارة الأرض و الأطعمة و الأدوية و إستخراج المعادن و غرس الأشجار و منافعها و جميع ما يتعّلق بِعمارة الدّين والدّنيا نقل هذا القول عن إبن عبّاس و سعيد إبن جُبير و أكثر المتّأخرين.

ثانيها: رُوي عن أبي علّي الجّبائي أنّه علّمه الأسماء كلّها ما خلق و ما لم يخلق بجميع اللّغات الّتي تتّكلم بها ولده بعده قالوا فأخذوا عنه ولده اللّغات فلّما تفرّقوا تكّلم كلّ قومٍ بلسانٍ ألفوه و أعتادوه و تطاول الزّمان علىٰ ما خالف ذلك فنسوه و يجوز أن يكونوا عالمين بجميع تلك اللّغات الىٰ زمن نوح فلّما أهلك اللّه النّاس إلاّ نوحاً و من تبعه كانوا هم العارفين بتلك اللّغات فلّما كثروا و تفرّقوا إختار كلّ قومٍ منه لغة تكّلموا بها وتركوا ما سواه ونَسوه.

ثالثها: أنّه تعالىٰ علّمه أسماء الملائكة و أسماء ذريتّه و هذا القول مروّي عن الرّبيع.

رابعها: أنّه علّمه ألقاب الأشياء و معانيها وخواصّها و هو أنّ الفَرَس يصلح لماذا والحِمار يصلح لماذا.

خامسها: ما روي عن الصّادق عليه السلام: **أنّه قال المراد بالأسماء الأرضين والجّبال والشّعاب والأودية ثمّ نظر الىٰ البساط تحته فقال و هذا البساط ممّا علّمه وهذه الوجوه نقلها الطّبرسي في المجمع.**

سادسها: ما نقله الفيض قدس سره **في الصّافي عن تفسير الإمام عن السّجاد** عليه السلام: **أنّه تعالىٰ علّمه أسماء كلّ شيءٍ وفيه ايضاً أسماء أنبياء اللّه و أولياءه و عُتاة اعداءه.**

سابعه: ما قاله الطّبري في تفسيره قال أنّه أسماء ذريّته وأسماء الملائكة دون أسماء سائر الأجناس.

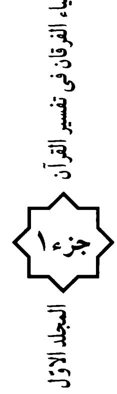
ثامنها: ما ذهب اليه الرّازي حيث قال المشهور أنّ المراد أسماء كلّ ما خلق اللّه من أجناس المُحدثات من جميع اللّغات الّتي يتكلّم بها وُلد آدم اليوم من العربّية و الفّارسية و الرّومية و غيرها وكان ولد آدم يتكلّمون بهذه اللّغات فلّما مات آدم و تفرّق وُلده في نواحي العالم تكلّم كلّ واحدٍ منهم بلغةٍ معيّنةٍ من تلك اللّغات فغلب عليه ذلك اللّسان فلمّا طالت المّدة و مات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللّغات فهذا هو السبب في تغيّر الألسنة في وُلد آدم عليه‌السلام إنتهىٰ ما ذكره.

تاسعها: ما ذكره الزّمخشري في الكّشاف و أرتضاه و هو أنّه تعالىٰ علّمَ آدم الأسماء كلّها أي أسماء المُسّميات فحذف المُضاف اليه لِكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء لأنّ الإسم لابّد له من مسّمى و عوض منه اللاّم كقوله تعالىٰ: **وَ اَشْتَعَلَ اَلرَّأْسُ شَيْبًا** ثمّ قال - فإن قلت هلاّ زعمت أنّه حذف المضاف و أُقيم المضاف اليه مقامه و أنّ الأصل و علّم آدم مسمّيات الأسماء قلت لأنّ التعلّيم وجَب تعليقه بالأسماء لا بالمسمّيات لقوله تعالىٰ: **اَنْبِئُونِي بِاَسْمٰاءِ هٰٓؤُلٰاءِ**، أنبأهم بأسمائهم فلّما أنبئهم بأسمائهم، فكما علّق الأنباء بالأسماء لا بالمُسّميات و لم يقل أنبئوني بهؤلاء أنبئهم بأسمائهم وجَب التعلّيم بها.

فأن قلت فما معنىٰ تعليمهم أسماء المسمّيات قلت أراه الأجناس الّتي خلقها وعلّمه أنّ هذا إسمه فَرسٌ و هذا إسمه بعيرٌ و هذا إسمه كذا و كذا و علَّمه أحوالها و ما يتعلّق بها من المنافع الدّينيّة والدّنيويّة انتهىٰ.

فهذه هي الأقوال التّي وصلت الينا من تفاسيرهم و قِس عليها ما لم نذكره.

روي في بصائر الدّرجات بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: أنّ رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال أنّ اللّه مثل لي أمّتي في الطّين و علّمني أسماءهم كما عَلَّم آدم الأسماء كلّها.



و عنه عليه السلام قال: أهدىٰ الي رسول الله دالجوح فيه حبّ مختلط فَجَعل رسول الله يلقي علّي حبّة صلى الله عليه و آله و سلم حَبّة و يسأله أيّ شئ هذا وجَعل علّي عليه السلام يخبره فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أما أنّ جبرئيلاً أخبرني أنّ الّه عَلَّمك إسم كلّ شئ كما :وَعَلَّمَ ادَمَ الْاَسْمٰآءَ كُلَّهٰا انتهىٰ[1].

و في تفسير البرهان عن ابن بابويه بأسناده عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ: عَلَّمَ ادَمَ الْاَسْمٰآءَ حُججه كلّها ثمّ عَرضهم و هم أرواح علىٰ الملائكة الخبر قوله تعالىٰ: ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلآئِكَةِ فَقٰالَ اَنْبِئُونى قالوا أي ثمّ عرض اللّه تعالىٰ أصحاب الأسماء علىٰ الملائكة.

و عن ابن عبّاس أنّه قال عَرض الخَلق والمراد من أصحاب الأسماء المسمّيات في الحقيقة و لمّا كان فيهم العقلاء و غير العقلاء غلّب العقلاء فقال، عرضهم، و لم يقل عرضها ثمّ إختلفوا في كيَفية العَرض علىٰ الملائكة فقال بعضهم خَلق اللّه معاني الأسماء التيّ علّمها آدم حتّىٰ شاهدتها الملائكة و قيل صوّر في قلوبهم هذه الأشياء.

فصارت كأنّهم شاهدوها، و قيل عَرض عليهم من كلّ جنسٍ واحد وأراد بذلك تعجيزهم **فَقٰالَ اَنْبِئُوني بِاَسْمٰاءِ هٰؤُلاٰءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** أي أخبروني فأنّ الأنباء الأخبار و معنىٰ قوله:**اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** أي إن كنتم صادقين في دعواكم قيل لأنّهم خَطر ببالهم أنّه لن يخلق اللّه خَلقاً إلاّ و هُم أعلم منه و أفضل في سائر أنواع العلم فقيل: **اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** في هذا الظّن فأخبروا بهذه الأسماء و قيل المراد **اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ**في أنّكم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة فأنبوئني بأسماء هؤلاء و أمثال ذلك من الوجوه المذكورة في التّفاسير و الأحسن أن يقال أن كنتم صادقين في زَعمكم أنّي

١- نور الثّقلين ج ١ص ٥٥

أستَخلف في الأرض مُفسدين سفاكّين لِلدّماء إرادة للرّد عليهم و أنّ فيمن يستخلفه من الفوائد العلّمية التّي هي أصول الفوائد كلّها ما يستأهلون لأجله أن يستَخلفوا فأراهم بذلك وبيّن لهم بعض ما أجمل من ذكر المصالح في إستخلافهم في قوله: **اِنّيۤ اَعْلَمُ ما لاٰ تَعْلَمُونَ، قٰالُوا سُبْحٰانَكَ لاٰ عِلْمَ لَنٰآ اِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا اِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** لمّا قال اللّه تعالىٰ لهم أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا في الجواب سبحانك **لاٰ عِلْمَ لَنٰآ اِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا،** أي تنزيهاً لك عن أن يَعلم الغَيب سواك هكذا قيل في معنىٰ، سبحانك، وليس بشيءٍ بل المعنىٰ أنت منزّه عن النّقائص بقول مطلق و ذلک لأنّ تسبيحه تعالىٰ تنزيهه عمّا لا يليق بجنابه كيف ففي الكلام إشعار بأنّ المخلوق لا يعلم من عند نفسه شيئاً إلاّ ما عَلّمه الخالق فكما أنّه فى وجوده محتاج اليه كذلك في جميع صفاته فقولهم لا علم لنا إلاّ ما علمتنا، يدّل علىٰ أنّ العلم بالأسماء كان مختّصاً به تعالىٰ ولَم يٌعلّم الملائكة من هذا العلم شيئاً ولذلك عجزوا عن الجواب و قالوا لا علم لنا وفي قوله: **أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** إشارة بأنّ اللّه تعالىٰ هو العالم بكلّ شيءٍ فأنّ العليم مبالغة في العلم كما أنّ الحكيم مبالغة في الحكمة **قٰالَ يٰآ اٰدَمَ اَنْبِئْهُمْ بِاَسْمٰآئِهِمْ،** لمّا عجزوا عن الجواب وأقرّوا بالجَهل قال اللّه تعالىٰ لآدم: **يٰآ اٰدَمَ اَنْبِئْهُمْ بِاَسْمٰآئِهِمْ** فلمّا أنبأهم آدم بأسماءهم قال أي قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ اِنّيۤ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمْ مٰا تُبْدُونَ** و تظهرون **وَمٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** أي تخفون في نفوسكم، إن قلت لِمَ قال اللّه تعالىٰ لآدم **يٰآ اٰدَمَ اَنْبِئْهُمْ** الخ.

قلت أراد اللّه تعالىٰ أن يبيّن لهم فضل آدم عليهم و لو أنبأهم اللّه تعالىٰ بنفسه لم ينكشف لهم فضل آدم ولم يعلموا أنّ آدم أعلم منهم.

إن قلت لمّا أنبأهم آدم بأسماءهم فحقّ الكلام أن يقول آدم لهم أنّي أعلم غيب السّموات الخ لأنّه هو المعلّم للملائكة في تعليمه الأسماء لهم.

قلت في الجواب إشعار بأنّ آدم علَّمَهم بتعليم اللّه إيّاه لا من عند نفسه وفي **وَاَعْلَمْ مٰا تُبْدُونَ وَمٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** إشارة بأنّ اللّه يعلم السّر كما يَعلَم العَلَن فلا يخفىٰ عليه شئ و لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض و لا في السّماء و هو بكلّ شئ عليم هذا تفسير الأيات بظاهرها ولكن يستفاد منها أُمور لا بأس بالإشارة اليها إجمالاً:

الأمر الأوّل: قال بعض المحقّقين ليس المراد بتعليم الأسماء تعليم الألفاظ الدّالة فَحسب كيف و هو يرجع الىٰ تعليم اللّغة وليس هو علماً يصلح لأن يتفاخر به علىٰ الملائكة و يتفضّل به عليهم بل المراد بالأسماء حقائق المخلوقات الكائنة في عالم الجبروت المُسمّاة عند طائفة بالكلمات و عند قومٍ بالأسماء و عند أخرين بالعقول و بالجملة أسباب وجود الخلائق و أرباب أنواعها التّي بها خُلقت و بها قامت و بها رزقت فأنّها أسماء اللّه لأنّها تدّل علىٰ اللّه بظهوره في المظاهر دلالة الأسم علىٰ المسمّىٰ فأنّ الدّلالة كما تكون بالألفاظ كذلك تكون بالذّوات من غير فرقٍ بينهما فيما يؤل الىٰ المعنىٰ و اسماء اللّه لا تشبه أسماء خَلقه و أنّما أُضيفت في الحديث تارةً الىٰ المخلوقات كلّها لأنّ كلّها مظاهرها التّي فيها ظهرت صفاتها مجتمعةً أي ظهرت صفات اللّطف كلّها في الأولياء و صفات القهر كلّها في الأعداء الىٰ أن قال قدّس سرّه والمراد بتعليم آدم الأسماء كلّها خلقه من أجزاءٍ مختلفة وقوىً متباينة حتّىٰ إستّعد لإدراك أنواع المدركات من المعقولات و المحسوسات والمتّخيلات و الموهومات و إلهامه معرفة ذوات الأشياء و خواصّها و أصول العلم و قوانين الصّناعات وكيفيّة ألاتها والتّمييز بين أولياء اللّه و أعداءه فتأتي له بمعرفة ذلك كلّه مظهّرية لأسماء اللّه الحسنىٰ كلّها و بلوغه مرتبة أحدّية الجمع التّي فاق بها سائر أنواع الموجودات ورجوعه الىٰ المقام الأصلي الذّي جاء منه وصار مُنتخباً الكتاب اللّه الكبير الّذي هو العالم الأكبر قال أمير

المؤمنين و فيك إنطوىٰ العالم الأكبر انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه رفع مقامه.

والتّحقيق في المقام أنّ الأسم ما يدّل علىٰ المسمّىٰ و هذا ممّا لا كلام فيه لأحدٍ ثمّ نقول دلالة الأسم علىٰ المسمّىٰ علىٰ وجهين:

أحدهما: دلالته عليه بإعتبار صفة في المسمّىٰ.

ثانيهما: لا كذلك، فالأوّل يدّل علىٰ الذّات الموصوفة بصفةٍ معيّنة كلفظ الرّحمٰن فأنّه يدّل علىٰ الذّات المتّصفة بالرّحمة، و القهّار يدّل علىٰ الذّات الموصوف بالقهر و هكذا الرّزاق والخالق وغيرهما ممّا يعتبر في مسمّاه الصّفة.

الثّاني: يدّل علىٰ الذّات من غير إعتبار الصّفة فيه كلفظ، اللّه، مثلاً و من هذا القبيل زيد و عمرو و بكر و غيرهما ممّا يدّل اللّفظ علىٰ مجرّد الذّات و قد يطلق اللّفظ علىٰ مظهر صفة الذّات بإعتبار إتّصافه بها كالنّبي الّذي هو مظهر هداية اللّه فأنّه إسم اللّه، الهادي، لعباده قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لنبيّه: **إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ**[1] فالهادي من أسماء اللّه تعالىٰ و يطلق علىٰ الرّسول بإعتبار أنّه كان مظهراً لهدايته فالأسماء الملفوظة بهذا الإعتبار هي في الحقيقة أسماء الأسماء و لذلك لمّا سُئل الرّضا عليه السلام عن الأسم ماهو، قال صفة لموصوف، و هذا الكلام منه عليه السلام يحتمل المعنيين المذكورين و أن كان في المظهر أظهر هذا، و قد يطلق الأسم علىٰ ما يفهم اللّفظ أي المعنىٰ الذّهني وعليه ورد قول الصّادق عليه السلام من عبد اللّه بالتوّهم فقد كفر وعن عبد الأسم والمعنىٰ فقد أشرك و من عَبد المعنىٰ بإيقاع الأسماء عليه بصفاته الّتي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه و نطق به لسانه في سرائره و علانيته فأولئك هم المؤمنون حقّاً، فأن المراد بالأسم هاهنا ما يفهم من اللّفظ لا اللّفظ بما هو هو اذ اللّفظ لا يعبد والمراد بالمعنىٰ ما يصدق عليه اللّفظ فالأسم معنىٰ ذهنّي والمعنىٰ موجود عيّني و هو المسمّىٰ والأسم غير المُسمّىٰ لأنّ الإنسان مثلاً

۱- الرعد = ۷

في الذّهن ليس بإنسان و لا له جسميّة و لا حسّ و لا حركة و لا نطق و لا شئ من خواصّ الإنسانية والإنسان الموصوف بهذه الصّفات هو الموجود في الخارج اذا عرفت هذا فإعلم أنّ لكلّ إسمٍ من اسماء الإلٰهيّة مظهراً من الموجودات بإعتبار غلبة الظّهور الصّفة التّي إشتمل عليها ذلك الأسم و هو إسم اللّه بإعتبار دلالته علىٰ اللّه من جهة إتّصافه بذلك الصّفة و حيث أنّ اللّه تعالىٰ خالق و مُدّبر لكلّ نوعٍ من أنواع الخلائق بإسم من أسماءه فذلك الأسم هو ربّ ذلك النّوع و اللّه سبحانه ربّ الأرباب و الىٰ هذا المعنىٰ أشير في بعض الأدعية المأثورة عنهم عليهم السّلام بقولهم (و بالاسم الذّي خَلَقت بها العرش و بالاسم الّذي خَلقت بها الكرسي و بالأسم الّذي خلقت به الأرواح الخ).

و قد وَرد عن مولانا الصّادق عليه السلام أنّه قال نحن واللّه الأسماء الحسنىٰ التّي لا يقبل اللّه عملاً إلاّ بمعرفتنا و ذلك لأنّهم وسائط معرفة ذاته و وسائط ظهور صفاته و أرباب أنواع مخلوقاته و لا يحصل لأحدٍ العلم بالأسماء كلّها إلاّ اذا كان مظهراً لها كلّها و لا يكون مظهراً إلاّ اذا كان في جبليّة إستعداد قبول ذلك كلّه و حيث أنّ آدم عليه السلام كان مُستّعداً لذلك صار مَظهراً لكلّ الأسماء فلا محالة حَصَل له العلم بكلّها أيضاً و امّا الملائكة فلم يكونوا مُستّعدين بقبول المظهرّية الكاملة و لذلك لم يحصل لهم العلم بالأسماء كلّها فقالوا لا علم لنا إلاّ ما عَلَّمتنا و امّا آدم فلإستعداده و قابلّيته حصَلَت له المظهّرية الكاملة و العِلم بالأسماء كلّها و بذلك صار معلّماً للملائكة فأنبأهم بأسماءهم و أيّ شرفٍ و فضيلةٍ أحسن من شرف العلم النّاشئ عن كمال الإستعداد و هذا ممّا لا خلاف فيه عنه العقلاء فى جميع الملل المختلفه فى العالم.

الأمر الثّانى: انّ الآية قد دلّت علىٰ أنّ العلم أشرف الفضائل و لا فضيلة أعلىٰ منها و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ فضّل آدم علىٰ الملائكة بالعلم فلو كانت

فضيلة الموجود علىٰ موجودٍ أخر بشيءٍ غير العلم من الصّفات لكان أولىٰ بالذّكر والمفروض أنّ آدم كان مظهراً لجميع الكمالات من السّخاوة والعدالة والشّجاعة و العّفة و غيرها و لم يجعل اللّه تعالىٰ ملاك الفضيلة فيه غير العلم و هو من أدّل الدّليل علىٰ كونه رأس الفضائل و هو كذلك اذ مدار جميع الفضائل النّفسانية والكمالات الرّوحية و البدنيّة علىٰ العلم و لم يتوقف العلم علىٰ شيءٍ منها كيف و المعرفة التّي جعلت علّة غائية لأصل الإيجاد تتوقّف علىٰ العلم فمن لا علم له لا مَعرفة له بل جريان كلّ الصّفات علىٰ مجراها الحقيقي لا يمكن بدون العلم قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** [١] و به قامت السّموات والأرضون و به فضّل الإنسان علىٰ غيره و به يُكتب الكمال الحقيقي و به يتقرّب العبد الىٰ اللّه تعالىٰ و به يصل الى أعلىٰ مرتبة العبوديّة و به يصل الىٰ الفوز العظيم و بالجملة به يكتب ما فيه سعادة الدّنيا والأخرة ولذلك خصّه اللّه تعالىٰ بالذّكر فقال :**وَعَلَّمَ ءادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**

الأمر الثّالث: يستفاد من الآية أنّ التكلّم بشيءٍ لا يكون للمتكلّم علم به مذموم ولذلك قال اللّه تعالىٰ في جواب الملائكةً أنّي أعلم ما لا تعلمون، و هذا في الحقيقة توبيخ لهم أي إسكتوا عمّا لا تعلمون، فَلِمَ قلتم **اَتَجْعَلُ فِيهَا**، فالواجب علىٰ من سئل عن علمٍ و هو لا يعلم أن يقول لا أعلم.

الأمر الرّابع : أنّ رفع الجهل ممدوح حتّىٰ الإمكان فعلى الجاهل السّؤال و علىٰ العالم الجواب بل يجب علىٰ العالم تعليم الجاهل اذا علم أنّه وقع فيه و أن لم يسأل و ذلک لأنّه كثيراً ما يكون الإنسان جاهلاً بالجهل البسيط و هو الجهل السّاذج بمعنىٰ أنّه عالم بجهله غافل عمّا هو فيه فاذا رأىٰ العالم جاهلاً كذلك ينبغي له أن يوقظه من نوم الغفلة، فيعلمّه بما فيه صلاحه وسداده.

١- الزمر= ٩

نعم في الجهل المرّكب يكون الأمر أصعب لأنّ الجاهل بالجهل المرّكب يرىٰ نفسه عالماً و لا يعتقد بأنّه لا يعلم ففي هذه الصّورة لا يقبل قول غيره فهو مصداق لقوله تعالىٰ ذَرهم في خوضهم يلعبون.

اذا عرفت هذا و علمت قسمي الجهل فنقول لاشكّ أنّ الملائكة كانوا جاهلين بالأسماء و قد يستفاد من بعض الكلمات من مفسّري العامّة و الخاصّة أنّ جهلهم كان جهلاً مرّكباً لظّنهم أنّ الخليفة يفسد فيها و يسفك الدّماء مع أنّ الواقع بخلافه فكانوا جاهلين بحقيقة الأمر و لم يعلموا أنّهم كذلك.

والحقّ أنّ الأمر علىٰ خلاف ما زعموه و حملوا الآية عليه بل جهلهم كان بسيطاً و قوله: **أَتَجْعَلُ فيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فيهٰا** الخ... لا يدّل علىٰ إدّعائهم العلم بحقيقة الأمر و أنّ الخليفة من هُو، بل يدّل علىٰ ذكر الأثار المترتّبة علىٰ الموجود في الأرض علىٰ قياس الجنّ والنّساس والدّليل علىٰ المُدّعىٰ من الأية قوله تعالىٰ: **سُبْحٰانَكَ لاٰ عِلْمَ لَنٰآ اِلاّٰ مٰا عَلَّمْتَنٰا** فأنّ كلمة، **لا**، لِنفي الجّنس فنفّوا جنّس العلم في المقام من أنفسهم و هو دليل على علمهم بجهلهم و لا نعني بالبسيط إلاّ هذا مضافاً الىٰ أنّ مقام الملك منزّه عن الجَهل المركب الّذي يدّل علىٰ العناد واللّجاج و عدم القابلية و الإستعداد واللّه أعلم بحقائق الأمور سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنّك أنتَ العليم الحَكيم.

■

وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰائِكَةِ اسْجُدُوا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوا اِلاّٰ اِبْلِيسَ اَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكٰانَ مِنَ الْكٰافِرِينَ ﴿٣٤﴾

◁ اللّغة

اسْجُدُوا:، السُّجود أصله التّطامن و التذلّل و جَعل ذلك عبارة عن التذلّل لِلّه و عبادته.

اِبْلِيسَ:الإِبلاس الحزن المعترض من شدّة اليأس يقال، أبلَس، و منه أشق إبليس علىٰ ما قيل قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَوْمَ تَقُومُ اَلسّٰاعَةُ يُبْلِسُ اَلْمُجْرِمُونَ**[1]

اَبىٰ: أبىٰ يأبى أي، إمتنع.

اسْتَكْبَرَ: الإستكبار ضدّ التّواضع.

◁ الإعراب

وَاِذْ قُلْنٰا في موضع نصب أي و أذكر إذ قلنا لِلملائكة **اسْجُدُوا لِاٰدَمَ** فعل و فاعل و آدم في محل النّصب علىٰ المفعول، **اِلاّٰ اِبْلِيسَ** إستثناء منقطع علىٰ المشهور و سيأتي البحث فيه و أبىٰ في موضع نصب علىٰ الحال من إبليس **وَكٰانَ مِنَ الْكٰافِرِينَ** قيل أنّه مستأنف و قيل في موضع حالٍ.

◁ التّفسير

ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ ما أعطىٰ آدم من الفضّل والشّرف والإجلال والإكرام حيث جعله مسجوداً للملائكة فقال: **وَاِذْ قُلْنٰا لِلْمَلٰائِكَةِ اسْجُدُوا لِاٰدَمَ** أي إذكر يا محمّد إذ قلنا ذلك لهم والبحث في مقامين.



١- الروم = ١٢

أحدهما: أنّ الملائكة المأمورون بالسّجدة لآدم جميعهم أو بعضهم، الثّاني: في أنّ السّجدة ما معناها في المقام.

أمّا المقام الأوّل: فإختلفوا فيه فقال بعضهم أنّ الأمر بالسّجود كان لجميع الملائكة بدليل قوله تعالىٰ:**فَسَجَدَ ٱلْـمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْـمَعُونَ**[1] و هذا تأكيد للعموم و قال قوم أنّ الأمر بالسّجود كان خاصّاً بطائفةٍ منهم و هم الّذين كانوا مع إبليس في تطهير الأرض من الجانّ و النّنساس و المشهور عند مفسّري العامّة هو القول الأوّل وإستدّلوا عليه.

أمّا أوّلاً: بأنّ لفظ الملائكة صيغة الجمع و هي تفيد العموم و لا سيّما و قد وردت هذه اللّفظة مقرونة بأكمل وجوه التّأكيد في قوله فسجد الملائكة كلّهم أجمعون.

ثانياً : بأنّه تعالىٰ إستثنىٰ إبليس منهم فقال إلاّ إبليس، وإستثناء الشّخص الواحد منهم يدّل علىٰ انّ غير ذلك الشّخص داخل في ذلك الحكم والمشهور عند الشّيعة أنّ إبليس لم يكن منهم واقعاً وأن كان منهم ظاهراً قال بعضهم أنّ اللّه تعالىٰ أنّما أدَخله في لفظ الملائكة لأنّه كان مخلوطاً بهم وكونه ظاهراً منهم و أنّما وجّه الخطاب في الأمر بالسّجود الىٰ هؤلاء الحاضرين وكان بينهم فَشمله الأمر.

بعبارةٍ أخرىٰ كان إبليس أيضاً مأموراً بالسّجود لكونه ظاهراً منهم مظهراً لصفاتهم كما أنّ الخطاب، في **يا أيّها الّذين أمنوا**، يشمل المنافقين أيضاً لكونهم ظاهراً من المؤمنين و امّا ظنّ الملائكة فيحتمل أن يكون المراد أنّهم ظنّوا أنّه منهم في الطّاعة و عدم العصيان لأنّه لا يبعد أن لا يعلم الملائكة أنّه ليس منهم مع أنّهم رفعوه الىٰ السّماء وأهلكوا قومه فيكون من قبيل قوله عليه السلام سلمان منّا أهل البيت علىٰ أنّه يحتمل أن يكون الملائكة، ظنّوا أنّه كان ملكاً

١- الحجر= ٣٠

جعله اللّه حاكماً علىٰ الجنّ و يحتمل أن يكون هذا الظّن من بعض الملائكة الّذين لم يكونوا بين جماعة قتلوا الجانّ و رَفعُوا إبليس انتهىٰ.

و الأصل فيه مارواه المجلسي عن جميل ابن درّاج قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن إبليس أكان من الملائكة أو كان يلي شيئاً من أمر السّماء فقال عليه السلام :لم يكن من الملائكة و كانت الملائكة ترىٰ أنّه منهم و كان اللّه يعلم أنّه ليس منهم و لم يكن يلي شيئاً من أمر السّماء، و لا كرامة فأتيتُ الطّيار فأخبرته بما سمعت فأنكر و قال كيف لا يكون من الملائكة واللّه يقول للملائكة إسجدوا لآدم فَسجدوا إلاّ إبليس، فَدخل عليه الطّيار فَسأله و أنا عنده فقال له جُعلت فداك قول اللّه عزّ وجلّ يا أيّهاالّذين أمنوا، في غير مكان لمخاطبة المؤمنين أيَدخل في هذه المنافقون فقال نعم يدخلون في هذه المنافقون والضّلال وكلّ من أقّر بالدّعوة الظّاهرة انتهىٰ[1].

و نظير ذلك مارواه في تفسير نور الثّقلين عن جميل عن أبي عبد اللّه عليه السلام: قال فسئل عمّا ندب اللّه الخلق اليه أدخل فيه الضّلال قال عليه السلام نعم والكافرون دخلوا فيه لأنّ اللّه تبارك و تعالىٰ أمر الملائكة بالسّجود لآدم فدخل في أمره الملائكة و إبليس فأنّ إبليس كان مَع الملائكة في السّماء يعبد اللّه و كانت الملائكة تَظنّ أنّه منهم فلمّا أمَرَ اللّه الملائكة بالسّجود لآدم أخرج ما كان في قلب إبليس من الحسد فعلمت الملائكة عند ذلك أنّ إبليس لم يكن منهم فقيل له فكيف يقع وقع الأمر علىٰ إبليس وأنّما أمَرَ اللّه الملائكة بالسّجود لآدم فقال عليه السلام: كان إبليس مُبهمٌ بالولاء و لم يكن من جنس الملائكة و ذلك أنّ اللّه خلق خلقاً قبل آدم وكان إبليس منهم حاكماً

١- بحار الأنوار ج ٥ ط كمباني ص ٤٠

في الأرض فعتوا و أفسدوا و سفكوا الدّماء فَبَعث اللّه الملائكة فقتلوهم وأسروا إبليس و رَفَعوه الىٰ السّماء فكان مع الملائكة يعبد اللّه الىٰ أنّ خلق اللّه تبارك و تعالىٰ آدم انتهىٰ.

و أيضاً بأسناده الىٰ أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أنّ الملائكة يحسبون أنّ إبليس منهم و كان في علم اللّه أنّه ليس منهم فإستَخرج ما في نفسه بالحمّية والغضب فقال خلقتني من نار و خَلَقته من طينٍ انتهىٰ.

المقام الثّانى: في تفسير السّجود والمراد به في الآية إعلم أنّ السّجُود في أصل اللّغة التّطامن والتَّذلل و جُعل ذلك عبارة عن التّذلل لِلّه و عبادته و هو عام في الإنسان والحيوانات والجمادات ثمّ أنّه علىٰ قسمين سجودٌ بالا ختيار و هو مختّص بالإنسان ويه يستحق الثّواب قال اللّه تعالىٰ: **فَاسْجُدُوا لِلّٰهِ وَ اَعْبُدُوا**(١) أي تَذَللوا له.

والثّانى: بغير الإختيار - و يعبّر عنه بالسّجود التّسخيري و هو عامّ للإنسان والحيوان و النبات و علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى اَلسَّمٰوٰتِ وَ اَلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**(٢) و يقال في تعريفه: هو الدّلالة الصّامتة النّاطقة المَنْبهة علىٰ كونها مخلوقة و أنّها خَلق فاعلٍ حكيم.

هذا كلّه بحسب اللغة و امّا في إصطلاح الشّرع فمعناه وجه الجبهة علىٰ الأرض لِلّه تعالىٰ بقصد التقرّب والسّجود بهذا المعنىٰ مختصّ بالمكلّفين و لا يجوز لأحدٍ غير اللّه تعالىٰ و ذلک لأنّه عبادة محضة و من عَبد غير اللّه فهو مشركٌ.

اذا عرفت هذا فنقول سجود الملائكة لِآدم لم يكن بالمعنىٰ الشّرعي المُصطلح عند المتّشرعة لأنّ السّجود بهذا المعنىٰ لا يجوز لغير اللّه تعالىٰ بالإتّفاق بل هو بمعناه اللّغوي أعني به التّطامن والتذلّل له والقيام بمصالحه و مصالح أولاده.

١- النجم = ٦٢ ٢- الرعد= ١٥

و أمّا كيفيّة سجود الملائكة لآدم فقال بعض المفسّرين من العامّة أي الملائكة وضعوا جباههم علىٰ الأرض كالسّجود المعتاد في الصّلاة إلاّ أنّه لم يكن للعبادة.

و قال بعض أخر ليس كذلك بل كان بمعناه اللّغوي و هو التّذلل والإنقياد فقوله تعالىٰ: **اسْجُدُوا لِآدَمَ** أي إخضعوا له و أقرّوا له بالفضل فَسجدوا أي إمتثلوا ما أمروا به.

القول الأوّل: كان آدم كالقبلة لهم والمسجود في الحقيقة هو اللّه تعالىٰ كما أنّ الكعبة قبلة لنا.

علىٰ الثّاني: فيكون من قبيل قوله تعالىٰ في قصّة يعقوب ويوسف:

قال اللّه تعالى: **وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا**[١].

قال اللّه تعالى: **فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَ مُوسَىٰ**[٢].

و قال الشّاعر:

فضول أزمّتها أَسجدت سجود النّصارىٰ لأحبارها

فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ معناه أنّ الملائكة إمتثلوا أمره فسجدوا لآدم و أقرّوا بفضله إلاّ إبليس إنّه أبىٰ و امتنع من السّجود واستكبر وكان من الكافرين في المقام أبحاث:

البحث الأوّل: في قوله تعالىٰ: **إِلَّآ إِبْلِيسَ** هل الإستثناء متّصل أم مُنقطع.

البحث الثّانى: في قوله: **أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ**.

البحث الثّالث: في قوله تعالىٰ: **وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**.

أمّا البحث الأوّل: إختلفوا في الإستثناء فقال بعضهم أنّه متّصل لأنّه أي إبليس كان من الملائكة ونسب القرطبي هذا القول الىٰ الجمهور و غرضه جمهور العامّة.

١- يوسف = ١٠٠ ٢- طه = ٧٠

والقول الثّاني: أنّ الإستثناء منقطع بمعنىٰ أنّ إبليس لم يكن من جنس الملائكة و أن كان في الظّاهر معهم و قد مرّ الكلام فيه و قلنا هذا هو مختار الشّيعة وتقلنا الأحاديث عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام و أهل البيت أدرىٰ بما في البيت.

و كان إسم إبليس في الأصل عزازيل فلمّا عصىٰ وإستَكبر صار مَطروداً و مَلعوناً فسمّىٰ إبليس و يقال له الشّيطان أيضاً لبعده عن رحمة اللّه و نقل عن سعيد ابن جبير أنّه قال، أنّ الجنّ سط من الملائكة خلقوا من نار و إبليس منهم و خلق سائر الملائكة من نور، و عن قتادة و ابن زيد و الحسن أنّ إبليس أبو الجنّ كما أنّ آدم أبو البشر و لم يكن ملكا و قيل إسمه الحارث و سيأتي الكلام فيه في المستقبل إن شاء اللّه تعالىٰ.

البّحث الثّانى: في قوله تعالىٰ **اَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ** أي إمتنع عن السّجود لآدم و إستكبر أي تَكبّر عليه وفيه إيماء الىٰ أنّ علّة إمتناعه عن السّجود له التكبّر عليه و أنّه يرىٰ نفسه أشرف و أفضَل من آدم و إذا كان كذلك فلا معنىٰ لِسجُوده له إذ الفاضل لا يتذلّل و لا يخضَع للمفضول بل الأمر بالعكس و إنّما قلنا ذلك لقوله تعالىٰ حكاية عنه:

قال اللّه تعالى: **أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**(١)

قال اللّه تعالى: **لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ**(٢)

قال اللّه تعالى: **ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً**(٣)

و سيأتي الكلام في خطأه عند تفسير الأيات مَبسُوطاً إنّ شاء اللّه تعالىٰ.

ثمّ أنّ المُفسّريّن إتّفقوا علىٰ أنّ معصية إبليس كانت واحدة و هي ترك

١- الاعراف = ١٢
٢- الحجر = ٣٣
٣- الإسراء= ٦١

السُّجود لآدم و لاجل ذلك طرِد و منِع و بَلَغ من البعد ما بلغ والّذي يقوىٰ في النّفس و يظهر من الآية أيضاً أنّه صدَر منه ذَنبان لا ذنب واحد.

أحدهما: إبائه وإمتناعه من السّجود وكان مأموراً به و هو الّذي أُشير اليه في الأية بقوله تعالىٰ:**أَبىٰ وَاسْتَكْبَرَ**.

ثانيها: إستكباره واستعطافه فالإباء عن السّجود أمر والتكبّر أمر آخر.

أن قلت إباءه عن السّجود منشأه التكبّر بمعنىٰ أنّ وجود الكبر فيه صار موجباً لِلإمتناع عن السّجود فكأنّهما شيء واحد أو أحدهما يلزم الآخر قلت ليس الأمر كذلك لإنّ الإمتناع عن الإتيان بالمأمور به أعمّ من أن يكون منشأه الكبر أو لا، إذ يمكن الإباء بدون التكبّر نعم قد يجتمعان والحاصل أنّ الشّيطان لو كان تاركاً للسّجود لآم من غير إستكبارٍ كان ذنبه واحداً و هو تركه المأمور به فلّما إستكبر صار ذنبه إثنين و بذلك إشتّد غضب اللّه عليه و قال أخرج فأنّك رجيم وأنّ عليك لعنتي الىٰ يوم الّدين ألا ترىٰ أنّ من تَرك الصلاة أو الصّوم أو كلّ واجب من الواجبات علىٰ سبيل التّسامح و الغّفلة و الإهمال و غير ذلك من الوجوه فهو عاص قطعاً لتركه المأمور به و امّا إذا ترك الصلاة أو غيرها إستكباراً فهو عاصٍ مستكبرٍ وله عقابان عقاب علىٰ ترك الواجب وعقاب علىٰ إستكباره و هو واضح.

أمّا البحث الثّالث: و هو قوله **وكٰانَ مِنَ الكٰافِرِينَ** فقيل معناه أنّه كان كافراً في علم اللّه تعالىٰ و قيل،كان، بمعنىٰ صار، أي من الكافرين بعد إبائه عن السّجود و تركه الإمتثال لما أُمر به وكلا المعنيين ممّا لا بأس به.

أمّا الأوّل: فلأنّ، كان، يجئ بمعنىٰ صار، كثيراً و قد جاء في القرآن أيضاً قال اللّه تعالىٰ في قصة نوح: **وَكٰانَ مِنَ الْمُقَربِين** أي و صار منهم و قال الشّاعر:

بــتيهاء قــفرٍ والمــعلّي كأنّــها
قَـطا الحـزن قـد كـانت فـراخـاً بـيوضها

أي صارت فراخاً.

و أمّا الوجه الثّانى: و هو أنّه كان في علم اللّه من الكافرين فهو أيضاً ممّا لا شكّ فيه لأنّ اللّه تعالىٰ كان عالماً بأنّه سَيكفر في إبائه عن السّجود وإستكباره و عناده في جنب آدم إلاّ أنّ علم اللّه بذلك لا يكون علّة لِكفره فأنّ العلم الأزلي ليس من العلّة بشيءٍ كما ثبت في موضعه نعم هـذا عـلىٰ القـول بـالجبر يـتمّ والعقلاء لا يقولون به فضلاً عن المتشرّعين، فلو كان في علم اللّه كافراً و علمه تعالىٰ بكفره في الأزل صار سبباً لكفره في الّدنيا فأيّ ذنبٍ له إذ المفروض أنّه كان عالماً بكفره و من المعلوم أنّه بناء علىٰ علّية العلم لا قدرة للمخلوق علىٰ خلاف عِلمه فلا ذنب له و هذا واضح و الحقّ أنّه كان من الكافرين بعد الإباء عن السُّجود مَع قدرته علىٰ الّطاعة كسائر الملائكة ولذلك صار مطروداً فالكفر في الآية ليس كفر الربّوبيّة و لا كفر المعرفة و لا كفر النِّعم، بل الكفر في المقام و ترك ما أمر اللّه عزّ وجلّ به، و هو القسم الرّابع من أقسام الكُفر مـن أقسـامه الخمسة علىٰ ما مرّ سابقاً عن قوله تعالىٰ: **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**.

و نقلنا الحديث المرّوي عن الصّادق عليه‌السلام في الباب، و يمكن إدخاله في القسم الخامس أيضاً و هو كفر البراءة علىٰ إحتمالٍ بعيد كما أنّه لا يبعد إدخاله في القسم الثّالث و هو كفر النِّعم كذلك و عليك بإستخراج الحقّ من خطأه.

■

وَقُلْنا يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلا تَقْرَبا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظّالِمينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمّا كانا فيهِ وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلىٰ حينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَميعاً فَإِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

◁ اللّغة

زَوْجُكَ الْجَنَّةَ: قال الرّاغب في المفردات، يقال لكلّ واحدٍ من القَرينين من الذّكر والأنثىٰ في الحيوانات المتزاوجة، زوجٌ، ولكلّ قرينَين فيها و في غيرها، زوج، كالخُف و النّعل و لكلّ ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد زوج، قال اللّه تعالىٰ: **فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَ ٱلْأُنْثَىٰ**[1] وَ جَعل منه الزّوجين الذّكر والأنثىٰ، قال و زوجك الجنّة و زوجَة لغة رَديئة و جمعها **زوجات** و جمع الزّوج **أزواج** انتهىٰ.

الْجَنَّةَ: كلّ بستانٍ ذي شَجَر يَستره بأشجار الأرض قيل و قد سُميّ الأشجار الساترة، **جنّة**.

رَغَداً: يقال، عيش **رَغَد** و**رَغيد**، أي واسع و أرغَد القوم حَصلوا في **رغَدٍ** من العيش.



١- القيامة = ٣٩

مُسْتَقَرٌّ: أي محلّ لِلأستقرار.

مَتَاعٌ: أصل المتنوع الإمتداد والإرتفاع يقال متع النّهار و متع النبات إذا إرتفع في أوّل النبات والمتاع إنتفاع ممّتد الوقت قال اللّه تعالىٰ: **مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ.**

هُدىً: الهدىٰ ضدّ الضّلالة.

◁ الإعراب

وَقُلْنَا الواو للعطف أو الإستئناف، قلنا فعل و فاعل **يَا آدَمُ** ياء حرف نداء و آدم مناداه **اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**، أنتَ توكيد للضمير في الفعل أتىٰ به ليصحّ العطف عليه و **زَوْجُكَ الْجَنَّةَ** معطوف علىٰ أنتَ مرفوعة الرّفع لأنّه معطوف علىٰ الفاعل **وَ كُلَا** بضّم الكاف أمرٌ من أكَل يأكُل، أصله أُأكُلَ مثل أقتل، و العرب حذفت الهَمزة الثّانية تخفيفاً و مثله، خُذ، و أصله أأخذ و لا يقاس عليه و حكىٰ سيبوية أوُكل، وهو شاّذ و منها **رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا**، **رَغَداً** صفة مصدر محذوف أي أكلا رغداً **حيث** ظرف مكان والعامل فيه، **كُلا** و يجوز أن يكون بَدلاً من الجنّة فيكون مفعولاً به **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ** الهاء بَدل من الياء في، هدي، و **الشّجرة** نعتٌ لهذه والجملة في محل النَصب علىٰ المفعولية **فَتَكُونَا** جواب النّهي لأنّ التّقدير أن تقربا، **تكونا** و حذف النّون علامة النّصب **فَأَزَلَّهُمَا** ممّا كانا فيه ما بمعنىٰ الّذي و يجوز أن تكون نكرة موصوفة و الشّيطان فاعل لقوله، **أزّل** و **هما** مفعوله **فَأَخْرَجَهُمَا** أي أخرجهما الشّيطان **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** جملة في موضع الحال من الواو في إهبطوا واللاّم متّعلقة بعدّو **وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** الواو للإستئناف أو الحال و مستّقر، مصدر بمعنىٰ الإستقرار و يجوز أن يكون مكان الإستقرار **إِلَىٰ حِينٍ** في موضع رفعٍ علىٰ أنّه صفة لمتاع و يجوز أن يكون في موضع

نصب، بمتاع لأنّه في حكم المصدر والتقدّير، و أنّ تمتّعوا الىٰ حينٍ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ** فعل و فاعل **مِنْ رَبِّهِ** في موضع نصب بتلقّىٰ ويجوز أن يكون في الأصل صفة لكلمات **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** هو ههنا مثل أنتَ في أنتَ العليم الحكيم **مِنْهَا جَمِيعاً** جميعاً، حال **فَإِمَّا** إن حرف شرطٍ و **ما**،حرف موكّد **يَأْتِيَنَّكُمْ** فعل الشَرط مُؤكد بالنّون الثقيلّة **فَمَنْ تَبِعَ** جواب الشّرط، و من في موضع رُفع علىٰ الإبتداء والخَبر **تَبِعَ** و موضع، **تَبِعَ**، جزم، **بمَن** والجواب **فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** و ضمير **هُم**، يرجع الىٰ **من** و كذلك كلّ إسمٍ شرطت به و كان مبتدأ فخبره فعل الشّرط.

◁ التّفسير

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ أي بعد ما أمَرنا الملائكة بالسّجود لآدم فَسَجدوا إلاّ إبليس علىٰ ما مرّ بيانه قلنا يا آدم أُسكُن أي إتّخذ أنت وزوجك، حوّاء الجنّة مَسكناً و مأوىٰ **وَكُلَا مِنْهَا**، أي من الجنّة و ثمارها **رَغَداً**، كثيراً واسعاً طيبّاً لا عناء فيه **حَيْثُ شِئْتُمَا** من بقاع الجنّة **وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ** أي لا تأكلا منها فمعناها لا تقرباها بالأكل **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** لأنفسكما بالأكل منها، وفي الآية مسائل:

المسئلة الأولىٰ: في خلق آدم و حّواء.

المسئلة الثّانية: في تفسير الجنّة و أنّها ما هي و ما المراد بها في الأية.

المسئلة الثّالثة: في بيان النّهي في الأية.

المسئلة الرّابعة:في بيان المراد بالشّجرة، المسئلة الخامسة في بيان معنىٰ الظّلم و المراد به في المقام في حقّ آدم.

المسئلة الأولىٰ: في خلق آدم و حّواء، فنقول الّذي يظهر لنا من الرّوايات والأيات هو أنّ خلق آدم كان قبل حوّاء والدّليل عليه من الأيات :



قال اللّه تعالىٰ: **يٰٓا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واٰحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ بَثَّ مِنْهُمٰا رِجٰالًا كَثِيرًا وَ نِسٰآءً**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خَلَقَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا**.

دليل علىٰ المُدّعي و هذا ممّا لا كلام فيه فعلىٰ هذا يجب علينا أن نقّدم البحث في آدم وكيفّية خلقه أوّلاً ثمّ نُردفه بخلق زوجه حوّاء ثانياً و لا يذهب عليك أنّ المراد في الآية الشّريفة أنّ آدم و حوّاء أوّل مخلوقٍ في الأرض بحيث لم يكن قبلهما مخلوق فيها و ذلک لما عرفت سابقاً في قوله تعالىٰ: **وَّاِذْا قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلاٰئِكَةِ اِنّى جٰاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً قٰالُوٓا اَتَجْعَلُ فيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فيهٰا وَيَسْفِكُ الدِّمٰاءَ** و هي صريحة في وجود المخلوق في الأرض قبل آدم، فلولم يكن قبله أحَداً لا معنىٰ لقول الملائكة **اَتَجْعَلُ فيهٰا مَنْ يُفْسِدُ فيهٰا** و قد مرّ في تفسير الآية أنّ الجنّ والنّسناس كانوا يعيشون فيها فلّما عَصوا و عَتوا عن أمر ربّهم دمّرهم اللّه تدميراً ثمّ جعل فيها خليفة و هو آدم أبو البَشَر فالّذي نحن بصدد البحث عنه في المقام هو كيفيّة خلق آدم في الأرض سواء أكان قبله خلقٌ من جنسه أم لا و هذا ممّا لا خلاف فيه عند الكّل و أنّما الخلاف في الموجودات قبله نوعاً و جنساً و هو خارج عمّا نحن بصدده فعلاً إذا عرفت هذه المقّدمة.

فأعلم أنّ **آدم** أصله **أأدم**، علىٰ وزن أفعل قلبت هَمزته الثّانية الفاً فصار **آدَم** وأختلفوا في مَبدأ إشتقاق الإسم فقيل أنّه مشتق من **الأدْم** بسكون الدّال و منه **إدام** الطّعام و هو ما يجعل مع الخبز فيطيبّه و روي، سيّد أدامكم اللَّحم، لأنّه أقّل مؤونة و اقرب الىٰ القناعة و عليه فسُمّي آدم بآدم لِما طُيّب به من الرُّوح المنفوخ فيه المذكور في قوله تعالىٰ: **وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي** و قيل سُمّي بـه لكون جسده من أديم الأرض و قيل لسمرةٍ في لَونه و قيل سُمّي به لكونه من

١- النساء = ١

عناصر مختلفة وقوىً متفرّقة والّذي يظهر من الأخبار هو أنّه سُمّي به لكون جسده من أديم الأرض ونحن نُشير الىٰ بعض.

ما ورد فيه روي في البحار عن أبي بصير قال سألَ طاووس اليماني أبي جعفر عليه‌السلام لِمَ سُمّي آدم آدم قال عليه‌السلام: لأنّ طينته رفعت من أديم الأرض السّفلي قال فلم سُمّيت حوّاء حوّاء قال لأنّها خلقت من ضلعٍ حَيٍ يعني آدم إنتهىٰ.

و بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام قال: إنّما سمّي آدم آدم لأنّه خلق من أديم الأرض إنتهىٰ و بأسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه قال سمّيت حوّاء حوّاء لأنّها خلقت من حيٍّ قال اللّه عزّ وجلّ (و خلق منها زَوجها) الأية.

و بأسناده قال: أتىٰ أمير المؤمنين عليه‌السلام يهوديّ فقال لم سمّي آدم آدم و حوّاء حوّاء قال عليه‌السلام إنّما سُمّي آدم لأنّه خلق من أديم الأرض إنتهىٰ.

و أمّا حوّاء فالرّوايات فيها مختلفة منها ما يدّل علىٰ أنّها خلقت من ضلع آدم كما مرّ و منها ما يدّل علىٰ أنّها خُلقت من فضل الطّين الّتي خلق منها آدم فقد روي المجلسي قدس‌سره في البحار بأسناده عن أبي جعفر عليه‌السلام لمّا سئل من أيّ شيءٍ خَلَق اللّه حوّاء فقال عليه‌السلام: أيّ شيءٍ يقول هذا الخلق قلت يقولون أنّ اللّه خَلَقها من ضلع من أضلاع آدم فقال عليه‌السلام كذبوا أكان يعجزه أن يَخلقها من غير ضلعه فقلت جُعلت فداك يابن رسول اللّه من أيّ شيءٍ خلقها فقال أَخبرني أبي عن آبائه قال قال رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ قَبَض قبضةً من طينٍ فخلطها بِيَمينه وكلتا يديه يمين فَخَلق منها آدم وفضلت فضلة من طين فخلق منها حوّاء إنتهىٰ.

و روي الصّدوق بأسناده عن وهب قال أنّ اللّه خلق حوّاء من فضل طينة آدم علىٰ صُورته و كان ألقىٰ عليه النّعاس و أراه ذلك في منامه و هي أوّل رؤيا كانت في الأرض فأنتبه و هي جالسة عند رأسه فقال عزّ وجلّ يا آدم ما هذه الجالسة قال الرّؤيا الّتي أريتني في منامي فأَنَس و حمد اللّه تعالىٰ و أوحي اليه أنّي أجمع لك العلم كلّه في أربع كلماتٍ واحدة لي، واحدة لك، و واحدة لك، و واحدة فيما بيني و بينك، و واحدة فيما بينك و بين النّاس، فأمّا الّتي لي فتعبدني و لا تشرك بي شيئاً، و أمّا الّتي لك فأجزيك بعملك أحوج ما تكون اليه و أمّا الّتي فيما بينك و بيني فعليك بالدّعاء و علّي الإجابة و أمّا الّتي فيما بينك و بين النّاس فترضىٰ للنّاس ما ترضىٰ لنفسك إنتهىٰ.

قال المجلسي ﷺ فالأخبار السّابقة أمّا محمولة علىٰ التقّية أو علىٰ أنّها خُلِقت من طينة ضلعٍ من أضلاعه والأحاديث مرويّة عن البحار[1].

وأنا أقول يظهر من مجموع الأخبار أنّ آدم خلق أوّلاً ثمّ خلقت حوّاء منه إمّا من ضلعه أو من فضلةٍ فضلة من الطّين المخلوق منها آدم والقول الثّاني أقوىٰ و أقرب الىٰ العقول معليه أكثر المحقّقين.

المسئلة الثّانية: في المراد بالجنّة في المقام، إختلفوا في جنّة آدم هل كانت في الأرض أم في السّماء و علىٰ الثّاني هل هي الجنّة الّتي هي دار الثّواب أم غيرها.

فذهب أكثر المفسّرين و أكثر المعتزلة الىٰ أنّها جنّة الخلد و قال أبو هاشم هي جنّة من جنان السّماء غير جنّة الخلد و قال أبومسلم الأصفهاني و أبو

١- ج ٥ ط كمباني ص ١٢٧ الىٰ ٣١

القاسم البلخي و طائفة هي بستان من بساتين الدّنيا في الأرض و أحتج الأوّلون بأنّ الظّاهر أنّ الألف و اللّام للعهد و المعهود المعلوم بين المسلمين هي جنّة الخلد المتبادر بالذّهن منها جنّة الخلد حتّىٰ صار كالعلم لها فوجب حمل عليها، و إحتّجت الطّائفة الثّانية بأنّ قوله تعالىٰ: **إهبطوا**، يدّل علىٰ الإهباط من السّماء الىٰ الأرض و ليست بجنّة الخُلد و إحتّجت الثّالثة بوجوهٍ:

الأوّل: أنّها لو كانت دار الخلد لما خرج آدم منها لقوله تعالىٰ: و ما هم منها بمخرجين.

الثّاني: أنّ جنّة الخلد لا يفنىٰ نعيمها لقوله تعالىٰ أُكلها دائم و ظلّها الأية، و قوله تعالىٰ: **وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا** [1] فهذه خلاصة الأقوال المنقولة في المقام.

أقول الحقّ أنّها كانت بستاناً من بساتين الأرض، أمّا الجواب عن المعتزّلة وأكثر المفسّرين في إستدلالهم بأنّ الألف و اللاّم للعَهد والمَعهود بين المسلمين هي جنّة الخُلد أمّا أوّلاً فبأنّه لا دليل علىٰ كون الألف و اللاّم للعَهد و علىٰ فَرض التّسليم لا نسلم أنّ المعهود جنّة الخُلد بل مطلق الجنّة و المتبادر الىٰ الذّهن أيضاً مطلق الجنّة التّي يعرفها النّاس من اللّغة و هو واضح.

و عن أبي هاشم بأنّ الإهباط لا يدّل علىٰ كونه من السّماء الىٰ الأرض فأنّ الإنتقال من أرضٍ الىٰ أرضٍ يصدق عليه الإهباط كما في قوله تعالىٰ: **اَهْبِطُوا مِصْرًا**.

و ثانياً قد يعبّر عن التّنزل بحسب المقام بالإهباط قال اللّه تعالىٰ :**وَ إِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللّهِ** [2] و قد يطلق الإهباط علىٰ غيره كقوله تعالىٰ:**قِيلَ يَا نُوحُ اَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَ بَرَكَاتٍ عَلَيْكَ** [3] والحاصل أنّه لا دليل علىٰ أنّ الإهباط

۱- هود = ۱۰۸ ۲- البقرة = ۷۴
۳- هود = ۴۸

مختّص بالإنتقال من السّماء الىٰ الأرض و يستفاد من الأخبار أيضاً أنّ المختار هو الحقّ في المقام.

منها ما رواه في البحار بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: لمّا سئل عن جنّة آدم و قال عليه السلام: جنّته في جنان الدّنيا تطلع عليها الشّمس والقَمر و لو كانت من جنان الخلد ما خَرج منها أبداً انتهىٰ.

و بأسناده عنه عليه السلام: أيضاً لمّا سئل عن جنّة آدم أَمن جنان الدّنيا كانت أم من جنان الأخرة فقال وكانت من جنان الدّنيا تطلع فيها الشّمس والقمر ولو كانت من جنان الأخرة ما خرج منها أبداً انتهىٰ.

و أمّا مُدة مَكثهما فيالجنّة فقد رُوي بأسناده عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال: أنّما كانت لبث آدم و حوّاء فيالجنّة حتّىٰ أُخرجا منها سبع ساعات من أيّام الدّنيا حتّىٰ أهبطهما اللّه من يَومهما ذلك.

چالمسألة الثّالثة: في بيان معنىٰ النّهي في قوله تعالىٰ: **وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ** إعلم أنّهم إختلفوا في هذا النّهي فقال بعضهم أنّه نهي التّحريم و قال الأخرون أنّه للتّنزيه كمن يقول لغيره لا تَجلس علىٰ الطّرق والفرق بين المقامين أنّ الفاعل علىٰ الأوّل مستحقّ للعقاب.

و علىٰ الثّاني، لا يستحقّه وقد يعبّر عنه بترك الأولىٰ قال الطّبرسي قدس سره فأنّ عندنا أنّ آدم كان مندوباً الىٰ ترك التناول من الشّجرة و كان بالتّناول منها تاركاً نقلاً وفضلاً و لم يكن فاعلاً بقبيح فأنّ الأنبياء لا يجوز عليهم القبائح لا صغيرها و لا كبيرها.

وقالت المعتزلة: كان ذلك صغيرة من آدم علىٰ إختلاف بينهم في أنّه وقع منه علىٰ سبيل العَمد أو السَّهو أو التّأويل و أنّما قلنا لا يجوز مواقعة الكبائر علىٰ الأنبياء من حيث أنّ القبيح يستحقّ فاعله الذّم به والعقاب لأنّ المعاصي عندنا كلّها كبائر و أنّما تَسمّىٰ صغيرة بإضافتها الىٰ ما هو أكبر منها عقاباً لأنّ

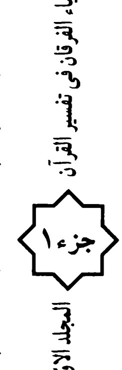
الإحباط قد دلّ الدّليل عندنا علىٰ بطلانه فاذا أبطل ذلك فلا معصية إلاّ و يستّحق فاعلها الذّم والعقاب و اذاكان الذّم و العقاب منفيين عن الأنبياء وجب أن ينتفي عنهم سائر الذّنوب و لأنّه لو جاز عليهم شيئ من ذلك لينضر عن قبول قولهم والمراد باليىنفس أنّ النّفس الىٰ قبول قول من لا يجوز عليه شيئاً من المعاصي أسكن منها الىٰ قول من يجوز عليه ذلك و ساق الكلام الىٰ أن قال و اذا صحّ ما ذكرناه علمنا أنّ مخالفة آدم لظاهر النّهي كان علىٰ الوّجه الّذي بيّناه انتهىٰ ما ذكره قدس سره.

أقول ما ذكره قدس سره في المقام حقّ لا مرية فيه فأنّ الشّيعة قد إتّفقت علىٰ عدم جواز صدور القبائح عن الأنبياء بقولٍ مطلق صغيرة كانت أوكبيرة قبل البَعث و بَعده و عَليه فالنّهي يحمل علىٰ التنزّيه و معناه أنّ آدم ترك الأولىٰ و لم يكن فاعلاً لقبيح بل كان فاعلاً لشيٍ كان تركه أولىٰ من فعله و هو ممّا لا يضّر بعصمته.

و أمّا أهل السّنة فقد إتّفقوا علىٰ أنّ الأنبياء معصومين من الكبائر و من كلّ رذيلةٍ فيها شين ونقص، و امّا الصّغائر من الذّنوب فلا.

قال القرطّبي في تفسيره بعد ذكره ما نقلناه عنهم ما لفظه فقال الطّبري و غيره من الفقهاء والمتكلّمين والمحدّثين، تقع الصّغائر منهم خلافاً لِلرافضّة حيث قالوا أنّهم معصومون من جميع ذلك و قال جمهور من الفقهاء من أصحاب مالك و أبي حنيفة و الشافعى أنّهم معصومون من الصّغائر كلّها كعصمتهم من الكبائر أجمعها لإنّا أمُرنا بإتّباعهم في أفعالهم و أثارهم و سَيرهم أمراً مطلقاً من غير إلتزام قرنية فلو جوّزنا عليهم الصّغائر لم يمكن الإقتداء بهم إنتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

و قال الرّازي في تفسيره عند قوله تعالىٰ: **وَلاَ تَقْرَبٰا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ** لا شبهة أنّه نهىٰ و لكن فيه بحثان الأوّل أنّ هذا نهىٰ تحريم أو نهي تنزّيه فيه خلاف



فقال قائلون هذه الصّيغة لِنهي التنزيه و ذلک لأنّ هذه الصّيغة وردت تارّةً في التنزّيه و أخرىٰ في التحرّيم والأصل عدم الإشتراك فلابدّ من جعل اللّفظ حقيقة في القدر المشترك بين القسمين و ما ذلك إلاّ أن يجعل حقيقة في ترجيح جانب التّرك علىٰ جانب الفعل من غير أن يكون فيه دلالة علىٰ المنع من الفعل أو علىٰ الإطلاق فيه لكن الإطلاق فيه كان ثابتاً بحكم الأصل فأنّ الأصل في المنافع الإباحة فاذا ضممنا بدلول اللّفظ الىٰ هذا الأصل صار المجموع دليلاً علىٰ التّنزيه قالوا و هذا هو الأولىٰ بهذا المقام لأنّ علىٰ هذا التّقدير يرجع حاصل معصية آدم عليه السلام الىٰ تَرك الأولىٰ و معلوم أنّ كلّ مذهبٍ كان أفضىٰ الىٰ عصمة الأنبياء عليهم السّلام كان أولىٰ بالقبول و قال أخرون بل هذا النّهي نهي تحريم و احتّجوا عليه بأمورٍ:

أحدها: أنّ قوله تعالى: **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ**

قال اللّه تعالى : **وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ** [١].

قال اللّه تعالى : **وَ لا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**[٢].

فكما أنّ هذا للتّحريم فكذا الأوّل.

ثانيها: أنّه قال فتكونا من الظّالمين معناه ان اكلتما منها ظلمتما أنفسكما ألاترى لمّا أكلا قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا.

ثالثها: أنّ هذا النّهي لو كان نهي تنزيهٍ لمّا إستّحق آدم بفعله الإخراج من الجنّة و لما وجبت التّوبة عليه، و الجواب عن الأوّل نقول، أنّ النّهي و أن كان في الأصل للتنزّيه و لكنه قد يحمل علىٰ التّحريم لدلالةٍ منفصلةٍ.

و عن الثّاني أنّ قوله تعالىٰ: **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** أي فتظلما أنفسكما بفعلٍ كان الأولىٰ بكما تَركه لأنّكما اذا فَعلتما ذلك أخرجتما من الجنّة التّي لا تظمأن فيها و لا تَجوعان وعن الثالث بأنّا لا نسلم أنّ الإخراج من الجنّة كان لهذا السبّب و سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالىٰ كلامه.

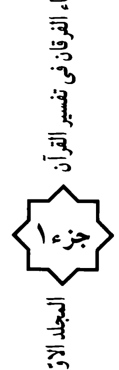
١- البقرة = ٢٢٢
٢- الانعام = ١٥٢

و أنّما نقلنا كلامه بطوله لما فيه من الحقّ ما لا يخفي عليك فقد ظهر من جَميع ما ذكرناه أنّ النّهي نهي تنزيهٍ لا نهي تحريم بإتفاقٍ من الشّيعة و.أكثر العامّة و هو المطلوب **المسألة الرّابعة**: في بيان المراد بالشّجرة، و الأقوال فيها أيضاً مختلفة.

فقيل أنّها شجرة السُّنبلة و قيل هي الكرامة و قيل هي التّينة، و قيل هي الكافور و قيل هي العِلم أعني به عِلم الخير والشّر، و قيل هي شجرة الخُلد التّي كانت يأكل منها الملائكة و قيل غير ذلك و عن تفسير الإمام عليه السلام أنّها شجرة عِلم محمّدٍ و آل محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و قال بعضهم أنّها شجرة تميّزت من بين سائر الإشجار بأنّ كلّاً منها أنّما يحمل نوعاً من الثّمار و كانت هذه الشّجرة و جنسها تحمل البّر والعنب والتّين و العُنّاب وسائر أنواع الثّمار و الفواكه و الأطعمة فلذلك إختلف الحاكون بذكرها فقال بعضهم برّة و قال أخرون، عنبة و قال أخرون هي عنّابة و هى الشّجرة التّي من تناول منها بإذن اللّه أُلهِمَ علم الأولين و الأخرين من غير تَعلّم و من تناول بغير إذن اللّه خاب من مراده و عصىٰ ربّه قال الرّازي وإعلم أنّه لَيس في الظّاهر ما يدّل علىٰ التَّعيين فلا حاجة أيضاً الىٰ بيانه لأنّه ليس المقصود من هذا الكلام أن يعرفنا عين تلك الشّجرة و ما لا يكون مقصوداً في الكلام لا يجب علىٰ الحكيم أن يُبّينه بل ربّما كان بيانه عبثاً انتهىٰ.

و قال القرطبي نظير ذلك والحاصل أنّهم قالوا ما قالوا من عند أنفسهم.

أمّا نحن فنقول قد وردت الأخبار عن الأئمّة المعصومين في بيان معنىٰ الشّجرة و المراد بها في الآية فقد رُوي في العيون بأسناده الىٰ عبد السّلام ابن صالح الهَرَوي قال قلتُ للرّضا عليه السلام يابن رسول اللّه أخبرني عن الشّجرة التّي أكَل منها آدم و حوّاء ما كانت فقد إختلفوا فيها فمنهم من يروي أنّها الحنطة و منهم من يروي أنّها شجرة العنب و منهم من يروي أنّها شجرة الحَسَد



فقال عليه السلام كلّ ذلك حقّ قلت فما معنىٰ هذه الوجوه علىٰ إختلافها فقال ياأبا الصّلت أنّ شجرة الجنّة تَحمل أنواعاً وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب ليست كشجرة الدّنيا و آدم لمّا أكرمه اللّه ذكره باسجاده ملائكته له و بادخاله الجنّة قال في نفسه هل خلق اللّه بَشراً أفضل مني فَعلم اللّه عزّ وجلّ ما وقع في نفسه فناداه إرفع رأسك ياآدم وأُنطر الىٰ ساق العرش فَرَفع آدم رأسه فنظر الىٰ ساق العَرش فَوَجد عليه مَكتوباً لا إله إلاّ اللّه محمّد رسول اللّه علّي ابن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام و زوجته فاطمة سيّدة نساء العالمين و الحسن و الحسين سيّدا شباب أهل الجنّة فقال آدم ياربّ من هؤلاء فقال عزّ وجلّ هؤلاء من ذُرّيتك و هم خير منك و من جميع خلقي و لولا هم ما خلقتك و لا خَلقت الجنّة و النّار و لا السّماء و لا الأرض فأيّاك أن تنظر اليهم بعين الحَسَد فأخرجك من جَواري فَنظر اليهم بعين الحَسَد وتمنّى منزلتهم فتسَّلط عليه الشّيطان حتّىٰ أكَل من الشّجرة التّي نُهي عنها و تسَّلط علىٰ حوّاء لنظرها الىٰ فاطمة بعين الحسد حتّىٰ أكلت من.

الشّجرة كما أكل آدم فأخرجهما اللّه تعالىٰ عن جنّته و أهبطهما عن جواره الىٰ الأرض انتهىٰ المسألة الخامسة في بيان المراد بالظّلم في المقام.

لاشكّ أنّ أصل الظُّلم ثابت في حقّ آدم و حوّاء في المقام لقوله تعالىٰ فتكونا من الظّالمين و لقوله تعالىٰ في سورة الأعراف: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**[1]

أنّما الكلام في معناه في الآية و بعبارةٍ أخرىٰ معنىٰ الظّلم في حقّ آدم لمكان عصمته فنقول الظّلم علىٰ ما فَسروه التّجاوز عن الحقّ قال الرّاغب الظّلم يقال في مجاوزة الحقّ الّذي يجري مجرىٰ نفطة الدّائرة و يقال فيما يكثر و فيما يقلّ من التّجاوز و لهذا يستعمل في الذّنب الكبير و الصّغير و لذلك قيل

١- الأعراف = ٢٣

لآدم في تعدّيه ظالم و في إبليس ظالم و أن كان بين الظّلمين بونٌ بعيد انتهىٰ.

ثمّ أنّ الظّلم علىٰ ماورد في الأحاديث ثلاثة:

ظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلمٌ مغفور، أمّا الّذي لا يُغفر فالشّرك باللّه. والّذي يغفر فظلم العَبد نفسه، والّذي لا يترك ظلم العبد علىٰ غيره من النّاس.

فمن الأوّل:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**[1].

من الثّاني: أعني به الّذي يُغفر.

قال اللّه تعالىٰ: **فَمِنْهُمْ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **ظَلَمْتُ نَفْسي**.

قال اللّه تعالىٰ: **ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ**.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**[3].

من الثّالث: و هو الّذي لا يُترك.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَزٰٓؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنٰا لِوَلِيِّهِ سُلْطٰانًا**[5].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النّٰاسَ**[6].

اذا عرفت أقسام الظّلم فقد علمت أنّ الظّلم في الآية ظلم بين آدم وبين ربّه وليس ظلماً علىٰ الغير و هو مغفور بالتّوبة كما قال تعالىٰ: **فَتٰابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ**.

أنّما الكلام في أنّ هذا الظّلم هل هو منافٍ للعِصمة الثّابتة للأنبياء أو لا والحقّ عَدم المنافاة لأنّه علىٰ ما مرّ بيانه عن تَرك الأولىٰ فَحَسب بمعنىٰ أنّ آدم

١- اللقمان = ١٣ | ٢- الفاطر= ٣٢
٣- البقرة = ٢٣١ | ٤- الشورى = ٣٩
٥- الاسراء= ٣٣ | ٦- الشورى = ٤٢

لو لم يفعل ما فَعَل لكان أولىٰ له أي كان أولىٰ لنفسه و هذا ليس من الظّلم بشيئٍ سوىٰ إطلاقه عليه لصدق التّجاوز والتعدّي من حدود اللّه بظاهر الأمر و هذا القدر من التّجاوز في حقّ المقرّبين يعدّ ظلماً.

و أمّا بالنّسبة الينا فلا يعدّ من الحسنات و لذلك قيل حسنات الأبرار سيئات المقرّبين و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّي لأستغفر اللّه في كلّ يوم سبعين مرّة:

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللّٰهُ مٰا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مٰا تَأَخَّرَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كٰانَ تَوّٰابًا**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا ٱللّٰهُ وَ ٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**[4].

و أمثالها من الأيات ومن المعلوم أنّه لم يَصدر من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ذنبٌ بمعنىٰ المتعارف بين النّاس و أمثال هذه الأيات في الأنبياء كثيرة و ما نحن فيه من هذا القبيل و سيأتي الكلام فيه مفصلاً إن شاء اللّه تعالىٰ في موضعه.

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰانُ عَنْهٰا فَأَخْرَجَهُمٰا مِمّٰا كٰانٰا فِيهِ الزّلة في الأصل إسترسال الرّجل من غير قصد يقال زلّت رجلٌ نَزل، و قيل للذّنب من غير قصدٍ زلًّ تشبيهاً بزّلة الرّجل و معناها بالفارسية (لَغزش) و معنىٰ الآية أنّ الشّيطان نحّيهما عن الجنّة و أوقعهما في الذّنب من غير قصدٍ لهما فيه فأخرج آدم و حوّاء ممّا كانا فيه من العيش و السّعة في جوار رحمة الحقّ و المُرافقة مع الأبرار و قيل المعنىٰ إستزّلهما أي حملهما علىٰ الزّلل و هو الخطأ والذّنب.

و قال بعض المفسّرين من العامّة أنّ إبليس لَعنه اللّه لم يَقصد إخراجه منها وأنّما قصد إسقاطه من مرتبته و ابعاده كما أبعد هو قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:

١- الفتح = ٢
٢- النّصر = ٣
٣- غافر = ٥٥
٤- محمّد = ١٩

ثُمَّ اَسْكَنَ سُبْحٰانَهُ ٰادَمَ دٰاراً اَرْغَدَ فِيهٰا عَيشَتَهُ،وَ ٰامَنَ فِيهٰا مَحَلَّتَهُ وَ حَذَّرَهُ اِبْلِيسَ وَ عَدٰاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوهُ نَفٰاسَةً عَلَيْهِ بِدٰارِ الْمَقٰامِ وَمُرٰافَقَةِ الْاَبْرٰارِ، فَبٰاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً، وَبِالْاِغْتِرٰارِ نَدَماً الخ)

إختلف المفسّرون في كيفيّة الوَسوسة بعد إتفاقهم علىٰ أصل وجودها، فمنهم من قال أغواهما مشافهة و هو قول ابن عبّاس و جمهور المفسّرين و إستّدلوا عليه بقوله تعالىٰ: **وَ قَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّاصِحِينَ**[١].

و قال بعضهم دَخل إبليس الجنّة في فَم الحيّة و هي ذات أربع كالطاوس من أحسن دابّةٍ خلقها اللّه تعالىٰ بعد أن عرض نفسه علىٰ كثيرٍ من الحيوان فلم يدخله إلاّ الحيّة فلمّا دَخلت به الجنّة خَرج من جوفها إبليس فأخذ من الشّجرة التّي نهىٰ اللّه آدم وزَوجه عنها فجاء بها الىٰ حوّاء فقال أنظري الىٰ هذه الشّجرة ما أطيب ريحها و أطيب طعمها و أحسن لَونها فَلم يَزل يغويهما حتّىٰ أخذتها حوّاء فأكلتها ثمّ أغوى آدم و قالت له حوّاء كل فأنّي قد أكلت فلم يضّرني فأكل منها فبدت لهما سوأتهما وحصلا الذّنب فَدخل آدم في جوف الشّجرة فناداه ربّه أين أنت فقال أنا هذا ياربّ قال ألا تَخرج قال أستحي منك ياربّ قال أهبط الىٰ الأرض التّي خلقت منها ولُعنت الحيّة ورُدّت قوائمها في جوفها و جُعلت العداوة.

بينها و بين بني آدم و لذلك أمرنا بقتلها و قيل لحوّاء كما أَدميت الشّجرة فكذلك يصيبك الدّم كلّ شهرٍ و تحملين و تضعين كُرهاً تشرفين به عن الموت مراراً زاد الطّبري والنّقاش، و تكوني سفيهة و قد كُنت حَليمة و قالت طائفة أنّ إبليس لم يدخل الجّنة الىٰ آدم بعد ما أُخرج منها و أنّما أغوىٰ بشيطانه و سُلطانه و وسواسه الّتي أعطاه اللّه تعالىٰ كما قال ﷺ أنّ الشّيطان يجري من إبن آدم مجرىٰ الدّم انتهىٰ ما ذكره القرطّبي في تفسيره.

١- الاعراف = ٢١

قال الرّازي بعد نقله ما نقلناه في كيفيّة وسوسة الشّيطان لهما و دخوله في فَم الحيّة ما هذا لفظه وإعلم أنّ هذا وأمثاله ممّا يجب أن لا يَلتفت اليه لأنّ إبليس لو قَدر علىٰ الدخول في فم الحيّة فلم لم يقدر علىٰ أن يجعل نفسه حيّة ثمّ يدخل الجّنة و لانّه لمّا فعل ذلك بالحّية فلِم عوقبت الحيّة مع أنّها ليست بعاقلة و لا مكلفة، ثمّ ذكر وجوهاً في كيّفية إغواءه لهما.

منها أنّ إبليس دخل الجنّة في صورة دابّةٍ و هذا القول أقلّ فساداً من الأوّل.

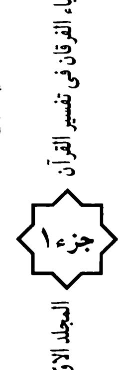
و منها قال بعض أهل الأصول أنّ آدم و حّواء لعلهما كانا يخرجان الىٰ باب الجنّة و إبليس كان يقرب من الباب ويوسوس اليهما.

و منها أنّ إبليس كان في الأرض و أوصل الوسوسة اليهما في الجنّة قال بعضهم و هذا بعيد لأنّ الوسوسة كلام خفيّ والكلام الخفيّ لا يمكنه إيصاله من الأرض الىٰ السّماء هذا ما قالته العامّة في تفسير الآية مع إختلاف يسير في كلماتهم.

و قال بعض المفسّرين من الشّيعة ما هذا لفظه، فأزلهما الشّيطان عنها، به وسوسته و خديعته و عداوته و غروره بأن بدأ بآدم فقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة إلاّ أن تكونا مَلكين، أن تناولتما منها تعلمان الغيب و تقدران علىٰ ما يقدر عليه من خصّه اللّه بالقُدرة أو تكونا من الخالدين لا تموتان أبداً و قاسَمهما أي حلف لهما أنّي لكما لمن النّاصحين وكان إبليس بين لِحيتي الحيّة أدخلته الجّنة وكان آدم يظّن أنّ الحيّة هي الّتي تخاطبه ولم يعلم أنّ إبليس قد إختبىٰ بين لِحيتها فَرّد آدم علىٰ الحّية و قال أيّتها الحيّة هذا من غرور إبليس كيف يخُوننا ربّنا أم كيف تعظمين اللّه القسم به وأنت تنسبينه الىٰ الخيانة وسوء النظر و هو أكرم الأكرمين كيف أَروم التّوصل الىٰ ما منعني منه ربّي و أتعاطاه بغير حكمه فلمّا آيس إبليس من قبول آدم منه عاد ثانية بين لحيي الحية فخاطب حوّاء من حيث يوهمها أنّ الحيّة هي الّتي تخاطبها و قال يا

حوّاء أرأيت هذه الشجرة الّتي كان اللّه عزّ وجلّ حرّمها عليكما فقد أحلها لكما بعد تحريمها لما عرف من حسن طاعتكما له و توقيركما أيّاه و ذلك أنّ الملائكة الموكلين بالشّجرة الّتي معها الحراب يدفعون عنها سائر حيوانات الجّنة لا تدفعك عنها إن رمتها فإعلمي بذلك أنّه قد أحلّ لك و أبشري بأنّك إن تناولتها قبل آدم كنت المسلّطة عليه الأمرة النّاهية فوقه فقالت حوّاء سوف أجرّب هذا فرامت الشّجرة فأرادت الملائكة أن يدفعوها عنها بحرابها فأوحى اللّه اليهم أنّما تدفعون بحرابكم من لا عقل له يزجره فأمّا من جعلته متمكّناً مميّزاً مختاراً فكلوه الىٰ عقله الّذي جعلته حجّة عليه فأن أطاع إستحق ثوابي و أن عصىٰ و خالف أمري إستحق عقابي و جزائي فتركوها و لم يتعرضوا لها بعد ما همّوا بمنعها بحرابهم فظّنت أنّ اللّه نهاهم عن منعها لأنّه قد أحلّها بعد ما حرّمها فقالت صدقت الحيّة وظنّت أنّ المخاطب لها هي الحيّة فتناولت منها و لم تنكر من نفسها شيئاً فقالت لآدم أَلَم تَعلم أنّ الشّجرة علينا قد أُبيحت لنا تناولت منها و لَم يمنعني إملاكها و لَم أنكر شيئاً من حالي فلذلك إغترّ آدم فتناول، فأخرجهما ممّا كانا فيه، من النِّعم و قلنا يا آدم و يا حوّاء و يا أيّتها الحيّة و يا إبليس، إهبطوا بعضكم لبعضٍ عدّو، و آدم و حوّاء و ولدهما عدّو لِلحيّة و إبليس و هما و أولادهما أعدائهم وكان هبوط آدم و حوّاء و الحيّة من الجنّة، و لكم في الأرض مُستقرّ، أي منزل و فقر للمعاش، و متاعٌ، أي منفعة الىٰ حينٍ، حين الموت وفي رواية يعني الىٰ يوم القيامة.

أقول فأذكره قدّس سرّه حقّ موافق للآثار والأخبار المرّوية عن أهل البيت عليهم السّلام والشّيعة لا تقول إلاّ بما كان كذلك فأنّ أهل البيت أدرىٰ بما في البيت والّذي يمكن أن يُفهم في المقام هو أنّ اللّه تعالىٰ خلق آدم و حوّاء وأعطاهما العقل ثمّ نهاهما عن الشّجرة ليهلك من هلك عن بيّنة و يحي من حي عنها و لاجل هذا قال في الحديث المذكور، فَكِلوه الىٰ عقله الّذي جعلته حجّة عليه



وفيه سيردقيق و هو أنّ اللّه تعالىٰ أراد وشاء أن يعبد علىٰ هذا الأساس أي علىٰ الإختيار النّاشئ من العقل الحاكم بين الخير والشّر ولذلك نهىٰ الملائكة، عن دفعهما و قال أنّما تدفعون بحرابكم من لا عقل له يزجره فأمّا من جَعلتَه مُتمّكناً مُميّزاً مختاراً فكلوه الىٰ عقله و منه يظهر أنّ آدم وحوّاء كانا مختارين في فعلهما ولم يكونا مَجبورين و هكذا يكون أولاده الىٰ يوم القيامة و في قوله تعالىٰ: **إِلَىٰ حِينٍ** في آخر الآية إشارة الىٰ إنقطاع الحياة لنسّل آدم و هو كذلك لأنّ الدّنيا بأسرها فانية و نعمها داثرة غير باقية لقوله تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَ يَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ**(١)

فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ فالبحث يقع في موضعين

أحدهما: في الكلمات.

ثانيهما: في التّوبة

أمّا الأوّل: إختلفوا في المُراد بها فقيل في معناه أيّ فهمٌ وفطن و قيل قبلَ وأَخَذ به وكان عليه‌السلام يتلقىٰ الوحي أي يستقبله ويأخذه و يتلقفه نقول خرجنا نتلقي الحجيج أيّ نستقبلهم و قيل معنىٰ تلّقي، تلّقن ونقل عن مكّي أنّه قال أي ألهمها فإنتفع بها و قال الحسن عليه‌السلام قبولها لِعلمه لها و عمله بها.

و أمّا الكلمات فقال إبن عباس والحسن وسعيد إبن جُبير و الضّحاك و مُجاهد هي قوله تعالىٰ: **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**(٢)

و عن مُجاهد أيضاً سُبحانك اللّهم لا إله إلاّ أنت ربّي ظلمتُ نفسي فأغفر لي إنّك أنتَ الغفور الرّحيم.

و قال قوم رأى مكتوباً علىٰ ساق العَرش محمّد رسُول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فشفع بذلك فهي الكلمات.

١- الرحمن = ٢٧/٢٦ ٢- الأعراف = ٢٣

و قالت طائفة الكلمات البكاء والحياء والدّعاء و قيل النّدم والإستغفار والحزن و قيل الكلمات قوله حين عطس، الحمدُ لِلّه والأقوال كثيرة في التّفاسير و قال في الكشّاف نقلاً عن إبن مسعود أنّه قال أنّ أحبّ الكلام الىٰ اللّه ما قاله أبونا آدم حين إقترفَ الخطيئة، سُبحانك اللّهم وبحمدك وتبارك إسمك و تعالىٰ جدّك لا إله إلاّ أنت ظلمت نفسي فأغفر لي أنّه لا يغفر الذّنوب إلاّ أنت.

و نقل عن إبن عباس أنّ آدم قال يا ربّ ألَم تخلقني بيدك قال بلىٰ قال يا ربّ ألَم تنفخ فيَّ الرّوح من روحك قال بلىٰ قال يا ربّ ألم تسبق رحمتك غضبك قال بلىٰ قال ألم تسكني جنتك قال بلىٰ قال ياربّ أن تُبتُ و أصلحتُ أراجعي أنت الىٰ الجنّة قال نعم انتهىٰ.

أقول هذه الأقوال التّي ذكرها أهل السّنة في تفاسيرهم لم تقم علىٰ صحتّها دليل من العقل والشّرع وأنّما هي من المُستخرجات الظّنية بل الوهّمية الّتي لا يمكن حمل كلام اللّه عليها كما هو واضح علىٰ المتأمل.

روي في معاني الأخبار بأسناده عن ابن عبّاس قال: سألت النّبى صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الكلمات التّي تلّقاها آدم من ربّه فتاب عليه قال سأله بحقّ محمّدٍ وعلّيٍ و فاطمة و الحَسَن و الحسين إلاّ تُبتَ علّي فتاب اللّه عليه.

و أيضاً بأسناده عن أبي سعيد المدائني في قول اللّه عزّ وجلّ: فَتَلَقّىٰ اٰدَمُ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمٰات قال: سأله بحقّ محمّدٍ و علّيٍ و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام[1].

و عن الكافي عن أحدهما، أنّ الكلمات لا إلٰه إلاّ أنت سبحانك اللّهم و بحمدك عملت سوءً و ظلمت نفسي فتبت علّي أنّك أنت التّواب الرّحيم لاإلٰه إلاّ أنت سبحانك اللّهم وبحمدك عملتُ سوءً و ظلمتُ

١-ص ١٢٤

نفسي فإغفر لي و أنت خير الغافرين، لا إله إلاّ أنت سبحانك اللّهم و بحمدك عملت سوءً و ظلمت نفسي فإغفر لي و إرحمني أنّك أنت أرحم الرّاحمين.

و في روايةٍ بحقّ محمّدٍ و علّي و فاطمة و الحسن و الحسين و في روايةٍ أخرىٰ بحقّ محمّدٍ و آلِ محمّدٍ و عن تفسير العسكري، لمّا زلّت من آدم الخطيئة و إعتذر الىٰ ربّه عزّ و جلّ قال ياربّ تب علّي و أقبل معذرتي و أعدني الىٰ مرتبتي و إرفع لديك درجتي فلقد تبّين نقص الخطيئة و ذلّها بأعضاء بدني قال اللّه تعالىٰ ياآدم أما تذكر أمري إيّاك بأن تدعوني بمحمّدٍ و آله الطّيبين عند شدائدك و دواهيك و في النّوازل التّي تبهضك قال آدم ياربّ بلىٰ قال اللّه عزّ و جلّ فبهم بمحمّدٍ و علّي و فاطمة و الحسَن و الحسين خصوصاً فأدعني أُجبك الىٰ ملتمسك و أزدك فوق مرادك فقال آدم ياربّ الٰهي و قد بَلَغ عندك في محلّهم أنّك بالتّوسل بهم تقبل توبتي و تغفر خطيئتي و أنا الّذي أسجدت له ملائكتك وأتحته جنّتك و زوّجته حوّاء أمتك و أخدمته كرام ملائكتك قال اللّه يا آدم أنّما أمرتُ الملائكة بتّعظيمك بالسّجود لك اذ كنتَ وعاء هذه الأنوار ولو كنتَ سألتني بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها و أن أفطّنك لدواعي عدّوك إبليس حتّىٰ تحترز منها لكُنتُ قد جعلت ذلك ولكنّ المعلوم في سابق علمي يجري موافقاً لعلمي والأن فبهم فأدعني لأجيبك فعند ذلك قال آدم اللّهم بجاه محمّدٍ و علّي و فاطمة و الحسن و الحسين و الطّيبين من آلهم تفضّلت بقبولٍ توبتي و غفران زلّتي وإعادتي من كرامتك الىٰ مرتبتي فقال اللّه عزّ وجلّ قد قبلتُ توبتك وأقبلت برضواني عليك وعرفتُ نعمائي وألائي اليك وأعدتك الىٰ

مرتبتك من كراماتي و وفرّت نصيبك من رحماتي فذلك قوله عزّ وجلّ :: فَتَلَقّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰاتٍ فَتٰابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ (١).

و فيه أيضاً بأسناده عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا عباد اللّه أنّ آدم لمّا رأىٰ النّور ساطعاً من صُلبه اذ كان تعالىٰ قد نقل أشباحنا من ذروة العرش الىٰ ظهره رأىٰ النّور و لم يتبيّن الأشباح فقال آدم ياربّ لو بيّنتها لي فقال اللّه عزّ و جلّ أُنظر ياآدم الىٰ ذروة العرش فنظر آدم و وَقَع أنوار أشباحنا من ظهر آدم علىٰ ذروة العرش فإنطبع فيه صور أنوار أشباحنا التّي في ظهره كما ينطبع وجه الإنسان في المرآة الصّافية فرأىٰ أشباحنا فقال ما هذه الأشباح ياربّ قال اللّه تعالىٰ ياآدم هذه أشباح أفضل خلائقي و برّياتي هذا محمّد وأنا المحمود الحميد في أفعالي شققت له إسماً من إسمي و هذا علّى و أنا العلّي العظيم شققتُ له اسماً من إسمي و هذه فاطمة و أنا فاطر السّموات والأرض فاطم أعدائي من رحمتي يوم فصل القضاء و فاطم أوليائي ممّا يعرّوهم و يشينهم فَشققتُ به إسماً من إسمي و هذان الحسن والحسين و أنا المُحسن المُجمل شَقَقت إسمهما من إسمي، هؤلاء خيار خليقتي و كرائم بريّتي بهم أخذ و بهم أعطي و بهم أعاقب و بهم أثيب فتوسّل بهم الّي ياآدم و اذا دهتك داهيّ فإجعلهم لي شفعاءك فأنّي آليتُ علىٰ نفسي قسماً حقّاً أنّ لا أخيب لهم أملاً ولا أرد لهم سائلاً فذلك حين زلّت منه الخطيئة ودَعا اللّه عزّ وجلّ بهم فَتبت عليه و غفرت له انتهىٰ (٢).

١- تفسير البهان ج ١ ص ٥٦ ط قديم ٢-ص ٥٦ ط قديم

أقول قد ذكر ﷺ روايات أُخر أن شئت فراجعها و هذا هو الّذي إعتَمد عليه أتباع أهل البيت عليهم السّلام في تفاسيرهم و مؤلفاتهم و عقائدهم فأنّهم سفن النّجاة و العروة الوثقىٰ التّي لا إنفصام لها والحمد لِلّه علىٰ هذه النّعمة ولنعم ما قيل فيهم:

مُـطّهرون نـقّيات ثـيابهم	تُتلىٰ الصّلاة عليهم أينَما ذكروا
مـن لم يكـن علّوياً حين تنبه	فما لَه في قَديم الدّهر مفتخرُ
واللّـه لمّـا بـرىٰ خلقاً فأتـقنه	صفاكم وإصطفاكم أيّها البَشَر
فأنـتم المـلاء الأعـلىٰ وعندكم	علمُ الكتاب وما جاءت به السّور

الثّاني في تفسير قوله تعالىٰ، فتابَ عليه أنّه هو التوّاب الرّحيم، التوبَة، مصدر تابَ يتُوب توباً وتَوبةٌ و هى فى الأصل الرّجوع يقال تاب الىٰ اللّه رَجَع عن معصيته اليه والمراد بقبول التّوبة إسقاط العقاب بها و هو ممّا أجمع عليه علماء الإسلام و أنّما الخلاف في أنّه هل يجب علىٰ اللّه القبول حتّىٰ لو عاقب بها بعد التّوبة كان ظلماً، أو هو تفضّل منه و كَرَمٌ لعباده ورحمة لهم فالمعتزله علىٰ الأوّل و الا شاعرة علىٰ الثّاني واليه ذَهب الشّيخ الطّوسي ﷺ في كتاب الإقتصاد والعلامة ﷺ في بعض كتبه الكلاميّة وتوقف المحقّق الطّوسي في التجرّيد، و امّا في الإصطلاح فهي النّدم علىٰ الذّنب لكونه ذنباً وفي الحديث النّدم توبة:

قال اللّه تعالىٰ: **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلٰى نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوٓءًا بِجَهٰالَةٍ ثُمَّ تٰابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** [1]

ثمّ أنّه لا شكّ في حُسن التّوبة من العبد الىٰ اللّه تعالىٰ إلاّ أنّ التّوبة في حقّ الأنبياء والأوصياء غيرها فينا لا في معناها اللّغوي والإصطلاحي بل من حيث المنشأ والمبدء و ذلک لأنّ التّوبة بالنّسبة إلينا رجوع عن الذّنب المسّلم

١- الأنعام= ٥٤

المقطوع يقيناً كبيراً كان الذّنب أو صغيراً فمنشأ التّوبة هو الذّنب الواقعي.أمّا في حقّ الأنبياء و الأوصياء فليس الأمر كذلك لأنّ منشئها فيهم ترك الأولىٰ المعبّر عنه بالذّنب لفظاً لا واقعاً و قد مرّ الكلام فيها في حقّهم إجمالاً و سيجئ مفصّلاً و هكذا يجئ البحث في معنىٰ التّوبة فينا في تفسير الأيات الواردة فيها و حاصل الكلام في المقام هو أنّ آدم تاب الىٰ اللّه فتاب اللّه عليه علىٰ ما مرّ الكلام فيه و قلنا في تفسير الكلمات أنّها هي الّتي صارت سبباً بقبول توبته و أنمّا خصّ اللّه التّوبة بآدم في الآية و لم يذكروا حوّاء مع أنّها أيضاً ثابت أمّا لأنّها كانت تابعة لآدم كما هو شأن النّساء في القصر والإتمام و سائر الأمور و امّا لأنها أي المرأة مستورة فأراد اللّه السّتر لها كما قال بعض المفسّرين و قيل أنّه دَلَّ بذكر التوبّة عليه إذ أمرهما سواء، كما قال الشّاعر:

رماني بأمرٍ كنت منه ووالدى بريئاً ومن فوق الطوىٰ رَماني

و قال بعض المفسّرين أنّ آدم لمّا خوطب في أوّل القصّة بقوله تعالىٰ: **قُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ** الخ.

خصّه بالذّكر في التّلقي فلذلك كملت القصة بذكره وَحده.

أقول هذه الوجوه لا بأس بها والّذي يقوي في النّفس أنّ آدم لمكان عصمته كان الذّنب منه غير مترقّبٍ و امّا حوّاء فلم يقم دليل علىٰ عصمتها ولم يقل بها في حقّها أحد و لذلك خصّ آدم بالذّكر واللّه أعلم بحقائق الأُمور.

و أمّا قوله تعالىٰ: **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ.**

فالمعنىٰ قلنا إهبطوا، والخطاب لآدم و حوّاء و إبليس، منها أي من الجّنة **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدىً** أي بيان و دلالة و قيل أنبياء ورُسُل **فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ** أي إقتدىٰ رُسلي و إحتذى أدلتّي **فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** أي فلا يلحقهم الخوف من أهوال يوم القيامة من العقاب، و في مسائل.

الأولىٰ: إختلفوا في المخاطب بالإهباط هو علىٰ أقوالٍ.

أولّها: أنّ المخاطب، آدم و حوّاء و إبليس و هو قول الزّجاج.

ثانيها: آدم و حوّاء و الحيّة.

ثالثها: آدم و حوّاء و ذريتها لأنّ الوالدين يدّلان علىٰ الذّرية و يتعلّق بهما.

رابعها: أنّ الخطاب لآدم و حوّاء فقط و الإثنين جمع علىٰ عادة العَرب.

خامسها: آدم و حوّاء و الوسوسة و هو أضعف الأقوال و يتلوه في الضّعف القول الثّاني ثمّ الثّالث بالأقوىٰ هو الأخير منها و أن كان الأوّل أظهر الثّانية قالوا أنّ الهبوط في المقام من السّماء الىٰ الأرض كما أنّ الهبوط الأوّل من الجنّة الىٰ السّماء قال الجبائي و لا نعلم من أين ذكر هذا القول و أظنّ أنّه من إستبساطه و إستظهاره و هو ليس بمعتمدٍ في تفسير القرأن وعمدة أدّلتهم في هذه الأقوال أنّهم فسّروا الهبوط من مكانٍ أعلىٰ الىٰ مكان أسفل و حيث إعتقدوا بأنّ الجنّة في السّماء السّابعة و آدم و حوّاء كانا فيها فأهبطا منها الىٰ سماء الدّنيا أوّلاً و منها الىٰ الأرض ثانياً و لم يعلموا أنّ وجود الجنّة التى كان آدم و حوّاء فيها في السّماء السّابعة أوّل الكلام و قد قلنا سابقاً أنّ الجنّة كانت بستاناً من بساتين الأرض و عليه فمعنىٰ الهبوط إنتقالهما من موضعٍ الىٰ موضع أخر أو في منزلٍ الىٰ منزلٍ أخر لم يكن في الشّرف مثل الأوّل كما قال لبيد:

كلّ بني حرّةٍ مصيرهم قلَّ وأن أكثروا من العدد
أن يغبطوا يهبطوا وأن أمروا يوماً فهم للفناء والفَند

أن قلت لِمَ كرّر **قُلْنَا اهْبِطُوا** قلنا لوجهين:

أحدهما: التّأكيد ولما نيط به من زيادة قوله تعالىٰ: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدىً**

ثانيهما: أنّ قوله: **اهْبِطُوا** في الأوّل لم يكن خطاباً للجميع بخلافه في المقام لقوله تعالىٰ جميعاً.

الثّالثة: أنّ قوله تعالىٰ **إِمّا**، شرط وجوابه **الفاء**، و، من شرط أخر وجوابه الّذي بعده من قوله **فَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ** و هو نظير المبتدأ والخبر الّذى يكون خبره مبتدأ و خبراً و هذا في مقدّمات القياس يُسمّىٰ بالشّرطية المركبة و ذلک أنّ المقدّم فيها اذا وجَب التّالي المرّتب عليه

الرّابعة: أنّ **الهُدىٰ** المذكور في الآية البيان والدّلالة ويمكن أن يكون المراد به الأنبياء والرّسل قالوا وعلىٰ الأخير يكون قوله **اهْبِطُوا** لآدم وحوّاء، و ذرّيتهما كما قال تعالىٰ: **فَقٰالَ لَهٰا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيٰا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قٰالَتٰآ أَتَيْنٰا طٰآئِعِينَ**[1] أي أتينابما فينا من الخلق طائعين و محصّل المعنىٰ في الشّريفة أنّ اللّه تعالىٰ قال لهم إهبطوا أي أنزلوا عن الجنّة الىٰ الأرض التّي هي دار التّكليف فمن تبع فيها أنبيائي ورسلي فلا خوف عليهم من أهوال القيامة وما يتبعها و هو ظاهرٌ.

■

١- الفصلت = ١١

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِاٰيٰاتِنآ أُولٰـئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ ﴿٣٩﴾

لمّا وعد اللّه تعالىٰ متّبع الهدىٰ بالأمن من العذاب والحزن عقبه بذكر من أعدَّ له العذاب الدّائم فقال والّذين كفروا وكذّبوا بأياتنا فهم أصحاب العذاب الدّائم و أنّما قدّم الكفر علىٰ التّكذيب في الآية لأنّ الكفر عبارة عن عدم الايمان و هو أمر قلبي والتّكذيب عبارة عن الإنكار باللّفظ و معلوم أنّ الإنكار باللّسان مؤخر عن الإنكار بالقلب فأنّ اللّسان تابع للقلب و لا عكس فيصير معنىٰ الآية أنّ الّذين أنكروا بقلوبهم و كذّبوها بألسنتهم فقد جمعوا بين الكفر في الباطن والتّكذيب في الظّاهر فهم كافرون باطناً و ظاهراً و من كان كذلك فهو مخلد في النّار يوم القيامة و هذه الآية أخر الأيات الدّالة علىٰ النِّعم التّي أنعَم اللّه بها علىٰ جميع بني آدم من التّوحيد و النبوّة و المعاد من جهة الإعتقاد والنّعم الظّاهرة المحسوسة في الدّنيا من جهة المعاش والحياة فقد أكمَل النِّعمة علىٰ عباده ليكون لِلّه علىٰ النّاس الحجّة.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ فَلِلّٰهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبٰالِغَةُ فَلَوْ شٰآءَ لَهَدٰيكُمْ أَجْمَعِينَ** [1]

قال اللّه تعالىٰ: **حِكْمَةٌ بٰالِغَةٌ فَمٰا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ** [2]

■

١- الأنعام= ١٤٩　　٢- القمر= ٥

يٰبَنِيٓ اِسْرٰٓئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ اَوْفُوا بِعَهْدِيٓ اُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَاِيّٰايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾

◁ اللّغة

اِسْرٰٓئِيلَ: إسم أعجمّي ولذلك لَم ينصرف و فيه سبع لغات إسرائيل و هي لغة القرأن و إسرائيل بمَدةٍ مهموزةٍ مختلسة، حكاها شنود عن درش و إسرائيل بمدّة بعد الياء من غير همزة و هي قراءة الأعمش و عيسىٰ ابن عُمر و قرأ الحَسَن و الزّهُري بغير همز و لا مّدٍ، وإسرائل، بغير ياء به همزةٍ مكسورةٍ و إسراول به همزةٍ مفتوحة و إسرائين، بالنّون في لغة تميم، و معنىٰ إسرائيل عبد اللّه و نقل عن ابن عبّاس أنّه قال، إسرا، بالعبّرانية هو عبد، و إيل هو اللّه و قيل إسراء هو صفوة اللّه و إيل، هو اللّه و قيل إسرا، من الشّد فكأنّ إسرائيل الّذي شَدَّه اللّه و إتَّقن خلقه ذكره المهدوي، و قال السّهيلي، سمّي إسرائيل لأنّه أسَرىٰ ذات ليلةٍ حين هاجر الىٰ اللّه تعالىٰ فسمّي إسرائيل أي أسرىٰ الىٰ اللّه وكيف كان المراد به في الآية هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم عليهم السّلام كذا قال أبوالفَرَج الجوزّي.

ونقل عنه أنّه قال ليس في الأنبياء من له إسمان غيره إلاّ نبينا محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فأنّ له أسماء كثيرة ذكره في كتاب مفهوم الأثار له هكذا قال القرطبي و ما ذكره ليس بشيٍ فقد نقل عن الخليل أنّ خمسة من الأنبياء ذو إسمين محمّد و أحَمد، و عيسىٰ و المَسيح و إسرائيل و يعقوب و يونس و ذوالنّون و الياس و ذوالكفل عليهم السّلام.

بِعَهْدِيٓ:العَهد حفظ الشّئ و مراعاته حالاً بعد حالٍ.

فَارْهَبُونِ: الرّهبة مخافة مع تَحرّز وإضطراب.

◁ الإعراب

يٰبَنِيٓ اِسْرَآئِيْلَ نداء مضاف علامة النّصب فيه الياء و حذفت منه النّون للأضافة و إسرائيل في موضع جرٍّ لأنّه مضاف اليه و فتح لأنّه غير مُنصرف و فيه سببان التّعريف و العُجمة اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، إذ كروا، فعل و فاعله مستتر فيه نِعْمَتِيَ مفعول له، التّي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ في موضع النّصب علىٰ البّدلية اَوْفُوا بِعَهْدِيٓ معطوف علىٰ إذكروا نعمتي، اُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَاِيّٰايَ فَارْهَبُوْنِ.

◁ التّفسير

إعلم أنّه لمّا عمّ اللّه جميع الخلق بالحجج الواضحة الدّالة علىٰ التّوحيد و النبوّة و المعاد و بيّن لهم ما أنعم به عليهم في أبيهم آدم علىٰ سبيل الإجمال عقبها بذكر الإنعامات الخاصّة علىٰ أسلاف اليهود كسراً لعنادهم و لجاجهم بتذكير النّعم السّالفة و إستمالة قلوبهم بسببها فقال تعالىٰ: **يٰبَنِيٓ اِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ** الخ.

فالمقاصد ثلاثة.

المقصد الأوّل: في قوله تعالىٰ: **يٰبَنِيٓ اِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**.

المقصد الّثانى: في تفسير قوله تعالىٰ: **اَوْفُوا بِعَهْدِيٓ اُوفِ بِعَهْدِكُمْ**.

المقصد الثّالث: في تفسير قوله: **وَاِيّٰايَ فَارْهَبُونِ**.

أمّا المقصد الأوّل: فنقول قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لبني إسرائيل و هم أولاد يعقوب ابن اسحاق ابن إبراهيم عليه السلام بالإتّفاق، **اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** والبحث فيه تارةٌ في أصل النّعمة وأنّها ما هي و خرىٰ في أنّ النّعمة الّتي أعطاهم اللّه ما هى.

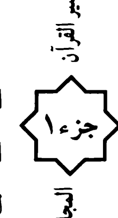
أمّا النّعمة فقد قالوا في تعريفها أنّها المنفعة المفعولة علىٰ جهة الإحسان الىٰ الغير.

و منهم من يقول المنفعة الحسنة المفعولة علىٰ جهة الإحسان الىٰ الغير وأنّما زادوا في تعريفها، الحسنة، لأنّ النّعمة ما يستّحق بها الشّكر فاذا كانت قبيحة لم يستحقّ بها الشّكر والحقّ أنّ هذا لقيد غير معتبر فيها لأنّه يجوز أن يستحقّ الشّكر بالإحسان وأن كان فعله محظوراً ضرورة أنّ جهة إستحقاقّ الشّكر غير جهة إستحقاق الذّم والعِقاب فأيّ إمتناعٍ في اجتماهما ألا ترىٰ أنّ الفاسق يستحقّ الشّكر بأنعامه والذّم بمعصيته فَلمَ لا يجوز أن يكون الأمر كذلك ثمّ أن قولهم، المنفعة، لأنّ المضّرة المحضته لا تكون نعمة و قولهم المفعولة علىٰ جهة الإحسان لأنّه لو كان نفعاً وَقَصد الفاعل نفع نفسه لا نفع المفعول به كمن أحسن الىٰ زوجته أو صديقه لِيربح عليها أو أراد إستداراجه الىٰ ضرر واختداعه كمن أطعم غذاءًمسمَوماً ليهلكه لم يكن ذلك نعمة فأمّا إذا كانت المنفعة علىٰ جهة الإحسان الىٰ الغير كانت نعة بلاكلام إذا عرفت النّعمة وحدّها فأعلم أنّ كلّ ما يصل إلينا آناء اللّيل والنّهار في الدّنيا والأخرة من النّفع و دفع الضّرر فهو من اللّه تعالىٰ كما قال: **وما بكم من نعّمةٍ فَمِن اللّه.**

ثمّ أنّ النّعمة علىٰ ثلاثة أوجه.

أحدها: ما تفرّد اللّه تعالىٰ به نحو الخلق والرّزق.

ثانيها: ما وصل إلينابواسطة غيره بأن خَلَق النّعمة والمُنعم و ما مكنّ المنعم من الأنعام وجعل فيه قدرة الأنعام وداعية فهذه النّعمة أيضاً في الحقيقة من اللّه تعالىٰ ألاّ أنّه لمّا أجراها بيد عبده كان ذلك العبد مشكوراً و لكنّ المشكور في الحقيقة هو اللّه ولهذا قال: **أَنِ اَشْكُرْ لي وَ لِوالِدَيْكَ**[1] فبدءَ بنفسه **وقال** عليه السلام **النّاس، من لم يشكر الخلق لَم يشكُر المخلُوق.**



۱- اللقمان = ۱۴

ثالثها: ما وصل الىٰ العَبد من اللّه تعالىٰ بواسطة طاعاته و هي أيضاً في الحقيقة من اللّه تعالىٰ لأنّه وفقّ العَبد علىٰ الطّاعة و أعانه عليها فطهر بهذاالتّقرير أنّ جميع النّعم من اللّه تعالىٰ في الواقع و اليه الإشارة بقوله:**وَ مٰا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اَللّٰهِ**[1].

و أيضاً أنّ نِعم اللّه علينا ممّا لا يمكن عَدّها وحصرها كما قال تعالىٰ: **وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اَللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا**[2] و إستدّلوا علىٰ المدّعىٰ عقلاً بأنّ المنفعة هي اللّذة أو مايكون وسيلة اليها وجمع ما خلق اللّه كذلك لأنّ كلّ ما يلتذّ به نعمة و كلّ ما لا يلتّذ به فهو وسيلة الىٰ دفع الضّرر والّذي لا يكون جالباً للنّفع الحاضر و لا دافعاً للضّرر الحاضر فهو صالح لأن نستدّل به علىٰ الصّانع الحكيم فيقع ذلك وسيلة الىٰ معرفته و طاعته و هما وسيلتان الىٰ اللّذات الأبديّة فثبت أنّ جميع مخلوقاته نعَم علىٰ العبيد و لكنّ العقول قاصرة عن تعديدها فضلاً عن الإحاطة بها و نعني بعدم فناء النِّعم عن عدم تناهيها بحسب الأنواع والأشخاص و امّا بحسب الأجناس فهي متناهية و بذلك يندفع ما قيل أو يقال بأنّه إذا كانت النِّعم غير متناهية فكيف يصّح الأمر بتذكرها و من المعلوم أنّ غير المتناهي لا يمكن التّذكر به و اذا ثبت إستحقاق الحمد و الثّناء و الطّاعة علىٰ إيصال النّعمة و هيّ منه تعالىٰ فينتج أنّ اللّه تعالىٰ هو المستحقّ لحمد الحامدين و شكر الشّاكرين و الىٰ هذا المعنىٰ أشار بقوله:

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ،أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ**[3]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ**[4]

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى اَلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لاٰ يَهِدِّيَ إِلاّٰ أَنْ يُهْدىٰ فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**[5]



١- النحل = ٥٣
٢- ابراهيم = ٣٤
٣- الشعراء= ٧٢/٧٣
٤- يونس = ١٨
٥-يونس = ٣٥

أنّ نِعَم اللّه وأن كانت غير متناهية لا يمكن عَدّها و لا إحصائها إلاّ أنّ أوّلها معلوم لنا و هو نعمة الحياة والوجود:

قال اللّه تعالىٰ: **اَلرَّحْمٰنُ، عَلَّمَ اَلْقُرْاٰنَ،خَلَقَ اَلْإِنْسٰانَ، عَلَّمَهُ اَلْبَيٰانَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **يٰآ أَيُّهَا اَلنّٰاسُ اَعْبُدُوا رَبَّكُمُ اَلَّذي خَلَقَكُمْ**(٢)

و قد مرّ الكلام فيها والوجود رأس النّعم و هو نعمة عامّة تشمل جميع الموجودات ثمّ بعده تصل النّوبة الىٰ سائر النّعم الدّنيوية والأخروية علىٰ حسب مراتبها اذا عرفت هذا فنقول:

أراد اللّه تعالىٰ أن يذكر شطراً من النِّعَم التّي خصّها ببني إسرائيل ويتبيَّن كفرهم و طغيانهم و عصيانهم بدلاً من الشّكر علىٰ النّعمة و أنّهم كيف وقعوا في الخِزي و الخسران في الدّنيا والأخرة بعد ماكانوا في سعةٍ و رخاءٍ جزاءً بما كسبوا بأيديهم و نكالاً لما تركوا الشّكر بأقسامه علىٰ ما أعطاهم اللّه في دار الدّنيا من الأمَن و الأمان و النّجاة من فرعون وجنوده و إنزال المنّ و السّلوىٰ عليهم و غيرها ممّا ستقف عليه في الأيات ففي كلّ ذلك أيات لقومٍ يتفكّرون و إنذار لكلّ من يقتدي بهم في كفران النّعمة الىٰ يوم القيامة:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ في ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشٰىٓ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ كٰانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى اَلْأَلْبٰابِ**(٤)

المقصد الثّاني: في تفسير قوله:**اَوْفُوا بِعَهْدِيٓ اُوفِ بِعَهْدِكُمْ** أي أوفوا بما أمرتكم من الطّاعات ونهيتكم عنه من المعاصي، أوف بعهدكم أي أرض عنكم و ادخلكم الجنّة و هو الّذي رُوي عن ابن عبّاس و دليله:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَوْفٰى بِعَهْدِهِ مِنَ اَللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ اَلَّذي بٰايَعْتُمْ بِهِ**(٥)

١- الرحمن = ١/٢/٣/٤
٢- البقرة = ٢١
٣- النّازعات= ٢٦
٤- يوسف= ١٩١
٥- التوبة = ١١١

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللّٰهَ ٱشْتَرٰى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوٰالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ**(١)

والقول الثّانى: أنّ المراد بالعهد في الآية ما أثبته في الكتب المتّقدمة من وصف محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنّه يبعثه علىٰ ما صَرَّح به في سورة المائدة حيث قال:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ أَخَذَ ٱللّٰهُ مِيثٰاقَ بَنِىٓ إِسْرٰآئِيلَ الى قوله لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئٰاتِكُمْ** (٢)

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى ٱلتَّوْرٰيةِ وَ ٱلْإِنْجِيلِ**(٣)

و أمّا عهد اللّه معهم فهو أن يُنجز لهم ما وعدهم من وضع ما كان عليهم من الأصر والأغلال الّتي كانت في أعناقهم.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ أَخَذَ ٱللّٰهُ مِيثٰاقَ ٱلنَّبِيِّينَ لَمآ اٰتَيْتُكُمْ مِنْ كِتٰابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جٰآءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ قٰالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يٰا بَنِىٓ إِسْرٰآئِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللّٰهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمٰا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرٰيةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُٓ أَحْمَدُ**(٥)

فهذا عهد اللّه معهم وقد نَبذوه وراء ظهورهم ومَكروا مَكراً واللّه خير الماكرين.

القول الثّالث: أنّ العهد قد يضاف الىٰ المعاهِد و قد يضاف الىٰ المتعاهد ولعلّ الأوّل في الآية مضاف الىٰ الفاعل والثّاني الىٰ المفعول فأنّه تعالىٰ عَهد اليهم بالإيمان والعمل الصّالح بنصب الدّلائل و إنزال الكُتب و وعدهم

١- التوبة= ١١١ ٢- المائدة = ١٢
٣- الاعراف = ١٥٧ ٤-آل عمران = ٨١
٥- الصف = ٦

بالثّواب على حسناتهم و للوفاء بها عرض عريض فأوّل مراتب الوفاء هو الإتيان بكلمتي الشّهادة و من اللّه تعالىٰ حقن الدّم و المال و أخرها الإستغراق في بحر التّوحيد بحيث يغفل عن نفسه فضلاً عن غيره، و مِن اللّه تعالىٰ الفوز باللِّقاء الدّائم، و قيل كلاهما مضاف الىٰ المفعول والمعنىٰ أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان و إلتزام الطّاعة أوف بما عاهدتكم من حُسن الإثابة و هذا القول إختاره الزّمخشري في الكشّاف وتبعه البيضاوي و غيره من المفسّرين.

القول الرّابع : في كتاب معاني الأخبار بأسناده الىٰ ابن عبّاس قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **أنزل اللّه عزّ وجلّ وَأَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**، واللّه لقد خرج آدم من الدّنيا و قد عاهد قومه علىٰ الوفاء لولده شيث فما وفىٰ القوم به و لقد خَرج نوح من الدّنيا و عاهَد قومه علىٰ الوفاء لوصيّه، سام، فما وفَت أمّته، و لقد خرج إبراهيم من الدّنيا و عاهد قومه لوصّيه إسماعيل فما وفت أمّته و لقد خرج موسىٰ من الدّنيا و عاهَد قَومه علىٰ الوفاء لوصّيه يُوشع بن نون فما وفت أمّته و لقد رفع عيسىٰ ابن مريم الىٰ السّماء و قد عاهَد قومه علىٰ الوفاء لوصّيه شمعون بن حمون الصّفا فما وفَت أمّته و أنّي مفارقكم عن قريب و خارج من بين أظهركم و لقد عَهدت الىٰ أُمّتي في عهد علّي ابن أبي طالب عليه السلام و أنّها لراكبة سنن من قبلها من الأمم في مخالفة وصّي و عصيانه إلاّ و أنّي مجدّد عليكم عهدي في علّي فمن نكث فأنّما ينكث علىٰ نفسه و من أوفىٰ بما عاهَد عليه اللّه فسيؤتيه أجراً عظيماً أيّها النّاس أنّ علّياً إمامكم بعدي و هو وصّي و وزيري و أخي و ناصري و زوج إبنتي و أبو ولدي و صاحب شفاعتي و حوضي من عَصىٰ علّياً فقد عصاني و من

عصاني فقد عَصىٰ اللّه و من أطاع علّياً فقد أطاعني و من أطاعني فقد أطاع اللّه عزّ وجلّ، ياأيّها النّاس من ردَّ عَلَي علّيٍ في قول أو فعلٍ فقد ردَّ علّي ومن ردَّ علّي فقد رَدَّ علىٰ اللّه فوق عرشه أيّها النّاس من إختار منكم علىٰ علّيٍ إماماً فقد إختار علّي نبّياً و من إختار علّي فقد إختار علىٰ اللّه عزّ وجلّ ربّاً، أيّها النّاس أنّ علّياً سيّد الوصّـيين و قائد الغر المحجّلين و مَولىٰ المؤمنين ولّيه وليّ و ولّي ولّي اللّه و عدّوه عدوّي و عَدّوي عدّو اللّه عزّ وجلّ أيّها النّاس أوفوا بعَهد اللّه في علّيٍ يُوفّ لكم بالجنّة يوم القيامة(١).

و عن أُصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه في قوله عـزّ وجـلّ أَوْفُوا بِعَهْدِيَ قال: قال بولاية أمير المؤمنين، أُوفِ بِعَهْدِكُمْ أُوف لكم بالجنّة(٢).

و بأسناده عن خثيمة قال قال أبو عبد اللّه: ياخثيمة نحن عَهد اللّه فمن وفىٰ بعَهدنا فقد وفىٰ بعهد اللّه و من حَضرنا فقد حضر ذمَّه اللّه الحديث

و بأسناده عنه عليه السلام قال له رجل جلت فِداك أنّ اللّه يقول أدعـوني أستجب لكم و أنّا ندعو فلا يُستجاب لنا قـال عليه السلام لأنّكـم لاتـفون بعهده و إنّ اللّه يقول أَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ واللّه لو وفيتم لِلّه لوفى اللّه لكم انتهىٰ(٣).

أن قلت الآية وَرَدت في ذَمّ بني إسرائيل حيث أنّهم لم يوفوا بعَهد اللّه لقوله تعالىٰ :**يٰابَنِيَ إِسْرٰائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيَ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِيَ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ** لا في أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

١- نور الثّقلين ج ١ ص ٧٢
٢- ص ٧٢
٣- ص ٧٣

قلت خصوصّية المورد لا يقدح في عُموم الآية ألا ترىٰ أنّ كثيراً من الأيات كأية الزّنا و أية السّرقة و أمثالهما مواردها خاصّة فأنّها نزلت في شخصٍ خاصٌ زنىٰ أو سرق مثلاً و مع ذلك حُكمه يجري الىٰ يوم القيامة فيمن سرق أو زنىٰ و ما نحن فيه من هذا القبيل وإلاّ يلزم أن يكون نقض العَهد مذموماً في حقّ بني إسرائيل لأنّ الآية وردت فيهم لا في حقّ هذه الأُمّة و غيرها اذ الآية لا تشملها مثلاً و لا يقول بهذه المقالة عاقل نضلاً عن مسلم و قد ذكرنا في صدر المبحث أنّ قصص القرأن لأجل العبرة بها في هذه الأمّة الىٰ يوم القيامة و هو ظاهر فاذا كان قوم بني إسرائيل مذمومين لعدم مراعاتهم عَهد اللّه و لاجل ذلك إبتلاءهم اللّه بالخسران والعذاب في الدّنيا و الأخرة كما سيجئ فهكذا الأمر في هذه الأية لأنّهم أيضاً لم يُراعوا عَهد اللّه ونبّيه في حقّ أوصياءه و حكم الأمثال واحد.

المقصد الثّالث: في تفسير قوله تعالىٰ: **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** إعلم أنّ الرّهبة و الخشية و المخافة نظائر و الفرق بينهما بالإعتبار و ضّد **الرّهبة**، الرّغبة تقول، **رَهَب** فلان يرهب **رَهباً ورهاباً ورهبةً** اذا خاف من شئ و منه إشتقاق الرّاهب والإسم الرَّهبة والفرق بين الخوف والرّهبة أنّ الخوف هو شكّ في أنّ الضرّر يقع أم لا والرّهبة معها العلم بأنّ الضّرر واقع عند شرطٍ فأن لم يحصل ذلك الشّرط لم يقع و علىٰ هذا فالمعنىٰ و إيّاي خافون و أصله **فأرهبوني** سقطت الياء الّتى بعد **النّون** لأنّها رأس أيةٍ و قرأ ابن أبي إسحاق فأرهبوني بالباء وكذا (فأتّقوني) علىٰ الأصل.

قلنا في شرح اللّغات والإعراب، أنّ إيّاي، منصوب بفعل مقدّر و تقدّيره إيّاي فأرهبوا فأرهبون ونزيد في المقام أنّه يجوز في الكلام و أنا فأرهبون علىٰ الإبتداء و الخَبر وكون، فأرهبون الخَبر علىٰ تقدير الحذف والمعنىٰ و أنا ربّكم فأرهبُون، والمقصود خافوني في صورة عدم الوفاء بعَهدي و إلاّ فلا، و كيف

كان فالأمر يتضمّن معنى التّهديد لمن لا يفي بعَهد اللّه فأنّ العَهد ممّا يجب مراعاته لكلّ أحدٍ و في جميع الموارد.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذينَ هُمْ لِأَماناٰتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راٰعُـونَ** [١] و سيأتي الكلام فيه.

■

١- المؤمنون = ٨

﴿وَٰامِنُوا بِمَآ اَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاٰ تَكُونُوا اَوَّلَ كٰافِرٍ بِهِ وَلاٰ تَشْتَرُوا بِـاٰيَاتِي ثَـمَناً قَـلِيلاً وَاِيّٰـاىَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾

◁ اللّغة

مُصَدِّقاً: إسم فاعل من التّصديق و هو الإعتقاد بالقلب.

كٰافِرٍ بِهِ: الكافر السّاتر و قد مضىٰ الكلام فيه.

ثَمَناً: الثّمن هو البَدل في البيع ويستعمل في غيره مجازاً.

اِيّٰاىَ: مضىٰ الكلام فيه.

◁ الإعراب

مُصَدِّقاً حال موكّدة من الهاء المحذوفة في اَنْزَلْتُ تقديره، أنزَلته مَعَكُمْ منصوب علىٰ الظّرف والعامل فيه الإستقرار اَوَّلَ هي أفعَل و فاءها و عينها و أوان عند سيبويه و أصلها، وَوّل، فأُبدلت الواو همزة لانضمامها ضمّاً لازماً ولم تخرج علىٰ الأصل كراهيّة إجتماع الواوين و نصب اَوَّلَ كٰافِرٍ لأنّه خبر كان.

◁ التّفسير

قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لليهود وَٰامِنُوا بِمَآ اَنْزَلْتُ علىٰ محمّدٍ من القرأن مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ من التّوراة وَلاٰ تَكُونُوا اَوَّلَ كٰافِرٍ بِهِ أي بالرّسول وَلاٰ تَشْتَرُوا بِاٰيَاتِى ثَمَناً قَلِيلاً من حطام الدّنيا وَاِيّٰاىَ فَاتَّقُونِ أي وأخشوني في أمر محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم وفيها أبحاث:

البحث الأوّل: في قوله وَٰامِنُوا بِمَآ اَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ أمَرهم اللّه بالإيمان بما أنزلَ علىٰ رسوله و هو القرأن و قد قلنا سابقاً أن الإيمان عبارة عن

الإعتقاد بالقلب والإقرار باللّسان و العَمَل بالجَوارح و الأركان و أنّما قال ذلك لأنّ اليهود و خصّوصاً علمائهم كانوا يمنعهم عن أتباع الحقّ و الإقرار به حبّ الرّئاسة و الشهوّات النفسانيّة مع علمهم بصدق الرّسول فقال تعالىٰ مخاطباً لهم أمنوا بما أنزلت علىٰ محمّدٍ ﷺ من القرأن و أنّه منزل من السّماء، مصدّقاً لما معكم، أي أنّ القرأن مصدّق لما معكم من التّوراة و ذلك لأنّ الكتب السّماوية تصدّق بعضها بعضاً فأنّ حكم الأمثال واحد والكلّ منزل من السّماء بواسطة الأنبياء لإرشاد الخَلق و فيه إيماء الىٰ أنّ الملاك في القبول واحد في التّوراة والقرأن فلا وجه لقبول التّوراة و إنكار القرأن (إن قلت، أن كان الأمر علىٰ هذا المنوال فلمَ لَم يؤمنوا به.

قلت، أمّا علماء اليهود فالسّبب في إنكارهم حبّ الرّئاسة والجاه و امّا العوام منهم فلم يعلموا به لأنّ علماء اليهود كانوا يكتمون الحقّ عنهم وأنّما قال أمنوا ولَم يقل أسلموا، لأنّ المطلوب و المقصود الحقيقي في الأئيان هو حصول الإيمان الّذي هو أعمّ من الإسلام و في قوله تعالىٰ: **وَلاٰ تَكُونُوا اَوَّلَ كاٰفِرٍ بِهِ** إشارة الىٰ أنّهم أي علماء اليهود قد علموا بصدق الرّسول علىٰ ما أخبرهم اللّه في التّوراة بقلوبهم و أنّما أنكروا نبّوته ﷺ باللّسان و هذا هو النّفاق فكأنّهم ستروا الحقّ في قلوبهم ولم يظهروه علىٰ ألسنتهم ولهذا عُبّر عنهم بالكافر ولم يعبّر عنهم بالمنكِر و قد مرّ في معنىٰ الكفر أنّه في الأصل السّتر.

البحث الثّانى: في قوله **وَلاٰ تَشْتَرُوا بِاٰيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً** **رُوي عن الباقر عليه السلام في تفسير الآية أنّه قال كان حيّ ابن أخطب وكعب بن الأشرف وأخرون من اليهود لهم مأكلة علىٰ اليهود في كلّ سنة فكرهوا بطلانها بأمر النّبي فحرّفوا لذلك أيات من التّوراة فيها صفته وذكره فذلك الثّمن الّذي أريد في الأية.**

قال الفرّاء أنّما دخل الباء في، أيات دون الثّمن وفي سورة يوسف أدخله في الثّمن و قال: **وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ** لأنّ العروض كلّها أنت مخيّر فيها إن شئت قلت إشتريت الثّوب بكساء وإن شئت قلت اشتريت بالثّوب كساءً أيّهما جعلت ثمناً لصاحبه جاز فاذا جئت الىٰ الدّراهم والدّنانير وضعت الباء في الثّمن كقوله: **وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ**[1] لأنّ الدّراهم ثمنٌ أبداً و عليه فالمعنىٰ لا تَستبدلوا بأياتي التّي في التّوراة في صفة محمّد ﷺ و بَعَثه ثمناً قليلاً أي عرضاً يسيراً من الدّنيا قاله الطّبرسي في المجمع.

و قال بعض العامّة كان الأحبار من اليهود يأخذون الرّشوة علىٰ تغيير صفة محمّد ﷺ عن التّوراة فنُهوا عنه و قال قوم كانت لهم مأكلٌ يأكلونها علىٰ العلم كالرّاتب فنهوا عنه و قيل أنّ الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك و في كتبهم ياابن آدم علّم مجاناً كما علّمت مجاناً أي بغير أجرةٍ.

و قيل المعنىٰ، و لا تَشتروا بأوامري و نواهّي و أياتي ثمناً قليلاً يعني الدّنيا و مدّتها و العيش الّذي هو نزر لا خَطر له فسُمّي ما إعتاضوه عن ذلك ثمناً لأنّهم جعلوه عوضاً فأطلق عليه إسم الثّمن و أن لم يكن ثمناً قال الّشاعر:

إن كنتُ حاولت ذنباً أوظفرت به   فما أصبتَ بترك الحجّ من ثمنٍ

و قال صاحب الكشّاف كانت عامّتهم يعطون أحبارهم من زروعهم و ثمارهم و يهدون اليهم الهدايا و يرشون الرّشا علىٰ تحريفهم الكّلم و تَسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشّرائع وكان مُلوكهم يدَّرون عليهم الأموال ليكتموا أو يحرّفوا.

أقول الجامع بين هذه الأقوال هو حبّ الدّنيا و لا غير وليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام.

١- يوسف = ٢٠

البحث الثّالث: في قوله تعالىٰ:**وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ**، والأصل فإتّقوني كما مرّ في قوله و إيّاي فإرهبون و إيّاي منصوب بفعلٍ محذوف والتقدّير، إتّقوا إيّاي فإتّقون أمَرهم بالتّقوىٰ و أصل الإتّقاء الإحتراز لأنّه من الوقاية و هي حفظ الشّي ممّا يؤذيه و يضرّه.

قال الرّاغب التّقوىٰ جَعل النّفس في و قايةٍ ممّا يخاف و في تعارف الشّرع حفظ النّفس عمّا يُؤثم و ذلك بترك المحظور و قد تكرّر هذا اللّفظ في الأيات والأثار كثيراً.

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ**[1]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا**[2].

و غيرها من الأيات والمراد بقوله تعالىٰ:**وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ** أي فإيّاي فأحذرون أي إحذروا عن معصيتي **وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً** و لا تكونوا أوّل كافرٍ بالرّسول أو إحذروا عن تحريف كتابى.

■

١- الاعراف = ٣٥ ٢- الزمر = ٧٣

وَلاٰ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

◁ اللّغة

وَلاٰ تَلْبِسُوا: اللَّبس، السّتر، وأصل اللَّبس بسَتر الشئ ويقال ذلك في المعاني علىٰ سبيل الإستعارة.

الْحَقَّ: يقابل الباطل.

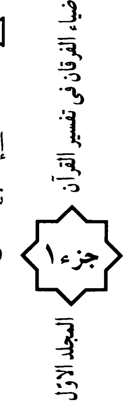
تَكْتُمُوا: الكتمان سَتر الحديث يقال كَتَمتُه كتماً وكتماناً.

◁ الإعراب

وَلاٰ تَلْبِسُوا الْحَقَّ فعل النهي و فاعله والحقّ مفعوله بِالْبٰاطِلِ الجار والمجرور متعلّق بالفعل، وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ مجزوم بحكم العطف علىٰ قوله و لا تلبسوا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ في موضع نصبٍ علىٰ الحال.

◁ التّفسير

لمّا أمَرهم اللّه في الآية السّابقة بالإيمان بما أُنزل علىٰ الرّسول ونَهاهُم عن إشتراء الكتاب بالثّمن القليل و هو الدّنيا و زخارفها أردَفَ كلامه بالنّهي عن تلبيس الحقّ بالباطل فقال وَلاٰ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ و لا تكتموا الحقّ والحال أنّكم تعلمون ما تفعلون، فالمطالب ثلاثة.



أحدها: تلبيس الحقّ بالباطل.ثانيها: كتمان الحقّ.ثالثها:، العِلم بهما.

أمّا الأوّل: فلا شكّ في قبحه عقلاً و شرعاً.

أمّا العقل فلأنّه من علائم النّفاق والمنافق محكوم في العُقول السّليمة.

أمّا النّقل فلآيات و الأثار.

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ وَ تَكْتُمُونَ ٱلْـحَقَّ وَ أَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ** [١]

قال اللّه تعالىٰ: **اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوٓا اِيمٰانَهُمْ بِظُلْمٍ** [٢]

و أمّا الأثار فقد مرَّت في المنافقين وسيأتي الكلام في النّفاق والتّلبيس في موضع آخر.

أن قلت ما الفرق بين النّفاق والتّلبيس، قلت الفـرق بـينهما بـالإعتبار فأنّ النّفاق عبارة عن مخالفة الظّاهر للباطن قولاً وفعلاً، والتّلبيس عبارة عن إرائة الباطل بُصورة الحقّ بحيث يكون الأمر مشتبهاً علىٰ غيره فهو و أن كان منشأه النّفاق إلاّ أنّهم لا يطلقون عليه المنافق فهو بالخدعة و المكر أشبه و امّا الثّاني، أي كتمان الحقّ فهو أيضاً مذموم.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَهُ مِنَ ٱللّٰهِ** [٣]

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰآ أَنْزَلْنٰا مِنَ ٱلْبَيِّنٰاتِ وَ ٱلْهُدٰى مِنْ بَعْدِ مٰا بَيَّنّٰاهُ لِلنّٰاسِ فِى ٱلْكِتٰابِ أُولـٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللّٰهُ** [٤]

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مٰآ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلْكِتٰابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولٰئِكَ مٰا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنّٰارَ** [٥]

والسّر في قبحه عقلاً وشرعاً هو أنّ كتمان الحقّ يوجب ظهور الباطل لأنّ الأمر يدور مَدارهما و هما نقيضان لا يجتمعان و لا يرتفعان فلابدّ من وجود أحدهما لئلاّ يرتفع النّـقيضان فأن كـان الحـقّ ظـاهراً فـالباطل لا وجـود له و بالعكس فَمن كَتم الحقّ أظهَرَ الباطل من حيث لا يعلم و لايظهر البـاطل إلاّ أهله.

١- آل عمران= ٧١
٢- الأنعام= ٨٢
٣- البقرة= ١٤٠
٤- البقرة= ١٥٩
٥- لبقرة= ١٧٤

أمّا الثّالث: و هو قوله: **أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ففيه إشارة الىٰ أنّ كتمان الحقّ من العالم يُوجب القَدح و الذّم و امّا من الجاهل الّذي لا يَعلم و لا يعرف الحقّ **فلا لقوله** ﷺ **رُفع عن أُمّتي تسعة وعَدَّ منها ما لايعلمون**، و أن كان بين القاصر والمقّصر فرقٌ من حيث أنّ الثّاني في حكم العامد دُون الأوّل وللبحث فيه موضع أخر.

و يستفاد من الآية أنّ علماء اليهود كانوا يلبسون الحقّ بالباطل و يكتمون الحقّ عن علمٍ و عَمدٍ و هو كذلك في حقّهم إلاّ أنّ النّهي يشمل كلّ من كان كذلك لعموم النّهى.

■



وَاَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرّٰاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

◁ اللّغة

قد مضى في صدر السّورة معنىٰ الصّلاة وإقامتها عند قوله تعالىٰ **ويقيمُون الصلاة**.

الزَّكٰاةَ: أصلها النّمو الحاصل عن بَركة اللّه تعالىٰ يقال زكا الزّرع يزكوا اذا حصل منه نموّ وبَركة هذا بحسب الأصل و امّا في الشّرع فتطلق علىٰ القَدر المخرج من المال كما سيأتي.

وَارْكَعُوا: أمَرٌ من الرّكوع و هو الإنحناء فتارَةً يستعمل في الهَيئة المخصوصة في الصّلوة كما هي، وتارَةً في التّواضع والتذلّل إمّا في العبادة و امّا في غيرها.

◁ الإعراب

الواو للعطف، اَقيمُوا الصَّلٰوةَ. أَقيمُوا أمرٌ من إقام يقيم وفاعل الفعل مستتر فيه و الصّلوة مفعول الفعل وَاٰتُوا الزَّكٰاةَ،كذلك و أصل آتوا، آيتوُا لأنّه من أَتىٰ يأتي فأستثقلت الضّمة علىٰ الياء فسكنت وحذفت لإلتِقاء السّاكنين ثمّ حركّت التّاء بحركة الياء المحذوفة مَعَ الرّٰاكِعِينَ.

◁ التّفسير

ثمّ أمَرهم اللّه تعالىٰ بالصّلوة أوّلاً فقال: **وَاَقيمُوا الصَّلٰوةَ** و بأتيان الزّكوة ثانياً فقال: **وَاٰتُوا الزَّكٰاةَ** و بالرّكوع: **مَعَ الرّٰاكِعِينَ** ثالثاً. أمّا الصّلوة فقد مضىٰ البحث فيها و في إقامتها في قوله تعالىٰ: **اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقيمُونَ**

الصَّلٰوةَ الآية مفصلاً و قلنا أنّ الصلٰوة في الأصل الدّعاء و في إصطلاح المُتشّرعة عبارة عن الأفعال المخصوصة والأذكار المأثورة بقصد القربة من النيّة و تكبيرة الإحرام و القراءة و الرّكوع و السّجود و التشهّد و غيرها و المراد بإقامتها إدائها بأركانها و حدودها و شرائطها كما بيّنها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و قال صَلّوا كما رأيتموني أصلّي فلا نعيد الكلام بذكرها ثانياً و امّا الزّكوة، و هي القدر المخرج من المال فقد أجمع المسلمون علىٰ وجوبها كالصّلوة وعدّوها من الضرّوريات في الإسلام و حَكموا بكفر من أنكَرها و نحن نتكلّم فيها إجمالاً.

فنقول، قال في الحدائق، الزّكوة تطلق علىٰ معنيين، الطّهارة والزّيادة والنمّو و من الأوّل قوله تعالىٰ: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّيٰها**[١] أي طهّرها من الأخلاق الذّميمة، ومن الثّاني قوله تعالىٰ: **أَزْكىٰ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ** أي أنمى لكم الىٰ أن قال قدس سره وهي واجبة بالكتاب والسّنة قال اللّه عزّ وجلّ: **وَاَقيمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰاةَ:**

قال اللّه تعالى: **خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكّيهِمْ بِها**[٢]

قال اللّه تعالى: **وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكينَ،اَلَّذينَ لا يُؤْتُونَ اَلزَّكٰوةَ**[٣]

و امّا السّنة فمتفيضة جدّاً منها ما رواه ثقة الإسلام في الكافي في الصّحيح عن عبد اللّه إبن سنان قال قال أبي عبد اللّه عليه السلام لمّا نَزلت آية الزّكٰواة.

قال اللّه تعالىٰ: **خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكّيهِمْ بِها**[٤]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكينَ،اَلَّذينَ لا يُؤْتُونَ اَلزَّكٰوةَ**[٥]

و أمّا السنّة فمستفيضة جدّاً منها ما رواه ثقة الإسلام في الكافي في الصّحيح عن عبد اللّه ابن سنان قال: قال أبو عبد اللّه عليه السلام: لمّا نزلت أية الزّكاة، خُذ من أموالهم صَدقةً تطهّرهم و تزّكيهم بها و أُنزلت في شهر رمضان فأمر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم مناديه فنادىٰ في النّاس

١- الشمس = ٩
٢- توبة= ١٠٣
٣- فصلت = ٦/٧
٤- التوبة= ١٠٣
٥- فصلت = ٦/٧

أنّ اللّه تعالىٰ فرض عليكم الزّكاة كما فرض عليكم الصّلاة فَرَض اللّه عليكم خ ل..من الذهب والفّضة و فرض عليهم الصَّدَقة من الإبل و البقر و الغَنم و الحنطة و الشّعير و التّمر و الزّبيب و نادىٰ فيهم بذلك في شهر رمضان و عفىٰ لهم عمّا سوىٰ ذلك قال عليه السلام: ثمّ لم يتعرّض بشئٍ من أموالهم حتّىٰ حال عليهم الحَول من قابل فصافوا و أفطروا فناداه في المسلمين أيّها المسلمون زكّوا أموالكم تُقبل صلواتكم قال عليه السلام ثمّ وجّه عمّال الصّدقة و عمّال الطّس انتهىٰ.

الطَّس بالفتح ما يوضع من الخراج علىٰ كلّ جريبٍ من الأرض فارّسي مُعرّب).

و ما رواه عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه قالا: فرض اللّه الزّكوٰة مع الصّلاة، الظّاهر من المعيّة المقارنة في الرّتبة كما يشعر به الحديث الأتى.

و ما رواه أيضاً عن معروف بن حربوز عن أبي جعفر عليه السلام قال أنّ اللّه عزّ وجلّ قَرن الزّكاة بالصّلاة قال و أقيموا الصّلاة و أتوا الزّكاة فَمن أقام الصّلاة ولم يؤت الزّكاة فَلم يُقيم الصّلاة انتهىٰ.

و ما رواه في الفقيه عن أبي عبد اللّه بن مسكان يرفعه الىٰ أبي جعفر قال عليه السلام بينا رسول اللّه في المسجد اذ قال قم يا فلان قم يافلان حتّىٰ أخرج خمسة نفر فقال صلى الله عليه وآله وسلم أخرجوا من مسجدنا لا تصّلوا فيه و أنتم لا تزّكون انتهىٰ.

و ما رواه في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: من منع قيراطاً من الزّكاة فَلَيس بمؤمنٍ ولا مُسلمٍ و هو قوله تعالىٰ (ربّ أرجعون لعلّي أعَمل صالحاً فيما تَركتُ) و في روايةٍ أخرىٰ ولا تُقبل.

و ما رواه فيه أيضاً عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول

مَن منع الزّكاة سأل الرَّجعة عند الموت و هو قول اللّه ربّ أرجعون لعلّي أعَمل صالحاً فيما تركت.

و ما رواه فيه عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه عليه السلام قـال: مـن مـنع قيراطاً من الزّكاة فليمُت إن شاء يهودياً و إن شاء نصرانياً الىٰ غير ذلك من الأخبار الواردة في الباب.

و أمّا الأيات فقد وردت في الحثّ عليها أكثر من خمسين أية قد قَرنها مَع الصّلاة في أكثرها:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ وَ أَقامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَوُا ٱلزَّكٰوةَ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ أَقيمُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا ٱلزَّكٰوةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصيرٌ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَوُا ٱلزَّكٰوةَ فَخَلُّوا سَبيلَهُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحيمٌ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ ٱللّٰهِ مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ أَقامَ ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَى ٱلزَّكٰوةَ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ اٰتَوُا ٱلزَّكٰوةَ فَإِخْوانُكُمْ فِى ٱلدّينِ**(٥)

قال العلامّة قدس سره في التّذكرة أجمع المسلمون كافةً علىٰ وجوبها في جميع الأعصار و هي أحد الأركان الخمسة (لعلّ مراده بالأركان الخَمسة **قوله** عليه السلام **بني الإسلام علىٰ خمس، الصّلاة والزّكاة والصّوم والحّج والولاية وما نُودي بشيءٍ فها كما نودى بالولاية.**

١- البقرة= ٢٧٧
٢- البقرة= ١١٠
٣- التّوبة= ٥
٤- التّوبة= ١٨
٥- التّوبة= ١١

قال مُدَّ ظِلُّهُ اذا عرفت هذا فمن أنكر وجوبها ممّن ولد علىٰ الفطرة و نشأ بين المسلمين فهو مرتدّ يقتل من غير أن يَستتاب و أن لم يكن عن فطرةٍ بل أسلم عقيب كفرٍ مع علمه بوجوبها أُستثيب ثلاثاً فأن تاب و إلاّ فهو مرتد وجب قتله و أن كان مِمّن يخفي وجوبها عليه لأنّه نشأ بالبادية أو كان قريب العهد بالإسلام ع عُرّف وجوبها و لم يحكم بكفره انتهىٰ.

أقول، لاشكّ في وجوبها بل كونها من ضروريات الدّين كما عرفت و امّا تفصيل الكلام فيها و بيان شرائطها فموكول الىٰ كتب الفِقه من العامّة والخاصّة.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** فلقائل أن يقول لِمَ خُصّ الرّكوع في الآية و هو من أفعال الصّلاة أَليس قوله: **وَاَقِيمُوا الصَّلٰوةَ** مُغنٍ عنه والجواب عنه من وجوهٍ ذكرها الطّبرسي في المجمع:

أحدها: أنّ الخطاب لليهود ولَم يكن في صلواتهم ركوع وكان الأحسن ذكر المختّص دون المشترك لأنّه أبعد من اللّبس.

ثانيها: أنّه عبّر بالرّكوع عن الصّلاة يقول القائل فرغتُ من ركوعي أي صلاتي و أنّما قيل ذلك لأنّ الرّكوع أوّل مايُشاهد من الأفعال الّتي يستدّل بها علىٰ أنّ الإنسان يصلي فكأنّه كَرّر ذكر الصّلاة تأكيداً، ثمّ قال مُدَّ ظِلُّهُ و يمكن أن يكون فيه فائدة تزيد علىٰ التّأكيد و هو أنّ قوله أقيموا الصّلاة أنّما تُفيد وجوب إقامتها و يحتمل أن يكون إشارة الىٰ صلواتهم الّتي يعرفونها و أن يكون الصّلاة إشارة الىٰ الصّلاة الشّرعية و قوله: **وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** يكون معناه صَلّوا مع هؤلاء المسلمين الرّاكعين فيكون متخصّصاً بالصّلاة المتقرّرة في الشّرع فلا يكون تكراراً بل يكون بياناً.

ثالثها: أنّه حَثّ علىٰ الصّلاة جماعة لتقدم ذكر الصّلاة في أوّل الآية انتهىٰ ما ذكره مُدَّ ظِلُّهُ.

أقول هذه الوجوه الّتي ذكرها قدّس سرّه في تفسيره عند الآية هي الّتي ذكرها غيره من المفسّرين من العامّة والخاصّة بأدنىٰ تفاوت في الألفاظ و العبارات و لا بأس بها و أنا أقول، لا يبعد أن يكون المراد بالرّكوع في قوله : **وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** معناه الأخر و هو التذلّل والخضوع و ذلک لأنّ الرّكوع كما يطلق علىٰ الإنحناء، يطلق علىٰ التّواضع والتذلّل في العبادة و في غيرها وعلىٰ هذا فمعنىٰ قوله تعالىٰ: إخضعوا مع الخاضعين و ذَلِّلوا مَعَ المُتذلّلين فهو في الحقيقة نهى عن الإستكبار المذموم عقلاً و شرعاً و ذلک لأنّ اليهود كانوا متكبّرين و به قال الفيض قدّس سرّه في الصّافي حيث قال أي تواضعوا مع المتواضعين لعظمة اللّه في الإنقياد لأولياء اللّه ثمّ قال، و قيل أي في جماعتهم للصّلاة، أقول و هذا فردٌ من أفراد ذاك انتهىٰ.

■

اَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسُونَ اَنْفُسَكُمْ وَاَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ اَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

◁ اللّغة

بِالْبِرِّ: البِرّ بكسر الباء الإحسان و بفتحها ضدّ البَحر.

تَنْسُونَ: من النسّيان و ضدّه الذّكر و قالوا في تعريفه النسّيان غروب الشّئ عن النّفس بعد حُضوره و قد يكون بمعنى التّرك و عليه قوله تعالىٰ: **نَسُوا اَللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ** أي تركوا اللّه فتركهم.

تَتْلُونَ: مضارع من تلي يتلو وأصل التّلاوة القراءة.

تَعْقِلُونَ: العقل ضدّ الحُمق.

قال الرّاغب في المفردات **العقل** يقال للقوّة المتهيّئة لقبول العلم و يقال للعلم الّذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة عقل فهو مطبوع و مسموعٌ.

◁ الإعراب

وَتَنْسُونَ أصله تنسيون ثمّ عَمل فيه ما ذكرناه في قوله: **اِشْتَرَوا الضَّلالَةَ**.

اَفَلَا تَعْقِلُونَ إستفهام في معنىٰ التّوبيخ و لا موضع له من الإعراب.

◁ التّفسير

ثمّ خاطبهم بقوله: **اَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ** والإحسان والهمزة للتّوبيخ و تنسون أنفسكم و أنتم، أي والحال أنتم، تتلون الكتاب و هو التّوراة **اَفَلَا تَعْقِلُونَ**، فأن العاقل يبدأ بنفسه ثمّ بغيره و من لَم يكن كذلك فكأنّه غير عاقلٍ، قيل أنّ الآية خطاب لِعلماء اليَهود و ذلک لأنّهم كانوا يقولون لأقرباءهم من المسلمين إثبتوا علىٰ ما أنتم عليه و هم لايؤمنون و الهمزة معناه التّوبيخ و

قيل أنّ المراد بالبرّ في الآية الإيمان بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و قال بعض المُفسّرين أنّهم كانوا يأمرون النّاس بالتمسّك بالتّوراة و تركوا التمسّك به فأنّ جحدهم النّبي وصفته تركٌ للتمسّك به، و قال بعض، كانوا يأمرون النّاس بطاعة اللّه و هو يخالفونه، ثمّ قال: **وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ**، أي التّوراة و فيه صفة الرّسول ونعته **اَفَلاٰتَعْقِلُونَ** أي أفلا تفقهون ما تفعلونه قبيح في العقول وسبب التعجّب أمور.

أحدها: أنّ المقصود من الأمر بالمعروف إرشاد الغير الىٰ تحصيل المصلحة و من المعلوم أنّ الإحسان الى النّفس أولىٰ من الإحسان الىٰ الغير قال اللّه تعالىٰ: **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نارًا**[1].

فمن وعظ ولم يتّعظ فكأنّه أتىٰ بفعلٍ متناقض لا يقبله العقل فلهذا قال **اَفَلاٰتَعْقِلُونَ**.

ثانيها: أنّ من وَعظ النّاس و أظهر علمه للخلق و لَم يتّعظ صار ذلك سبباً لرغبة النّاس في المعصية لأنّ النّاس يقولون أنّه مَع هذا العلم لو لا أنّه أطّلعٌ علىٰ أنّه لا أصل لهذه التخويفّات لما ترك العمل بقوله وحيث أنّه لا يعمل بقوله فهو دليل علىٰ كذبه فيصير هذا داعياً لهم الىٰ التّهاون بالدّين والجرأة علىٰ المعصية فإذا كان الواعظ غرضه من وعظه الزّجر عن المَعصيّة ثمّ أتىٰ بفعل يوجب الجُرأة علىٰ المَعصية فكأنّه جَمع بين المتناقضين و ذلک لا يليق بأفعال العقلاء فلهذا قال: **أَفِلاٰ تعقِلون**، و قد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال، أبلِغ شيعتنا أنّ أعظَم النّاس حسرةً يوم القيامة مَن وصف عدلاً ثمّ خالفَه الىٰ غيره و بهذا المضمُون رويات كثيرة.

■

١- التحريم = ۶

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهٰا لَكَبِيرَةٌ اِلاّٰ عَلَى الْخٰاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ اَنَّهُمْ مُّلاٰقُوا رَبِّهِمْ وَاَنَّهُمْ اِلَيْهِ رٰاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

◁ اللّغة

اسْتَعِينُوا: أمرٌ من الإستعانة وهي طَلب العون.

بِالصَّبْرِ: الصَّبر منع النّفس عن محّابها وكفّها عن هواها.

الْخٰاشِعِينَ: جمع خاشع و الخشوع قريب المعنىٰ من الخضوع.

يَظُنُّونَ:،الظّن ترجيح أحد طَرَفي الشكّ فأن لم يترجّح فهو الشّك.

◁ الإعراب

واسْتَعِينُوا أصله إستعونى وقد مرّ الكلام فيه في الفاتحة وَاِنَّهٰا الضّمير للصّاوة و قيل الإستعانة اِلاّٰ عَلَىَ الْخٰاشِعِينَ في موضع نصب، بكبيرة والّذين يظنّون أنّهم ملاقوا ربّهم في موضع الجرّ صفة للخاشعين.

◁ التّفسير

نقل عن الجبائي أنّه قال الآية خطاب للمسلمين دُون أهل الكتاب و عن الرّمّاني أنّه قال، الآية خطاب لليهود غيرهم من أهل الكتاب ويتناول المؤمنين أيضاً علىٰ وجه التّأديب قال بعض المفسّرين والأولىٰ أن يكون خطاباً لجميع المكلّفين بفقد الدّلالة علىٰ التخصّيص، والحّق في المقام هو أنّ الآية خطاب، لأهل الكتاب و في رأسهم اليَهود و مَع ذلك يشمل الخطاب جميع المكلّفين.

أمّا أنّها خطاب لليَهود وغيرهم من أهل الكتاب فلأنّ سياق الآية يدّل علىٰ ذلك فأنّ اليَهود كان يمنعهم إتّباع النبيّ حبّ الرّياسة أو زوالها في صورة الإتباع

فقال اللّه تعالىٰ لهم أستعينوا علىٰ الوفاء بعهدي الّذي عاهدتكم في كتابكم عليه من طاعتي و إتّباع أمري و ترك ما نهيتكم عنه و التّسليم لامري و إتّباع رسولي محمّد ﷺ بالصّبر علىٰ ما أنتم عليه من ضيق المعاش الّذي تأخذون الأموال من عوامكم بسببه و امّا أنّها تشمل الجميع فلأنّ خصوصّية المورد لا تنافي العموم لإشتراك الجميع في التّكليف والكفّار أيضاً مكلّفون بالفروع و يدّل علىٰ المدّعي قوله تعالىٰ: **وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** و الضّمير في قوله **إِنَّهَا** أمّا راجعٌ الىٰ الإستعانة المستفاد من قوله، **وَاسْتَعِينُوا**، كقوله تعالىٰ: **اِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى** حيث أنّ الضّمير أعني، هو، يرجع الىٰ العدل المستفاد من إعدلوا، و عليه فالمعنىٰ أنّ الإستعانة اكبيرة إلاّ علىٰ الخاشعين المتواضعين و أمّا أنّه يرجع الىٰ الصّلوة والمعنىٰ أنّ الصّلوة لكبيرة إلاّ علىٰ الخاشعين و علىٰ كلا التّقديرين في الآية تعريض علىٰ اليهود أي أنّكم لا تستعينون بالصّبر و الصّلوة لأنّكم لستُم بخاشعين إذ لو كنتم كذلك آمنتم بمحّمدٍ ﷺ و حيث لم تُؤمنوا به فأنتم باقون علىٰ الإستكبار هذا كلّه إن كان المراد بالصّبر في الآية معناه المضطلح و هو منع النّفس عن محابّها وكفّها عن هواها و أمّا إذا قلنا أنّ المراد به الرّوايات.

قلنا أنّ الآية خطاب لِليهود فيستفاد منها أنّ الكفّار مكلّفون بالفروع و هو أيضاً ممّا لا كلام فيه عند الكّل و أمّا من قال أنّ الآية خطاب لِلمسلمين قال المراد به إستعينوا علىٰ تُنجز ما و عدته لِمَن إتّبع النّبي أو علىٰ مشقّة التّكليف بالصّبر أي بحبس النّفس على الطّاعات و حَبسَها عن المَعاصي و الشّهوات و بالصّلوة لما فيها من تلاوة القرآن و التدّبر لمعانيه والإتّعاظ بمواعظه و قد قيل أنّه ليس في أفعال القلوب أعظم من الصّبر و لا في الجوارح أعظم من الصّلوة فَأمر باالإستعانة بهما، إن قلت كيف يراد من الصّبر الصّوم ثمّ أي ربطٍ بينهما قلت الصّوم يلزم الصَّبر علىٰ الجوع والعطش والضعف و أمثالها فأنّه لا يخلو



منها نوعاً و في الأكثر فذكر الصّبر و إرادة الصَّوم منه من ذكر اللآزم و إرادة الملزوم و هو شائع كثيراً فى اللاستعمال، و قوله تعالىٰ الظَّن في الآية **اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ** بمعنىٰ العلم واليَقين، أي الّذين يعلمون أنّهم ملاقُوا ربّهم بالموت وأنّهم اليه راجعون قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ إِنَّ اَلْمَوْتَ اَلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ**[1].

و ملاقات المَوت ملاقات اللّه، لِقوله تعالىٰ: **ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلىٰ عٰالِمِ اَلْغَيْبِ وَاَلشَّهٰادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[2].

و قوله: **الّذين** ألخ صِفة للخاشعين أي أنّ الخاشعين قد ايقنوا بملاقات اللّه بالمَوت والرّجُوع اليه والمقصود من ملاقات اللّه مُلاقات حسابه و جزائه و عقابه و بالجملة حُكمه العدل و قوله الفصل:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنّى ظَنَنْتُ أَنّى مُلاٰقٍ حِسٰابِيَهْ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ اَلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاٰقُوا اَللّٰهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً**[4]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ وَ اِعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاٰقُوهُ وَ بَشِّرِ اَلْمُؤْمِنِينَ**[5]

و غيرهو من الأيات بقي في المقام شئ و هو أنّ الظّن في الآية بمعنىٰ العِلم واليقين كما مرّ و عليه إتّفاق المفسّرين إن قلت كيف يمكن إرادة العلم من الظّن و هو قسيمه فأنّ المُدّرك علىٰ أقسام ثلاثة، العلم، و الظّن، و الشكّ إن أردنا من العلم اليقين وأن أردنا منه مطلق الإدراك فهو بعينه مقسمٌ للأقسام الثّلاثة فأنّ العلم بمعنىٰ مطلق الادراك أمّا أن يكون متعلّقة الجزم والقطع فهو اليقين أو متساوي الطرفين فهو الشكّ أو راجح احد الطرفين علىٰ الأخر فهو الظّن وإذا كان كذلك فكيف يكون الظّن بمعنىٰ العلم واليقين قلت إستّدلوا علىٰ المدعّىٰ

١- الجمعة= ٨
٢- التوبة= ٩٤
٣- الحاقة= ٢٠
٤- البقرة= ٢٤٩
٥- البقرة= ٢٢٣

بأنّ العلم والظّن يشتركان في ان كلّ واحدٍ منهما إعتقاداً راجحاً إلاّ أنّ العلم راجح مانع من النقّيض والظّن راجحٌ غير مانعٍ من النقّيض فلّما إشتبها من هذا الوجه صّح إطلاق إسم أحدهما علىٰ الأخر قال الشاعر:

فأرسليه مُستيقِنُ الظّن أنّه مُخالط مابين الشّراسيف خائف

و لقائل أن يقول - أن كان الإشتراك من جهةٍ واحدة بين الشّيئين مجوّزاً لحمل أحدهما علىٰ الأخر فصّح أن يطلق السّواد علىٰ البياض مع أنّهما ضدّان لأنّهما يشتركان في جهةٍ واحدة و هي اللّونية إلاّ أنّ أحدهما مفرّق للبصر والأخر قابضٌ للبصر فلّما إشتبها من هذ الوجه صّح إطلاق إسم أحدهما على الأخر كما قالوا به في الآية بل التّفاوت بين المقامين مع أنّهم لا يقولون به بل نقول ما من شيئين إلاّ و بينهما جهة وحدةٍ و إشتراكٍ و لا أقل من الشّيئية فلو كان مصحّح حمل أحدهما علىٰ الأخر هذه الجهة يلزم المّحاذير والعَجب من فخر الرّازي حيث أنّه ذهب الىٰ ما ذَهب اليه المفسّرون في الآية وإستدّل علىٰ المّدّعىٰ أو نقل عنهم ما نقلناه عنه من كون كلّ (يا واحد من العِلم والظّن إعتقاداً راجحاً و هذا القَدر من الإشتراك يكفي في الصِّدق ولم يعلم أنّه لو كان يكفي هذا في المقام يكفي في كلّ مقام ومنه الضّدان في كلّ الموارد و محصّل الكلام في المقام هو أنّه لو أُريد من الظّن في الآية العلم اليقين و أمثالهما كما قالوا به فلابدّ لهم من بيان الوجه وأنّه كيف يمكن إرادة العلم واليقين من الظّن الّذي هو قسيم العلم في التعليم أوكيف يطلق الإعتقاد الّذي ليس بمانعٍ من النّقيض و هو الظّن علىٰ الإعتقاد المانع منه و هو العلم ألَيس المانع وعَدمه متناقضان وهم ا لا يجتمعان وحيث لَم يأتوا بالإستدلال و لا يمكن لهم الإتيان به إلاّ ما ذكروه و هو أوهن من بيت العنكبوت فالإشكال باق علىٰ حاله، والّذي يختلج بالبال في حلّه هو أنّ الظّن في الآية بحاله أي علىٰ معناه المصطلح ومعنىٰ الآية أنّ الخاشعين **يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ** بالثّواب لا انّهم أيقنوا به لأنّ المؤمن الخاشع في أي مقامٍ كان من الإيمان لا يعلم و لا يتّيقن بماذا يختم له العاقبة فأنّ العاقبة مستورة عنه.

قال رسول اللّه ﷺ: لايزال المؤمن خائفاً من سوء العـاقبة ولا يتّيقن الوصول الىٰ رضوان اللّه حتّىٰ يكـون وقت نـزع روحـه و ظهور مَلك الموت له الحديث ولذلك نقول اللّهم إجعل عواقب أمورنا خيراً فاذا كان الأمر علىٰ هذا المنوال و هو كـذلك فكـيف يـقال أنّ الخاشعين تيقّنوا بملاقاة ربّهم من حيث الثّواب فصّح أن يقال أنّهم يظنّون كذلك.

أن قلت ليس في الآية ذكر من الثّواب بل المذكور فيها هو الملاقاة لربّهم و هو مقطوع به محسناً كان الإنسان أو عاصياً بل مسلماً كان أو كافراً فكيف يصحّ الظّن قلت، المراد من الملاقاة هو ملاقاة الثّواب لا ملاقاة اللّه تعالىٰ ذاته اذ هي من المحالات العقلّية وملاقاة الثّواب مترتّبة علىٰ حسن العاقبة و هي مظنّونة لا مقطوعة متيقّنة فعلىٰ هذا ما ورد في تفسير الآية بلفظ العلم واليقين في الأخبار يُحمل علىٰ اليقين المعلّق لا المطلق بمعنىٰ أنّ الخاشعين متيقّنون بلقاء ربّهم من حيث الثّواب لأنّه تعالىٰ وعدهم به و من أصدق من اللّه قيلاً إلاّ أنّهم لا يعلمون العاقبة فتيّقنهم معلّق علىٰ حُسن العاقبة واليقين المعلّق أو المَشروط هو الظّن بعينه و إن شئت قلت يقينٌ ظاهراً وظنٌّ واقعاً فـلذلك قـال تـعالىٰ: **يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ** ولم يقل يعلمون هذا أوّلاً وثانياً نقول لا يُبعد أن يكون المراد بملاقاة الرّب الموت لأنّها مسببٌ عـنه فأُطـلق المسـبب و أراد السّبب مجازاً و عليه فالمعنىٰ أنّ الخاشعين الّذين يظنّون الموت في كلّ أنٍ و لحظة فأنّ الخشوع يلزم ذلك قطعاً و هذا لا ينافي قطعيّة الموت واقعاً فأنّ كلّ إنسان يعلم أنّه يموت قطعاً و أنّه لا محيص له عنه إلاّ أنّه لا يعلم وقت موته فالأصل مقطوع والوقت مظنّون والآيـة نـاظرة الىٰ الثّـاني دون الأوّل لأنّـه لا يختصّ بالخاشعين و هو ظاهر ففي الآية إيماءٌ الىٰ أنّ الخاشعين لا يغفلون عن الموت بل يتَّرَقبونه في كلّ ساعةٍ و لحظةٌ و فيه نفع عظيم لمن سلك سبيل الحقّ وأراد إصلاح نفسه و عمله.

■

يٰابَنىٓ اِسْرٰٓائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتىٓ اَنْعَمْتُ عَـلَيْكُمْ وَاَنّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰالَمينَ ﴿٤٧﴾

◁ اللّغة

الْعٰالَمينَ: أصناف الخلق كلّ صنفٍ منهم عالم، جمع لا واحد له من لفظه و قيل العالم يختصّ بمن يعقل و جمعه بالواو و النّون و سائر اللّغات قد مرّ ذكره.

◁ الإعراب

قد مرّ الكلام في إعراب الآية أيضاً الىٰ قوله: **عَلَيْكُمْ** و أمّا قوله: **وَاَنّـي فَضَّلْتُكُمْ** في موضع نصب تقدّيره وإذكروا تفضيلي إيّاكم فالواو للحال **اَنّـي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰالَمينَ**.

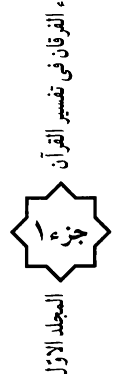
◁ التّفسير

قد مرّ الكلام في بني إسرائيل و أنّهم أولاد يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم و أيضاً تكلّمنا في النّعمة و ماهيّتها وأقسامها والأن نتكلم في قوله **وَاَنّـي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعٰالَمينَ**، فنقول الفضل في الأصل الزّيادة عن الإقتصار و ذلک ضربان محمود و مذموم.

فالأوّل: كفضل العلم والحلم و أمثالهما.

الثّاني: كفضل الغَضب علىٰ مايجب أن يكون عليه و هو أي الفضل في المحمود أكثر إستعمالاً منه في المذمّوم والفُضول بالعكس، ثمّ أنّ الفضل اذا إستعمل لزيادة أحد الشّيئين علىٰ الأخر فعلىٰ ثلاثة أقسام:

فضل من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان علىٰ النّبات، و فضل من حيث النّوع كفضل الإنسان علىٰ غيره من الحيوان و علىٰ هذا قوله تعالىٰ: **وَ لَقَدْ**



كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وفضلٌ من حيث الذّات كفضل رجلٍ علىٰ أخر، والأولان جوهرّيان لا سبيل للنّاقص فيهما أن يزيل نقصه وأن يستفيد الفضل كالفرس و الحمار لا يمكنهما أن يكسبنا الفضيلّة التّي خصّ بها الإنسان.

أمّا الثّالث: فهو عرّضي يوجد السّبيل علىٰ إكتسابه و من هذا النّوع التفضّيل المذكور في قوله تعالىٰ: **وَ ٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ**[1] يعني المال و ما يكتسب به و قوله: **بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**[2]

اذا عرفت الفضل و اقسامه فقد دَريت أنّ الفضيلة في الآية التّي أثبتها اللّه لبني إسرائيل ليست من حيث الجنس و هو معلومٌ و لا من حيث النّوع بل هي من الثّالث و اذا كان كذلك فما معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** مع وأنّه قد ثَبت عند الكلّ أفضلية أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ جميع الأمم الماضية.

فقال ابن عبّاس أراد به عالمي أهل زمانهم لأنّ أمّتنا أفضل الأمم بالإجماع كما أنّ نبيّنا أفضل الأنبياء بدليل قوله تعالىٰ: **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**[3] و قال الأخرون أنّ المراد تفضيلهم علىٰ غيرهم في أشياءٍ مخصوصة و هو إنزال المّن والسّلوىٰ وما أرسل اللّه اليهم من الرّسل و أنزل عليهم الكُتب و تغريق فرعون الىٰ غير ذلك من النِّعم.

و قيل المراد تفضيل أبائهم الّذين كانوا في عصر موسىٰ عليه السلام وبعده قبل أن يغيّروا نعم اللّه تعالىٰ.

و قيل فضل أبائهم بقبولهم و لاية محمّدٍ و آل محمّدٍ في دينهم و قيل غير ذلك من الأقوال والكلّ يرجع الىٰ أمرٍ واحد و هو إثبات الفضيلة لهم كيف كانت و أحسن الأقوال منها قول ابن عبّاس و هو أنّ بني إسرائيل كانوا أفضل

١- النحل = ٧١ ٢- النساء= ٣٤
٣- آل عمران = ١١٠

زمانهم يمكن أن يستدّل عليه بأنّ الشّخص الّذي سيوجد و هو الأن ليس بموجودٍ كيف يكون من جملة العالمين ومن المعلوم أنّ أمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكونوا موجودين في زمان أبائهم في عصر موسىٰ عليه السلام فالأية لا تشملهم لأنّ المعدوم ليس بموجود فثبت أنّ الفضيلة لهم ثابتة علىٰ أهل زمانهم من الموجودين و هو المطلوب.

و في المقام وجه أخر و هو أنّ العالمين، عامٌّ في العالمين ولكنّه مطلق في الفضل و قد ثبت أنّ المطلق يكفي في صدقه صورة واحدة من الفضل و ذلك لأنّ الكلّي يوجد بوجود الفرد و ينتفي بانتفاء كلّ الأفراد و علىٰ هذه القاعدة فنقول كون بني إسرائيل أفضل من غيرهم في فضيلةٍ واحدةٍ أو معدودة لا يستلزم كونهم أفضل من غيرهم من جميع الوجوه كما أنّ العالم الفاسق أفضل من المؤمن الجاهل بعلمه و هو لا يستدّعي أفضلّيته مطلقاً و هكذا في المقام.

فأنّ بني إسرائيل كانوا أفضل من حيث إنزال المنّ والسّلوىٰ مثلاً عليهم و هو لا ينافي مفضوليّتهم من سائر الجهات.

تنبيه:

قال الفخر الرّازي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

البحث الرّابع: قوله تعالىٰ: **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** يدّل علىٰ أنّ رعاية الأصلح لا تجب علىٰ اللّه لا في الدّنيا و لا في الدّين لأنّ قوله: **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** يتناول جميع نِعم الدّنيا والدّين فذلك التفضّيل أمّا أن يكون واجباً أو لا يكون واجباً فأن كان واجباً لم يجز جَعله مِنّة عليهم لأنّ من أدىٰ واجباً فلا مِنّة له علىٰ أحدٍ و أن كان غير واجبٍ مع أنّه تعالىٰ خصصّ البعض بذلك دون البعض فهذا يدّل علىٰ أنّ رعاية الأصلح غير واجبةٍ لا في الدّنيا و لا في الدّين انتهىٰ كلامه.



و لِقائلٍ أن يقول أيّها المفسّر لكلام اللّه برأيك هل تعلم ما تقول و تنسب الى اللّه من القبيح كيف لم يراعي الأصلح فأن كان المراد بالأصلح هو أُمّة محمّدٍ ﷺ واللّه فضّل بني إسرائيل عليهم فبذلك لم يراعي الأصلح فيقال لك من أين أثبت لهم هذه الفضيلة علىٰ أمّة محمّدٍ و الأية لا تدّل عليها أصلاً و أن كان المراد أنّ اللّه فَضّلهم علىٰ غيرهم من أبناء زمانهم وقد كان في النّاس من هو أفضل و أصلح منهم فعليك بالإثبات ثمّ أنّ رعاية الأصلح أمر عقلي يستقّل العقل بحُسنه واللّه تعالىٰ لا يفعل غيره و محصّل الكلام أنّ بني إسرائيل في عهد موسىٰ عليه السلام كانوا أفضل أهل زمانهم و هذا ممّا لا كلام فيه والأية لأثبتت أكثر من هذا.

و أمّا رعاية الأصلح فقد راعاها اللّه تعالىٰ حقّ الرّعاية و إلاّ لَم يفضّل بني إسرائيل علىٰ غيرهم و حيث فَضّلهم علىٰ أهل زمانهم نستكشف منه بدليل الأن أفضليتهم و أصلحيتهم و هو المطلوب.

■

وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً وَّلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَّلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾

◁ اللّغة

لاَّ تَجْزِي: جزىٰ يجزي جزاءً نقل عن الخليل أنّه قال المجازاة المكافاة بالإحسان إحساناً و بالإساءة إساءة و أصل الباب مقابلة الشّئ بالشيء.

و قال في المفردات الجزاء الغناء و الكفاية الىٰ أن قال و الجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة أن خيرا فخيراً و أن شرّاً فشرّاً يقال جَزيته كذا وبكذا انتهىٰ.

نَفْسٌ: بسكون الفاء فأن نسبت الينا فهي الرّوح وأن أضيفت الىٰ اللّه فهي ذاته ومن **الأوّل**: قوله تعالىٰ: **أَخْرِجُوٓا أَنْفُسَكُمُ**.

من الثّاني: قوله :**وَ يُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ**.

شَفَاعَةٌ: شفع شفاعةٌ و هي مأخوذة من الشّفع الّذي خلاف الوتر و الشّفاعة و الوسيلة و القربة و الموصولة نظائر.

و قال الرّاغب الشّفاعة الانضمام الىٰ أخر ناصراً له وسائلاً عنه و أكثر ما يُستَعمل في إنضمام من هو أعلىٰ حرمة و مرتّبة الىٰ من هو أدنىٰ و منه الشّفاعة في القيامة، عدلٌ، قيل هو النّدية و قيل هو الفريضة.

◁ الإعراب

يَوْماً هو مفعول به **لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ** الجملة في موضع نصب صفة اليوم والعائد محذوف وتقديره، **تُجزى** فيه، ثمّ حُذف الجار والمجرور عند سيبويه و**عَنْ نَّفْسٍ** في موضع نصب بقوله: **تُجزىٰ** و**يجوز** أن يكون في موضع نصب بالحال والتقدّير شيئاً عن نفسٍ **شَيْئاً** هنا في حكم المصدر لأنّه وقع

موقع الجزاء **وَّلاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَةٌ وَّلاٰ يُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ** أي فيه وكذلك **وَلاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ** و منها في الموضعين يجوز أن يكون متعلّقاً بيقبل و يؤخذ، و يجوز أن يكون صفة بشفاعة و عدل، فلمّا قدّم انتصب علىٰ الحال، ويقرأ يقبل بالياء لأنّ التّأنيث في الشّفاعة غير حقيقي و بالتّاء لأنّ ظاهرها التّأنيث.

◁ التّفسير

بعد ما قال اللّه تعالىٰ لبني إسرائيل ما قال في الأيات السّابقة وخصوصاً في قوله: **اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِّيَ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**

أوعدهم و هدَّدهم علىٰ كفرانهم النّعمة و قال: **وَاتَّقُوا يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً** والمراد باليوم يوم القيامة والتقدّير إتّقوا عذاب يوم أو نحو ذلك لأنّ الأمر بالتّقوىٰ لا يقع في يوم القيامة هكذا قيل و ليس بشئٍ لأنّه تعالىٰ لم يأمرهم بالتّقوىٰ في يوم القيامة بل أمرهم بها في هذه الدّنيا هذا أوّلاً.

ثانياً: أمرهم بالاتّقاء فقال و إتّقوا و الإتّقاء بمعنىٰ الإحتراز أي إحذروا يوماً كذا وكذا و هذا أيضاً في الدّنيا فأنّها مَزرعة الأخرة وكيف كان فالمسائل ثلاثة نتّكلم فيها إجمالاً فنقول:

المسألة الأولىٰ: في قوله: **وَاتَّقُوا يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً** أي إحذروا يوماً لا تجزي، أي لا تغني **نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً** قيل أي لا تدفع عنها مكروهاً و قيل أي لا يؤدي أحدٌ عن أحدٍ حقّاً وجب عليه للّه أو لغيره و قد تكرّر هذا في القرأن:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اَخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**[٢]

١- لقمان= ٣٣ ٢- الجاثية= ١۴

قال اللّه تعالىٰ: **لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسٰٓـُٔوا بِمٰا عَمِلُوا**[١]

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْيَوْمَ تُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ**[٣]

وغيرها من الأيات

و الحاصل أنّ كلّ نفسٍ بما كسبَت رَهينة و لا تَزر وازرة وِزر أخرىٰ و هذا مقتضى العدل الّذي هو وَضع الشّئ في محلّه فالثّواب والعقاب مَحلّها المحسن والمسئ فلو كان المَسئ مثاباً والمُحسن معاقباً فقد وضعا في غير موردهما و هو ظلمٌ لا ينبغي أن يصدر من اللّه تعالىٰ لتنزّهه عن القبائح العقليّة هذا أن أردنا من اليوم يوم القيامة، و قيل أنّ المراد به يوم الموت أي إتّقوا يوماً، و هو وقت النّزع **لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً** من العَذاب الّذي قد إستحقّته، و لا يُقبل منها شفاعة، بتأخير المَوت عنها، و لا يؤخذ منها عَدل، أي لا يقبل منها فداء مكانها، و لاهم يُنصرون، في رفع المَوت والعَذاب وبه وَردت الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام فقد نقل صاحب تفسير البُرهان عن الإمام أبو محمّد العسكري في تفسير قوله تعالىٰ: **يٰابَنِىٓ إِسْرٰٓائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** الىٰ قوله **لا يُنصرون** حديثاً و ساق الحديث الىٰ أن قال:

قال الصّادق عليه السلام: و هذا يوم المَوت فإنّ الشّفاعة والفداء لا يغني عنه فأمّا في القيامة فإنّا و أهلنا نجزي عن شيعتنا كلّ جزاء لِيكونَنّ علىٰ الأعراف بين الجنّة والنّار محمّد و علّي و فاطمة و الحَسن و الحُسين و الطّيبون من آلِهم فنَرىٰ بعض شيعتنا في تلك العرصات ممّن كان منهم مُقصّراً في بعض شدائدها فنبعثُ اليهم خَير

١- النّجم= ٣١ ٢- غافر= ١٧

٣- الجاثية= ٢٢

شيعتنا كسلمان و المقداد و أبیذرّ و عَمّار و نظائرهم في العَصر الّذي يليهم ثمّ في كلّ عَصرٍ الیٰ يوم القيامة فينغضون عليهم كالبزاة والصّقُور فَيَتناولونهم كما يتناول البُزاة والصّقُور صيدها فيرفعُونهم الیٰ الجنّة الحديث.

المسئلة الثّانية: في تفسير قوله: **وَّلاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا شَفٰاعَةٌ وَّلاٰ يُؤْخَذُ مِنْهٰا عَدْلٌ** قلنا المقصود من العَدل في الآية الفداء و من المعلوم أنّ يوم الموت أو يوم القيامة لا يقبَل من نفسٍ عَدلٌ، بأن يَموت غيرها مكانها أو يُعذّب كذلك و هذا ممّا لا كلام فيه و انّما الكلام في قبول الشّفاعة و عدمه فمنهم من أنكرها مطلقاً و منهم من أثبتها كذلك و منهم من قال بالتفضّيل وحيث أنّها من أهم المباحث الإعتقادية فلا بدّ لنا من البحث فيها وما يتبعها من لوازمها و شُروطها فنقول إعلم أنّ الشّفاعة مأخوذة من الشّفع الّذي هو خلاف الوتر وهي الإنضمام الیٰ آخر ناصراً له وسائلاً عنه و أكثر ما يستعمل في إنضمام مَن هو أعلیٰ حُرمة و مَرتبةٌ الیٰ من هو أدنیٰ.

قاله الرّاغب في المفرّدات و من هذا التّعريف يظهر أنّ الشّفاعة ليست من الأمور المستحدثة في الإسلام والقرآن بل هي من الأمور السّارية الجّارية بين النّاس طول الأعصار علیٰ إختلاف مِللهم وعقائدهم وآرائهم و لا سيّما عند الملوك والسّلاطين والأمراء و أمثالهم من المُسَلطين علیٰ النّاس فأنّ المغضوب كثيراً ما يستشفع بمن له تقرب و مقام عند السّلطان مثلاً إذا وجد الشّفيع و هو أمر شائع جدّاً بحيث لا يكاد يخفیٰ علیٰ أحدٍ إلاّ أنّهم إختلفوا في جواز وقوعها و عدمه في الإسلام يوم القيامة عند ربّ العالمين من حيث أنّ وقوعها يوجب تغيير علمه تعالیٰ عمّا كان أراده أو حكم به و هو محال و قبل الخوض في أصل البحث لا بدّ لنا من تحرير محلّ النّزاع و هو أنّه لا شكّ عند الكلّ في إمكان الشّفاعة وأنّها من الأمور الّتي لا يحكم العقل بإستحالتها

كإجتماع النقيضّين والضدّين مثلاً و لا شكّ أيضاً فى ورود لفظة الشّفاعة في الأيات والأخبار و أنّما الخلاف في جواز وقوعها عند اللّه في حقّ العصاة و عدمه و نحن نشير أوّلاً الىٰ بعض ما وَرد فيها من الأيات ثمّ نردفه بذكر ما هو الحقّ عندنا بعون اللّه تعالىٰ فنقول الأيات الواردة في الباب كثيرة كلّها يـدّل علىٰ جواز وقوعها بإذن اللّه تعالىٰ وأمّا النّفي المُطلق أو الإثبات كذلك فـلا منها.

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰآءَ فَيَشْفَعُوا لَنٰآ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضىٰ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **فَمٰا لَنٰا مِنْ شٰافِعِينَ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **فَمٰا تَنْفَعُهُمْ شَفٰاعَةُ ٱلشّٰافِعِينَ**(٥)

قال اللّه تعالىٰ: **لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**(٦)

قال اللّه تعالىٰ: **لَيْسَ لَهٰا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ**(٧)

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِۦ**(٨)

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا لَكُمْ مِنْ دُونِهِۦ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ**(٩)

قال اللّه تعالىٰ: **مٰا لِلظّٰالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطٰاعُ**(١٠)

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ جٰآءَتْ رُسُلُ رَبِّنٰا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنٰا مِنْ شُفَعٰآءَ فَيَشْفَعُوا لَنٰآ**(١١)

قال اللّه تعالىٰ: **أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُفَعٰآءَ**(١٢)

١- البقرة= ٢٥٥
٢- الأعراف= ٥٣
٣- الأنبياء= ٢٨
٤- الشعراء= ١٠٠
٥- المدّثر= ٤٨
٦- الأنعام= ٥١
٧- الأنعام= ٧٠
٨- يونس= ٣
٩- السّجدة= ٤
١٠- غافر= ١٨
١١- الأعراف= ٥٣
١٢- الزّمر= ٤٣

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا نَرٰى مَعَكُمْ شُفَعٰآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكٰٓؤُا**(١)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَقُولُونَ هٰٓؤُلآءِ شُفَعٰآؤُنٰا عِنْدَ ٱللّٰهِ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يُقْبَلُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُهٰا شَفٰاعَةٌ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقْنٰاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفٰاعَةٌ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **لا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفٰاعَةَ إِلّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِنْدَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْدًا**(٥)

قال اللّه تعالىٰ: **يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ ٱلشَّفٰاعَةُ إِلّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ**(٦)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا تَنْفَعُ ٱلشَّفٰاعَةُ عِنْدَهُٓ إِلّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**(٧)

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لِلّٰهِ ٱلشَّفٰاعَةُ جَميعًا لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ**(٨)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلشَّفٰاعَةَ إِلّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ**(٩)

قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّى شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئًا**(١٠)

قال اللّه تعالىٰ: **لا تُغْنى شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللّٰهُ لِمَنْ يَشٰآءُ**(١١)

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصيبٌ مِنْهٰا وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفٰاعَةًسَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهٰا**(١٢)

فهذه هي الأيات الواردة في الباب وأنتَ بعد التّأمل فيها لا تجد شيئاً يدّل على نفي الشّفاعة بقول مطلق أو إثباتها كذلك فنفي الشّفاعة بقولٍ مطلق

١- الأنعام= ٩٤
٢- يونس= ١٨
٣- البقرة= ١٢٣
٤- سورة البقرة آية ٢٥٤
٥- مريم= ٨٧
٦- طه= ١٠٩
٧- سبأ= ٢٣
٨- الزّمر= ٤٤
٩- الزّخرف= ٨٦
١٠- يٰس= ٢٣
١١- النّجم= ٢٦
١٢- النّساء= ٨٥

بمجرّد الإستخراجات الذّهنية والإستنباطات الوهّمية الّتي ألقاها الشّيطان في قلوب أولياء مِمّا لا يقبله العقل السّليم كما أنّ إثباتها كذلك وأن لم يأذن اللّه بها أمرٌ غير معقول مناف لِحكمته و قدرته و عَدله و أمّا إثباتها في حقّ العصاة بإذن اللّه تعالىٰ فلا محذور فيه و لا يُنافي عَدله و حكمته وقد ذكر صاحب تفسير الميزان في القام ما أوردوه علىٰ الشّفاعة و جواز وقوعها من الإشكالات و أجاب عنها قدّس سرّه بما لا مزيد حذراً من الإطناب إن شئت فراجعه.

و أمّا الأخبار الواردة في البحار فكثيرة جدّاً:

منها ما رواه في البحار بأسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: لكلّ نبّي دعوة دعىٰ بها و قد سأل سؤالاً و قد أخبأتُ دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة.

و بأسناده عن علّي عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: ثلاثة يشفعون الىٰ اللّه عزّ وجلّ فيشفعون الأنبياء ثمّ العلماء ثمّ الشّهداء انتهىٰ.

ماروا‌ه أيضاً بأسناده: قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: من لم يؤمن بحوضي فلا أوَرده اللّه حوضي و من لَم يؤمن شفاعتي فلا أناله اللّه شفاعتي ثمّ قال عليه السلام أنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي فأمّا المحُسنون فما عليهم من سبيل قال الحسين بن خالد قلت للرّضا يابن رسول اللّه فما معنىٰ قول اللّه عزّ وجلّ و لا يشفعون إلاّ لمن ارتضىٰ قال عليه السلام لا يشفعون إلاّ لمن إرتضىٰ اللّه دينه.

ما رواه بأسناده عن علّي عليه السلام: قال عليه السلام قالت فاطمة عليها السلام: لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ياأبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم و يوم الأهوال و يوم الفزع الأكبر قال صلّى الله عليه وآله وسلّم يا فاطمة عند باب الجنّة و مَعي لواء الحمد و أنا الشّفيع لامّتي الىٰ ربّي قالت يا ابتاه فأن لم ألقاك هناك

قال ألقيني و أنا عند الميزان أقول ربّ سَلّم أمّتي قالت فاطمة فأن لم ألقاك هناك قال ألقيني علىٰ شفير جهنم أمنع شررها ولهبها عن أُمّتي فأستبشر فاطمة بذلك انتهىٰ.

و منها مارواه بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سألته عن شفاعة النّبي يوم القيامة قال يلجم النّاس يوم القيامة العرق و يرهقهم الفلق فيقولون إنطلقوا بنا الىٰ آدم يشفع لنا فيأتون آدم فيقولون إشفع لنا عند ربّك فيقول إنّ لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوحٍ فيأتون نوحاً فيرّدهم الىٰ من يليه ويرّدهم كلّ نبّي الىٰ من يلي حتّىٰ ينتهون الىٰ عيسىٰ فيقول عليكم بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم و علىٰ جميع الأنبياء فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول إنطلقوا فينطلق بهم الىٰ باب الجنّة و يستقبل باب الرّحمٰن و يخرّ ساجداً فيمكث ما شاء اللّه فيقول اللّٰه عزّ وجلّ إرفع رأسك وإشفع تَشفع وسل تعط و ذلك قوله تعالىٰ: **عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقٰامًا مَحْمُودًا**[1]

ماروواه بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لو قد قمت المقام المحمود لشفعت في أبي و أُمّي وعَمّي و أخ لي كان في الجاهّلية انتهىٰ.

ماروواه بأسناده عن أبي عبد اللّه الصّادق عليه السلام قال: اذا كان يوم القيامة جمع اللّه الأوّلين والأخرين في صعيدٍ واحد فَتَغشاهم ظلمة شديدة فيضجون الىٰ ربّهم ويقولون ياربّ أكشف لنا هذه الظّلمة فيقبل قوم يمشي النّور بين أيديهم قد أضاء أرض القيامة فيقول أهل الجمع هؤلاء أنبياء اللّه فَيجيئهم النّداء من عند اللّه ما هؤلاء بأنبياء فيقول أهل الجمع فهؤلاء ملائكة فيجيئهم النّداء من عند اللّه

١- الاسراء= ٧٩

ما هؤلاء بملائكة فيقول أهل الجمع شهداء فيجيئهم النّداء من عند اللّه ما هؤلاء بشهداء فيقولون من هُم فيجيئهم النّداء يا أهل الجمع سلوهم من أنتم فيقولون نحن العلوّيون نحن ذرّية محمّد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم نحن أولاد علّي ولّي اللّه نحن المخصوصون بكرامة اللّه نحن الأمنون المُطمئنون فيجيئهم النّداء من عند اللّه عزّ وجلّ أشفعوا في مُحبّيكم و أهل موّدتكم و شيعتكم فَيشفعون فَيشفعون انتهىٰ.

ماروواه بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: من أنكر ثلاثة أشياء فَليس من شيعتنا، المعراج والمسألة في القبر والشّفاعة انتهىٰ.

ماروواه بأسناده عنه عليه السلام عن أباءه، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: اذ قمت المقام المحمود و تشفّعتُ في أصحاب الكبائر من أُمّتي فيشفعني اللّه فيهم واللّه لا تَشّفعت فيمن آذىٰ ذرّيتي انتهىٰ.

ماروواه عن أبي ذر و سلمان قالا، قال رسو ل اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ اللّه أعطاني مسألة فأخّرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من أُمّتي يوم القيامة فَفعل ذلك، الخبر.

ماروواه عن أبي عبد اللّه و أبي جعفر عليهما السلام قالا: واللّه لنشفّعن واللّه لنشفّعن في المذنبين من شيعتنا حتّىٰ تقول أعداؤنا اذا رأوا ذلك فما لنا من شافعين و لا صديق حميم فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين قال من المُهتدين قال لأنّ الإيمان قد لزمهم بالإقرار انتهىٰ.

ماروواه بأسناده قال دخل مولىٰ لأمرأة علّي ابن الحسين عليه السلام علىٰ أبي جعفر يقال له أبو أيمن فقال: يا أبا جعفر تغرّون النّاس و تقولون شفاعة محمّدٍ فغضب أبو جعفر عليه السلام حتّىٰ تربد وجهه ثمّ

قال عليه السلام ويحك ياأبا أيمن أغرّك أن عف بطنك و فرجك أمّا لو قد رأيت أفزاع يوم القيامة لقد إحتَجت الىٰ شفاعة محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ويلك فهل يشفع إلاّ لمن وجبت له النّار ثمّ قال عليه السلام ماأحدٌ من الأوّلين والأخرين إلاّ وهو محتاج الىٰ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام أنّ لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لشفاعة في شعتنا و لشيعتنا شفاعة في أهاليهم ثمّ قال عليه السلام وأنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة و مضر و أنّ المؤمن ليشفع حتّىٰ لخادمه و يقول ياربّ حقّ خدمتي كان يقيني الحرّ والبَرد انتهىٰ.

ماروه عن ابن عبّاس قال، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، أعطيت خمساً لم يعطها أحدٌ قبلي، جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً، و نصرت بالرّعب، وأحلّ لي المغنم، وأعطيت جامع الكلم، وأعطيت الشّفاعة.

ماروه بأسناده عن معاوية ابن وَهَب قال: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه تعالىٰ: لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرّحمٰن و قال صواباً، قال عليه السلام نحن واللّه المأذون لهم في ذلك والقائلون صواباً قلت جعلت فداك و ما تقولون اذا كلّمتم قال نُمّجد ربّنا ونصّلي علىٰ نبّينا و نشفع لشيعتنا فلا يرّدنا ربّنا انتهىٰ.

ماروه بهذا الإسناد قال قلت لأبي عبد اللّه قوله تعالىٰ: **مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعلَم مَا بَينَ أَيديهم** قال عليه السلام نحن أولئك الشّافعون انتهىٰ

و الأحاديث نقلناها عن البحار[1] إن شئت أكثر من هذا فراجع البحار و سائر المطوّلات فأنّ الأخبار الواردة في الباب لاتكاد تضبط لكثرتها والعجب ممن يدّعي الإيمان باللّه وبرسوله و هو يرىٰ الأخبار و الأيات و مع ذلك ينكرها وليت شعري ما الّذي دعاه الىٰ الإنكار وأي إشكالٍ في و قوعها عقلاً أو شرعاً.

١ – ط كمباني ج ٣ باب الشّفاعة ص ٣٠ الىٰ ص ٣٢

قال الرّازي من علماء العامّة عند تفسيره لهذه الآية.

المسألة الثّانية: أجَمَعت الأُمّة علىٰ أنّ لمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم شفاعة في الأخرة و حمل علىٰ ذلك:

قال اللّه تعالى: **أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرينَ** [1].

قال اللّه تعالى: **وَ لَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضىٰ** [2].

ثمّ إختلفوا بعد هذا في شفاعته عليه السلام لمن تكون، أَتكون للمؤمنين المستّحقين لِلثّواب أم تكون لأهل الكبائر المستحقّين للعقاب فذهبت المعتزلة الىٰ أنّها للمستحقّين للثّواب و تأثير الشّفاعة في أي آنٍ تحصل زيادة من المنافع علىٰ قدر ما استحقّوه و قال أصحابنا تأثيرها في إسقاط العذاب عن المستحقّين للعقاب أمّا بأن يشفع لهم في عرصة القيامة حتّىٰ لا يدخلوا النّار و أن دخلوا النّار فَيشفع لهم حتّىٰ يخرجوا منها و يدخلوا الجنّة وإتّفقوا علىٰ أنّها ليست للكفّار وإستّدلت المعتزلة علىٰ إنكار الشّفاعة لأهل الكبائر بوجوهٍ:

أحدها: هذه الآية قالوا أنّها تدّل علىٰ نفي الشّفاعة من ثلاثة أوجه:

الأوّل: قوله تعالىٰ: **لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً** ولو أثرت الشّفاعة في إسقاط العقاب لكان قد أجزت نفسٍ عن نفسٍ شيئاً.

الثّاني: قوله تعالىٰ: **وَّلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ** و هذه فكرة في سياق النّفي فتّعم جميع أنواع الشّفاعة.

الثّالث: قوله: **وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ** ولو كان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم شفيعاً لأحدٍ من العُصاة لكان ناصراً له و ذلك علىٰ خلاف الآية.

الرّابع: قوله تعالىٰ: **وَ لا يَشْفَعُونَ إِلّا لِمَنِ ارْتَضىٰ** أخبر اللّه تعالىٰ عن ملائكته أنّهم لا يشفعون إلاّ أن يرتضيه اللّه عزّ وجلّ والفاسق ليس بمُرتضىٰ منه اللّه واذا لم تشفع الملائكة له فكذا الأنبياء عليهم السّلام لأنّه لا قائل بالفرق.

١-آل عمران = ٩١
٢- الضحى = ٥

الخامس: قوله تعالىٰ: **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ** و لو أثّرت الشّفاعة في إسقاط العقاب لكانت الشّفاعة قد تَنفعهم و ذلک ضدّ الآية.

السادس: قوله تعالىٰ :**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ** ظاهر الآية يقتضي نفي الشّفاعات بأسرها.

و هذه عمدة أدلّتهم علىٰ ما ذكره الّرازي في نفي الشّفاعة عن الكبائر والجواب عن الكلّ أنّ المشفوع له لا يخلو أمّا أن يكون كافراً أو يكون مسلماً أمّا الكّافر فليس له شفيع عندنا و عند الخصم و أمّا المسلِم العاصي فهو أيضاً علىٰ قسمين صاحِب الصغيرة و صاحب الكبيرة:

أمّا الأوّل: فالشفاعة تشمله عندنا و عند الخصم.

أمّا الثّانى: أعني به صاحب الكبيرة فتارةً يكون ذنبه من قبيل قتل الوصّي أو خيار المؤمنين والصّالحين من عباد اللّه عن عَمَدٍ أو نَهب أموالهم و أمثال ذلك و أخرىٰ يكون دون ذلك كالزّنىٰ والغيبة و شرب الخمر و أمثالهما.

أمّا الأوّل: فلا شفاعة له قطعاً.

أمّا الثّانى: فأن كان من حقوق اللّه تعالىٰ فهو مورد للشفاعة و أن كان من حقوق النّاس فالشفاعة له مشروط برضىٰ النّاس عنه لا مطلقاً و في كلّ الموارد يشترط إذن اللّه في الشفاعة و هو ظاهرٌ و نحن بعد الأيات والرّوايات الّتي مرّ شطراً منها لا نشكّ في وقوعها و أنّها من المسلمات لمن آمنَ باللّه و اليوم الأخر و نرجوها لانفسنا أن شاء اللّه تعالىٰ.

المسألة الثّالثة: في تفسير قوله تعالىٰ **وَلاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ** أي لا يعانون، والنّصر العّام والمقصود أنّهم لا ينجون من العذاب و قيل ليس لهم ناصرٌ ينتصر لهم من اللّه إذا عاقبهم ومن المعلوم أنّ من لا ينصره اللّه فلاناصر له فأُولئك لهم عذابٌ أليم وما لهم من ناصرين و قال: **فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا نَاصِرٍ**[1] والمعنىٰ واضح.

■

١-الطارق = ١٠

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

◁ اللّغة

نَجَّيْنَاكُمْ: أصل النّجاة الإنفصال من الشيئ و منه نجا فلان من فلان و أنجَيته ونَجيته.

فِرْعَوْنَ: فرعون إسم أعجمي و هو لا ينصرف و الواو و النون فيه زائدة وجمعه فراعن يقال تفرعن فلان إذا تعاطىٰ فعل فرعون كما يقال أبلَس و تَبلس و منه قيل لِلطغاة الفراعنة والأبالسة و عن إبن الجوزّي أنّ الفراعنة ثلاثة، فرعون الخليل و إسمه سِنان، و فرعون يُوسف و إسمه الرّيان بن الوليد، و فرعون موسىٰ و إسمه الوليد بن مَصعب و قال بعض أنّ كلّ عاتٍ فرعون و العُتاة الفراعنة.

يَسُومُونَكُمْ: السوم أصله الّذهاب في إبتغاء الشيئ فهو لفظ لِمعنىٰ مُركب من الذّهاب والإبتغاء.

الْعَذَابِ: قد مرّ الكلام فيه سابقاً في أوائل السورة.

يُذَبِّحُونَ: أصل الذّبح شقّ حلق الحيوانات.

أَبْنَاءَكُمْ: أبناء جمع إبن.

يَسْتَحْيُونَ: أي يستبقون والحياء إنقباض النّفس عن القبائح و تركه.

نِسَاءَكُمْ:النّساء النّسوان والنّسوة جمع المرأة من غير لفظها كالقوم في جمع المرء.

بَلَاءٌ: البَلاء بفتح الباء مَن بلىٰ الثّوب بلاً وبلاءً أي خلق و بلوته إختبرته كأنّي أخلقته من كثرة إختباري له والبلاء المحنة كما في هذه الآية والمنحة كما

في قوله تعالىٰ: **وَ اٰتَيْنٰاهُمْ مِنَ الْاٰيٰاتِ مٰا فيهِ بَلآؤُا مُبينٌ**[١].

مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ: قد مضىٰ الكلام في **الرّب** غير مرّةٍ **عـظيم** مُبالغة فـي العظمة و عظم الشيئ أصله كبُر عظمه ثمّ أُستُعير لكلّ كبيرٍ فأجرىٰ مجراه.

◁ الإعراب

إِذْ في موضع نصب معطوفاً علىٰ **إذ كروا نعمتي**. **نَجَّيْنٰا كُمْ** فعل و فاعل و مفعول به **مِّنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ** أصلِ آل أهل وتصغيره **أُهيل** لأنّ التّصغير يرّد الىٰ الأصل و قال بعضهم أصله **أُويل فأُبـدِلَ** الألف واواً و لم يَـرّده الىٰ الأصـل **يَسُومُونَكُمْ** في موضع نصب علىٰ الحال من آل **سُوٓءَ الْعَذٰابِ** مفعول به لأنّ **يسومونكم** متعدّاً الىٰ مفعولين **بَلاٰءٌ** الهمزة بدل من واو و موضعه الرّفع علىٰ الإبتداء وفي **ذٰلِكُمْ** خبر مقّدم علىٰ المبتدأ **مِّنْ رَّبِّكُمْ** في موضع رفع صـفة لبلاء.

◁ التّفسير

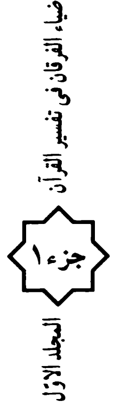
أي **واذْكُرُوا نِعْمَّتِىَ** يابني إسرائيل **إِذْ نَجَّيْنٰاكُمْ** و خلّصناكم **مِّنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ** الّذين **يَسُومُونَكُمْ**، أي كانوا يذيقونكم، **سُوٓءَ الْعَذٰابِ** و شدّته **يُـذَبِّحُونَ اَبْنٰاءَكُمْ** أي يقتلون أولادكم **وَيَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ** أي يستَبقونهن و يَدعونّهن أحياء ليستعبدن و ينكحن علىٰ وجه الإسترقاق و هذا أشدّ من الذّبح، **وَفِي ذٰلِكُمْ** أي و في سومكم العذاب و ذَبحكم الأبناء **بَلآءٌ مِّنْ رَّبِّكُمْعَظِيمٌ** أي إبتلاء عظيم من ربّكم لمّا خلّىٰ بينه و بينكم حتّىٰ فعل بكم هذه الأفاعيل، و قيل في نجاتكم من فرعون و قومه نعمة أي عظيمة من اللّه عليكم ففي هذه الآية أمور ينبغي التوجّه اليها و هي نجاتهم من آل فرعون و خلاصهم من عذابه و لم يقدر أحد علىٰ نجاة بني إسرائيل إلاّ اللّه و هذه نعمة عظيمة.

١- الدخان = ٣٣

ثانيها: أنّ فرعون أمر بذبح أبناءهم وإستحياء نساءهم والله تعالىٰ نجّاهم من العذاب.

ثالثها: أنّ ذلك كان إبتلاء لهم من ربّهم ليختبروا به و يشكروا له لئن شكرتم لأزيدنكم فأنّ عذابي لشديد و لئن كفرتم عذابى شديد.

أمّا كيفيّة القضية نقل في البحار عن الثعلبي أنه قال في كتاب عرايس المجالس لما مات الرّيان ابن الوليد فرعون مصر الأوّل صاحب يوسف و هو الّذي ولّىٰ يوسف عليه‌السلام خزائن أرضه و أسلم علىٰ يديه فلمّا مات ملك بعده قابوس ابن مصعب صاحب يوسف الثّاني فدعاه يوسف الىٰ الإسلام فأبىٰ و كان جبّاراً و قبض اللّه تعالىٰ يوسف في ملكه ثمّ هلك وقام بالملك بعده أخوه أبو العبّاس الوليد بن مصعب بن الرّيان بن أراشة بن ثروان بن عمرو بن فاران بن عملاق بن لاوز بن سام بن نوح وكان أعتىٰ من قابوس وأكبر وأفَجر و امّتدت أيّام ملكه و أقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه‌السلام و قد نشروا وأكثروا و هم تحت أيدي العمالقة و هم علىٰ بقايا من دينهم ممّا كان يوسف و يعقوب و اسحاق و إبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام يتمسكن به حتّىٰ كان فرعون الّذي بَعث اللّه اليه موسىٰ وقد ذكرنا إسمه ونَسبه ولم يكن منهم فرعون أعَتىٰ علىٰ اللّه و لا أعَظم قولاً و لا أقسىٰ قلباً و لا أطول عمراً في ملكه و لا اسوء ملكة لبني إسرائيل منه و كان يعذّبهم و يستعبدهم فجعلهم خدماً وخولاً وصنّفهم في أعماله، فصنف يبنون، و صنف يحرسون، و صنفٌ يتّولون الأعمال القذرة و من لم يكن من أهل العمل فَعليه الجزية كما قال اللّه تعالىٰ: **يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ** و قد إستنكح فرعون إمرأة يقال لها آسية بنت مُزاحم من خيار النّساء المعدودات و يقال بل هي آسية بنت مُزاحم بن الرّيان بن الوليد فرعون يوسف الأوّل فأسلمت علىٰ يدي موسىٰ قال مقاتل و لم يسلم من أهل مصر إلاّ ثلاثة، آسية بنت مُزاحم و حزقيل و مريم بنت ناموساء



الّتي دلّت موسىٰ علىٰ قبر يوسف فعمر فرعون و هم تحت يَدَيه عُمراً طويلاً يقال أربعمائة سنة **يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ** فلّما أراد اللّه أن يُفَرج عنهم بَعَث موسىٰ وكان بَدء ذلك علىٰ ما ذكره السّيدي عن رجاله أنّ فرعون رآىٰ في منامه إنّ ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتّىٰ إشتملت علىٰ بيوت مصر فأخربتها و أحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فَدعىٰ فرعون السّحرة والكَهنة و المعبّرين والمنجّمين و سألهم عن رؤياه.

فقالوا أنّه يُولد في بني إسرائيل غلام يسلبك ملكك و يغلبك علىٰ سلطانك و يخرجك و قومك من أرضك ويبدّل دينك و قد قرب زمانه الّذي يُولد فيه قال فأمر فرعون يقتل كلّ غلامٍ يُولد في بني إسرائيل وجَمَع القوابل من نساء أهل مملكته فقال لهنّ لا يسقطنّ علىٰ أيديكنّ غلام من بني إسرائيل إلاّ قتلتنّهُ و لا جارية إلاّ تركتنها و وكلّ بهنّ فكنّ يفعلن ذلك قال مجاهد لقد ذكر لي أنّه كان يأمر بالقصب فيشقّ حتّىٰ يجعل أمثال الأشفار ثمّ يضّفُ لبعضها الىٰ بعض ثمّ يؤتي بالحبالىٰ من بني إسرائيل فيوقعن فتحزّ أقدامهن حتّىٰ أنّ المرأة منهنّ لتضع ولدها فيقع بين رجليها فتظلّ تطأه تتّقي به حدّ القصب عن رجلها لمّا بلغ من جهدها فكان يقتل الغلمان الّذين كانوا في وقته و يقتل من يُولد منهم و يُعذّب الحبالىٰ حتّىٰ يضعن ما في بطونهنّ وأسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل فَدخل رؤوس القبط علىٰ فرعون فقالوا له أنّ الموت قد وقع في بني إسرائيل و أنت تَذبح صِغارهم ويموت كبارهم فيوشكُ أن يقع العَمل علينا فأمَر فرعون أن يَذبحوا سنة و يتركوا سنة فَوُلد هارون في السّنة الّتي لا يذبحون فيها فترك و ولِد موسىٰ في السّنة الّتي يذبحون فيها قالوا فَولدت هارون أمّه علانية آمِنة فلّما كان العام المقبل حملت بِموسىٰ فلّما أرادت وَضعه حَزنت من شأنه و أشتّد غمّها فَأوحىٰ اللّه تعالىٰ اليها وَحي الهام: **أَنْ**

أَرْضِعيهِ فَإذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَ لا تَخافي وَ لا تَحْزَني إِنّا رادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ[١].

فلّما وَضعته في خفيةٍ أرضعته ثمّ إتّخذت له تابوتاً و جعلت مفتاح التّابوت من داخل و جعلته فيه وكان الّذي صَنع التّابوت حزبيل مؤمن آل فرعون و قيل أنّه كان من بودي فأتّخذت أمّ موسىٰ التّابوت وجعلت فيه قطناً محلوجاً و وضَعت فيه موسىٰ و قيّرت رأسه و خصامه ثمّ أَلقته في النّيل فلّما فعلت ذلك و توارت (توازي) عنها إبنها اتاها الشّيطان و وسوس اليها فقالت في نفسها ماذا صَنعتُ بأبني لو ذبح عندي فواريته وكفّنته كان أحّب إلّي من أن ألقيه بيدي الىٰ دواب البحر فعصمها اللّه تعالىٰ و أنطَلق الماء بِموسىٰ يرفعه الموج مرّةً و يخفضه أخرىٰ حتّىٰ أدخله بين أشجار عند دار فِرعون الىٰ غرفته و هي مستقاء جواري فرعون وكان يشرب منها نهر كبير في دار فرعون و بستانه فخرجت جواري آسية يغتسلن و يسقين فَوجدت التّابوت فأخَذنّه و ظنّن أنّ فيه مالاً فَحملنه كهيئة حتّىٰ أدخلنه علىٰ آسية فلّما فتحنه ورأت الغُلام فألقىٰ اللّه تعالىٰ عليه محّبة منها فرحمته آسية و أحبته حُبّاً شديداً فلّما سمع الذّباحون أمره أقبلوا علىٰ آسية بشفارهم لِيَذبحوا الصّبي فقالت آسية لِلذّباحين إنصرفوا فإنّ هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل فأتىٰ فرعون فأستوهبه إيّاه فأن وهبه لي كنتم أحسَنتم وأن أَمر بذبحه لم المكم فأتَت به و قالت قرّة عينٍ لي عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذّه وَلداً فقال فرعون قُرّة عينٍ لك فأمّا أنا فلا حاجة لي فيه فقال رسول اللّه ﷺ والذّي يحلف به لو أقرّ فرعون أن يكون قرّة عينٍ كما أقرّت به لهداه اللّه كما هدىٰ به إمرأته و لكنّ اللّه تعالىٰ حرمه ذلك قالوا فأراد فرعون أن يذبحه و قال أنّي أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل و أن يكون هذا هو الّذي علىٰ يَديه هلاكنا و زوال ملكنا فلم تزّل آسية

١- القصص = ٧

تكلّمه حتّىٰ وهبه لها فلمّا آمنت آسية أرادت أن تسميّه بإسم إقتضاه حاله و هو موشىٰ لأنّه وجدَ بين الماء والشّجرة، و مُو، بلفظ القبط الماء و، الشّاء، الشّجرة فعرب فقيل مُوسىٰ و روي عن إبن عباس أنّه قال أنّ بنيِ إسرائيل لمّا كثروا بمصر إستطالوا علىٰ النّاس و عملوا بالمعاصي و وافق خيارهم شرارهم و لم يأمروا بالمعروف و لم ينهوا عن المُنكر فَسَلّط اللّه عليهم القبط فإستضعفوهم و ساموهم سُوء العذاب و ذبحوا أبناءهم و قال وهب بلَغني أنّه ذبح في طلب موسىٰ سبعين ألف وليد انتهىٰ.

و لا نحتاج في تفسير الآية أزيد من هذا إلاّ الإعتبار فأعتبروا يا أُولّي الأبصار ثمّ أنظروا الىٰ قدرة اللّه و إمهاله الظّالمين والإنتقام منهم بعد حين: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشٰىٰ**[1].

تبيهٌ

قال القرطّبي في تفسيره عند هذه الآية ما لفظه قوله تعالىٰ: **مِّنْ اٰلِ فِرْعَوْنَ** آل فرعون قومه و أتباعه و أهل دينه وكذلك آل الرّسول ﷺ من هو علىٰ دينه و ملّته في عصره و سائر الأعصار سواء كان نسيباً له أو لم يكن و من لم يكن علىٰ دينه و ملّته فليس من آله و لا أهله و أن كان نسيبه و قريبه خلافاً للّرافضة حيث قالت أنّ آل رسول اللّه ﷺ فاطمة عليها السلام و الحَسَن عليه السلام و الحُسين عليه السلام فقط دليلنا، و أغرقنا آل فرعون، إدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب، أي آل دينه إذ لم يكن له إبنٌ و لا بنت و لا أب و لا عمّ و لا أخٌ و لا عَقبة و لأنّه لا خلاف أنّ من ليس بمؤمنٍ و لا مُوحّدٍ فأنّه ليس من آل محمّدٍ و أن كان قريباً له و لاجل هذا يقال أنّ أبالَهب و أباجهل ليسا من آله و لا من أهله وأن كان بينهما و بين النّبي قرابة و لاجل هذا قال اللّه تعالىٰ في إبن نُوح: **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**[2] ثمّ نقل حديثاً عن عمرو ابن العاص الّذي كلامه حجة عند القرطّبى.

١- النّازعات= ٢٦ ٢- هود = ٤٦

و أمثاله عن صحيح مسلم أنّه قال سمعتُ رسول اللّه ﷺ جهاراً غير مرٍّ يقول الآ أنّ آل أبي - يعني فلاناً - ليسوا لي بأولياء أنّما ولّي اللّه و صالح المؤمنين وقالت طائفة آل محمّد أزواجه وذرّيته خاصّته لحديث أبي حميد السّاعدي أنّهم قالوا يا رسول اللّه كيف نصّلي عليك قال قولوا اللّهم صلّ علىٰ محمّدٍ و علىٰ أزواجه وذريّته الحديث و رواه مسلم، وقالت طائفة من أهل العلم الاهل معلوم والآل الإتباع والأوّل أصحّ لما ذكرناه و لحديث عبد اللّه إبن أوفىٰ أنّ رسول اللّه ﷺ كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال اللّهم صلّ عليهم فأتاه أبيّ بصدقته فقال اللّهم صلّ علىٰ آل أبي أوفىٰ إنتهىٰ ما ذكره لا غفر اللّه له والغرض من نقل كلامه في المقام هو أن يعرف أعداء الدّين في لباس المُفسّرين لكتاب اللّه الّذينهم يفسّرون القرآن بآرائهم و لا يخافون اللّه و لا رسوله الّذي قال من فسّر القرآن برأيه فليتّبوء مقعده من النّار ثمّ إنظروا أيّها المنصفون في هذه الأراجيف والأباطيل الّتي لفقّها في كتابه وكم لها من نظير فيه، وسمّاه تفسير القرآن.

بعبارة أخرىٰ الجامع لأحكام القرآن، و لَم يعلم أنّ معنىٰ الآل أو الأهل لو كان كما ذكره يعني يصدق علىٰ كلّ من كان علىٰ دينه و ملّته، فإن كان مراده كلّ من كان علىٰ دينه واقعاً فَليس القُرطبي و معاوية و يزيد و أمثالهم من آله و أن كان المراد كلّ من كان علىٰ دينه ظاهراً فَيلزم أن يكون بنى أُمّية و بنى المروان وجميع المنافقين والظّالمين من آل الرّسول و المُسلم لا يقول به هذا.

أوّلاً وثانياً أنّ رسول اللّه ﷺ قد عرف آله في كثير من الرّوايات الصحّيحة و لا يحتاج الموضوع الىٰ هذه التكلّفات وجعله آل الرّسول كآل فرعون فهو أن كان مخالفاً للرّوايات من العّامة والخّاصة غير رواية عمر بن

العاص الخبيث الّذي نقله لِقوله تعالىٰ: **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلٰى شٰاكِلَتِهِ**[1] الاّ انّه ينبغى ان يُصّدق الإمام الشّافعي الّذي هو أحد الأئمة الأربعة بزعمهم وكان أكثر علماً و فضلاً من الثّلاثة و هو الّذي يقول علىٰ رؤس الأشهاد إن سمعه القرطبي:

إذا فـي مـجلسٍ ذكـروا عـلّيً و شـبليه و فـاطمة الزّكـية

يُـقال تـجاوزوا يـا قـوم هـذا فـهذا مـن حـديث الرّافـضية

بَـرئتتُ الىٰ المـهيمن مـن إنـاسٍ يـرون الرّفـض حُبّ الفَـاطمية

عـلىٰ آل الرّسـول صـلاة ربّـي ولعـنة لتـلك الجّـاهلّية

فعلىٰ قول القُرطبي قد صلّىٰ الشّافعي علىٰ كل من كان أو يكون علىٰ ملّته و دينه وإن كان أمثال عبد المَلك و معاوية و يزيد و حجّاج و شِمر و إبن مُلجم و قبلهم و بعدهم، و لا يبعد منه أن يقول به لأنّه فيهم.

و ثالثاً، يلزم من قوله أنّ أهل كل مملكةٍ من ممالِك الدّنيا كانوا من آل السّلطان لأنّهم أتباعه قهراً أو إختياراً لا يقول به عاقل فطويتُ عنه كشحاً.

■

١- الاسراء = ٨٤

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾

◁ اللّغة

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ: **الفرق** والفلق واحد، والفرق بينهما بالإعتبار فالفلق يقال إعتباراً بالإنشقاق، و الفرق بالإنفصال **الْبَحْرَ** أصل **البَحر** كلّ مكانٍ واسعٍ جامع للماء الكثير هذا هو الأصل فيه.

فَأَنْجَيْنَاكُمْ: قد مرّ معنىٰ النّجاة.

أَغْرَقْنَا: الغرق الرّسوُب في الماء و في البَلاء والباقي واضح.

◁ الإعراب

بِكُمُ الْبَحْرَ، بكُم في موضع نَصب علىٰ أنّه مفعول ثانٍ و**البَحر** مفعول أوّل، و الباء هنا في معنىٰ اللاّم **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** في موضع الحال والعامل في أغرقنا، و آل فرعون مفعول له.

◁ التّفسير

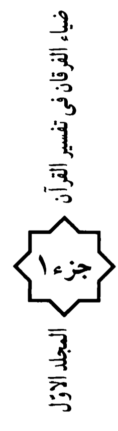
ثمّ ذكر اللّه تعالىٰ نعمةً أخرىٰ فقال: **وَإِذْ فَرَقْنَا** أي إذكروا إذ فرقنا، أي شققنا، بكم أي لكم أو بسببكم البحر حتّىٰ مررتم في **فَأَنْجَيْنَاكُمْ** من الغرق فى **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ** في البحر والحال أنّكم أو **أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**، اليهم ولم يذكر غرق فرعون لأنّه قد ذكره في مواضع كقوله: **أَغْرَقْنَا** و من معه فأختصر في الآية لِدلالة الكلام عليه لأنّ الغرض إهلاك فرعون و قومه.

و أمّا كيفيّة القضية نُقل فسي البحار عن تفسير علّي إبن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه‌السلام **قال: لمّا بعث اللّه موسىٰ الىٰ فرعون**

فأتىٰ بابه فأستاذن عليه و لم يأذن له فضرب بعصاه الباب فأصطَّكت الأبواب مفتّحة ثمّ دَخل علىٰ فرعون فأخبره أنّه رسول ربّ العالمين و سأله أن يرسل مَعه بني إسرائيل فقال له فرعون كما حكىٰ اللّه: **قٰالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينٰا وَلِيدًا وَ لَبِثْتَ فِينٰا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ اَلَّتِي فَعَلْتَ** [1] أي قَتلت الرّجل وأنت من الكافرين يعني كَفرت بنعمتي فقال موسىٰ كما حكىٰ اللّه :**فَعَلْتُهٰآ إِذًا وَ أَنَا مِنَ اَلضّآلِّينَ،فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ** الى قوله **أَنْ عَبَّدْتَ بَنِيٓ إِسْرٰآئِيلَ، قٰالَ فِرْعَوْنُ وَ مٰا رَبُّ اَلْعٰالَمِينَ،قٰالَ رَبُّ اَلسَّمٰواٰتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰآ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ** [2] و ساق الحديث بطوله الىٰ أن قال عليه السلام فأوحىٰ اللّه الىٰ موسىٰ أن أسَرِ بعبادي أنّكم متّبعون فخرج موسىٰ ببني إسرائيل ليقطع بهم البحر وجمع فرعون أصحابه و بَعث في المدائن حاشرين و حَشر النّاس و قدّم مقدّمته في ست مائة ألف و ركب هو في ألف ألف و خرج كما حكىٰ اللّه عزّ وجلّ فأخرجناهم من جناتٍ و عيون و كنوزٍ و مقامٍ كريم و أورثناها بني إسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلمّا قرب موسىٰ البحر وقرب فرعون من موسىٰ و قال أصحاب موسىٰ أنّا لمدركون فقال موسىٰ كلاّ أنّ معي ربّي سهدين أي سينجين فدنا موسىٰ من البحر فقال له إنفرق فقال له البحر استكبرت يا موسىٰ أن تقول لي انفرق، أنفرق لك و لم أعصي اللّه طرفة عينٍ فقد كان فيكم المعاصي فقال له موسىٰ فأحذر أن تعصي و قد علمت أنّ آدم أخرج من الجنّة بمعصيته فيها و أنّما لعن إبليس بمعصيته فيها فقال البحر عظيم ربّي مُطاعُ أمره و لا ينبغي لشئ أن يعصيه فقام يوشع ابن نون و قال لموسىٰ يا رسول اللّه ما أمرك ربّك فقال

١- الشعراء= ١٨/١٩ ٢- الشعراء= ٢٠ الى ٢٤

بعبور البحر فأقحم يوشع فرسه الماء و أوحىٰ اللّه الىٰ موسىٰ أن أضرب بعصاك البحر فضربه فإنفلق فكان كلّ فرقٍ كالطّود العظيم أي كالجبل العظيم فضرب له في البحر إثنىٰ عشر طريقاً فأخذ كلّ سبطٍ منهم في طريقٍ فكان الماء لمّا إرتفع علىٰ رؤسهم مثل الجبال وقع شعاع الشّمس في أرض البحر فيبست كما حكىٰ اللّه عزّ وجلّ فأضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً و لا تخشىٰ و دخل موسىٰ و أصحابه البحر و كان أصحابه إثني عشر سبطاً فَضرب اللّه لهم في البحر إثني عشر طريقاً فأخذ كلّ سبطٍ منهم في طريق و كان الماء قد إرتفع علىٰ رؤسهم مثل الجبال فجزعت الفرقة التّي كانت مع موسىٰ في طريقه فقالوا ياموسىٰ أين أخواننا فقال لهم معكم في البحر فَلم يصّدقوه فأمر اللّه البحر فصارت طاقات حتّىٰ كان ينظر بعضهم الىٰ بعضٍ ويتحدّثون و أقبل فرعون وجنوده فلمّا انتهىٰ الىٰ البحر قال لأصحابه ألا تعلمون أنّي ربّكم الأعلىٰ قد فرج لي البحر فلم يجسر أحد أن يدخل البحر وإمتنعت الخيل منه لهول الماء فتّقدم فرعون حتّىٰ جاء الىٰ ساحل البَحر فقال له منجّمه لا تدخل البحر وعارضه فلم يقبل منه وأقبل علىٰ فرسٍ حصان فإمتنع الفَرس الحصان أن يدخل الماء فعطف عليه جبرئيل و هو علىٰ ماديانة فتقدّمه و دخل فنظر الفَرس الىٰ الرّمكة فطلبها ودخل البحر واقتحم أصحابه خلفه فلّما دخلوا كلّهم حتّىٰ كان أخر من دخل من أصحابه وأخر من خرج من أصحاب موسىٰ أمر اللّه الرّياح فضربت البحر بعضه ببعضٍ فأقبل الماء يقع عليهم مثل الجبال فقال فرعون عند ذلك آمنتُ أنّه لا إلٰه إلاّ اللّه الّذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين فأخذ جبرئيل كفّاً من حماة فدَّسها في



فيه ثمّ قال الأن و قد عصيت قبل وكنت من المفسدين[١].

تنبيه أخر:

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه، فصل، ذكر اللّه تعالىٰ الأنجاء و الإغراق و لم يذكر اليوم الّذي كان ذلك فيه فروي مُسلم عن ابن عبّاس أنّ رسول اللّه قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء فقال لهم رسول اللّه ﷺ ما هذا اليوم الّذي تصومونه فقالوا هذا يوم عظيم أنجىٰ اللّه فيه موسىٰ و قومه و غرّق فرعون و قومه فصامه موسىٰ شكراً فنحن نصُومه فقال رسول اللّه فنحن أحقّ و أولىٰ بموسىٰ منكم فَصامه رسول اللّه ﷺ و أمر بصيامه و أخَرجه البخاري أيضاً عن ابن عبّاس و أنّ النّبي قال لأصحابه أنتم أحقّ بموسىٰ منهم فصوموا انتهىٰ.

ثمّ ذكر مسألة و قال بعدها.

مسألة، اختلف في يوم عاشوراء هل هو التّاسع من المحرّم أو العاشر فَذهب الشّافعي الىٰ أنّه التّاسع لحديث الحَكم بن الأعرج قال إنتهيت الىٰ ابن عبّاس و هو متوّسد ردائه في زمزم فقلت له أخبرني عن صوم عاشوراء فقال اذا رأيت هلال المحرّم فأعدّد و أصبح يوم التّاسع صائماً قلتّ هكذا كان محمّد ﷺ يصومه قال نعم، خرّجه مسلم و ساق الكلام بذكر هذه الأكاذيب الىٰ أن قال.فضيلة.

روىٰ أبو قتادة أنّ النّبي ﷺ قال صيام يوم عاشوراء أحتسب علىٰ اللّه أن سكفّر السّنة التّي قبله أخرجه مسلم والتّرمذي انتهىٰ.

أقول فيما ذكره القرطبي و دقائق ينبغي لكلّ مسلمٍ أن يعرفها.

١- بحار الأنوار ج ٥ ط كمباني ص ٢٥٠

أوّلها: أنّ نبيّهم أخذ صوم يوم عاشوراء من اليهود و هو كان جاهلاً بفضل الصّوم في هذا اليوم قبل مجيئه الىٰ المدينة فلمّا وَرد بها صام وأمَر أصحابه به و هذه الأحاديث دعت أعداء الدّين الىٰ قولهم أنّ الإسلام أخذ من دين اليهود و أنّ محمّداً قد تعلّم عند أحبار اليهود فأخذ دينه منهم.

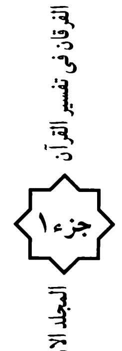
ثانيها: أنّ رسول الاسلام إقتدىٰ بموسىٰ في حكمٍ كان في شريعته علىٰ قول القرطبي و من إقتدىٰ في دينه بغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة فيلزم أن يكون موسىٰ أفضل من رسول اللّه و هو كما ترىٰ.

وقد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لو أدركني أخي موسىٰ ما وسعه إلاّ إتّباعي.

ثالثها: **قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه، أنتم أحقّ بموسىٰ منهم فَصوموا، و لقائل أن يقول لو كانوا أحقّ بموسىٰ من اليهود فموسىٰ أحقّ بالرّسالة من الرّسول لأنّ معنى الا حقّية أنّ موسىٰ أحقّ بالإتّباع منه صلى الله عليه وآله وسلم.**

رابعها: إختلاف النّاس في يوم عاشوراء و هو ممّا تضحك به الثّكلىٰ، و ذلک لأنّ العاشوراء مشتقّ من العشرة كما أنّ التّاسُوعاء من التّسعة و كيف يعقل أن يكون هذا خَفى عليهم ومن لا يعلم الفَرق بين التّسع والعشرة كالشّافعي أن صحّ النّقل، فكيف يدّعي إمامة الأمّة وكيف يؤخذ بقوله و حكمه.

خامسها: يظهر من الأخبار الصّحيحة أنّ موسىٰ و قومه كانوا جاهلين بالعاشوراء حتّىٰ أخبر اللّه تعالىٰ موسىٰ به كما في حديث مناجاة موسىٰ و قد قال ياربّ لم فضّلت أمّة محمّدٍ علىٰ سائر الأمم فقال اللّه تعالىٰ فضّلتهم لعشر خصالٍ قال موسىٰ و ما تلك الخصال التّي يعملونها حتّىٰ آمر بني إسرائيل يعملونها قال اللّه تعالىٰ الصّلاة، و الزّكاة، و الصّوم، و الحجّ، و الجهاد،



والجمعة، والجماعة، والقرأن والعلم والعاشوراء قال البكاء و التّباكي علىٰ سبط محمّدٍ الحديث.

فاذا كان موسىٰ كذلك فكيف كان هو وأصحابه يصومُون في العاشوراء، والّذي دعىٰ القرطبي الىٰ القول به وأنّ الصّوم فيه مرغوب فيه هو أنّ العاشوراء يوم قتل فيه سبط الرّسول علىٰ أيدي الكفرة الفجرة لعنهم اللّه و هو يوم تَبَّركت به بنو أمية وبنو المروان و آل زياد و أمثالهم من الطّغاة بقَتلهم فيه أولاد الرّسول ولأجل ذلك صاموا و حكموا أتباعهم بالصّيام فيه تيمّناً و تبرّكاً و حيث أنّ القرطبي مرواني النّسب فقال ما قال و لنعم ما قيل:

بأبه إقتدي عدّيُ في الكَرم ومن يشابه أبَه فما ظَلم

اللّهم أحشره مع من أحبّه.

■

وَإِذْ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَاَنْتُمْ ظٰالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنٰا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

◁ اللّغة

إِذْ: إسم للوقت الماضي كما أنّ اذا إسم للوقت المُستقبل.

وٰاعَدْنٰا: قرأ أهل البصرة بغير ألف والباقون بإثباته و القراءتان صحيحتان قويّتان والوعد يكون في الخير والشّر والوعيد في الشّر خاصّة.

مُوسىٰ: إسم مرّكب من اسمين بالقبطية، المو، هو الماء وسىٰ شجر و قيل، شيء، شجر و أصله موشىٰ ثمّ عرّب فصار موسىٰ و انّما سمّي به لأنّ التّابوت الّذي كان فيه موسىٰ وجد عند الماء و الشّجر وجدنه جواري آسية امرأة فرعون و قد خرجن ليغتسلن فسمّي بالمكان الّذي وجد فيه و هو موسىٰ ابن عمران بن يعمر بن ناهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام

اتَّخَذْتُمُ: و قرأ أخذتم.

الْعِجْلَ: بكسر العين ولد البقرة.

عَفَوْنٰا: العَفو القصد لتناول الشّئ يقال عَفاه وإعتفاه أي قصده متناولاً ما عنده وعَفَوتٌ عنه قصدت ازالة ذنبه صارفاً عنه و قيل العَفو هو التّجافي عن الذّنب.

تَشْكُرُونَ: الشّكر تصّور النّعمة إظهارها ويضّاده الكفر و هو نسيان النّعمة و سترها.

◁ الإعراب

وَإِذْ في محلّ النّصب علىٰ المفعولّية والتقدّير و اذكر اذ وٰاعَدْنٰا، وَعد يتعدّى الىٰ مفعولين تقول وعدت زيداً مكان كذا و يوم كذا فالمفعول الأوّل،

موسىٰ، اَرْبَعِينَ المفعول الثّاني **ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ إتّخذ** يتعدّى الىٰ مفعولين، فالعجل، مفعوله الأوّل والثّاني محذوف أي اتّخذتم العجل الٰهاً، **مِنْ بَعْدِهٖ** أي من بعد إنطلاقه فحذف المضاف **وَاَنْتُمْ ظَالِمُونَ** مبتدأ و خبر والجملة فـي محلّ النّصب علىٰ الحاليّة **ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ** ،ثمّ حرف عطف للتّراخي و**عفونا** فعل و فاعل **عنكم** في محلّ النّصب علىٰ المفعول **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** لعلّ، من حروف النّاصبة للإسم رافعة للخبر نحو إنّ وأنّ، **كم** إسمه تشكرون، خبره.

◁ التّفسير

أي وأذكر **وَاِذْ وٰاعَدْنَا مُوسىٰ اَرْبَعِينَ لَيْلَةً** يعني ذي القعدة وعشراً من ذي الحجّة و قيل ذالحجّة وعشراً من المحرّم **ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ** يابني إسرائيل **الْعِجْلَ** إلٰهاً **مِنْ بَعْدِهٖ** أي من بعد موسىٰ والحال أنتم ظالمون لأنفسكم باتّخاذكم العِجل **ثُمَّ عَفَوْنَا** و تجاوزنا **عنكم** أي أزلنا و صرفنا عنكم الذّنب، من بعد ذلك، أي بعد إتّخاذكم العِجل إلٰهاً **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**، و لا تكفرون بنعمتي عليكم.

كيفيّة القَضية: لمّا وعد اللّه موسىٰ أن ينزل عليه التّوراة والألواح الىٰ ثلاثين يوماً أخبر بني إسرائيل بذلك و ذهب الىٰ الميقات و خلف هارون علىٰ قومه فلمّا جاءت الثلاثون يوماً و لم يرجع موسىٰ اليهم غضبوا و أرادوا أن يقتلوا هارون قالوا أنّ موسىٰ كَذبنا و هَرب منا فجاءهم إبليس في صورة رجل فقال لهم أنّ موسىٰ قد هرب منكم و لا يرجع اليكم أبداً فأجمعوا الّي حلّيكم حتّىٰ أتّخذ لكم إلٰهاً تعبدونه وكان السّامري علىٰ مقدّمة موسىٰ يوم غرق اللّه فرعون و أصحابه فنظر الىٰ جبرئيل وكان علىٰ حيوانٍ في صورة رمكّة وكانت كلّ ما وَضعت حافرها علىٰ موضعٍ من الأرض يتحرك ذلك الموضع فنظر اليه السّامري وكان من خيار أصحاب موسىٰ فأخذ التّراب من حافر رمكَة جبرئيل

و كان يتحرّك فصرّه في صرّةٍ وكان عنده ليفتخر به علىٰ بنى إسـرائـيل فـلّما جاءهم إبليس و اتّخذوا العجل قال للسّامري هات التّراب الّذي مَعك فجاء به السّامري فألقاه إبليس في جوف العجل فلمّا وقَع التّراب فـي جـوفه تـحرّك وخار ونبت عليه الوَبَر والشَّعَر فسجد له بنو إسرائيل فكان عَدد الّذين سجدوا سبعين ألفاً من بني إسرائيل فقال لهم هارون:

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا قَوْمِ إِنَّمٰا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونى وَ أَطِيعُوٓا أَمْرِى،قٰالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عٰاكِفِينَ حَتّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنٰا مُوسىٰ**[١].

فهمّوا بهارون حتّىٰ هرب من بينهم وبقوا في ذلك حتّىٰ تم ميقات موسىٰ أربعين ليلة فلمّا كان يوم عشرة من ذي الحجّة أنزل اللّه عليه الألواح فيه التّوراة وما يحتاجون اليه من أحكام السّير والقصص ثمّ أوحىٰ اللّه الىٰ موسىٰ أنّا قد فَتَّنا قومك من بعدك و أضّلهم السّامري و عبدوا العجل و له خوار فقال موسىٰ يارَبّ العجل من السّامري فالخوار ممّن، قال منّي يا موسىٰ أنا لمّا رأيتهم قد و لّوا عنّي الىٰ العجل أحببت أن أزيدهم فتنة فرجع موسىٰ كما حكىٰ اللّه الىٰ قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدّكم ربّكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربّكم فأخلفتم موعدي ثمّ رمىٰ بالألواح وأخَذَ بلحية أخيه هارون و رأسه يجرّه اليه فقال له ما منعك اذ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتبعنّ أفعصيت أمري فقال هارون كما حكىٰ اللّه يابن أمّ لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي أنّي خشيت أن تقول فَرّقت بين بني إسرائيل ولم تَرقب قولي فقال له بنو إسرائيل ما أخلفنا موعدك بملكنا قال ما خالفناك و لكنّا حملنا أوزاراً من زينة القوم يعني من حُلّيهم فقذفناها فالتّراب الّذي جاء به السّامري طرحناه في جوفه ثمّ أخرج السّامري العجل و له خوار فقال له موسىٰ ما خطبك يـا سامرّي قال السّامري بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرّسول

١- طه = ٩١/٩٠

يعني من حت حافر رمكة جبرئيل في البحر فنبذتها أي أمسكتها و كذلك سوّلت لي نفسي أي زيّنت فأخرج موسىٰ العجل فأحرقه بالنّار وألقاه في البحر ثمّ قال موسىٰ للسّامري إذهب فأنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس يعني ما دمت حيّاً و عقبك هذه العلامة فيكم قائمة حتّىٰ تعرفوا أنّكم سامّرية فلا يغتّر بكم النّاس فهم الىٰ السّاعة بمصر والشّام معروفين لا مساس ثمّ همّ موسىٰ بقتل السّامري فأوحىٰ اللّه اليه لا تقتله يا موسىٰ فأنّه سَخَيٌّ فقال له موسىٰ أُنظر الىٰ إلٰهك الّذي ظلّت عليه عاكفاً لنحرّقنه ثمّ لِننسفنّه في اليمّ نسفاً أنّما إلٰهكم اللّه الّذي لا إلٰه إلاّ هو وسع كلّ شئٍ علماً و أمّا قوله تعالىٰ: **ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ** الخ.

فالمعنىٰ عَفونا عن أُمرائكم عبادتهم العِجل لعلّكم ياأيّها الكائنون في عصر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من بني إسرائيل تشكرون تلك النّعمة علىٰ أسلافكم و عليكم بَعدهم و إِنّما عَفا اللّه عزّ وجلّ عنهم لأنّهم دعوا محمّدٍ و آله الطّيبين وجَدَّوا علىٰ أنفسهم الولاية لمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطّاهرين فعند ذلك رحمهم اللّه و عفا عنهم.

و في المقام أبحاث لابدّ من الإشارة اليها:

الأوّل: أنّ قوله تعالىٰ: **وٰاعَدْنا** من المواعدة و هي مستلزم الطّرفين لأنّ باب المفاعلة لا يكون إلاّ بين إثنين واللّه عزّ وجلّ فأنّما هو المنفرد بالوعد والوعيد والجواب عنه أمّا أوّلاً فبأنّ كثيراً من القرّاء قرأوا بدون الألف قبل العين، فقالوا، وعدنا، و هذه القراءة صحيحة قوّية و عليه فلا إشكال في المقام.

ثانياً: نقول أنّ الوَعد و أن كان من اللّه تعالىٰ فقبوله كان من موسىٰ وقبول الوَعد يشبه الوَعد لأنّ القابل للوَعد يقول بلسان مقاله أو حاله أفعل ذلك هكذا قيل و إعترض عليه بأنّ القبول ليس بوعدٍ حقيقّةً بل هو إخبار الموعود بما يفعل به من خير، والأحسن في الجواب هو أن يقال باب المفاعلة قد تأتي من واحدٍ في كلام العرب كما يقال طارقت النّعل و داويت العليل و عاقبتُ

اللّص، و أمثال ذلك ممّا يكون الفعل من واحدٍ، و قيل أنّ الطّاعة من العبد بمنزلة القبول فمن اللّه تعالىٰ، الوَعد و من موسىٰ الطّاعة، وكيف كان فالوَجه ما ذكرناه.

الثاني: أنّ تعيين عدد الأربعين في الميعاد لإختصاصه في الكماليّة و ذلك لأنّ مراتب الأعداد أربعة، الأحاد، والعشرات والمئات والأُلوف، ثمّ أنّ العشرة في نفسها كاملة لقوله تعالىٰ تلك عشرة كاملة، و اذا ضعفت العشرة أربع مرّات و هو كمال مراتب الأعداد يحصل أربعون و هو كمال الكمال و هو عدد أيّام تخمير طينة آدم عليه‌السلام لما وَرد **خمّرت طينة آدم بيدي أربعين صباحاً.**

وروي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم **أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة ثمّ عَلَقة مثل ذلك ثمّ مضغة مثل ذلك.**

ثمّ أنّ كمال العقل في أربعين و رياضة المرتاضين في أربعين و إنعقاد الطّلسم الجسماني مخصوص بالأربعين و إنحلاله أيضاً بالأربعين الىٰ غير ذلك.

الثّالث: لم قال تعالىٰ أربعين ليلة و لم يَقُل أربعين يوم قالوا لأنّ الشّهور تبدأ من اللّيالي و قيل لأنّ اللّيل أسَبَق من اليوم فهي قبله في الرّتبة و لذلك وقع بها التّاريخ.

و قال بعض أهل المعرفة أنّ لِللّيل خصوصّية في التعبّد والتقرّب كقوله عليه‌السلام: أنّ أقرب ما يكون العبد من الرّب في جَوف اللّيل، لهذا قال اللّه تعالىٰ مخاطباً لنّبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **وَ مِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ** [١].

و قوله تعالى :**سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ** [٢] ومعلوم أنّ الوجوه المذكورة كلّها إستحسانات عقلّية.

■



١-الاسراء= ٧٩ ٢-الاسراء= ١

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

◁ اللّغة

الْكِتَابَ: في الأصل مصدر ثمّ سُمّي المكتوب فيه كتاباً فهو إسم للصّحيفة مَع المكتوب فيه.

الْفُرْقَانَ: بضّم الفاء مصدر قولك **فَرَق فرقاً وفرقاناً، فالفُرقان** كلّ ما فرّق به بين الحقّ والباطل.

تَهْتَدُونَ: مرّ معنىٰ الهداية.

◁ الأعراب

قد مرّ الكلام في إعراب إِذْ موسىٰ مفعول لقوله آتَيْنَا والكتاب مفعوله الثّاني، والفرقان معطوف علىٰ الكتاب **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** الكلام فيه كالكلام في قوله: **لَعَلَّكُمْ تَشكِرون** و قد مضىٰ.

◁ التّفسير

و إذكروا **إِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ** الّذي يفرّق به بين الحقّ والباطل، **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** أي لكي تهتدون.

أمّا الكتاب فالمراد به التّوراة بالإتّفاق و أمّا الفرقان فقد إختلفوا فيه علىٰ أقوالٍ:

أحدها: قول ابن عبّاس و هو أنّ الفرقان أيضاً التّوراة و أنّما عطفه عليه لإختلاف اللّفظين و قال قطرب و تغلب يحتمل أن يكون المراد به القرأن أي أتىٰ موسىٰ التّوراة و محمّدٍ صلّى الله عليه وآله وسلّم الفرقان وضعف هذا القول ظاهر لأنّ فيه

حمل القرآن علىٰ المجاز من غير ضرورةٍ مَع أنّه تعالىٰ قد أخبر أنّه أتىٰ موسىٰ الفرقان كما قال: **وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا مُوسٰى وَ هٰرُونَ اَلْفُرْقٰانَ**[1].

و قيل المراد بالفرقان إنفراق البحر لبني إسرائيل والفرج الّذي أتاهم كما قال : **يَجْعَل لَكُمْ فُرْقٰاناً**. أي مخرجاً و قيل المراد به الحلال والحرام الّذي ذكره في التّوراة و قيل المراد به النّصر الّذي فرّق اللّه به بين موسىٰ و فرعون كما فرّق بين محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و بين المشركين و قال أبو مُسلم هو ما أوتي من الأيات و الحجّ الّتي فيها التفرّقة بين الحقّ والباطل و قال الطّبري من العامّة بعد نقله الأقوال المذكورة و غيرها أنّ الفرقان الّذي ذكر اللّه أنه أتاه موسىٰ في هـذا الموضع هو الكتاب الّذي فرّق به بين الحقّ والباطل و هو نعت للتّوراة وصفة لها فيكون تأويل الآية حينئذٍ وإذ آتينا موسىٰ التّوراة التّي كتبناها في الألواح وفرّقنا بها بين الحقّ و الباطل فيكون الكتاب نعتاً لِلتّوراة أُقيم مقامها إستغناءً به عن ذكر التّوراة ثمّ أعطف عليه بالفرقان انتهىٰ.

و أمّا قوله: **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** معناه لكي تهتدون لأنّ الترجّي في حقّه تعالىٰ غير معقولٍ و ذلک لأنّه لا يجئ حقيقته إلاّ في مورد الشكّ فإذا قلنا لعّل زيداً قائم، نترجّىٰ منه القيام لانعلم أنّه يقوم أم لا و أمّا واجب الوجود الّذي علمه عين ذاته فهو يعلم السّر والعلن والماضي والمستقبل والحال بالنّسبة اليه سواء ولذلك لا يجئ فيه الترجّي واقعاً فهذه الكلمة أينما وجدت في كلامه معناها ما ذكرناه فقوله: **لَعلَّكُمْ تَتَّقوُن، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحوُن، لَعَلَّكُمْ تشْكرُون** و أمثالها معناه أنّه يقع قطعاً من غير ترديد فيه و عليه فمعنىٰ الأية، **اٰتَيْنٰا مُوسَى الْكِتٰابَ وَالْفُرْقٰانَ** لأجل أن تهتدُوا وقد مرّ معنىٰ الهداية في أوائل السّورة وفي سورة الحمد إنّ شئت فراجعه.

■

١- الانبياء = ٤٨

وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

◁ اللّغة

فَتُوبُوا: أصل التّوبة الرجوع من الذّنب.

بَارِئِكُمْ: الباری خصّ بوصف اللّه تعالىٰ والبرّية الخلق قيل أصله الهمز فترك و قيل من قولهم برَيت العود و سمّيت برّية، لكونها مُبرّية عن البَرى أي التّراب بدليل قوله تعالىٰ: **خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ** و قوله: **أُولٰئِكَ هُم خَيْرُ الْبَرِيّة** قال **عليّ** عليه السلام **والّذي خَلق الحَبّة وبَرَء النَّسمة ألخ.**

◁ الإعراب

قد مضىٰ الكلام في إعراب، إذ، **يَا قَوْمِ** منادي و محلّه النّصب و اصله **ياقومي** حذف ياء المتكلّم و الكسرة تدّل عليه و هذا يجوز في النّداء خاصّة.

◁ التّفسير



و أذكروا **وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ** و هم بنو إسرائيل **يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ** وتعّديتم عليها **بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ** إلٰهاً كما مرّ **فَتُوبُوا** من هذا الذّنب العظيم **إِلَىٰ بَارِئِكُمْ** و خالقكم **فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ** أي قَتل الأنفس **خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ** اي اللّه تعالىٰ **هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** علىٰ سبيل الحقّ قد مرّ الكلام منّا في كيفّية إتّخاذ بني إسرائيل العجل إلٰهاً و لا شكّ أنّه من أعظم الذّنوب عند اللّه لقوله تعالىٰ حكاية عن لقمان: **وَ إِذْ قَالَ لُقْمَانُ**

لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[١].

و حيث ثبت الذّنب فدوائه التّوبة وإنّما قال ظلمتم أنفسكم لأنّ العبد إذا عصىٰ اللّه فهو يضرّ بنفسه لأنّ ضرر الذّنب يرجع اليه لا محالة و فيه إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ لا يحتاج الىٰ عبادة العبد بمعنىٰ أنّ نفع العبادة يرجع الىٰ العبد كما أنّه تعالىٰ لا يتضرّر من معصية قال أمير المؤمنين في خطبة المتّقين:

اَمَّا بَعْدُ فَأِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِيْنَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتَهُمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتَهِمْ لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ ألخ.

و قال اللّه تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**[٢] والحاصل أنّه قد ثبت بالأدلّة العقلّية والنقلّية أنّه غنّي مطلق وما سواه فقر مطلق محتاج اليه و لاجل هذا قال: **اِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ اَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ** وأمّا قوله تعالىٰ **فَاقْتُلُوٓا اَنْفُسَكُمْ** فقد إختلفوا في المراد بالقتل في الآية علىٰ أقوالٍ

أحدهما: يقتل بعضكم بعضاً ذهب اليه إبن عبّاس وسعيد بن جُبير و مجاهد و الحَسن و غيرهم من أهل العلم كما يقول القائل قتل آل فلان إذا قتل بعضهم بعضاً.

ثانيهما: ما ذكره إبن عبّاس وإسحاق وإختاره أبو علّي و هو أن يستسلموا للقتل فجعل إستسلامهم للقتل قتلاً منهم لأنفسهم علىٰ وجه التّوسع.

ثالثها: ما قيل أنّ السّبعين الّذين إختارهم موسىٰ للميقات أمره بالقتل لمن سأل الرّؤية من بني إسرائيل.

رابعها: أنّهم قتلوا أنفسهم كما أمروا عمدوا الىٰ الخناجر و جعل بعضهم يطعن بعضاً و نقل عن إبن عبّاس أنّهم غشّتهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضاً ثّم إنجلت الظّلمة فأجّلوا عن سبعين ألف قتيل والسّبب الّذي

١- اللقمان = ١٣ ٢- الفاطر= ١٥

لأجله أمروا بقتل أنفسهم ذكره إبن جُريح و هو أنّ اللّه علم أنّ ناساً منهم علموا أنّ العجل لان باطلاً فلم يمنعهم أن ينكروا إلاّ خوف القتل فلذلك بلاهم اللّه أن يقتل بعضهم بعضاً.

و قال الرّماني و لابدّ أن يكون في الأمر بالقتل لطفٌ لهم و لغيرهم كما يكون في إستسلام القاتل لطف له ولغيره و هذه الوجوه ذكرها الشّيخ في التّبيان.

و نقل بعض المفسّرين أنّ موسىٰ و هارون وقفا يدعون اللّه ويتضرّعان اليه و هم يقتل بعض يعضاً حتّىٰ نزل الوحي برفع القتل و قبلت توبته من بقىٰ.

خامسها: قال أرباب الخواطر أي ذَللّوها بالطّاعات وكفّوها عن الشّهوات.

سادسها: ما قيل أنّه وقف الّذين عبدوا العِجل صَفّاً و دخل الّذين لم يعبدوه عليهم بالسّلاح فقتلوهُم والأقوال كثيرة جدّاً.

و نقل في تفسير البرهان عن علّي إبن إبراهيم أنّه قال أنّ موسىٰ لمّا خرج الىٰ الميقات و رجع الىٰ قومه و قد عبدوا العجل قال لهم موسىٰ **يٰا قَوْمِ اِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ اَنْفُسَكُمْ بِاتِّخٰاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا اِلىٰ بٰارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا اَنْفُسَكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بٰارِئِكُمْ** فقالوا وكيف نقتل أنفسنا فقال لهم موسىٰ إغدوا كلّ واحدٍ منكم الىٰ بيت المقدّس ومعه سكّين أو حَديدة أو سيف فإذا صعدت أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم ملثّمين لا يعرف أحد صاحبه فأقتلوا بعضكم بعضاً فأجتمعوا سبعين ألف رجل مِمّن كان عبدوا العُجل الىٰ بيت المقدّس فلّما صلّىٰ بهم موسىٰ و صعد المنبر أقبل يعضهم يقبل بَعضاً حتّىٰ نَزل جَبرئيل فقال قُل لهم يا موسىٰ إرفعوا القتل فقد تاب اللّه عليكم فقتل منهم عشرة آلاف و أنزَل اللّه: **ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بٰارِئِكُمْ فَتٰابَ عَلَيْكُمْ اِنَّهُ هُوَالتَّوّابُ الرَّحِيمُ** فهذه هي الأقوال الّتي وصلت بأيدينا من المُفسّرين في تفسير هذه، الأية، فالفاء في قوله: **فَتوبُوا** للسّبب لأنّ الظّلم سبب التّوبة وفي قوله: **فَاقْتُلُوٓا** للتّعقيب لأنّ المعنىٰ فأعزموا علىٰ التّوبة أي فأتّبعوا التّوبة القتل تتّمة لتوبتكم و في قوله: **فَتٰابَ عَلَيْكُمْ** متعلّق بمحذوفٍ

أي فأنّ فَعَلتم فقد تاب عليكم و أمّا أن يكونَ علىٰ طريقة الإلتفات فالتّقدير ففَعلتم ما امَركم به موسىٰ فتاب عليكم بارئكم.

قال بعض العُرفاء أنّ لكّل قومٍ عجلاً يَعبدونه من دُون اللّه قوم يعبدون عِجل الدّراهم والدّنانير و قوم يعبدون عِجل الشّهوات و قوم يعبدون عِجل الجاه وقوم يعبدون عِجل الهوىٰ و هذا أبغضها عند اللّه فاللّه تعالىٰ يلهم موسىٰ قلب كلّ سعيد لِيقول **يٰا قَوْمِ اِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ اَنْفُسَكُمْ بِاتِّخٰاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا اِلىٰ بٰارِئِكُمْ** أي إرجعوا الىٰ اللّه بالخروج عمّا سواه و لا يمكنكم إلاّ بقتل النّفس **فَاقْتُلُوٓا اَنْفُسَكُمْ** بقمع الهوىٰ لأنّ الهوىٰ هو حياة النّفس و بالهَوىٰ إدّعىٰ فرعون الرّبوبية و عبد بنو إسرائيل العجل وبالهوىٰ أبىٰ و أسّتكبر إبليس، أو إرجعوا بالإستنصار علىٰ قتل النّفس فَنَهيها عن هواها **فَاقْتُلُوٓا اَنْفُسَكُمْ** بنصر اللّه و عونه فإنّ قتل النّفس في الظّاهر يتيسّر للمؤمن و الكافر و أمّا قتل النّفس في الباطن فأمر صعب لا يتيّسر إلاّ للخّواص بسيف الصدّق و نصر الحقّ و بهذا جعل مرتبة الصدّيقين فوق مرتبة الشّهداء وكان النّبي إذا رجع من غزوٍ يقول رجعنا من الجهاد الأصغَر الىٰ الجّهاد الأكبر و ذلک لأنّ المُجاهد إذا قتل بسيف الكُفّار يستريح من التّعب بمرةٍ واحدة و إذا قتل بِسيف الصِّدق في يوم ألف مرّة تحيي كلّ مرّةٍ نفسه علىٰ بصيرة أخرىٰ و تزداد في مكرها فلا يستريح المجاهد طرفة عينٍ من جهادها و لا يأمن مكرها و بالحقيقة النّفس هي صُورة المكر و لا يأمن مَكر اللّه إلاّ القوم الخاسرون **ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بٰارِئِكُمْ** يعني قتل النّفس بسيف الصّدق خير لكم لأنّ بكّل قتلةٍ رفعة و درجة لكم عند بارئكم فأنتم تتقرّبون الىٰ اللّه بقتل النّفس وقمع الهَوىٰ و هو يتقرّب اليكم بالتّوفيق للتّوبة والرّحمة عليكم كما قال من تقرّب اليَّ يشيراً تقرّبت اليه ذراعاً و ذلک قوله: **فَتٰابَ عَلَيْكُمْ اِنَّهُ هُوَالتَّوّٰابُ الرَّحيمُ** و سيأتي الكلام في التّوبة بوجهٍ أَبسَط إن شاْ اللّه تعالىٰ.

■

وَاِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً فَاَخَذَتْكُمُ الصّٰاعِقَةُ وَاَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنٰاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنٰا عَلَيْكُمُ الْغَمٰامَ وَاَنْزَلْنٰا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ وَمٰا ظَلَمُونٰا وَلٰكِنْ كٰانُوٓا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

◁ اللّغة

جَهْرَةً: الجَهر يقال لِظهور الشّيء بإفراط حاسّة البصر أو حاسّة السّمع.

الصّٰاعِقَةُ: الصّاعِقة والصّاقعة يتقاربان وهما الهدّة الكبيرة إلاّ أنّ الصّعق يقال في الأجسام الأرضّية والصَعق في الأجسام العِلْوية، و الصّاعقة علىٰ ثلاثة أوجُه، الاوّل: المَوت كقوله تعالىٰ: **فَصَعِقَ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ مَنْ فِى ٱلْأَرْضِ**[1] و قوله: **فَاَخَذَتْكُمُ الصّٰاعِقَةُ**.

الثّانى: العذاب كقوله تعالىٰ: **أَنْذَرْتُكُمْ صٰاعِقَةً مِثْلَ صٰاعِقَةِ عٰادٍ وَ ثَمُودَ**[2].

الثّالث: بمعنىَ النّار كقوله تعالىٰ: **وَ يُرْسِلُ ٱلصَّوٰاعِقَ فَيُصِيبُ بِهٰا مَنْ يَشٰآءُ**[3] و قيل الصّاعقة هي الصّوت الشدّيد من الجَو ثمّ يكون منه نار فقط أو عذابٌ أو مَوتٌ و هي في ذاتها شيء واحد و هذه الأشياء تأثيرات منها.

بَعَثْنٰاكُمْ: البَعث في الأصل إثارة الشّيء وتوجيهه يقال **بَعَثْتهُ فَأنبَعَث** و **البَعث** علىٰ ما قاله الرّاغب ضربان، بشّري كبعث البعير و بَعث الإنسان في حاجةٍ، وإلهى و ذلك ضربان.

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن اللّيس المَحض و ذلك مُختصّ بالباري ولم يقدر عليه أَحَد.

١- الزمر = ٦٨ ٢- الفصلت = ١٣

٣- الرعد = ١٣

الثّاني: إحياء الموتىٰ و قد خصّ بذلك بعض اوليائه كعيسىٰ عليه السلام و منه قوله فهذا يوم البَعث يعني يوم الحَشر إنتهىٰ.

مَوْتِكُمْ: الموت ضدّ الحياة.

وَظَلَّلْنَا: الظّل ضدّ الضّح و هو أعّم من الفيء يقال ظلّ اللّيل و ظلّ الجنّة و يقال لكّل موضعٍ لم تَصل الشّمس اليه ظِلّ ولا يقال الفيء إلاّ لما زال عنه الشّمس و قد يُعّبر بالظّل عن العزّة والمنعَة عن الرّفاهة كقوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَ عُيُونٍ**[1] أي في عزةٍ و مناع.

الْغَمَامَ: الغّم ستر الشّئ و منه الغمام لكونه ساتراً لضَوء الشّمس قال اللّه تعالىٰ: يأتيهم اللّه في ظللٍ من الغمام.

الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ: قيل، المَّن شئ كالطّل فيه حلاوّة يسقط علىٰ الشّجر، والسَّلوىٰ طائرٌ، و قيل كلاهما إشارة الىٰ ما أنعم اللّه به عليهم و هما بالذّات شئ واحد لكن سمّاه مَنّاً بحيث أنّه إمّتن به عليهم و سمّاه سلوىٰ من حيث أنّه كان لهم به التّسلي.

طَيِّبَاتِ: أصل الطّيب ما تَستّلذه الحوّاس وما تَستّلذه النّفس والطّعام الطّيب في الشّرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوزه و بقدر ما يجوز و من المكان الّذي يجوز.

مَا ظَلَمُونَا: الظّلم وضع الشّئ في غير محلّه و هو ضدّ العَدل الّذي وضع الشّئ في محلّه.



◁ الإعراب



جَهْرَةً مصدر في موضع الحال من إسم اللّه و قيل حال من التّاء والميم في قلتم و قيل مصدر منصوب بفعل محذوف أي جَهرتم جَهرةً (والصّاعِقَةُ الصّاعقة) مفعولٍ ثانٍ لقوله أخَذَتكم، و مفعول الأوّل كُم، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ في

١- المرسلات = ٤١

موضع الحال و محلّه النّصب **وَظَلَّلْنٰا عَلَيْكُمُ الْغَمٰامَ**، ظَلّل متّعدٍ الىٰ مفعولين أحدهما كم، و ثانيهما الغمام **الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ**،الْمَنّ مفعول ثانٍ لقوله **اَنْزَلْنٰا** والسّلوىٰ معطوف عليه وهما جنسان **مِنْ طَيِّبٰاتِ** من هنا للتّبعيض أو لبيان الجنس و المفعول محذوف والتّقدير كلّوا شيئاً من طيّبات **اَنْفُسَهُمْ** مفعول لقوله يظلمون أنفسهم.

◁ التّفسير

والبحث في مقاصد ثلاثة:

المقصد الأوّل: في قوله: **اِذْ قُلْتُمْ** الىٰ قوله: **تَنْظُرُونَ**.

الثّانى: في قوله: **ثُمَّ بَعَثْنٰاكُمْ** الىٰ قوله: **تَشْكُرُونَ**.

الثّالث: في قوله: **وَظَلَّلْنٰا** عليكم الغمام الىٰ قوله: **يَظْلِمُونَ**.

المقصد الأوّل: في تفسير قوله تعالىٰ: **وَاِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ** الىٰ قوله: **تَنْظُرُونَ**.

فنقول و أذكروا **وَاِذْ قُلْتُمْ يا مُوسىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ**، أي لن نؤمن لأجل قولك أوَ لَن تُقّر بما إدَّعَيته **حَتّىٰ نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً** كما نرىٰ غيره من الموجودات **فَاَخَذَتْكُمُ الصّٰاعِقَةُ** بقولكم هذا والحال أنتم تشاهدونهم فيما جرىٰ عليهم إختلفوا في معنىٰ قوله: **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّىٰ نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً** فمنهم من قال أي لَن نصّدقك في قولك أنّك نبّي مبعوث **حَتّىٰ نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً** أي علانيةً فَيخبرنا بأنّك مبعوث و قيل معناه لا نصدّقك فيما تخبر به من صفات اللّه و ما يجوز عليه **حَتّىٰ نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً** فيخبرنا به، و قيل أنّه لمّا جاءهم بالألواح و فيها التّوراة قالوا لَن نؤمن بأنّ هذا من عند اللّه حتّىٰ نَراه عياناً ذكر هذه الوجوه في المجمع.

ثمّ قال و قال بعضهم إنّ قوله **جَهرةً** صفة لخطابهم لموسىٰ أنّهم جَهروا به و أعَلنوه و تقديره و اذ قلتم جهرةً لَن نؤمن حتّىٰ نرىٰ اللّه والأوّل أقوىٰ انتهىٰ.

أقول أنّما قالوا نرىٰ اللّه جَهرةً و لم يكتفوا بقولهم حتّىٰ نرىٰ اللّه، لأنّ الرّؤية قد يكون غير جهرة كما الروية في النّوم و الرّؤية بالقلب فاذا قالوا جهرةً أرادو رؤية العين علىٰ التّحقيق دون التَّخيل ثمّ أنّهم إختلفوا في أنّ طَلبهم الرّؤية كان بعد أن كلّف اللّه عبده العجل بالقَتل أو أنّه بعد القتل فيما بقىٰ منهم فنُقل عن محمّد ابن إسحاق القول الأوّل و عن السّدي القول الثّاني.

و قال محمّد ابن إسحاق لمّا رجع موسىٰ مِن الطّور الىٰ قومه فرأىٰ ما هم عليه من عبادة العِجل و قال لأخيه والسّامرىٰ ما قال و حَرّق العجل و ألَقاه في البَحر، إختار من قومه سبعين رجلاً من خيارهم فلمّا خرجوا الىٰ الطّور قالوا لموسىٰ سل ربّك حتّىٰ يَسمعناكلامه فسأل موسىٰ عليه‌السلام ذلك فأجابه اللّه اليه و لمّا دنا من الجَبل وقع عليه عمود من الغمام و تغشىٰ الجبل كلّه ودَنا من موسىٰ ذلك الغمام حتّىٰ دخل فيه فقال للقوم إدخلوا وكان موسىٰ عليه‌السلام متّىٰ كلّمه ربّه وقع علىٰ جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم النّظر اليه ويسمع القوم كلام اللّه مع موسىٰ عليه‌السلام يقول له إفعل و لا تفعل فلمّا تمّ الكلام إنكشف عن موسىٰ الغمام الّذي دَخل فيه فقال القوم بعد ذلك **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّىٰ نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصّٰاعِقَةُ** و ماتوا جميعاً و قام موسىٰ رافعاً يـديه الىٰ السّماء يدعو و يقول ياإلٰهي إخترتُ من بني إسرائيل سبعين رجـلاً ليكـونوا شهودي بقبول توبتهم فأرجع اليهم و ليس معي منهم واحد فَما الّذي يقولون فِيّ فلم يزل موسىٰ مشتغلاً بالدّعاء حتّىٰ ردّ اللّه اليهم أرواحهم وطلب موسىٰ توبة بني إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلاّ أن يقتلوا أنفسهم انتهىٰ.

و أمّا السّدي فقال لمّا تاب بنو إسرائيل من عبادة العجل بأن قتلوا أنفسهم أمر اللّه تعالىٰ أن يأتيهم موسىٰ في ناسٍ من بني إسرائيل يعتذرون اليـه مـن عبادتهم العِجل فاختار من قومه سبعين رجلاً فلمّا أتوا الطّور قالوا **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّىٰ نَرَى اللّٰهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصّٰاعِقَةُ** و ماتوا فقام موسىٰ يبكي و

يقول ياربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل فأنّي أمَرتهم بالقتل ثمّ إخترت من بقيّتهم هؤلاء فاذا رجعتُ اليهم و لا يكون معي منهم أحَد فماذا أقول لهم فأوحى اللّه الىٰ موسىٰ أنّ هؤلاء السّبعين ممّن إتّخذوا العجل إلٰهاً فقال موسىٰ إنْ هي إلاّ فتنتك الىٰ قوله أنّا هدنا اليك ثمّ أنّه تعالىٰ أحياهم فقاموا ونَظر كلّ واحدٍ منهم الىٰ الأخر كيف يُحيه اللّه تعالىٰ فقالوا يـاموسىٰ أنّك لا تسأل اللّـه شـيئاً إلاّ أعطاك فأدعه يجعلنا أنبياء فَدعاه بذلك فأجاب اللّه دَعوته انتهىٰ.

أقول و أنت ترىٰ أنّه ليس في الآية ما يدّل علىٰ ترجيح أحَد القولين علىٰ الأخر والّذي نقول به هو أنّ الموضوع مسلّمٌ لاشكّ فيه بدلالة الآية عليه و أمّا أنّ السّؤال كان بعد القتل أو قبله فاللّه أعلم به.

المقصد الثّانى: في قوله: **بَعَثْنٰاكُمْ** الىٰ قوله: **تَشْكُرُونَ** و فيه إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ أحياهم بعد موتهم بالصّاعقة و هو كذلك و أنّما قال بعثناكم و لم يقل ثمّ أحياكم لوجُوهٍ.

أحدها: أنّ هذا النّوع من الإحياء المعبّر عنه بالبعث مختّص به تعالىٰ و أمّا الإحياء للموتىٰ فقد يُوجد في غيره بأذنه كما قال عن عيسىٰ: **وَ أُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَ ٱلْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ ٱلْمَوْتىٰ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ**[1].

ثانيها: أنّ في التّعبير بالبَعث إشعار بأنّ اللّه تعالىٰ هكذا يـبعث مـن فـي القبور.

ثالثها: أن يكون البَعث بمعنىٰ الحشر كما قال تعالىٰ: **فَهٰذا يَوْمُ الْبَعْثِ** أي يوم الحشر فقوله: **بَعَثْنٰاكُمْ** يعني حَشرناكم بعد موتكم في الدّنيا، وفي قوله: **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** إشارة بوجوب شكر المُنعم لو كانوا يعقلُون.

وأمّا المقصد الثّالث: و هو قوله: **وَظَلَّلْنٰا عَلَيْكُمُ الْغَمٰامَ** الىٰ أخر الآية أي و جعلنا لكم الغمام ظلّة و سترة تقيكم حرّ الشّمس في التّيه عن جماعةٍ من

١- آل عمران= ٤٩

المُفسّرين رُوي في تفسير الآية أنّ بني إسرائيل لمّا عبر بهم موسىٰ البحر نزلوا في مفازةٍ فقالوا ياموسىٰ أهلكتنا وقتلتنا و أخرجتنا من العمران الىٰ مفازةٍ لا ظلّ و لا شجر و لا ماء وكانت تجئ بالنّهار غمامة تظّلهم من الشّمس و ينزل عليهم باللّيل المنّ فيقع علىٰ النّبات والشّجر والحجر فيأكلونه و بالعَشي يجئ طائر مشّوي فيقع علىٰ موائدهم و اذا أكلوا شبعوا طار و مرَّ وكان مع موسىٰ حجر يضعه في وسَط العسكر ثمّ يضربه بعصاه فتنفجر منه إثنتا عَشرة عيناً كما حكى اللّه فيذهب الماء الىٰ كلّ سبطٍ في رحله و كانوا إثني عشر سبطاً فلمّا طال عليهم الأمد قالوا: **يا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ واٰحِدٍ فَادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ اَلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا وَ قِثّٰائِهٰا وَ فُومِهٰا وَ عَدَسِهٰا وَ بَصَلِهٰا** والفُوم هي الحنطة فقال لهم موسىٰ أَتستبدلون الّذي هو أدنىٰ بالّذي هو خير إهبطوا مصراً فأنّ لكم ما سألتم فقالوا يا موسىٰ أنّ فيها قوماً جبّارين وأنّا لَن ندخلها حتّىٰ يخرجوا منها فأن يخرجوا منها فأنّا داخلون فنصف الآية في سورة البقرة و تمامها و جوابها لموسىٰ في سورة المائدة و قد نقل هذه القّصة بصورةٍ أخرىٰ و هي أنّ السّبب في إنزال المنّ والسّلوىٰ عليهم أنّه لمّا إبتلاهم اللّه بالتِّيه اذ قالوا لموسىٰ إذهب أنت و ربّك فقاتلا أنّا هاهنا قاعدون حين أمرهم بالمسير الىٰ بيت المقدس وحرب العمالقة بقوله أدخلوا الأرض المقدسة فوقعوا في التِّيه صاروا كلّما ساروا في قدر خمسة فراسخ أو ستّة فلمّا أصبحوا صاروا عادين فأمسوا فاذ هم في مكانهم الّذي إرتحلوا منه وكانوا كذلك حتّىٰ تمّت المدّة و بقوا فيها أربعين سنة وفي التّيه توّفىٰ موسىٰ و هارون ثمّ خرج يوشع ابن نون و قيل كان اللّه يردّ الجانب الّذي انتهوا اليه من الأرض الىٰ الجانب الّذي ساروا منه فكانوا يضلّون عن الطّريق لأنّهم كانوا خلقاً عظيماً فلا يجوز أن يضّلوا كلّهم عن الطّريق في هذه المقدار من الأرض فلمّا حَصلوا في التّيه ندموا علىٰ ما فعلوا فألطَف اللّه لهم بالغمام لمّا شكوا حرّ الشّمس و أنزل عليهم **الْمَنَّ**

وَالسَّلْوىٰ فكان يسقط عليهم المّن من وقت طلوع الفجر الى طلوع الشّمس فكانوا يأخذون منها ما يكفيهم ليومهم.

قال الصّادق عليه السلام: كان ينزل المّن علىٰ بني إسرائيل من بعد الفجر الىٰ طلوع الشّمس فمن فاء في ذلك الوقت لم ينزل نصيبه فلذلك يكره النّوم في ذلك الوقت الىٰ بعد طلُوع الشّمس.

و قال الطّبري في تفسيره المراد بالغمام هو الّذي يأتي اللّه به يوم القيامة و أنّما هو بمنزلة السّحاب وليس به ثمّ قال إختلفوا في صفة المّن فقال بعضهم المّن العَسَل.

و قال بعض هو مثل الثّلج و قال بعض هو شراب و قالوا السّلوىٰ إسم طائر يشبه السّماني واحده وجماعه سواء و قيل واحدة السّلوىٰ سَلواه و ساق الكلام الىٰ أن قال قائل و ماسبب تظليل اللّه جلّ ثناؤه الغمام و إنزاله **الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ** علىٰ هؤلاء القوم قيل قد إختلف أهل العلم في ذلك ونحن ذاكرون ما حضرنا عنه فحدّثنا موسىٰ ابن هارون قال حدّثنا عمرو بن حماد قال حدّثنا أسباط ابن نصر عن السّدي لمّا تاب اللّه علىٰ قوم موسىٰ و أحيا السّبعين الّذين إختارهم موسىٰ بعد ما أتاهم أمرهم اللّه بالمسير الىٰ أريحا و هي أرض بيت المقدّس فساروا حتّىٰ اذاكانوا قريباً منهم بَعث موسىٰ إثني عشر نقيباً وكان من أمرهم وأمر الجبّارين و أمر قوم موسىٰ ما قد قصّ اللّه في كتابه فقال قوم موسىٰ لموسىٰ إذهب أنت و ربّك فقاتلا أنّا هاهنا قاعدون فغضب موسىٰ و دعا عليهم فقال ربّ أنّي لا أملك إلاّ نفسي وأخي فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين فكانت عجلة من موسىٰ عجلها فقال اللّه تعالىٰ محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهُون في الأرض فلمّا ضرب عليهم التّيه ندم موسىٰ و أتاه قومه الّذين كانوا مَعه فقالوا له ما صَنعت بنا ياموسىٰ فلمّا ندم أوحى اللّه اليه أن لا تأس على القوم الفاسقين أي لا تحزن علىٰ القوم الّذين سمّيتهم فاسقين فلم يحزن فقالوا

ياموسىٰ كيف لنا بماء هاهنا و أين الطّعام فأنزل اللّه عليهم المّن فكان يسقط علىٰ شجر التّرنجبين والسّلوىٰ و هو طير يشبه السّماني فكان يأتي أحدهم فينظر الىٰ الطّير إن كان سميناً ذبحه و إلاّ أرسَله فاذا سمن أتاه فقالوا هذا الطّعام فأين الشّراب فأمر موسىٰ فضرب بعصاه الحجر فأنفجرت منه أثنتا عشرة عَيناً فشرب كلّ سبطٍ من عينٍ فقالوا هذا الطّعام والشّراب فأين الظلّ فظلّل عليهم الغمام فقالوا هذا الظِّل فأين اللّباس فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصّبيان و لا يتخرّق لهم ثوب فذلك قوله: **عَلَيْكُمُ الْغَمٰامَ وَاَنْزَلْنٰا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ** و قوله: **وَ إِذِ اَسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنٰا اَضْرِبْ بِعَصٰاكَ اَلْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ**[١].

و أمّا قوله: **كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُم** فهو في الحقيقة توضيح لما قبله و ذلک لأنّ إنزال المّن والسّلوىٰ من أكمل مصاديق الطّيبات من الرّزق وفي قوله تعالىٰ: **وَمٰا ظَلَمُونٰاوَلٰكِنْ كٰانُوٓا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** إشارة الىٰ أنّهم خالفوا ما أمَرهم اللّه و عصوا رسوله وكان الواجب عليهم شكر النّعمة لا كفرآنها و لم يَعلمُوا أنّهم ظلموا أنفسهم و ذلک لأنّ تبعات الظّلم تنالهم في الدّنيا والأخرة و من يشكر فأنّما يشكر لنفسه و من يكفر فما ربّك بظلامٍ للعبيد:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنٰا لَكُمْ فيهٰا مَعٰايِشَ قَليلًا مٰا تَشْكُرُونَ**[٣]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا ظَلَمَهُمُ اَللّٰهُ وَ لٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**[٤]

فصل نذكر فيه ما وَرد في شكر النّعمة قيل لبعض الحكماء ما أضيع الأشياء قال مَطر الجود في أرضٍ سَبخة لا يجّف ثراها و لا ينبُت مَرعاها و سراج يُوقد

١-البقرة= ٦٠
٢- المائدة= ٦
٣- الأعراف= ١٠
٤- آل عمران= ١١٧

في الشّمس و جارية حسناء تُزف الىٰ أعمىٰ، و صنيعة تسدىٰ الىٰ من لا يشكرها و لنعم ماقيل:

ومـا نـعمة مكـفورة قـد صَـنَعتُها
الىٰ غـير ذي شكـرٍ تـمانعنا أخـرىٰ
سأتـي جـميلاً مـاحييتُ فأنّـني
اذا لم أُفـد شكـراً أفـدتُ بـه جـراً وقـال
الشّكـر أفـضل مـا حـاولت مـلتّمسا
بـه الزّيـادة عـند اللّـه والنّـاس

و اذ كان الشّكر علىٰ النّعمة واجباً عقلاً و شرعاً فكفران النّعمة مذموم كذلك و أنّما عَدّوه من الظّلم لأنّ الظّلم وضع الشّيْ في غير محلّه والكافر بالنّعمة يكون كذلك و لذلك عبّر في الآية عن قوم موسىٰ بالظّالمين و هذا لا يختّص بهم بل يعمّ غيرهم ممّن هدىٰ حذوهم الىٰ يوم القيامة.

و قال بعضهم ما أنعم اللّه علىٰ عبدٍ نعمة فظلم بها إلاّ كان حقّاً علىٰ اللّه تعالىٰ أن يزيلها عنه و في هذا المعنىٰ قيل:

أعـارك مـاله لتـقوم فـيه   بـواجـبه وتـقضي بـعض حقّه
فـلم تـقصد لطـاعته ولكـن   قَـويت عـلىٰ مـعاصيه بـرزقه

و قال بعضٌ من لم يشكر علىٰ النّعمة فقد إستدعىٰ زوالها وكان يقال.

اذا كـانت النّـعمة وسـيمة
فأجـعل الشّكـر لهـا تـميمة
ولو كـان لي فـي كـلّ مـنبت شعرةٍ
لسـاناً يـطيل الشّكـر كـنتُ مُـقصّراً

اللّهم أجعلنا من الشّاكرين و لا تَجعلنا من الكافرين الظّالمين بحقّ محمّدٍ وآله الطّاهرين.

■

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

◁ اللّغة

الْقَرْيَةَ: بفتح القاف إسم للموضع الّذي يجتمع فيه النّاس والنّاس جميعاً و يستعمل في كلّ واحدٍ منها.

رَغَداً: مرّ الكلام فيه في قصّة آدم و حوّاء.

سُجَّداً: قد مرّ الكلام في معنىٰ السّجود وأنّ أهله التّطامن والتذلّل في قصّة آدم وبيّنا أقسام السّجُود أن شئت فراجعه، سُجَّد بضمّ السّين و فتح الجيم المشدّدة جمع السّاجد.

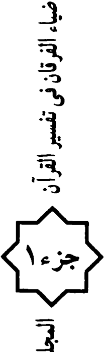
حِطَّةٌ: الحطّ إنزال الشّيئ من علو والحطّة بكسر الحاء و فتح الطّاء المشّددة في الآية كلمة أمر بها بني إسرائيل ومعناه، حُطّ عنّا ذنوبنا و قيل معناه قولوا صواباً

خَطَايَاكُمْ: الخطايا جمع خطيئة و هي الذّنب.

فَبَدَّلَ: التّبديل التّغيير عمّا هو عليه.

رِجْزاً: بكسر الرّاء أصل الرِجّز الإضطراب و منه قيل رجز البعير رَجزاً.

يَفْسُقُونَ: الفسق الخروج عن حَجر الشّرع و معناه واضح.



◁ الإعراب

قد مرّ الكلام في إعراب اذ، و أنّ محلّه النّصب والتقدّير وَإِذْ قُلْنَا حَيْثُ ظرف مكان مبنّي علىٰ الضّم سُجَّداً منصوب علىٰ أنّه حال جمع ساجد.

حِطَّة خبر مبتدأ محذوف أي سؤالنا حِطَّة **خَطٰايٰا كُمْ** في محلّ النّصب على المفعوليّة وكذلك المُحسنين، و قوله **نَّغْفِرْ** مجذوم بشرطٍ محذوف تقديره أن تقولوا ذلك نغفر لكم **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** تقديره فبدل الّذين ظلمُوا بالّذي قيل لهم قولاً، **فَبَدّل** يتعدّى الىٰ مفعول واحد بنفسه و الىٰ أخر بالباء **مِّنَ السَّمٰاءِ** في موضع نصب متّعلق بأنزلنا ويجوز أن يكون صفة، لرجزٍ يتعلّق بمحذوفٍ **بِمٰا كٰانُوا** الباء للسّببية أي بسبب فسقهم.

◁ التّفسير

وَاِذْ قُلْنَا أي أذكروا اذ قلنا لبني إسرائيل **ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ** إتّفق المفسّرون علىٰ أنّ المراد بالقَرية في الآية بيت المقدّس و نُقل عن ابن زيد أنّها أريحا قرية قرب بيت المقدّس و كان فيها بقايا من قوم عاد و هم العمالقة و رأسهم عوج بن عنق **فَكُلُوا مِنْهٰا** أي من القرية والمقصود ما فيها من النّعم فهو من قبيل قوله وإسأل القَرية أي أهلها **حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً** أي عَيشاً هنيئاً واسعاً بغير حساب و قد مضىٰ معنىٰ الرّغد فيما مضىٰ في قصّة آدم و حوّاء **وَّادْخُلُوا الْبٰابَ** أي باب الحطّة من بيت المقدّس و قيل باب الحطّة من باب إيليا من بيت المقدّس **سُجَّداً** فقد نقل عن ابن عبّاس أنّه قال أي رُكّعاً لأنّ أصل السّجود الإنحناء لمن نسجد له معظماً بذلك فكلّ منحنٍ لشيءٍ تعظيماً فهو ساجد و منه قول الشّاعر:

بجمع تضّل البلق في حجراته ترىٰ ألاكم فيه سُجّداً للحوافر

و قيل: **وَّادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً** أي متواضعين خضوعاً لا علىٰ هيئة معيّنة و قيل أي متّطامين مخبتين أو ساجدين شكراً علىٰ إخراجهم من التّيه و قيل معناه أدخلوا البا فاذا دخلتموه فأسجدوا لِلّه شكراً والأقوال متقاربة المعنىٰ **قُولُوا حِطَّةٌ** أي قولوا حطّ عنّا ذنوبنا فهو أمرٌ بالإستغفار.

و نقل عن ابن عبّاس أنّهم أمروا أن يقولوا هذا الأمر حقّ.

وعن عكرمة أمروا أن يقولوا لا إله إلاّ الّه لأنّها تحطّ الذّنوب.

و روي عن الباقر عليه السلام: أنّه قال نحن باب حِطّتكم قاله الطّبرسي في المجمع.

أقول و يُؤيده ما رُوي عن العيون بأسناده عن علّي ابن أبي طالب قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: لكلّ أمّةٍ صدّيق وفاروق و صدّيق هذه الأُمّة وفاروقها علّي ابن أبي طالب عليه السلام أنّ علّياً سفينة نجاتها وباب حِطّتها انتهىٰ.

و عن الخِصال في مناقب أمير المؤمنين و تعدادها قال علّى و أمّا العشرون فأنّي سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول مثلك في أُمّتي مَثَل باب حِطّة في بني إسرائيل فَمن دَخل في ولايتك فقد دَخل الباب كما أمَره اللّه عزّ وجلّ انتهىٰ.

و فيه يقول أمير المؤمنين في حديث طويل ونحن باب حِطّةٍ.

و عن كتاب التّوحيد بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته، أنا باب حِطّة.

و في روضة الكافئ في خطبةٍ لأمير المؤمنين و هي خطبة الوسيلة ألا وأنّي فيكم أيّها النّاس كه هارون في آل فرعون وكباب حِطّة في بني إسرائيل.

أقول فعلىٰ هذا المراد بالباب في الآية باب الولاية والمراد بقوله تعالىٰ:**سُجّداً** تواضعهم و خشوعهم لمُحمّدٍ و آل محمّدٍ(ص) و المراد من حِطّة نفس الولاية فأنّها تحّط الذّنوب وقد ورد في أخبارنا أنّ و لايتهم قد عرضها اللّه علىٰ جميع الأنبياء والأمم.

و يؤيد هذا المعنىٰ ما نقله في تفسير البرهان عن العسكري عليه‌السلام في تفسير الآية قال عليه‌السلام قال اللّه تعالىٰ أذكروا يابني إسرائيل اذ قلنا لأسلافكم أدخلوا هذه القرية و هي أريحا من بلاد الشّام و ذلك حين خرجوا من التّيه فكلوا منها أي من القرية قال عليه‌السلام واسعاً بلا تعب و أدخلوا باب القرية سُجّداً مثّل اللّه عزّ وجلّ علىٰ الباب مثال محمّدٍ وعلّيٍ و أمرهم أن يسجدوا تعظيماً لذلك المثال و يجدّدوا علىٰ أنفسهم بيعتها و أذكروا موالاتها و ليذكروا العهد و الميثاق المأخوذين عليهم لهما و قولوا حِطّة أي قولوا أنّ سجودنا لِلّٰه تعالىٰ تعظيماً لمثال محمّدٍ و إعتقادنا لولايتهما حطّة لذنوبنا و محو لسيئاتنا قال اللّه نغفر لكم، بهذا الفعل خطاياكم السّالفة ونزيل عنكم آثاماكم الماضية و سَنزيدُ المُحسنين، من كان منكم لم يفارق الذّنوب التّي فارقها من خالف الولاية وثَبت علىٰ ما أعطىٰ اللّه من نفسه من عهد الولاية و إنّا نزيدهم بهذا الفعل دَرجات ومَثوبات و ذلك قوله: وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ، انتهىٰ.

أمّا قوله تعالىٰ: **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**. إختلفُوا في هذا التبدّيل بعد إتفاقهم علىٰ أنّهم تركوا ما أمروا به و فعلوا ما لم يأمروا به فَبدَّلوا أمر اللّه تعالىٰ بشئ غير الّذي قيل لهم، فقال قوم أنّهم قالوا بالسّريانية، حطا سمقاتاً و معناه حنطةً حمراء فيها شعيرة وكان قصدهم بذلك الإستهزاء و مخالفة الأمر و قيل إنّهم قالوا حِنطة تجاهلاً و إستهزاءً وكانوا قد أُمروا أن يدخلوا الباب سجدّاً و طؤطى لهم الباب ليدخلوه كذلك فدخلوه راجفين علىٰ أستهم مخالفوا في الدّخول.

أيضاً ذكره الطّبرسي في المجمع و عليه أكثر المُفسّرين من العامّة والخاصّة و قيل كان خلافهم أنّهم لمّا بلغوا الباب رأوا باباً مرتفعاً قالوا ما بالنا نحتاج أن

نركع عند الدّخول ها هنا ظننّا أنّه بابٌ متطامن لا بدّ من الرّكوع فيه و هذا باب مرتفع و الىٰ متىٰ يسخر بنا هؤلاء يعنون موسىٰ ثمّ يوشع ابن نون و يسجدونا في الأباطيل و جعلوا أستاههم نحو الباب و قالوا بدل قولهم حِطّة ما معناه حِنطة حمراء فذلك تبديلهم.

أقول و قد ذكر الطّبري روايات من طريق العامّة في الباب كلّها قريب بهذا المعنىٰ أي أنّهم كانوا يزحفون علىٰ أستاههم و قالوا حِنطة في شعيرة.

و أمّا علىٰ رواية البرهان عن العسكري عليه السلام: فالتبديل عبارة عن عدم إنقيادهم لولاية اللّه و ولاية محمّدٍ و علّيٍ و آلهما الطّاهرين.

أمّا قوله تعالىٰ **فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ** فالمراد بالظّالمين في الآية من بدَل قول اللّه فمعنىٰ الآية أنزلنا من السّماء رجزاً عليهم لكونهم من الظّالمين الفاسّقين و إختلفوا في معنىٰ، الرّجز فَنقل عن إبن عباس و قتادة أنّه العذاب وعن إبن زيد أنّه الطّاعون فمات منهم في ساعةٍ واحدة أربعة و عشرون ألفاً من كبرائهم وشيوخهم و بقىٰ الأبناء فأنتقلَ منهم العِلم والعبادة كأنّهم عوقبوا بإخراج الأفاضل من بينهم و قال قوم أنّ الّرجز في الآية الغَضب ويظهر من الآية أنّ سبب نزول الّرجز هو الفِسق لقوله بما كانوا يفسقون والباء للسبب و هو واضح.

■

وَإِذْ اسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللّٰهِ وَلاٰ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

◁ اللّغة

وَإِذْ اسْتَسْقىٰ: الإستسقاء طلب السّقي والسّقي والسّقياء أن يعطيه ما يشرب والإسقاء أن يجعل له ذلك حتّىٰ يتناوله كيف شاء ولذلك قيل الإسقاء أبلغ من السّقى.

بِعَصَاكَ: العصىٰ أصله من الواو لقولهم في التّثنية عصوان وفي الجمع عُصَي يقال عصوته أي ضربته بالعصاء.

فَانْفَجَرَتْ: الإنفجار شَقّ الشيء شقّاً واسعاً يقال فجرته فأنفجر وفجّرته فَتفجر.

عَيْناً: يقال لمنبع الماء عينٌ تشبيهاً بها لِما فيها من الماء.

أُنَاسٍ: بضم الألف لغة في النّاس.

وَلاٰ تَعْثَوْا: عثا يعثوا عثواً قال الرّاغب العيث والعثّىٰ يتقاربان إلاّ أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد المحسوس و العثي فيما يدرك حكماً.

◁ الإعراب

قد مرّ الكلام في إعراب إذ، غير مرةٍ وَلاٰ تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ مفسدين حال مؤكدة لأنّ قوله وَلاٰ تَعْثَوْا اى لا تفسدوا، والباقي واضح.

◁ التّفسير

أي و أذكروا يا بني إسرائيل إِذْ اسْتَسْقىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ كيفية القضية أنّ موسىٰ طلب لهم السّقي لما لحِقهم من العطش في التيه و ضّجوا بالبكاء الىٰ

موسىٰ و قالوا هلكنا بالعطش فقال موسىٰ إلٰهي بحقّ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم سيّد الأنبياء و بحقّ علّي عليه السلام سيّد الأوصياء و بحقّ فاطمة عليها السلام سيّدة النّساء و بحقّ الحَسن عليه السلام سيّد الأولياء و بحقّ الحُسين عليه السلام سيّد الشّهداء و بحقّ عترتهم و خلفاءهم سادة الأزكياء لما سَقيت عبادك هؤلاء فأوحىٰ اللّه تعالىٰ يا موسىٰ: **أَضْرِبْ بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ** فضربه بها **فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ** أي كلّ قبيلةٍ من بني أب من أولاد يعقوب مشربهم فلا يزاحم الأخرين في مشربهم قال اللّه تعالىٰ: **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللّٰهِ** الّذي أتاكموه **وَلاٰ تَعْثَوْا فِى الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ** ولا تسعوا فيها و أنتم مفسدون عاصون.

قال الطّبري أصل العثا شدّة الإفساد بل هو أشدّ الإفساد يقال منه عثىٰ فلان في الأرض إذا تجاوز في الإفساد الىٰ غايته ثمّ قال وفيه لغتان أُخريان أحداهما عثا يعثو عثواً و من قرأ بهذه اللّغة فأنّه ينبغي له أن يضّم الثاء من يعثو و لا أعلم قارئاً يقتدى بقراءته قرأ به و من نطقَ بهذه اللّغة مخبراً عن نفسه قال عثوت أعثو و من نطق باللّغة الأوّلىٰ قال عثيت أعثي والأخرىٰ منهما عاث يعيث عثياً و عيوثاً و عثياناً كلّ ذلك بمعنىٰ واحد و من العيث قول الشّاعر:

و عـاثَ فـينا مسـتحل عـائثُ مـصدق أوتـاجر مـقاعث

يعني بقوله عاث فينا أفسدَ فينا انتهىٰ ما ذكره.

أقول يظهر من كلامه، أنّ من قرأ الآية بفَتح التاء كما هو المشهور المنصور فهو من عاثَ يعيث أي أفسدَ، ومن ذهبَ الىٰ أنّه من عثا يعثو عثواً، فيلزمه أن يضمّ الثاء في الآية وحيث أنّه لم يقرأ به فيعلم أنّه من عاث يعيثُ والأمر سهل بعد وضوح المعنىٰ وكيف كان ففي قوله: **وَلاٰ تَعْثَوْا فِى الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ** إشعار بأنّ الشّكر علىٰ النّعمة ليس معناه أو مصدّاقه الفساد في الأرض كما فعله بنو إسرائيل بل الشّكر عليها المشي في الأرض علىٰ الصّلاح والسّداد ونعبر عنه بالشّكر العملي.

■

وَاِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلىٰ طَعٰامٍ وٰاحِدٍ فَادْعُوا لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ الْاَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا وَقِثّٰائِهٰا وَفُومِهٰا وَعَدَسِهٰا وَبَصَلِهٰا قٰالَ اَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ اَدْنىٰ بِالَّذي هُوَ خَيْرٌ اِهْبِطُوا مِصْراً فَاِنَّ لَكُمْ مٰا سَاَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبٰاؤُا بِغَضَبٍ مِنَ اللّٰهِ ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِاٰيٰاتِ اللّٰهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَكٰانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ اِنَّ الَّذينَ اٰمَنُوا وَالَّذينَ هٰادُوا وَالنَّصٰارىٰ وَالصّٰابِئينَ مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَعَمِلَ صٰالِحاً فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

◁ اللغة

طَعٰامٍ:الطَّعام بفتح الطّاء إسم لِما يتناول من الغذاء و هو من الطّعام بمعنىٰ تناول الغذاء.

تُنْبِتُ: الإنبات إخراج النبات من الأرض من النّاميات سواء كان له ساق كالشّجر أو لم يكن له ساق كالنّجم.

بَقْلِهٰا: البَقل بفتح الباء و سكون القاف ما لا ينبت أصله و فرعه في الشّتاء.

قِثّٰائِهٰا:القِثّاء بكسر القافَ و تشديد الثّاء الخيار و واحدة قِثائه و قد يضمّ القاف و هو قليل.

فُومِهٰا:الفُوم بضمّ الفاء الحِنطة و قيل الثّوم يقال ثُوم وفُوم كقولهم جَدث وجَدف.

عَدَسِهَا: العَدس بفتح العين و الدّال الحبّ المعروف.
وَبَصَلِهَا: البَصل بفتح الباء و الصّاد معروف.
الذِّلَّةُ: بكسر الذّال الحقارة.
وَالْمَسْكَنَةُ: الفقر و الذّل و الضّعف و قد تجيئ بمعنىٰ الخضوع و الخشوع.
بَاۤؤُا: باء يبوء بوّء أي إنصرف.
هَادُوا: هادَ يَهُود هَوداً أي تاب و رَجع والمقصود قوم اليهود.
وَالنَّصَارىٰ: جمع نصّراني منسوب الىٰ قريةٍ يقال لها نصَران والمقصود أتباع المسيح.
وَالصَّابِئِينَ: قوم كانوا علىٰ دين نوح.

◁ الإعراب

قد مرّ الكلام في إعراب إِذْ يخرج ممّا تُنبت الأرض، مفعول يخرج محذوف و تقديره يخرج شيئاً ممّا تُنبت الأرض و ما بمعنىٰ الّذي أو نكرة موصوفة و لا تكون مصدريّة لأنّ المفعول المقدر لا يوصف بالإنبات من بقلها من هنا لبيان الجنس و محلّها النّصب علىٰ الحال من الضّمير المحذوف تقديره ممّا تنبته الأرض كائناً من بَقلها و يجوز أن يكون بدلاً من ما الأولىٰ بإعادة حروف الجرمِصْراً نكرة فلذلك إنصرف و هو في الأصل الحدّ بين الشّيئين مّا سَأَلْتُمْ ما في موضع نصب إسم أنّ وهي بمعنىٰ، الّذي والقول بكونها نكرة موصوفة ضعيف بَاۤؤُا الألف فيه منقلبة عن واو لقولك في المستقبل يَبوء بِغَضَبٍفي موضع الحال أي رجعوا مغضوباً عليهم مِّنَ اللّٰهِفي موضع جرّ صفة لِغَضب ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ذلك مبتدأ وبأنّهم كَانُوا يَكْفُرُونَ خبره النّبيين، مفعول به لقوله، وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ في موضع نصب علىٰ الحال من الضّمير في، يقتلون مَنْ آمَنَ من هنا شرطيّة في موضع مبتدأ والخبر أمن و الجواب

فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ والجملة خبر أنّ الّذين والعائد محذوف تقديره مَن أمَن منهم و يجوز أن يكون، مِن بمعنىٰ الّذي وخبر أنّ فلهم أجَرهم، وجرهم مبتدأ و لهم خبره و عند ظرف و العامل فيه معنىٰ الإستقرار

◁ التّفسير

و أذكروا **اِذْ قُلْتُمْ يٰا مُوسىٰ لَنْ نَّصْبِرَ** نفوسنا **عَلىٰ طَعٰامٍ وّٰاحِدٍ** و هو المنّ و السّلوىٰ **فَادْعُوا** فأسئل **لَنٰا رَبَّكَ يُخْرِج** اللّه **لَنٰا** أي لأجلنا **لَنٰا مِمّٰا تُنْبِتُ الْاَرْضُ مِنْ بَقْلِهٰا** الىٰ قوله: **بَصَلِهٰا**، قال موسىٰ **اَسْتَبْدِلُونَ**الطّعام **الَّذى هُوَ اَدْنىٰ** وأردىٰ و هو البَقل الىٰ أخره.

بِالَّذي هُوَ خَيْرٌ أعني به المنّ والسّلوىٰ الّذي إختاره اللّه لكم **اِهْبِطُوا مِصْراً** أي أنزلوا مصر **فَاِنَّ لَكُمْ** فيها **مٰا سَاَلْتُمْ** من البقل والقثاء و أمثالهما **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ** أي ألزموا الذّلة إلزاماً لا تَبرح عنهم كما يُضرب المعمار علىٰ الشّئ **وَبٰآؤُا** أي رجعوا منصرفين مُتحملين غضب اللّه **ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ كٰانُوا يَكْفُرُونَ بِاٰيٰاتِ اللّٰهِ** أي يجحدون حجّة اللّه وبيّناته و قيل المراد بأيات اللّه الإنجيل والفرقان **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** أي بغير جرمٍ كزكريا و يحيىٰ و غيرهما ذلك **بِمٰا عَصَوْا وَّكٰانُوا يَعْتَدُونَ** يتجاوزون عن الحقّ **اِنَّ الَّذينَ اٰمَنُوا** باللّه و برسوله **وَالَّذينَ هٰادُوا** وهم اليهود والنّصارىٰ أتباع المسيح **وَالصّٰابِئِينَ**أتباع نوح، **مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ** منهم وَ **عَمِلَ صٰالِحاً** مطابقاً لإيمانه **فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** لأنّه لا نضيع أجر المُحسنين **وَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** فى القيامة و **لاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ**.

إعلم أنّ بني إسرائيل لمّا وقفوا في التّيه ما وقفوا وأكلوا من طيّبات الرّزق من المّن والسّلوىٰ فقد ملّوا ولذلك قالوا لموسىٰ **يٰا مُوسىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلىٰ طَعٰامٍ وّٰاحِدٍ** أي لَن نطيق حبس أنفسنا علىٰ طعامٍ واحدٍ وأنّما قالوا طعام

واحد وهما أثنان لأنّهم كانوا يأكلون أحدهما بالأخر و قيل لتكرارهما في كلّ يومٍ وكيف كان فقد سألوا موسىٰ تبديل المَن والسّلوىٰ بالبَقل والقَثاء والفوم والعَدس والبَصل ممّا تنبته الأرض ولم يعلموا أنّ المنّ والسّلوىٰ خير ممّا كانوا يطلبونه من موسىٰ ولذلك قال موسىٰ لهم أي **اَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذي هُوَ اَدْنىٰ** البَقل والقَثاء بما هو خير منه و هو المَن والسّلوىٰ فالإستفهام للتّوبيخ والتّقبيح أي أنّ العاقل لا يفعل ذلك فأن أبيتم إلاّ عن ذلك أي **اِهْبِطُوا مِصْراً** اى أنزلوا مصراً فأنّ لكم ما سألتم، و اختلفوا في قراءة قوله تعالىٰ مصراً فمن قرأه بالتّنوين و هو أكثر القّراء أراد مصراً من الأمصار لا مصراً بعينه و من قرأه يترك التّنوين أراد به مصراً بعينه و هو مصر الفراعنة الّذي كانوا فيه من قبل.

قال الطّبري لا دلالة في كتاب اللّه علىٰ الصّواب من هذين التّأويلين و لا خبر به عن الرّسول يقطع مجيئه العُذر و أهل التّأويل متنازعون فيه فأولىٰ الأقوال أن يقال أنّ موسىٰ سأل ربّه أن يعطي قومه ما سألوه من نبات الأرض علىٰ ما بيّنه اللّه في كتابه وهم في الأرض تائهون فإستجاب اللّه لموسىٰ دعائه و أمره أن يهبط بمن معه من قومه قراراً من الأرض التّي تنبت لهم ما سأل لهم من ذلك و جائز أن يكون ذلك القرار مصر وجائز أن يكون الشّام و أمّا القراءة فأنّها بالألف والتّنوين أهبطوا مصراً و هي القراءة التّي لا يجوز عندي غيرها لإجتماع خطوط مصاحف المسلمين و إتّفاق قراءة القّراء علىٰ ذلك ولم يقرأ بترك التّنوين فيه وإسقاط الألف منه إلاّ من لا يجوز الإعتراض به علىٰ الحجّة فيما جاءت به من القراءة مستضيفاً بينها انتهىٰ.

وأنا أقول يمكن أن يُراد به مصر فرعون والتّنوين فيه في القراءات المُعتبرة مع أنّ فيه العلمّية و التأنيث لسكون وسطه كما في نوح و لُوط و هِند كسرة ودَعد فتحة و أمثالهما والحاصل أنّ وجود التّنوين و عدمه سيّان في المقام لمّا

قلنا من الوجه و عليه فالأقوىٰ في النّظر أنّ المراد من مصر في الآية هو ديار آل فرعون و أثارهم و أمّا أنّهم سكنوا الشّام بعد التّيه فلا ينافي ما ذكرناه.

و أنّ كان الثّاني أيضاً محتمل و لانمنعه و كيف كان لما ذكر اللّه صنوف نعمه علىٰ بني إسرائيل إجمالاً ثمّ تفصيلاً أراد أن يُبين مأل حالهم ليكون عبرة لِلنّظار و تبصرةً لأولي البصائر و تحذيراً للإنسان عن الحجود و الكفران المتتبّعين للخزي والهوان فقال و ضربت عليهم الذّلة و المسكنة أي جعلت محيطة بهم مشتملة عليهم كالقُبة المضروبة علىٰ الشّخص أو ألصقت بهم حتّىٰ لزمتهم ضربة لازب كما يُضرب الطّين علىٰ الحائط فيلصق بهم فاليهود صاغرون أذلاّء أهل مسكنة و مدقعة.

أمّا علىٰ الحقيقة و أمّا لتصاغرهم و تفارقهم خيفة أن تضاعف عليهم الجزية و هذا من جملة الأخبار عن الغيب الدّال علىٰ كون القرأن وحياً منزلاً من السّماء علىٰ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم هذا حالهم في العقبىٰ فذلك قوله تعالىٰ: **وَبَاۤءُو وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللّٰهِ** من قولك باء فلان بفلان اذا كان حقيقاً بأن يقبل لمساوته له و مكافاته أي صاروا أحقّاء بغضبه و هو إرادة إنتقامه ثمّ إستدّل علىٰ ما فعله بهم في الدّنيا والأخرة بقوله: **و ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ**بآيات اللّه أوّلاً و يقتلون النّبيين بغير الحقّ ثانياً و بما عصوا و كانوا يعتدون ثالثاً و من كان كذلك فهو مستوجب للخزي والعذاب في الدّنيا والآخرة.

أمّا الأوّل أعني كفرهم بآيات اللّه أي القرآن بل وبالتّوراة لأنّ الكُفر به مستلزم لِكفر بها هذان أريد من الأيات الأيات بحسب التّشريع و أمّا أن عممنا الأيات بأن يراد بها ما هو بحسب التّكوين والتّشريع فالمراد أنّهم كفروا بهما أمّا التّشريع فلّما قلنا من أنّهم كفروا بالتّوراة و ما جاء به موسىٰ من عند اللّه من الأحكام و أمّا التّكوين منها فبأنّهم كَفَروا بِنعم اللّه الّتي أنزل اللّه عليهم من المَن والسّلوىٰ والخروج من البَحر سالمين و أمثال ذلك فأنّها آيات تكوينيّة من اللّه

تعالىٰ وفي رأسها وجود موسىٰ إبن عمران الّذي نجّاهم من آل فرعُون الّذين كانوا يَسُومونهم سُوء العذاب يذّبحون أبنائهم ويَستحيون نِسائهم وهكذا ومن كان كذلك فهو مُستحقّ لِلعذاب في الآخرة والخزي والذّلة في الدّنيا و هذا هو الّذي فعل اللّه بهم لكفرهم بآيات اللّه تَشريعاً و تَكويناً، و أمّا قوله:**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** والبحث فيه يقع في مقامين.

أحدهما: قتلهم الأنبياء و ثانيهما أنّ هذا القتل منهم صَدر بغير الحقّ، أمّا المقام الأوّل أعني قتلهم الأنبياء فلا شكّ فيه مع أنّه من، عظم الكبائر بعد الشّرك باللّه و قد نقل أنّهم قتلوا في يوم واحد سَبعين نَبّياً و لذلك سلّط اللّه عليم بخت النّصر فَقتل منهم ما قتل كما يأتي في موضعه و أيضاً قتلوا يحيىٰ و زكرّيا و غيرهم كما هو مذكور في التّواريخ والسّير و أمّا المقام الثّاني و هو قوله: **بِغَيْرِ الْحَقِّ** ففيه وجهان:

أحدهما: أنّ القتل منهم لم يكن بشبهةٍ حَصَلت لهم توجب إستحقاق القتل بل كانوا قد تعمّدوا به و ذلک لأنّ الآتي بالباطل قد يكون إعتقده حقّاً لِشبهةٍ حصلت عنده وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً و لا شكّ أنّه أقبح من الأوّل.

ثانيهما: أنّ قوله: **بِغَيْرِ الْحَقِّ** للتّأكيد نحو قوله و من يدع مع اللّه إلٰهاً آخر لا برهان له به ومحال أن يكون لِمدّعي الإلٰه الثّاني بُرهان فكذلك في المقام محال أن يكون قتل الأنبياء بالحقّ، قال بعض المحقّقين فأن قلت قتل الأنبياء لا يكون إلاّ بغير الحقّ فما فائدة ذكره قلت معنىٰ أنّه قَتلوهم بغير الحقّ عندهم لأنّهم لم يقتلوا و لا أفسدوا في الأرض فيقتلوا و إنّما نَصحوهم و دَعُوهم الىٰ ما ينفعهم فقتلوهم فلو سألوا و أنصَفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يسّتحقون به القتل عندهم والحقّ في المقام أنّ قوله بغير الحقّ أنّما خرج مخرج الصّفة لِقتلهم أنّه ظلمٌ و ليس بحقٍّ فكان هذا تعظيماً للشنعة عليهم و معلوم أنّه لا يُقتل علىٰ الحقّ فصرّح قوله: **بِغَيْرِ الْحَقِّ** عن شُنعة الذّنب و وضوحه هذا كلّه

مضافاً الىٰ أنّ مفهوم الوَصف ليس بحجّةٍ علىٰ الأقوىٰ و أمّا قوله: **ذٰلِكَ بِمٰا عَصَوْا وَّكٰانُوا يَعْتَدُونَ** أي أنّهم ضُربت عليهم الذّلة والمَسكنة الىٰ قوله:**بِغَيْرِ الْحَقِّ** لأنّهم عَصوا وكانوا يعتدون، أو يقال بسبب إرتكابهم أنواع المَعاصي وإعتدائهم حُدود اللّه في كلّ شيءٍ مع كُفرهم بآيات اللّه و قتلهم الأنبياء، و قيل هو إعتدائهم في السّبت و قيل أنّه تأكيد بتكرير الشّئ بغير اللّفظ الأوّل، و قيل أنّ الباء في قوله :**بِمٰا عَصَوْا** بمعنىٰ، مَع، أي ذلك الكُفر والقَتل مع ما عَصوا سائر أنواع المعاصي وأعتدوا حدود اللّه في كلّ شئٍ هذا تمام في تفسير الآية الأولىٰ.

و أمّا الآية الثّانية و هي قوله: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هٰادُوا** ألخ

فالمراد بقوله: **هٰادُوا**هادوا، اليهود ويقوله النّصارىٰ أتباع المسيح فهذا ممّا لاكلام فيه و أمّا الصّابئون فقد إختلفوا فيهم.

فمنهم من يقول أنّ **الصّٰابِئِينَ** مَن ليس لهم كتاب **لأنّهم** قد خرجوا من دين أهل الكتاب قالوا أنّ الصّابئين جمع صابئ من صَبأت النّجوم اذا طلعت، وصبأت ثنّية الغلام اذا خرجت ولذلك أي لِخُروجهم من دين أهل الكتاب قيل لهم الصّابئون أي الخارجون من دين اللّه و قال قوم الصّابئين بدون **الهَمزة** من صبا يصبو اذا مالَ والقول الأوّل أشهَر.

وقال قومٌ هم طائفة من المجوس واليهود لاتؤكل ذبائحهم و لا تنكح نساءهم و قال قتادة هم قوم يعبدون الملائكة و يُصلّون لِلشّمس كلّ يوم خمس مرّات.

وقال قومٌ أنّهم يعبدون الكواكب ثمّ فيهم قولان:

الأوّل: أنّ خالق العالم هو اللّه سبحانه إلاّ أنّه أمَر بتَعظيم هذه الأجرام و إتّخاذها قبلة للصّلاة و الدّعاء.

الثّاني: أنّه سبحانه خلق الأفلاك و الكواكب وفوّض أمر التّدبير اليها فيجب

علىٰ البشير تعظيمها لأنّها هي الألهة المدّبرة لهذا العالم ثمّ أنّها تعبد اللّه سبحانه و ينسب هذا المذهب الىٰ الكلدّانيين الّذين جاءهم إبراهيم عليه السلام.

و قال الطّبري الصّائبون ليسوا بيهود و لا نصارىٰ و لا دين لهم.

و نقل عن السّدي أنّهم طائفة من أهل الكتاب و قال صاحب الملل و النّحل أنّ الصَّبوة في مقابلة الحنيفّية و يميل هؤلاء عن سُنن الحقّ وزيفهم عن نهج الأنبياء و قيل لهم الصّائبة اذا عرفت هذا فلنرجع الىٰ تفسير الآية فنقول إختلف المفّسرون في تفسير هذه الآية إختلافاً شديداً و ذلك لأنّ الّله تعالىٰ يقول: **إِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا** أي المؤمنون باللّه ورسوله والّذين هادوا، أي اليهود والنّصارىٰ، أي أتباع المسيح والصّابئين وهم المَجوس **مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ظاهر الآية يدّل علىٰ نفي الخوف و ثبوت الأجر لكلّ هؤلاء الفرق مع أنّا نقول أنّ اليهود والنّصارىٰ و الصّابئين و غيرهم من أصناف الكفّار الّذين لم يؤمنوا بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقبلوا الإسلام جزاءهم جهنّم و هم فيها خالدون والدّليل عليه قوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اَلْاِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى اَلْاٰخِرَةِ مِنَ اَلْخاٰسِرِينَ** و قد ذكروا للتّقصي عن هذا الإشكال وجُوهاً:

أحَدها: ما نقل عن ابن عبّاس و هو أنّ المراد بقوله الّذين أمنوا قبل مبعث محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بعيسىٰ مع البراءة عن أباطيل اليهود والنّصارىٰ مثل قسّ ابن ساعدة و بحيرة الرّاهب و حبيب النّجار و زيدبن عمرو بن نفيل و ورقة ابن نوفل و سلمان الفارسي و أبى ذرّ الغفاري و وفد النّجاشي فكأنّه قال أنّ الّذين أمنوا قبل مبعث محمّد صلى الله عليه وآله وسلم والّذين كانوا علىٰ الدّين الباطل الّذي لليهود والّذين كانوا علىٰ الدّين الباطل الّذي لِلنّصارىٰ وهكذا الصّابئين، كلّ من أمَن منهم بعد مبعث محمّد صلى الله عليه وآله وسلم باللّه واليوم الأخر و بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فلهم أجرهم عند ربّهم.

ثانيها: أنّه تعالىٰ ذكر في أوّل هذه السّورة طريقة المنافقين ثمّ طريقة اليهود فالمراد من قوله: **اِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا** هم المنافقون الّذين أمنوا باللّسان ولم يؤمنوا بالقلب أي أنّ الّذين أمنوا ظاهراً والّذين هادوا أي اليهود والنّصارىٰ والصّابئين من أمَن منهم بالإيمان الواقعي و عَمل صالحاً علىٰ هذا الأساس **فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**.

ثالثها: أنّ المراد بقوله تعالىٰ: **اِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا** هُم المؤمنون بمحمّدٍ ﷺ في الحقيقة و هو عائد الىٰ الماضي ثمّ قوله:**مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ** عائد الىٰ المستقبل فيكون المعنىٰ أنّ الّذين أمنوا باللّه وبرسوله حقّاً وإستمرّوا عليه في المستقبل **وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ اٰمَنَ** منهم كذلك فلا خوف عليهم و أجرهم علىٰ اللّه.

رابعها: أن يكون الواو في قوله: **وَالَّذِينَ هَادُوا** لِللإستئناف والتّقدير **اِنَّ الَّذِينَ اٰمَنُوا** بمحمّدٍ ﷺ **وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارىٰ وَالصَّابِئِينَ** من أمَن منهم باللّه واليوم الأخر وصار مؤمناً حقّاً **فَلَهُمْ اَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ** والمقصود من أمن منهم كمن أمَن و هو ليس منهم فأنّ الملاك هو الإيمان الواقعي و قد حصل علىٰ الفرض.

خامسها: ما روي عن ابن عبّاس أيضاً أنّه قال هذه الآية مَنسوخة بقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اَلْإِسْلاٰمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ** نقل هذا القول عنه في المجمع ثمّ قال و هذا بعيد لأنّ النّسخ في الأحكام الشّرعية و لا يجوز أن يدخل الخبر الّذي هو متضمّن للوعد فالأولىٰ أن يُحمل علىٰ أنّه لم يصحّ هذا القول عن ابن عبّاس.

سادسها: ما ذهب اليه بعض المفسّرين و هو أنّ معنىٰ الآية أنّ هذه الفرق الأربع اذا أمنوا باللّه و يدخل فيه الإيمان بكلّ ما أوجبه كالإيمان برسله و أمنوا باليوم الأخر وبما وعد فيه فأنّ أجرهم متّيقن جارٍ مجرىٰ الحاصل عند اللّه تعالىٰ واللّه تعالىٰ أعلم بكلامه.

■

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿۶۳﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿۶۴﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿۶۵﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿۶۶﴾

◁ اللّغة

أَخَذْنَا:الأخذ حوز الشيء وتحصيله.

مِيثَاقَكُمْ: الميثاق بكسر الميم عهدٌ مُؤكدٌ بِيمين و هو مِفعالٌ من الوِثاق و هو في الأصل الحبل.

تَوَلَّيْتُمْ: أي أعرضتم.

اعْتَدَوْا: من العدو و هو التّجاوز ومنافاة الإلتئام والإعتداء مجاوزة الحقّ.

قِرَدَةً : جمع قِرَد.

خَاسِئِينَ: يقال خَسَأت الكلب فخسأ أي زجرته مُستهيناً به فإنزجر.

نَكَالًا: نَكَل عن الشيء ضعف و عجز، **نَكلتُ**، أي قيّدتُه والنّكل قيد الدّابة و حديدة اللّحام.

◁ الإعراب

فَوْقَكُمُ الطُّورَ ظرف، لِرفعنا **بِقُوَّةٍ**، في موضع نصب على الحال المقدّرة و صاحب الحال الواو في خذُوا**فَلَوْلَا** مركبة من لو، و، لا، **فَضْلُ اللَّهِ** مُبتدأ والخبر محذوف و تقديره لولا فضل اللّه حاضر **عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا**، **علمتُم** بمعنى

عَرفتم مُتعدّي الىٰ مفعولٍ واحد مِنْكُمْ في موضع نصب علىٰ الحال، من الّذين إعتَدوافِي السَّبْتِ متعلّق بإعتَدوا نَكَالاً مفعول ثانٍ و هاء مفعول أوّل.

◁ التّفسير

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ الىٰ قوله: **تَتَّقُونَ** والبحث يقع في مسائل

المسألة الاُولىٰ:، في تفسير قوله: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ** أي وإذكروا إذ أخَذنا ميثاقكم والخطاب لبني إسرائيل إختلفوا في المراد بالميثاق، فمنهم من يقول أنّ المراد به العَهد الّذي جَعل اللّه الخلق عليه من التّوحيد والعَدل ونصب الدّلائل القاطعة بالحجّج الواضحة والبراهين السّاطعة علىٰ ذلك وعلىٰ صدق الأنبياء والرُّسل و قيل المراد بالمِيثاق هو الّذي أخَذَه اللّه علىٰ الرّسل في قوله: **وَإِذ أَخَذَ اللّه مِيثَاقَ النَّبِيِّين** و قيل هو أخذ التّوراة عن موسىٰ ذكر هذه الوجوه الطّبرسي في المجمع.

و قال بعض المفسّرين المراد بالمِيثاق العُهود الّتي أخَذَها اللّه عنهم و هي أن يعملوا بما في التّوراة وما في القرآن الّذي أعطاه اللّه موسىٰ و أن يقرّوا بما فيه من نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و وصيّه علّي عليه السلام والطّيبين من ذريّتهما و أن يؤدوه الىٰ أخلافهم قرناً بعد قرن فأبوا قبول ذلك وإستكبروا لقوله تعالىٰ: **ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ.**

المسألة الثّانية: في تفسير قوله تعالىٰ: **وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**، قال بعض المفسّرين أنّ موسىٰ لمّا جاء بني إسرائيل من عند اللّه بالألواح فيها التّوراة قال لهم خُذوها والتزموا بها فقالوا لا، إلاّ أن يكلمنا اللّه بها كما كلمك فصعقوا ثمّ أُحيوا فقال خذوها فقالوا لا فاقر اللّه الملائكة فأفتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله وكذلك كان عسكرهم فَجعل عليهم مثل الظّلة وأتوا بِبحرٍ من نار جهنّم ونار من قِبَل وجوههم و قيل لهم خذوها و عليكم الميثاق إلاّ

تضيّعوها وإلاّ سقط عليكم الجَبل فَسجدوا توبةً لِلّه و أخذوا التّوراة بالميثاق قال الطّبري عن بعض العلماء لو أخذُوها أوّل مرّةٍ لم يكن عليهم ميثاق وكان سُجودهم علىٰ شِقٍّ لأنّهم كانوا يرقبون الجَبل خَوفاً فلمّا رَحمهم اللّه قالوا لا سجدة أفضل من سجدةٍ تقبلها اللّه ورَحِم بها عباده فأمروا بسجودهم علىٰ شِقٍّ واحد انتهىٰ ما قاله القُرطّبي في تفسيره.

أقول ما ذكره بعيد جدّاً و ذلک لأنّ جَبلاً طوله فرسخ في مثله أي عَرضه أيضاً فَرسخ ممّا لا يكاد يقبله العقل السّليم بل وجود مثل هذا في العالم ممّا لم نسمعه الىٰ الأن و كيف يقبل وجود جبلٍ كذلك في الخارج ونظيره لم يوجد أبداً.

و بعبارةٍ أخرىٰ نحن لا نمنع إمكان هذا وأعظم منه لأنّ اللّه تعالىٰ علىٰ كلّ شيءٍ قدير بل نَمنع وقوعه في الخارج إذ لو وُجد الجبل علىٰ ما قاله القُرطّبي فلقائلٍ أن يقول أينَ هذا الجَبل بهذه المساحة ولَم يَره أحد في طول التّاريخ ثمّ هذا الإشكال بعينه في عَسكرهم وكيف يقول وكذلك كان عسكرهم، يعني كان عسكرهم فرسخ في فرسخ مثل الجَبَل كلّ هذا من الخرافات والأوهام الباطلة الّتي لا تَستند الىٰ آيةٍ أو رواية صحيحة كأكثر ما رواة في تفاسيرهم والعَجب من الرّازي مَع تضّلعه في العقّليات والنّقليات أنّه أيضاً وقع في هذه الوَرطة ونقل عن إبن عبّاس أنّ اللّه تعالىٰ أمَرَ جَبلاً من جبال فلسطين فإنقَلع من أصله حتّىٰ قام فوقهم كالظّلة وكان المعسكر فرسخاً في فرسخ فأوحىٰ اليه اليهم أن أقبلوا التّوراة و إلاّ رميتُ عليكم الجبل فلمّا رأوا أن لا مَهرب قبلوا التّوراة بما فيها وسجدوا للفَزع سجوداً يلاحظون الجَبل فلذلك سَجدت اليهود علىٰ أنصاف وجههم انتهىٰ.

وجه التّعجب أنّ الرّازي وأن لم يقل في طول الجَبل وعرضه ما قاله القرطّبي وكذلك لم يقل وكان عسكرهم كذلك، بل قال كان المُعسكر فرسخاً

في فرسخ، أي الأرض الّتي كان العَسكر عليها و هو أمرٌ معقول إلاّ أنّه قال في آخر كلامه فلمّا رأواأن لا مَهرب قبلوا التّوراة بما فيها، و هذا الكلام منه صريحٌ في الجَبر المَمنوع شَرعاً و عقلاً كما يأتي البحث فيه في محلّه و كيف يقبل العقل أنّ اللّه أوحىٰ اليهم أن أقبلوا التّوراة و إلاّ رَميتُ الجبَل عليكم، كلّ ذلك من الإستخراجات الظّنية و ليس من تفسير القرآن بشئٍ والّذي نقول به طبقاً لنصّ الآية أنّ موسىٰ لمّا جاءتهم بالألواح فرأوا فيها ما خالف طباعهم وغرائزهم كما هو الشأن في أكثر التّكاليف الشّرعية في جميع الأديان ولذلك قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم حُفّت الجنّة بالمَكاره وحُفّت النّار بالشّهوات، فلا محالة كبرت عليهم التّكاليف فأبوا قبولها فأمَر اللّه جبرئيل بقطع الطُّور من أصله و رَفَعه وظَلَّله فوقهم و قال لهم أن قبلتم وإلاّ أُلقي عليكم فخافوا وقبلوا إلاّ من عَصمه اللّه من العباد فأنّه قَبله طائعاً مختاراً ثمّ لما قبلوه سجدوا وعفّروا وكثير منهم عفّر خَدّيه لا يريد الخُضوع لِلّه ولكن نظر الىٰ الجَبل هل يقع هذا أم لا وأخرون سجدوا طائعين مختارين فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أحمدوا اللّه معاشر شيعتنا علىٰ توفيقه إيّاكم فأنّكم تعفّرون في سجودكم لا كما عفّر كَفَرة بني إسرائيل ولكن كما عَفّره خيارهم هكذا.

رُوي عن العسكري عليه السلام في تفسير البُرهان: ويظهر منه أنّ قوم موسىٰ بعد رؤيتهم الجَبَل فوق رؤوسهم صاروا فرقة آمَنَت للخوف من سقوط الجَبَل وهم المنافقون وفرقة آمنت بالطّوع والرّغبة وهم المؤمنون حقّاً وهذا بعينه شأن المسلمين في صدر الإسلام فأنّ بعضهم أمنوا باللّه وبرسوله خوفاً علىٰ دمائهم وأموالهم أو طمعاً في الدّنيا وزخارفها باللّسان دون القلب والبعض الأخر لا كذلك أمثال سلمان و أبي ذرّ و غيرهما و من الأوّل معاوية و أبو سفيان وغيرهما من المنافقين الّذين أمنوا في

فتح مكّة خوفاً ورُعباً و ليس هذا من الجَبر فأنّ اللّه تعالىٰ لم يُجبرهم علىٰ قبول الإسلام بل هم أنفسهم أجَبَروا نفوسهم عليه وبين المقامين بونٌ بعيد لأنّ الجَبر المنّفي هو الأوّل وأمّا الثّاني فليس منه لأنّه كان بإختيارهم.

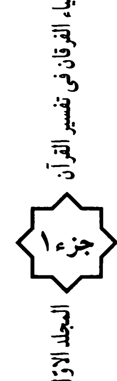
و أمّا طول الجَبل و عَرضه و مقداره فهو ممّا لا نعلمه و لم يرد بهذه الأمور من الأخبار الواردة ما يُعتمد عليه فهو داخل تحت قوله عليه السلام أسكتُوا عمّا سكتَ اللّه عنه.

و أمّا الطُّور فالظاهر أنّ المراد به طور سيناء و هو إسمٌ للجَبل الّذي كلّم اللّه عليه مُوسىٰ فأنّ الألف واللاّم فيه يدّل علىٰ أنّ المراد به الجَبل المعهود ولذلك عُرّف فمام نقل عن مجاهد وقتادة من أنّ الطّور إسم لكلّ جَبلٍ لا دليل عليه اذ لو كان كذلك يقال ورَفَعنا فوقكم طُورٌ، ويؤيّد ما ذكرناه ما قاله الرّاغب في المفردات حيث قال الطُّور إسم جَبَل مخصوصٌ.

المسئلة الثّانية: في قوله تعالىٰ: **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** أي خُذوا ما أتياناكم من التّوراة بقُوةٍ أي بجدٍّ ويقين لاشكّ فيه.

و هو المرّوي عن ابن عبّاس و غيره وعن العياشي أنّه سُأل عن الصّادق عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ خذوا ما أتيناكم بقوّةٍ، أبقوّة الأبدان أم بقوّة القلوب فقال بهما جميعاً.

و قيل أخذه بقوّةٍ هو العمل بما فيه بعزيمةٍ وجدٍّ و قيل بنيةٍ صادقةٍ و إخلاص، و أذكروا ما فيه أي تَدّبروه و أحفظوا أوامره و وعيده و لا تنسوه و لا تُضّيعُوه و قيل معناه و أذكروا ما في تركه من العقوبة و قيل معناه أعملوا بما فيه و لا تتركوه.



أقول ما ذكروه في تفسير الكلام لا بأس به إلاّ أنّه لا يناسب لفظ الآية و ذلك لأنّه تعالىٰ لم يقل وتذّكروا ما فيه، أو أعملوا وأمثال ذلك و قال وأذكرُوا، و هذا

اللّفظ يُرشدنا الىٰ أنّ المراد وأذكروا ما فيه لغيركم من الجـهّال والعـوام و لا تكتمُوا شيئاً عنهم و أنّما قلنا ذلك لأنّا إستندنا من سائر الأيـات أنّـهم كـانوا يكتمون الحقائق عن عوامهم و لا يذكرون لهم ما في التّوراة.

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبٰاطِلِ وَ تَكْـتُمُونَ ٱلْـحَقَّ وَ أَنْـتُمْ تَعْلَمُونَ**[١]

فأن فعلتم ذلك أي أن أخَذتُم ما فيه بقوّة الإيمان وعمِلتُم ثمّ ذكـرتم مـا عملتُم لغيركم فأنتم من المُتّقين، ويمكن أن يكون المعنىٰ لا تغفلوا عمّا فيه و ذلك لأنّ لازم ذكر الشّيئ التّوجه اليه وعدم الغفلة عنه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اذْكُرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا**[٢].

قال اللّه تعالىٰ:**فَاذْكُرُوا ٱللّٰهَ كَمٰا عَلَّمَكُمْ مٰا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** [٣].

قال اللّه تعالىٰ:**يٰآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا اذْكُرُوا ٱللّٰهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**[٤]. وغيرها من الأيات هذا تمام البحث في هذه الأية.

وأمّا قوله تعالىٰ: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ**الىٰ أخر الأية، ففيه إيماء بـل تصّريح بأنّ القوم تخلّفوا عمّا أُمِروا به و أعَرضوا عن التّوراة عَملاً و نَـبَذوها وراء ظهورهم و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ** و أعَرضتُم عن العَهد الّذي أخَذناه عليكم بعد اعطائكم المواثيق، **فَلَوْلاٰ فَضْلُ اللّٰهِ** أي لولا أن تفضل اللّه عليكم ورَحمته التّي رَحم اللّه بها إيّاكم لكنتم من الخاسرين، قيل فضل اللّه الإيمان ورَحمته الفرقان، و قيل فلولا فضلي عليكم في رفع الجَـبل فـوقكم للتّوفيق واللّطف الّذي تُبتُم عنده حتّىٰ زال العَذاب عنكم وسـقوط الجَـبل، لكنتم من الخاسرين، قال بعض المفسّرين قد يُعلم في الجملة أنّهم بعد قبول التّوراة و رَفع الطّور تولّوا عن التّوراة بأمور كثيرة فحَرّفوها و تركوا العَمل بها و

١- آل عمران= ٧١
٢- الأنفال= ٤٥
٣- البقرة= ٢٣٩
٤- الأحزاب= ٤١

قتلوا الأنبياء و كَفروا بهم و عَصوا أمرهم و لعلّ فيها ما إختّص به بعضهم دون بعضٍ و منها ما عمله أوائلهم و منها ما فَعله مُتأخرُهم و لم يزالوا في التّيه مع مشاهدتهم الأعاجيب ليلاً و نهاراً يُخالفون موسىٰ و يَعترضون عليه و يَلقونه بكلّ أذىً ويُجاهرون بالمعاصي في معسكرهم ذلك حتّىٰ لقد خَسَف ببعضهم و أحرقت النّار بعضهم و عُوقبوا بالطّاعون وكلّ هذا مذكور في تراجم التّوراة التّي يقرّون بها ثمّ فَعل متأخروهم ما لا خفاء به حتّىٰ عُوقبوا بتَخريب بيت المقدّس وكفروا بالمسيح و همّوا بقتله والقرأن و أن لم يكن فيه بيان ما توّلوا به عن التّوراة فالجملة معروفة و ذلک أخبار من اللّه تعالىٰ عن عناد أسلافهم فغير عجيب إنكارهم ما جاء به محمّد صلى الله عليه و آله و سلم من الكتاب و جحودهم لحقّه و حالهم في كتابهم و نبّيهم ما ذكر واللّه أعلم انتهىٰ.

و أمّا قوله: **فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُه لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ** ، فيمكن أن يراد به لو ما تَفضل اللّه به عليكم من إمهالكم وتأخير العذاب عنكم لكنتم من الخاسرين أي من الهالكين الّذين باعوا أنفسهم بنار جهنّم فدّل هذا القول علىٰ أنّهم أنّما خرجوا من هذا الخسران لأنّ اللّه تعالىٰ تفضّل عليهم بالإمهال حتّىٰ تابوا، و قيل أنّ الخبر قد انتهىٰ عند قوله تعالىٰ: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ** ثمّ قيل **فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُه** رجوعاً بالكلام الىٰ أوله أي لولا لطف اللّه بكم برَفع الجَبل فوقكم لدمتم علىٰ ردّكم الكتاب ولكنّه تفضّل عليكم ورحمكم فلطف بكم بذلك حتّىٰ تبتم.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ** فقد مرّ في شرح اللّغات أنّ قوله علمتم بمعنىٰ حرفتم، أي أنّكم عرفتم الّذين إعتدوا و جاوزوا ما أُمروا به من ترك الصّيد يوم السّبت، فقلنا لهم أي قلنا للمُعتّدين كونوا قِردةً خاسئين، هذا إخبارٌ عن سرعة فعله ومسخه إيّاهم لأنّ هناك أمرٌ أو معناه قال الطّبرسي انتهى.

و نحن ننقل قصّة أصحاب السّبت أوّلاً ثمّ نقول في تفسير الآية ما فَهمناه أو وصل الينا من المفسّرين.

فنقول رُوي في البحار بأسناده عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال: وَجدنا في كتاب علّيٍ عليه السلام أنّ قوماً من أهل أبلة من قوم ثمود سَبقت الحيتان اليهم يوم السّبت ليَختبر اللّه طاعتهم في ذلك فَشرعت اليهم يوم سبتهم في ناديهم و قدّام أبوابهم في أنهارهم وسَواقيهم فَبادروا اليها فأَخَذوا يَصطادونها و لَبثوا في ذلك ما شاء اللّه لا ينهاهم عنها الأحبار ولا يمنعهم العلماء من صَيدها ثمّ أنّ الشّيطان أوحىٰ الىٰ طائفة منهم أنّما نُهيتم عن أكلها يوم السّبت و لم تُنهوا عن صيدها فأصطادوا يوم السّبت و كلوها فيما سوىٰ ذلك من الأيام فقالت طائفة منهم الأن نصطادها فعتت و إنحازت طائفة أخرىٰ منهم ذات اليَمين فقالوا ننهاكم عن عقوبة اللّه أن تتَّعرضوا بخلاف أمره و إعتَزلت طائفة منهم ذات اليسار فتَنكبت و لم تعظهم فقالت للطائفة التّي و عَظتهم لِمَ تَعظون قوماً اللّه مُهلكهم أو مُعذّبهم عذاباً شديداً فقالت الطّائفة التّي وعَظتهم معذرة الىٰ ربّكم ولعلّهم يتّقون قال فقال اللّه عزّ وجلّ فلمّا نسوا ما ذكّروا به يعني لمّا تركوا ما وعظوا به ومضوا علىٰ الخطيئة فقالت الطّائفة التّي وعَظتهم لا واللّه لا نجا معكم و لا نُبايتكم اللّيلة في مدينتكم هذه التّي عَصيتم اللّه فيها مخافة أن ينزل بكم البلاء فيعمّنا معكم قال فَخرجوا من المدينة مخافة أن يُصيبهم البلاء فَنزلوا قريباً منها فباتوا تحت السّماء فلمّا أصبح أولياء اللّه المُطيعون لأمر اللّه غَدوا لينظروا ما حال أهل المعصية فأتوا باب المدينة فاذا هو مصمت فَدَّقوه فلم يُجابوا ولم يسمعوا منها حِسّ أحد فَوضعوا سُلّماً علىٰ

سور المدينة ثمّ أصعدوا رجلاً منهم فأشرف علىٰ المـدينة فـنَظر فاذا هو بالقوم قِردة يتّغاوون فقال الرّجل لأصـحابه يـاقوم أرىٰ واللّه عَجباً قالوا وما ترىٰ قال أرىٰ القوم قد صاروا قِرَدة يتّعاوون لها أذناب فكسروا الباب قال فَعَرفت القِردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القِردة فقال القوم للقِردة ألَم ننَهكم فقال عليٌ عليه‌السلام واللّه الّذي فَلَق الحبّة وبَرأ النّسمة أنيّ لأعرفُ أنسابها من هذه الأمّة لا يَنكرون ولا يُغيرون بل تَركوا ما أمـروا بـه فـتّفرقوا فَبُعداً للقوم الظّالمين فقال اللّه أنـجينا الّـذين يَـنهون عـن السّـوء وأخَذنا الّذين ظلموا بعذابٍ بئيس بما كانوا يفسقون انتهىٰ.

أقول وقد رُوي عن علّي ابن الحسين عليه‌السلام أيضاً هذه القصّة إن شئت فَراجع البحار[1]

و في المقام أبحاث:

الأوّل: قال صاحب الكشّاف السّبت مصدر سَبَتت اليهود اذا عَظمت يوم السّبت فأن قيل لِما نَهاهم اللّه عن الإصطياد يوم السّبت فما الحكمة في أن أكثر الحيتان يوم السّبت دون سائر الأيام كما قال تعالىٰ:**تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ**[2] وهل هـذا إلاّ إثـارة الفتنة وإرادة الإضلال.،

قلنا إمّا علىٰ مذهب أهل السنّة فإرادة الإضلال جائزة من الّله تعالىٰ و أمّا علىٰ مذهب الحقّ فالتّشديد للتّكاليف حَسَنٌ لغرض إزدياد الثّواب و انّ شئت قلت للإختيار والإمتحان.

الثّاني: أنّ قوله تعالىٰ **كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** ليس بأمرٍ لأنّهم ماكانوا قادرين علىٰ أن يقلبوا أنفسهم علىٰ صورة القِردة بل المراد منه سرعة التّكوين كقوله

۱- البحار ط كمباني ج ۵ص ۳۴۵ ۲- الاعراف = ۱۶۳

تعالىٰ :**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١] وكقوله تعالىٰ: **قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ**.

والمعنىٰ أنّه تعالىٰ لم يَعجزه ما أراد إنزاله من العقوبة بهؤلاء بل لمّا قال لهم **كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** صاروا كذلك أي لمّا أراد ذلك بهم صاروا كما أراد و هو كقوله: **كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ ٱللّٰهِ مَفْعُولًا**[٢]

الثّالث: ما معنىٰ المَسخ في المقام فأنّ قوله تعالىٰ كونوا قِردةً خاسئين، يدّل علىٰ المَسخ لأنّه علىٰ ما فَسّره الرّاغب في المفردات تشويه الخَلق والخُلق من صورةٍ الىٰ صورةٍ قال بعض الحكماء المَسخ علىٰ ضربين:

مسخٌ خاصّ يحصل في العَين و هو مسخ الخلق، ومسخٌ قد يحصل في كلّ زمانٍ و هو مسخ الخُلق و ذلک أن يصير الإنسان مُتَخَلقاً بخلقٍ ذميم من أخلاق بعض الحيوانات نحو أن يصير في شدة الحرص كالكلب وفي الشّره كالخنزير وفي الغمارة كالثّور اذا عرفت المَسخ بقسميه فنقول:

ما المراد بالمَسخ في المقام هل هو مسخ الخَلق أو مسخ الخُلق قال بعض المحقّقين كلاهما محتمل، والحقّ خلافه فأنّ قوله تعالىٰ: **كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** صريحٌ في المسخ بالمعنىٰ الأوّل و هو مَسخ الخَلق أعني تحويل الشّئ من صورةٍ الىٰ صورةٍ و ذلک لأنّ الإنسان اذا صار قرداً فلا محالة زالت صورة الإنسانيّة عنه وإلاّ لا يطلق عليه إسم القِرد و هو واضح وقد قال اللّه تعالىٰ في موضع أخر وجعل منهم القِردة والخنازير.

و قال تعالىٰ: **وَ لَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ**[٣] يقال مَسختُ النّاقة أي أنضيتُها و أزَلتُها حتّىٰ أزَلتُ خِلقتها عن حالها و علىٰ هذا فقول بعض المفسّرين من العامّة أنّ المراد بالأية هو مَسخ قلوبهم بمعنىٰ الطّبع و الخَتم:

١- النحل = ٤٠ ٢- النساء= ٤٧
٣- يس = ٦٦

قال اللّه تعالى: **خَتَمَ اَللّهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ**[۱].

قال اللّه تعالى: **يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلٰى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّٰارٍ**[۲].

قال اللّه تعالى: **يَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلٰى قُلُوبِ اَلْكٰافِرِينَ**[۳].

و أمثالها من الأيات لا معنىً له بل هو مخالف لصريح الآية وكأنّه لم يفرق بين المَسخ في الخُلق والمَسخ في الخَلق وأنّ ما ذكره من الأوّل والأية من الثّاني و بينهما بون بعيد فالأية دالّة علىٰ مَسخ الصُّورة بلاكلام ثمّ أنّه إستّدل علىٰ مُدّعاه بأمرين:

أحدهما: أنّ الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد والبُنية المحسُوسة فاذا أبطلها و خَلق في تلك الأجسام تركيب القِرد و شكله كان ذلك إعداماً للإنسان وإيجاداً للقِرد فيرجع حاصل المَسخ علىٰ هذا القول الىٰ أنّه تعالىٰ أعدَم الأعراض التّي بإعتبارها كانت تلك الأجسام فيها الأعراض التّي بإعتبارها كانت قرداً فهذا يكون إعداماً وإيجاداً لا أنّه يكون مَسخاً.

ثانيهما: أن جوّزنا ذلك لما أمنّا في كلّ ما نراه قِرداً وكلباً أنّه كان إنساناً عاقلاً و ذلك يُفضي الىٰ الشكّ في المشاهدات.

أمّا الجواب عن الأوّل فبأنّ الإنسان هو هذا الهيكل المشاهد والبُنية المحسوسة أوّل الكلام ومن أين ثَبت له هذا وما الدّليل عليه، بل الإنسان أمرٌ وراء هذا الهيكل المحسوس والبُنية المحسُوسة كما ثَبت في محلّه ولذلك تقول جسمي و يَدي و رجلي و عيني فالجسم و أعضاءه مضاف الىٰ الإنسان وإلاّ يلزم من قولك جسمي إضافة الشّئ الىٰ نفسه هذا أوّلاً.

ثانياً نقول أنّ الجسم والأجزاء في الإنسان متبدلة مُتّغيرة و هو واضح من بَدو توّلده الىٰ أخر عُمره فلو كان الجسم وما يتّعلق به هو الإنسان يلزم التّغير

۱- البقرة= ۷ ۲- الغافر= ۳۵
۳- الاعراف = ۱۰۱

والتّبدُل في الإنّسانية و لم يقل به أحَد و تفصيل الكلام في هذا البحث خارج عن طَور الكتاب.

والّذي نقول في المقام أنّ الجسم مُرَّكب وألةٌ للإنسان للوصول الىٰ الكمال و اذا كان كذلك فالإنسان شيئ والهَيكل المحسوس شيئ أخر متّعلق به ثمّ أنّ هذا الهَيكل المحسوس له صورة و مادّة كما هو الشّأن في كلّ الأجسام والصّورة علىٰ قسمين:

صورة نوعيّة وصورة جسميّة و قد ثبت أنّ شيئيّة الشّئ بصورته لا بمادّته فأنّ الصُّورة ما به الشّئ هو أيضاً قد ثبت أنّ المادّة في جميع المراحل محفوظة والصُّورة مُتبّدلة مُتّغيرة كما أنّ الماء يصير بخاراً لم يصير ماءً ثانياً فلولا بقاء المادّة في الصُّورتين كيف يكون ذلك أَلَيس أنّ الماء اذا صار بخاراً مادّة المائيّة فيه محفوظة فأن كان فهو المطلوب.

و أن لم يكن فكيف يصير البخار ماءً اذا عرفت هذا فأعلم أنّ المسخ عبارة عن تحويل صورة الإنسانيّة بصورة القِردة وأن شئت قلت تغييرها و تبديلها مع بقاء المادّة فليس هذا من قبيل الإعدام والإيجاد بل من تغيير الصّورة الىٰ صورةٍ أخرىٰ لأنّ الإعدام لا يكون إلاّ بإعدام المادّة والصّورة معا و أمّا في صورة بقاء المادّة لا يصدق الإعدام بل هو خلعٌ ولَبس وتفصيل الكلام في مباحث الحَشر والنَّشر والمعاد إن شاء اللّه تعالىٰ.

الجواب عن الثّاني: بأنّ إمكان وقوع المَسخ وجوازه في مكانٍ خاصّ وزمانٍ خاصّ بالنّسبة الىٰ أشخاص معينّة لا يوجب الشكّ في المشاهدات في جميع الأزمنة مضافاً الىٰ قيام الإجماع من الأمّة على أنّ المسخ وما شابهه لا يكون في هذه الأمّة وأنّما وَقع ما وَقع في الأمم السّالفة علىٰ ما صَرَّح به الكتاب.

وأمّا قوله تعالىٰ: **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** فإختلفوا في مرجع الضّمير في قوله: **فَجَعَلْنَاهَا** فقال الأخفش الىٰ رجوعه الىٰ القِردة أي جَعلنا القِردَة نكالاً لما بين يَديها الخ.

و قال بعضهم أنّ الضّمير يرجع الىٰ المَسخة التّي مَسخُوها.

ثالث الأقوال: رجوعه الىٰ أصحاب السّبت أي جَعلنا أصحاب السّبت نكالاً.

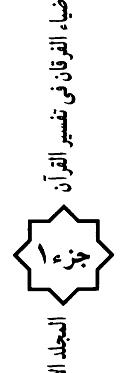
رابعها : رجوعه الىٰ القرية أي جَعلنا قريتهم نكالاً.

خامسها: رجوعه الىٰ الأُمّة أي جَعلنا هذه الأُمّة نكالاً والكلّ محتمل و الأحسن رجوعه الىٰ القِردَة و هو الأظهر، ثمّ أنّ النّكال العقوبة الغليظة الرّادعة للنّاس عن الإقدام علىٰ مثل تلك المعصية وأصله من المنع والحَبس و منه النّكول عن اليمين و هو الإمتناع منها ويقال للقيد النّكل وللجام الثّقيل أيضاً النّكل لما فيهما من المنع والحَبس:

قال اللّه تعالىٰ:**إِنَّ لَدَيْنَآ أَنْكَالًا وَ جَحِيمًا**[1]

قال اللّه تعالىٰ:**وَ ٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا**[2]

والمعنىٰ في الآية أنّا جعلنا ماجرىٰ علىٰ هؤلاء القوم عقوبة رادعة لغيرهم أي لم نقصد بذلك ما يَقصدُه الأدميون من التّشفي أنّما يصّح صدوره مِمّن تضّر به المعاصي وتنقص من ملكه وتُؤثر فيه و أمّا نحن فأنّما نعاقب لمصالح العباد فعقابنا زجرٌ ومَوعظة ولذلك قال بعض أرباب التّحقيق أنّ اليسير من العقوبة لا يوصف بأنّه نكال حتّىٰ اذا عظم و كثر و إشتهر يوصف به فكأنّه تعالىٰ لمّا بيّن ما أنزَله بهؤلاء القوم الّذين إعتدوا في السّبت وإستّحلوا من إصطياد الحيتان وغيره ممّا حرَّمه عليهم إبتغاء الدّنيا ونقض ما كان منهم من المواثيق أنزل بهم عقوبة و جَعَلها نكالاً لما بين يَديها الخ عقوبةً علىٰ ما صَدر منهم من الذّنب و لذلك أتاه بالفاء المفيد للتّفريع أي أنّ العقوبة النّازلة بهم فرعٌ علىٰ عصيانهم و تَمَّردهم عمّا أُمروا به.



١- المزمل = ١٢ ٢- النساء= ٨٤

أمّا قوله تعالىٰ: **لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** ففيه وجوه:

أحدها: أي لما قبلها و ما معها و ما بعدها من الأُمم والقرون لما ذكر في كتب الأوّلين فإعتبروا بها من بَلغ اليه خبر هذه الواقعة من الأخرين.

ثانيها: أُريد بما بين يَديها ما يحضرها من القرون والأُمم.

ثالثها: المراد أنّه تعالىٰ جَعَلها عقوبة لجميع ما إرتكبوه من قبل هذا الفعل و ما بعده و هو قول الحَسن و أمّا قوله تعالىٰ: **وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ** فالمقصود أنّ مَن عَرف الأمر الّذي نَزل بهم يتّعظ به ويخاف إن فعل مثل فِعلهم أن ينزل به مثل ما نَزل بهم و أن لم ينزل عاجلاً فلابدّ من أن يخاف من العقاب الأجل الّذي هو أعظم وأدَوم و أمّا تخصيص المتّقين بالذّكر فالوجه فيه ما مضىٰ عند قوله تعالىٰ في أوّل السُّورة: **هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** فأنّ غيرهم لإنغمارهم في الشّهوات النّفسانية و إنهماكهم في اللّذات الحسيّة الدّنيوية و حُبّهم للدّنيا و زخارفها و بالجملة غفلتهم عن عواقب العصيان والطّغيان لا يتّعظون بهذه المواعظ التّكوينية فضلاً عن المواعظ التّشريعية.

لقوله عليه السلام ما أكثر العِبَر وأقلّ الإعتبار ولِنُشر الىٰ بعض ما وَرد في الباب.

روىٰ علّي ابن إبراهيم في تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال سيكون قومٌ يبيّتون علىٰ اللَهو و شرب الخمر والغناء فبينما هم كذلك مسخوا من ليلتهم و أصبحوا قِردة وخنازير و هو قوله تعالىٰ و أحذروا أن تعتدّوا كما إعتّدىٰ أصحاب السّبت فقد كان أُملي لهم حتّىٰ أشروا وقالوا أن السّبت لنا حلال و أنّما كان حُرم علىٰ أولادنا وكانوا يعاقبون علىٰ إستحلالهم السّبت فأمّا نحن فَليس علينا حرام وما زلنا بخير منذ إستحللناه وقد كثرت أموالنا و صحّة أجسامنا ثمّ أَخَذهم الله ليلاً وهم غافلون و هو قوله و

أحذروا أن يحلّ بكم مثل ما حَلَّ بمن تعّدىٰ وعصىٰ انتهىٰ.

و عن كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه عن جدّه عليه السلام قال المسوخ من بني آدم ثلاثة عشر صِنفاً الىٰ أن قال فأمّا القِردة فكانوا قوماً ينزلون علىٰ شاطئ البحر إعتدوا في السّبت فصادوا الحيتان فَمَسخهم اللّه قِردة انتهىٰ.

و فيه أيضاً عن جعفر بن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عن علّي ابن أبي طالب عليه السلام قال شألتُ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن المَسُوخ فقال هم ثلاثة عشر، الفيل الىٰ أن قال و أمّا القِردة فقوم إعتدوا في السّبت انتهىٰ.

و في عُيون الأخبار عن محمّد ابن سنان عن الرّضا عليه السلام والحديث طويل و فيه، كذلك حرم القِردة لأنّه مسخ مثل الخنزير و جَعَله عِظة و عبرةٌ للخلق دليل علىٰ ما مسخ علىٰ خلقه وصورته وجعل فيه شبه من الإنسان ليدّل علىٰ أنّه الخلق المغضوب عليه انتهىٰ.

و في كتاب علل الشّرائع بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام أنّ اليَهود أُمروا بالإمساك يوم الجمعة فتركوا يوم الجمعة وأمسكوا يَوم السّبت فحُرِّم عليهم الصّيد يوم السّبت انتهىٰ رَوينا الأحاديث عن تفسير نور الثّقلين.

■

وَاِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اِنَّ اللّٰهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تَـذْبَحُوا بَقَرَةً قٰالُوٓا اَتَتَّخِذُنٰا هُزُواً قٰالَ اَعُوذُ بِاللّٰهِ اَنْ اَكُـونَ مِنَ الْجٰاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قٰالُوا ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنّٰا مٰا هِيَ قٰالَ اِنَّه يَقُولُ اِنَّهٰا بَقَرَةٌ لاٰ فٰارِضٌ وَّلاٰ بِكْرٌ عَوٰانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا مٰا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قٰالُوا ادْعُ لَـنٰا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنٰا مٰالَوْنُهٰا قٰالَ اِنَّه يَقُولُ اِنَّهٰا بَقَرَةٌ صَفْرٰٓاءُ فٰاقِعٌ لَّوْنُهٰا تَسُرّ النّٰاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قٰالُوا ادْعُ لَنٰا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنٰا مٰاهِيَ اِنَّ الْبَقَرَ تَشٰابَهَ عَـلَيْنٰا وَاِنّٰـآ اِنْ شٰـاءَ اللّٰـهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قٰالَ اِنَّهُ يَقُولُ اِنَّهٰا بَقَرَةٌ لاٰ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْاَرْضَ وَلاٰ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاٰشِيَةَ فِيهٰا قٰالُوا الْاٰنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهٰا وَمٰا كٰادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

◁ اللّغة

تَذْبَحُوا: أصل الذّبح شقّ حلق الحيوانات.

بَقَرَةً: البَقأر إسم جنسٍ يقع علىٰ الذّكر والأنثىٰ و إنّما دخَلَته الهاء لِلوحَدة قيل هو مشتّق من بَقَر اذا شَقَّ لأنّها تشّق الأرض بالحراثة.

هُزُواً: مصدر وفيه ثلاث لغات الهَمز و ضمّ الزّاي و الهَمز و سكون الزّاي و قلب الهَمرة واواً مع ضمّ الزّاى و ربما سكنت الزّاى أيضاً وتـقديره، ذوي هُزُو فالمضاف محذوف.

فٰارِضٌ: الفارض المُسِنّ من البَقَر وأصل الفَرض القطع و قيل قطع الشّـئ الصّلب وسُمّي البقر به لأنّه يقطع الأرض.

بِكْرٌ: البِكر من البَقر هي الّتي لم تَلد وسُمّيت المرأة الّتي لن تـفتّض بكـراً

إعتباراً بالثّيب لتّقدمها عليها فيما يراد به النّساء و جمع **البِكر** أبكار.

عَوانٌ: العَوان بفتح العين المتّوسط بين السّنين.

صَفْرَاءُ: الصُّفرة لون من الألوان الّتي بين السّواد والبياض و هي الىٰ السّواد أقرب و لذلك قد يُعبّر بها عن السّواد.

فاقِعٌ: فاعل من فَقَع يقال أصفر فاقع اذا كان صادق الصّفرة.

ذَلُولٌ: الذّلُول ضدّ الصَّعب.

الْحَرْثَ: إلقاء البَذر في الأرض وتَهيؤها للزّرع ويسمّىٰ **المحروث حَرثاً**.

لاشِيَةَ: والشِّية فِعلة من الوَشى يقال ثور مُوشّي القوائم يقال **وشيتُ وشيّاً** جعلتُ فيه أثراً يخالف معظم لَونه.

◁ الإعراب

اَنْ تَذْبَحُوا في موضع نصب علىٰ تقدير إسقاط حرف الجرّ و تقديره بأن **تَذبحوا** و على قول الخليل في موضع جرٍّ بالباء **بَقَرَةً** مفعوله **هُزُواً** يجوز أن يكون مصدراً بمعنىٰ المفعول تقديره **فَهزؤا** بهم و قيل مفعول ثانٍ لأتّخذوا فيه مضاف محذوف تقدير ذوي **هُزُواً** **مٰا هِيَ** مبتدأ و خبر **لا فارِضٌ** صفة لبقرة و قيل خبر مبتدأ أي لا هي فارضٌ **وَلا بِكرٌ** مثله وكذلك قوله، عوّان بين ذلك **مٰا تُؤْمَرُونَ** ما بمعنىٰ الّذي **فاقِعٌ لَوْنُهٰا** إن شئت جَعلت فاقع صفة ولَونها مرفوعاً به و إن شئت كان خبراً مقدّماً والجملة صفة **تَسُرّ النّٰاظِرِينَ** صفة أيضاً و قيل فاقع صفة للبَقرة ولَونها مبتدأ وتَسُر خبره، و أنث اللون لوجهين.

أحدهما: أنّ اللّون صفرة هاهنا فحمل علىٰ المعنىٰ.

الثّانى: أنّه مضاف الىٰ المؤنث فأُنث كما تقول ذهبت بعض أصابعه، قال اللّه تعالىٰ: **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ اَلسَّيّٰارَةِ**[1] ما هي مبتدأ و خَبر **اِنْ شٰاءَ اللّٰهُ لَمُهْتَدُونَ**

١- يوسف = ١٠

أي إن شاء اللّه هدايتنا إهتدينا، فالمفعول محذوف و هو هدايتنا **لاٰ ذَلُولٌ** صفة للبَقرة أو خبر ابتداء محذوف والجملة صفة **تُثِيرُ** في موضع نصب حالاً من الضّمير في ذلُول تقديره لا تَذّل في حال إضارتها و قيل هو مستأنف أي، هي تثير **الْاَرْضَ** مفعول للفعل **وَلاٰ تَسْقِي الْحَرْثَ** يجوز أن يكون صفة أيضاً وأن يكون خبر ابتداء محذوف وكذلك **مُسَلَّمَةٌ لاٰشِيَةَ فيهٰا** و الأحسن أن يكون صفة والأصل في شيّة و شيّة لأنّه من وَشىٰ يشي فلمّا حُذفت الواو في الفعل حُذفت في المصدر أيضاً و**فيها** خبر لا في موضع رفع **قٰالُوا الْاٰنَ** الألف و اللاّم في الأن زائدة و هو مبّنيّ لتَّضمنه معنىٰ الإشارة و قيل لتَّضمنه معنىٰ لام التّعريف لأنّ الألف و اللاّم الملفوظ بهما لم تعرفه و لا هو علمٌ و لا مُضمر و لا شئ من أقسام المعارف فيُلزم أن يكون تعريفه باللاّم المُقّدرة و اللاّم هنا زائدة لازمة كما لُزمت في الّذي.

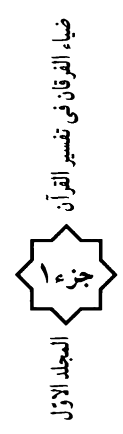
◁ التفسير

قوله تعالىٰ:**وَاِذْ قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ**الىٰ آخر الأية.

روي إبن بابويه عن أبي نصر البَزَنطي قال: سمعت الرّضا عليه السلام يقول: أنّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قرابة له ثمّ أخَذَه وَطَرحه علىٰ طريق أفضل سبطٍ من أسباط بني إسرائيل ثمّ جاء يطلب بَدمه فقالوا لموسىٰ أنّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً فأخبر من قتله قال عليه السلام إيتوني ببقرةٍ قالوا أتَتخذّنا هُزواً قال أعوذ باللّه أن أكون من الجاهلين و لو أنّهم عمدوا الىٰ بقرة أجزأتهم و لكن شدّوا فشدّ اللّه عليهم قالوا أدع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي قال أنّه يقول أنّها بقرة لا فارضٌ و لا بِكرٌ عوانٌ يعني لا صغيرة ولا كبيرة عوان بين ذلك و لو أنّهم عمدوا الىٰ أيّ بقرة أجزأتهم و لكن شدّوا فشدّ اللّه عليهم

قالوا أدعُ لنا ربّك يُبيّن لنا ما لونها قال أنّه يقول أنّها بقرة صفراء فاقع لونها تَسّر النّاظرين ولو أنّهم عمدوا الىٰ بقرة أجزأتهم ولكن شدّوا فشدّ اللّه عليهم قالوا أدعُ لنا ربّك يُبيّن لنا ما هي أنّ البقر تشابه علينا و إنّا إن شاء اللّه لمهتدون قال أنّه يقول أنّها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحَرث مسّلمة لاشية فيها قالوا الأن جئت بالحقّ فطلبوها فوجدوها عند فتىٰ من بني إسرائيل فقال لا أبيعها إلاّ بملوء مسكٍ ذهباً فجاؤوا الىٰ موسىٰ وقالوا ذلك فقال إشتروها فأشتروها و جاؤوا بها فأمر بذبحها ثمّ أَمَر أن يضرب الميّت بذنبها فلمّا فعلوا ذلك حَيي المقتول وقال يا رسُول اللّه أنّ إبن عمي قتلني دون من يدّعي عليه قتلي فَعلموا بذلك قاتله فقال لرسول اللّه موسىٰ بعض أصحابه أنّ هذه البقرة لها بَنَوءُ فقال وما هو أنّ فتىٰ من بني إسرائيل كان بّاراًبأبيه و أنّه إشترىٰ بيعاً فجاؤوا الىٰ أبيه والاقاليد تحت رأسه نِكره أن يوقظه فترك ذلك البيع وإستيقظ أبوه فأخبره فقال له أحسَنت هذه البقرة فهي لك عوضاً لما فاتك قال عليه‌السلام فقال له رسول اللّه موسىٰ أنظر الىٰ البِّر ما بَلغ لأهله انتهىٰ.

و روي العياشي هذا الحديث عن البزنطي قال: سمعتُ الرّضا عليه‌السلام: و ذكر الحديث بتمامه فى تفسير البرهان و قد روي في تفسير أيضاً عن علي إبن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه قال أنّ رجلاً من خيار بني إسرائيل و علمائهم خطب إمرأة منهم فأنعمت له وخطبها إبن عمّ لذلك الرّجل و كان فاسقاً رديئاً فلم يَنعمُوا له فَحسد إبن عمّه الّذي أنعَمُوا له فَفعل له فقتله غيلةً ثمّ حَمله الىٰ موسىٰ فقال يا نبّي اللّه أنّ هذا إبن عمّي قد قتل قال موسىٰ من قَتله قال لا أدري و كان

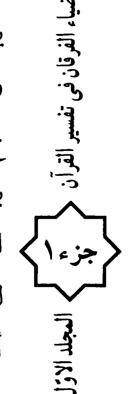


القتل في بني إسرائيل عظيماً جدّاً فعظم ذلك علىٰ موسىٰ فـإجتمع عليه بنو إسرائيل فقالوا ما ترىٰ يا نبّي اللّه و كان في بني إسرائيل رجل له بقرة و كان له إبن بّار و كان عند إبـنه سِـلعة فـجاء قـوم يطلبون سلعته فلمّا إنتبه قال له يا بنّي ماذا صَنعت في سِلعتك قال هي قائمة لم أبعها لأنّ المفتاح كان تحت رأسك فكرهتُ أن أُنـبهك وأنغُض عليك نومك قال له أبوه قد جعلت هذه البقرة لك عِوَضاً عمّا فاتك من ربح سلعتك وشكر اللّه لأبنه فأمر موسىٰ بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة بعينها فلمّا إجتمعوا الىٰ موسىٰ و بكوا وضجوا قال لهم موسىٰ أنّ اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة فـتّعجبوا و قـالوا أتتّخذنا هُزُواً نأتيك بقتيل فتقول إذبحوا بقرة فـقال لهـم مـوسىٰ أعوذ باللّه أن أكون من الجاهلين فعَلِموا أنّهم قد أخطأوا فقالوا أدعُ لنا ربّك يُبيّن لنا ما هي قال أنّه يقول أنّها بقرة لا فارض ولا بِكـر، الفارض الّتي قد ضَربها الفَحل، والبِكر الّتي لم يضربها الفَحل فقالوا أدعُ لنا ربّك يُبيّن لنا ما لَونها قال أنّه يقول أنّها بقرة صفراء فـاقعُ لونها أي شديدة الصُفّرة تسّر النّاظرين اليها، قالوا أدعُ لنا ربّك يُبيّن لنا ما هي أنّ البَقر تَشابه علينا وَ إنّا إن شاء اللّه لمهتدون قال يقول أنّها بقرة لا ذلولٌ تُثير الأرض أي لم تذلل و لا تسقي الحَرث أي ولا تسقي الزّرع، مسّلمة لاشية فيها، أي لا يقع فيها إلاّ الصُـفّرة قـالوا الأن جئت بالحقّ هي بقرة فلان فَذهبوا ليشتروها فقال لا أبيعها إلاّ بملوء جِلدها ذهباً فَرجعوا الىٰ موسىٰ فأخبروه فقال موسىٰ لا بدّ لكم من ذبحها بعينها فإشتروها بملوء جلدها ذهباً فَـذبحوها ثـمّ قالوا ما تأمرنا يا نبّي اللّه فأوحىٰ اللّه تعالىٰ اليه قل لهم أضـربوه ببعضها و قولوا مَن قَتلك فأخذوا الذّنب فضربوه بـه وقـالوا مـن

قَتلك يا فلان فقال فلان بن فلان بن عمّي الّذي جاء به وهو قوله فقلنا إضربوه ببعضها كذلك يحيي اللّه الموتىٰ و يريكم آياته لعلّكم تعقلون انتهىٰ.

أقول و أنّما نقلنا الحَديثين لأنّ الثّاني أبسط من الأوّل وبهما تبتم القصّة.

و أمّا العّامة فقد نقلوا هذه القصّة بوجهٍ آخر و نحن نذكر ما ذكروه أيضاً فنقول روَو عن إبن عباس وَوهب وغيرهما من أهل الكتب أنّه كان في بني إسرائيل رجل صالح له إبنٌ طِفل وكان له عجل فأتىٰ بالعجل الىٰ غيضة فقال اللّهم أنّي أستودعك هذه العجلة لإبني حتّىٰ يكبر و مات الرّجل فثّبت العجلة في الفيضة و صارت عواناً وكانت تهرب من كلّ من رآها فلمّا كَبُر الصّبي كان باراً بوالدته وكان يقسم اللّيلة ثلاثة أثلاث يُصلّي ثُلثاً و ينام ثُلثاً ويجلس عند رأس أُمه ثُلثاً فإذا أصبح إنطلق وإحتطب علىٰ طهره و يأتي به السّوق فيبيعه بما شاء اللّه ثمّ يتّصدق بثلثه و يأكل ثلثه ويُعطي والدته ثُلثاً فقالت له أمّه يوماً أنّ أباك ورثك عجلة وذهب بها الى غيضة كذا و إستودعها فإنطلق اليها وأدع إلٰه إبراهيم و إسماعيل و إسحاق أن يرّدها عليك و أنّ من علانتها إذا نظرت اليها يخيل اليك أنّ شعاع الشّمس يخرج من جلدها وكانت تُسّمىٰ المُذّهبة لحسنها وصفاء لَونها فأتىٰ الفتىٰ الفيضة فرآها ترعىٰ فصاح بها و قال أعن عليك (أعزم خ ل) بآلِه إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب فأقبلت تسعىٰ حتّىٰ قامت بين يديه فقبض علىٰ عُنقها و قادها فتكلمت البقرة بأذن اللّه و قالت أيّها الفتىٰ البّار بوالدته أركبني فأنّ ذلك أهون عليك فقال الفتىٰ أنّ أُمّي لم تأمرني بذلك و لكن قالت خُذ بعُنقها قالت البقرة بإلٰه بني إسرائيل لو ركبتني ماكنت تقدر علّي أبداً فإنطلق فأنك لو أمَرت الجَبل أن ينقلع من أصله وينطلق معك لَفعل لِبّرك والدتك فسار الفتىٰ بها فإستقبله عدّو اللّه إبليس في صورة راعٍ فقال أيّها الفتىٰ أنّي رجل من دعاة البَقر إشتقت الىٰ أهلي فأخذتُ ثوراً من ثيراني فحملت



عليه زادي ومقامي حتّىٰ إذا بلغت شطر الطّريق ذهبت لأقضي حاجتي فعدا وسط الجَبل وما قدرت عليه وأنّي أخشىٰ علىٰ نـفسي الهَـلكة فأن رأيت أن تَحملني علىٰ بقَرتَك وتنجيني من الموت وأعطيك أجرها بقرتَين مثل بقرتك فلم يفعل الفتىٰ و قال إذهب فتوكل علىٰ اللّه و لعَلِم اللّه منك اليقين لبلغَك بلا زاد و لا راحلة فقال إبليس إن شئت فبعنهاه بـحكمك وأن شـئت فـاحملني عليها وأعطيك عشرة مثلها فقال الفتىٰ إنّ أُمّي لم تأمرني بذلك فبيَن الفـتىٰ كذلك إذ طار طائر من بين يدَي البقرة ونفرت البقرة هاربة في الفلات وغابت الرّاعي فدعا الفتىٰ بإسم إلٰه إبراهيم فرجعت البقرة اليه و قالت أيّها الفتىٰ البّار بوالدته أَلَم تَرَ الىٰ الطّائر الّذي طار فأنّه إبليس عدّو اللّه إختلسني أمّا أنّـه لو ركبني لما قدرتَ على أبداً فلما دَعوتَ إلٰه إبراهيم جاء ملَك فأنتزعني من يَد إبليس ورَدّني اليك لِبّرك بأُمّك وطاعتك لها فجاء بها الفتىٰ الىٰ أمّه فقالت له أنّك فقير لا مال لك ويشّق عليك الإحتطاب بالنّهار والقيام باللّيل فإنطلق وبع هذه البقرة وخُذ ثمنها قال أُمّي بكم أبيعها قالت بثلاثة دنانير و لا تبعها بغير رضاي ومشورتي وكان ثَمن البقرة فيّ ذلك الوقت ثلاثة دنانير فإنطلق بها الفتىٰ الىٰ السّوق فعقبه اللّه سبحانه ملَكاً ليُري خَلقَه قُدرته وليختبر الفتىٰ كيف بَره بوالدته وكان اللّه به خبيراً فقال له المَلَك بكم تبيع هذه البَقرة قال بثلاثة دنانير وأشترط عليك رضا أُمّي فقال له المَلَك ستة دنانير و لا تستأمر أُمّك فقال الفتىٰ لو أعطيتني وزنها ذَهَباً لم آخذه إلاّ برضا أُمّي فردّها الىٰ أُمّه وأخبرها بالثّمن فقالت إرجع فبعها بستة دنانير علىٰ رضا منّي فإنطلق الفتىٰ بالبقرة الىٰ السّوق فقال الملَك إستأمرتَ والدتك فقال الفتىٰ نعم أنّها أمَرَتني أن لا أنقصها من ستة دنانير علىٰ أن أستأمرها قال المَلَك فأفي إثني عشر علىٰ أن لا تستأمرها فأبىٰ الفتىٰ و رجع الىٰ أمّه و أخبرها بذلك فقال أنّ ذاك الرّجل الّذي يأتيك هو مَلَك من الملائكة يأتيك في صورة آدمي لُيجربك فإذا أتاك فقل له أتأمرني أن أبيع

هذه البقرة أم لا ففعل ذلك فقال له المَلَك إذهب الىٰ أمّك وقل لها إمسكي هذه البقرة فأنّ موسىٰ يشتريها منكم لقتلٍ يُقتل في بني إسرائيل فلا تبيعوها إلاّ بملاءِ مسكها دنانير فأمسكوا البقرة وقدّر اللّه تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل ذبح مَلَك البَقرة بعينها مكافاةً علىٰ برّه لوالدته فضلاً منه و رحمة فطلبوها فوَجدوها عند الفتىٰ فإشتروها بملاء مسكها ذهباً قال السّدي إشتروها بوزنها عشر مرّات ذهَباً، و إختلفوا في العض المضروب به فقال إبن عباس ضربوه بالعظم الّذي يلي الغضروف و هو المَقتَل.

و قال الضّحاك بلسانها و قال سعيد بن جُبير بعُجب ذنبها و قال عكرمة والكَلبي بفخذها الأيمن و قيل بأُذنها و كيف كان فقام القتيل حيّاً بإذن اللّه تعالىٰ وأوداجه تشخب دَمَاً و قال قَتَلني فلان ثمّ سَقَط ومات مكانه إنتهىٰ[1].

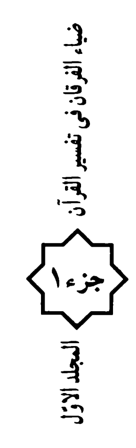
إذا عرفت أصل القصّة فَلنرجع الىٰ تفسير الآية فنقول هذه الأيات معطوفة علىٰ ما تقّدمها في ذِكر النِعّم الّتي أعطاها اللّه تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل ومقابلتهم لها بالكُفر والعِصيان فكأنّه قال وأذكروا أيضاً من نكثكُم ميثاقي الّذي أخذته عَليكُم **وَاِذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اِنَّ اللّهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً** علىٰ ما مرّ تفصيله **قالُوٓا اَتَتَّخِذُنا هُزُواً** أي قال قوم موسىٰ لِموسىٰ أتَسخَر بنا حيث سألناك عن القتيل و أنت تأمرنا بِذَبح بَقَرة فقال موسىٰ لهم **اَعُوذُ بِاللّهِ اَنْ اَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ** و لَم يَقُل من المُستهزئين و قال من الجاهلين لأنّ الإستِهزاء لا يَصدُر إلاّ من الجاهل فإذا لم يكن الإنسان جاهلاً لا يَستهزء و حيث أنّ النّبي مُنَزه عن الجّهل و إلاّ لا يكون نبّياً فلا محالة مُنَزّةٌ عن الإستهزاء، **قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ**، أي قال بنو إسرائيل لِموسىٰ يا موسىٰ سَل ربّك يُبيّن لنا وصف البَقرة الّتي أمرنا بِذبحها، قال، موسىٰ، أنّه أي اللّه تعالىٰ، **يَقُولُ اِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَّلا بِكْرٌ** أي ليست بكبيرة و لا صغيرة فإنّ

١- بحار الأنوار ج ٥ كمباني ص ٢٨٩

خير الأمور أوسطها ولذلك قال **عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ** أي إذبحوها حسب ما أمرتم به قالوا،ي قال قوم موسىٰ ثانياً، **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَالَوْنُهَا** والفرق بين السّؤالين إنّ الأوّل سؤال عن سِنّ البقرة والثّاني عن لونها، قال موسىٰ في جوابهم إنّ اللّه يقول، **إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرّ النَّاظِرِينَ** قيل حتّىٰ قرنها وظلفها صفران، والمراد بقوله، فاقع، أي شديدة صفرة لونها بحيث تَميل الىٰ السّواد و قيل أي حسن الصّفرة و قيل خالصها بحيث تعجب النّاظرين وتَفرحهم بحسنها، ثمّ أعادُوا السّؤال ثالثاً فقالوا، يا موسىٰ **ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَاهِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا** أي إشتبه علينا صفة القَرة الّتي أَمرنا اللّه بذبحها، **وَإِنَّآ إِنْ شَآءَ اللّٰهُ لَمُهْتَدُونَ**، الىٰ صفة البقرة الّتي أمِرنا بِذَبحها فقال موسىٰ في الجواب، إنّ اللّه **يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ** أي لَم يذلّلها العَمَل بِأثارة الأرض بِأظلافها، **وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ** أي لا يستقىٰ عليها الماء فتسقي الزّرع،**مُسَلَّمَةٌ** أي برّية من العيوب والنّقائص من حيث الجسم واللّون،**لاَّشِيَةَ فِيهَا** أي ليس لها لونٌ يُخالف لونها و قال أهل اللّغة، لا وضَح لها يخالف لَون جِلدها، **قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقّ** أي الآن قد ظهر لنا ما هو الحقّ، **فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ** أي قرب أن لا يفعلوا ما أمروا به مخافة إشتهار فضيحة القاتل و قيل كادوا لا يفعلون لِغلاء ثمنها و هو مِلء جلدها ذَهَباً من مال المقتوا علىٰ قول إبن عبّاس أو عَشر مَرّات ذهباً علىٰ قول السَدّي والظّاهر من الآية الشّريفة إنّه لمّا قيل لهم إذبحوا بقرة لم يكن المراد إلاّ ذبح أيّ بقرةٍ شاؤا من غير تعيين بصفة ولو إنّهم ذبحوا أيّ بقرةٍ إتّفقت لهم كانوا قد إمتثلوا الأمر فلّما شَددّوا شدّد عليهم فالذّم متوجّه الىٰ تقصيرهم أو تأخيرهم في إمتثال الأمر بعد البيان التّام إذا عرفت هذا فأعلم إنّهم إختلفوا في إنّ قوله تعالىٰ: **إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً**، هل هو أمر بذبح بقرةٍ معيّنة مبيّنة أو هو أمر بذبح بقرةٍ أيّ بقرةٍ

كانت فالّذين يجّوزون تأخير البَيان عن وقت الخطاب قالوا بالأوّل إلاّ أنّها ما كانت بيّنة و قال المانعون منه هو وإن كان أمراً بذبح أي بقرة كانت إلاّ أنّ القوم لمّا سألوا تغّير التّكليف عند ذلك و ذلک لأنّ التّكليف الأوّل كان كافياً لو أطاعوا وكان التّخيير في جنس البقر اذ ذاك هو الصّلاح فلمّا عصوا ولم يمتثلوا و راجعوا بالمسألة لم يمتَنع تغير المَصلحة و ذلک معلوم في المشاهد لأنّ المُدّبر لولده قد يأمره بالسّهل إختياراً فاذا إمتَنع الولد منه فقد يرىٰ المَصلَحة في أن يأمره بالصّعب فكذا هاهينا ثمّ أقام كلّ واحدٍ من الفريقين من الدّليل ما يُثبت مدّعاه بزَعمه و أمّا نحن فحيث رأينا عدم النَّفع أو قلّتَه في هذا البحث أعرضنا عن إطالة الكلام فيه مضافاً الىٰ ماورد في المقام عن أئمّة المعصُومين عليهم السّلام، أنّهم شدَّدوا فَشُدّد عليهم فلو أنّهم إكتفوا بذبح أيّ بقرة في بدو الأمر كان كافياً لهم كما مرّ في الأحاديث المنقولة عنهم فعلىٰ هذا لا نرىٰ فائدة في بسط الكلام فيه.

■



وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّٰرَأْتُمْ فِيهاۤ وَاللّٰهُ مُخْرِجٌ مّٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهٰا كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتىٰ وَيُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

◁ اللّغة

قَتَلْتُمْ: أصل القتل إزالة الرّوح عن الجَسد كالموت لكن اذا إعتبر بفعل المتّولي لذلك يقال، قتل واذا إعُتبرت بفوت الحياة يقال مَوت.

نَفْساً: النّفس بسكون الفاء الرّوح.

فَادّٰرَأْتُمْ: أصله تدارأتم ثمّ أدعمت التّاء في الدّال و لا يجوز الأبتداء بالمدعم لأنّه ساكن فزيد ألف الوصل والباقي واضح.

◁ الإعراب

وَإذْ محله النّصب والتقدّير و أذكروا، **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً** والنّفس مفعول للقتل **فَادّٰرَأْتُمْ** الفاء للتّفريع **فِيهاۤ** في محلّ النّصب علىٰ المفعول **وَاللّٰهُ مُخْرِجٌ** مبتدأ و خبر **مّٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ما في موضع نصب علىٰ أنّه مفعول لِمُخرج و هو بمعنىٰ الّذي والعائد محذوف و يجوز أن يكون مصّدرية بمعنىٰ المفعول أي يخرج كتمكم أي مكتومكم **كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتىٰ** الكاف في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف تقديره يحي اللّه الموتىٰ إحياء مثل ذلك **يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتىٰ** فعل و فاعل ومفعول **وَيُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ** كذلك **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** الكاف في موضع نصب علىٰ أنّه إسم، لعلّ و تعقلون خبره.

◁ التّفسير

قالوا أنّ قوله: **وَإِذْ قَتَلْتُمْ** الىٰ قوله: **تَكْتُمُونَ** متقدّم في المعنىٰ علىٰ الأيات المتقدّمة في اللّفظ فعلىٰ هذا يكون تأويله، **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادّٰرَأْتُمْ فِيهاۤ**

فَسألتم موسىٰ فقال لكم :**اِنَّ اللّٰهَ يَاْمُرُكُمْ اَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً** فقدّم المؤخّر و أخرّ المقدّم قالوا و مثل هذا كثير في القرآن قال اللّه تعالىٰ: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذيٓ أَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ اَلْكِتٰابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قَيِّمًا**[1] تقديره أنزل علىٰ عبده الكتاب قيّماً و لم يجعل له عِوجاً و أمّا الشّعر فقول الشّاعر:.

أنّ الفَــرزدق ضجرة مـلموسة طـالت فَـلَيس نـيالها الأوعـالا

أي طالت الأوعالا، وأنّما قـالوا ذلك لأنّ أمـرهم بـذبح البـقرة كـان بـعد اهمالهم و اختلافهم في أمر المقتول وكيف كان فـقد مـرّ الكـلام فـي القَـتل وكيفيّته و قوله: **فَادّٰرَاْتُمْ** أي إختلفتم والمقصود أنّكـم إخـتلفتم فـي تـعيين القاتل و قيل معناه إعوججتم عن الإستقامة و منه قول الشّاعر:

فــنكب عــنهم درء الأعــادى وداووا بــالجنون مـن الجـنون

أي إعوجاج الأعادي و قال قوم الدّرَء المدافعة و معناه تدافعتم في القَتل و منه قوله تعالىٰ: **وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا اَلْعَذٰابَ**[2] و المأل في الكلّ واحد.

و في قوله إشارة الىٰ: **وَاللّٰهُ مُخْرِجٌ مّٰا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**أنّ اللّه تعالىٰ عالم بالسّرائر فلا يمكن كتمان شيءٍ منه كما أنّه تعالىٰ قد أخرج ما كـانوا يكـتمون بذبح البقرة و ضرب بعضها ببعضِ المقتول كما قال: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهٰا** و قد مرّت كيفيّة القضيّة و أمّا قوله: **كَذٰلِكَ يُحْيِ اللّٰهُ الْمَوْتىٰ** الىٰ أخرفهو إشارة الىٰ أنّه تعالىٰ علىٰ كلّ شيءٍ قدير ومنه إحياء المَوتىٰ ولذلك قال **يُرِيكُمْ اٰيٰاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** و لا تَنكرونَ البَعث و لانشُور ثمّ في قوله:**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** إيماء الىٰ أنّ العاقل اذا لم يستعمل عقله في مُؤداه ولم يُبصر رشده فهو كمن لا عقل له فالمعنىٰ لكي تستعملوا عقولكم بما يجب عليكم من أُمور دينكم و كيف يكون عاقلاً من كان يرىٰ إحياء القتيل بقدرة اللّه ثمّ تَكلّمه بما يرفع الإبهام عن القاتل ومع ذلك ينكر البعث.

■

١- الكهف = ١ ٢- النور = ٧

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ اَوْ اَشَدُّ قَسْوَةً وَّاِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْاَنْهٰرُ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَ اِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

◁ اللّغة

قَسَتْ: قسىٰ، يُقسُو، قَسوةً، قساوةً و القَسوة غلظة القلب و أصله من حَجر قاس، و قال بعض القَسوة ذهاب اللّين والرّحمة والخشوع والخضُوع، أقول ما ذكره من آثار الغلظة والقساوة.

الْحِجَارَةِ: جمع حجر و هو الجوهر الصلب المعروف

يَتَفَجَّرُ: الفجر شقّ الشّئ شقّاً واسعاً

يَشَّقَّقُ: أصله يتشقق أدعمت التّاء في الشّين فصارت شيئاً مشدّدة تشقّق الحجارة انعدامها.

◁ الإعراب

فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الكاف حرف جرٍّ متّعلقة بمحذوفٍ تقديره فهي مستّقرة كالحجارة و يجوز أن يكون إسماً بمعنىٰ مثل في موضع رفع اَشَدُّ معطوف علىٰ الكاف تقديره أو هي أشدّ، قسوة، مصدر منصوب علىٰ التّمييز لَمَا يَتَفَجَّرُ ما بمعنىٰ الّذي في موضع نصب، إسم أنّ واللاّم للتّوكيد مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ، مِن في موضع نصب بيهبط عَمَّاتَعْمَلُونَ، ما بمعنىٰ الّذي ويجوز أن تكون نصدّرية فعلى الأوّل العائد محذوف والتقدّير يعلمونه.

◁ التّفسير

أي ثمّ غلظت قلوبكم من بعد ذلك، أي من بعد إحياء الميت لكم ببعضٍ من أعضاء البقرة بعد أن تدارؤوا فيه وأخبَرهم بقاتله والسّبب الّذي من أجله قَتله و هذه أية عظيمة كان يجب علىٰ من شاهد هذا أن يخضع ويلين قلبه و يحتمل أن يكون من بعد إحياء الميت والأيات الأُخر التّي تقدّمت كمسخ القِردة والخنازير و رفع الجبل فوق رؤسهم وإنبجاس الماء من الحجر وإنفراق البحر وغير ذلك و أنّما جاز ذلك و أن كان جماعة و لم يقل ذلكم لأنّ الجماعة في معنى الجمع و الفريق فالخطاب في اللّفظ واحد ومعناه، جماعة **فَهِيَ كَالْحِجٰارَةِ اَوْ اَشَدُّ قَسْوَةً** يعني أنّ قلوبهم كالحجارة في الصّلابة واليبس والغلظ والشدّة، بل أشدّ صلابةً منها لإمتناعهم بالإقرار اللاّزم من حقّه الواجب من طاعته بعد مشاهدة الأيات ومعنىٰ أو في الآية يحتمل أمور:

أحدها: التخيير كقولك جالس الحسن أو ابن سيرين أيّهما جالست جائز فكأنّه قال أن شبهت قلوبهم بالحجارة جاز و أن شبهتها بما هو أصلب كان جائزاً.

الثّاني: أن تكون أو، بمعنىٰ الواو والتقدير **فَهِيَ كَالْحِجٰارَةِ اَوْ اَشَدُّ قَسْوَةً** كما قال: **وَأَرْسَلْنٰاه إِلىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**[1] و مثله قول جرير:

نال الخلافة أو كانت له قدراً   كما أتىٰ ربّه موسىٰ علىٰ قدرٍ

و قال الأخر:

و قد زعمت ليلىٰ بأنّي فاجر   لنفسي تقاها أو عليها فجورها

أي وعليها و مثله قوله تعالىٰ: **وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ اٰبآئِهِنَّ أَوْ اٰبآءِ بُعُولَتِهِنَّ**[2]

١- الصافات = ١۴٧   ٢- النّور= ٣١

الثّالث: أن يكون المراد الإبهام علىٰ المخاطبين كما قال أبو الأسود الدّوئلي:

أحبّ محمّداً حبّاً شديداً و عبّاساً و حمزة والوّصيا
فأن يك حبّهم رشداً أُصبه ولستُ بمخطئٍ أن كان غيّاً

و أبوالأسود لم يكن شاكّاً في حبّهم ولكن أبهم علىٰ من خاطبه و لذلك لمّا قيل له، شَككت قال كلاّ ثمّ إستشهد بقوله تعالىٰ: **إِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**[1].

الرّابع: أن يكون بمعنىٰ بل أي قلوبهم كالحجارة بل أشدّ قَسوة و عليه فلا تكون بل للإضراب بل مجرّد العطف.

الخامس: أنّها كالحجارة أو أشدّ قسوةً عندكم.

السّادس: أن يكون أراد مثل قول القائل طعمتك حُلواً وحامضاً وقد أطعمه النّوعين جميعاً و معناه أنّ قلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثلين أمّا أن تكون مثلاً للحجارة و أمّا أن تكون أشَدّ منها قال الشّيخ في التّبيان و أحَسنها الإبهام علىٰ المخاطبين و لا يجوز أن يكون المعنىٰ الشكّ لأنّ تعالىٰ عالم لا يخفىٰ عليه خافية أي **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ** من الحجارة ماهو أنفع وألين من قلوبهم القاسية و ذلک لأنّ من الحجارة حجارة يَتفجّر منها أنهار الماء فإستغنىٰ بذكر الأنهار عن ذكر الماء يقال فَجر الماء اذ أنزَل خارجاً من منبعه قال الشّاعر:

ولمّا أن قربتُ الىٰ جويرٍ أبي ذو بطنه إلاّ إنفجار

يعني خروجاً وسيلاناً **وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ** يعني فيخرج منه الماء فيكون عيناً نابعة لا أنّها جارية حتّىٰ يكون مخالفاً للأوّل.

١- سبأ = ٢٥

و نقل عن المغربي أنّه قال الحجارة الأولىٰ حجارة الجبال تخرج منها الأنهار.

الثّانية: حجر موسىٰ الّذي ضربه فإنفجر فيه عيون فلا يكون تكراراً **وَ اِنَّ مِنْهٰا لَمٰا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ** قال بعض المفسّرين أي بخشية اللّه فتكون من، بمعنىٰ **باء** نحو قوله يحفظونه من أمر اللّه أي بأمر اللّه، والضّمير في قوله: **مِنْهٰا** أمّا أنّه ترجع الىٰ الحجارة لأنّها أقرب مذكور، أمّا أن ترجع الىٰ القلوب فالمعنىٰ و أنّ من القلوب لما يخضع من خَشية اللّه ثمّ ذكروا في هبوطها وجوهاً أحسنها ما ذكره في التّبيان بعد نقله الأقوال:

فقال معنىٰ الآية الإبانة عن قساوة قلوب الكفّار وأنّ الحجارة أَلين منها لو كانت تلين لشيءٍ فَلانَت وتفجّرت منها الأنهار وتشقّقت منها المياه و هبطت من خشية اللّه و هذه القلوب لا تَلين مع مشاهدتها الأيات التّي شاهدتها بنواسرائيل و جرى ذلك مجرىٰ ما يقوله تعالىٰ: **لَوْ أَنْزَلْنٰا هٰذَا ٱلْقُرْاٰنَ عَلٰى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خٰاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللّٰهِ**[1] ومعناه لو أنزَلنا هذا القرأن علىٰ جبلٍ وكان الجبال ممّا تخشع لشيءٍ ما لرأيته خاشعاً متصدّعاً **وَمَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ** فمعناه واضح فأنّه تعالىٰ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصّدور فضلاً عن أعمالنا الظّاهرة.

روي عن الحسين بن علّي عليهما السّلام في قوله تعالىٰ: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ الىٰ قوله: اَشَدُّ قَسْوَةً قال عليه السلام أنّه يقول يبست قلوبكم معاشر اليهود كالحجارة اليابسة لا ترشح برطوبة أي أنّكم لا حقّ اللّه تؤدون و لا لأموالكم تتصّدقون و لا بالمعروف تتكرّمون ولا للضّيف تقرّون و لا مكروبا تغيثون و لا لشيٍ من الإنسانية تعاشرون و تواصلون أو أشدّ قسوةً أبهم علىٰ السّامعين و لم

١- الحشر= ٢١

يبيّن لهم كما يقول القائل أكلت خبزاً و لَحماً و هو لا يريد به أنّه لا يدري أن يبهم على السّامع حتّىٰ لا يعلم ماذا أكَل و أن كان يعلم قد أكل أيّهما، و أنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار، أي قلوبكم في القساوة بحيث لا يجيئ منها خير وفي الحجارة ما يتّفجر منه الأنهار فتجيئ منه بالخير والنّبات لبني آدم (وأن منها) أي من الحجارة، لما يتّشقق فيخرج منه الماء دون الأنهار، و قلوبكم لا يجيئ منها الكثير من الخير و لا القليل (و أن منها لما يهبط) أي من الحجارة أن أقسم عليها بإسم اللّه تَهبط وليس في قلوبكم بشيئ منه فقالوا زعمت يامحمّد أنّ الحجارة ألَين من قلوبنا وهذه الجبال بحضرتنا فإستشهدها علىٰ تصديقك فأن نَطَقت بتصديقك فأنت المحقّ فخرجوا الىٰ أوَّعَر جبل فقالوا إستشهده فقال رسول اللّه أسألك ياجبل بجاه محمّدٍ و آله الطّاهرين الّذين بذكر أسمائهم خفّف اللّه العرش علىٰ كواهل ثمانية من الملائكة بعد أن لم يقدروا علىٰ تحريكه فتحرّك الجَبل وفاض الماء فنادىٰ أشهدا أنك رسول اللّه وأنّ قلوب هؤلاء اليهود كما وصفت أقسىٰ من الحجارة فقال اليهود أعلينا تلبس أجلَست أصحابك خلف هذا الجبل ينطقون بمثل هذا فأن كنت صادقاً فتّنح عن موضعك الىٰ ذي القرار و مُر هذا الجبل يسير اليك و مُره أن ينقطع نصفين ترتفع السّفلىٰ و تَنخفض العُليا فأشار الىٰ حجر تدحرج فَتدحرج ثمّ قال لمخاطبه خُذه و قَرّبه فتعيد عليك ما سمعت فأنّ هذا خير من ذلك الجَبل فأخَذه الرّجل فأدناه من أذنه فَنطق الحَجر بمثل ما نطق الجبل قال فأتني بما إقترحت فتباعد رسول اللّه الىٰ فضاءٍ واسع ثمّ نادىٰ أيّها الجَبَل بحقّ محمّدٍ و آله الطّاهرين لما إقتلعت من مكانك بأذن اللّه و جئت

الىٰ حضرتي فَتزلزل الجَبَل و سار مثل الفَرس المهلاج فنادىٰ أنا سامع لك و مطيع أمرك فقال هؤلاء إقترحوا علّي أن آمرك أن تنقطع من أصلك فيبقىٰ نصفين فسيّنحط أعلاك و يرتفع أسفلك فأنقطع نصفين و إرتفع أسفله و إنخفض أعلاه فصار فرعه أصله ثمّ نادىٰ الجبل أهذا الّذي تَرون دون معجزات موسىٰ الّذي يزعمون أنّكم به تؤمنون فقال رجل منهم هذا رجل تتأتّي له العجائب فنادىٰ الجَبل يا عدّو اللّه أبطلتم بما تقولون بنبوّة موسىٰ حيث كان وقوف الجَبل فوقهم كالظلّل فيقال هو رجل تتأتىٰ له العجائب فلزمتهم الحجّة ولَم يسلموا انتهىٰ تفسير نور الثّقلين عن الخرائج والجرايح و أنّما نقلنا الحديث بطوله لما فيه من الحقائق المفّسرة للآية الشريفة.

و قد ورد في الخبر عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه فأنّ كثرة الكلام بغير ذكر اللّه يقسي القلب (القلوب) و أنّ أبعَد النّاس من اللّه القاسي القلب انتهىٰ.

و في كتاب الخصال عن أبي عبد اللّه أنّه قال: كان فيما أوصىٰ به رسول اللّه علّياً يا علّي ثلاث يقسين القلب، إستماع اللّهو، و طلب الصّيد، و إتيان باب السّلطان انتهىٰ.

و فيه فيما علّم أمير المؤمنين أصحابه: و لا يطول عليكم الامل فتقسوا قلوبكم.

و عن أبي عبد اللّه عن أبيه قال: أوحَىٰ اللّه تبارك وتعالىٰ الىٰ موسىٰ التفرح بكثرة المال الىٰ قوله وترك ذكرىٰ لقسي القلوب.

و في كتاب علل الشّرائع بأسناده الىٰ الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام :ما جفّت الدمُوع إلاّ لقساوة القلوب ومت قَسَت القلوب إلاّ لكثرة الذّنوب.

و في أُصول الكافي بأسناده فيما ناجىٰ اللّه عزّ وجلّ به موسىٰ يا موسىٰ لا تطول في الدّنيا أمَلَك فَيَقسو قلبُك والقاسي القلب منّي بعيد و الأحاديث كثيرة أعاذنا اللّه من هذه الرّذيلة التّي لا دواء لها إلاّ بترك ما يُوجبها وهو صَعبٌ جدّاً.

■

اَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كٰانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاٰمَ اللّٰهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَه مِنْ بَعْدِ مٰا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿۷۵﴾ وَاِذٰا لَقُوا الَّذِينَ اٰمَنُوا قٰالُوا اٰمَنّٰا وَاِذٰا خَلاٰ بَعْضُهُمْ اِلىٰ بَعْضٍ قٰالُوا اَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمٰا فَتَحَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ لِيُحٰآجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ اَفَلاٰ تَعْقِلُونَ ﴿۷۶﴾ اَوَ لاٰ يَعْلَمُونَ اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَمٰا يُعْلِنُونَ ﴿۷۷﴾

◁ اللّغة

اَفَتَطْمَعُونَ:الطّمع نزوع النّفس الىٰ الشّيْ شهوةً له.

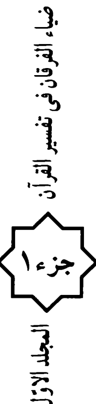
فَرِيقٌ: الفَريق الجماعة المتفرّقة عن أخرين.

يُحَرِّفُونَه: تحريف الشّيْ إمالته كتَحريف القَلم وتحريف الكلام أن تَجعله علىٰ حَرفٍ من الإحتمال يمكن حمله علىٰ الوجهين.

لِيُحٰآجُّوكُمْ: المُحاجّة أن يطلب كلّ واحدٍ أن يَرّد الأخر عن حُجّة.

◁ الإعراب

الألف في قوله: اَفَتَطْمَعُونَ للإستفهام الإنكاري كقوله تعالىٰ:**أَلَيْسَ اَللّٰهُ بِكٰافٍ عَبْدَهُ**[1] اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ حرف الجرّ محذوف أي في أن تؤمنوا وَقَدْ كٰانَ الواوللحال منهم، في موضع رفع صفة، لفريق يَسْمَعُونَ خبر كان كَلاٰمَ اللّٰهِ مفعول لقوله يسمعُون، مٰا عَقَلُوهُ ما مصدّرية وَهُمْ يَعْلَمُونَ حال والعامل فيه يحرّفونه و يجوز أن يكون العامل عقلوه و يكون حالاً مؤكّده اَوَ لاٰ يَعْلَمُونَ



۱- الزمر= ۳۶

الهمزة للإستفهام الإنكاري أي أنّهم يعلمون **مٰا يُسِرُّونَ وَمٰا يُعْلِنُونَ** ما في الموضعين موصولة والعائد محذوف.

◁ التّفسير

اَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ هذا خطاب لأُمّة محمّد ﷺ فكأنّه قال أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم من طريق النّظر والإعتبار و نفي التّشبيه و الإنقياد للحقّ **وَقَدْ كٰانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** و الحال أنّ فريقاً منهم **يَسْمَعُونَ كَلاٰمَ اللّٰهِ** و هو التّوراة بدليل قوله: **ثُمَّ يُحَرِّفُونَه** و ذلک لأنّهم أي اليهود و حرّفوا التّوراة فجعلوا الحلال والحراماً حلالاً إبتغاءً لأهوائهم و إعانة لمن يرشوهم.

و قال بعض المفسّرين أنّهم الّذين إختارهم موسىٰ من قومه فسمعوا كلام اللّه فلم يمتثلوا أمره و حَرّفوا القول في أخبارهم لقومهم حتّىٰ رجعوا اليهم **وَهُمْ يَعْلَمُونَ** أنّهم قد حرّفوا، و أيّد هذا القول بأنّ الّذين إختارهم موسىٰ من قومه هم الّذين كانوا قد سمعوا كلام اللّه بلا واسطة ثمّ حرّفوه من بعد ما عقلوه حبّاً للدّنيا و زخارفها و لم يعلموا أنّ متاع الدّنيا قليل.

و قال قوم هو التّوراة التّي عليها علماء اليهود و في قوله: **مِنْ بَعْدِ مٰا عَقَلُوهُ** وجهان:

أحدهما: و هم يعلمون أنّهم يحرّفونه.

ثانيها: من بعد ما تحقّقوه و هم يعلمون ما في تحريفه من العقاب ثمّ قال تعالىٰ: **وَاِذٰا لَقُوا الَّذِينَ اٰمَنُوا** من المؤمنين محمّدٍ ﷺ **قٰالُوا اٰمَنّٰا وَاِذٰا خَلاٰ بَعْضُهُمْ اِلىٰ بَعْضٍ** من أبناء نوعهم من اليهود **قٰالُوا اَتُحَدِّثُونَهُمْ** أي أتحدّثون المؤمنين بمحمّد ﷺ **بِمٰا فَتَحَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ** أي بما أنزله في كتابكم من بعث محمّدٍ و به قال قتادة و قال مجاهد ذلك قول يهود بني قُريظة حين سَبّهم النّبي بأنّهم أخوة القِردة والخنازير قالوا من حدّثك بهذا حين أرسَل

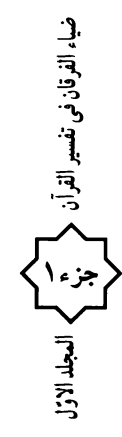
اليهم علّياً قال بعضهم لبعضٍ ما أَخبَره بهذا إلاّ منكم أتحدّثونهم بما فَتَح اللّه عليكم.

و قال السّدي هؤلاء ناس أمنوا من اليهود ثمّ نافقوا و كانوا يحدّثون المؤمنين من العَرب بما عُذّبوا به فقال بعضهم لبعضٍ أتُحدّثونهم بما فَتَح اللّه عليكم من العذاب **لِيُحٰاجُّوكُمْ** به ليقولوا نحن أحبّ الىٰ اللّه منكم وأكرم عليه منكم و مثله.

روي عن أبي جعفر عليه السلام: اَفَلاٰ تَعْقِلُونَ أي أنّ العاقل لا يقدم بما فيه ضررٌ و شماتة فقال اللّه تعالىٰ اَوَ لاٰ يَعْلَمُونَ اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَمٰا يُعْلِنُونَ ، أي أنّ الّذين يقولون كذلك لا يعلمون أنّ اللّه يعلم ما يُسّرون في أنفسهم وما يُعلنون من أعمالهم أي أنّهم يعلمون ولكن الدّنيا خُليت في أعينهم وحبّ الشّئ يُعمي ويُصمّ واللّه لبالمرصاد.

قال علّي ابن إبراهيم أنّها نزلت في اليهود قد كانوا أظهروا الإسلام و كانوا منافقين و كانوا اذ رأوا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قالوا: أنّا معكم و اذا رأوا اليهود قالوا أنّا معكم وكانوا يخبرُون المسلمين بما في التّوارة من صفة رسول اللّه وأصحابه فقال لهم كبرائهم و عُلمائهم اَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمٰا فَتَحَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ لِيُحٰاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ اَفَلاٰ تَعْقِلُونَ فَرّدَ اللّه عليهم فقال أفَلا يَعلمون أنّ اللّه يَعلم ما يُسّرون وما يُعلنُون.

روىٰ الطّبري في تفسيره بأسناده عن مجاهد في قول اللّه اَفَتَطْمَعُونَ اَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ الىٰ قوله وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، فالّذين يُحرّفونه والّذين يُكتمُونه هم العلماء منهم.



و بأسناده عن السّدي قال: هي التّوراة حَرّفوها

و بأسناده عن محمّد بن إسحاق قال: بلغني عن بعض أهل العلم أنّهم قالوا لموسىٰ قد حيل بيننا وبين رؤية اللّه عزّ وجلّ فأسمِعنا كلامه حين يكلّمك فطلب ذلك موسىٰ الىٰ ربّه فقال نِعم فمرهم أن يتطهّروا و يطهّروا ثيابهم ويصوموا ففَعلوا ثمّ خَرج بهم حتّىٰ أتىٰ الطّور فلمّا غشيهم الغمام أمرهم موسىٰ فوقعوا شجُوداً فكلّمه ربّه فسمعُوا كلامه يأمرهم و ينهاهم حتّىٰ عقلوا ما سمعُوا ثمّ إنصرف بهم الىٰ بني إسرائيل أنّ اللّه قد أمركم بكذا وبكذا قال ذلك الفريق الّذين ذكرهم اللّه أنّما قال كذا و كذا خلافاً لما قال اللّه عزّ وجلّ لهم فهُم الّذين عَنىٰ اللّه لرسوله انتهىٰ.

أقول هذه الرّواية و أمثالها ممّا ذكروه في تّفاسيرهم لا ينبغي أن يُعتمد عليها و ذلک لأنّ كلام اللّه لا يَسمعه إلاّ من خصّه اللّه به من عباده الّذين إصطفىٰ وللبحث فيه موضع أخر.

■



وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاٰ يَعْلَمُونَ الْكِتٰابَ الاّٰ اَمٰانِيَّ وَاِنْ هُمْ اِلاّٰ يَظُنُّونَ «۷۸» فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتٰابِ بِاَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذٰا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا كَتَبَتْ اَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّٰا يَكْسِبُونَ «۷۹» وَقٰالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النّٰارُ اِلاّٰ اَيّٰاماً مَعْدُودَةً قُلْ اَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّٰهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ عَهْدَه اَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ «۸۰» بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَاَحٰاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُه فَاُولٰئِكَ اَصْحٰابُ النّٰارِ هُمْ فيهٰا خٰالِدُونَ «۸۱» وَالَّذِينَ اٰمَنُوا وعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ اُولٰئِكَ اَصْحٰابُ الْجَنَّةِ هُمْ فيهٰا خٰالِدُونَ «۸۲»

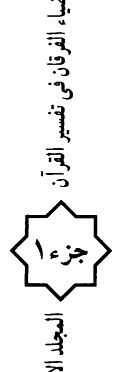
◁ اللّغة

أُمِّيُّونَ: جمع أمّي والياء للنّسبة قال الرّاغب يقال لكلّ ما كان أصلاً لوجود شيءٍ أو تربيته أو إصلاحه أو مبدأه أُمٌّ، قال الخليل كلّ شيءٍ ضُمّ اليه سائر ما يليه سُمّي أُمّاً

اَمٰانِيَّ: الأمانى جمع الأمنية و هي الصّورة الحاصلة في النّفس من تـمّني الشّيء و لمّا كان الكذب تصّور ما لا حقيقة له وإيراده باللّفظ صار التّمني كالمبدأ للكذب فصّح أن يُعبّر عنه به.

فَوَيْلٌ: الويل القُبح وقد يستعمل على التحسّر.

خَطِيئَتُه: الخَطيئة والسّيئة يتقاربان بإلاّ أنّ الخَطيئة تطلق علىٰ ما قصد فيه و السّيئة تطلق علىٰ ما يقصد فعله من العصيان.



◁ الإعراب

أُمِّيُّونَ مبتدأ و منهم خبره قدّم عليه لأنّ الظّرف ممّا تُوّسع عليه و يجوز علىٰ مذهب الأخفش أن يرتفع بالظّرف **لا يَعْلَمُونَ** في موضع رفع صفة لقوله، أُمّيون **اَلاّ اَمٰانِيَّ** إستثناء منقطع لأنّ الأماني ليست من جنس العلم **وَاِنْ هُمْ** إن بمعنىٰ النفى **اِلاّ يَظُنُّونَ** أي قومٌ يظنون **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ** مبتدأ و خبر **الْكِتٰابِ** مفعول به بمعنى المكتوب **لِيَشْتَرُوا** اللام متعلقة بيقولون **قَليلاً** حال **مِمّٰا كَتَبَتْ اَيْديهِمْ** ما بمعنىٰ الّذي أو نكرة موصوفة أو مصّدرية وكذلك ممّا يكسبون **اِلاّ اَيّٰاماً** منصوب علىٰ الظّرف وأصل أيّام أيوام، لأنّه من اليوم قلّبت الواو ياءً و أدغمت الياء في الياء تخفيفاً **اَتَّخَذْتُمْ** الهمزة للإستفهام و همزة الوصل محذوفة إستغناءً بها عنها و هو بمعنىٰ جعلتم المتعدّية الىٰ مفعولٍ واحد **فَلَنْ يُخْلِفَ** التقدّير فيقولون لَن يخلف **مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ** ما بمعنىٰ الّذي أو نكرة و لا تكون مصّدرية هُنا **بَلىٰ** حرف يثبت به المجيب المنفي قبله **مَنْ كَسَبَ** في مَن، وجهان.

أحدهما هي بمعنىٰ الّذى.

الثّانى: أنّها شرّطية و علىٰ الوجهين من مبتدأ إلاّ أنّ، من كسب، لا موضع لها أن كانت مَن موصولة ولها موضع أن كانت شرّطية والجواب **فَاُولٰئِكَ** و هو مبتدأ و أصحاب النّار خبره، والجملة جواب الشّرط أو خبر مَن.

◁ التّفسير

قوله: **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ** الىٰ أخر الآية معناه أنّ من اليهود و قيل من اليهود و المنافقين أُمّيون، أي مَن لا يكتب و لا يقرأ إلاّ أمانّي قيل إلاّ بمعنىٰ لكن فهو إستثناء منقطع كقوله تعالىٰ و مالهم به علم إلاّ إتّباع الظّن، و في الآية مسائل:

الأولىٰ: أنّه يستفاد من قوله تعالىٰ: **مِنْهُمْ** بعض اليهود كانوا كذلك لأنّ كلمة

مِن، للتّبعيض و أنّما قلنا ذلك لأنّ كلّهم لم يكونوا من الأُمّيين فأنّ علمائهم كانوا يكتبون و يقرأون.

الثّانية: قالوا في وجه تسمّية من لا يحسن الكتابة بأمّي وجوهاً:

أحدها: أنّ الأمة الخلقة فسمّي أُمّياً لأنّه باقٍ علىٰ خلقته و منه قول الأعشي:

و أنّ مـــعاوية الأكـــرمين حســان الوجـوه طـوال الأمَـم

ثانيها: أنّه مأخوذ من الأمّة التّي هي الجماعة أي هو علىٰ أصل ما عليه الأُمّة في أنّه لا يكتب لأنّه يتستفيد الكتابة بعد أن لم يكن يكتب.

ثالثها: أنّه مأخوذ من الأُمّ أي هو علىٰ ما ولدته أُمّه في أنّه لا يكتب و قيل أنّما نسب الىٰ أُمّه لأنّ الكتابة أنّما تكون في الرّجال دون النّساء و هذه الوجوه الثّلاثة ذكرها الطّبرسى.

رابعها: ما ذكره بعض المفسّرين من العامّة و هو أنّهم سمّوا بـه لأنـهم لم يصّدقوا بِامّ الكتاب نقلوه عن ابن عبّاس.

خامسها: ما نُسب الىٰ أبي عبيدة أنّه قال قيل لهم أُمّيون لنزُول الكتاب عليهم كأنّهم نُسبوا الىٰ أُمّ الكتاب فكأنّه قال ومنهم أهل الكتاب لا يـعلمون الكتاب.

سادسها؛ ما قيل هم قومٌ من أهل الكتاب رفع كتابهم لذنُـوب إرتكـبوها فصاروا أُمّيين.

أقول هذه الوجوه السّتة كلّها لا يرجع الىٰ محصّل و أنّما اخترعوها من عند أنفسهم و قد غفلوا عن أصل المعنىٰ و ذلک لأنّ الأُمّي منسوب الىٰ الأُمّ و هذا ممّا لا كلام فيه و الامّ في اللّغة الأصل فأنّهم يقولون أُمّ الشّئ أصلَه كما نقلناه عن الرّاغب.

و قال في المُنجد **الأُمّ**، الوالدة، أصل الشّئ و قال في مجمع البَحرين وأنّه في أُمّ الكتاب أي في أصل الكتاب و أُمّ الكتاب أيضاً فاتحة الكتاب لأنّها أوّله و

أصله و بالجملة هذا قول جميع أهل اللّغة فيما نَعلم و عليه فالأُمّي مَنسُوب الىٰ الأُمّ الّذي هو أصله والأصل في الإنسان عدم الكتابة والقراءة لأنّه حين الولادة لا يعلم شيئاً من القراءة والكتابة فكلّ من يطلق عليه الأُمّي فهو بهذا المعنىٰ و إطلاق الأُمّ علىٰ الوالدة لكونها هي الأصل دون الأب فأنّ الإنسان يولد من والدته لا من أبيه و أمّا ما ذكره الطّبرسي ﷺ في الوجه الثّالث من أنّ الكتابة تكون في الرّجال دون النّساء فلا وجه له بل أنّما نَسب الىٰ أُمّه لما ذكرناه من الوجه و هو إصالتها بالنّسبة لىٰ الأولاد.

و بالجملة لا يطلق الأُمّ الا علىٰ الأصل اذا عرفت هذا فنقول النّاس علىٰ قسمين:

قسم منهم باقون علىٰ أصل و لادتهم لا يعلمون شيئاً من القراءة و الكتابة فهم الأُمّيون و قسمٌ عالم بهما فهُم غير أُمّيين أن قلت فما معنىٰ الأُمّي في رسول اللّه ﷺ قلتُ معناه أنّه وُلد في أُمّ القرىٰ و أصلها و هو أرض مكّة الا انّه كان الىٰ أخر عمره أُمّيا بالمعنىٰ الّذي ذكروه أي كان ﷺ لا يقرأ و لا يكتب و ذلك لأنّ النّبي و لا سيّما نبّينا الّذي هو أفضل الأنبياء و أكملهم لا يجوز أن يكون أُمّياً بهذا المعنىٰ الّذي ذكروه أي كان لا يعلم القراءة و الكتابة وأيّ نقصٍ في الرّسول أعظم من نقص الجهل بهما أليست الكتابة و القراءة من الكمالات و قد ثبت أنّ الرّسول جامع لجميع الكمالات و سيأتي تحقيقه إن شاء اللّه.

فقوله تعالىٰ: **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاٰ يَعْلَمُونَ الْكِتٰابَ** معناه أنّ بعض اليهود كانوا باقين علىٰ الأصل لا يعلمون بعض الكتاب أي لا يكتبون و لا يقرأون كما هو شأن العوام من كلّ قومٍ و أمّا قوله تعالىٰ: **اِلاّٰ اَمٰانِيَّ وَاِنْ هُمْ اِلاّٰ يَظُنُّونَ** فقد قيل في معناه وجوه:

أحدها: أن تكون الاماني بمعنىٰ الأكاذيب و عليه فالمعنىٰ أنّ الأُمّيين لا

يعلمون من الكتاب إلاّ الأكاذيب و الموهومات الّتي ليست من الكتاب بشيءٍ.

ثانيها: أنّ الأماني بمعنىٰ ما يتمّناه الإنسان ويشتهيه يعني لا يعلمون من الكتاب إلاّ ما يَتمّنونه من حطام الدّنيا و لذلك يحرّفونه.

ثالثها: أنّهم يتمّنون علىٰ اللّه ما ليس لهم.

رابعها: أن تكون الأمنية بمعنىٰ التّلاوة والمعنىٰ لا يعلمون من الكتاب إلاّ تلاوته كما قال الشّاعر:

تـمّنىٰ كـتاب اللّـه أول ليـلةٍ   وأخـره لا فـي حـمام المـقادر

و قال أخر:

تَـمّنىٰ كـتاب اللّـه أخـر ليـلة   تـمّنىٰ داود الزّبُـور عـلىٰ رسلٍ

خامسها: أنّ المراد بالأماني الأحاديث المُختلفة نقل هذا القول عن القّراء

سادسها: أن يكون الأماني بمعنىٰ التّقدير يـقال مـنى له أي قَـدّر حكـاه القرطبي عن الجوهري و منه قول الشّاعر:

لا تَأمَنّن وأن أمَسَيت فـي حَـرَم   حتّىٰ تلاقي ما يَمني لك المـاني

أي يقدّر لك المقّدر قال في الكشّاف والأماني من الإستثناء المنقطع و قرأ بأماني بالتخفّيف، ذكر العلماء الّذين عاندوا بالتّحريف مع العلم والإستيقان ثمّ العوام الّذين قلّدوهم ونبّه علىٰ أنّهم في الضّلال سواء لأنّ العالم عليه أن يَعمل بعلمه و علىٰ العامي أن لا يرضىٰ بالتقلّيد والظّن و هو متمكّن من العلم و قوله: **وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** إن نافية نحو قوله تعالىٰ: **إِنِ ٱلْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ**(1) و قوله **يَظُنُّونَ** أي لا علم لهم بصحّة ما يقولون لأنّهم مقلدون لأحبارهم فـيما يقررون به والظّن ترجيح أحد الجانبين علىٰ الأخر لإمارةٍ صحيحة و ليس هو من قبيل الإعتقادات علىٰ الصحّيح من المَذهَب و من النّاس من قال أنّه إعتقاد ثمّ إعلم أنّ معنىٰ الآية بناءً علىٰ ما ذكروه في معنىٰ الأُمّي والأمانّي يصير هكذا

۱- الملک = ۲۰

ومن اليهود أُمّيون لا يعلمون معاني الكتاب و أنّما حفظوا ألفاظاً ممّا ألقاه اليهم أحبارهم و ظنّوا أنّها من الكتاب و ليست منه و كيف كان فالأية دالّة علىٰ ذمّ التّقليد في الإعتقادات كما هو الحقّ هذا تمام الكلام في هذه الأية.

و أمّا الآية الثّانية: و هي قوله تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابِ** الىٰ آخر الأية.

فهي نزلت في شأن علماء اليهود والمراد بالكتاب في الآية معناه اللّغوي لا التّوراة والإنجيل مثلاً و الّدليل عليه قوله تعالىٰ: **ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ** و هو دليلٌ علىٰ أنّهم كانوا يكتبون كتاباً من عند أنفسهم ثمّ يقولون هو من عند اللّه والكتّاب مصدر بمعنىٰ المكتوب و أنّما فعلوا ذلك **لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَليلاً** قيل كتابتهم بأيديهم أنّهم عمدوا الىٰ التّوراة و حرّفوا صفة النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ليواقعوا الشكّ بذلك للمتّقين من اليهود و هو المرّوي عن أبى جعفرالباقر و عن جماعة من أهل التفسّير و قيل كانت صفة في التّوراة إسمه ربعة فجعلوه آدم طويلاً و نقل عن عكرمة عن إبن‌عبّاس قال أنّ أحبار اليهُود وجدوا صفة النّبي مكتوبة في التّوراة أكحل أعين ربعة حسن الوجه فمحوه من التّوراة حسداً و بغياً فأتاهم نفر من قريش فقالوا أتجدون في التّوراة نبّياً منّا قالوا نعم نجده طويلاً أرزق سبط الشّعر ذكره الواحدي بأسناده في الوسيط وكان غرضهم من هذا الفعل أخذ الأموال من عوامهم و ذِكرُ لفظ الإشتراء من باب التّوسع والمراد أنّهم تركوا الحقّ و أظهروا الباطل ليأخذوا علىٰ ذلك شيئاً كمن يشتري السّلعة بما يعطيه ثمّ هَدَّدهم اللّه بقوله: **فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمّا كَتَبَتْ اَيْديهِمْ** أي عذاب و خزى لهم ممّا فعلوا من تحريف الكتاب **وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمّا يَكْسِبُونَ** من الأموال أو من المعاصي والرّشىٰ الّتي يأخذويها من العّوام.

قد روي عن الإمام العسكري عليه السلام في قوله تعالىٰ: فَوَيْلٌ لِلَّذينَ يَكْتُبُونَ اَلْكِتابَ[1] قال عليه السلام: قال اللّه تبارك و تعالىٰ هذا القوم من

١- البقرة= ٧٩

اليهود كتبوا صفة زعموا أنّها صفة محمّدٍ و هي خلاف صفته و قالوا لِلمستضعفين منهم هذه صفة النّبي المبعوث في آخر الزّمان أنّه طويل عظيم البدن والبَطن أهدَف أصهَب الشّعر و محمّد بخلافه و هو يجئ بعد هذا الزّمان بخمس مِائة سنة وأنّما أرادوا بذلك لتبقىٰ علىٰ ضعفائهم رئاستهم و تدوم لهم أصاباتهم ويكفّوا أنفسهم مؤونة خدمة رسول اللّه و خدمة علّيٍ و أهل خاصّته فقال اللّه عزّ وجلّ: **فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ اَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** من هذه الصّفات المحرّنات المخالفات لِصفة محمّدٍ و علّيٍ الشدّة من العذاب في أسوَء بقاع جهنّم و ويلٌ لهم الشّدة من العذابٍ ثانية مضافة الىٰ الأولىٰ ممّا يكسبونه من الأموال الّتي يأخذونها إذا أثبتوا أعوانهم علىٰ الكّفر بمحمّدٍ والجَحَد لوّصيه و أمينه علّيٍ ولي اللّه انتهىٰ.

أمّا الآية الثّالثة: و هي قوله تعالىٰ: **وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ اِلآّ اَيَّاماً مَّعْدُودَةً** فالمعنىٰ أنّ اليهود قالت لن تَمسَّناالنّار أي لن تصيبنا إلاّ أيّاماً مَعدُودة أي أيّاماً قلائل فقال اللّه تعالىٰ قل لهم يا محمّد، أتّخذتم عند اللّه عَهداً، أي موثقاً أنّه لا يعذّبكم إلاّ هذه المدّة و عَرفتم ذلك بوحيه و تنزيله فأن كان كذلك فلن يخلف اللّه عهده، أم تقولون علىٰ اللّه ما لا تعلمون جهلاً منكم به و قيل أنّ النّبي صلی الله علیه و آله و سلم قال لليهود، من أهل النّار، قالوا نحن ثمّ تخلفونا أنتم فقال كذبتم لقد علمتم إنّا لا نخلفكم فنزلت هذه الآية ونقل عن عكرمة من إبن عبّاس قدم رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم المدينة واليهود تقول أنّما الدّنيا سبعة آلاف و أنّما يعذّب النّاس في النّار لكلّ ألف سَنةٍ من أيّام الدّنيا يوم واحد من أيّام الأخرة و أنّما هي سبعة أيّام فأنزّل اللّه الآية و قالت طائفة أخرىٰ قالت اليهود أنّ في التّوراة أنّ جهنّم مسيرة أربعين سنة وأنّهم يقطعون في كلّ يومٍ سنة حتّىٰ



يكملوها و تذهب جهنّم و عن إبن عاس زعم اليهود أنّهم وجدوا في التّوراة مكتوباً أنّ ما بين طَرَفي جَهنّم مسيرة أربعين سنة الىٰ أن يـنتهوا الىٰ شـجرة الزّقُوم و قالوا أنّما نُعذّب حتّىٰ ننتهي الىٰ شجرة الزّقوم فنذهب جهنّم و تهلك.

و عنه أيضاً أنّ اليهود قالت أنّ اللّه أقسم أن يدخلّنهم النّار أربعين يوماً عَدَد عبادتهم العِجل فأكذبهم اللّه كما تقّدم أقول و يُؤيد القول الأخير ما في تفسير علّي ابن إبراهيم عند هذه الآية قال عليه‌السلام قال بنو إسرائيل لَن تَمسّنا النّار إلاّ الأيّام المعدودات التّي عَبدنا العِجل فَرَّد اللّه عَليهم قل يا محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لهم أتَّخَذتم عند اللّه عَهداً أم تَقولون علىٰ اللّه ما لا تعلمُون، و في قوله تعالىٰ فَلن يخلف اللّه عَهده.

■

وَاِذْ اَخَذْنٰا مِيثٰاقَ بَنِىٓ اِسْرٰآئِيلَ لاٰ تَعْبُدُونَ اِلاَّ اللّٰهَ وَبِالْوٰالِدَيْنِ اِحْسٰاناً وَّذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتٰامىٰ وَالْمَسٰاكِينَ وَقُولُوا لِلنّٰاسِ حُسْناً وَاَقِيمُوا الصَّلٰوٰةَ وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ اِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَاَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَاِذْ اَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ لاٰ تَسْفِكُونَ دِمٰائَكُمْ وَلاٰ تُخْرِجُونَ اَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيٰارِكُمْ ثُمَّ اَقْرَرْتُمْ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

◁ اللّغة

اَخَذْنٰا: الأخذ حوز الشّئ وتحصيله.

وَبِالْوٰالِدَيْنِ: الأَب والأُمّ.

الْقُرْبىٰ: مصدر قربت منّي رحِم فلان قرابةً وقُربىٰ وقرباء.

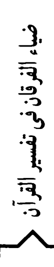
وَالْيَتٰامىٰ: جمع يتيم مثل ندامىٰ جمع نديم واليتيم الّذي مات أبوه.

وَالْمَسٰاكِينَ: جمع مسكين و هو المُتخشع المُتّذلل من الحاجة.

تَوَلَّيْتُمْ: أي أعرضتُم.

تَسْفِكُونَ: السّفك الصَّب.

دِمٰائَكُمْ: الدّماء جمع الدّم.



◁ الإعراب

لاٰ تَعْبُدُونَ اِلاَّ اللّٰهَ فيها وجوهٌ من الإعراب أحَسَنها أنّها في موضع نصب علىٰ الحال تقديره أخذنا ميثاقهم مُوّحدين وإلاّ الّله، مفعول، تعبدون، إلاّ قليلاً منكم، النّصب علىٰ الإستثناء المُتّصل وَاَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ مبتدأ وخبر والجملة في موضع الحال المُؤكدة وَاَنْتُمْ تَشْهَدُونَ مبتدأ و خبر في موضع الحال.

◁ التّفسير

و أذكروا **وَاِذْ اَخَذْنا ميثاقَ بَنىٓ اِسْرآئيلَ** و هم أولاد يعقوب كما مرّ شرحه علىٰ أمور:

أحدها: أن **لا تَعْبُدُونَ اِلاَّ اللّٰهَ**.

ثانيها: **وَبِالْوالِدَيْنِ اِحْساناً**.

ثالثها: **وَّذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ وَالْمَساكينَ**.

رابعها: **وَقُولُوا لِلنّاسِ حُسْناً**.

خامسها: **وَاَقيمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ** فالمسائل خمسة.

المسألة الأولىٰ: في تفسير قوله: **لا تَعْبُدُونَ اِلاَّ اللّٰهَ** قلنا سابقاً أنّ العبَودية إظهار التذلّل والعبادة أبلغ منها لأنّها غاية التذلّل و لا يستحقّها إلاّ من له غاية الإفضال و هو اللّه تعالىٰ ولهذا قال اللّه و لا تَعبدوا إلاّ إيّاه ثمّ أنّ العبادة تارةً بالتّخيير كما مرّ في السّجود و أخرىٰ بالإختيار و هي لِذوي النّطق و هي المأمور بها في المقام وغيره نحو قوله أعبُدوا ربّكم، وأعبدُوا اللّه، و لا تَعبدُوا إلاّ إيّاه، وأعبد ربّك حتّىٰ يأتيك اليقين و أمثالها من الأيات ثمّ أنّ العبادة في أصل اللّغة غاية التذلّل كما مَرّ وفي الإصطلاح هيَ المواظبة علىٰ الفعل المأمور به.

قال المحقّق الطّوسي ﷺ علىٰ ما نقل عنه، عبادة اللّه ثلاثة أنواع، الأوّل ما يجب علىٰ الأبدان كالصّلاة والصّيام والسّعي في المواقف الشّريفة لمناجاته تعالىٰ شأنه.

الثّانى: ما يجب علىٰ النّفوس كالإعتقادات الصّحيحة من العلم بتوحيد اللّه و ما يستّحقه من الثّناء والتّمجيد والفكر في ما أفاضه اللّه سبحانه علىٰ العالم من وجوده و حكمته ثمّ الإتّساع في هذه المعارف.

الثّالث: ما يجب عند مشاركات النّاس في المدن و هي في المعاملات و المزارعات و المناكحات و تأدية الأمانات و نصح البعض للبعض بضروب المعاونات و جهاد الأعداء والذّب عن الحريم و حماية الحوزة انتهىٰ ماذكره و أمّا حقيقة العُبودّية كما ورد عن الصّادق عليه‌السلام في حدث عنوان البصري ثلاثة أشياء:

أحدها: أن لا يرىٰ العبد لنفسه فيما خوَّله اللّه مِلكاً لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك بل يرون المال مال اللّه يصنعونه حيث أمَرهم اللّه.

ثانيها: أن لا يدّبر العبد لنفسه تدبيراً.

ثالثها: جملة إشتغاله فيما أمَرَه اللّه و نهاه عنه فاذا لم يَر العبد فيما خَوّله مِلكاً هان عليه الإنفاق واذا فوض العبد تدبير نفسه الىٰ مدّبرها هانت عليه مصائب الدّنيا و اذا إشتغل العبد فيما أمره اللّه و نهاه لا يتفرع منها الىٰ المراء و المباهات مع النّاس فاذا أكرم اللّـه العبد بهذه الثّلاث هانت عليه الدّنيا الحديث.

المسألة الثّانية:**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** الإحسان مصدر قولك أحسن إحساناً و هو مأخوذ من الحسن، والحسن عبارة عن كلّ مُبتهج مرغوب فيه و ذلک ثلاثة أضرب، مُستحسن من جهة العقل، مُستحسنٌ من جهة الهَوىٰ، مُستّحسنٌ من جهة الحسّ، والحسنة يعبّر بها عن كلّ ما يسّر من نعمةٍ تنال الإنسان في نفسه و بَدنه وأحواله والسّيئة تضّادها، والإحسان يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: الإنعام علىٰ الغير يقال أحَسَن فلان.

الثّاني: الاحسان في فعله و ذلک اذا علم علماً حَسناً أو عَلم عملاً حَسَناً و علىٰ **هذا قول أمير المؤمنين** عليه‌السلام **النّاس أبناء ما يُحسنون، أي منسُوبون الىٰ ما يعلمون، وما يعلمونه من الافعال الحَسَنة** قال اللّه تعالىٰ:**اَلَّذِیٓ أَحْسَنَ**

كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ[١] و الإحسان أعمّ من الإنعام قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ ٱلْإِحْسٰانِ** [٢] فالإحسان فوق العَدل و ذلک لأنّ العدل هو أن يُعطي ما عليه و يأخذ ماله، والإحسان أن يُعطي أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد علىٰ العَدل فتحرّي العَدل واجب و تحرّي الإحسان ندب و تطّوع اذا عرفت معنىٰ الإحسان فنقول قوله تعالىٰ: **وَبِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰاناً** معناه أن تُعطي الوالَدين أكثر ممّا عليك و تأخذ منهما أقلّ وكيف كان فالإحسان مطلقاً أمرٌ مرغوب فيه شرعاً و عقلاً بالنّسبة الىٰ اى شخصٍ كان مع ذلك هو بالنّسبة الىٰ الوالدين أحَسن و أفضل وكفىٰ في ذلك أنّ اللّه تعالىٰ قرن الإحسان بهما الىٰ عبادة اللّه و طاعته في كثير من الأيات فذكر بعد الأمر بالعبادة الإحسان الىٰ الوالدين و هو يدّل علىٰ أنّ الإحسان بهما بعد عبادة اللّه وطاعته في الشّرف والفَضل:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**[٣]

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ تَعٰالَوْا أَتْلُ مٰا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**[٤]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ وَ بِالْوٰالِدَيْنِ إِحْسٰانًا**[٥]

قال اللّه تعالىٰ: **أَنِ ٱشْكُرْ لي وَ لِوٰالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ**[٦]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ إِحْسٰانًا**[٧]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ وَصَّيْنَا ٱلْإِنْسٰانَ بِوٰالِدَيْهِ حُسْنًا**[٨]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ بَرًّا بِوٰالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبّٰارًا عَصِيًّا**[٩] و غيرها من الأيات.

١- السجدة = ٧
٢- النحل = ٩١
٣- النّساء = ٣٦
٤- سورة الأنعام أية ١٥١
٥- الإسراء = ٢٣
٦- لقمان = ١٤
٧- الأحقاف = ١٥
٨- العنكبوت = ٨
٩- مريم = ١٤

ومن الأخبار :

قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: كُن بارّاً وأقصر علىٰ الجنّة وأن كنت عاقّاً فأقصر علىٰ النّار.

و عن أبي جعفر علیه السلام قال: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم في كلام له إيّاكم و عقوق الوالدين فأنّ ريح الجنّة تُوجد من مسيرة ألف عامٍ و لا يجدها عاق الحديث.

و قال صلی الله علیه و آله و سلم: من أصبَح مسخطاً لأبويه أصبَح له بابان مفتوحان الىٰ النّار.

و قال الصّادق علیه السلام: من نظر الىٰ أبويه نظر ماقت وهما ظالمان له لم يقبل اللّه له صلاة.

و قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: كلّ المسلمين يَروني يوم القيامة إلاّ عاق الوالدين وشارب الخمر.

و قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم: برّ الوالدين أفضل من الصّلاة و الصّوم و الحجّ و العمرة و الجهاد في سبيل اللّه.

و قال صلی الله علیه و آله و سلم: مَن أصبَح مرّضياً لأبويه أصبَح له بابان مفتوحان الىٰ الجنّة.

و قال رجل للرّضا علیه السلام: أدعوا لوالّدي اذ كانا لا يعرفان الحقّ قال علیه السلام أدعُ لهما و تصّدق عنهما و أن كانا حيين لا يعرفان الحقّ فدارهما فأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله و سلم قال أنّ اللّه بَعثني بالرّحمة لا بالعقوق.

و الأحاديث نقلناها عن جامع السّعادات لِلنّراقي [1].

و يظهر من الأيات أنّ الإحسان اليهما والبّر بهما ممّا هو كان ثابتاً في جميع

١- ج ٢ ص ٢٥٧

الأديان كما ترىٰ في الآية المبحوثة عنها مع أنّها خطاب لبني إسرائيل و هو كذلك فأنّ الإحسان بهما لا يختّص بقوم خاصّ.

المسألة الثّالثة: في تفسير قوله تعالىٰ **وَّذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتٰامىٰ وَالْمَسٰاكِينَ** الواو للعطف أي وأحسنُوا الىٰ ذي القُربىٰ واليتامىٰ و المساكين أيضاً، والإحسان الىٰ ذي القُربىٰ أي تصلوا رحمه و تعرفوا حقّه و باليتامىٰ بأن تعطّفوا عليهم بالرّأفة و الرّحمة، وبالمساكين أن توفوهم حقوقهم التّي ألَزمها اللّه في أموالكم وقد أُشير الىٰ هذا في كثير من الأيات:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اٰتَى اَلْمٰالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِى اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْيَتٰامىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَبِالْوٰالِدَيْنِ اِحْسٰاناً وَّذِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتٰامىٰ وَالْمَسٰاكِينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ اَللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ اَلْإِحْسٰانِ وَ اِيتٰآءِ ذِى اَلْقُرْبىٰ**[3] و أمثالها من الأيات.

و عن تفسير الإمام قال عليه السلام: و أمّا قوله عزّ وجلّ و ذىالقُربىٰ فهم من قراباتك من أبيك و أُمّك قيل لك أعرف حقّهم كما أخذ به العهد علىٰ بني إسرائيل وأخذ عليكم معاشر أُمّة محمّدٍ بمعرفة حقّ قرابات محمّد الّذين هم الأئمة بعده و من يليهم بعد من خيار أهل دينهم.

قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: من رَعىٰ حقّ قرابات والديه أعطىٰ في الجنّة ألف درجة ما بين الدّرجتين حفر الفَرس المضمر مائة سنة إحدىٰ الدّرجات من فضّة والأخرىٰ من ذَهَب والأخرىٰ من لؤلؤ والأخرىٰ

١- البقرة= ١٧٧
٢- سورة النّساء أية ٣٦
٣- النّحل= ٩٠

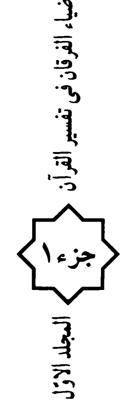
من زُمّرد و أخرىٰ من زَبرجد و أخرىٰ من مسكٍ و أخرىٰ من عَنبرٍ و أخرىٰ من كافور و تلك الدّرجات من هذه الأصناف و من رَعىٰ حقّ قربىٰ محمّدٍ و علّيٍ أعطىٰ من فضل الدّرجات و زيادة المثوبات علىٰ قدر زيادة فضل محمّدٍ وعلّيٍ علىٰ أبوي نَسَبه و أمّا قول اللّه عزّ وجلّ واليتامىٰ فأنّ رسول اللّه ﷺ قال حثّ اللّه عزّ وجلّ علىٰ برّ اليتامىٰ لإنقطاعهم عن أبائهم فمن صانهم صانه اللّه و من أكرَمهم أكَرمه اللّه ومن مسح يده برأس يَتيم رِفقاً به جعل اللّه له في الجنّة لكلّ شعرةٍ من تحت يده قصراً أوسَع من الدّنيا بما فيها و فيها ما تشتهي الأنفس وتلّذ الأعين وهم فيها خالدون الىٰ أن قال عليه السلام و أمّا قوله عزّ وجلّ: وَالْمَسَاكِينَ و هو من سكن الضرّ و الفقر حركته ألا فمن و اساهُم بحواشي ماله وسَّع اللّه عليه خبانه و أناله غفرانه و رضوانه.

المسألة الرّابعة: قوله تعالىٰ: **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً** قد مرّ معنىٰ الحُسن، و المقصود من هذا القَول الحَسن الجميل و هو ممّا إرتضاه اللّه و أحَبّه نقل هذا عن ابن عبّاس.

و قيل المراد به الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر عن سفيان الثّوري و قال الرّبيع بن أنَس أي قولوا لِلنّاس مَعرُوفاً.

و روي عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: قولوا للنّاس أحَسن ما تحبّون أن يقال لكم فأنّ اللّه يبغض اللّعان السّباب الطّعان علىٰ المؤمنين الفاحش السّائل المخلف و يحبّ الحليم العفيف المتّعفف.

قال الطّبرسي رحمه الله بعد نقله ما نقلناه ثمّ إختلف فيه من وجهٍ أخر هو عامّ في المؤمن والكافر علىٰ ما روي عن الباقر عليه السلام: و قيل هو خاصّ في المؤمن أقول الحقّ أنّه عامّ فيهما لما رُوي عن



الصّادق عليه السلام: أنّه قال قولوا لِلنّاس حُسناً كلّهم مؤمنهم ومخالفهم أمّا المؤمنون فيبسط لهم وَجهه و بَشره و أمّا المخالفون فيكلّمهم بالمداراة لإجتذابهم الیٰ الإيمان فأن ييأس من ذلك يكّف شرورهم عن نفسه وأخوانه المؤمنين ثمّ قال عليه السلام مداراة أعداء اللّه من أفضل صدقة المرء علیٰ نفسه وأخوانه كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في منزله اذا إستأذن عليه عبد اللّه بن أبي بن مسلول فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بئس أخو العشيرة أئذنوا له فلما دَخل أجلَسه و بشر في وجهه فلمّا خرج قالت له عائشة يارسول اللّه قلت فيه ماقلت و فَعلت فيه من البشر ما فعلت فقال رسول اللّه ياعويش ياحُميراء أنّ شرّ النّاس عند اللّه يوم القيامة من يكرم إتّقاء شرّه انتهیٰ.

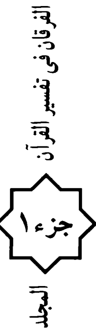
و في الكافي عن الصّادق عليه السلام: لا تقولوا إلاّ خيراً حتّیٰ تَعلمُوا ماهو انتهیٰ.

المسألة الرّابعة: قوله تعالیٰ: **وَاَقيمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ** و قد مرّ الكلام في إقامة الصّلاة و إيتاء الزّكاة عند قوله تعالیٰ: **وَ أَقيمُوا اَلصَّلٰوةَ وَ اٰتُوا اَلزَّكٰوةَ وَ اَرْكَعُوا مَعَ اَلرّٰاكِعِينَ** (١) فلا نعيد الكلام في المقام و أمّا قوله: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ اِلاّٰ قَليلاً مِّنْكُمْ وَاَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ** ففيه إشارة الیٰ إعراضهم و إدبارهم عن الحقّ إلاّ قليلاً منهم لقوله تعالیٰ: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبٰادِيَ اَلشَّكُورُ** (٢) و هو لا يَختّص باليهود بل حكم عامّ يشمل جميع الأُمم ثمّ قال تعالیٰ: **وَ إِذْ أَخَذْنٰا مِيثٰاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمٰاۤءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** (٣) فالمعنیٰ فأذكروا يابني إسرائيل اذا أخذنا ميثاقكم علیٰ أسلافكم و علیٰ كلّ من يصل اليه الخبر بذلك من أخلافكم الّذين أنتم فيهم، **لاٰ**

١- البقرة= ۴۳ ٢- سبا=١٣
٣- البقرة= ٨۴

تَسْفِكُونَ دِمٰائَكُمْ بـقتل بـعضكم بـعضاً، **وَلاٰ تُـخْرِجُونَ اَنْـفُسَكُمْ مِّـنْ دِيٰارِكُمْ**، أي لا يخرج بعضكم بعضاً من ديـارهم، و ذلک لأنّ ملّتهم كـانت واحدة وأمرهم واحد وكانوا في الأُمم كالشّخص الواحد جعل قتل بـعضهم بعضاً و إخراجهم كذلك قتلاً وإخراجاً لأنفسهم ونفياً لها و قيل المراد القصاص أي لا يقتل أحد فيُقتل قصاصاً فكأنّه سَفَك دمه وكذالک لا يزني و لا يرّتد فأنّ ذلك يبيح الدّم و لا يُفسد فينفىٰ فيكون قد أخرج نـفسه مـن ديـاره، و نـقل الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان قولاً أخر و هو أن يكون المراد لا يقتل الرّجل منكم غيره فيُقاد به قصاصاً فيكون بذلك قاتلاً نفسه لأنّه كالسّبب فيه و اضيف قتل الوّلي إيّاه قصاصاً اليه بذلك كما يقال لرجلٍ يعاقب لجنايةٍ جناها علىٰ نـفسه أَنت جَنيت علىٰ نفسك، قال وفيه قول ثالث و هو أنّ قـوله:و **اَنْـفُسَكُمْ** أراد بـه أخوانكم لأنّهم كنفسٍ واحدة، ثمّ أقـرّرتم و أنـتم تشـهدون، أي ثـمّ أقـرّرتم بالميثاق و إعترفتم علىٰ أنفسكم بلزومه و أنتم تشهدون عليها كقولك فلان مُقرٌّ علىٰ نفسه بكدا أي شاهد عليها، و قيل معناه أنتم تشـهدون اليـوم يـامعشر اليهود علىٰ إقرار أسلافكم بهذا الميثاق.

■



ثُمَّ اَنْتُمْ هٰؤُلاۤءِ تَقْتُلُونَ اَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْاِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَاِنْ يَّأْتُوكُمْ اُسارىٰ تُفٰادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ اِخْراجُهُمْ اَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزآءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ اِلاّٰ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ اِلىٰۤ اَشَدِّ الْعَذابِ وَمَا اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ اُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْاٰخِرَةِ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلاٰهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾

◁ اللّغة

تَظٰاهَرُونَ: أي تعاونون يقال ظاهرته عليه أي عاونته.

بِالْاِثْمِ وَالْعُدْوانِ: الإثم والأثام إسمٌ للأفعال المبطئة عن الثّواب و جمعه أثام.

العدوان والعَدو: التّجاوز و منافاة الإلتئام فتارة يعتبر بالقلب فيقال له العدّاوة والمعاداة و تارةً بالمشي فيقال العدو و تارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العُدوان والعدو.

اُسارىٰ: جمع أسير و هو مأخوذ من الأسر و هو الشّد بالقيد ثمّ قيل لكلّ مأخوذٍ ومقيّد وأن لم يكن مشدّداً.

◁ الإعراب

ثُمَّ اَنْتُمْ هٰؤُلاۤءِ: أنتم مبتدأ وفي خبره ثلاثة أوجه:

أحدها: تقتلون فعلىٰ هذا في **هؤلاء** وجهان:

أحدهما: في موضع نصب بإضمار أعنى.

الثّاني: هو منادىٰ أي ياهؤلاء.

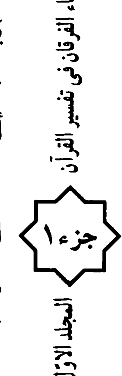
والوجه الثّاني: أنّ الخبر **هؤلاء** علىٰ أن يكون بمعنىٰ، الّذين، وتقتلون صلة.

والوجه الثّالث: أنّ الخبر **هؤلاء** علىٰ تقدير حذف مضاف تقديره ثمّ أنتم مثل هؤلاء فعلىٰ هذا، تقتلون حال يعمل فيها معنىٰ التّشبيه **تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ** في موضع نصب علىٰ الحال العامل فيها تخرجون و صاحب الحال الواو والأصل **تتظاهرون**، فقلبت التّاء الثّانية ظاءً و أدغمت و يقرأ بضمّ التّاء و كسر الهاء و التّخفيف و ما فيه ظاهر **وَالْعُدْوَانِ** مصدر مثل الكفران **أُسَارىٰ** حال **وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ** هو مبتدأ و محرّم خبره **إِخْرَاجُهُمْ** مرفوعٌ بمحرّم و يجوز أن يكون مبتدأ و محرّم خبره و إخراجهم، بَدل من الضّمير في، محرّم أو من هُو **فَمَا جَزَاءُ** ،ما نفي والخبر، خزي و يجوز أن يكون، ماء إستفهامية و هو مبتدأ و جزاء خبره **إِلاَّ خِزْيٌ** بدلٌ من جزاء **يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ** في موضع نصب علىٰ الحال من الضّمير في يفعل **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** صفة للخزي و الباقي ظاهرٌ.

◁ التّفسير

إعلم أنّه لمّا ذكر اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة أنّه أخَذ الميثاق منهم أن لا يَسفكوا دمائهم و أن لايُخرجوهم من ديارهم ذكر في هذه الآية أنّهم قد نَقضُوا عهد اللّه و ميثاقه و عملوا بخلاف ما عاهدوا اللّه عليه فلذلك وبخّهم و قال ثمّ أنتم هؤلاء يامعشر اليهود تقتلون أنفسكم الآية و في قوله: **أَنْتُمْ هٰؤُلَآءِ**:

أحدهما: أنّه بحذف حرف النّداء و التقدّير ثمّ أنتم يا هؤلاء فترك ياء، لدلالة الكلام عليه كما في قوله يوسف أعرض عن هذا، أي يايوسف أعرض عن هذا، و عَليه فمعنى الكلام ثمّ أنتم يامعشر اليهود بعد إقراركم بالميثاق الّذي أخَذته عليكم ألاّ تَسفكوا دمائكم الىٰ أخر الآية ما وَفيتُم به مع أنّه كان حقّاً لازماً عليكم فتَصلُون أنفسكم و تخرجون فريقاً منكم من ديارهم متعاونين عليهم في إخراجكم إيّاهم بالإثم و العُدوان و التّظاهر التّعاون وأنّما قيل



للتّعاون التّظاهر لتقوية بعضهم ظَهر بعضٍ فهو تفاعل من الظّهر قال الشّاعر:

تـظاهرتُم أشباه نيب تَجَمّعت   علىٰ واحدٍ لازلتم قَرن واحدٍ

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنْ تَظٰاهَرٰا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللّٰهَ هُوَ مَوْلٰيهُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَوْ كٰانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلْمَلٰٓائِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ**[3].

ثانيها: أن يكون المعنىٰ ثمّ أنتم القوم **تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ** فيرجع الى الخبر عن أنتم و قال بعضهم أنّ هؤلاء في الآية تنبيه و توكيد، لأنتم و أن كان كناية عن أسماء جميع المخاطبين فأنّما جاز أن يؤكّد بهؤلاء وأولاء يكنّى بها عن المخاطبين كما قال الشّاعر:

أقول له والرّمح يأطر مَتَنه   تَبّين خفافاً أنّني أنا ذالكا

و الإثم قيل في معناه هو ما تنّفر عنه النّفس و لم يطّمئن اليه القلب و منه قول النّبي لنواس ابن سمعان، البّر ما إطّمأنت اليه نفسك و الإثم ماحك في صَدرك، و قال قوم الإثم ما يتحقّ عليه الذّم و هو الأصحّ و أمّا العدوان فهو مجاوزة الحقّ و قيل أنّه الإفراط في الظّلم، وأسارىٰ فقد قيل أنّها جمع أسير، و قيل أنّ الأسير جمعه أسرىٰ و جمع أسرىٰ أُسارىٰ و الأوّل أشهر وكيف كان فالأُسارىٰ هم الّذين في الوثاق والأسرىٰ الّذين في اليد و أن لم يكونوا في الوثاق هكذا قيل، ومعنىٰ تُفادوهم، طلب الفدية من الأسير الّذي في أيديهم من أعداءهم قال الشّاعر:

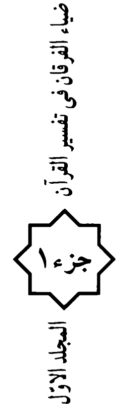
قِفي فأدي أسيرك أنّ قومى   وقومك ماأرىٰ لهم إجتماعاً

و قوله: **وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرٰاجُهُمْ** إشارة الىٰ أنّ طلب الفدية منهم كان حراماً في مذهب اليهود و أن كان مباحاً لنا في شرعنا ولذلك وَبخّهم الّه تعالىٰ عليه و قال قومٌ أنّه إفتداء الأسير منهم اذا أسرَه أعداءهم و هذا مدحٌ لهم ذكره

١- التحريم = ۴   ٢- الاسرا= ٨٨
٣- التحريم = ۴

من بعد ذمّهم أنّهم خالفوه في سفك الدّماء و تابعُوه في إقتداء الأُسارىٰ إستشهاداً علىٰ هذا الباطل بقوله: **اَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ**.

و قال قوم الفرق بين تفدوهم وتفادوهم، أنّ نفدوهم هو إنفكاكٌ بمال و تُفادوهم هو إفتكاك الأُسارىٰ بالأُسارىٰ و إختلفوا فيمن قصد بهذه الآية فعن ابن عبّاس أنّ قوله: **ثُمَّ اَنْتُمْ هٰٓؤُلآءِ** الىٰ قوله: **وَالْعُدْوانِ** أُريد بهم أهل الشّرك حتّىٰ يسفكوا دمائهم معهم و يخرجوهم من ديارهم معهم قال أخبَرهم بذلك عن فِعلهم و قد حرّم عليهم في التّوراة سفك دمائهم و إفترض عليهم فيها فداء أسراهم و كانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع و أنّهم حلفاء الخزرج و حلفاء النّضير و قريظة وأنّهم حلفاء الأُوس وكانوا اذا كانت بين الأُوس و الخزرج حربٌ خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وبنو النّضير و قريظة مع الأُوس يظاهر كلّ فريقٍ حلفاؤه علىٰ أخوانه حتّىٰ يتسافكوا دمائهم بينهم و بأيديهم التّوراة يعرفون منها ما عليهم و لهم والأُوس والخزرج أهل شركٍ يعبدون الأوثان و لا يعرفون جنّةً و لا ناراً و لا قيامةً و لا كتاباً و لا حراماً و لا حلالاً فاذا وضعت الحَرب أوزارها إفتدوا أسراهم تصديقاً لما في التّوراة، و أخذاً به يفتدي بنوقينقاع من كان من أُساراهم في أيدي الأُوس و يفتدي بنو النّضير و قريظة ماكان في أيدي الخزرج ويطلبون ما أصابوا من الدّماء و ما قتلوا من قَتلوا منهم فيما بينهم مُظاهرة لأهل الشّرك عليهم يقول اللّه تعالىٰ حين أخبرهم بذلك **اَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** أي تفادونهم بحكم التّوراة و في حكم التّوراة أن لا يقتل و لا يخرج من داره و يظاهر عليه من يشرك باللّه و يعبد الأوثان من دونه إبتغاء عرض الدّنيا ففي ذلك من فِعلهم مَع الأُوس والخزرج نزلت هذه القصّة و قوله: **يَّأْتُوكُمْ اُسارىٰ تُفادُوهُمْ** الىٰ قوله: **وَتَكْفُرُونَ** القصد بذلك توبيخهم وتعنيفهم علىٰ سُوء أفعالهم فقال تعالىٰ (ثمّ أنتم بعد إقراركم بالميثاق الّذي أخذته عليكم تقتلون أنفسكم يعني يقتل



بعضكم بعضاً و أنتم مع قتلكم من تقتلون منكم اذا وجدتم أسيراً منكم في أيدي غيركم من أعدائكم تفادوهم و يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم و قتلكم إيّاهم و إخراجكم إيّاهم من ديارهم حرامٌ عليكم كما حرام عليكم تركهم أُسارىٰ في أيدي عدّوكم فكيف تَستجيزون قتلهم و لا تَستجيزون ترك فدائهم و هما جميعاً حرامٌ عليكم،**اَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتٰابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** فتقتلون من حَرّمت عليكم قتله من أهل دينكم ومن قومكم و في قوله: **فَمٰا جَزٰآءُ مَنْ يَّفْعَلُ ذٰلِكَ مِنْكُمْ اِلاّٰ خِزْيٌ فِى الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا** فالخزي الذّل والصّغار ثمّ إختلفوا في الخزّي الّذي أخزاهم اللّه بما سَلف منهم في المعصية فقال بعضهم ذلك حكم اللّه الّذي أنزله علىٰ نبّيه من أخذ القاتل بما قَتَل والقود به قصاصاً والإنتقام من الظّالم للمظلوم.

و قال بعض أخر بل ذلك هو الجزية منهم ما أقاموا علىٰ دينهم ذلّةً لهم و صغاراً.

و قال أخرون، الخزي الّذي خَزوا به في الدّنيا إخراج رسول اللّه بني النّضير من ديارهم لأوّل الحشر، و قيل مقاتلة بني قُريظة و سبي ذراريهم وكان ذٰلِك مِنْكُمْ اِلاّٰ خِزْيٌ فِى الْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا وفي الأخرة عذابٌ عظيم، ويوم القيامة يردّون الىٰ أشدّ العذاب، أي أسوء العذاب بعد الخزي في الدّنيا الّذي أعدّه اللّه لأعدائه و قوله: **وَمَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ**، أي عمّا تعملون في الدّنيا فأنّ الدّنيا مزرعة الأخرة ثمّ أردف كلامه في اليهود وما فعلوا من الإثم والعُدوان بقوله: **أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيٰوةَ الدُّنْيٰا بِالْاٰخِرَةِ فَلاٰ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذٰابُ وَ لاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ** [1] أي أُولئك الّذين أخَبر عنهم بأنّهم يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعضٍ هم الّذين إشتروا رئاسة الدّنيا والحياة الفانية فيها عِوضاً من نعيم الأخرة الّذي أعدّه اللّه للمؤمنين فَجَعل اللّه تعالىٰ تركهم حظوظهم من

---

١ - البقرة=٨٦

نعيم الأخرة بكفرهم باللّه ثمناً لما إبتاعوه من خسيس الدّنيا و من كان كذلك فلا حظ لهم في الأخرة و لهم عذابٌ فيها غير مخّفف عنهم و لا هم ينصرون، أي لا ينصرهم أحد في الأخرة فيدفع عنهم العذاب و هذا هو الخسران المبين و قال الطّبري في تفسير قوله تعالىٰ: **ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ.**

قال كان في بني إسرائيل اذا إستضعفوا قوماً أخرجوهم من ديارهم و قد أخَذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دمائهم و لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم و أخَذ عليهم الميثاق أن أسر بعضهم أن يُفادوهم فأخرجوهم من ديارهم ثـمّ فادوا منهم فأمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض أمنوا بالفداء فـفَدوا و كَـفروا بالإخراج من الدّيار فأخرجوا.

و نقل عن ابي العالية أنّ عبد اللّه ابن سلام مرّ علىٰ رأس الجالوت بالكوفة و هو يُفادي من النّساء من لم يقع عليه العَرب و لا يُفادي من وقع عليه العَرب فقال له عبد اللّه ابن سلام أما أنّه مكتوب عندك في كتابك أن فادوهنّ كلّهنّ انتهىٰ.

أقول و قد ورد في رواياتنا أنّه لمّا نـزلت الآيـة فـي اليـهود الّـذين نقضوا عَهد اللّه من بعد ميثاقه و كَذّبوا رسل اللّه و قتلوا أولياء اللّه قال رسول اللّه ﷺ: أفلا أُنبئكم بمن يضاهيهم مـن هـذه الامّـة قالوا بلىٰ يارسول اللّه ﷺ قال قوم من أُمّتي ينتحلون أنّهم من أهل مـلّتي يـقتلون أفـاضل ذرّيـتي و أطـائب أرومـتي و يُـبدّلون شريعتي و سُنّتي و يقتلون ولَـدي الحَسـن و الحُسـين كـما قَـتل أسلاف اليهود زكرّيا و يحيىٰ ألا و أنّ اللّه يلعنهم كما لَعنهم و يبعث علىٰ بقايا ذرّاريهم قبل يوم القيامة هادياً مهَدياً مـن ولد الحسـين المظلوم يجرّهم بسيوف أولياءه الىٰ نار جهنّم انتهىٰ.

و قيل نزلت في أبى ذر و عثمان و القصّة مشهورة.

■



وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنا عيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَريقاً كَذَّبْتُمْ وَفَريقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَليلاً ما يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذينَ كَفَرُوا فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الْكافِرينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللّٰهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُوا بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ وَلِلْكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ ﴿٩٠﴾

◁ اللّغة

وَقَفَّيْنا:القفا، معروف يقال قفوتَه أحسبت قفاه وقَثَوتُ أثره تَبعتُ قفاه وقَفيّته جعلته خَلفَه.

أَيَّدْناهُ: التأيّيد التّقوية.

بِرُوحِ الْقُدُسِ: و هو جبرائيل عليه السلام.

تَهْوىٰ: الهوىٰ ميل النّفس الىٰ الشّهوة و قيل سُمّي بذلك لأنّه يهوي بصاحبه في الدّنيا الىٰ كلّ داهية و في الأخرة الىٰ الهاوية.

غُلْفٌ: قيل هو جمع أغلف كقولهم سيفٌ أغلَف أي هو في غلاف والحقّ أنّه جمع غلاف و الأصل فيه غُلف بضمّ اللاّم و قد قرأ به نحو كتب.

بَغْياً: البَغى طلب تجاوز الإقتصاد فيما يتحرّر تجاوزه أو لم يتجاوزه.
غَضَبٍ: الغَضب ثوران دمّ القَلب إرادة الإنتقام.
مُّهِينٌ: من أهانَ يُهين و هو مأخوذ من **الهَوان** و**الهَوان** العذاب المتضمن لِشدّةٍ و إهانةٍ ويُمسكه علىٰ هُونٍ، بضمّ الهَاء أي علىٰ هوانٍ و ذلٍّ.

◁ الإعراب

وَقَفَّيْنَا الياء بدلٌ من الواو لقولك **قفَوته** و هو يَقفُوه **اَفَكُلَّمَا**الهَمزة لِلإستفهام التّوبيخي **فَقَلِيلاً** منصوب علىٰ أنّه صفة لِمصدرٍ محذوفٍ و ما زائدة أي فإيماناً قليلاً يؤمنون **مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ**في موضع نصب لإبتداء غاية المجئ أو في موضع رفع صفة لِكتاب **مُصَدِّقٌ** بالرّفع صفة لِكتاب أو بالنصب علىٰ الحال **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا** ما نكرة غير موصوفة منصوبة علىٰ التّمييز **اَنْ يَّكْفُرُوا** خبر مبتدأ محذوف أي هو أن يكفروا **بَغْياً** مفعول له أو منصوبٌ علىٰ المصدر **اَنْ يُّنَزِّلَ اللّٰهُ** مفعول لاجله **مَنْ يَّشَآءُ** من نكرة موصوفة **مِنْ عِبَادِهِ**حال من لهاء المحذوفة.



◁ التّفسير

ذكر اللّه سبحانه أنعامه علىٰ قوم اليهُود بإرساله الرّسُل و إنزاله الكُتب و ما قابلوه بالتكذّيب فقال **لَقَدْ اٰتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** و هو التّوراة الّتي أنزَله اللّه تعالىٰ علىٰ مُوسىٰ **وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ** أي أتبَعنا و أردَفنا من بعد موسىٰ، **بِالرُّسُلِ** رسولاً بعد رسولٍ يتبع الأخر الأوّل في الدَّعوة الىٰ التّوحيد والأخذ بدين الحقّ الّذي فيه سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين علىٰ منهاجٍ واحد لأنّ جميع الأنبياء بعد موسىٰ الىٰ عيسىٰ عليه‌السلام كانوا علىٰ طريق موسىٰ بُعثوا لإقامة التّوراة والعمل بما فيها الىٰ أن وصلت النّوبة الىٰ عيسىٰ إبن مَريم عليهما‌السلام كما قال

وَ ءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ أي أعطيناه المُعجزات والكرامات الدّالات علىٰ نُبوّته من إحياء الموتىٰ وإبراء الأكمه و الأبرص وغير ذلك و قيل المراد بالبيّنات الإنجيل و ما فيه من الأحكام والأيات **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** أي قوّيناه به و إتّفقوا علىٰ أنّ المراد به جبرئيل قال حسّان:

وجبريل رسُول اللّه فينا ورُوح القُدس ليس به خفاءُ

قال النحّاس، و سمّي جبرئيل روحاً وأضيف إليه القُدس لأنّه كان بتكوين اللّه عزّ وجّل له رُوحاً من غير و لادة والد ولده وكذلك سُمّي عيسىٰ رُوحاً لذلك.

و روي عن مجاهد أنّه قال: القُدس هو اللّه عزّ وجل ورُوحه جبريل.

عن إبن عبّاس أنّه قال، رُوح القُدس، هو الإسم الّذي كان يحي به عيسىٰ الموتىٰ و قيل هو إسم اللّه الأعظم و قيل المراد به الإنجيل فسمّاه رُوحاً كما سمّىٰ القرأن روحاً في قوله: **وَ كَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**[1] والقُدس الطّهارة، و قيل في وجه تسمّية جبريل بالرُّوح لأنّه يُحي بما يأتي من البّينات الأديان كما تُحييٰ بالأرواح الأبدان، و قيل سُمّي به لغَلبة الرُّوحانية عليه و كذلك سائر الملائكة و أنّما خصّ بهذا الإسم تشريفاً له.

و أمّا قوله تعالىٰ: **اَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَىٰٓ اَنْفُسَكُمُ** الىٰ أخر الأية ففيه إشعار بأنّ مخالفة اليهود بل كلّ النّاس للانبياء أنّما هي لأجل مخالفة الأديان للطّبائع والأهواء فلو كان الرّسول يأتي بدينٍ يُوافق طبائع النّاس و أهوائهم و غرائزهم لم يُخالفوه قطعاً فعِنادهم لِلرّسول أنّما هو لأجل دينه الّذي أتىٰ به وما قاله اللّه تعالىٰ صدق و من أصدَق من اللّه قيلاً و لذلك لا تُوجد نبّياً بعثه اللّه الىٰ النّاس في كلّ عصرٍ و زمانٍ إلاّ و هو كان مُواجهاً بمخالفة العامّة مع أنّهم كانوا من أفضل النّاس خُلقاً و خلقاً و حَسباً و نَسَباً و عِلماً و

١- الشورى = ٥٢

أُرومةً ألا ترىٰ أنّ نبيّنا ﷺ كان قبل البعثة مَحبوباً في النّاس ملقّباً فيهم بالأمين و لمّا بُعث صار مبغُوضاً إليهم و رَمُوه بالكذِب والجُنون والسِّحر و أمثالها ومن المعلوم أنّه ﷺ كان بمعزلٍ عن هذه الأمُور إلاّ أنّـه دعـاهم الىٰ التّـوحيد و العَدل و المعاد و أمثالها من الأُمور التّي لا تقبلها طبائع النّاس و غرائزهم قالوا فيه ما قالوا و هذا كان جارياً في جميع الأنبياء من البَد و الىٰ الخَتم فأنّ حكم الأمثال واحد و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **أفكلّما جاءكم رَسُولٌ** أي من عند اللّه، بما لا تَهوىٰ، أي لا تميل، **أنْفُسَكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** أي أنّ الأنبياء كانوا كذلك، إمّا مَقتولُون، كما قتلوا يحيىٰ و زكرّيا.

و قد روي أنّ بنىإسرائيل قتلوا في يوم واحدٍ سبعين نبيّاً و لذلك سَلَّط اللّه عليهم بخت النَّصر فقتل منهم من قتل.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَقالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مّا يُؤْمِنُونَ** معناه أنّ اليهُود قالوا قلُوبنا غُلفٌ أي أوعية للعلم فما بالها لا تفهم.

و قال عَكرمة أي عليها طابع و قـال بـعض أي أنّـها مستُورة عـن الفـهم والتّمييز.

و قال الشّيخ في التّبيان المعنىٰ عندنا أنّ اللّه أخبر أنّ هؤلاء الكّفار إدعوّا أنّ قلوبهم ممنوعة من القبول و ذهبوا الىٰ أنّ اللّه مَنعهم من ذلك فقال اللّه تعالىٰ رَدّاً عليهم **بَلْ لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ** أي أنّهم لمّا كفروا منعهم اللّه من الألطاف والفوائد ما يؤتيه المؤمنين ثواباً علىٰ إيمانهم و تَرغيباً لهم في طاعتهم و زجر الكافرين عن كفرهم لأنّ من سَوّىٰ بينَ المُطيع و العاصي له فقد أساءَ إليهما و في الآية ردّ عَلى المجبّرة أيضاً لأنّهم قالوا مثل ما قال اليهود إنـتهىٰ مـوضع الحاجة من كلامه.

أقول لمّا كانت الآية بظاهرها تدّل علىٰ الجَبر لأنّ قولهم قلوبنا غُلفٌ، أي أجنّها مغشّاة بأغطية مانعة من وصول أثر الدَّعوة إليها ومن المعلوم أنّـهم لم

يجعلوا قلوبهم كذلك بل اللّه تعالىٰ خلق القلُوب كذلك و إذا كان الأمر علىٰ هذا المِنوال فليس الإنسان مُقصّراً في عدم قبوله الحقّ.

والجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أنّا لا نسلّم أنّ اللّه تعالىٰ خلق قلُوبهم كذلك بل الغُلف فيها كانت بسبب أعمالهم الشّنيعة لأنّ المعصية تُوجب القساوة في القلب كما وَردت به الأخبار.

ثانيهما: أنّ اللّه تعالىٰ لَعنهم أي طرَدهم عن الحقّ بسبب كفرهم ثمّ إستولى الشّيطان عَليهم و أوقَعهم في موارد الهَلكة و لذلك أتىٰ في الآية بكلمة، بَل، التّي تفيد الإستدراك أي ليس الأمر كما ظنّوا من أنّ اللّه خلقهم كذلك بل العلّة في كون قلوبهم غُلفاً هو أنّه تعالىٰ أبعَدهم عن رحمته لكفرهم وعصيانهم و لازم ذلك عدم صلاّحية القلب لِدَعوة الحقّ و سيأتي فيه زيادة تحقيق في موضعه إنشاء اللّه تعالىٰ.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** فالمراد بالكتاب الإنجيل الّذي أتىٰ به عيسىٰ إبن مريم وكان مُصدّقاً لِما مَعهم، يعني التّوراة و هم أنكروه و أنكروا عيسىٰ أيضاً.

و قيل المراد بالكتاب القرأن و هو مُصدّق لِما مَعهُم من التّوراة والإنجيل والأخبار الّتي فيهما و أمّا قوله تعالىٰ: **وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا** أي كانوا يستَنصرُون علىٰ الأوس و الخزرج برسول اللّه قبل مَبعثه فلمّا بَعَثه اللّه في العَرب فقال لهم معاذ بن جبل و بشير إبن معرور يا معشر اليهود إتّقوا اللّه و أسلموا فقد كنتم تَستفتحُون علينا بمحمّدٍ صلّى الله عليه وآله و نحن أهل الشّرك وتخبرونا بأنّه مبعوث فقال سلام بن مثكم ما جاء بشئٍ و ما هو بالّذي كنّا نذكر لكم فأنزل اللّه ذلك.

و قال قوم يستفتحُون معناه يستحكمُون ربّهم علىٰ كفّار العَرب كما قال

الشّاعر:

ألا أبلغ بني عصمٍ رسُولاً فأنّي عن فتاحتِكم غنيٌ

أي عن محاكمتكم و قالَ قوم معناه يستعلمُون من علمائهم صفة نبيٍ يبعث من العَرب و كانوا يصفونه فلمّا بُعث أنكروه.

أن قلت تدّل الآية علىٰ أنّهم كانوا عارفين بنُبوّته ﷺ لما رأوا من أوصافه في التّوراة فكيف أنكروه كفرهم بالرّسول بعد بعثه لا يخلو من وجوه ثلاثة.

أحدها: أنّهم كانوا يظّنون أنّ المَبعوث يكون من بني إسرائيل لكثرة من جاء من الأنبياء منهم و كانوا يرغبون النّاس في دينه و يدعونهم اليه فلمّا بَعث اللّه تعالىٰ محمّداً ﷺ من العَرب من نسل إسماعيل أعظم ذلك عليهم فأظهروا التّكذيب و خالفوا طريقهم الأوّل.

ثانيها: أنّهم كانوا معترفين بنبوّته واقعاً عند أنفسهم إلاّ أنّهم لم يظهروا به خوفاً منهم علىٰ زوال رئاستهم و اموالهم فأبوا و اصرّوا علىٰ الإنكار.

ثالثها: لَعلّهم ظّنوا أنّه مَبعُوث الىٰ العَرب خاصّة فلا جرم كفَروا به و في قوله تعالىٰ: **كَفَرُوا بِهِ** دليل علىٰ أنّ الكفر لا يختصّ بالجهل باللّه تعالىٰ و إنكاره فقط و أمّا قوله: **فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** فالمراد الإبعاد من خيرات الأخرة لأنّ المبعد من خيرات الدّنيا لا يكون ملعُوناً و أيضاً فيه إشارة بأنّ لَعن من يستحقّ اللّعن من القول الحَسَن فلا يُنافي لعنهم في الآية قوله تعالىٰ: **وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**.

وأمّا قوله تعالىٰ: **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ بَغْياً** ففيه إشارة الىٰ أنّ الكفر بما أنزل اللّه يتصوّر علىٰ قسمين.

الأوّل: أن يكون منشأ الكفر هو الجهل البسيط.

الثّاني: أن يكون منشأه العمد بمعنىٰ أنّه يعلم أو يقدر علىٰ أن يعلم و هو مع ذلك أنكر الحقّ بداعٍ من الدّواعي من حبّ الجاه والمال و أمثالهما.

أمّا الأوّل: فليس فيه كثير ذمّ نعم يجب عليه تحصيل العلم و هو أمر آخر.

أمّا الثّاني: فهو مذمومٌ عقلاً و شرعاً و عرفاً و هذا هو الّذي أُشير في الآية اليه فقال: **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنْفُسَهُمْ** لأنّ الإشتراء لا يكون إلاّ مع العلم بالثّمن والمثّمن والبائع و المُشتري و حيث أنّ اليهود كان إنكارهم علىٰ هذا الأساس ونجّهم اللّه تعالىٰ والدّليل علىٰ ما ذكرناه قوله: **بَغْياً** أي إنّهم كفروا بالرّسول بسبب البَغي الموجود فيهم الدّال علىٰ كونهم ظالمين باغين معاندين، قال بعض المُحقّقين في معنى الشّراء في الآية وجهان:

أحدهما: أنّه بمعنى البيع و بيانه أنّه تعالىٰ لّما مكّن المكلّف من الإيمان الّذي يفضي به الىٰ الجنّة والكُفر الّذي يُؤدّي به الىٰ النّار إختياره لأحدهما علىٰ الأخر بمنزلة إختيار تملّك سلعةٍ على سلعة فإذا إختار الإيمان الّذي فَوزه فيه و نجاته به قيل نِعم ما أشتري و لّما كان الغَرض بالبيع و الشّراء هو إبدال مُلكٍ بِمُلكٍ صلح أن يُوصف كلّ واحدٍ منهما بأنّه بائع و مُشترٍ لوقوع هذا المعنىٰ من كلّ واحدٍ منهما فَصحّ تأويل قوله تعالىٰ: **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنْفُسَهُمْ** بأنّ المراد باعوا أنفسهم بِكُفرهم لأنّ الّذي حصلّوه علىٰ منافع أنفسهم لّما كان هو الكُفر صاروا بائعين أنفسهم بذلك الوَجه الثّاني أنّ المكلّف إذا كان يخاف علىٰ نفسه من عقاب اللّه يأتي بأعمال يظّن أنّها تخلّصه من العقاب و توصلّه الىٰ الثّواب فقد ظنّوا أنّهم قد إشتروا أنفسهم بها فذّمهم اللّه تعالىٰ و قال: **بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنْفُسَهُمْ** ثمّ أنّه تعالىٰ بيّن تفسير ما أشتروا به أنفسهم بقوله: أن **يَكْفُرُوا بِمَآ أَنْزَلَ اللّٰهُ** و لا شبهّة أنّ المراد بذلك كُفرهم بالقرآن لأنّ الخطاب لِليهود و كانوا مؤمنين بغيره ثمّ بيّن الوجه الّذي لأجله إختاروا هذا الكُفر بما أنزَل اللّه تعالىٰ فقال: **بَغْياً** و أشار بذلك الىٰ غرضهم بالكُفر كما يقال يُعادي فلان فُلاناً حَسَداً تَنبيهاً بذلك علىٰ غرضه و لولا هذا القول لَجوّزنا أن يكفروا جَهلاً لا بغياً إنتهىٰ.

و قوله: أن **يُنَزِّلَ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلىٰ مَنْ يَّشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِ** فيه إشارة الىٰ أنّ منشأ البَغي فيهم هو الحَسَد لا شئ أخر و في قوله تعالىٰ: **فَبٰآؤُوا بِغَضَبٍ عَلىٰ غَضَبٍ** يمكن أن يكون المراد مِن الغَضب الأوّل ما وجد من تكذيبهم عيسىٰ إبن مريم و من الثّاني من تَكذيبهم محمّد صلّی الله علیه و آله و سلّم فصار ذلك دخولاً في غَضبٍ بعد غَضبٍ و بسخطٍ بعد سَخط من قبله تعالىٰ لأجل أنّهم دخلوا في سَببٍ بعد سَببٍ، و يحتمل أن يكون المراد به تأكيد الغَضب و تكثيره لأجل أنّ هذا الكُفر و إن كان واحداً إلاّ أنّه عظيم و هو قول أبي مُسلم و ثالث الأقوال أنّ غَضَب الأوّل بِعبادتهم العِجل و الثّاني بِكتمانهم صِفة محمّد صلّی الله علیه و آله و سلّم و جحدهم بنبوّته و رابعها ليس المراد إثبات غضبين فقط بل المراد اثبات أنواع من الغَضب مترادفة لأجل أُمور مُترادفة صَدرت عنهم نَحو قولهم عزيز إبن اللّه، يَد اللّه مغلُولة أنّ اللّه فقير و نحن أغنياء، إنكارهم صفة محمّد في التّوراة و نبوّته وغير ذلك من الأمور، و خامسها أنّ الغَضب الأوّل حين غيروا التّوراة قبل مبعث النّبي والغَضب الثّاني حين كَفروا بِمحمّدٍ صلّی الله علیه و آله و سلّم.

و أمّا قوله: **وَلِلْكٰافِرِينَ عَذٰابٌ مُّهِينٌ** معناه للجاحِدين بِنبوّة محمّد صلّی الله علیه و آله و سلّم عذاب مُهين من اللّه أمّا في الدّنيا و أمّا في الأخرة والمُهين هو الّذي يذّل صاحبه و يخزيه ويلبسه الهوان و قيل المُهين الّذي لا ينتقل منه الىٰ إعزازٍ و اكرامٍ و قد يكون غير مُهين إذا كان تَمحيصاً و تكفيراً يُنتقل بعده الىٰ إعزازٍ و تعظيم فعلىٰ هذا من ينتقل من عَذاب النّار الىٰ الجنّة لا يكون عذابه مُهيناً ثمّ أنّ الغَضب عِبارة عن التغيّر الّذي يعرض لِلإنسان في مَزاجه عند غليان دَم قلبه بِسبب مُشاهدة أمرٍ مكروه و ذلک محال في حقّ اللّه تعالىٰ فهو مَحمول في المَقام و أمثاله علىٰ إرادته لِمن عَصاه الإضرار به من جهة اللّعن والأمر بذلك هذا تَمام الكلام في تفسير الآية و هو أعلم بكلامه و مفاده.

■

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

◁ اللّغة

الْحَقُّ: مُقابل لِلباطل، و هو القول المُطابق لِلواقع و باقى اللّـغات قـد مـرّ الكلام فيه غير مرّة.

◁ الإعراب

يَكْفُرُونَ أي و هم يكفرون والجّملة حال و العامل فيها قالوا **بِمَا وَرَاءَهُ** الضّمير تعود الىٰ **ما** والهمزة في وراء بدلّ من ياء لأنّ ما فاده واو لا يكون لامه، واو و يدّل علىٰ أنّه ياء ما في تَوأرَيتُ.

و قال إبن جنّي هي عندنا همزة لِقولهم و رئيّة بالهمز في التّصغير **وَهُوَ الْحَقُّ** جملة في موضع الحقّ والعامل فيها يكفرون **مُصَدِّقاً**، حال مؤكّدة والعامل فيها ما في الحقّ من معنىٰ الفعل إذا المعنىٰ و هو ثابتٌ مصَدّقاً **فَلِمَ** ما هنا إستفهام و حذفت ألفها مع حَرف الجرّ للفرق بين الإستفهامية و الخبرّية و مثله فيم أنت، و عَمّ يتساءلون و مم خلِق **إِنْ كُنْتُمْ** جوابـها مـحذوف دلّ عـليه مـا تـقّدم **بِالْبَيِّنَاتِ** يجوز أن يكون في موضع الحال من موسىٰ ويجوز أن يكون مفعولاً به أي بسَبب إقامة البيّنات **وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** مُبتدأ و خبر والجّملة فـي مـوضع الحال أي والحال أنتم ظالمون.

◁ التّفسير

وَاِذٰا قِيلَ لَهُمْ يعني لِليَهود الّذين تقدّم ذكرهم غير مرّةٍ في الأيات السّابقة **اٰمِنُوا** بالقلب و اللّسان و العَمل **بِمٰا اَنْزَلَ اللّٰهُ** من القرآن علىٰ محمّد والأحكام الّتي جاءَ بها **قٰالُوا نُؤْمِنُ بِمٰا اُنْزِلَ عَلَيْنٰا** يعني التّوراة **وَيَكْفُرُونَ** اليَهود، **بِمٰا وَرٰاءَه** أي يجدون بما بعده و هو الإنجيل والقرآن أو بما سوىٰ التّوراة من الكتب المنزّلة، **وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمٰا مَعَهُمْ** يعني أنّ القرآن والإنجيل حقٌّ مُصدّق لِما معهم من التّوراة **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيٰاءَ اللّٰهِ مِنْ قَبْلُ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** أي قل لهم إن كنتم صادقين في إدّعائكم الإيمان بالتّوراة، **فَلِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيٰاءَ اللّٰهِ** وقد حرّم اللّه تعالىٰ قتلَهم و قتل غيرهم فيها **وَلَقَدْ جٰاءَكُمْ مُوسىٰ بِالْبَيِّنٰاتِ** الدّالة علىٰ صدقه، ثمّ إتخّذتم العجل الٰهاً و معبوداً لكم، من بعده أي من بعد موسىٰ لمّا فارقكم و مضىٰ الىٰ ميقات ربّه، ، **وَاَنْتُمْ ظٰالِمُونَ** أي والحال أنتم ظلمتم أنفسكم بإتّخاذكم العِجل إلٰهاً فيعلم منه أنّكم لَستُم بِصادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل عليكم.

إعلم أنّهم إختلفوا فى أنّ لفظة، ما، تفيد العموم أو لا تفيد، فالقائلون بافادتها العموم إستدّلوا علىٰ المُدّعىٰ بهذه الآية قالوا لأنّ اللّه تعالىٰ أمرهم بأن يؤمنوا بما أنزَل اللّه و لَم يعّين المراد به هل هو الإنجيل أو القرآن إتّكالاً علىٰ لفظة، ما، و حيث لم يدّل دليل علىٰ إرادة أحدهما فلفظة، ما، تشمل جميع ما أنزَل اللّه و لا نعني بالعمُوم إلاّ هذا و عليه فالمعنىٰ أنّهم أمروا بالإيمان بما أنزَل اللّه تعالىٰ من التّوراة و الإنجيل و القرآن، ولمّا لم يؤمنوا بالجّميع صاروا مُستحقّين للذّنب والتّوبيخ و ذلک لأنّهم قالوا **قٰالُوا نُؤْمِنُ بِمٰا اُنْزِلَ عَلَيْنٰا** يعني التّوراة فقط.

و قوله تعالىٰ: **وَيَكْفُرُونَ بِمٰا وَرٰاءَه وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمٰا مَعَهُمْ** دليل علىٰ أنّهم لم يؤمنوا بِجميع ما أنزَل اللّه لأنّهم كَفروا بما وراء التّوراة من الإنجيل

والقرآن، فقال تعالىٰ ردّاً عليهم ايمانهم بالتّوراة قُل: **فَلِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيٰٓاءَ اللّٰهِ مِنْ قَبْلُ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** بالتّوراة فقد ثبت كذبهم في إدّعائهم الإيمان بها وفي الآية إشعار بأنّ الإيمان الواقعي لا يتحقّق إلاّ بقبول جميع الشّرائع والكُتب السّماوية و تصدّيق جميع الأنبياء والمُرسلين و هو كذلك والدّليل عليه أنّ الأنبياء كلّهم سُفراء اللّه الىٰ خَلقه لا فرقٌ بينهم من هذه الجهّة و أن كان بعضهم أفضل من بعضٍ و هو أمرٌ أخر، و إذا كان كذلك فإنكار أحدهم بمنزلة إنكار الجميع والدّليل علىٰ ما ذكرناه من كلام اللّه هو قوله في أوائل البقرة: **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰا أُنْزِلَ اِلَيْكَ وَمٰا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** و قوله: **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.**

و سيأتي تفصيل البحث فيه فى موضعه و لاجل ذلك ذمّ اليَهود بما قالوا من الإيمان بالتّوراة والكُفر بما وراءه و في قوله: **مُصَدِّقاً لِّمٰا مَعَهُمْ** إشارة الىٰ أنّ التّوراة كانت مُشتملة علىٰ الأخبار عن نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم وإلاّ لم يكن القرآن مُصدّقاً لها بل كان مكذّباً لها و إذا كانت التّوراة مشتملّة علىٰ نبوّته و هُم قد إعترفوا بِوجوب الإيمان بها لزمهم من هذه الجّهة وجوب الإيمان بالقرآن و نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم وحيث لم يُؤمنوا به فهم كاذبون في دعواهم و هو المطلوب.

أن قُلت قوله تعالىٰ: **فَلِمَ تَقْتُلُونَ اَنْبِيٰٓاءَ اللّٰهِ** يَدّل علىٰ أنّ اليَهود حين الخطاب كانوا كذلك قضاءً لِحق المضارع الدّال علىٰ الحال والإستقبال و من المعلوم أنّ قتل الأنبياء كان في أسلافهم و آبائهم فحّق العبارة أن يقال فَلِمَ قتلتُم أنبياء اللّه.

قُلتُ أمّا أوّلاً فقد إرتفع الإشكال بقوله: **من قبلُ** و ثانياً يَجوز أن يأتي الماضي بمعنىٰ المضارع وبالعكس قال الشّاعر:

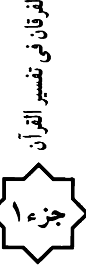
شَهَد الحطيئة يومَ يلقىٰ ربّه ... أنّ الوليد أحقّ بالعُذرِ

فقوله شَهِدَ بمعنىٰ يشهد و يمكن أن يقال في الجواب أنّ الإتيان بالمضارع

الدّال علىٰ الحال و الإستقبال لِلإشعار بأنّ المخاطبين بالأية لو كانوا قادرين علىٰ قتل النّبي لقتلوهُ فالمعنىٰ أنّكم تقتلون أنبياء اللّه في الحال ايضاً لو قدرتم عليه كما كان أسلافكم كذلك من قبل أو يقال أنّكم يا معشر اليَهود ترضون بما فعل أسلافكم من قتلهم الأنبياء فأنتم أيضاً من قَتَلتهم كأسلافكم لأنّ من رضىٰ من فعل قومٍ فهو منهم.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَلَقَدْ جَآءَكُمْ مُّوسىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** أي أن كنتم صادقين في إدّعائكم الإيمان بالتّوراة و رسولكم موسى ابن عمران فأنّه قد جاءكم بالبيّنات، وهي العصا، والسّنون واليَد و الدّم، والطّوفان، والجراد، والقمّل، والضّفادع، وفَلق البحر، و قيل المراد بالبيّنات التّوراة و ما فيها من الدّلالات ثمّ إتّخذتم العِجل، كما مرّ شرحه وأنتم ظالمون علىٰ أنفسكم والحاصل أنّكم لو كنتم صادقين في دعواكم فَلِمَ فعلتم ما فعلتم و في الإتيان بثمّ دون **الواو** دلالة على انّ **ثمّ** أبلَغ في التّقريع من **الواو** أي أنّكم بعد النّظر في الأيات والإتيان بها إتخّذتم ما إتخّذتم و هذا يدّل علىٰ أنّهم أنّما فعلوا ذلك بعد مُهلةٍ من النّظر في الأيات و ذلك أعظم لجرمهم اعظم ذنباً لهم.

■



وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

◁ اللّغة

قد مرّ شرح الميثاق والطّور والقوّة وباقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ أي حُبّ العِجل فَحُذِف المُضاف **بِكُفْرِهِمْ** اي بسبب كُفرهم و يجوز أن يكون حالاً من المَحذُوف **وَأُشْرِبُوا** في موضع الحال والعامل فيها قالوا **قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ** فهو جواب قولهم سَمِعنا و عَصينا.

◁ التّفسير

قوله تعالىٰ: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ** الىٰ قوله: **بِقُوَّةٍ** قد تقدّم الكلام فيه في تفسير أية (٦٣).

و أمّا قوله **وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** فقوله **اسْمَعُوا** أي أطيعوا وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط وأنّما المراد أعملوا بما سمعتم والتزِمُوه و منه قولهم سَمِعَ اللّه لِمن حَمِده، أي قَبِل وأجاب قال الشّاعر:

دعوتُ اللّه حتّىٰ خفتُ ألاّ يكون اللّه يَسمع ما أقولُ

أي يقبل و قال الأخر:

والسّمع والطّاعة والتّسليمُ خيرُ وأعفىٰ لبني تميم

وأمّا قوله **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ففيه قولان:

أحدهما: أنّهم قالوا هذا القول في الحقيقة إستهزاءً أي سمعنا قولك و عَصينا أمرك.

ثانيها: أنّهم لم يقولوا **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** باللّفظ و أنّما فعلوا فعلاً قام مقام القول فيكون مجازاً كقول الشّاعر:

إمــتلئ الحــوض وقــال قــطنى مــهلاً رويــداً قد مـلأت بـطني

و الضّمير في **قالوا** يرجع الىٰ اليهود الّذين كانوا في زمن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و قيل الىٰ اليهود الّذين كانوا في عصر موسىٰ اذ ردّوا عليه قوله وقابلوه بالعصيان و قوله **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** ففيه إلتفات عن لفظ الخطاب الىٰ الغيبة و هو من محسّنات علم البلاغة و أنما قلنا ذلك لأنّ الضّمير في **أُشْرِبُوا** يرجع الىٰ اليهود في عصر موسىٰ قطعاً لأنّهم كانوا بهذه الصّفة يعني دَخل قلوبهم حبّ العِجل بالشّرب وأنّما عبّر عن حبّ العِجل دون الأكل لأنّ شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتّىٰ يصل الىٰ بواطنها والطّعام يجاور الأعضاء و لا يتَغلغل فيها قال الشّاعر:

تَـغلغل حـيث لم يـبلغ شراب ولا حــزنٌ ولم يــبلغ سُـرورُ

قال المفسّرون ليس المعنىٰ في قوله تعالىٰ: **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** أنّ غيرهم فعل ذلك لهم بل هم الفاعلون لذلك كما يقول القائل، أنسيتُ ذلك، يقال أُوتي فلان عِلماً جمّاً، وأن كان هو المكتسب له قاله الطّبرسي في المجمع و به قال القُرطبي عن السّدي و ابن جُريح أنّ موسىٰ بَرد العِجل و ذرّاه في الماء و قال لبنىإسرائيل أشربوا ذلك الماء فَشرب جميعهم فَمن كان يُحبّ العِجل خَرجت برادة الذّهب علىٰ شفتيه و روي أنّه ما شَربه أحدٌ إلاّ جنّ ثمّ قال أما تذرّيته في البحر فقد دّل عليه قوله تعالىٰ ثمّ لِننسِفّنه في اليمّ نسفاً، و أمّا شرب الماء ظهور البرادة علىٰ الشّفاه فيرّده قوله تعالىٰ: **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** انتهىٰ

قلتُ يظهر من كلامه أنّه لم يقبل قول السّدي و ابن جريح لعدم دليلٍ يدّل عليه و هو حقّ و قال الشّيخ في التّبيان بعد نقله ما نقله القرطبي عن السّدي ما لفظه والأوّل عليه أكثر محصّلي المفسّرين و هو الصّحيح لأنّ الماء لا يقال فيه أشرب منه فلان في قلبه و أنّما يقال ذلك في حبّ الشّئ علىٰ ما بيّناه ولكن يترك ذكر الحُبّ إكتفاءً بفهم السّامع لمعنىٰ الكلام اذ كان معلوماً أنّ العجل لا يشربه القلب و أنّ الّذي أشرب منه حبّه كما قال و أسأل القرية و أنّما أراد أهلها انتهىٰ موضع الحاجة من كلامه.

أقول ما ذكروه لا بأس به و أن كان خلاف ظاهر اللّفظ ومن المُحتمل أن يكون المراد أنّ إبليس و السّامري و شياطين الإنس و الجنّ زينُوا عبادة العِجل لأنفسهم و دَعوهم اليها فَعَبّر اللّه تعالىٰ عن هذا بقوله: **وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ** علىٰ سبيل الإستعارة.

و أمّا القائلون بالجبر فهُم في فسحةٍ عن هذا لأنّهم إعتقدوا أنّ مُحدث كلّ الأشياء هو اللّه و عليه فهو الفاعل لا غير نعوذ باللّه منه و أمّا قوله :**بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**له يمكن أن يكون المراد بئس ما يأمركم به إيمانكم بالتّوراة لأنّه ليس في التّوراة عبادة العِجل وإضافة الأمر الىٰ إيمانهم تهّكم كما في قوله تعالىٰ في قصّة شعيب **أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ**

أن قلت أنّ الإيمان عَرَض و لا يصّح منه الأمر والنّهي قلتُ الدّاعي الى الفعل قد يشبه بالأمر كقوله تعالىٰ: **إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ**(١) وحيث أنّ الإيمان أو الدّاعي لا يأمر به علّق إيمانهم علىٰ الشّرط فقال أن كنتم مؤمنين أي اذ ليس فَليس.

■

١- العنكبوت = ٤٥

قُلْ اِنْ كٰانَتْ لَكُمُ الدّٰارُ الْاٰخِرَةُ عِنْدَ اللّٰهِ خٰالِصَةً مِّنْ دُونِ النّٰاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ اَبَداً بِمٰا قَدَّمَتْ اَيْديهِمْ وَاللّٰهُ عَليمٌ بِالظّٰالِمينَ ﴿٩٥﴾

◁ اللّغة

الدّٰارُ: المنزل إعتباراً بدورانها الّذي لها بالحائط ثمّ تُسمّى البلدة داراً والصّقع داراً والدّنيا داراً والأخرة داراً.

الْمَوْتَ: ضدّ الحياة.

اَيْديهِمْ: جمع يَد.

◁ الإعراب

الدّٰارُ إسم كان وفي الخبر ثلاثة أوجه:

أحدها: هو خالصةً و عند ظرف لها أو للإستقرار الّذي في لكم و يجوز أن تكون عتد حالاً من الدّار.

الوجه الثّاني: أن يكون خبر كان لكم و عند اللّه ظرف و خالصةً حال و الفاعل كان أو الإستقرار.

الوجه الثّالث: أن يكون عند اللّه، هو الخبر و خالصةً حال والعامل فيها إمّا عند أو ما يتعلّق به اَبَداً ظرف بِمٰا قَدَّمَتْ أي بسبب ما قدّمت مفعول به و ما بمعنىٰ الّذي أو نكرة موصوفة أو مصدّرية وَاللّٰهُ عَليمٌ مبتدأ و خبر و الجملة في موضع حال.



◁ التّفسير

هذا نوع أخر من قبائح اليهود و هو إدّعائهم أنّ الدّار الأخرة خالصةً لهم من دُون النّاس و ذلك لِما حكاه اللّه تعالىٰ عنهم:

قال اللّه تعالى: **وَ قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**(١)

قال اللّه تعالى: **نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ**(٢)

قال اللّه تعالى: **وَ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً**(٣)

و أيضاً أنّهم كانوا مُعتقدين في أنفسهم أنّهم هم المُحقّون لإعتقادهم أنّ النّسخ غير جائز في دينهم و أنّ سائر الفرق على الباطل و إعتقادهم أيضاً أنّ إنتسابهم الىٰ أكابر الأنبياء عليهم السّلام أعني يعقوب و إسحاق و إبراهيم يخلصهم من عقاب اللّه و يوصلهم الىٰ ثوابه فلهذه الأُمور و أمثالها كانوا يفتخرون علىٰ العَرب و يصرفون النّاس بسبب هذه الشّبه عن إتّباع محمّد ﷺ ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ إحتجّ علىٰ فساد قولهم و عقائدهم بقوله قُل يامحمّد لهم **اِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْاٰخِرَةُ** كما تدّعون **عِنْدَ اللّٰهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ** أي ليس لهم فيها حظٌ و لا مقام **فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** في دعواكم **وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ** أي لن يتمنىٰ اليهود الموت **اَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ اَيْدِيهِمْ** اى بسبب ما قدّمت ايديهم من الظّلم والأفعال القبيحة **وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰلِمِينَ** لا يجهل بحالهم و لا يخفىٰ عليه شئ من أقوالهم و أفعالهم و نيّاتهم لأنّه تعالىٰ قد أحاطَ بكلّ شئٍ علماً فهو بكلّ شئ عليم.

إعلم أنّ اللّه تعالىٰ إحتجّ علىٰ اليهود بقوله: **قُلْ اِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْاٰخِرَةُ عِنْدَ اللّٰهِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.**

١- البقرة= ١١١ ٢- المائدة= ١٨

٣- البقرة= ٨٠

أنّ قلت أيّ ملازمةٍ بين إدّعائهم و بين التّمني للموت قلت الملازمة ثابتة و ذلک لأنّ نعم الدّنيا بالنّسبة الىٰ نِعم الأخرة قليلة حقيرة ثمّ أنّها على قلّتها وحقارتها كانت مُنّغصة عليهم بعد ظهور الإسلام ومنازعته معهم بالجدال و القتال مضافاً الىٰ أنّها لا تخلو عن الأفات والهموم فأنّ الدّنيا دارٌ بالبلاء مَحفُوفة و بالغدر مَعرُوفة و أمّا الأخرة و نِعمها بَريئةٌ عن هذه الأفات و الألام والدّنيا فانية داثرة و الأخرة باقية لا فناء لها و من المعلوم أنّ العاقل يطلب ما هو خير له و أبقىٰ فَمن يعلم أنّ الأخرة خالصة له فكيف لا يطلبها و لا يتّمناها بل يهرب منها و حيث أنّ اليهود لا يطلب الموت نستكشف منه كذبهم و هو المطلوب ألا ترىٰ أنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام يقول:

والله لإبن أبي طالب آنس بالمَوت من الطّفل بثدي أُمّه

و قد روي أنّه كان يطوف بين الصَّفين بصفّين في غلالة فلمّا قال له إبنه الحسن عليه‌السلام ما هذا ذي الحَرب قال له يابنّي أنّ أباك لا يُبالي وقَع على المَوت أو وقع الموت عليه وقال عمّار بن ياسر بصّفين الأن... الأحبّة محمّداً و حزبه و قوله تعالىٰ:وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ اَبَداً دليل علىٰ كذب اليهود في إدّعائهم لأنّهم قد علموا بما قدّمت أيديهم في الدّنيا أنّه ليس لهم في الأخرة نصيب و ذلک لِما فعلوا من المعاصي والقبائح و تكذيب الكتاب والرّسول أو بما كتموا من صفة النّبي أو غير ذلك مما يسوقهم الىٰ النّار و في قوله تعالىٰ:وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِالظّٰالِمِينَ و أن كان عليماً بغيرهم أيضاً إشارة الىٰ الزّجر والتّهديد.

و قيل معناه أنّ اللّه عليم بالأسباب التّي منعتهم عن تمّني الموت وبما أضمروه و أسّروه من كتمان الحقّ عناداً مع علم كثير منهم أنّهم مبطلون.



و روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: لو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا و لَرأوا مقاعدهم من النّار و لذلك قال اللّه تعالىٰ أنّهم وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ اَبَداً تحقيقاً لكذبهم وفي ذلك دلالة علىٰ صدق نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم وصحّة نبوّته لأنّه أخبر بالشّئ قبل وجوده فكان كما أخَبر.

■

وَلَتَجِدَنَّهُمْ اَحْرَصَ النّاسِ عَلىٰ حَياةٍ وَّمِنَ الَّذينَ اَشْرَكُوا يَوَدُّ اَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ اَلْفَ سَنَةٍ وَّما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ اَنْ يُّعَمَّرَ وَاللّٰهُ بَصيرٌ بِما يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كانَ عَدُواً لِّجِبْريلَ فَاِنَّهُ نَزَّلَه عَلىٰ قَلْبِكَ بِاِذْنِ اللّٰهِ مُصَدِّقاً لِّما بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَّبُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِّلّٰهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْريلَ وَميكالَ فَاِنَّ اللّٰهَ عَدُوٌّ لِّلْكافِرينَ ﴿٩٨﴾

◁ اللّغة

اَحْرَصَ النّاسِ: الحرص فرطُ الشّره وفُرط الإرادة وأصل ذلك من حرْص القّصار الثّوب أي قشره بدّقةٍ.

يَوَدُّ: الوّد محبّة الشّئ و تمّنىٰ كونه.

لَوْ يُعَمَّرُ: العمر إسم لِمدّة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء.

بِمُزَحْزِحِهِ: زَحزَح بزُحزُح الزّحزحة والزّحزاح الإزالة قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ اَلنّارِ**[1] أي أزيل عن مقّره فيها.

عَلىٰ قَلْبِكَ: قلب الشّئ تصريفه و صرف عن وجهٍ الى وجهٍ كقلب الثّوب و قلب الإنسان أي صرفه عن طريقته والإنقلاب والإنصراف.

بُشْرىٰ: يقال أبشرتُ الرّجل وبَشَّرت وبَشَرته، أخبرته بسّارٍ بسط بشرة وجه.

◁ الإعراب

وَلَتَجِدَنَّهُمْ هي المتعدّية الىٰ مفعولين اَحْرَصَ مفعوله الثّاني عَلىٰ متّعلقة بأحرص ومِنَ الَّذينَ اَشْرَكُوا معطوفة علىٰ النّاس في المعنىٰ والتقدّير أحرص

١- آل عمران = ١٨٥

من النّاس أي الّذين في زمانهم و أحرص مِنَ الَّذِينَ اَشْرَكُوا يعني به المجوس يَوَدُّ فيه وجهان:

أحدهما: أنّه حال من الّذين أشركوا.

الثّاني: أن يكون حالاً من الهاء و الميم في و لتجدّنهم والوجه الثّاني من وجهي مِنَ الَّذِينَ أن يكون مستأنفاً لَوْ يُعَمَّرُ لو هنا بمعنىٰ أن النّاصبة للفعل ولكن لا تنصب يُعَمَّرُ يتعدّىٰ الىٰ مفعول واحد وقد أُقيم مقام الفاعل اَلْفَ سَنَةٍ ظرف وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ في هو وجهان:

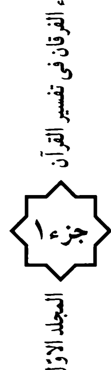
أحدهما: أحَد بِمُزَحْزِحِهِ خبر ما و من العذاب متعلّق بمزحزحه و أن يعمر في موضع رفع بمزحزحه والوَجه الأخر أن يكون هو ضمير التّعمير و قد يدّل عليه قوله لو يُعمر و قوله أن يُعمر بدلّ من هو مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ مَن شرطّية و جوابها محذوف وتقديره فليمت غيظاً أونحوه بِإِذْنِ اللّٰهِ في موضع الحال من ضمير الفاعل في نزّل و هو ضمير جبرئيل مُصَدِّقاً حال من الهاء في نزّله وكذلك وَهُدًى وَبُشْرىٰ أي هادياً و مُبشراً.

◁ التّفسير

ثمّ أخبر اللّٰه تعالىٰ عن اليهود فقال وَلَتَجِدَنَّهُمْ أي لتجدّن يامحمّد اليهود اَحْرَصَ علىٰ حياةٍ أي أنّهم علىٰ الحياة الدّنيا والبقاء فيها أحَرص من سائر النّاس وَمِنَ الَّذِينَ اَشْرَكُوا أي أنّهم أحَرص عليها من المشركين و هم المجوس و من لا يؤمن بالبَعث أيضاً، قال بعض المفسّرين أنّ الكلام قد تَم عند قوله علىٰ حياةٍ، وَمِنَ الَّذِينَ اَشْرَكُوا جملة مستأنفة تقديره وَمِنَ الَّذِينَ اَشْرَكُوا يَوَدُّ اَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ اَلْفَ سَنَةٍ فَحذف من وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ أي و ما أحدهم بمنجيه من عذاب اللّٰه و لا بمُبعده منه تعميره و هو أن يطول له البقاء لأنّه لابدّ من الفناء وَاللّٰهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ أي أنّه تعالىٰ بأعمالهم

محيطٌ فلا يخفىٰ عليه شيئ من أقوالهم و أفعالهم و نيّاتهم **قل** يامحمّد **مَنْ كٰانَ عَدّواً لِّجِبْرِيلَ** و هو روح القُدس فأنّه أي فأنّ جبرئيل **نَزَّلَه عَلىٰ قَلْبِكَ** لأنّه أمين وحيه علىٰ أنبياءه **بِإِذْنِ اللّٰهِ** أي أنّ جبرئيل مأذون من اللّه ومأمور من قِبله فما نزّله علىٰ قلبك من القرأن أنّما هو بأذن اللّه الا من تلقاء نفسه **مُصَدِّقاً لِّمٰا بَيْنَ يَدَيْهِ** أي موافقاً لما بين يديه من التّوراة ومصدّقاً له بأنّه حقّ و أنّه من عند اللّه تعالىٰ لا مكذّباً لها **وَهُدًى وَّبُشْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** أي أنّ القرأن الّذي نزّله جبرئيل علىٰ قلبك هدىٰ و بُشرىٰ للمؤمنين أي يهديهم الىٰ الطّريق المستقيم و يبّشرهم بالنّعيم الدّائم في الأخرة وأنّما خصّ الهُدىٰ بالمؤمنين من حيث كانوا هم المُهتدين به لقابلّيتهم و إستعدادهم و أن كان هدىً لغيرهم أيضاً و قد مرّ البحث فيه عند قوله: **هُدىً للمتّقين** في أوّل البقرة ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ كٰانَ عَدُوًّا لِّلّٰهِ**

قيل أنّما أعاد ذكرهما لأنّ اليهود قالت جبرئيل عدّونا و ميكائيل ولّينا و لذلك خصّهما اللّه بالذّكر لفضلهما و منزلتهما لئلاّ تزعم اليهود أنّهما مخصوصان من جملة الملائكة و ليسا بداخلين فيهم فنَّص اللّه عليهما ليبطل ما يتأولونه من التخصّيص ثمّ قال فأنّ اللّه عدّو للكافرين و لم يقل فانّه و كرّر إسم اللّه لئلاّ يظّن أنّ الكناية راجعة الىٰ جبرائيل و ميكائيل قاله بعض المفسّرين.



قال بعض المفسّرين من العّامة أنّ سبب نزول هذه الآية قُل من كان عدّواً لِجبرايل فَإِنَّهُ نَزَّلَه عَلىٰ قَلْبِكَ الىٰ قوله: عَدُوٌّ لِّلْكٰافِرِينَ هو أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم لمّا قَدم المَدينة أتاهُ عبد اللّه إبن صوريا فقال يا محمّد كيف نومك فقد أُخبرنا عن نوم النّبي الّذي يجيئ في آخر الزّمان فقال عليه السلام: تنام عيناي و لا ينام قَلبي قال صدقت يا محمّد فأخبرني عن الولد أَمن الرّجل يكون أم من المرأة فقال عليه السلام: أمّا العظام

والعصب والعروق فَمن الرّجل وأمّا اللّحم والدّم والظّفر والشّعر فَمِن المرأة فقال صدقت فما بال الرّجل يشبه أعمامه دون أخواله أو يشبه أخواله دون أعمامه فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أيّهما غَلَب ماءه ماء صاحبه كان الشبّه له قال صدقت ثمّ قال أخبرني أي الطعام حرَّم إسرائيل علىٰ نفسه و في التّوراة أنّ النّبي الأُمّي يخبر عنه فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنشدكم باللّه الّذي أنزل التّوراة علىٰ موسىٰ هل تعلمون أنّ إسرائيل مرض مرضاً شديداً فقال سقم فنذر للّٰه نذراً لأن عافاه اللّه من سقمه ليحرّمن علىٰ نفسه أحبّ الطّعام والشّراب و هو لحم الإبل و ألبانها فقال نعم فقال له بقيت خصلة واحدة أن قلتها آمنتُ بك أيّ ملكٍ يأتيك بما تقول علىٰ اللّه (عن اللّه) قال عَلَيْهِ السَّلَامُ جبرائيل قال: أنّ ذلك عدّونا ينزل بالقتال والشّدة و رسولنا ميكائيل يأتي بالبشر والرّخاء فلو كان هو الّذي يأتيك آمنّا بك فقال عمر و ما مبدأ هذه العداوة فقال إبن صوريا أول هذه العداوة أنّ اللّه تعالىٰ أنزَل علىٰ نبّينا أنّ بيت المقدّس سيخرب في زمان رجلٍ يقال له بخت نصر و وصَفه لنا فطلبناه فلمّا وَجدناه بعثنا لِقتله رجالاً فرفع عنه جبرائيل و قال أن سلطّكم اللّه علىٰ قتله فهذا ليس هو ذاك الّذي أخبر اللّه عنه أنّه سيخرب بيت المقدّس فلا فائدة في قتله ثمّ أنّه كبر و قوىٰ ومِلك و غزانا و خرب بيت المقدّس و قتلنا فلذلك نتّخذه عدّواً و أمّا ميكائيل فأنّه عدّو جبرائيل فقال عمر فأنّي أشهد أنّ من كان عدّواً لجبرائيل فهو عدّواً لميكائيل و هما عدّوان لمن عاداهما فأنكروا ذلك علىٰ عمر فأنزل اللّه تعالىٰ هاتين الأيتين انتهىٰ.

و قال: بعض آخر روي أنّه كان لعمر أرض بالمدينة وكان ممرّه علىٰ مدارس يهود و كان يجلس اليهم و يستمع كلامهم فقالوا يا

عُمر قد أجبناك و إنّا لنطمع فيك فقال واللّه ما أجيئكم لحبّكم و لا أسألكم لأنّي شاكّ في ديني و أنّما أدخل عليكم لإزداد بصيرة في أمر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأرىٰ آثاره في كتابكم ثمّ سألهم عن جبرائيل فقالوا ذاك عدّونا يطّلع محمّداً علىٰ أسرارنا و هو صاحب كلّ خسفٍ و عذاب و أنّ ميكائيل يجئ بالخصب والسّلم فقال لهم و ما منزلتهما من اللّه قالوا أقرب منزلة جبرائيل عن يمينه و ميكائيل عن يساره و ميكائيل عدّو لجبرائيل فقال عُمر لئن كانا كما تقولون فما هُما تعدّوين و لأنتم أكفر من الحمير و من كان عدّواً لأحدهما كان عدّواً للأخر و من كان عدّواً لهما كان عدّواً لِلّٰه ثمّ رجع عمر فوجد جبرائيل قد سَبقه بالوحي فقال النّبي فقد وافقك ربّك يا عمر قال عمر لقد رأيتني في دين اللّه بعد ذلك أصلب من الحجر انتهىٰ تفسير الفخر الرّازي.

و أنا أقول ما ذكره الرّازي في تفسيره لا يعتمد عليه من وجوهٍ.

أحدها: أنّه لم يذكر في كتابه سَند الرّوايتين و أنّه من أين نقلهما فأن كان صادقاً في نقله لوجب عليه ذكر مأخذ الحديثين و لا سيّما الأوّل منهما فإنّا بعد الفَحص في كتب العّامة وتفاسيرهم قبل الرّازي لم نجد شيئاً نعم بعض العّامة من المتأخرين نقل ما نقله الرّازي و أنّما هو أخذه من كتابه كما ذكره النيسّابوري في تفسيره من غير فحصٍ في سند الحديث.

ثانيهما: أنّ الطّبري نقل الحديثين بخلاف ما نقله الرّازي في أكثر عبارات الحديث و قد إتّفقوا علىٰ أنّ الطّبري أمامهم في التّفسير و كلّهم أخذوا منه مضافاً الىٰ أنّ الطّبري كان مقيّداً بنقل الأحاديث في تفسير الأيات لأنّ تفسيره تفسيرٌ بالمأثور و هو أعلم من الرّازي و أمثاله بل من جميع علماء العّامة في هذا الفنّ و كان زمانه مُقدماً علىٰ الرّازي بقرون كثيرة وجميع مُفسّري العّامة

كلّما نقلوه من الأحاديث في تفاسيرهم أخذوه من تفسيره ومع ذلك كلّه لم ينقل في تفسيره ما نقله الرّازي والإختلاف بين النقّلين كثير للطّبري[١].

و هكذا السّيوطي في اله المنشور في التّفسير بالمأثور ذكر أخباراً كثيرة في تفسير الآية و لم ينقل ما نقله الرّازي بألفاظه و عباراته بل نقل ما هو قريب منه من بعض الجهات أنظر الىٰ ما ذكره السّيوطي[٢].

ثالثها: من أين ثبت للرأزي أنّه كان لعُمر أرض بالمدينة ولم يثبته أحدٌ غيره و أعجب من ذلك كلّه قوله في آخر الحديثين أنّ اللّه تعالىٰ أنزَل الأيتين بعد إنكار إبن صُوريا علىٰ عمر في الأوّل وقول النّبي لعُمر، فقد وافقك ربّك يا عُمر الخ فى الحديث الثّاني فأنّ هذه المناقب ممّا يضحك به الثّكلى و لقد كان رسول اللّه ﷺ عالماً بهذا المجعولات قبل وجودها حيث قال من فَسَّر القرآن برأيه فليتّبوا فقعده من النّار صدق رسول اللّه ﷺ ونذكر في الخاتمة ما ذكره بعض العلماء في جبرائيل و ميكائيل لأنّه لا يخلو من فائدة أمّا جبرائيل فقد ذكروا فيه عشر لغات.

الأوّلىٰ: جبريل و هي لغة أهل الحجاز قال إحسان إبن ثابت و جبريل رسول اللّه فينا.

الثّانية: جَبريل بفتح الجيم و هي قرءة الحَسَن و إبن كثير.

الثّالثة: جبرئيل بياء بعد الهمزة و هي قراءة أهل الكوفة كما قال شاعرهم.

شهدنا فما تلقىٰ لنا من كتيبةٍ مدىٰ الدّهر إلاّ جبرييل أمامها

و هي لغة تميم و بئيس.

الرّابعة: جَبرئل علىٰ وزن **جَبرَعل** مقصور و هي قراءة أبي بكر عن عاصم.

الخامسة: مثلها إلاّ أنه شدّد اللاّم و هي قراءة يكن إبن عمر.

السّادسة: جبرائِل، بألف بعد الرّاء ثمّ همزة و بها قرأ عكرمة.

١-ج ١ص ٣٤٢ ٢-ج ١ص ٩٠

السّابعة: مثلها إلاّ أنّ بعد الهمزة ياء.

الثّامنة: جبرييل بيائين نفي همزة و بها قرأ الأعمش.

التّاسعة: جبرَئِين بفتح الجيم مع همزة مكسورة بعدها ياء و نون.

العاشّرة: جِبرِين بكسر الجيم و سكون الياء بنون من غير همزة.

و أمّا اللّغات في ميكائيل فهى ايضاً كثيرة:

الأولىٰ: ميكايئيل، بياء بعد الهمزة قراءة حَمزة.

الثّانية: ميكاييل، بيائين قراءة نافع.

الثالثة: ميكال لغة أهل الحجاز و هي قراءة أبي عمرو و حفص عن عاصم

قال كعب ابن مالك:

ويوم بَدرٍ لقيناكم لنا مَددُ　　　فيه مع النّصر ميكال و جبريلُ

و قال أخر:

عبدوا الصّليب وكذّبوا بمحمّدٍ　　　بجبرئيل وكذّبوا ميكالا

الرابع :مَيكئيل، مثل مَيكَعَيل و هي قراءة ابن محيص.

الخامسة: ميكايل.

السّادسة: ميكائل بهمزةٍ مفتوحة و هو إسمٌ أعجّمي لم ينصرف ونقل عن ابن عبّاس أنّ جبر و ميكا، وإسراف، هي كلّها بالأعجّمية بمعنىٰ عبد و مملوك وأيل إسم اللّه تعالىٰ و قال الماوردي أنّ جبريل و ميكائيل إسمان أحدهما عبد اللّه، والأخر عُبيد اللّه و قال بعض المفسّرين، و إسرافيل عَبدُ الرّحمن هكذا قالوا واللّه أعلم بحقائق الأمور.

■

وَلَقَدْ اَنْزَلْنآ اِلَيْكَ اٰياتٍ بَيِّنٰاتٍ وَّمٰا يَكْفُرُ بِهٰآ اِلاَّ الْفاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ اَوَ كُلَّمٰا عٰاهَدُوا عَهْداً نَّبَذَه فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ اَكْثَرُهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

◁ اللّغة

نَّبَذَه: النّبذ إلقاء الشّيئ و طرحه لقلّة الاعتناء به ولذلك يقال نَبَذتُه نَبَذ النّقل الخلق، وباقي اللّغات قد مرّ تفسيرها مراراً مع وضوحها.

◁ الإعراب

اَوَ كُلَّمٰا الواو للعطف والهَمزة قبلها للإستفهام علىٰ معنىٰ الإنكار **عَهْداً** مصدر من غير لفظ الفعل المذكور ويجوز أن يكون مفعولاً به.

◁ التّفسير

قال اللّه مخاطباً لنّبيه **وَلَقَدْ اَنْزَلْنآ اِلَيْكَ** يامحمّد **اٰياتٍ بَيِّنٰاتٍ** والمراد بها الأيات القرّأنية الفاصلة بين الحقّ و الباطل أو الأعمّ منها و المعجزات و الكرامات و غيرها من الأيات التكوّينية **وَّمٰا يَكْفُرُ بِهٰآ** أي بالأيات.**اِلاَّ الْفاسِقُونَ** قالوا أي الكافرون و أنّما سمّي الكفر فسقاً لأنّ الفِسق خروج من شئ الىٰ شئ واليهود خرجوا من دينهم بسبب تكذيبهم دين النّبي و هو الإسلام و أنّما لم يقل الكافرون و أن الكفر أعظم من الفِسق لأنّ الفسق لا يكون إلاّ أعظم الكبائر فأن كان في الكفر فهو أعظم الكفر وأن كان فيما دون الكفر فهو أعظم المعاصي و الحاصل أنّ الفسق بمعناه العامّ يشمل الكافر أيضاً و قوله تعالىٰ: **اَوَ كُلَّمٰا عٰاهَدُوا عَهْداً** قيل المراد بالعهد مأ اخَذَه الأنبياء عليهم أي علىٰ اليهود أن يؤمنوا بالنّبي الأُمّي.

و قال عطا، المراد أنّ اليهود كانت كذلك ألا ترىٰ أنّ العهود التّي كانت بين رسول اللّه و بين اليهود نقضوها كما في قصّة قريظة و النضّير حيث عاهدوا أن لا يُعينوا عليه أحد فَنقضوا ذلك و أعانوا عليه قريشاً يوم الخندق ولذلك قال تعالىٰ: **نَّبَذَه فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** أي نقضه جماعة منهم **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ** أي أكثر اليهود أو أكثر المعاهدين لا يُؤمنون واقعاً كما مَرّ والتّعبير بالنّبذ للدّلالة علىٰ أنّ اليهود طرحوا عُهودهم و ألقوها وراء ظهورهم كأن لم يكن شيئاً مذكوراً لأنّ النّبذ في الأصل الطّرح والإلقاء كما قال أبو الأسود:

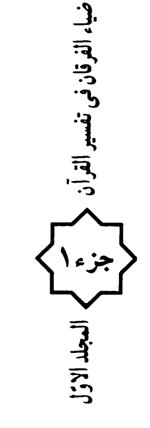
و خبّرني من كنتُ أرسلتُ أنّما أخذتُ كتابي معرضاً بتمالكاً
نظرتُ الىٰ عنوانه فنَبَذتُه كنبذك نعلاً أخلقت من نِعالكا

و قال الشّاعر:

أنّ الّذين أمَرتهم أن يَعدلوا نَبذوا كتابك وإستَّحلوا المَحرما

و هذا مثلٌ يُضرب به لمن إستخفّ بالشّئ فلا يعمل به واليهود كانوا كذلك أعاذنا اللّه منه.

■



وَلَمّٰا جٰاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصِدِّقٌ لِّمٰا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ كِتٰابَ اللّٰهِ وَرٰاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

◁ اللّغة

ظُهُورِهِمْ: ظهور جمع ظهر و هو الجارحة والظّهر هاهنا إستعارة تشبيهاً لِلذّنوب بالحَمل الّذي يَنوء بحامله و قد يستعار لظاهر الأرض أيضاً فيقال ظهر الأرض.

◁ الإعراب

مُصِدِّقٌ لِمٰا مَعَهُمْ نعتٌ لِلرّسُول و يجوز نصبه علىٰ الحال **نَبَذَ فَرِيقٌ** جواب لما **كِتٰابَ اللّٰهِ** نصب علىٰ أنّه مفعول، نبذ والمراد به التّوراة **كَأَنَّهُمْ** هي وما علمت فيه في موضع الحال والعامل نبذ و صاحب الحال فريق.

◁ التّفسير

وَلَمّٰا جٰاءَهُمْ أي اليهود **رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ** المراد بالرّسول نَبيّنا ﷺ الّذي جاء من عند اللّه، لقوله تعالىٰ: **هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ**[1].

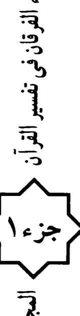
و يحتمل أن يكون المراد مطلق الرّسل ليشمل عيسىٰ و من قبله من أنبياء بني إسرائيل الّذين جاءوا بعد موسىٰ فأنّهم كانوا من عند اللّه أيضاً **مُصِدِّقٌ لِّمٰا مَعَهُمْ** أيّ كلّ واحد منهم مصدّق لِما معهم و هو التّوراة **نَبَذَ** أي ألقىٰ **فَرِيقٌ** أي طائفة من اليهود **مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ** و هو التّوراة **كِتٰابَ اللّٰهِ وَرٰاءَ**

١- التوبة = ٥٥

ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ أي أعَرضوا عمّا في التّوراة من وصف النّبي بعد موسىٰ كأنّهم لا يعلمون بما فيها من الأوصاف قال الشّعبي هو بين أيديهم يقرأونه و لكن نَبَذوا العَمَل به و قال سفيان بن عينية أدرجوه في الحرير والدّيباج و حلّوه بالذّهب والفضّة و لكن لم يحلّو حلاله و لم يحرّموا حرامه فذالك النَّبذ و قيل لمّا جاءهم الرّسول بهذا الكتاب فلم يقبلوا و صاروا نابذين للكتاب الأوّل أيضاً الّذي فيه البشارة به و نقل عن السّدي أنّه قال، أنّهم نَبَذوا التّوراة و اخذوا بكتاب آصف و سَحرها روت و ماروت يعني أنّهم تركوا ما يدّل عليه التّوراة من صفة النّبي و غير ذلك و محصّل الكلام أنّ اليهود تَركوا العمل بكتابهم ونبذوه وراء ظهورهم من هذه الجهة.

و أنا أقول المسلمون أيضاً كذلك لأنّهم صاروا نابذين لكتاب أعني به القرأن بعد رسولهم طابق النّعل بالنّعل كما أخبر به الرّسول في حياته الىٰ أن وَصل الأمر الىٰ زماننا هذا فأنّا نرىٰ أنّه لم يبق من الإسلام إلاّ إسمه و لا من القرأن إلاّ دَرسه يحرّمون حلاله ويُحلّلون حرامه وهم يَظّنون أنّهم يحسنون صنعاً واللّه لبالمرصاد.

■



وَاتَّبَعُوا مٰا تَتْلُوا الشَّيٰاطِينُ عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمٰانَ وَمٰا كَفَرَ سُلَيْمٰانُ وَلٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ وَمٰآ اُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبٰابِلَ هٰارُوتَ وَمٰارُوتَ وَمٰا يُعَلِّمٰانِ مِنْ اَحَدٍ حَتّٰى يَقُولآ اِنَّمٰا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاٰ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمٰا مٰا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمٰا هُمْ بِضٰارّينَ مِنْ اَحَدٍ اِلاّٰ بِاِذْنِ اللّٰهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مٰا يَضُرُّهُمْ وَلاٰ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرٰاهُ مٰالَه فِي الْاٰخِرَةِ مِنْ خَلاٰقٍ وَلَبِئْسَ مٰا شَرَوْا بِهِ اَنْفُسَهُمْ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

◁ اللّغة

الشَّيٰاطِينُ: جمع شيطان و النّون فيه أصلّية و هو من شَطَنَ أي تَباعد كما مرّ.

سُلَيْمٰانُ: إسم نبّيٍ من أنبياء بني إسرائيل.

السِّحْرَ: قال في المنجد سَحَرَه سِحراً خدعه، عَمِل له السّحر إستحالة وفتنته و سلب لبّه ثمّ قال سحره سحراً أصاب سَحراً أي رئته فالمصاب مَسحُورٌ و قال أيضاً السّحر بكسر السّين مصدر ما أَلطف مأخذه ودقّ إخراج الباطل في صورة الحقّ ما يفعله الإنسان من الحيل.

بِبٰابِلَ: قيل هو بابل العراق لأنّها تبلبل بها الألسُن.

هٰارُوتَ وَمٰارُوتَ: إسم ملكين و قيل هما رجلان إسم أحدهما، هاروت والأخر ماروت.

فِتْنَةٌ: الفِتنة الإختبار.

بِضٰارّينَ: الضّر ضدّ النّفع.

◁ الإعراب

وَاتَّبَعُوا معطوف علىٰ و أشربوا أو علىٰ نَبَذه فريقٌ مٰا تَتْلُوا بمعنىٰ تَـلَت عَلىٰ مُلْكِ أي علىٰ زَمن ملك فحذف المضاف سُلَيْمٰانُ بضّم السّين لا ينصرف للعجمة والتّعريف و الألف و النّون يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ في موضع نصب علىٰ الحال من الضّمير في كفروا و أجاز قوم أن يكون حالاً من الشّياطين مٰآ أُنْزِلَ ما بمعنىٰ الّذي و هو في موضع نصب عطفاً علىٰ السِّحر و قيل في موضع جرّ عطفاً علىٰ مُلك سليمان و قيل ما نافية هٰارُوتَ وَمٰارُوتَ بدلان من الملكين ببابل يجوز أن يكون ظرفاً لأُنزِل و يجوز أن يكون حالاً من المَلَكين أو من الضّمير في أنزل، حتّىٰ يقولا أي الىٰ أن يقولا نَحْنُ فِتْنَةٌ مبتدأ و خبر فَـيَتَعَلَّمُونَ مِـنْهُمٰا هـو معطوف علىٰ يعلّمان وليس بداخل فـي النّـفي لأنّ النّـفي هـناك راجـع الىٰ الإثبات مٰا يُفَرِّقُونَ ما، بمعنىٰ الّذي أو نكرة موصوفة و لا يـجوز أن تكـون مصدّرية لعود الضّمير من به، اليها، و المصّدرية لا يعود اليها ضمير إِلاّٰ بِإِذْنِ اللّٰهِ الجارّ و المجرُور في موضع نصب علىٰ الحال و أن شئت من الفاعل وأن شئت من المفعول وَلاٰ يَنْفَعُهُمْ هو مَعطوفٌ علىٰ الفعل قبله و دخلت لا لِلنّفي و يجوز أن يكون مستأنفا و لا يصّح عطفُه علىٰ، ما، لأنّ الفعل لا يعطف علىٰ الإسم لَمَنِ اشْتَرٰاهُ اللاّم هنا هي الّتي يوتى بها للقسم مثل الّتي في قوله لأن لم ينته المنافقون ومِنْ في موضع رفع علىٰ الإبتداء و هي شرط و جواب القَسم و ماله في الأخرة من خلاق، و قيل، مَن بمعنىٰ الّذي و علىٰ كلا الوجهين موضع الجملة نصب بعلموا، وَلَبِئْسَ مٰا جواب قسم محذوف لَوْ كٰانُوا جـواب لو محذوف تقديره لو كانوا يُنتفعون بعلمهم لإمتنعوا مِن السِّحر.

◁ التّفسير

وَاتَّبَعُوا مٰا تَتْلُوا الشَّيٰاطِينُ عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمٰانَ قيل هذا أخبار من اللّه تعالىٰ عن القوم الّذين نبذُوا الكتاب وراء ظُهورهم و إتّبعوا السِّحر و هم اليهود

و قال السّدي عارضت اليهود محمّداً ﷺ بالتّورة فإتفقت التّوراة و القرآن فنبذوا التّوراة و أخذوا بكتاب آصف و بسحر هاروت و ماروت و نقل عن محمّد إبن إسحاق أنّه قال لمّا ذكر رسول اللّه في الأنبياء و المرسلين قال بعض أحبارهم يزعم محمّد أنّ إبن داود كان نبّياً واللّه ما كان إلاّ ساحراً فأنزل اللّه عزّ وجلّ: **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** أي ألقت الىٰ بني آدم أنّ ما فعله سليمان من ركوب البحر و استسخار الطّير و الشّياطين كان سحراً، و قال الكلبي كتبت الشّياطين السِّحر و البيزنجّيات علىٰ لسان آصف كاتب سليمان و دَمنون تحت مُصّلاه حين إنتزع اللّه ملكه ولم يشعر بذلك سليمان فلمّا مات سليمان إستخرجوه و قالوا للنّاس أنّ ملككم بهذا فتعلموه فأمّا علماء بني إسرائيل فقالوا معاذ اللّه أن يكون هذا علم سليمان و أمّا السَّفلة فقالوا هذا علم سليمان و أقبلوا علىٰ تعليمه و رفضوا كُتب أنبيائهم حتّىٰ بعث اللّه محمّداً ﷺ فأنزل اللّه عزّ و جلّ علىٰ نبّيه عُذر سليمان و أظهر براءته ممّا رُمى به فقال و أتبّعوا ما تتلوا الشّياطين قال عطاء تتلوا تقرأُ، من التّلاوة و قال إبن عبّاس معناه تتبع كما تقول جاء القوم يتلوا بعضهم بعضاً و قال الطّبري معناه، فضّلوا و قد إتفقّ المفسّرون علىٰ أنّ المضارع في المقام بمعنىٰ الماضي فمعنىٰ تتلوا أي تلت كما قال الشّاعر

وإذا مـرزت بـقبره فأعـقر بـه ... كوم المهجان وكلّ طرف سـانح
وإنـفتح جَـوانب قـبره بـدمائها ... فـلقد يكـون أخـادَم وذبـائح

أي فلقد كان و عليه، فما مفعول به لقوله :**اتَّبَعُوا** أي إتَّبعوا ما تقوّلته الشّياطين علىٰ سليمان و تلته، و قيل، ما نافية و ليس بشئٍ لا في نظم الكلام و لا في حجتّه نقل عن إبن العَربي **عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ** أي علىٰ عرشه و نبّوته و قيل أي علىٰ عهد ملك سليمان و قيل في مُلكه يعني في قصصه و صفاته و أخباره و أمّا المراد بالشّياطين هنا فقيل هم شياطين الجنّ و هو المفهوم من

هذا الإسم والظّاهر من الآية و قيل المراد شياطين الإنس المُتمرّدون في الضّلال كقول جزير.

أيّام يدعونني الشّيطان من غَزلى و كنَّ يهويينني إذ كنتُ شيطاناً

و قال بعض المُفسّرين المراد بقوله تعالىٰ: **وَاتَّبَعُوا** اليهود الّذين كانوا علىٰ عهد النّبي و قيل المراد اليهود الّذين كانوا في عهد سليمان، والقول الثّالث أنّ المراد به الجميع لأنّ متّبعي السّحر لم يزالوا منذ عهد سليمان الىٰ أن بعث محمّد صلى الله عليه وآله وسلم روي أنّ اليهود سألوا محمّداً زماناً من التّوراة لا يسألونه عن شئ من ذلك إلاّ أنزل اللّه عليه ما سألوا عنه فيخصمهم فلمّا رأوا ذلك قالوا هذا أعلم بما أنزل علينا مِنّا و لمّا سألوه عن السَّحر و خاصموه به أنزل اللّه و إتّبعُوا ما تتّلوا الشّياطين الآية أي إقتدوا بما كانت تتلوا الشّياطين أي تَتّبع و تَعمل به قال حسّان:

نبّي يرىٰ ما لا ترىٰ النّاس حَوله ويتلوا كتاب اللّه في كلّ مَشهدٍ

قوله تعالى :وَمٰا كَفَرَ سُلَيْمٰانُ وَلٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ وَمٰآ اُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبٰابِلَ هٰارُوتَ وَمٰارُوتَ يستفاد من الآية أنّ ما كانت تتلوه الشّياطين و تأثره و ترويه كان كُفراً إذ برء منه و قال: **وَمٰا كَفَرَ سُلَيْمٰانُ وَلٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا** و لم يُبيّن اللّه تعالىٰ ما تتلوا الشّياطين علىٰ مُلك سُليمان أنّها أي شئٍ كانت تتلوا ثمّ لم يبيّن أيضاً نوع الكُفر في الآية حتّىٰ قال: **وَلٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ** فيعلم منه أنّ ذلك الكفر كان من نوع السِّحر و ذلک لأنّ اليهود أضافوا السِّحر الىٰ سليمان لأنّهم زعموا أنّ ملكه كان قائماً بالسِّحر فبرأه اللّه منه قال في المجمع و أختلف في السَّبب الّذي لأجله أضاف اليهود السِّحر الىٰ سليمان فقال بعضهم أنّ سليمان كان قد جمع كتب السَّحرة و وضعها في خزانته و قيل كتمها تحت كُرّسيه لئلا



يطلّع عليها النّاس و لا يعلموا بها فلمّا مات إستخرجت السَّحرة تلك الكُتب و قالوا أنّما تمّ مُلكه بالسِّحر و به سخّر الجنّ والإنسّ و الطّير و زيّنوا السِّحر في أعين النّاس بالنّسبة الىٰ سليمان و شاع ذلك في اليهود و قبلوه بعدواتهم لسليمان.

و روي العيّاشى بأسناده عن إبن بصير عن أبي جعفر، قال لمّا هَلك سليمان وضع إبليس السّحر ثمّ كَتَبه في كتاب وطواه و كتب علىٰ ظهره هذا ما وضَع آصف بن برحينا من مَلك سليمان إبن داوُد من ذخائر كنوز العلم مَن أراد كذا وكذا فليقل كذا و كذا ثمّ دفنه تحت السّرير ثمّ إستتاره لهم فقال الكافرون ما كان يغلبنا سليمان إلاّ بهذا و قال المؤمنون هو عبد اللّه ونبّيه فقال اللّه في كتابه: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وفي قوله وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ثلاثة أقوال.

أحدّها:أنّهم كفروا بما إستخرجوه من السِّحر.

ثانيها: كفروا بما نَسبُوه الىٰ سليمان.

ثالثها: أنّهم سحروا فعبّروا عن السِّحر بالكُفر وفي قوله:يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ قولان:

أحدّهما: أنّهم ألقوا السِّحر اليهم فتعلموه. الثّانى: دلّوهم علىٰ إستخراجه من تحت الكرّسي فتعلّموه.

و روي بعض المُفسّرين من العّامة عن السّدي أنّه قال كانت الشّياطين تصعد الىٰ السّماء فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موتٍ و غيره و يأتون الكهنة و يخلطون بما سمعوا في كلّ كلمةٍ سبعين كذبة و يخبرونهم بها فإكتسب النّاس ذلك و فشا في بني إسرائيل أنّ الجنّ تعلم الغيب و بعث سليمان في النّاس و جمع تلك الكتب وجعلها في صندوقٍ و دفنه

تحت كرسيّه و قال لا أسمعُ أحداٍ يقول أنّ الشّيطان يعلم الغيب إلاّ ضربت عُنقه فلمّا مات سليمان و ذهب العلماء الّذين كانوا يعرفون أمره و دَفنه الكُتُب و خلف من بعدهم تمثّل الشّيطان علىٰ صُورة إنسان فأتىٰ نفراً من بني إسرائيل فقال هل أدلّكم علىٰ كنزٍ لا تأكلونه أبداً قالوا نعم قال فأحفروا تحت الكُرسّي و ذهب معهم فأراهم المكان و قام ناحيته فقالوا اُدن قال لا ولكنّي هيهنا فأن لم تجدوا فإقتلوني و ذلک لأنّه لم يكن أحدٌ من الشّياطين يدنوا من الكُرسّي إلاّ إحترق فحفروا و أخرجوا تلك الكُتب قال الشّيطان أنّ سايمان كان يضبط الجنّ و الإنس و الشّياطين و الطّير بهذه ثمّ طار الشّيطان ونشأ في النّاس أنّ سليمان كان ساحراً وأخذ بنوا إسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السّحر في اليهود فلمّا جاء محمّد ﷺ برء اللّه سليمان من ذلك و أنزل في عذر سليمان و أتبعُوا ما تتلوا الشّياطين علىٰ مُلك سُليمان و ما كفر سليمان و لكن الشّياطين كفروا بإستعمال السِّحر و تعليمه و تدوينه، و أمّا قوله: **وَمٰآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبٰابِلَ هٰارُوتَ وَمٰارُوتَ** فقد قلنا في شرح اللّغات أنّ، ما، موصولة، و قيل نافية والإختلاف نشأ من ناحية العطف ممن قال أنّ قوله: **وَمٰآ أُنْزِلَ** الخ معطوف على السّحر أو علىٰ ما تتلوا أو علىٰ مُلك سليمان فقال أنّها موصولة ومن قال أنها معطوفة علىٰ قوله: **وَمٰا كَفَرَ سُلَيْمٰانُ** أي و ما كفر سليمان، أي **وَمٰآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** فقال بالنّفي قضاءاً لحكم العطف ولذلك نقلوا في المقام أقوالاً ثلاثة:

أحدها: أنّ المراد أنّ الشّياطين يعلّمون النّاس الّسحر والّذي أنزَل علىٰ المَلكين و أنّما أنزل عليهما وصف السّحر و ماهيّته وكيفّية الإحتيال فيه ليعرفا ذلك و يعّرفاه النّاس فَيجتنبوه غير أنّ الشّياطين لمّا عَرفوه إستعملوه و أن كان المؤمنون إذا عرفوه إجتنبوه.

ثانيها: أن يكون المراد و أتبعوا ما كَذَب به الشّياطين علىٰ مُلك سليمان و علىٰ **مَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** أي مَعهما وعلىٰ ألسنتهما.

ثالثها: أن يكون، ما، بمعنىٰ النّفي والمراد **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** و لا أنزل اللّه السِّحر علىٰ المَلكين و لكن الشّياطين كَفروا يُعلّمون النّاس السِّحر ببابل هاروت و ماروت و علىٰ هذا التّأويل يكون هاروت وماروت رجلين من جملة النّاس والمَلكان اللّذان نفىٰ عنهما السِّحر جبرئيل و ميكائيل، قال الطّبرسي بعد نقله ما نقلناه ما لفظه و يجوز أن يكون هاروت و ماروت يرجعان الىٰ الشّياطين كأنّه قال و لكن الشّياطين هاروت و ماروت كفروا إنتهىٰ.

قال القُرطبي، ما نفي والواو لِلعطف علىٰ قوله: **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** و ذلک أنّ اليَهود قالوا أنّ اللّه أنزل جبرئيل و ميكائيل بالسِّحر فنفى اللّه ذلك وفي الكلام تقديم و تأخير و التّقدير و ما كَفر سليمان و ما أُنزل علىٰ المَلكين ولكّن الشّياطين كفروا يعلّمون النّاس السِّحر ببابل هاروت وماروت فَهاروت و مارُوت بَدلٌ من الشّياطين في قوله: **وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** هذا أولىٰ ما حملت عليه الآية من التّأويل وأصّح ما قيل فيها و لا يلتفت الىٰ سواه فالسِّحر من إستخراج الشّياطين للطافة جوهرهم و دقّة أفهامهم إنتهىٰ كلامه.

ثمّ أنّهم إختلفوا في المراد بالمَلكين فمن قرء بفَتح اللاّم قال قوم منهم كانا ملَكين و قال آخرون كانا شيطانين و قال قوم هما جبرئيل و ميكائيل خاصّة و من قَرأ بكسر اللاّم قال هما من ملوك بابل و علوجها و هو قول أبي الأسود الدّوئلي والرّبيع والضّحاك و به قرأ الحَسن البَصري و رواها عن إبن عبّاس وأختلفوا في المراد، ببابل أيضاً، فقال قوم هي بابل العراق لأنّها تَبلبل بها الألسن و قيل بابل دماوند ذكره السّدي و قال قتادة هي من نَصيبين الىٰ رأس العين و قال الحَسَن أنّ المَلكين ببابل الكوفة الىٰ يوم القيامة و بابل بَلَدٌ لا ينصرف لِلتّأنيث والتّعريف والعُجمة.

و أمّا هارُوت و ماروت فهما لا ينصرفان للتّعريف والعجمة ثمّ إختلفوا فيهما أيضاً فمن ذَهب الىٰ كَون، ما، نافية جعل هاروت و مارُوت بدلاً من الشّياطين كما مرّ و قيل هما قبيلتان من الشّياطين و أمّا من ذهب الىٰ كَون، ما، موصولة فالمعنىٰ والّذي أُنزل علىٰ المَلَكين بِبابل هاروت و ماروت فهما بدلان مِن المَلكين و قال قوم أنّ هاروت و ماروت كانا مَلكين من الملائكة غير المَلكين في الآية و كيف كان إختلفوا في سبب هُبوطهما فقال قوم أنّ اللّه أهبطهما الىٰ الأرض لِيأمرا بالدّين وينهيا عن السِّحر لأنّ السِّحر كان كثيراً في ذلك الوقت ثمّ إختلفوا فقال قوم كانا يُعلّمان النّاس كيفيّة السِّحر وينهيانهم عن فعله لِيَكون النّهي بعد العلم به لأنّ من لا يعرف الشّيئ فلا يمكنه إجتنابه و قال قوم آخرون لم يكن لها تعليم بالسِّحر و لا إظهاره لما في تعليمه من الإغراء بفعله، و قال قومٌ هبطا لمجّرد النّهي إذ كان السِّحر فاشياً.

و قال قوم كان سبب هبوطهما أنّ الملائكة تعّجبت من معاصي بني آدم مع كثرة نِعم اللّه عليهم فقال لهم أما لو كُنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم فقالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا فأمرهم أن يختاروا ملكين ليهبطا الىٰ الأرض فأختاروا هاروت و ماروت فأهبطا الىٰ الأرض و ركب فيهما شهوة الطعام والشّراب والنّكاح و أحلّ لهما كلّ شيئ بشرطٍ ألاّ يُشركا باللّه و لا يشربا الخَمر و لا يزنيا و لا يقتلا النّفس الّتي حرّم اللّه وعَرضت لهما امرأة للحكومة فمالا اليها فقالت لهما لا أُجيبكما حتّىٰ تعبدا صَنماً و تشربا الخمر و تقتلا النّفس فعبدا الصّنم و واقعاها و قتلا سائلاً مرّ بهما خوفاً أن يشهر أمرهما في حديث طويل قال كعب فواللّه ما أمسيا من نومهما الّذي أهبطا فيه حتّىٰ إستكملا جميع ما نهيا عنه فَتعّجب الملائكة من ذلك ثمّ لم يقدر هاروت و ماروت علىٰ الصّعود الىٰ السّماء وكانا علّمان النّاس السِّحر إنتهى.

قال الشّيخ في التّبيان بعد نقله ما نقلناه عنه و من قال بِعصمة الملائكة لم يجز هذا الوجه و قال قوم أنّ ذلك علىٰ عهد إدريس إنتهىٰ[1].

١- تفسير التّبيان ج ١ ص ٣٧٥

إعلم أنّه قد إختلف المفسّرون في تفسير هذه الآية إختلافاً شديداً لا يكاد يُوجد في غيرها من الأيات و لذلك ترىٰ المفسّرين من العامّة و الخاصّة لم يأتوا بشئٍ يرفع الإبهام عن الفاظ الآية و لا عن معناه كما أشرنا اليه إجمالاً وأعظم الأشكال في قوله تعالىٰ: **وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** و عليه فالمعنىٰ الّذي أنزل علىٰ المَلكين بعينه ما تتلوا الشّياطين و هو السِّحر المذموم الّذي عُبّر عنه بالكُفر في قوله:**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** و قوله: **وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا** و هو كما ترىٰ اذ كيف يُعقل أنّ اللّه تعالىٰ أنزل علىٰ المَلَكين السِّحر الّذي تتلوه الشّياطين و صارا بذلك كافرين و هكذا لو كانت موصولة والعطف علىٰ قوله تعالىٰ السِّحر إذ المعنىٰ يصير هكذا و لكن الشّياطين كَفروا و يعّلمون النّاس السِّحر والّذي **أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** و تقرير الإشكال هو أنّ الشّياطين كَفروا لِتعليمهم النّاس السِّحر والّذي أُنزل عليهما فلو كان كُفرهم بِتعليمهم السِّحر فكيف أنزَل اللّه عليهما أعني علىٰ المَلَكين بل المعنىٰ أنّ الشّياطين ما صاروا كافرين بما علموا من السِّحر من عندهم بل صاروا كافرين به و بما أنزل علىٰ المَلكين و لقائل أن يقول كيف عَلموا ما أُنزل عليهما فأن علموا من عند أنفسهم فهو مُحال وإن علموا بتعليم المَلكين إيّاهم فهو أوّل السّؤال هذا كلّه بناء علىٰ كونها موصولة.

و أمّا علىٰ القول بكونها نافية **والواو** إستئنافية فيصير المعنىٰ و لم ينزل علىٰ المَلكين سحر كما يدّعيه اليهود و عليه ففي الكلام تقديم و تأخير و التّقدير هكذا، و ماكفر سليمان و ما أُنزل علىٰ المَلكين و لكن الشّياطين كَفروا يُعَلّمون النّاس السِّحر ببابل هاروت و ماروت فيصير هاروت و ماروت بدلاً من الشّياطين و قد نقلنا هذا القول عن القُرطبي وتّبعه غير واحد من المفسّرين و العَجب أنّ القُرطبي بعد إختياره هذا القول الّذي نقلناه عنه قال هذا أولىٰ ما حملت عليه الآية من التّأويل وأصّح ما قيل فيها و لا يلتفت الىٰ سواه و لم

يعلم أنّ كلامه هذا لا يشبه التّفسير أصلاً لِلزومه تغيير الآية عمّا هي عليه لفظاً و معنىً أمّا لفظاً فظاهر إذ لم يدّل علىٰ التّقديم والتّأخير دليل من العقل والنّقل كما لم يدّل دليل علىٰ أنّ المراد بالمَلَكين جبرئيل و ميكائيل و أنّ اليَهود لمّا زعموا أنّ اللّه تعالىٰ أنزل عليهما السِّحر فَنَفىٰ اللّه ذلك بقوله: **وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** ولا نعلم من أين علم القُرطبي أنّ اليَهود هكذا زعموا ثمّ من أين عَلَم أنّ المراد بالمَلَكين جبرئيل و ميكائيل هذا بحسب اللّفظ و أمّا بحسب المعنىٰ.

فنقول أن كان الأمر كما زعمه القُرطبي و من تبّعه من المفسّرين من العامّة والخاصّة فيقال لهم، ما تقولون في هاروت و ماروت بعد قوله: **وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** و أمرهما لا يخلو من وجهين.

أحدهما: أن يكونا بدلاً من المَلكين كما هو الظّاهر من الآية.

ثانيهما: أن يكونا بدلاً من النّاس في قوله يعلّمان النّاس السِّحر.

فإن كان الأوّل أعني كونهما بدلاً عن المَلكين فأنتم لا تقولون به لأنّ القُرطبي صرّح في كلامه أنّهما بدلان من الشّياطين هذا أوّلاً و ثانياً بطل معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ اَحَدٍ حَتّىٰ يَقُولآ اِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ** لأنهما إذا لم يكونا عالمين بما يفرق به بين المرء وزوجه فما الّذي يتعلّم منهما ما يفرق بين المَرء وزوجه و ثالثاً أنّ لازم ما ذكروه أنّ قوله: **وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ** عطف علىٰ و ما كفر سليمان كما إعترف به في كلامه والمفروض أنّ اللّه بصّريح الآية نفي الكُفر أعني به السّحِر عن سليمان فلو كان النّفي عن المَلكين نظير النّفي عن سليمان فمن المتعلّم منه السِّحر الّذي يُفرق به بين المرء و زوجه و عمّن الخَبر الّذي أخبر عنه بقوله و ما يعلّمان من أحدِ الآية هذا كلّه أنّ قلنا بكونهما بَدلاً عن المَلَكين و أمّا علىٰ القول الثّاني و هو كون هاروت وماروت بَدلاً من النّاس في قوله: **يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** فيلزم أن تكون الشّياطين هي الّتي تعلّم هاروت و ماروت السِّحر و تكون السّحرة أنّما تعلمت السِّحر من هاروت

و ماروت عن تعليم الشّياطين إيّاهما فأن يكن ذلك فلا يخلو هاروت و ماروت عند قائل هذه المقالة من أحد أمرين، أمّا أن يكونا مَلَكين فقد أوجبَ لهما من الكُفر باللّه والمعصية له بنسبته إيّاهما الىٰ أنّهما يتعلّمان من الشّياطين السِّحر ويُعلمانه النّاس و لا يقول به عاقلٌ فضلاً عن مسلم.

و الثّاني أن يكون هاروت و ماروت رجلين من بني آدم و عليه فقد يجب أن يرتفع السِّحر بعد هلاكهما لأنّه اذا كان علم ذلك من قبلهما يؤخذ و منهما يتعلّم فالواجب أن يكون بهلاكهما وعدم وجودهما عدم السّبيل الىٰ الوصول الىٰ ما لا يوصل إلاّ بهما و في وجود السّحر في كلّ زمانٍ و وقتٍ أعظم الدّليل علىٰ فساد هذا القول.

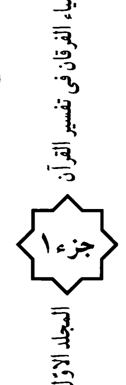
أن قلت لا هذا و لا هذا و ذلک لأنّ في المقام شقّ ثالث و هو كون هاروت و ماروت بَدلاً من الشّياطين كما صرّح القُرطبي به في كلامه، قلنا مضافاً الىٰ أنّه خلاف ظاهر الآية للزومه التّقديم و التأخير والأصل عدمهما أنّه لا يحسم مادّة الإشكال بل هو باقٍ علىٰ حاله اذ يقال فما معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ اَحَدٍ حَتّىٰ يَقُولاۤ اِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ** والمفروض أنّهما أي هاروت و ماروت لم يكونا من الملائكة و كانا من أبناء الشّياطين أو من أبناء بني آدم أو ماشئت فسمّه و لنعم ماقيل:

قل للّذي يدّعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

اذا عرفت هذا فإعلم أنّ الحقّ في المقام هو أنّ كلمة (ما) موصولة بمعنىٰ الّذي وهاروت وماروت بدلٌ عن المَلكين الّذين أُنزل عليهما ما أُنزل و عليه فإسم.

أحَدهما: هاروت و إسم الأخر ماروت و لا إشكال فيه أصلاً و جبرئيل و ميكائيل بمعزلٍ عنهما خلافاً لما زَعمه القُرطبي وأتباعه فيصير معنىٰ الآية و أتبعوا أي اليهود ماتتلوا الشّياطين علىٰ ملك سليمان، أي في عهده و زمانه من السّحر و ما كفر سليمان كما زعم اليهود بنسبة السّحر اليه و لكن الشّياطين

كفروا بتعليمهم النّاس السّحر والّذي أنزل علىٰ المَلَكين ببابل و هما هاروت و ماروت و ما يُعلّمان أي هاروت و ماروت من أحدٍ وأحد هاهنا يجوز أن تكون مستعملاً في العموم كقولك ما بالدّار من أحدٍ و أن تكون بـمعنىٰ واحـد أو إنسان فعلىٰ الأوّل يصير المعنىٰ و ما يُعلّمان أي المـلكان و هـما هـاروت و ماروت من أحد أي من أحدٍ من الأحاد أو من شخصٍ واحد إنساناً كان أو غيره وعلىٰ التقدّيرين معناه ما يُعلّمان أحداً لا بعينه أو بعينه حتّىٰ يقولا أي الىٰ أن يقولا له أنّما نحن فتنة أي إختبار و إمتحان فلا تَكفر أي فلا تتعلم السّحر منّا للعمل به بل تعلم السّحر لتُبطل بـه سـحر السّـاحرين فـيتعلمون مـنهما أي يتعلّمون النّاس منهما ما يُفرّقون به بين المرء وزوجه بخلاف ما إشترطا عليهم **وَمٰا هُمْ بِضّٰارّينَ مِنْ اَحَدٍ** أي أنّ الّذين تعلموا من المَلكين ما تعلّموا وعَملوا بخلاف الشّرط و فرّقوا بين المرء وزوجه ليس بضّارين أحداً و كلمة من في المقامين لربط الكلام و حُسنه و لا معنىٰ له غير الرّبـط، فأنّ قـوله أحـد فـي المقامين في محلّ النّصب علىٰ المفعولّية و التّقدير و ما يعلّمان أحداً و ما هم بضّارين به أحداً إلاّ بأذن اللّه و يتعلّمون ما يضرّهم و لا يَـنفعهم فـي الدّنـيا والأخرة و لقد علموا هؤلاء أي المتعلّمون علم السّحر ثمّ العَمل بـه **لَـمَنِ اشْتَرٰاهُ** أي السّحر والعَمل به ما له في الأخرة من خلاق و لبئس ما شَروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون فهذا معنىٰ الآية إجمالاً و لا إشكال فيه إلاّ ما ربّـما يترأىٰ في باديءَ النّظر و هو الّذي أوقعهم في الحيرة والدُّهشة حتّىٰ صرفوا عن ظاهرها لفظاً و معنىً و هو أنّه كيف يجوز أن يضاف الىٰ اللّه تبارك و تـعالىٰ إنزال ذلك علىٰ الملائكة و ذلک لأنّ يعلم السّحر للمَلكين و إظهاره بهما في النّاس يُوجب الإغراء واللّه تعالىٰ منزّه عنه و بعبارةٍ أخرىٰ كيف ذمّ اللّه تعالىٰ الشّياطين و أتباعهم من اليهود و غيرهم علىٰ السّحر و تعليمه و تعلّمه و هو ينزّل السّحر علىٰ الملَكين و يأمرهما بإظهاره في النّاس و الجواب عنه أمّا أوّلاً



فبأنّ الشّياطين واليهود لم يذمّوا علىٰ علمهم بالسّحر بل ذمّوا علىٰ إعماله في الخارج و الدّليل عليه قوله فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء و زوجه فتعلّق الذّم بهم من هذه الجهة لا مطلقاً و أن شئت قلت الذّم علىٰ العمل به لا علىٰ العلِم به.

ثانياً: لا يُبعد أن يكون المَلكان مأمورين بالتّعليم لأجل إبطال عمل السّاحر وفيه نفع عظيم بل هو واجب علىٰ كلّ من كان قادراً علىٰ إبطال السّحر ولاجل ذلك كانا يشترطان علىٰ من أخذ منهما السّحر أن لا يكفر أي لا يَعمل به في غير مورد الإبطال فأنّه كفر والدّليل عليه قوله تعالىٰ: **وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ** أي أنّا جئنا به من قِبل اللّه تعالىٰ حتّىٰ تتعلمون منّا فتقدرون علىٰ إبطال سحر الشّياطين وأتباعهم لا لتُعملُوا به بعد التّعلم منّا أنّىٰ شئتم ومتىٰ شئتم و هذا هو الإختبار والإمتحان في العباد و لذلك قالوا أنّما نحن فتنة و هي الإختبار فيكون هذا ممّا إمتَحن اللّه عزّ وجلّ عبيده كما إمتحنهم في قصّة طالوت بالنّهر في قوله: **فَمَن شَرَب منه فليس منّي** و سيأتي البحث فيه.

فقوله: **فَلَا تَكْفُرْ** أي لا تكفر بالعَمل به فأن قلت أيّ فائدةٍ في التعلّيم اذا لم يكن العمل به جائزاً، قلتُ فائدته العلم بكيفيّة الإحتيال به ليتجنب ولئلاّ يتّموه علىٰ النّاس أنّه من جنس المُعجزات التّي تظهر علىٰ يد الانبياء فيبطل الإستدلال بها و في المقام إحتمال أخر و هو أنّهما أنزلهما اللّه من السّماء بصورة الإنس حتّىٰ بيّنا للنّاس بطلان السّحر و عليه فالمعنىٰ أنّهما علّما غيرهما بطلان السّحر لانّهما علّما نفس السّحر و علمه وكيف كان فلا وجه لصرف الآية عن ظاهرها مع إمكان حملها عليه اذا علمت هذا بقىٰ في المقام شئ لابدّ لنا من البحث فيه أيضاً و هو أنّ المَلكين أعنىٰ بهما هاروت و ماروت بعد هبوطهما الىٰ الأرض و تَعليمهما ما أُمرا بها صَعدا الىٰ السّماء أم لا والأمر لا يَخلو من وجهين:

أحدهما: أنّهما صَعدا الىٰ السّماء بعد فراغهما عمّا أمرا به.

ثانيهما: أنّهما أخطئا أو ركبا الفواحش فلم يقدرا علىٰ الصّعود الىٰ السّماء بل حبسا و عذّبا في الدّنيا قبل الأخرة لإختبارهما ذلك.

أمّا الوجه الأوّل: فلم أجد قائلاً به صريحاً بين المفسّرين أمّا العامّة فقد إتّفقوا علىٰ الثّاني و أمّا الخاصّة أيضاً كذلك إلاّ أنّهم حيث قالوا بعصمة الملائكة و الأنبياء و الأوصياء لم يلتزموا بخطأهما و عَصيانهما لمكان العصمة فيهما و لازم ذلك هو القول بالصّعُود وأنّ لم يصرّحوا به اذ الأمر دائر بين النّفي والإثبات الخطأ وعدمه والأوّل يلزم العذاب و الثّاني يلزم الرّجوع الىٰ أصله ونحن ننقل أصل القصّة.

أوّلاً: ثمّ نقول ما هو الحقّ عندنا بعون اللّه و توفيقه.

قال الطّبرسي ﷺ في تفسير الآية ما هذا لفظه، و قيل أيضاً في سبب هبوطهما أنّ الملائكة تَعجّبت من معاصي بني آدم مع كثرة نِعم اللّه عليهم فقال طائفة منهم يا ربّنا أما تَغضب ممّا يعمل خلقك في أرضك و ممّا يفترّون عليك من الكذب و الزّور و يرتكبونه من المعاصي لقد نهيتهم عنها و هم في قبضتك و تحت قدرتك فأحبّ اللّه سبحانه أن مايعرفهم ما منّ به عليهم من عجيب خلقهم و ما طبعهم عليه من الطّاعة و عصمهم به من الذّنوب فقال لهم أندبوا منكم مَلكين حتّىٰ أهبطهما الىٰ الأرض و أجعل فيهما من طبائع المطعم و المَشرب و الشّهوة و الحرص و الأقل مثل ما جعلتُ في ولد آدم ثمّ أختبرهما في الطّاعة لي قال فندبوا لذلك هاروت و ماروت وكانا من أشدّ الملائكة قولاً في العيب لولد آدم و استجرار عتب اللّه عليهم فأوحىٰ اللّه اليهما أن أهبطا الىٰ الأرض فقد جعلت فيكما من طبائع المطعم و المشرب و الشّهوة و الحِرص و الأقل مثل ما جعلت في ولد آدم و النّظر أن لا تشركا بي شيئاً و لا تقتلا النّفس التّي حرّم اللّه قتلها و لا تزنيان و لا تشربان الخمر ثمّ أهبطا الىٰ الأرض علىٰ

صورة البشر فرفع لهما بناء مُشرف فأقبلا نحوه فاذا إمرأة جميلة حسناء أقبلت محوهما فوقعت في قلوبهما موقعاً شديداً ثمّ أنّهما ذكرا ما نُهيا عنه من الزّنا فمضيا ثمّ حرّكتهما الشّهوة فَرَجعا اليها فراوداها عن نفسها فقالت أنّ لي ديناً أدين به و لست أقدر في ديني أن أجيبكما الىٰ ما تريدان إلاّ أن تدخلا في ديني فقالا و ما دينك فقالت لي إلٰهٌ من عبد و سجد له كان لي لاسّبيل الىٰ أن أجيبه الىٰ كلّ ما سألني قالا و ما إلٰهك قالت هذا الصّنم فإئتمرا بينهما فَغلبتهما الشّهوة التّي جعلت فيهما فقالا لها نجيبك الىٰ ما سألت قالت خذوا فأشربا الخمر فأنّه قربان لكما عنده و به تصلان الىٰ ما تريدان فقالا هذه ثلاث خصال وقد نهانا ربّنا عنها الشّرك، والزّنا و الخمر فائتمرا.

بينهما ثمّ قالا ما أعظم البلّية قد أجبناك فَشربا الخمر و سَجدا الصّنم ثمّ أراداها عن نفسها فلمّا تهيأت لهما دخل عليهما سائل فلمّا أن رأياه فَزعا منه فقال لهما أنّكما المرّبيان قد خَلوتما بهذه المرأة الحَسناء أنّكما لرجلا سُوء و خرج عنهما فقالت لهما بادرا الىٰ هذا لارّجل فأقتلاه قبل أن يفضحكما ويفضحني ثمّ دُونكما فأقضيا صاحبتكما وأنتما مطمئنان أمنان فقاما الىٰ الرّجل فأدركاه فقتلاه ثمّ رجعا اليها فلم يرياها وبَدت لهما سوأتهما و نَزَع عنهما رياشهما و سَقط في أيديهما فأوحىٰ اللّه اليهما أنّما أهبطكما الىٰ الأرض ساعة من نهار فعصيتماني بأربع معاصٍ قد نهيتكما عنها و تصدّقت اليكما فيها فَلم تستحيا منّي وقد كنتما أشدّ من ينقم علىٰ أهل الأرض من المعاصي فأختارا عذاب الدّنيا أو عذاب الأخرة فإختارا عذاب الدّنيا فكانا يعلّمان النّاس بأرض بابل ثمّ لمّا علّما النّاس رُفِعا من الأرض الىٰ الهواء فهما معذّبان منكّسان معلّقان في الهواء الىٰ يوم القيامة و هذا الخبر رواه العيّاشي مرفوعاً الىٰ أبي جعفر الباقر عليه السلام ومن قال بعصمة الملائكة لم يجز هذا الوجه انتهىٰ.

أقول هذه الرّواية نقلها الطّبرسي عن العيّاشي، وذكر مثلها بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام علّي ابن إبراهيم القُمي في نفسيره[١].

بأدنىٰ تفاوتٍ في بعض ألفاظها و ذكرها في تفسير نورالثّقلين أيضاً نقلاً منه عن تفسير القُمي[٢].

و بهذا المضمون روايات كثيرة من طريق الخاصّة مع إختلاف يسيرٍ في ألفاظها.

و قد ورد بعض الرّوايات بخلافها أيضاً، منها مارواه في تفسير نور الثّقلين عن العيون والحديث طويل الىٰ أن قال فقلنا للحسن أبي القاسم عليه السلام قوماً عندنا يزعمُون أنّ هاروت و ماروت مَلَكان إختارتهما الملائكة لمّا كثر عصيان بني آدم و أنزلهما مع ثالث لهما الىٰ الدّنيا و أنّهما أفتنا بالزّهرة و أرادا الزّنا بها و شربا الخمر وقتلا النّفس المحرّمة و أنّ اللّه عزّ وجلّ يُعذّبهما ببابلٍ و أنّ السّحرة منهما يتّعلمون السّحر وأنّ اللّه تعالىٰ مسخ تلك المرأة هذا الكوكب الّذي هو الزّهرة فقال الإمام معاذ اللّه من ذلك أنّ الملائكة مَعصومون محفوظون من الكفر والقبائح بألطاف اللّه تعالىٰ قال اللّه تعالىٰ فيهم: مَآ أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ وقال: وَ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ يعني الملائكة لا يَستكبرون عن عبادته ولا يَستحسرون يُسبّحون اللّيل والنّهار لا يفترون وقال اللّه تعالىٰ في الملائكة أيضاً بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ثمّ قال عليه السلام لو كان اللّه قد جَعل هؤلاء الملائكة خلفائه في الأرض وكانوا كالأنبياء في الدّنيا ولا لائمة أفيكون من الأنبياء والأئمة عليهم السّلام قتل النّفس والزّنا ثمّ

١- ج ١ ص ٥٥
٢- ج ١ ص ١١٢

قال أولست تعلم أنّ اللّه تعالىٰ لم تخل الدّنيا قطّ من نبّي أو إمام من البَشر أو ليس اللّه يقول: **وَ مٰآ أرسَلناك مِنْ قَبْلِكَ** يعني الَىٰ الخلق إلاّ رجالاً نُوحي اليهم من أهل القُرىٰ فأخبر أنّه لم يبعث الملائكة الىٰ الأرض ليكونوا أئمّةً و حكاماً وأنّما أرسلوا الىٰ أنبياء اللّه.

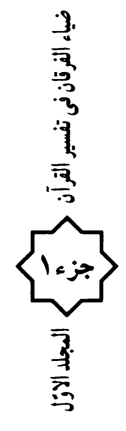
قالا فقلنا له فعلىٰ هذا لم يكن إبليس أيضاً من الملائكة فقال لا بل كان من الجنّ أما تسمعان اللّه عزّ وجلّ يقول و اذ قلنا للملائكة أسجدوا لِآدم فسجدوا إلاّ إبليس كان من الجنّ فأخبر اللّه عزّ وجلّ أنّه كان من الجنّ و هو الّذي قال اللّه تبارك وتعالىٰ: **وَ اَلْجَآنَّ خَلَقْنٰاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نٰارِ اَلسَّمُومِ**[1] انتهىٰ[2]

و في حديثٍ أخر بأسناده عن الرّضا عليه السلام لمّا سأله المأمون عمّا يرويه النّاس من أمر الزّهرة و أنّها كانت إمرأة فتن بها هاروت و ماروت و ما يَرونه من أمر سُهيل وأنّه كان عشّاراً باليمن فقال عليه السلام: في جوابه كذبوا في قولهم أنّهما كوكبان وأنّما كانتا دابّتين من دوّاب البحر فغلط النّاس و ظنّوا أنّهما كوكبان وما كان اللّه ليمسخ أعداءه أنواراً مضيئة مابَقيت السّموات والأرض و أنّ المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيّام حتّىٰ ماتت وساق الحديث الىٰ أن قال و أمّا هاروت و ماروت فكانا مَلكين علّما النّاس لِيحترزوا به من سحر السَّحرة ويبطلوا به كيدهم وما علّما أحداً من ذلك شيئاً إلاّ قالا له، أنّما نحن فتنة فلا تكفر، فكفر قوم بإستعمالهم لمّا أمروا بالإحتراز منه وجعلوا يفرقون بما يعلّمون بين المرء وزوجه قال اللّه تعالىٰ وما هم بضارّين به من أحدٍ إلاّ بأذن اللّه، يعني بعلمه انتهىٰ[3]

١- الحجر= ٢٧
٢-ج ١ص ١٠٨
٣-ص ١١٠

و حيث إنّجر الكلام الىٰ هنا فلا بأس بالإشارة الىٰ ما ذَهب اليه المفسّرين من العامّة و ما رووه فيه تكميلاً للبحث و تيمماً للفحص فنقول المَشهور بين العامّة أنّهما أي هاروت و ماروت كانا مَلكين فأخطئا و عصيا فعذّبهما اللّه في الدّنيا لما إختارا عذاب الدّنيا علىٰ الأخرة و أمّا المرأة التّي فتن بها هاروت و ماروت فمسخها اللّه كوكباً وكان إسمها ناهيد.

قال الطّبري في تفسيره بأسناده عن معاوية بن صالح عن نافع قال: سافرت مع ابن عمر فلمّا كان من أخر اللّيل قال يانافع أنظر طلعت الحمراء قالها مرّتين أو ثلاثاً ثم قلت قد طلعت قال لا مرحباً ولا أهلاً قلتُ سبحان اللّه نجمٌ مسخّر سامعٌ مُطيع قال ما قلت لك إلاّ ماسمعتُ من رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: قال لي رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: أنّ الملائكة قالت ياربّ كيف صبرك علىٰ بني آدم في الخطايا والذّنوب قال أنّي أبتليهم و عافيتكم قالوا لو كنّا مكانهم ما عصيناك قال فأختاروا مَلكين منكم قال فَلم يألوا أن يختاروا فأختاروا هاروت و ماروت ثمّ قال الطّبري حدّثني المثنىٰ قال حثنا أبو حذيفة قال حثنا شبل عن ابن أبي بخيح عن مجاهد، وأمّا شأن هاروت و ماروت فأنّ الملائكة عجبت من ظلم بني آدم وقد جائتهم الرّسل والكتب و البّينات فقال لهم ربّهم إختاروا منكم مَلكين أُنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم فأختاروا هاروت و ماروت فقال لهما حين أنزلهما عجبتما من بني آدم و من ظلمهم و معصيتهم وأنّما تأتيهم الرّسل والكتب من وراء وراء و أنتما ليس بيني و بينكما رسول فأفعلا كذا و كذا و دعا كذا و كذا فأمرهما بأمرٍ و نهاهما ثمّ نَزلا علىٰ ذلك ليس أحد لِلّه أطوَع منهما فَحكما فعدلا فكانا يحكمان النّهار بين بني آدم فاذا أتيا غرّي و كانا مع الملائكة ينزلان حين



يُصبحان فيعدلان حتّىٰ أنزلت عليهما الزّهرة في أحَسَن صورةٍ إمرأةٍ تخاصم فقضيا عليها فلمّا قامت وجَد كلّ واحدٍ منهما في نفسه فقال أحدهما لصاحبه وجَدت مثل ما وجدت قال نعم فَبعثا اليها أن أئتيا نقض لك فلمّا رجعت قالا لها و قضيا لها أئتينا فأتتهما فَكشفا لها عن عورتهما و أنّما كانت شهوتهما في أنفسهما و لم يكونا كبني آدم في شهوة النّساء ولذّتها فلمّا بلغا ذلك و إستّحلاه و أفتنا طارت الزّهرة فرجعت حيث كانت فلمّا أمسيا عرجا فرداً و لم يؤذن لهما و لم تحملهما أجنحتهما فأستغاثا برجلٍ من بني آدم فأتياه فقالا أُدعُ لنا ربّك فقال كيف يشفع أهل الأرض لأهل السّماء قالا سَمعنا ربّك يذكرك بخير في السّماء فَوعدهما يوماً وغداً يدعو لهما فَدعا لهما فأستجيب له فَخيّرا بين عذاب الدّنيا وعذاب الأخرة فَنظر أحدهما الىٰ صاحبه فقالا نعلم أنّ أنواع عذاب اللّه في الأخرة كذا وكذا في الخلد ومع الدّنيا سبع مرّات مثلها فأمر أن ينزلا ببابل فثمّ عذابهما و زعم أنّهما معلّقان في الحديد مطوّيان يصفقان بأجنحتهما انتهىٰ(١)

أقول و نقل الطّبري روايات أُخر بهذا المضمُون أن شئت فَراجعه وقد نقل السّيوطي في الدُّر المَنثُور ما ذكره الطّبري من حديث ابن عُمر بوجهٍ أبَسَط أعرضنا عن نقله حَذراً عن التّطويل وقد نقله في تفسير الميزان(٢)

و قد ذكر في الدّر المَنثُور روايات أخر أيضاً و محصّل الكلام أنّ الأخبار الواردة من الطّرفين في الباب كثيرة مختلفة الألفاظ و المَضامين بطرقٍ مختلفة إلاّ أنّ كلّها يرجع الىٰ أمرٍ واحدٍ و هو خطأ المَلكين و عصيانهما ثمّ عذابهما في الدّنيا اذا عرفت هذا فنقول أمّا علماء الشّيعة فَلم يقبلوا الأحاديث المَروية

١- تفسير الطّبري ج ١ ص ٣٦٥

٢- ج ١ ص ٢٣٨

الموافقة لما روته العامّة فقال بعضهم أنّها أخبار أُحاد لا يعتمد عليها و به قال الشّيخ الطّوسي في التّبيان و بعضهم قال أنّها تُنافي عصمة الملائكة فلذلك لا يجوز التّعويل عليها كما قال الطّبرسى.

و بعضهم عبّر عنها بالخرافات قال في تفسير الميزان بعد نقله ما نقله السّيوطي في الدُّر المنثور و هو حديث ابن عمر ما هذا لفظه فهذه القصّة كالتّي قبلها المذكورة في الرّواية السّابقة تطابق ما عند اليهود علىٰ ما قيل من قصّة هاروت و ماروت تلك القصّة الخرافية التّي تشبه خرافات يونان في الكواكب والنّجوم و من هاهنا يظهر للباحث المتأمل أنّ هذه الأحاديث كغيرها الواردة في مطاعن الأنبياء و عثراتهم لا تخلو من دَسٍ دسّته اليهود فيها و تكشف عن تسربهم الدّقيق و نفوذهم العميق بين أصحاب الحديث في الصّدر الأوّل فقد لعبوا في رواياتهم بكلّ ماشاؤوا من الدّس والخلط و أعانهم علىٰ ذالك قوم أخرون انتهىٰ كلامه و نحن نقول فعلىٰ هذا لابدّ لنا من طرح هذه الأحاديث الواردة في الباب من طرقنا أمّا لأنّها أخبار أحادٍ لا يعتمد عليها أو أنّها من خرافات اليهود و دَسائسهم في الصّدر الأوّل ثمّ نَسبُوها الىٰ إئمّتنا كسائر مجعُولاتهم، ويحتمل أن يكون صدُورها عن الأئمّة من باب التّقية و ذلك لأنّ العامّة كما عرفت إتّفقوا علىٰ خطأ، المَلكين ثمّ عذابهما في الدّنيا و مَسخ المرأة كوكباً علىٰ ما مرّ بيانه و لمّا كان كذلك فالأئمّة قالوا بمقالتهم تقيّةً هذا ما يمكن أن يقال في المقام في دفع الإشكال ولأجل هذا ترىٰ أخبارنا في المقام مختلفة لا يمكن الجمع بينهما.

ثمّ لنا في المقام كلام لا بأس بالإشارة اليه و ملخصّه أنّ الرّوايات من الطّرفين وأن كانت بظاهرها ممّا ينكره العقل والنّقل لكونها قادحد في قداسة الملائكة الّذين لا يَعصون اللّه طرفة عينٍ و هذا هو أصَل الإشكال الّذي صار باعثاً لطرح هذه الأخبار الل منافى هذه القاعدة المسلّمة عندنا أعني بها عصمة الملائكة و نحن أيضاً نقول بها.

والّذي يختلج بالبال هو أنّ عصيان الملائكة مستحيل ماداموا علىٰ هـذه الحالة أي ما دام كونهم ملائكة، أمّا اذا فرضنا خروجهم عن جنس المَلَك و دخولهم في جنس البشر فأيّ إشكالٍ في عصيانهم عقلاً و شرعاً و ما نحن فيه من هذا القبيل لأنّ جميع الرّوايات الواردة في الباب من العامّة والخاصّة مُشعر بل مُصّرح بأنّ اللّه أعطاهما الشّهوة والغَضَب و الحِرص و الأمل و طبائع الطّعام و الشّراب و أمثالها ممّا هو موجود في البَشر و بها يعص اللّه أحياناً و مَن كان واجداً لهذه الصّفات لا يكون مَلكاً لتّنزه المَلك عنها، فَهو بَشر لا مَلك كما وَرد في الرّوايات أنّهما أُهبطا الىٰ الأرض بصورة البَشر أو بهيئته فهُما عَصَيا اللّه في هذه الصّورة مع وجود هذه القُوىٰ لا في صورة المَلك و ماهيّته و جنسه والّذي يدّل عليه العقل و النّقل هو عصمة الملائكة من حيث أنّهم ملائكة لا مطلقاً و اذا كان كذلك فعصيانهم لا يضرّ بالقاعدة أعني بها عصمة الملائكة و ليت شعري كيف غفلوا عن هذه الدّقيقة وذكروا من قال بعصمة الملائكة لم يُجز هذا كما قاله الطّبرسي تبعاً لصاحب التّبيان وتبعهما عليه من تأخر عنهما نعم لو كان طرح الأخبار لأجل كونها أخبار أحاد فهو أمرٌ أخر لابدّ لنا من البحث فيه وقد ثبت في موضعه أنّ خبر الواحد حجّة أيضاً خصوصاً اذا كان محفوفاً بالقرائن المُوجبة للظّن وللبحث فيه موضع أخر و مع ذلك ليس هذا أي نفس كون الخبر واحداً مُوجباً لطرحه مضافاً الىٰ أنّها ليست من الأحاد بشيءٍ و أمّا عمدة أدلّتهم في طرحها فهي منافاتها للعصمة وقد اجبنا عنها.

و قلنا أنّ العصمة ثابتة للملك بالفعل لا لمن كان مَلَكاً سابقاً و أمّا حين المعصّية فهو ليس بملكٍ و قد ثبت أنّ المّشتق حقيقة قيمن تلبس بالمبدأ بالفعل مجاز في غيره.

إن قلت أَليس هذا من الإنقلاب في الماهيّة وقد اتّفقت الفلاسفة علىٰ إستّحالته تقرير الإشكال، أنّ المَلكين بعد هبوطهما الىٰ الأرض و قد جعل الّه

فيهما ما جَعَل للبَشر من الشّهوة و الحرص و طبائع الطّعام والشّراب و غيرهما صارا بشرين بزعمكم وخرجا عن كونهما مَلكين و لذلك عَصيا بمقتضىٰ طبيعة البّشرية و وجود دواعي المعصية فيهما و لا نعني بالإنقلاب إلاّ هذا و بعبارةٍ أخرىٰ أن كانا في حال المعصية مَلكين فهو المطلوب و الإشكال باق علىٰ حاله و هو أنّ المعصية تنافي العِصمة و أن لم يكونا مَلكين في حال المعصية بل كانا بَشرين فلازم ذلك صيرورة ماهيّة الملك ماهيّة البشر وهي الإنقلاب بعينه ، قلنا، أمّا أوّلاً فأستحالة الإنقلاب في الماهّية يعارضها عموم القُدرة فأنّ اللّه علىٰ كلّ شيءٍ قدير فهو تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شيءٍ وما نحن فيه أيضاً داخل في العموم، وثانياً، أنّ هذا ليس من الإنقلاب في الماهّية الّذي قالوا بإستحالته بل هذا من قليل الإنقلاب في الصّورة مع بقاء الماهّية بحالها فتبديل صورة المَلك بِصورة الإنسان ليس من إنقلاب الماهّية بشيءٍ ومن المعلوم أنّ الماهّية من حيث هي ليست إلاّ هي فلا حكم لها من حيث هي هي و لا يبعد أن يكون و جه الإستحالة من هذه الجهة أي أنّ الماهّية من حيث هي ليست بشيءٍ لتنقلب و قد تكلّمنا في هذا المَوضوع في مباحثنا العقّلية فلا نطيل الكلام به مضافاً الىٰ أنّ أصل القاعدة أعني بها إستحالة الإنقلاب في الماهّية عندنا محّل تأمّلٍ بل منعٍ و مع ذلك كلّه فنحن لا نقول و لا نعتقد في تفسير الأيات إلاّ بما ورد فيها من المعصومين سلام اللّه عليهم أجمعين و ذلك لأنّ أهل البيت أَدرىٰ بما في البيت والقرآن نَزل فى بيت النّبوة وهُم أهل البيت الّذين أَذهب اللّه عنهم الرّجس و طهّرهم تَطهيراً والآن نرجع الىٰ تفسير تمام الأية.

فنقول في عيون الأخبار بأسناده عن العسكري عليه‌السلام عن آبائه عن جعفر بن محمّد الصّادق عليه‌السلام في قول اللّه تعالىٰ: **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ** قال عليه‌السلام إتبعوا ما تتلو كَفَرة الشّياطين من السِّحر علىٰ مُلك سليمان، الّذين كانوا يزعمون أنّ سليمان به مَلكٍ و نحن



أيضاً به نظهر العجائب حتّىٰ ينقاد لنا النّاس و قالوا كان سليمان كافراً ساحراً بسحره ملِك ما مَلك و قَدر علىٰ ما قَدر فرّد اللّه عزّ وجلّ عليهم فقال، وما كَفر سليمان، و لا إستعمل السِّحر كما قال هؤلاء الكافرون **وَلٰكِنَّ الشَّيٰاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّٰاسَ السِّحْرَ** الّذي نَسبوه الىٰ سليمان والىٰ **وَمٰآ اُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبٰابِلَ هٰارُوتَ وَمٰارُوتَ** وكان بعد نوح عليه السلام و قد كثر السَّحرة والموهون فبعث اللّه تعالىٰ مَلكين الىٰ نبي ذلك الزّمان بذكر ما يَسحر به السّحَرة و ذكر ما يُبطل به سحرهم و يرّد به كيدهم فتلّقاه النبّي عن المَلكين وأدّاه الىٰ عباد اللّه بِأمر اللّه عزّ وجلّ وأمرهم أن يقفُوا به علىٰ السّحرة وأن يبطلوه و نهاهم أن يسحَروا به النّاس و هذا كما يدّل علىٰ السَّم ما هو و علىٰ ما يدفع به غاية السَّم ثمّ قال عزّ وجلّ: **وَمَا يُعَلِّمٰانِ مِنْ اَحَدٍ حَتّٰى يَقُولآ اِنَّمٰا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاٰ تَكْفُرْ** يعني أنّ ذلك النّبي عليه السلام أمر المَلكين أن يَظهرا لنّاس بصورة بَشرين و يعلّماهم ما علّمهم اللّه من ذلك فقال اللّه عزّ وجلّ، وما يعلّمان من أحدٍ، ذلك السِّحر و ابطاله (حتّىٰ يقولا للمتّكلم، إنّما نحن فتنةٍ، و امتحان لِلبلاء ليطيعُوا اللّه فيما يتعلّمون من هذا و يبطلوا به كيد السَّحرة و لا يسحروهُم **فَلاٰ تَكْفُرْ** بإستعمال هذا السّحِر وطلب الإضرار به و دعا النّاس الىٰ أن يعتقدوا أنّك به تُحيي و تُميت و تفعل ما لا يقدر عليه إلاّ اللّه عزّ وجلّ فأنّ ذلك كُفر قال اللّه تعالىٰ: **فَيَتَعَلَّمُونَ** يعني طالبي السِّحر **منهما** يعني ممّا كتبت الشّياطين علىٰ مُلك سليمان من النّيرنجات و ما أُنزل علىٰ المَلكين ببابل هاروت و ماروت، يتعلّمون من هذين الصّنفين **مٰا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** هذا من يتعّلم لِلإضرار بالنّاس يتعلّمون التضرّيب مضروب الحيَل و التّمائم والإلهام و أنّه دفن في موضع كذا وكذا و عمِل كذا التحبّب المرأة الىٰ الرّجل والرّجل الىٰ المرأة أو يُؤّدي الىٰ الفراق بينهما ثمّ قال عزّ و جلّ: **وَمٰا هُمْ بِضّٰآرّينَ مِنْ اَحَدٍ اِلاّ بِاِذْنِ اللّٰهِ** أي ما المتعلّمون لذلك بِضارّين به من أحدٍ

إلاّ بإذن اللّه يعني بتخلّية اللّه و عِلمه و أنّه لو شاء لمنعهم بِالجبر و القَهر ثمّ قال **وَيَتَعَلَّمُونَ مٰا يَضُرُّهُمْ وَلاٰ يَنْفَعُهُمْ** لأنّهم إذا تعلّموا ذلك السِّحر ليسحروا به و يضرّوا فقد تعلّموا ما يضرّهم في دينهم و لا ينفعهم فيه بل يَنسلخُون عن دين اللّه و بذلك (لقد علم به هؤلاء المتعلّمون) **لَمَنِ اشْتَرٰاهُ** بدينه الّذي ينسلخ عنه بتعلّمه **مٰالَه فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاٰقٍ** أي من نصيب في ثواب الجنّة ثمّ قال اللّه تعالىٰ: **وَلَبِئْسَ مٰا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ** و رهنوها بالعذاب **لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ** أنّهم قد باعوا الأخرة وتركوا نصيبهم من الجنّة لأنّ المتعلّمين لهذا السِّحر الّذين يعتقدون أن لا رسول و لا اِله و لا بعث و لا نشور فقال ولقد علموا لمن إشتراه ماله في الأخرة من خلاق، لأنّهم يعتقدون أنّه اذا لم يكن آخرة فلا خلاف لهم في دارٍ بعد الدّنيا و أن كانت بعد الدّنيا آخرة فَهُم مع كُفرهم بها لا خلاق لهم فيها ثمّ قال و لِبئس ما شروا به أنفسهم، إذا باعوا الأخرة و رضُوا بالعذاب الدّائم لو كانوا يعلمون أنّهم قد باعوا أنفسهم بالعذاب و لكن لا يعلمون ذلك لكفرهم به فلّما تَركوا النَّظَر في حُجج اللّه حتّىٰ تعلّموا عذّبهم علىٰ إعتقادهم الباطل و جحدهم الحقّ إنتهىٰ موضع الحاجة منه.

أقول أنّك لا ترىٰ في هذا الحديث من خطأ الملكين و ارتكابهما الفواحش ثمّ عذابهما علىٰ ما نقلوه، عين و لا أثر و هذا هو الحقّ المُطابق لِلواقع فلا نحتاج الىٰ التكلّفات والجواب عنها والأية الشّريفة أيضاً لا تخرج عن ظاهرها و إنّما ذكرنا أقوال القوم فيها لتعلم صدق ما قلت من أنّ أهل البيت أدرىٰ بما فيه.

خاتمة نذكر فيها ما ذكره الفخر الرّازي في تفسير السِّحر لغةً و شرعاً و أنّه علىٰ أقسامٍ على سبيل الإجمال، قال ذكر أهل اللّغة أنّه في الأصل عبارة عمّا لُطف و خفي سببه و السِّحر بالفتح هو الغذاء لخفائه و لُطف مجاريه كما قال لبيد.

و نَسحر بالطّعام و بالشّراب - الىٰ أن قال، المسئلة الثّانية - إعلم أنّ لفظ السِّحر يطلق في عرف الشّرع علىٰ كلّ أمرٍ يخفىٰ سَببه و يتخيّل علىٰ غير



حقيقته و يجري مجرىٰ التّمويه والخداع و متىٰ أُطلق ولَم يقيّد أفاد ذمّ فاعله الىٰ أن قال المسئلة الثّالثة في أقسام السِّحر إعلم أنّ السِّحر علىٰ أقسام الأوّل سِحر الكلدانيّين و الكيدايين الّذين كانوا في قديم الدّهر و هم قوم يعبدون الكواكب و يزعمون أنّها هي المدّبرة لهذا العالم و منها تصدر الخيرات و الشّرور و السّعادة و النّحوس وهم الّذين بعث اللّه تعالىٰ إبراهيم عليه السلام مُبطلاً لمقالتهم و رّاداً عليهم في مذاهبهم و أمّا المعتزلة فقد إتّفقت كلمتهم علىٰ أنّ غير اللّه تعالىٰ لا يقدر علىٰ خلق الأجسام و الحياة و اللّون و الطّعم، ثمّ ذكر الرّازي أدّلة المعتزلة و قال فيها ما قال و لا نحتاج الىٰ ذكرها ومن شاء الإطّلاع عليها فليطلبها من تفسيره ثمّ قال النّوع الثّاني من السِّحر سحر أصحاب الأوهام والنّفوس القوّية و حاصل ما أفاده في هذا النّوع من السِّحر أنّ النّفس إذا كانت مُستعيلة علىٰ البدن شديدة الإنجذاب الىٰ عالم السّموات كانت كأنّها روح من الأرواح السّماوية فكانت قوّية علىٰ التّأثيرات في موّاد هذا العالم أمّا إذا كانت ضعيفة شديدة التعلّق بهذه اللّذات البدَنيّة فحينئذٍ لا يكون لها التصرّف البّتة إلاّ في هذا البَدَن فإن أراد الإنسان صيرورتها بحيث يتمدّىٰ تأثير من بدنها الىٰ بَدَنٍ أخر اتّخذ تمثال ذلك الغير و وضعه عند الحسّ و إشتغل الحسّ به فإتّبعه الخيال عليه و اقبلت النّفس النّاطقة عليه و قويت التّأثيرات النّفسانية والتصرّفات الرُّوحانية و أطال الكلام فيه بما لا مزيد عليه الىٰ أن قال النّوع الثّالث من السِّحر الإستعانة بالأرواح الأرضية و حاصل ما أفاده في هذا النّوع أنّ الأرواح الأرضية عبارة عن الجنّ علىٰ قوله الفلاسفة و هي في أنفسها مختلفة منها خيرّة و منها شّريرة فالخّيرة هم مؤمنوا الجنّ و الشّريرة هم كُفّار الجنّ و حيث أنّ هذه الأرواح جواهر قائمة بنفسها لا متخيّرة و لا حالة في المتخيّر و هي قادرة عالمة مدركة للجزئيات و إتّصال النّفوس النّاطقة بها أَسهَل من إتّصالها بالأرواح السّماوية فلذلك بعد إستخدام النّفس إيّاها أو إتّصالها بها

يحصل لِصاحب النّفس ما لايحصل لغيره من العَجائب و هذا النّوع هو المُسّمىٰ بالعزائم و تسخير الجنّ إنتهىٰ مُلّخصاً.

النّوع الرّابع: من السّحر التخيّلات والأخذ بالعيون و هذا النّوع مبّني علىٰ مقدّمات ثمّ ذكر مقدماته من أغلاط البَصَر و أنّ الباصرة تقف علىٰ المحسوسات و أنّ النّفس اذا كانت مشغولة بشيٍ ربّما حَضر عند الحسّ شئ أخر و لا يشعر الحسّ به البتة علىٰ ما بينه وفصَّله.

النّوع الخامس: الأعمال العجيبة التّي تظهر من تركيب الألات المركبة علىٰ النّسب الهندّسية تارةً و علىٰ ضروب الخيلاء أُخرىٰ الىٰ أخر ما قال.

النّوع السّادس: من السّحر الإستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل طعامه بعض الأدوية المبلّدة المزيلة للعقل و الدّخن المسكرة نحو دماغ الحمار اذا تناوله الإنسان تبلّد عقله و قَلّت فطنته.

النّوع السّابع: من السّحر تعليق القلب و هو أن يدّعي السّاحر أنّ قد عرف الإسم الأعظم وأنّ الجنّ يطيعونه و ينقادون له في أكثر الأمور فاذا إتّفق أن كان السّامع لذلك ضعيف العقل قيل التميّيز إعتقد أنّه حقّ و تعلّق قلبه بذلك و حصل في نفسه نوع من الرّعب والمخافة و اذا حصل الخوف ضعفت القوىٰ الحساسّة فحينئذٍ يتمكن السّاحر أن يفعل به ما يشاء.

النّوع الثّامن: من السّحر السّعي بالنّميمة والتضرّيب من وجوه خفيفة لطيفة و ذلک شائع في النّاس فهذا جملة الكلام في أقسام السِّحر وشرح أنواعه.

■

وَلَوْ اَنَّهُمْ اٰمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَآ اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ اَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَاللّٰهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

◁ اللّغة

الْمَثُوبَةُ: أصل الثّوب رجوع الشّئ الىٰ حالته الأولىٰ الّتي كان عليها والثّواب ما يرجع الىٰ الإنسان من جزاء أعماله فيُسمّىٰ الجَزاء ثواباً تَصوراً أنّه هو هو، والثّواب يقال في الخير والشّر لكن الأكثر المتعارف في الخير وكذلك الْمَثوبة

قال اللّه تعالى: **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اَللّٰهِ**[1].

إستعارة في الشّر كإستعمال البشارة فيه:

قال اللّه تعالى: **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**[2].

أمّا قوله: **وَلَوْ اَنَّهُمْ اٰمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ** أُستعمل في الخير أي ثوابٌ عند اللّه.

رَاعِنَا: و قُرأ بالتّنوين و هو من **الرّعونة** يقال أرعيته سَمعي اذا أصْغَيت اليه والياء ذَهبت للأمر وكان اليهود يذهبون بها الىٰ الرّعُونة و هي الحُمق أي لا تقولوا حمقاً و لا تقولوا هُجراً والباقي واضح.

١- المائدة= ٦٠ ٢-آل عمران = ٢١

◁ الإعراب

وَلَوْ اَنَّهُمْ اٰمَنُوا، أنّ وما علمت فيه، مصدر في موضع رفع بفعلٍ محذوف لأنّ لو، تقتضي الفعل تقديره لو وقع منهم أنّهم أمنوا أي إيمانهم لَمَثُوبَةٌ جواب لَو و مَثُوبةٌ مبتدأ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ صفته خَيْرٌ خبره و قُرأ مَثوبة بسكون الثّاء و فتح الواو و قاسوه علىٰ تصحيح من نظائره نحو فقَتَلة رٰاعِنٰا فعل أمرٍ وموضع الجملة نصب، بتقولوا و من قَرأ بالتّنوين فالتّقدير لا تقولوا قولاً راعناً وَلاَ الْمُشْرِكِينَ في موضع جرٍّ عطفاً علىٰ أهل اَنْ يُنَزَّلَ في موضع نَصب بيَوَّد مِنْ خَيْرٍ قيل من زائدة مِنْ رَبِّكُمْ لأبتداء غاية الإنزال ويجوز أن يكون صفة لخَيرٍ.

◁ التّفسير

قوله تعالىٰ: وَلَوْ اَنَّهُمْ اٰمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ خَيْرٌ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ أي أنّ الّذين يتّعلمون السِّحر ويُعلّمونه غيرهم والمراد بـهم اليَـهود علىٰ ما مرّ بيانه لو أمنوا باللّه و رسوله وصَدَّقوا القرأن، و إتـقوا قـيل وإتّـقوا السّحر والكفر أو جميع المعاصي لَمَثُوبةٌ، أي لأجل الثّواب اللّه، خير لهم لو كانوا يَعلمُون وليس أنّهم كانوا يَجهلُون ذلك ولكن نَزَلّهم اللّه منزلة الجاهل لأنّ من لا يَعمل بعلمه فهو والجاهل سواء كما يقول الإنسان لصاحبه و هو يُعطيه ماأدعُوك اليه خير لك لو كُنت تَعقل أو تنظر في العَواقب و في قوله: لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ وجهان:

أحدهما: أنّ معناه لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ لَظَهر لهم بالعِلم ذلك أي تَعلمُوا أنّ ثواب اللّه خيرٌ من السّحر.

القول الثاني: أنّ المعنىٰ الدّلالة على جهلهم و ترغيبهم في أن يعلموا ذلك وأن يطلبوا ما هو خيرٌ من السِّحر و هو ثواب اللّه الّذي ينال بطاعاته فأن قلت كيف أُوثرت الجملة الإسمية علىٰ الفعلّية في جواب لَو، قلتُ لِما في ذلك من الدّلالة علىٰ إثبات المَثوبة وإستقرارها كما عَدَل عن النّصب الىٰ الرَّفـع فـي سلامٌ عليكم، لذلك.

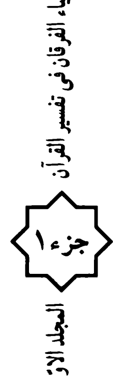
أن **قلت** فهلاً قيل لمثوبة اللّه خيرٌ، قلت لأنّ المعنىٰ لَشيءٌ من الثّواب خيرٌ لهم.

و أمّا قوله تعالىٰ: **يٰآ اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاٰ تَقُولُوا رٰاعِنٰا وَقُولُوا انْظُرْنٰا وَاسْمَعُوا وَلِلْكٰافِرِينَ** فقال المفسّرون في الآية لمّا نهىٰ اللّه تعالىٰ اليهُود عن السِّحر وأعماله علىٰ ما مَرّ في الأيات السّابقة عَقَّب الكلام بالنّهي عن إطلاق هذه اللّفظة فقال: **يٰآ اَيُّهَا يٰآ اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاٰ تَقُولُوا رٰاعِنٰا** قال بعض المفسّرين كان المسلمون يقولون يارسول الله راعِنا، أي إستمع مِنّا فَحرّفت اليهود هذه اللّفظة فقالوا يامحمّد راعِنا، و هم يَلحدُون الىٰ الرّبوبية يريدون به النّقيصة والوقيعة فلمّا عُوتبوا قالوا نقول كما يقول المُسلمون فَنهىٰ اللّه المسلمين عن ذلك بقوله: **لاٰ تَقُولُوا رٰاعِنٰا وَقُولُوا انْظُرْنٰا** و قال قتادة هي كلمة تقولها اليهود علىٰ وجه الإستهزاء و قال عَطا هي كلمة تقولها الأنصار في الجاهليّة فنُهوا عنها في الإسلام و قال صاحب الكشّاف كان المسلمون يقولون لرسول اللّه اذا أُلقي اليهم شيئاً من العلم راعِنا يارسول اللّه أي راقبنا وإنتظرنا وتأنّ بنا حتّىٰ نفهمه و نحفظه وكانت لليهود كلمة تَسابون بها عبرانية أو سريانيّة و هي راعينا فلمّا سمعوا بقول المؤمنين راعِنا، إفترصُوه و خاطبوا به الرّسول و هم يَعنُون به تلك المَسَبة فَنُهي المؤمنون عنها وأُمِروا بما هو في معناه و هو **أنظرنا** من **نَظره** اذا **إنتَظره** وقَرأ أُبَي **أنظِرنا** من **النَّظرة** أي أمهلنا حتّىٰ نَحفظ و قرأ عبد اللّه ابن مسعود راعونا، علىٰ أنّهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتّوقير و أمّا قوله: **وَاسْمَعُوا وَلِلْكٰافِرِينَ** أي أحسنوا سماع ما يكلّمكم به رسول اللّه ويلقي اليكم من المسائل بأذانٍ واعية و أذهانٍ حاضرة أو أسمعوا سماع قبولٍ و طاعةٍ و لا يكن سماعكم كسماع اليهود حيث **قٰالُوا سَمِعْنٰا وَعَصَيْنٰا** أو أسمعونا ما أُمرتُم به بجّدٍ حتّىٰ لا ترجعوا الىٰ ما نُهيتم عنه تأكيداً عليهم ترك الكلمة نُقل أنّ سعد ابن معاذ سَمعها منهم فقال ياأعداء اللّه عليكم لعنة اللّه والّذي نفسي بيده لأن سمعتها من رجلٍ منكم يقولها لرسول

اللّه ﷺ لأضربَن عُنقُه فقالوا أوَلَستم تقولونها فَنزلت وللكافرين عذابٌ أليم.

قوله تعالىٰ: **مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ اَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ** معناه ما يُحبّ الكافرون من أهل الكتاب أعني اليهود والنّصارىٰ وغيرهما و لا المشركين من عبدة الأوثان، أن يُنَزل عليكم أيّها المسلمون شيئاً من الخير الّذي هو عنده والمراد بالخير في الأية ما أوحىٰ الىٰ نبّيه و ما أنزل عليه من القرأن والشّرائع بغياً منهم و حَسداً واللّه يختصّ برحمته من يشاء من عباده واللّه ذو الفضل العظيم، فيه إشعار بانّ النبوّة من الفَضل العظيم كقوله تعالىٰ أن فضله كان عليك كبيراً و يمكن أن يكون الفضل إشارة الىٰ أنّ كلّ خيرٍ أعطاه اللّه عباده في دينهم و دنياهم فأنّه من عنده ابتلاءً منه عليهم و تفضّلاً عليهم من غير إستحقاقٍ منهم لذلك عليه فهو عظيم الفضل يادائم الفَضل علىٰ البَرية يا باسط اليَدين بالعطيّة منّ علينا بفضلك وجودك ياأكرم الأكرمين وقد ورد في الدّعاء ياذا الجُود والإحسان ياذا الفَضل والإمتنان.

قال بعض المحققين في شرحه علىٰ الدّعاء في هذا المقام في تعقيب هذا الإسم لما قبله إيماء الىٰ أنّ جوده و إحسانه علىٰ الإطلاق بمحض التّفضل منه من غير إستحقاق بل هو تعالىٰ مبتدأ بالنِّعم قبل إستحقّاقها و ذلك لأنّ الفعل مقدّم بجميع أنحاء التقدّم اذ لا قوّة حيث لا فعل فما لم يستفض الأشياء في العين بالفيض المقدّس لم يحصل لها قوّة كما أنّها ما لَم تتقرّر في العلم بالفيض الأقدس لم يثبت لها قابليّة و لا لسان إستعداد و سُؤال و لا إمتنان لأمر الحقّ المتعال فالقابلّيات و أن كانت للأشياء ذاتّيات لكن ظهورها أنّما هو بنور منبع الفّعليات انتهىٰ.



مٰا نَنْسَخْ مِنْ اٰيَةٍ اَوْنُنْسِهٰا نَاْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهٰآ اَوْ مِثْلِهٰا اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ وَمٰالَكُمْ مِّنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاٰ نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ اَمْ تُرِيدُونَ اَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمٰا سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْاِيمٰانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوٰآءَ السَّبِيلَ ﴿١٠٨﴾

◁ اللّغة

نَنْسَخْ: النّسخ بفتح النّون في الأصل إزالة الشّئ و قيل إزالة شئ بشئ يَتَّعقبه كنسخ الشّمس الظّل والظّل الشّمس و الشّيب الشّباب فتارةً يفهمُ منه الإزالة و تارةً يفهم منه الإثبات و تارةً يفهم منه الأمران ونسخ الكتاب إزالة حكم بحكمٍ يتعقّبه.

اَوْنُنْسِهٰا: النّسيان ترك الإنسان ضبط ما إستودع أمّا لضعف قلبه أو عن غفلةٍ وقصدٍ هذا في الإنسان و أمّا اذا نُسب الىٰ اللّه تعالىٰ. فهو تركه أيّاهم إستهانة بهم و مجازاةً لما تركُوه.

يَتَبَدَّلِ:التبدّيل والتبدُّل والإستبدّال والإبدال جعل شئٍ مكان آخر و هو أعّم من العوض.

◁ الإعراب

مٰا نَنْسَخْ ما شرّطية جازمة لننسخ منصوبة الموضع بـه وجـواب الشّرط، نَاْتِ بِخَيْرٍمِّنْهٰآ و من آيةٍ في موضع نصب على الحال أي شئٍ ننسخ من آيةٍ، و قيل، ما مَصدّرية ، و، آية، مفعول به اَوْنُنْسِهٰا معطوف علىٰ ننسخ لَـهُ مُـلْكُ السَّمٰوٰاتِ مبتدأ و خبر في موضع خبر أنّ، مِنْ وَّلِيٍّ من زائدة و ولّيٍ في موضع

رفه مبتدأ ولكُم خبره و، نصير، معطوف علىٰ لفظ ولّي ويجوز في الكلام رفعه علىٰ موضع، ولّي، **مِّنْ دُونِ** في موضع نصب علىٰ الحال من ولّي أو من نصير **اَمْ تُرِيدُونَ** أم هنا منقطعة والأصل في **تريدون، تردُدون**، لأنّه من راد يَرُوْد **كَمٰا**الكاف في موضع نصب صفة لمصدر محذوف أي سؤالكما، وما مصدّرية **بِالْاِيمٰانِ**الباء في موضع نصب علىٰ الحال من الكفر**سَوٰآءَ السَّبِيلَ** سواء ظرف بمعنى وسط السّبيل وأعد له والسّبيل يذّكر و يُؤنّث.

◁ التّفسير

أحدها:قوله تعالىٰ: **مٰا نَنْسَخْ مِنْ اٰيَـةٍ** الىٰ آخر الآية إعلم أنّ تفسير يستدّعي التّكلم فيّ أمور.

أحدها: أنّ النسّخ في اللّغة بمعنىٰ النّقل والتحوّيل و منه تناسخ المواريث والدّهور و بمعنىٰ الإزالة و منه نَسَخت الشّمس الظِّل و قد كثر إستعماله في هذا المعنىٰ في ألسَّنة الصّحابة والتّابعين فكانوا يطلقون علىٰ المُخصّص والمقيّد لفظ النّاسخ، و أمّا في الإصطلاح فهو عبارة عن رفع أمرٍ ثابتٍ في السّريعة المقدّسة بإرتفاع أَمده و زمانه سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التّكليفية أمّ الوضّعية و سواء أكان من المناسب الإلٰهية أم من غيرها من الأمور التّي ترجع الىٰ اللّه بما أنّه شارع و هذا الأخيركما في نسخ القرآن من حيث التّلاوة فقط وأنّما قَيّدّنا الرّفع بالأمر الثّابت في الشّريعة ليخرج به إرتفاع الحكم بسبب إرتفاع موضوعه خارجاً كإرتفاع وجوب الصّوم بإنتهاء شهر رمضان و إرتفاع وجوب الصّلاة بخُروج وقتها و ارتفاع مالكيّة شخصٍ لماله بسبب مَوته فأنّ هذا النَّوع من إرتفاع الأحكام لا يسّمى نسخاً و لا إشكال في إمكانه و وقوعه و لا خلاف فيه من أحدٍ و توضيح ذلك أنّ الحكم المجعول في الشّريعة له نحوان من الثُبوت، أحدهما ثبوته في عالم التّشريع والإنشاء و من المعلوم أنّ الحكم فى هذه المَرحلة يكون مجعولاً علىٰ نحو القضية

الحقّيقية فلا فرق في ثبوتها بين وجود الموضوع و عَدمه و أنّما يكون قوام الحكم بفرض وجود الموضوع فاذا قال الشّارع شرب الخمر حرام مثلاً، فليس معناه أنّ هنا خمراً في الخارج و هو محكوم بالحرقه بل معناه أنّ الخمر متىٰ فُرض وجوده في الخارج فهو محكوم بالحرمة سواء كان في الخارج خمرٌ بالفعل أم لم يكن و رفع هذا الحكم في هذا المرحلة لا يكون بالنسّخ.

ثانيهما: بثبوت ذلك الحكم في الخارج بمعنىٰ أنّ الحكم يعود فعلّياً بَسبب فعلية موضوعه خارجاً كما إذا تحقّق وجود الخمر في الخارج فأنّ الحرمة المجعولة في الشّريعة ثابتة له بالفعل و هذه الحرمة تستّمر بإستمرار موضوعها فإذا إنقلب الخمر خلّاً فلا ريب في إرتفاع الحُرمة الثابتة له حال الخمرّية ولكن إرتفاع هذا الحكم ليس من النّسخ في شئٍ و لا كلام لأحدٍ في جوازه و وقوعه و أنّما الكلام في القسم الأوّل و هو رفع الحَكم عن موضوعه في عالم التّشريع إذا عرفت معنىٰ النَّسخ فنقول المعروف بين عُلماء من المسلمين و غيرهم هو جواز النَّسخ بالمعنىٰ المتنازع فيه و هو رفع الحكم عن موضوعه في عالم التّشريع و الإنشاء و خالف في ذلك اليهود والنّصارىٰ فأدّعوا إستحالة النّسخ و ملخّص شبهتهم في المقام هو أنّ النّسخ يستلزم عدم حكمة النّاسخ أو جهله بوجه الحكمة وكلاهما يستعمل في حقّه تعالىٰ و ذلک لأنّ تشريع الحكم من الحكيم المطلق لابدّ و أن يكون علىٰ طبق مصلحةٍ تقتضيه و علىٰ ذلك فرفع هذا الحكم الثّابت لموضوعه أمّا أن يكون مع بقاء الحال علىٰ ماهو عليه من وجه المصلحة و علم ناسخه بها و هذا يُنافي حكمة الجاعل مع أنّه حكيمٌ مطلق و أمّا أن يكون من جهة البداء وكشف الخلاف علىٰ ما هو الغالب في الأحكام والقوانين العُرفيّة و هو يستلزم الجهل منه تعالىٰ وعلىٰ ذلك فيكون وقوع النّسخ في الشّريعة محالاً لأنّه يستلزم المحال.

والجواب، عن هذه الشّبهة الواهية أنّ الحكم المجعول من قبل الحكيم قد لا يراد منه البعث أو الزّجر الحقيقين و ذلك كالأو امر التّي يقصد بها الإمتحان

و هذا النّوع من الأحكام يمكن إثباته أوّلاً ثمّ رفعه و لا مانع من ذلك فأنّ كلّاً من الإثبات و الرّفع في وقته قد نشأ عن مصلحة و حكمة و هذا النّسخ لا يلزم منه خلاف الحكمة و لا ينشأ من البداء الّذي يستحيل في حقّه تعالىٰ و قد يكون الحكم المجعُول حكماً حقّيقياً و مع ذلك يُنسخ بعد زمانٍ لا بمعنىٰ أنّ الحكم بعد ثبوته يرفع في الواقع و نفس الأمركي يكون مستحيلاً علىٰ الحكيم العالم بل هو بمعنى أن يكون الحكم المجعُول مقيّداً بزمانٍ خاصّ معلوم عند اللّه مجهول عند النّاس ويكون إرتفاعه بعد إنتهاء ذلك الزّمان لإنتهاء أمَده الّذي قُيّد به و حلول غايته الواقّية الّتي أُنيط بها والنّسخ بهذا المعنىٰ ممكن قطعاً بداهةً أنّ دخل خصوصيّات الزّمان في مناطات الأحكام ممّا لا يشكّ فيه عاقل فأنّ يوم السّبت مثلاً في شريعة موسىٰ قد إشتمل علىٰ خوصّية تقتضي جعله عيداً لأهل تلك الشّريعة دون بقيّة الأيّام و مثله يوم الجمعة في الإسلام و هكذا الحال في أوقات الصّلاة و الصّيام و الحجّ و اذا تصّورنا وقوع مثل هذا في الشّرائع فلنتّصور أن يكون للزّمان خصوصّية من جهة إستمرار الحكم و عَدمه فيكون الفعل ذا مصلحة في مدّةٍ مُعيّنة ثمّ لا تترّتب عليه تلك المَصلحة بهد إنتهاء تلك المدّة وقد يكون الأمر بالعكس و بالجملة كما يمكن أن يقّيد إطلاق الحكم من غير جهة الزّمان بدليلٍ مُنفصل فكذلك يمكن تقييد إطلاقه من جهة الزّمان بدليلٍ منفصلٍ فأنّ المَصلحة قد تقتضي بيان الحكم علىٰ جهة العموم أو الإطلاق مَع أنّ المراد الواقعي هو الخاصّ أو المقّيد و يكون بيان التّخصيص أو التقّييد بدليلٍ مُنفصلٍ فالنّسخ في الحقيقة تقييد لإطلاق الحكم من حيث الزّمان و لا تلزم منه مخالفة الحكمة و لا البداء بالمعنى المستحيل في حقّه تعالىٰ و هذا كلّه بناءً علىٰ أنّ جَعل الأحكام و تشريعها مسّببٌ عن المصالح أو المفاسد التى تكون في نفس العَمَل و أمّا علىٰ مذهب من يرىٰ تبعيّته الأحكام لمصالح في الأحكام أنفسها فأنّ الأمر أوضح لأنّ الحكم الحقيقي علىٰ هذا الرّأي يكون شأنه شأن الأحكام الإمتحانيّة هذا ما أفاده

سيّدنا الإستاذ مدّ ظلّه العلامّة الخُوئي في المقام والحقّ أنّه أطال اللّه بقاه قد أجاد بما أفاد وليس بعده كلامٌ.

ثانيها: قوله تعالىٰ: **اَوْ نُنْسِهٰا** أعلم أنّ الأشهر في قراءة هذه الكلمة هو ضمّ النّون و عليه فهي من أنسىٰ ينسىٰ من النّسيان الّذي بمعنىٰ التّرك أي نتركها فلا نُبدّلها و لا ننسخها و عليه قوله تعالىٰ: **وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اَللّٰهَ فَأَنْسٰيهُمْ أَنْفُسَهُمْ**[1] و علىٰ هذه القراءة فالمعنىٰ في أو نُنسها حذف ذكرها عن القلوب بقوّةٍ إلٰهيّة و قرأ أبو عمرو و ابن كثير بفتح النّون و السّين و الهَمزة و به قرأ عطا و مجاهد و أبّى ابن كعب و غيرهم و علىٰ هذا فهو مأخوذ من نساء بمعنىٰ التّأخير قال الرّاغب في المفردات، النَسئ تأخير في الوقت و منه نسِئت المرأة اذا تأخر وقت حيضها يقال نساء اللّه في أجَلَك و نَسَاء اللّه أجَلَك أي أَخَّر والنّسيئة بيع الشّئ بالتّأخير و منها النّسئ الّذي كانت العرب تفعله و هو تأخير بعض الأشهر الحرم الى شهرٍ أخر قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمَا النَّسِىٓءُ زِيٰادَةٌ فِى اَلْكُفْرِ**[2]فيصير معنىٰ الآية أو تُؤخرها إمّا بإنسائها و أمّا بإبطال حكمها انتهىٰ كلام الرّاغب.

اذا عرفت القراءتين فنقول أمّا القراءة الثّانية فلاكلام فيها بين المفسّرين لأنّ قوله: **نُنْسِهٰا** مأخوذ من النّسئ من نَساء يَنسأ نَساء و هو التّأخير في الوقت فيصير معنىٰ الآية ما ننسخ من أيةٍ أي ما نَرفع من أيةٍ أو حكم أيةٍ و قيل معناه ما نُبّدل من أيةٍ أو نَنساها أي نُؤخّرها عن الوقت المَضرُوب له و هذا واضح.

و أمّا علىٰ القراءة الأولىٰ و هي ضمّ النّون من أَنسىٰ يُنسىٰ إنساء من النّسيان المقابل للذّكر فهو في حقّ الأُمّة لا إشكال فيه و أمّا في حقّ الرّسول فهو محلّ إشكالٍ بل منع و ذلک لأنّ النّسيان ينافي العصمة فَتجويز ذلك علىٰ النّبي يوجب التّنفير قال الشّيخ في التبيّان ما هذا لفظه و قوله أو ننسأها فالنّسئ التّأخير ونقيضه التّقديم يقال أنسأت الإبل عن الحوض أنسأها أنسأ اذا أخرّتَها

١- الحشر = ١٩

٢- التوبة = ٣٧

عنه وساق الكلام في نقل الأقوال الىٰ أن قال و من قرأ نُنسها بضّم النّون وكسر السّين يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مأخوذاً من النّسيان إلاّ أنّه لا يجوز أن يكون ذلك من النّبي لأنّه لا يجوز ذلك من حيث ينّفر عنه ويجوز ذلك علىٰ الأمّة بأن يُؤمر بترك قراءتها و ينسونها علىٰ طول الأيّام و يجوز أن ينسهم اللّه تعالىٰ ذلك و أن كانوا جمعاً كثيراً ويكون ذلك مُعجزاً بمعنىٰ التّرك من قوله نسُوا اللّه فنسيهم، والأوّل عن قتادة.

الثّاني: عن ابن عبّاس و قال معناه نَتركها لا نُبدّلها انتهىٰ.

وضع الحاجة من كلامه قال الطّبرسي ﷺ بعد نقله عن الشّيخ أنّه قال و لا يجوز ذلك علىٰ النّبي ما لفظه وقد جوّز جماعة من المحقّقين ذلك علىٰ النبي قالوا أنّه لا يؤدي الىٰ التّنفير لتعلّقه بالمَصلحة الىٰ أن قال و إستّدل من حَمَل الأية علىٰ النّسيان الّذي هو خلاف الذّكر وجوّز كون النّبي مراداً به بقوله سبحانه سنقرأك فلا تنسىٰ إلاّ ما شاء اللّه أي ما شاء اللّه أن تَنساه قال و الىٰ هذا ذهب أبو الحَسن فقال أنّ نبّيكم أقرأ القرأن ثمّ نسيه و أنكر الزّجاج هذا القول و قال أنّ اللّه تعلىٰ قد أنبأ النبّي في قوله: **وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ** لتفتري علينا غيره) بأنّه لا يشاء أن يذهب بالّذي أُوحي الىٰ النّبي و قال أبو علي الفارسي هذا الّذي إحَتّج به لايدّل علىٰ فساد ما ذَهبُوا اليه و ذلک أنّ قوله: **وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ** أنّ ماهو علىٰ مالا يجوز عليه النّسخ و التبدّيل من الأخبار و أقاصيص الأمم و نحو ذلك ممّا يجوز عليه التبدّيل والّذي ينساه النّبي هو ما يجوز أن ينسخ من الأوامرو النّواهي الموقوفة علىٰ المصلحة و في الأوقات الّذي يكون ذلك فيها أصلح و يدّلك علىٰ أنّ نُنسها من النّسيان الّذي هو خلاف الذّكر قراءة من قَرأ أو ننسها و هو قراءة سعد بن أبي وقّاص وقراءة من قَرَأ أو ننسها و هو المرّوي عن سالم مولىٰ أبي حذيفة و ساق الكلام الىٰ أن قال و يؤكد ذلك مارُوي عن قتادة أنّه قال كانت الآية نُنسخ بالأية و يُنسي اللّه نبّيه من ذلك شيئاً انتهىٰ.

وأنا أقول ماذكره الشّيخ الطّوسي ﷺ من أنّه يُوجب التّنفير حقّ و هو أحقّ بالإتّباع ممّا ذكره قتادة والزّجاج وأبو علي الفارسي و أمثالهم من العامّة و ذلك لأنّ ماذكره هؤلاء القوم موافق لمذهبهم من جواز السّهو والنّسيان في حقّ النّبي و أمّا ما ذكره الشّيخ فهو موافق لمَذهبنا من عدم جواز ذلك في حقّ النّبي والأئمّة عليهم السّلام لمكان عِصمتهم فلو جوّز السّهو أو النّسيان في النّبي فكيف يعتمد علىٰ قوله و هو واضح ثابت علىٰ أُصولنا وليس المقام مَوضع إطالة الكلام فيه ثمّ قال الطّبرسي ﷺ.

والوجه الثّاني، هو أنّ المراد بالنّسيان التّرك في الآية و هو مرّوي عن ابن عبّاس فعلىٰ هذا يكون المراد بنُنسها فأمركم بتركها أي بتَرك العَمل بها.

أقول هذا مِمّا لا بأس به و قد نقلنا عن الرّاغب أنّه قال اذا نُسب الىٰ اللّه فهو تركه إيّاهم إستهانةً بهم و مجازاةً لما تركوه فملّخص الكلام هو أنّ قراءة الضمّ تصحّ اذا كان بمعنىٰ النّسيان بمعنىٰ التّرك و أمّا بمعنىٰ النسيان الذّي هو خلاف الذّكر فلا يمكن حمل الآية عليه إلاّ علىٰ أُصول العامّة من جواز السّهو والنّسيان علىٰ النّبي و هو كما ترىٰ و أمّا قراءة الفتح فلا إشكال فيها أصلاً.

ثالثها: قوله تعالىٰ **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا** نقل فيه قولان:

أحَدهما: **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ** لكم في التسّهيل والتّسيير كالأمر بالقتال الّذي سهّل علىٰ المسلمين بقوله الأن خفّف اللّه عنكم أو مثلها في السّهُولة كالعبادة بالتوجّه الىٰ الكعبة بعد أن كان البيت المقدّس عن ابن عبّاس.

الثّانى: **نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ** فى الوقت الثّاني أي هي لكم في الوقت الثّاني خير لكم من الأولىٰ لكم في الوقت الأوّل في باب المَصلحة أو مثلها عن الحَسَن نقل القولين الطّبرسي في المجمع أقول و في المقام قول ثالث والمعنىٰ بأنفع لكم أيّها النّاس في عاجلٍ أن كانت النّاسخة أخفّ وفي أجلٍ أن كانت أثقل وبمثلها أن كانت مُستوية و يحتمل عدم إرادة التفضّيل من اللّفظ لأنّ كلام اللّه لا يتفاضل و أنّما هو مثل قوله: **مَنْ جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا**[١]

١- النمل = ٨٩

أي فَله فيها خير أي نفع و أجَرٌ لا الخير الّذي هو بمعنىٰ الأفضل والظّاهر أنّ قوله: **اَوْ مِثْلِها** ينافي هذا الإحتمال أقول الآية في الأصل العلامة الظّاهرة و إشتقاق الآية أمّا من أيّ فأنّها هي التي تبيّن أيّاً من أيٍّ و الصحّيح أنّها مُشتقة من الثّاني الّذي هو التّثبت والإقامة علىٰ الشّيء يقال تأيّ أي أرفق أو من قولهم أوَىٰ اليه ثمّ أنّها تطلّق علىٰ كلّ جملةٍ من القرأن دالّة علىٰ حكم سورةً كانت أو فصولاً أو فَصلاً من سورةٍ و قد يقال لكلّ كلامٍ منه مُنفصل بفَصلٍ لفّظي أية و علىٰ هذا إعتبار أيات السُّور الّتي تعدّ بها السّورة هذا كلّه في الأيات التّشّريعية ظاهر و قد تطلق علىٰ الأيات التّكوينية:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ اٰيَةً**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ما نُرْسِلُ بِالْاٰياتِ إِلّا تَخْوِيفًا**[2]

فالأيات قيل إشارة الىٰ الجراد والقُمّل والضّفادع ونحوها من الأيات التّي أُرسلت الىٰ الأُمم المتّقدمة للتّنبيه والتّخويف ومنه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ في ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ اَلْاٰخِرَةِ**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ تَرَكْناهآ اٰيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**[4].

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ اَلسَّفِينَةِ وَ جَعَلْناهآ اٰيَةً لِلْعالَمِينَ**[5].

و الىٰ التّكويني منها أشير بقوله و في كلّ شيءٍ له أيةٌ تدّل علىٰ أنّه واحدٌ اذا علمت هذا فقوله تعالىٰ ما نُنسخ من أيةٍ الآية يُحمل علىٰ العموم أعني به التّشريعي والتّكويني وقد وَردت به روايات من أهل البيت.

فقد وَرد في أُصول الكافي بأسناده عن محمّد عن شاهويه بن عبد اللّه الجّلاب قال: كتب الّي أبو الحَسن في كتابٍ أردت أن تسأل عن

١- المؤمنون = ٥٠
٢- الاسراء= ٥٩
٣-هود= ١٠٣
٤- القمر= ١٥
٥- العنكبوت = ١٥

خلفٍ بعد أبي جعفر و قلقتُ لذلك فلا تغتّم فانّ اللّه عزّ وجلّ لا يضلّ قوماً بعد اذ هداهم حتّىٰ يبيّن لهم ما يتّقون و صاحبكم بعدي أبو ممدّ ابني وعنده ما تحتاجون اليه يقدّم ما يشاء ما ننسخ من أيةٍ اَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهٰآ أو مثلها قد كتبتُ بما فيه بيان وقناع لذي عقلٍ يقظان انتهىٰ.

و في تفسير العيّاشي عن عمر بن يزيد قال: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ ما ننسخ من أيةٍ اَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهٰآ أو مثلها فقال عليه السلام: كذبوا ما هكذا هي اذا كان ينسىٰ وينسخها أو يأت بمثلها لم ينسخها قلت هكذا قال اللّه قال لَيس هكذا قال اللّه تبارك وتعالىٰ قلتُ فكيف قال ليس فيها ألف ولا واو قال ما ننسخ من أيةٍ اَوْ نُنْسِهٰا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهٰآ مثلها يقول مانَميت من إمام أو نُنسه ذكره نأت بخيرٍ منه من صلبه مثله تفسير نور الثّقلين[1].

أقول ماذكره في الرّوايتين أنّما هو تأويل الآية لا تفسير ألفاظها و سيأتي البحث في الفرق بين التفسّير والتأوّيل إن شاء اللّه.

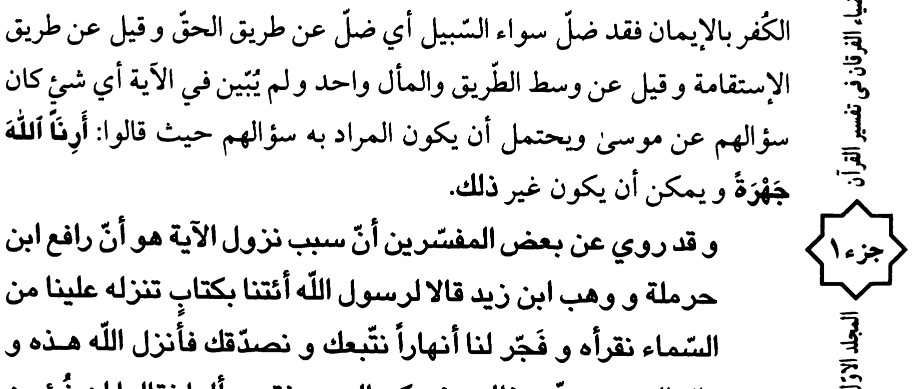
رابعها: قوله تعالىٰ: **اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ** فالظّاهر أنّه خطاب للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و فيه إشارة الىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قادر علىٰ كلّ شئٍ و منه النّسخ في الأيات التّشريعيّة التّكوينيّة وكان سبب نزول الآية أنّ اليهود حسدُوا المسلمين في التوجّه الىٰ الكعبة و طَعنوا في الإسلام بذلك و قالوا أنّ محمّداً يأمر أصحابه بشيءٍ ثمّ ينهاهم عنه فما كان هذا القرأن إلاّ من جهته و لهذا يناقض بعضه بعضاً فأنزل اللّه، ما ننسخ من أيةٍ الخ واذا بدّلنا أيةً مكان أيةٍ الخ أي أنّه يفعل ما يشاء و يحكم مايريد فكما أنّه قادرٌ علىٰ الإيجاد قادر علىٰ الإماتة وكما أنّه قادر علىٰ جعل لحكم قادرٌ علىٰ نَسخه وتبديله و هو مُقتضى القدرة المَطلقة.

١- ج ١ ص ١١٥

و أمّا قوله تعالىٰ: **اَلَمْ تَعْلَمْ اَنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ وَمٰالَكُمْ مِّنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاٰ نَصيرٍ** فهو خطاب للرّسول صلى الله عليه وآله وسلم والمعنىٰ قل لهم أي لليهود أنّ لِلّٰه سلطان السّموات والأرض فَليس لأحدٍ من خلقه الإعتراض عليه في مُلكه فهو يَفعل في مُلكه ما يشاء ويَمحو ما يشاء و يُثبت ما يشاء.

و في قوله: **وَمٰالَكُمْ مِّنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاٰ نَصيرٍ** فالمعنىٰ أين تذهبون واللّه تعالىٰ وليّكم و ناصركم، فمن قال أنّ الآية خطاب للنبي قال أتىٰ بضمير الجمع في الخطاب في قوله (وما لكم) تضخيماً لأمره و تعظيماً لقدره و من قال هي خطاب له وللمؤمنين أولهم خاصّة فالمعنىٰ ألَم تعلموا أيّها النّاس، مالكم من دون اللّه أي سوىٰ اللّه من ولّيٍ يقوم بأمركم و ناصرٍ ينصركم فتوجّهوا اليه بقلوبكم و تقّربوا اليه بأعمالكم و إخلاصكم فيها أن كنتم تَعقلون.

قوله تعالىٰ: **اَمْ تُرِيدُونَ اَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمٰا سُئِلَ مُوسىٰ مِنْ قَبْلُ** فالمعنىٰ بل أتُريدون أيّها المؤمنون أن تسألوا رسولكم محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم كما سُأل موسىٰ أي كما سُأل قوم موسىٰ من قبل أي من قبل ذلك و من يتّبدل الكُفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السّبيل أي ضلّ عن طريق الحقّ و قيل عن طريق الإستقامة و قيل عن وسط الطّريق والمأل واحد ولم يُبّين في الآية أي شيٍ كان سؤالهم عن موسىٰ ويحتمل أن يكون المراد به سؤالهم حيث قالوا: **أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً** و يمكن أن يكون غير ذلك.



و قد روي عن بعض المفسّرين أنّ سبب نزول الآية هو أنّ رافع ابن حرملة و وهب ابن زيد قالا لرسول اللّه أئتنا بكتابٍ تنزله علينا من السّماء نقرأه و فَجّر لنا أنهاراً نتّبعك و نصدّقك فأنزل اللّه هذه و قال الحَسن عنّي بذلك مشركي العرب فقد سألوا فقالوا لن نُؤمن حتّىٰ تفجّر لنا الىٰ قوله أو تأتي باللّه والملائكة قبيلا و قالوا لولا

أنزل علينا الملائكة أو نرىٰ ربّنا و عن السّدي سألت العَرب محمّداً أن يأتيهم باللّه فيروه جهرةً و قال مجاهد سألت قُريش محمّداً أن يَجعل لهم الصّفا ذهباً فقال نعم و لكن تكون لكم كالمائدة لقوم عيسى فرجعوا.

و عن الجبائي أنّ رسول اللّه سأله قوم أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط و هي شجرة كانوا يعبدونها و يعلّقون عليها الثّمرة و غيره من المأكولات كما سألوا موسىٰ إجعل لنا ألهة كما لهم ألهة و غير ذلك من الأقوال.

و قد روي الطّبري في تفسيره لكلّ واحدٍ من هذه الأقوال رواية من طريقه و قد اتفّق المفّسرون علىٰ أنّ أم، في الآية منقطعة بمعنىٰ، بل و قد نقل الطّبري عن بَعض البصريّن هي بمعنى الإستفهام و تأويل الكلام، **اَمْ تُرِيدُونَ اَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ** ثمّ نقل أقوالاً في المقام الىٰ أن قال والصّواب من القول في ذلك عندي علىٰ ما جاءت به الأثار أنّه إستفهام مُبتدأ بمعنىٰ، أتريدُون أيّها القوم أن تَسألوا رسولكم من الأشياء نظير ما سأل قوم موسىٰ من قبلكم فتكفروا أن منعتمُوه في مَسألتكم ما لا يجوز في حكمة اللّه أعطاؤكموه أو تهلكوا أن كان ممّا يجوز في حكمته عطاؤكُموه فأعطاكموه ثمّ كفرتم من بعد ذلك كما هَلك من كان قبلكم من الأمم التّي سألت أنبياؤها ما لم يكن لها مسألتها إيّاهم فلمّا أعطيت كفرت فعُوجلت بالعقوبات لكفرها بعد إعطاؤها أي بعد إعطاء اللّه إيّاها سؤالها وكيف كان ففي الآية قدح و ذمّ علىٰ من سأل الرّسول ما لا ينبغي أن يسأل و فيه إيماء الى أنّ إيمانهم كان صُوريّاً.

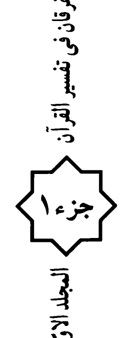
■

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ ايمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِاَمْرِهٖ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَاَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ وَمٰا تُقَدِّمُوا لِاَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقٰالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلاّٰ مَنْ كٰانَ هُوداً اَوْ نَصٰارىٰ تِلْكَ اَمٰانِيُّهُمْ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلىٰ مَنْ اَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ اَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

◁ اللّغة

وَدَّ: فعل ماض من الوَّد و هو محبّة الشّيء و تمّنىٰ كونه و يُستعمل في كلّ واحدٍ من المعنيين علىٰ أنّ التّمني يتّضمن معنىٰ الوّد لأنّ التمنّي هو تشتهي حصول ما توّده.

حَسَداً: الحَسد تمنّىٰ زوال نعمةٍ من مستّحقٍ لها و ربما كان مع ذلك سعيٌ في إزالتها.



فَاعْفوُا: أمرٌ من عَفىٰ يَعفو و العَفو هو التّجافي عن الذّنب.

وَاصْفَحُوا: أمرٌ من صَفَح يَصَفح صَفحاً صَفح الّشئ عَرضه و جانبه كَصَفحة الوجه والصَّفح ترك التّثريب و هو أبلغ من العَفو.

هُوداً: الهود الرّجوع برفقٍ و منه التّهويد و صار الهود في التّعارف التّوبة قال اللّه تعالىٰ (**أنّا هُدنا اليك**) أي تبنا قال بعضهم يهود في الأصل من قولهم هُدنا

اليك و كان إسم مَدح ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم و أن لم يكن فيه معنىٰ المدح كما أنّ النّصارىٰ في الأصل من قوله، من أنصاري الى اللّه، ثـمّ صار لازماً لهم بعد نسخ شريعتهم و يقال هاد فلان اذا تحرّىٰ طريقة اليهود في الدّين ثمّ صار علماً بالغلبة لقوم موسىٰ و هكذا النّصارىٰ فالهُود اليَهُود و هو في الأصل جمع هائد أي تائب.

اَمٰانِيُّهُمْ: قد مضىٰ معناه وقلنا الأمَنية الصّورة الحاصلة في النّفس من تمَنىٰ الشّئ و قال مجاهد معناه الكذب.

بُرْهٰانَكُمْ: البرهان الُحّة الدّليل.

يَحْزَنُونَ: الحُزن ضدّ السّرور.

◁ الإعراب

لَوْ يَرُدُّونَكُمْ لو بمعنىٰ أن المصّدرية **كُفّٰاراً** حال من الكاف و الميم ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً **حَسَداً** مصدر و هو مفعول له والعامل فيه وَدَّ أو يَرّدونكم **مِنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ** من متعلّقة بحسداً أي ابتداء الحَسد منهم **وَمٰا تُقَدِّمُوا** ما شرّطية في موضع نصب بتقدّموا **تَجِدُوهُ** أي تجدوا ثوابه فحذف المضاف **عِنْدَ اللّٰهِ** ظرف لتجدوا أو حال من المفعول به **اِلاّٰ مَنْ كٰانَ** في موضع رفع بيدخل **هُوداً** جمع **هائد** و هود من **هادَ يَهُود** اذا تاب **اَوْ** هنا لتفصيل ما أجمل **اَوْ نَصٰارىٰ** جمع **نَصران** كسكران و سكارىٰ **بَلىٰ** جواب النّفي وأسلم و وجهه و هو كلّه محمولٌ علىٰ لفظ من و كذلك فَله أجره عند ربّه و قوله و لا خـوف عـليهم محمولٌ علىٰ معناها.

◁ التّفسير

قوله تعالىٰ: **وَدَّ كَثيرٌ مِنْ اَهْلِ الْكِتٰابِ** قيل نزلت الآية في حيّ إبن أخطب و أخيه ياسر إبن أخطَب وقد دخلا علىٰ النّبي حين قدم المدينة فلمّا خرجا

قيل لحيّ إبن أخطب أهو نبّي قال هو هو فقيل فماله عندك قال العداوة الىٰ الموت و هو الّذي نقض العهد اثار الحرب يوم الأحزاب نقل هذا عن إبن عبّاس و قيل نزلت في كعب إبن الأشرف عن الزّهوي و قيل في جماعة اليهود عن الحَسن نقل هذه الأقوال الطّبرسي في المجمع و قال الطّبري بعد نقله ما نقلناه كان حيّ إبن خطب وأبو ياسر بن أخطَب من أشدّ يهُود العرب حَسداً إذ خصّهم اللّه برسوله ﷺ وكانا جاهدين في ردّ النّاس عن الإسلام بما إستطاعوا فأنزَل اللّه فيهما **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ** و ليس لقول القائل عني بقوله كعب إبن الأشرف مفهوم لأنّ كعب إبن الأشرف واحد وقد أخبر اللّه جلّ ثناؤه أنّ كثيراً منهم يوّدُون لو يرّدون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم والواحد لا يقال له كثير بمعنى الكثرة في العدو إلاّ أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة التّي وَصَف اللّه بها من وصفه بها في هذه الآية الكثرة في العزّ ورفعة المنزلة في قومه و عشيرته كما يقال فلان في النّاس كثير يراد به كثرة المنزلة والقدر فأن كان أراد ذلك فقد أخطأ لأنّ اللّه جلّ ثناؤه قد وَصَفهم بصفة الجماعة فقال: **لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ ايمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً** فذلك دليل علىٰ أنّه عني الكثرة في العدد انتهىٰ ما أراد ناقله عنه.

اقول وكيف كان لا شكّ أنّها نزلت في اليهود و بعبارةٍ أخرىٰ أخبر اللّه تعالىٰ بهذه الآية عن سرائرهم فقال ودّ كثير من أهل الكتاب، أي تمنّىٰ كثير من اليهود و النّصارىٰ **لَوْ يَرُدُّونَكُمْ** يا معشر المسلمين أي يرجعونكم، **مِّنْ بَعْدِ ايمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً** أي تمنّوا رجوعكم الىٰ الكفر بعد الإيمان و الىٰ الضّلالة بعد الهداية ومنشأ هذا التّمني هو الحسد لا غيره، لأنّهم يحسدون عليكم بما أتاكم اللّه من الثّواب في الأخرة والعزّ والشرف في الدّنيا و أنّما قال كثير، ولم يقل وَدَّ أهل الكتاب لأنّ بعضهم كانوا مؤمنين باللّه و رسوله كعبد اللّه بن سلام وكعب الأحبار و أمثالهما و أنّما حسد اليهود المسلمين علىٰ وضع النّبوة فيهم وذهابها

عنهم و قوله: **مِّنْ عِنْدِ اَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** أي بعد ما تبيّن لهم أنّ محمّداً رسول اللّه و أن الإسلام دين الحقّ وفيه إشارة الىٰ أنّ معرفة الحقّ لاتلازم العَمل به فأنّ كثيراً من النّاس يعرفونه ومع ذلك لا يعملون به بل ينكرونه بألسنتهم كما قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَحَدُوا بِهٰا وَ اَسْتَيْقَنَتْهٰآ أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَ عُلُوًّا**[١].

و أمّا قوله تعالىٰ: **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّىٰ يَاْتِيَ اللّٰهُ بِاَمْرِهٖ** ففيه إشارة الىٰ حُسن العَفو والصَّفح، أي تجاوزوا عنهم و أن كنتم تقدرون علىٰ الإنتصاف و الإنتقام.

حتّىٰ يأتي اللّه بأمره، لكم بعقابهم و قيل أي بأمره، و هو آية القتل والسَّبي لبني قُريطة والجلاء لبني النَّضير و قيل بأمر بالقتال عن قتادة فأنّه قال هذه منسوخة بقوله تعالىٰ: **قٰاتِلُوا اَلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لا بِالْيَوْمِ اَلْاٰخِرِ**[٢] و قال بعضهم أنّ الآية نُسخت بقوله أقتلوا المشركين حيث وجدتُموهم.

و روي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: لم يُؤمر رسول اللّه بقتال و لا أذن له فيه حتّىٰ نزل جبرئيل بهذه الآية أذن للّذين يقتلون بأنّهم ظلموا، وقلَّده سيفاً هكذا قال الطّبرسي في المجمع.

و أمّا قوله: **اِنَّ اللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** أي أنّ اللّه علىٰ كلّ ما يشاء قدير أن شاء الإنتقام منهم بعنادهم ربّهم لا رادّ لمَشيئته و أن هداهم كما هَداكم اللّه من الإيمان لا يتعذّر عليه شئ ممّا أراده و لا يتعذّر عليه شئ ممّا قضاه لأنّ له الخلق والأمر قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ يَهْدي مَنْ يَشٰآءُ**[٣]

نقل القُرطبي في تفسيره عن البخاري و مُسلم عن أُسامة ابن زيد أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ركب علىٰ حمارٍ عليه قطيفة فَدكيّة و أُسامة

١- النّمل = ١۴ ٢- التوبة = ٢٩
٣- القصص = ٥٦

وراءه يعُود سعد بن عبادة في بني الحارث ابن الخَزرج قبل وَقعة بَدر فسارا حتّىٰ مرَّا بمجلسٍ فيه عبد اللّه ابن أبّي ابن سلول و ذلك قبل أن يسلم عبد اللّه ابن أُبّي فاذا في المَجلس أخلاط من المسلمين و المشركين عبدة الأوثان واليهود و في المسلمين عبد اللّـه ابـن رَواحة فلمّا غشِيت المَجلس الدّابة خمَّر ابن أُبّي أنفَه برداءه و قال لا تُغبّروا علينا فسّلم رسول اللّه ثمّ وقفَ فَنزّل فَدعاهم الىٰ اللّه تعالىٰ و قَرأ عليهم القرأن فقال له عبد اللّه ابن أبّي بن سلول أيّها المرء لا أحسَن ممّا تقول أن كان حقّاً فلا تُؤذّنا به في مجالسنا أرجـع الىٰ رَحلك فمن جاءك فأقصص عليه قـال عـبد اللّـه ابـن رَواحـة بـلىٰ يـارسول اللّـه فأغشـنا فـي مـجالسنا فأنّـا نـحبّ ذلك فأسَّـتتب المُشركون و المُسلمون و اليَهُود حتّىٰ كادُوا يتشاورون.

فَلم يزل رسول اللّه ﷺ يخفضهم حتّىٰ سكنُوا ثمّ رَكب رسول اللّه ﷺ دابّته فسار حتّىٰ دَخل علىٰ سعد بن عبادة فقال رسول اللّه يا سَعد ألم تسمع الىٰ ما قال أبو حُباب يريد ابن أبّي قال كذلك فقال سَعد يا رسول اللّه بأبي أنت وأُمّي أعفُ عنه و أصفَح فَوالّذي أنزل عليك الكتاب بالحقّ لقد جاءك اللّه بالحقّ الّذي أنزل عليك و لقد إصطلح أهل هذه البحيرة علىٰ أن يتّوجوه و يُـعصّبوه بـالعصابة فلمّا ردّ اللّه ذلك بالحقّ الّذي أعطاك شرِق بذلك فلذلك فَعَل ما رأيت فعَفا عنه رسول اللّه ﷺ و كان رسول اللّه و أصحابه يَـعفون عن المشركين و أهل الكتاب كما أمَرهم اللّه تعالىٰ و يَصبرون علىٰ الأذىٰ قال اللّه عزّ وجلّ: **وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا أَذًى كَثِيرًا**[1].

١- آل عمران = ١٨٦

و قال تعالىٰ: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فكان رسول اللّه يتأول في العفو عنهم ما أمَره اللّه حتّىٰ أذَن له فيهم فلمّا غزا رسول اللّه بدراً فَقتل اللّه به من قَتل من صناديد الكفّار و سادات قريش فَقَفل رسول اللّه و أصحابه غانمين منصُورين معهم أسارىٰ من صناديد الكفّار و سادات قريش قال عبد اللّه ابن أبّي سلول و مَن معه من المشركين وعَبدة الأوثان هذا أمرٌ قد تَوّجه فبايعوا رسول اللّه علىٰ الإسلام فَأسلَمُوا انتهىٰ.

و نحن نتّكلم في الحَسد والعَفو والصّفح في موضع أخر أن شاء اللّه بما لا مزيد عليه.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوا الزَّكٰوةَ** فقد تقَدم الكلام فيه و قوله: **وَمٰا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسَكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ إِنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** فالمعنىٰ ما تقدّموا من خيرٍ من الأعمال الصّالحة والأقوال الحَسنة وبالجملة كلّ عملٍ أو قولٍ يتّصف بالخير في دار الدّنيا تَجدوه عند اللّه غداً يوم القيامة أي تجدون ثوابه وفي هذا الكلام حثّ وترغيب علىٰ فعل الخير قبل الموت و ذلک لأنّ الدّنيا دار عَملٍ والأخرة دار ثوابٍ وجزاءٍ.

قال أمير المؤمنين عليه السلام اليوم عملٌ ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عَمل و قال عليه السلام: في كلام أخر له، ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم بؤسه ألا وأنكم في أيّام أمَلٍ من وراءه أجلٍ فمن عمل في أيّام أمَله قبل هضُور أجَله نَفعه عَمله ولَم يضُرره أجَله و من قَصَّر في أيّام عَمله قبل حضُور أجلَه فقد خسر عَمله وضرّه أجَله ألا فأعملوا في الرّغبة كما تعملون في الرّهبة الىٰ أن قال عليه السلام: ألا وأنكم قد أُمرتُم بالظّعن ودُلّلتم علىٰ الزّاد وأنّ أخَوف ما أخاف عليكم إتّباع الهوىٰ و طول الأمل تَزّودوا من الدّنيا ما تَحرزون أنفسكم به غداً و قال عليه السلام في

خطبة أخرىٰ، و أتّقوا اللّه عباد اللّه و بادروا أجالكم بأعمالكم و أبتاغُوا ما يبقىٰ لكم بما تَزُول عنكم و تَرّحلوا فقد جُدَّ بكم وأستعدّوا للموت فقد أجَّلكم و كونوا قوماً صيح بهم فأنتَّبهوا و اعَلموا أنّ الدّنيا لَيست لَم بدارٍ فأستبدلوا فأنّ اللّه سبحانه لم يخلقكم عَبثاً و لم يَترككم سُدىً وما بين أحَدكم و الجنّة والنّار إلاّ الموت أن ينزل به وقال في خطبةٍ أخرىٰ، فَليعمل العامل منكم في أيّام مَهله قبل إرهاق أجَلَه و في فراغه قبل أو ان شغله وفي تَنّفُسه قبل أن يُؤخذ بكَظمه وليمهّد لنفسه وقدُومه وليتَّزود مِن دار ظعنه لدار إقامته الخ.

و لنعم ما قيل:

حانَ الرّحيل فوّدع الدّار الّتي ... ماكان ساكنها بها بمُخّلَدٍ
وأضرع الىٰ المَلك الجواد وقُل له ... عبدُ ثياب الجُود أصَبَح يحتدي
لَم يَرض إلاّ اللّه مَعبُودُ ولا ... ديناً سوىٰ دين النّبي محمّدِ

و قال الأخر:

تناديك أحداثُ وَهنّ صموت ... وأربابها تحت التّراب خفوتُ
فيا جامع الدّنيا حريصاً لغيره ... لِمن يجمع الدّنيا وأنت تَموتُ

و قوله: **اِنَّ اللّٰهَ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** معناه لا يخفىٰ عليه تعالىٰ أعمالكم كيف و هو أقرب اليكم من حَبل الوَريد و هو مَعكم أينما كنتم، قوله تعالىٰ: **وَّقٰالُوا لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ اِلاّٰ مَنْ كٰانَ هُودًا اَوْ نَصٰارىٰ تِلْكَ اَمٰانِيُّهُمْ قُلْ هٰاتُوا بُرْهٰانَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ** أي قالت اليهود أو مطلق أهل الكتاب لَن يدحل الجنّة إلاّ من كان هوداً أي من كان من اليهود أو نصارىٰ أي من كان من النّصارىٰ فقال اللّه تعالىٰ ردّاً عليهم بأنّ ما إدَّعوه من أباطيلهم و أكاذيبهم أو من تمّنياتهم قل يامحمّد لهم هاتوا برهانكم علىٰ ما إدّعيتُموه أن كنتم صادقين في

إدّعائكم هذا وأنّما رَدَّ اللّه عليهم لأنّ الجنّة مأوىٰ المُتّقين ومكان الصّالحين و أمّا إختصاصهما بقوم دون قومٍ فهو أمرٌ لا دليل عليه من العقل والشّرع ولذلك قال قل هاتوا برهانكم أن كنتم صادقين عَلَّق الخطاب علىٰ الشّرط لأنّ الكاذب لا رهان له في كذبه فَمن إدّعىٰ شيئاً ولم يُقم دليلاً علىٰ مُدّعاه فهو كاذب وأن أقام فهو صادق و لاجل ذلك أنّ اللّه تعالىٰ لم يبعث نبّياً إلاّ و قد جعل له بيّنات دالّة علىٰ صِدقه قال اللّه تعالىٰ: **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَ أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَ الْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** (١) و هذه قاعدة عقلّية جارية في مجاري الأمور كلّها واذاكان كذلك فكيف يدّعي اليهود و غيرهم كائناً من كان أنّ الجنّة متّعلقة بهم لن يدخلها أحدٌ إلاّ من كان هُوداً أو نصارىٰ وحيث أنّه مجرد الدّعوىٰ بلا بيّنة وبرهان قال اللّه تعالىٰ: **تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** أي أنّهم كاذبون في دعواهم أو أنّهم يتمنّون ذلك ولم يسألوا من أنفسهم لم يتّمنونه ثمّ بيّن اللّه تعالىٰ ما يُوجب دخول الجنّة من أي فرقةٍ فأنّ الملاك والمعيار لدخول الجنّة واحد في حقّ الكلّ من اليهود والنّصارىٰ و المسلمين و جميع أهل الكتاب فقال بلىٰ من أسَلَم وَجهه لِلّه فَلَه أجره عند ربّه و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون، أي نِعم يَدخل الجنّة و يأمن من العذاب و دخول النّار من أسلَم وجهه لِلّه و هو محسنٌ أي والحال أنّه محسنٌ في أقواله و أفعاله فقوله أسلَم لِلّه فيه وجوهٌ:

أحَدها: أنّه بمعنىٰ إستَسلم يقال إستَسلم فلان أي سَلّم أمره اليه و منه قوله تعالىٰ اذ قال له ربّه أسلِم قال أسلمتُ لربّ العالمين أي إستَسلمتُ لِلّه في جميع ما قضىٰ و قدّر.

ثانيها: بمعنىٰ الإعتراف باللّسان وبه يحقن الدّم حصَل معه الإعتقاد أولم سَحصُل و منه قوله تعالىٰ: **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**(٢)

١- الحديد= ٢٥ ٢- الحجرات = ١٤

ثالثها: الطّاعة والإنقياد لِلحقّ ومنه قوله تعالىٰ: **إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ**[1] أي مُعاندون للحقّ مذعنون له و قوله تعالىٰ:**يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا**[2] أي الّذين إنقادوا من الأنبياء الّذين لَيسوا من أُولي العَزم لأُولي العزم الّذين يَهتدون بأمر اللّه و يأتون بالشّرائع.

رابعها: أنّه بمعنىٰ الإخلاص في العبادة ومنه قوله تعالىٰ:**أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ**[3] أي أخلصتُ عبادتي له جلّ ثناؤه و عظمت نعمته.

و في الحديث قلت له ما الإسلام قال عليه السلام دين اللّه إسمه الإسلام وهو دين اللّه قبل أن تكونوا حيث كنتم و بعد أن تكونوا فَمن أقرَّ بدين اللّه فهو مسلم ومَن عَمِل بما أمَر اللّه فهو مُؤمن اذا عرفت معنىٰ الإسلام والوجوه المحتملة فيه:

فأعلم أنّ الإسلام في الآية الشّريفة في المقام ليس هو الإعتراف باللّسان فحسبُ بل المراد الإعتراف باللّسان والإعتقاد بالقلب و العمل بالجوارح و التّسليم لِلّه تعالىٰ في جميع ما قَدَّر و قضىٰ و هو الأوّل من الوجوه أو الثّالث أو الرّابع.

فأنّ المآل في الثلاثة واحد و أمّا الوجه الثّاني، و هو مجرّد الإعتراف فليس بمرادٍ قطعاً والدّليل علىٰ ما إدَّعيناه قوله تعالىٰ بعد قوله من أسلَم وجهه لِلّه و هو محسنٌ و هو فاعل من أحَسَن يحسن إحساناً والإحسان يقال علىٰ وجهين:

أحدهما: الإنعام علىٰ الغير يقال أحسَن الىٰ فلانٍ.

ثانيهما: إحسانٌ في فعله و ذلک اذا عَلمَ علماً حَسَناً و لاجل ذلك قيل الإحسان أعمّ من الإنعام اذا عرفت معنىٰ الإحسان فقوله تعالىٰ و هو محسنٌ، معناه أنّه يعلم و يَعمل فعلاً حَسناً فالمحسن عالمٌ ثمّ عاملٌ بعلمه و من كان

١- النمل = ٨١
٢- المائدة= ٤٤
٣- آل عمران = ٢٠

كذلك لا يكون إسلامه بِمجرّد اللّفظ قطعاً لأنّ اللّفظ بما هو هو لا يلازم العِلم و لا العَمل فالمُسلم المُحسن لا يكون إلاّ معتقداً عاملاً بما يقول من الأفعال الحسنة و هذا هو الّذي قال تعالىٰ فيه:**فَلَهُ أَجْرُه عِنْدَ رَبِّه**.

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ ٱلَّذِينَ هَادُوا وَ ٱلنَّصٰارىٰ وَ ٱلصّٰابِئِينَ مَنْ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْاٰخِرِ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ** (١)

و قد مرّ الكلام فيها ومن الواضح أنّ العَمل الصّالح لا يُوجد إلاّ من المُحسن والقرأن يفسّر بعضه بعضاً و أمّا أنّ أجره عند ربّه فالوجه فيه معلوم لا يخفىٰ علىٰ أحدٍ كيف والأجر علىٰ العمل مُختّص به تعالىٰ كما أشار اليه في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**(٢)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**(٣)

قال اللّه تعالىٰ: **اُولٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ**(٤)

و الأيات كثيرة و قوله: **وَلاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ** نفىٰ اللّه تعالىٰ عنهم الخوف والحُزن الخَوف توقع مكروهٍ عن إمارةٍ مظّنونة أو معلومة و ضدّه الرّجاء و هو توقع محبوبٍ كذلك و قيل الخوف ضدّ الأمن وكيف كان فهو يستعمل في الأمور الدّنيوية والأخرّوية:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخٰافُونَ عَذٰابَهُ**(٥)

قال اللّه تعالىٰ: **تَتَجٰافىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضٰاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**(٦)

١- البقرة= ٦٢
٢- آل عمران = ١٩٩
٣- النحل = ٩٧
٤- القصص = ٥٤
٥- الاسراء= ٥٧
٦- السجدة= ١٦

قال اللّه تعالىٰ: **وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**(١).

وإعلم أنّ الخوف من اللّه لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرُّعب كإستشعار الخوف من الأسد بل أنّما يُراد به الكَّف عن المعاصي وإختيار الطّاعات ولذلك قيل لا يُعَّد خائفاً من لم يكن للذّنوب تاركاً، والتّخويف من اللّه تعالىٰ هو الحَثّ علىٰ التّحرز و علىٰ ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **ذٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللّٰهُ بِهِ عِبٰادَهُ**(٢).

ونهىٰ اللّه عن مخافة الشّيطان والمُبالاة بتَخويفه:

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّمٰا ذٰلِكُمُ ٱلشَّيْطٰانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيٰاءَهُ فَلاٰ تَخٰافُوهُمْ وَ خٰافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**(٣)

وأمّا الحُزن فهو خشونةٌ في النّفس لما يَحصل فيه من الضّم وضدّه الفَرَح:

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَ إِنَّمٰآ أَشْكُوا بَثِّى وَ حُزْنِىٓ إِلَى ٱللّٰهِ** (٤)

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ**(٥) و أمثالهما من الأيات

اذا عرفت معنىٰ الخوف والحزن فقد دَرَيت أنّ المُسلم المُحسن في أعماله لا خوف عليه و لا حُزن، لأنّه لم يفعل ما يُوجبهما بل فعل ما أذهب عنه الخوف و الحُزن و هو العَمل الصّالح فلذلك قال لا خَوف عليهم و لا هم يحزنون، بل يَرجون رحمة اللّه ويُسّرون بما أتاهم اللّه من الأجر.

■

١- آل عمران = ١٧٥ — ٢- الزمر= ١٦

٣- آل عمران = ١٧٥ — ٤- يوسف = ٨٦

٥- الفاطر= ٣٤

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

◁ اللّغة

أمّا اللّغات فيها فواضحة لا خفاء فيها،

◁ الاعراب

وَهُمْ يَتْلُونَ في موضع نصب علىٰ الحال والعامل فيها قالت وأصل يتلُون يتلوون فسُكنت الواو ثمّ حُذفت لإلتقاء السّاكنين فصار يتّلون **كَذَٰلِكَ قَالَ** الكاف في موضع نصب نعتاً لمصدرٍ محذوف منصوب **بقال** و هو مصدر مقدّم علىٰ الفعل والتقدّير قولاً مثل قول اليهود والنّصارىٰ قال الّذين لا يعلمون فعلىٰ هذا الوجه يكون **مِثْلَ قَوْلِهِمْ** منصوباً بيعلمون أو يقال علىٰ أنّه مفعول به ويجوز أن يكون الكاف في موضع رفع الإبتداء والجملة بعده خبرٌ عنه و العائد علىٰ المبتدأ محذوف تقديره، قاله، فعلىٰ هذا يكون **مِثْلَ قَوْلِهِمْ** صفة لمصدر محذوف أو مفعولاً ليعلمون والمعنىٰ مثل قول اليهود والنّصارىٰ قال الذّين لا يعلمون إعتقاد اليهود والنّصارىٰ أي **فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** يختلفون فيه ففيه متّعلق بالفعل أعني به يختلفون.

◁ التّفسير

بيّن اللّه تعالىٰ في الآية إختلاف أهل الكتاب مع تلاوتهم اٰياتّه فقال: **قَالَتِ الْيَهُودُ** وهم أتباع موسىٰ **لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ** وهم أتباع عيسىٰ **عَلَىٰ شَيْءٍ** في

تدّينهم بالنّصراينة **وَّقَالَتِ النَّصٰارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيءٍ** في تدّينهم باليّهودية **وَّهُمْ يَتْلُونَ الْكِتٰابِ** أي أنّهم يقولون كذلك والحال أنّهم يتلون ويقرأون الكتاب وليسوا بجاهلين به.

قيل لمّا قدَم وفد نجران علىٰ رسول اللّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا و تقاولوا بذلك و قالت كلّ فرقةٍ منهم لِلأخرىٰ لَستم علىٰ شيءٍ فَنزلت الأية **كَذٰلِكَ قٰالَ الَّذِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** والمراد بهم علىٰ ماقيل هو مشركوا العَرب الّذين هم كانوا جهّالاً ولم يكن لهم كتاب هكذا قالوا لمحمّدٍ و أصحابه أي قالوا لَستم علىٰ شيءٍ من الّدين.

و قيل معناه أنّ مشركي العَرب قالوا بأنّ جميع الأنبياء والأُمم لم يكونوا علىٰ شيءٍ وكانوا علىٰ خطأٍ فقد ساووكم يامعشر اليهود في الإنكار وهم لا يعلمون.

و قيل أنّ هؤلاء الّذين لا يعلمون أُممٌ كانت قبل اليهود والنّصارىٰ و قبل التّوراة و الإنجيل كقوم نُوحٍ وعادٍ وثَمودٍ قالوا لأنبياءهم لستُم علىٰ شيءٍ والحقّ أنّ المراد بهم كفّار العَرب الّذين قالوا أنّ المسلمين ليسوا علىٰ شيءٍ فبيّن اللّه تعالىٰ أنّه اذاكان قول اليهود والنّصارىٰ و هم يقرأون الكتاب لا ينبغي أن يقبل و يلتفت اليه فقول هؤلاء الكفّار أولىٰ بالتّرك وأن لا يُلتفت اليه و أمّا قوله تعالىٰ: **فَاللّٰهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ فِيمٰا كٰانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** فقد ذكروا فيه أربعة أوجه:

أحَدها: قال الحَسَن يكذّبهم جميعاً و يدخلهم النّار.

ثانيها: يحكم بانتصاف من الظّالم المذب للمظلُوم المُكَذّب.

ثالثها: يُريهم من يدخل الجنّة عياناً ومن يدخل النّار كذلك.

رابعها: يحكم بين المحقّ والمُبطل فيما إختلفوا فيه وعندي قول خاصّ و هو أنّ اللّه يعلم ما يحكم بين عباده يوم القيامة و لا يعلمه غيره فهو أعلَم بما

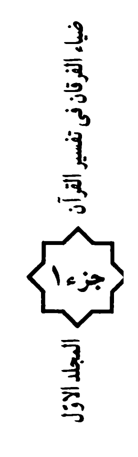
يحكم و قال بعض المفسّرين في قوله تعالىٰ: **قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارىٰ عَلىٰ شَيْءٍ وَّقَالَتِ النَّصَارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلىٰ شَيْءٍ** هؤلاء أهل الكتاب الّذين كانوا علىٰ عَهد النّبي صلّی الله علیه وآله وسلّم.

و أمّا تأويل الآية فأنّه قَالَت الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارىٰ في دينها علىٰ صوابٍ و قالت لنَّصَارىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ في دينها علىٰ صوابٍ و أنّما أخبر اللّه عنهم بقولهم هذا للمؤمنين إعلاماً منه لهم بتضييع كلّ فريقٍ منهم حكم الكتاب الّذي يظهر الإقرار بصّحته و أنّه من عند اللّه وجحُودهم مع ذلك ما أنزل اللّه فيه من فُروضه لأنّ الإنجيل الّذي تدّين بصّحته و حقيقته النّصارىٰ يحقّق ما في التّوراة من نبّوة موسىٰ عليه السلام وما فَرض اللّه علىٰ بني إسرائيل فيها من الفرائض و أنّ التّوراة التّي تدّين بصحّتها و حقيقّتها اليهود تحقق نبوّة عيسىٰ عليه السلام و ما جاء به من عند اللّه من الأحكام والفرائض ثمّ كلّ فريقٍ منهم قال للفريق الأخر ما أخبَر اللّه عنهم في قوله و قالت اليهود ليست النّصارىٰ علىٰ شئ و قالت النّصارىٰ ليست اليهود علىٰ شئ مع تلاوة كلّ واحدٍ من الفريقين كتابهُ الّذي يشهد علىٰ كذبه في قوله ذلك فأخبر جلّ ثناؤه أنّ كلّ فريقٍ منهم قال ما قال من ذلك علىٰ علمٍ منهم أنّهم فيما قالوه مُبطلون وأتوا ما أتوا من كفرهم بما كفروا به علىٰ معرفةٍ منهم بأنّهم فيه مُلحدُون انتهىٰ.

أقول و قد روي في تفسير البرهان عن الحَسن ابن علّي أبي طالب عليه السلام أنّه قال: لمّا نزلت جاءَ قومٌ من اليهود و قومٌ من النّصارىٰ الىٰ رسول اللّه صلّی الله علیه وآله وسلّم فقالوا يامحمّد أقض بيننا فقال صلّی الله علیه وآله وسلّم: قُصُوا عَلّي قصّتكم فقالت اليهود نحن المؤمنون بالإله الواحد الحكيم و أولياءه وليست النّصارىٰ علىٰ شئٍ من الدّين والحقّ وقالت النّصارىٰ بل نحن المؤمنون بالإله الواحد الحكيم وأولياءه و ليست اليهود علىٰ شئٍ من الدّين والحقّ فقال رسول اللّه صلّی الله علیه وآله وسلّم

كلّكم مُبطلون مخطئون فاسقون عن دين اللّه و أمره فقالت اليهود وكيف نكون كافرين وفينا كتاب اللّه التّوراة نقرأوه و قالت النّصارىٰ و كيف نكون كافرين و لَنا كتاب اللّه الإنجيل نقرأوه فقال رسول اللّه عليه السلام أنّكم خالفتم أيّها اليهود و النّصارىٰ كتاب اللّه فلم تعملُوا به فَلو كنتم عاملين بالكتابين لما كفّر بعضكم بعضاً بغير حجّةٍ لأنّ كتب اللّه أنزَلَها شفاءً من العمىٰ وبياناً من الضّلالة يهدى العاملين بها الىٰ صراطٍ مستقيم وكتاب اللّه اذا لم تعملوا ما فيه كان وبالاً عليكم وحجّة اللّه اذا لم تنقادوا لها كنتم لِلّٰه عاصين ولِسَخطه مُقرنين انتهىٰ.

■



وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ اَنْ يُّذْكَـرَ فـيهَا اسْمُهُ وَسَعىٰ فِي خَرٰابِهٰآ اُوْلٰٓئِكَ مٰـا كٰـانَ لَـهُمْ اَنْ يَّدْخُلُوهٰٓا اِلآّ خٰآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيٰا خِزْيٌ وَّلَهُمْ فِي الْاٰخِرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَّلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَاَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَّقٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَـداً سُـبْحٰانَهُ بَـلْ لَـهُ مٰـا فِـي السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قٰانِتُونَ ﴿١١٦﴾

◁ اللّغة

خَرٰابِهٰآ: يقال خرب المكان خَراباً و هو ضدّ العمارة.

خِزْيٌ: الخِزي بكسر الخاء مصدر قولك خزي يخزي خِزياً يقال خِزي الرّجل اذا لَحِقه إنكسارٌ إمّا من نفسه و أمّا من غيره فالّذي يَلحقه من نفسه هو الحياء المُفرط و مصدره الخزاية والّذي يلحقه من غيره يقال هو ضربٌ من الإستخفاف و مَصدره الخزي و هو المراد في المقام.

الْمَشْرِقُ وَالْـمَغْرِبُ: هُما اذا قيلا بالأفراد فإشارةٌ الىٰ ناحيتي الشّرق والغرب واذا قيلا بلفظ التثنيّة فإشارةٌ الىٰ مَطْلَعي ومَغربَي الشّتاء والصّيف واذا قيلا بلفظ الجمع فإعتبارٌ بمَطلع كلّ يوم و مَغربه:

قال اللّه تعالىٰ: رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ [1]

قال اللّه تعالىٰ: رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ [2]

قال اللّه تعالىٰ: بِرَبِّ ٱلْمَشٰارِقِ وَ ٱلْمَغٰارِبِ [3].

قانتون، هو فاعل من قَتنت القُنُوت لزوم الطّاعة مع الخضُوع

١- المزمل = ٩ ٢- الرحمن = ١٧

٣- المعارج = ٤٠

◁ الإعراب

وَمَنْ اَظْلَمُ مَن إستفهام في معنىٰ النّفي و هو رفع بالإبتداء و أظلَم خبره لاأحد أظلَم مِمَّنْ مَّنَعَ مَن نكرة موصوفة أو بمعنىٰ الّذي اَنْ يُّذْكَرَ فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: هو في موضع نصب علىٰ البَدل من مساجد بدل الإشتمال تقديره ذكر إسمه فيها.

الثّاني: أن يكون في موضع نصب علىٰ المفعول له وتقديره كراهية أن يذكر.

الثّالث: أن يكون في موضع جرّ تقديره من أن يذكر.

وَسَعىٰ فِي خَرٰابِهٰآ، خراب إسمٌ للتّخريب مثل السّلام للتّسليم اِلاّٰ خٰآئِفِينَ حال من الضّمير في يدخلوها لَهُمْ فِى الدُّنْيٰا جملة مستأنفة وليست حالاً وَّلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ خبر مقدم و مبتدا مؤخرفَاَيْنَمٰا شرّطية تُوَلّوُا مجزوم به و هو النّاصب لأين فَثَمَّ الجواب لِلشّرط وفي قوله، توّلوا وجهان:

أحدهما: هو مستقبل أيضاً وتقديره تتوّلوا فحذف التّاء الثّانية.

الثّاني: أنّه ماضٍ والضّمير للغائبين والتقدّير أينما يتّولون و قيل يجوز أن يكون ماضياً قد وقع و لا يكون أين، شرطاً في اللّفظ بل في المعنىٰ كما تقول ما صَنعت صَنعتُ اذا أردت الماضي و هذا القول ضعيف لأنّ أين إمّا إستفهام و أمّا شرط و ليس لها معنىٰ ثالث فَثَمَّ ثمّ إسم للمكان البعيد عنك وبُني لتَّضمنه معنىٰ الإشارة و قيل بني لتّضمنه معنىٰ حرف الخطاب وَّقٰالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً يُقرأ بالواو عطفاً علىٰ قوله، لَن يدخل الجنّة و يقرأ بغير واوٍ علىٰ الإستئناف كُلٌّ لَّهُ تقديره كلّ واحدٍ منهم أو كلّهم لأنّ الأصل في كلّ أن يستعمل مضافاً ومِن هنا ذَهب الجمهور الىٰ منع دخول الألف و اللاّم عليه لأنّ تخصيصها بالمضاف اليه قٰانِتُونَ حمل الخبر علىٰ معنىٰ كلّ فَجَمعه و لو قيل قانت، جاز علىٰ لفظ كلّ.

◁ التّفسير

اختلف المفسّرون في المراد بقوله تعالىٰ: **وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ** فقال ابن عبّاس و مجاهد و إختاره القّراء المراد بهم الرّوم لأنّهم كانوا غزو بيت المقدّس وسَعوا في خَرابه حتّىٰ كانت أيّام عمر فأظهر اله عليهم المسلمين و صاروا لا يَدخلوا إلاّ خائفين، و قال الحَسَن و قتادة و السّدي هو بخت نصّر خَرب بيت المقدّس، قال قتادة و أعانه عليه النّصارىٰ و قال قوم عنىٰ به سائر المشركين لإنّهم يريدون صَدّ المسلمين عن المساجد و يُحبونَه قال قوم المراد به هو مُشركوا العَرَب وضعّف هذا الوجه الطّبري و قال أنّ مُشركي قريش لم يسعوا قطّ في تخريب المسجد الحرام، قال الشّيخ ﵀ في التّبيان بعد نقله عنه ما نقلناه و هذا أي ماذكره الطّبري ليس بشئ لأنّ عمارة المسجد بالصّلاة فيها وخرابها بالمَنع من الصّلاة فيها و قد رُوي أنّهم هَدموا مساجد كان أصحاب النّبي يصلّون فيها بمكّة لمّا هاجر النّبي وأصحابه انتهىٰ.

أن قلت لم قال مساجد اللّه بلفظ الجمع و هو أراد المسجد الحرام أو بيت المقّدس قلت أجابوا عنه بوجهين:

أحَدهما: أنّ كلّ موضع منه مسجد كما يقال لكلّ مَوضعٍ من المجلس العظيم مَجلس.

الثّانى: ما نقل عن الجبائي و هو أنّه يَدخل فيه المساجد التّي بناها المسلمون للصّلاة بالمدينة و أمّا قوله: **مِمَّنْ مَّنَعَ** أصل المَنع الصَّد والحيلولة و قيل أنهما بمعنىٰ واحدٍ قال أهل اللّغة المنع أن يحول بين الرّجل وبين الشّئ يريده و أمّا المساجد فقد تبّينا الإختلاف فيها فمنهم من قال أراد المسجد الأقصىٰ و منهم من قال أراد المسجد الحرام ومنهم من قال أراد جميع المساجد.

و روي عن زيد بن علّي عن أبيه أنّه أراد جميع الأرض لقوله ﷺ جعلت لي الأرض مَسجداً وترابها طهوراً وقيل الرماد من مَنع من كلّ مسجدٍ الىٰ يوم القيامة.

قال بعض المفسّرين من العامّة و هو الصّحيح لأنّ اللّفظ عامّ ورَدَ بصيغة الجمع فتَخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص من غير دليلٍ ضعيفٌ جدّاً.

و أمّا قوله: **وَسَعىٰ في خَرابِهٰا** فأعلم أنّ خراب المساجد علىٰ قسمين: حقّيقي و غير حقّيقى.

أمّا الأوّل: كتخريب بخت نَصر و من أعانه من النّصارىٰ بيت المقدّس علىٰ ما نقل أنّهم غزوا بني إسراديل مع لعض ملوكهم قيل إسمه نطوس بن أسبيا نوس الرُّومي فيما ذكر الغزنوي فقتلوا و سبَوا و حرّقوا التّوراة و قذفوا في بيت المقدّس العذرة و خرّبوه و تفصيل الواقعة مذكور في التّواريخ.

أمّا الثّاني: من قسمي التّخريب كمنع المشركين المسلمين حين صدّوا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من المسجد الحرام و بالجملة فتعطيل المساجد عن الصّلاة و إظهار شعائر الإسلام فيها خرابٌ لها والحقّ أن يقال أنّ خصوصّية المورد في الأية لا تنافي عموم المعنىٰ وشموله فكلّ من خَرب المَسجد بأيّ نحوٍ كان سواء أكان التّخريب في بناءه أم في منع المصلّين عن الصّلاة فيه فهو مصداق لِلأية مسلماً كان المُخّرب أوكافراً فأنّ الظّالم يشمل الكافر والمُسلم بل هو في المُسلم أشدّ منه في الكافر و هو واضح لا خفاء فيه و أمّا قوله: **اوُلٰئِكَ ما كٰانَ لَهُمْ اَنْ يَدْخُلُوهٰا اِلاّ خٰائِفِينَ** معناه أولئك المُخّربون ليس لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين وجلين قال ابن عبّاس أي لا يدخل نصّراني بيت المقّدس إلاّ نهك ضرباً وأبلغ عقوبة و هو كذلك اليوم.

و من قال أنّ المراد به المسجد الحرام قال لمّا نزلت هذه الآية أمَر النّبي منادياً ألا تحجّ بعد العام مشركٌ و لا يطوف بالبيت عريان و قيل هو خيرٌ ومقصوده الأمر أي جاهدوهم و إستأصلوهم حتّىٰ لا يدخل أحدٌ منهم المسجد الحرام إلاّ خائفاً كقوله تعالىٰ: **وَ ما كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اَللّٰهِ**[1] فأنّه

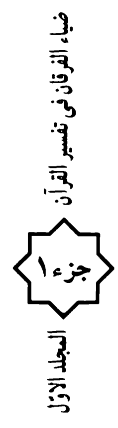
١- الاحزاب = ٥٣

نَهيٰ وَرَد بلفظالخَبر و قوله تعالىٰ: **لَهُمْ فِى الدُّنْيا خِزْيٌ وَّلَهُمْ فِي الْاٰخِـرَةِ عَذٰابٌ عَظِيمٌ** قيل في معناه، القتل للحِربّي والجزية للذّمي و قيل الخزي لهم في الدّنيا قيام المَهدي و فتح عمورّية و رومية و قسطنطية و غير ذلك من مُدُنهم قاله القُرطبي ثمّ قال علىٰ ما ذكرناه في كتاب التّذكرة، و من جَعلها في قريش جَعَل الخزي عليهم في الفتح والعذاب في الأخرة لِمن مات منهم كافراً و قال الزّجاج أعلم اللّه هذه الآية أنّ أمَر المسلمين يظهر علىٰ جميع من خالَفهم حتّىٰ لا يمكن دخول مخالفِ الىٰ مساجدهم إلاّ خائفاً و هذا كقوله تعالىٰ: **لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ**[1] فكأنّه قيل أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين لاعزاز اللّه الدّين وإظهاره لِلمُسلمين هذا ماقال المفّسرون في المراد بالأية والّذي يظهر من بعض الأخبار الواردة في المقام هو أنّ المراد من الآية مُشركوا العَرب والمراد بالمساجد في الآية مساجد المسلمين التّي بناها قوم من خيار أصحاب الرّسول ففناء الكعبة.

روي في تفسير البرهان عن العسكري عليه السلام قال: الحَسَن بن علّي لمّا بعث اللّه محمّداً بمكّة وأظهر بها دَعوته و نشر بها كلمته وعاب أديانهم في عبادتهم للأصنام و أخذوه و أساؤوا معاشرته وسَعوا في خراب المساجد المّبنية كانت لقومٍ من خيار اصحاب محمّدٍ و شيعة علّي ابن أبي طالب عليه السلام بفناء الكعبة مساجد يَعنون فيها ما أصابه المبطلون فَسعىٰ هؤلاء المُشركون في خرابها وأذىٰ محمّداً وسائر أصحابه وألجاؤوه الىٰ الخروج من مكّة نحو المدينة إلتفت خلفه اليها وقال اللّه يعلم أنّني أحبّك ولولا أنّ أهلك أخرجوني عنك لما آثرت عليك بَلداً ولا أبقيتُ عليك بَدلاً وأنّي لمُغتمُ علىٰ مفارقتك فأوحىٰ اللّه اليه يامحمّد صلى الله عليه وآله وسلم أنّ العلّي الأعلىٰ يقرؤك السّلام و

١- التوبة= ٣٣

يقول سأردك الیٰ هذا البَلَد ظافراً غانماً سالماً قادراً قاهراً و ذلك قوله أنّ الّذي فرض عليك القرأن لَرادّك الیٰ معادٍ، يعني مكّة غانماً ظافراً فأخبَر بذلك رسول اللّه أصحابه فإتّصل بأهل مكّة فَسخروا منه فقال اللّه لرسوله سوف يظفرك اللّه بمكّة ويجري عليهم حكمي و سوفَ أمنع من دخولها المشركين حتّیٰ لا يدخلها أحدٌ منهم إلاّ خائفاً أن دخلها مستخفّياً من أنّه أن عُثر عليهم قتل فلمّا حَتم قضاء الحقّ بفتح مكّة وإستوثقت له أمَّر عليهم عتاب بن أسيد فلمّا إتّصل خبره قالوا أنّ محمّداً لا يزال يستّخف بنا حتّیٰ ولّیٰ علينا غلاماً حدث السِّن ابن ثمانية عشر سَنة ونحن مشايخ ذوو الأسنان و جيران حَرم اللّه الأمن وخير بُقعةٍ علیٰ وجه الأرض وكتب رسول اللّه لعتاب ابن أسَيد عَهداً علیٰ مكّة وكتب في أوّله بسم اللّه الرّحمٰن الرّحيم، من محمّدٍ رسول اللّه الیٰ جيران بيت المقدّس و سكّان حرم اللّه أمّا بَعد وذَكر العهد وقرأه عتاب ابن أسيد علیٰ أهل مكّة ثمّ بعث رسول اللّه ﷺ بعشر أياتٍ من سورة براءة مع أبیبكر ابن أبي قحافة فيها ذَكر نبذ العَهد الیٰ الكافرين وتحريم قرب مكّة على المشركين و أمر أبا بكر علیٰ الحجّ يبّتهج لمن ضمّه الموسم و يقرأ الأيات عليهم فلمّا صدر عنه أبو بكر جاء المطوف بالنّور جَبرئيل فقال يا محمّد أنّ العلّي الأعلیٰ يقرؤك السّلام و يقول يا محمّد لا يُؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك فإبعث علّياً ليتناول الأيات فيكون هو الّذي ينبذ العهود و يقرأ الأيات و قال جبرئيل يامحمّد ما أمَرك ربّك بدفعها الیٰ علّي و نزعها من أبیبكر سهواً و لا شكّاً و لا إستدراكاً علیٰ نفسه غلطاً و لكن أراد أن يُبّين لضعفاء من أمّتك المسلمين أنّ المقام الّذي يقومه أخوك علّی لَن يقومه غير سواك و



أن جلت في عيون هؤلاء الضّعفاء مرتبته و شرفت عندهم منزلته فلمّا انتزع علّيُ الأيات من يده لقىٰ أبو بكر بعد ذلك رسول اللّه فقال بأبي أنت و أُمّي لموجدةٍ كان نزع هذه الأيات منّي فقال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لا و لكن العلّي العظيم أمرني ألاّ ينوب عنّي من هو منّي و أمّا أنت فقد عوّضك اللّه بما حملك من أياته و كلّفك من طاعته الدّرجات الرّفيعة و المراتب الشّريفة أما أنّك أن أدمت علىٰ مولاتنا ووافيتنا في عرصات القيامة وَ فَينا بما أخَذنا به عليك من العُهود و المواثيق من خيار شيعتنا وكرام أهل موّدتنا فسرىٰ بذلك عن أبي بكر فمضىٰ علّيُ لأمر اللّه و نبذ العُهود الىٰ أعداء اللّه وآيسَ المشركون من دخولهم بعد عامهم ذلك الىٰ حَرم اللّه و كانوا عَدداً كثيراً و جمّاً غفيراً غشاهم اللّه نوره وكساهم فيهم هيبةً وجلالاً لَم يجسروا معها علىٰ إظهار خلاف ولا قصدٍ بسوء قال عليه السلام: و ذلك قوله تعالىٰ: **وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ اَنْ يُّذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ** و هي مساجد خيار المؤمنين بمكّة لمّا مَنعوهم من التّعبد فيها وألجاؤوا رسُول اللّه الىٰ الخُروج عن مكّة وسَعوا في خرابها خراب تلك المساجد لئلاّ تعمر بطاعة اللّه قال اللّه تعالىٰ: **اُولٰٓئِكَ مٰا كٰانَ لَهُمْ اَنْ يَّدْخُلُوهٰٓا اِلاّٰ خٰآئِفينَ** أن يدخلوا بقاع تلك المساجد في الحَرم إلاّ خائفين من عذابه وحُكمه النّافذ عليهم أن يدخلوها كافرين بسيُوفه و سياطه لهم لهؤلاء المشركين في الدّنيا وخزيٌ وهو طرده إيّاهم عن الحَرم ومنعهم أن يعوذوا اليه ولهم في الأخرة عذابٌ عظيم انتهىٰ.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَاَيْنَمٰا تُوَلّوُا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ وٰاسِعٌ عَليمٌ** إختلفوا في سبب نزول الآية فمنهم من قال لمّا أنكرت

اليهود تحويل القبلة عن بيت المقدّس الىٰ الكعبة نزلت هذه الآية رَدّاً عليهم وبيّنوا أنّه سبحانه ليس في جهةٍ دون جهةٍ كما يقول المجسّمة و قيل أنّ المسلمين كانوا يتوجّهُون في صلاتهم حيث شاؤوا وفيه نزلت الآية ثمّ نسخ ذلك بقوله فوَّل وجهك شطر المسجد الحرام قاله قتادة و قيل نزلت في صلاة التّطوع علىٰ الرّاحلة تصّليها حيث ما تَوّجهت اذا كنت في سَفرٍ و أمّا الفرائض فقوله و حيثما كنتم فَولّوا وجوهكم شَطره يعني أنّ الفرائض لا تصلّيها إلاّ الىٰ القبلة و هذا هو المروّي عن ائمّتنا نَقَل هذه الأقوال الطّبرسي في المجمع و قال القُرطبي من العّامة إختلف العُلماء في المعنىٰ الّذي نَزلت فيه، فأينما تولّو، علىٰ خمسة أقوال فقال عبد اللّه إبن أبي عامر بن ربيعة نزلت فيمن صلّى الىٰ غير القبلة في ليلةٍ مظلمةٍ أخرجه التّرمذي عنه عن أبيه قال كنّا معَ النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم في سفرٍ في ليلةٍ مظلمةٍ فلم ندر أين القبلة فصّلىٰ كلّ رجلٍ منّا علىٰ حياله فلّما أَصبحنا ذَكرنا ذلك لِلنّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فنزلت الآية **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ** أقول لقائل أن يقول هذا الحديث يُكذّب نفسه لأنّهم لو كانوا مع النّبي وصَلّوا كذلك ولم يسئلوا عنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم فهُم مقصّرون، وإن سئلوا عنه و هو أَيضاً لم يَعلم القبلة فكيف يكون نبّياً وان عَلم بها فكيف لَم يُخبرهم بها ثمّ قال الُقرطبي و ذهب أكثر أهل العلم الىٰ هذا و ساق الكلام الىٰ أن قال نقلاً عن صحيح مُسلم قال كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم يُصلّي هو مُقبلٌ من مكّة الىٰ المدينة علىٰ راحلة حيث كان وَجهُه قال وفيه **نَزلت فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ**.

أقول و بذلك زاد القُرطبي في الطّنبور نغمةً أخرىٰ أعاذنا اللّه منه، أمّا سائر قواله فقد مضىٰ الكلام فيها في نقل الأقول، ثمّ أنّ الشّيخ قدّس سرّه في التّبيان بعد نقله الأقوال قال و قيل معناه فَثمّ وجه اللّه فأدعُوه كيف توجّهتم، و قال آخرون و أختاره الرّماني والجبائي، فَثّم رضوان اللّه كما يقال هذا وجه العَمل و هذا وجه الصَّواب و كأنّه قال الوَجه الّذي يؤدّي الىٰ رضوان اللّه و تقديرو إتّصالها

بما قبلها كأنّه قال، لا يمنعكم تَخريب من خرب المساجد أن تَذكروه حيث كنتم من أيّ وجهٍ و لَه المشرق والمغرب والجهات كلّها إنتهىٰ.

أقول والّذي يستفاد من الأخبار أنّها نَزَلت في صلوة النّافلة فصّلِها حيث تَوجهتَ إذا كُنتَ في سَفَرٍ و أمّا الفرائض فقوله تعالىٰ: **وَ حَيْثُ مٰا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**[1] يعني الفَرائض لا يصلّيها إلاّ الىٰ القبلة.

فعن عن تَفسير العياشي بأسناده قال: قال أبو جعفر نزلت هذه الأية في التّطوع خاصّة فَاَيْنَمٰا تُوَلّوُا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ وصلّىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إيماءاً علىٰ راحلته أينما توجّهت به حين خَرج الىٰ خيبر وحين رَجع من مكّة و جعل الكعبة خلف ظهره قال: قال زرارة قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام في السّفينة والمُحمل سواء قال عليه السلام النّافلة كلّها سواء توئي إيماءاً أينما توجّهت دابّتك وسفينتك والفريضة تَنزل بها من المُحمل الىٰ الأرض إلاّ من خوفٍ فأن خِفت أومأتَ و أمّا السّفينة فَصّلِ فيها قائماً و توجّه الىٰ القبلة بِجُهدك كان نوح قد صلّىٰ الفريضة فيها قائماً مُتّوجها الىٰ القبلة و هي مطبقة عليهم قال قلتُ و ما كان علمه بالقبلة فَيتّوجهها و هي مطبقة عليهم. قال جبرئيل يقّومها نحوها قال أفأتّوجه نحوها في كلّ تكبيرة قال أمّا في النافّلة فلا إنّما تكبر في النافّلة علىٰ غير القبلة ثمّ قال كلّ ذلك قبلة لِلمتنقّل أنّه قال و حيثما كنتم فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ وٰاسِعٌ عَلِيمٌ إنتهىٰ.

أقول والأخبار بهذه المضامين كثيرة فلا تدخل فيما نحن فيه صلٰوة الفريضة و هو واضح

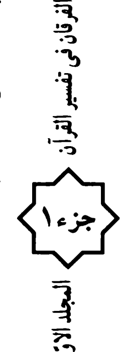
١- البقرة= ١٤٤

فصل إختلف النّاس في المراد بالوَجه المضاف الىٰ اللّه تعالىٰ في القرآن و السنّة فقال بعضهم أنّ ذلك راجع الىٰ الوجود و العبارة عنه بالوجه من مجاز الكلام إذ كان الوَجه أَظَهر الأعضاء في الشّاهد و أجّلها قدراً، و قال إبن فُورك قد تذكر صفة الشّيْ والمراد بها الموصوف توسّعاً كما يقال رأيت علم فلان اليوم و نظرتُ الىٰ علمه و إنّما يريد بذلك رأيتُ العالم و نظرتُ الىٰ العالم كذلك إذا ذَكر الوجه هنا والمراد من له الوَجه أي الوجود و علىٰ هذا يتّأول قوله تعالىٰ: **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ**[1] لأنّ المراد به لالّه لِّذي له الوَجه وكذلك قوله، إلاّ إبتغاء وجه ربّه الأعلىٰ، الّذي له الوجه و قال إبن عبّاس الوجه عبارة عنه عزّ وجلّ كما قال و يبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام، و قال بعضٌ، تَلك صفة ثابتة بالسّمع زائدة علىٰ ما تُوجبه العقول من صفات القديم تعالىٰ، و قيل المراد بالوجه هنا الجهّة الّتي وجّهنا اليها أي القبلة، و قيل الوَجه القَصد كما قال الشّاعر:

أستغفر اللّه ذَنباً لستُ مُحصيه رّبّ العباد اليه الوجَه والعَمَل

و قيل المعنىٰ فثمّ رضىٰ اللّه وثوابه ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: من بنىٰ مَسجداً يبتغي وجه اللّه بنىٰ اللّه له مثله في الجنّة، و قيل المراد فثمّ اللّه والوجه صلة كقوله تعالىٰ و هو مَعَكم هذه الأقوال ذكرها القرطبي في تفسيره، و قال الطّبري في تفسيره لهذا الكلام قوله **فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** أي فَثّم قبلة اللّه يعني بذلك وجهه الّذي وجهّهم اليه و نقل عن بعض أنّه قال أي فَثمّ اللّه تبارك و تعالىٰ و عن آخر أي فثّمّ تدركون بالتوجّه اليه رضىٰ اللّه الّذي له الوجه الكريم و أمثال ذلك من الأقوال، و أمّا المفسّرون من الشّيعة فنقلوا هذه الأقوال أو بعضها من غير ترجيح بعضها علىٰ بعضٍ.

و أنا أقول الوجَه إذا أُضيف الىٰ اللّه تعالىٰ فالمراد به ذاته البَسيطة و قد ثبت



١- الانسان = ٨

أنّ ذاته تعالىٰ منزّه عن المكان والجِهَة والوضع والكيف وأمثال ذلك مِمّا هو مُتعّلقٌ بالأجسام فالأية و أمثالها لِنفيِ الجهة عنه تعالىٰ إذ لو كان في جهةٍ من الجّهات لما يصدق أينّما تولّوا فثّم وجه اللّه و تقريره إجمالاً أنّ الجِهَة أمرٌ ممتدّ في الوَهم طولاً وعرضاً و عمقاً فلو كان اللّه تعالىٰ في جهةٍ من الجّهات من الفوق والتَّحت و الشّرق و الغرب و الشّمال و الجنوب وكان المُصّلي محاذياً لإحدىٰ الجهات فهو لا محال لا يحاذي جهةً أخرىٰ فلا يصدّق **أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** وحيث أنّ اللّه تعالىٰ قال كذلك فهو دليل علىٰ أنّ ذاته تعالىٰ ليس في جهةٍ خاصّة معينّةٍ ونسبة الذّات الىٰ كلّ الجهات سواء فَنَستكشف منه أنّه تعالىٰ ليس بجسم و لا أنّه في وضعٍ و مكانٍ فهو في كلّ مكان و ليس له مكان خاصّ و في كلّ الجهات وليست لَه جهَة مُعينّة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام و مَن جهله فقد أشار اليه ومن أشار اليه فقد صدّه، و مَن صدّه فقد عدّه و من قال فيم فقد ضَمنّه و من قال علىٰ مَ فقد أخلىٰ منه، كائنٌ لا عن حدثٍ موجودٌ لا عن عدمٍ، مع كلّ شَيْ‌ءٍ لا بمقارنةٍ و غير كلّ شيْ‌ءٍ لا بمزايلة، فاعلٌ لا بمعنىٰ الحَركات والآلة، بصير إذ لا منظور اليه مِن خَلَقه ألخ وقد أَوَضحنا وفسّرنا هذه الكلمات في شرحنا علىٰ نهج البلاغة بما لا مزيد عليه إن شِئت فراجعه هذا أوّلاً وثانياً في هذه الآية دلالة علىٰ أنه تعالىٰ خالق الجّهات و ذلک لأنّ الجهّة كما قلنا ممتّد في الطول و العرض و العمق ولو وهماً و كلّ ما كان كذلك فهو منقسم لا محال و كلّ منقسم فهو مؤلّف مرّكب و كلّ مرّكبٍ لا بّد له من خالقٍ و مُوجدٍ والسّر فيه هو أنّ المرّكب محتاج الىٰ الأجزاء وكلّ محتاج ممكن و كلّ ممكنٍ محتاج الىٰ الخالق الواجب دفعاً للدور والتّسلسل كما ثبت في محلّه فالجهة أيّة جهةٍ كانت تحتاج في حدوثها و بقاءها الىٰ الخالق و هو المطلوب.

فلو كان الخالق متّصفاً بها يلزم تقدّم الشّي‌ءٍ علىٰ نفسه و هو محال فثبت أنّه

تعالىٰ منزّهٌ عن الجّهات ومع ذلك موجود في جميع الجّهات كما هـو شأن العِلّة بالنّسبة الىٰ معلولها فيصدق أينما تولّوا فثّم وجه اللّه، إذ المُصّلي وغيره واقع في الجهّة مُتوجّه الىٰ الجّهة و هي لا تخلو منه تعالىٰ أبداً و سيأتي لهذا البحث تفصيل وتوضيح آخر عند قوله تعالىٰ: **كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ،وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ** [۱] إنشاء اللّه تعالىٰ.

و أمّا قوله تعالىٰ: **إِنَّ اللّٰهَ واسِعٌ عَلِيمٌ** فقيل في معناه أي يوسّع علىٰ عباده في دينهم و لا يُكلّفهم ما ليس في وُسعهم كما قـال: **لا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلّا وُسْعَها** [۲] و قيل أي يَسع عِلمه كلّ شيئ كما قال وسع كلّ شيئ عِلماً، و قال الفّراء الواسع هو الجواد الّذي يَسع عطاءه كلّ شيئٍ، قال اللّه تعالىٰ: **وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** [۳]

و قيل واسع المغفرة أي لا يتّعاظم ذنبٌ و قيل أي متفضّلٌ علىٰ العباد وغنّيٌ عن أعمالهم كما قال: **لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ** [۴] أي لِيُنفق الغنّي ممّا أعطاهُ اللّه و يُحتمل أن يكون المراد أنّ وجوده تعالىٰ و هو عين ذاته وسعة كلّ شيئ بمعنىٰ أنّ تخصيصه بجهةٍ من الجّهات يُوجب التّضييق في ذاته و وجوده و حيث أنّه قال في الجملة السّابقة **أَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ** فلازم ذلك خروج ذاته من الجهات وإحاطته بها والسّعة الإحاطة وفي قوله **عليم** إشارة الىٰ أنّه أينما تولّوا فهو تعالىٰ عالم بكم لا يخفىٰ عليه شيئ لأنّ علمه عين ذاته ووجوده فكأنّه قال أنّ اللّه تعالىٰ بذاته وعلمه يَسع الجّهات ومُحيطٌ بـها لا تختلف الجهات بالنّسبة اليه فهو معكم أينما كنتم بل هو أقرب اليكم من حبل الوريد صَدَق اللّه تعالىٰ.

وَقالُوا اتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ

۱- الرحمن = ۲۷/۲۶
۲- البقرة = ۲۸۶
۳- الاعراف = ۱۵۶
۴- الطلاق= ۷

قَانِتُونَ المراد بهذه الآية النّصارىٰ لقولهم المَسيح ابن اللّه و قيل اليهود لقولهم عُزير ابن اللّه و قيل أنّ الآية إخبار عن مشركي العَرب حيث قالوا الملائكة بنات اللّه وقد جاء مثل هذه الأخبار عن الجهّلة الكفّار في مريم والأنبياء و كيف كان فقد ذمّهم اللّه تعالىٰ علىٰ قولهم هذا قال بعض المفسّرين في الآية دلالة علىٰ أنّه لا يجوز له الوَلد علىٰ وجهٍ من الوجوه لأنّه اذا كان جميع ما في السّموات والأرض مُلكاً له، فالمسيح عبد مربوب و كذلك عُزير والملائكة المقرّبون و لانّ الوَلد لا يكون إلاّ من جنس الوالد و لا يكون المفعول إلاّ من جنس الفاعل وكلّ جسمٍ فعلٌ لِلّه فلا مثل له و لا نظير علىٰ وجهٍ من الوجوه تعالىٰ اللّه عن صفات المَخلوقين و لذلك قال تعالىٰ سُبحانه، فأنّ سُبحان منصوبٌ علىٰ المصدر و معناه التبرّئة والتنزّيه والمحاشاة من قولهم إتّخذ اللّه ولداً بل هو اللّه تعالىٰ واحدٌ في ذاته أحدٌ في صفاته لَم يَلد فيحتاج الىٰ صاحبة كما قال، أنّىٰ يكون له ولَدٌ ولم تَكُن له صاحبة وخَلَق كلّ شيءٍ، ولَم يُولد فيكون مَسبُوقا جلّ وتعالىٰ عمّا يقول الظّالمون ونحن نقول تفسير يستدّعي التّكلم فيها علىٰ وجهٍ أبسط.

فنقول **الوَلَد، المولود** يقال للواحد والجمع والصّغير والكبير وجمع الوَلَد، أولاد و قيل الوُلد بضمّ **الواو** أيضاً جمع الوَلَد نحو أَسَد واسد واللّه تعالىٰ منّزهٌ عن أن يكون له ولد والدّليل عليه من وجوهٍ.

أحدها: أنّ **الوَلَد** لا بدّ وأن يكون من جنس الوالد وإلاّ لا يكون وَلَدا له فلو فرضنا له تعالىٰ ولَداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه ممتازاً عنه من وجهٍ آخر و ذلك يقتضي كون كلّ واحدٍ منهما أي الوالد والوَلَد، مركّباً محدثاً و ذلك محال فإذاً المجانسة مُمتنعة فالولّدية ممتنعة و هو المطلوب بيان ذلك إجمالاً إنّا قلنا أنّ الوَلد من جنس الوالد منفصلٌ عنه فلو لم يكن الوالد مركّباً فكيف يَنفصل منه شيءفإذاً ثبت أنّه مركّب و إذا كان مركّباً فهو حادث لا محالة لأنّ

المرّكب محتاج الىٰ أجزائه و كلّ محتاج ممكن حادث فهو حادث فإذا كان الوالد مركّباً مُحدثاً فالوَلَد مثله و إذا كان حادثين فهما مخلوقان لغيرهما لأنّ الحدُوث أن كان ذاتياً فهو مسبوق بالعلّة و أن كان زمانّياً فهو مسبوق بالعَدم و علىٰ كلا التقدّيرين محتاج الىٰ المؤثر والمؤثر لا يكون حادثاً للزومه التسّلسل فلا محالة يكون قديماً و هو الواجب المنزّه عن الحُدوث فالوالد والوَلَد مخلوقان للواجب الوجود و هو المطلوب.

ثانيها: أنّ هذا الّذي أُضيف اليه بأنّه **وَلَده** أمّا أن يكون قديماً أزّلياً أو مُحدثاً مُمكناً والأوّل محال لأنّه مسبوق بالغير أعني به والدد فهو حادث ذاتي والحادث لا يكون قديماً و إذا كان حادثاً فكيف يكون من جنس القديم والمفروض أنّ الوَلَد من جنس الوالد و إذا لم يكن من جنسه فلا يكون ولداً و هو المطلوب.

أن قلت لانسّلم كونه حادثاً بل نقول أنّه أزّلي كوالده قلتُ هذا غير معقول لأنّ الولَد يُوجد بعد الوالد و منه فكيف يكون أزّلياً و علىٰ فرض التّسليم نقول لو كانا أزّليين لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والأخر والداً بأولىٰ من العكس و هو كما ترىٰ.

ثالثها: أنّ **الولَد** أنّما يتّخذ لِلحاجة اليه أمّا من لا يصّح عليه العَجز والحاجة لا يصحّ له الولَد أيضاً.

رابعها: ما إستدّل عليه سبحانه و تعالىٰ من قوله: **بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ** و تقرير الإستدلال بكلامه تعالىٰ أنّ الموجود علىٰ قسمين.

واجب و ممكن، والواجب ما يكون وجوده من نفسه والممكن ما يكون وجوده من غيره، والذّي وجوده من نفسه مُنحصرٌ في الخارج بذاته تعالىٰ كما ثبت في محلّه فما سواه كائناً من كان ممكنٌ موجودٌ به فكلّ ما سوىٰ الواجب

ممكن لذاته و كلّ ممكن حادث لأنّه نخلوق لغيره موجود به و لا نعني بالحدوث إلاّ هذا فإذا فرضنا له ولداً فلا محالة يكون من سنخ الممكن لأنّه مخلوق له علىٰ الفرض وكلّ ممكن فهو محتاج الىٰ المؤثر و تأثير ذلك المؤثر فيه أمّا أن يكون حال عَدمه أو حال وجوده فأن كان الأوّل فذلك الممكن محدث و أن كان الثّاني فإحتياج ذلك الموجود الىٰ المؤثّر أمّا أن يكون حال بقاءه أو حال حدوثه والأوّل محال لأنّه من تحصيل الحاصل فتّعين الثّاني و ذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فَثَبت أنّ كلّ ما سوىٰ اللّه مُحدَث سبوق بالعدم و أنّ وجوده أنّما حَصَل بخلق اللّه تعالىٰ و إيجاده و إبداعه فكلّ ما سواه فهو عبده و ملكه فيستحيل أن يكون شئ ممّا سواه ولَداً له و هو المطلوب و الىٰ ذلك أشير بقوله: **بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قٰانِتُونَ** بعد قوله سبحانه سبحان اللّه تعالىٰ أن يكون له ولدٌ بل كلّ ما سواه مخلوق له متصّف بالإمكان والحُدوث و أمّا قوله: **كُلٌّ لَّهُ قٰانِتُونَ** القنُوت في الأصل الدّوام ثمّ إستعمل علىٰ أربعة أوجه.

أحدها: الطّاقة كقوله تعالىٰ: **يٰا مَرْيَمُ اَقْنُتي لِرَبِّكِ**.

ثانيها: طول القيام كقوله ﷺ **لما سُئل أي الصّلاة أفضل قال طول القنُوت، أي طول القيام.**

ثالثها: السّكوت لقوله تعالىٰ: **وَ قُومُوا لِلّٰهِ قٰانِتِينَ**.

رابعها؛ الدّوام و هو معناه الأصلي في اللّغة ثمّ أنّ التّنوين في قوله كلٌّ أي كلّ ما في السّموات والأرض قانتون مُطيعون فهو عوضٌ عن المضاف اليه و من المعلوم أنّ الكفّار ليسوا بقانتين مُطيعين لِلّٰه تعالىٰ مع أنّهم داخلون في قوله: **مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ** و بعبارةٍ كيف قال اللّه تعالىٰ: **بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قٰانِتُونَ** أي مُطيعون منقادون مع أنّ الواقع بخلافه فأنّ الكفّار ليسوا كذلك فحقّ الكلام أن يقال بعضٌ له قانتون والجواب عن هذا الإشكال من وجهين:

أحَدهما: أنّ المراد من الإنقياد والطّاعة التّكويني لا التّشريعي و ذلك لأنّ التّكليف ثابت لذوي العقول وليس كلّ ما في السّموات والأرض بمكلّفٍ فأنّ منه الجمادات والنباتات والحيوانات و هم ليسوا بمُكلّفين و عليه فمعنىٰ كلّ ما في السّموات والأرض له خاضع متذّلل بالإنقياد التّكويني أعني به الإيجادي و منه قوله تعالىٰ: **وَ لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَ كَرْهًا**[1] أي إنقاد له من في السّموات والأرض، و قوله فقال لها وللأرض أئتيا طَوعاً قالتا أتينا طائعين.

ثانيهما: أن يكون **الواو** في قوله: و **كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ** للإستئناف والمراد بالكلّ كلّ هؤلاء الّذين حَكموا عليهم بالوَلد أعني بهم المسيح والملائكة و عُزير و غيرهم والمعنىٰ كلّ هؤلاء الّذين يزعمون أنّهم وَلَد له تعالىٰ قانتون له أي مُطيعون مُنقادون تشريعاً فكيف تدّعُون فيهم أنّهم وَلَد له نقل بعض المفسّرين من العامّة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال بعض النّصارىٰ لولا تَمّرد عيسىٰ عن عبادة اللّه لصرتُ علىٰ دينه فقال النّصراني كيف يجوز أن يُنسب ذلك الىٰ عيسىٰ مع جدّه في طاعة اللّه فقال له علّي أن كان عيسىٰ إلٰهاً كما تقولون فكيف يعبد غيره أنّما العبد هو الّذي يليق به العبادة فإنقطع النّصراني، و في المقام إحتمال ثالث و هو أن يُحمل القنُوت علىٰ معناه اللّغوي أعني به الدّوام و الثّبات و عليه فمعنىٰ الآية أن دوام الممكنات و بقاؤها به سبحانه ففيه إشارة الىٰ أنّ العالم كما أنّه في حدوثه كان محتاجاً الىٰ المؤثر كذلك في بقاءه وإستمراره محتاج اليه فالممكن محتاج اليه في حدوثه و بقاءه و هو كذلك.

■

١- آل عمران = ٨٣

بَديعُ السَّمٰوٰاتِ وَالْاَرْضِ وَاِذٰا قَضىٰٓ اَمْراً اَفَاِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقٰالَ الَّذينَ لاٰ يَعْلَمُونَ لَوْلاٰ يُكَلِّمُنَا اللّٰهُ اَوْ تَأْتينٰاآ ايَةٌ كَذٰلِكَ قٰالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشٰابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ اِنّٰآ اَرْسَلْنٰاكَ بِالْحَقِّ بَشيراً وَنَذيراً وَلاٰ تُسْأَلُ عَنْ اَصْحٰابِ الْجَحيمِ ﴿١١٩﴾

◁ اللّغة

بَديعُ: الإبداع إنشاء صنعةٍ بلا إحتذاءٍ وإقتداءٍ واذا أُستعمل في اللّه فهو إيحاد الشّئِ بغير ألةٍ و لا مادّةٍ و لازمانٍ و لا مكانٍ و ليس ذلك إلاّ لِلّه تعالىٰ والبديع من أسماء اللّه تعالىٰ بمعنىٰ المُبدع.

قَضىٰٓ: القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً وكلّ واحدٍ منهما علىٰ وجهين، إلٰهيّ و بشري فَمن الإلٰهي قوله: **وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلّاَ تَعْبُدُوٓا إِلّآ إِيّاهُ**[1] أي أمَر بذلك و قوله: **وَ قَضَيْنآ إِلىٰ بَنىٓ إِسْرٰآئيلَ فِى ٱلْكِتٰابِ**[2] فهذا قضاء بالإعلام والفَصل في الحُكم.

◁ الإعراب

وَاِذٰا قَضىٰٓ **اذا** ظرف والعامل فيها ما دّل عليه الجواب تقديره و اذا قضى أمراً يكون **فَيَكُونُ** الجمهور علىٰ الرّفع عطفاً علىٰ، يقول، أو علىٰ الإستئناف أي فهو يكون **لَوْلاٰ يُكَلِّمُنَا اللّٰهُ**، **لَولا** للخصيص لأنّ بعدها المستقبل فأن كان بعدها الماضي فمعناها التّوبيخ **كَذٰلِكَ قٰالَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ** يظهر من إعراب الموضع الأوّل الىٰ هنا ما يحتمله هذا الموضع **اِنّٰآ اَرْسَلْنٰاكَ بِالْحَقِّ**

١- الاسراء = ٢٣

٢- الاسراء = ٤

الجار و المجرور في موضع نصب علىٰ الحال من المفعول تقديره أرسَلناك و مَعك الحقّ و يجوز أن يكون حالاً من الفاعل أي و مَعنا الحقّ و أن يكون مفعولاً به أي بسبب إقامة الحقّ.

◁ التّفسير

قوله: **بَدِيعُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذٰا قَضىٰ أَمْراً فَإِنَّمٰا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** لمّا قال اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة **سبحانه بَلْ لَهُ مٰا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰانِتُونَ** إشار في هذه الآية بكيفيّة إيجاد السّموات والأرض و أنّ الخلق فيها إبدّاعيٌ بلا إحتذاء وإقتداء لا عن مادّةٍ و لا في زمانٍ أي أنّه تعالىٰ أوجَد السّموات والأرض علىٰ وجه الإبداع الّذي لا يمكن لأحدٍ غيره و فيه إشارة الىٰ كمال قدرته و قوله و اذا قضى أمراً فأنّما يقول له **يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ففيه وجوه.

أحدها: أنّ القضاء فصل الأمر قولاًكان ذلك أو فعلاً وكلّ واحدٍ منهما علىٰ وجهين، إلٰهيّ و بَشريّ، فَمن الإلٰهي قوله :**وَ قَضىٰ رَبُّكَ أَلّاٰ تَعْبُدُوٓا إِلّآ إِيّٰاهُ** أي أنّه تعالىٰ أمَر بذلك و قوله تعالىٰ:**وَ قَضَيْنآ إِلىٰ بَنىٓ إِسْرٰآئيلَ فِى ٱلْكِتٰابِ** فهذا قضاء بالإعلام والفصل في الحُكم أي أعلمناهم وأوصينا اليهم وحَياً جزماً ومن الفعل الإلٰهي:

قال اللّه تعالى: **وَ ٱللّٰهُ يَقْضي بِالْحَقِّ وَ ٱلَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ**[1].

قال اللّه تعالى: **فَقَضيٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ في يَوْمَيْنِ**[2].

إشارة الىٰ فِعله و هو إيجاده الإبدّاعي و أمّا قوله: ولولا أجَلٌ مُسمىٰ لقَضي بينهم، الآية أي لَفَصل هذا في القول والفعل الإلٰهي ومن القول البَشري نحو



١- غافر = ٢٠
٢- الفصلت = ١٢

قضیٰ الحاكم بكذا فأنّ حُكم الحاكم يكون بالقول و من الفعل البَشرى:

قال اللّه تعالیٰ: **فَإِذاٰ قَضَيْتُمْ مَناٰسِكَكُمْ**[1].

قال اللّه تعالیٰ: **ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ**[2]

و أمثال ذلك من الأيات أي فَرغُوا أو أفرغُوا من أمركم

و أمّا قوله تعالیٰ: **فَاقْضِ مآٰ أَنْتَ قاٰضٍ**[3]

قال اللّه تعالیٰ: **إِنَّمٰا تَقْضِي هٰذِهِ ٱلْحَيٰوةَ ٱلدُّنْيآ**[4]

وقول الشّاعر:

قَــضيتُ أُمــوراً ثــمّ غــادرتُ

بعدها و أمثالها فيحتمل القضاء بالقول و الفعل جميعاً ويُعبّر عن الموت بالقضاء فيقال فلان قضیٰ نَحبه كأنّه فصل أمره المختّص به من دنياه.

ثانيهما: أنّ لفظ القضاء في الكتاب والسنّة علیٰ وجوهٍ:

الأوّل: بمعنیٰ الخلق و منه.

قال اللّه تعالیٰ: **فَقَضٰيهُنَّ سَبْعَ سَمٰوٰاتٍ** يعني خَلَقهنّ

ثانيها: بمعنیٰ الأمر.

قال اللّه تعالیٰ: **وَ قَضٰى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيّٰاهُ**

ثالثها: بمعنیٰ الحكم ولهذا يقال للحاكم القاضي

رابعها:، بمعنیٰ الأخبار ومنه.

قال اللّه تعالیٰ: **وَ قَضَيْنآ إِلٰى بَنِىٓ إِسْرٰآئيلَ فِى ٱلْكِتٰابِ** أي أخبَرناهم.

خامسها: أن يأتي بمعنیٰ الفراغ من الشّئ.

قال اللّه تعالیٰ: **فَلَمّٰا قُضِىَ وَلَّوْا إِلٰى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ**[5] يعني لمّا فَرغ من ذلك.

۱- البقرة= ۲۰۰
۲- الحج = ۲۹
۳- طه = ۷۲
۴- طه = ۷۲
۵- الاحقاف =۲۹

سادسها: أنّ القضاء.

قال اللّه تعالىٰ: **واذا قَضىٰ ربّك.**

يحتمل أن يكون بمعنىٰ الخلق ويحتمل أن يكون بمعنىٰ الحُكم أي اذا حكم و بمعنىٰ الفعل أي اذا فَعل أمراً و قيل معناه أحكم أمراً و منه قول الشّاعر:

وعليهما مسرُورتان قضاهما داود أو صَنَع السّوابق تبّعُ

سابعها: أنّ لفظ الأمر حقيقة في القول المخصوص وهل هو حقيقة في الفِعل والشّأن أو مجاز فيه قيل حقيقته فيه و هو المراد بالأمر في المقام.

ثالثهما: أنّه ليس المراد من قوله تعالىٰ: **فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** هو أنّه تعالىٰ يقول له كُن، فحينئذٍ يتّكون ذلك الشّئ و ذلك لوجوه:

الأوّل: أنّ قوله: **كُنْ فَيَكُونُ** أمّا أن يكون قديماً أو مُحدثاً والقسمان فاسدان فَبطل القول بتوقف حدوث الأشياء علىٰ كُن، و أنّما قلنا لا يجوز أن يكون قديماً لوجوهٍ ثلاثة:

أحدها: أنّ هذه الكلمة مرّكبة من الكاف و النّون بشرط تقدّم الكاف علىٰ النّون فالنّون لكونه مسبوقاً بالكاف يكون محدثاً والكاف لكونه متقدّماً علىٰ المُحدث بزمانٍ واحد يجب أن يكون محدثاً أيضاً والمُحدث لا يكون قديماً و هو المطلوب.

ثانيها: أنّ كلمة «اذا» لا تدخل إلاّ علىٰ سبيل الإستقبال فذلك القضاء لابدّ وأن يكون محدثاً لأنّه دَخَل عليه حرف اذا، و قوله كُن، مرّتب علىٰ القضاء بفاء التّعقيب لأنّه تعالىٰ قال: **فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** والمُتأخر عن المحدث بإستحال أن يكون قديماً و هو المطلوب.

ثالثها: أنّه تعالىٰ رتَّب كون المخلوق علىٰ قوله: **كُنْ** بفاء التّعقيب فيكون قوله كُن، مقدّماً علىٰ تكّون المخلوق بزمانٍ واحدٍ والمتقدّم علىٰ المُحدث



بزمانٍ واحدٍ يكون محدثاً فقوله كُن، لا يجوز أن يكون قديماً و هو المطلوب.

و أمّا أنّه ليس بمحدثٍ لأنّه لو إفتقر كلّ محدث في وجوده الیٰ قوله: **كُنْ** والمفروض أنّ قوله: **كُنْ** أيضاً محدث يلزم إفتقار كن الیٰ كَن، أخر و هو مستلزم للتّسلسل أو الدّور وهما محالان فَثَبت أنّه لا يجوز توّقف أحداث الحوادث علیٰ قوله: **كُنْ** و هو المطلوب، و استّدل علیٰ المدّعیٰ أيضاً بأنّه تعالیٰ أمّا أن يخاطب المخلوق بكلمة، كُن حال عَدمه أو حال وجوده وكلاهما باطلان أمّا الأوّل فلأنّ المعلوم في حال عَدمه لا يخاطب بشيٍ.

أمّا الثّانی: فلأنّه من قبيل تحصيل الحاصل و هو ممّا لا فائدة فيه أن لم يكن عَبَثاً.

برهان أخر، أنّ المخلوق قد يكون جماداً و تكليف الجماد عَبث و لا يليق بالحكيم.

و أيضاً أنّ القادر هو الّذي يصحّ منه الفعل فاذا فَرضنا القادر المُريد مُنّفكاً عن قوله: **كُنْ** فأمّا أن يتمكّن من الإيجاد والإحداث أو لا يتمكّن فأن تمَكن لم يكن الإيجاد موقوفاً علیٰ قوله: **كُنْ** و أن لم يتّمكن يلزم أن لا يكون القادر قادراً علیٰ الفعل إلاّ عند تكلّمه بكلمة **كُن** و هو كما ترىٰ.

و أيضاً قوله: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** [1] بيّن اللّه تعالیٰ أنّ قوله كُن مُتّأخراً عن خَلقه والمُتّأخر عن الشّئ لا يكون مؤثّراً في المتّقدم عليه فَعلِمنا أنه لا تأثير لقوله: **كُنْ** في وجود الشّئ فظهر بهذه الوُجوه فساد هذا المَذهَب أقول فهذه هي الوجوه الّتي أقامُوها في المقام عَقلاً في الآية.

و نحن نقول أن كان مرادهم أنّ اللّه تعالیٰ لم يتكلّم بهذه الحُروف و هي الكاف و النّون لَفظاً كما نتكّلم بها فهو حقّ لا كلام لأحدٍ فيه لأنّ الحُروف ممّا

١- آل عمران = ٥٩

وضعها الإنسان للتكلّم بها فهي من قبيل المواضعة بين النّاس لإظهار ما في القلب و لذلك يختلف المعنىٰ بحسب إختلاف تراكيب الحُروف بعضها الىٰ بعض فالكاف مثلاً اذا ضمّ الىٰ النّون يصير كُن، و اذا ضمّ الىٰ اللاّم يصير كلّ و اذا ضمّ الىٰ الياء يصير كي و هكذا سائر الحروف و بذلك يصير المعنىٰ أيضاً مختلفاً و ليس هذا إلاّ من المواضعة و لذلك تختلف المعاني والألفاظ بحسب اللّغات فأنّ كلّ لفظٍ يدّل علىٰ معناه الموضوع له اللّفظ و هذا واضح و لم يقل أحد من أهل العلم أنّ اللّه تعالىٰ يتلّفظ بهذه الألفاظ المتّداولة بين النّاس التّي تعتمد علىٰ مقاطع الفم لتنزّهه تعالىٰ عن الفم واللّسان و غيرهما ممّا هو من لوازم الجسم و عليه فلا نحتاج في نفي الكلام عند تعالىٰ بهذا المعنىٰ الىٰ هذه الدّلائل والبراهين فأنّ كونه تعالىٰ منّزهاً عن الجسم والتّركيب والمادّة و أمثالها يكفي في نفي الكلام والحركة و السّكون و أمثالها في حقّ الباريْ جلّ وعزّ فاذا قلنا أنّه تعالىٰ يسمع و يبصر ليس معناه أنّه يسمع بالسّمع و يُبصر بالعين كما هما فينا كذلك و هكذا الكلام فأنّه قد ثَبت أنّ اللّه تعالىٰ يُوصف به قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَلَّمَ اَللّٰهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**[1] و ليس معناه أنّه كلّم موسىٰ كما كلّم هارون و غيره من أفراد البشر موسىٰ بل معناه أنّه أوَجد الكلام في الشّجرة وغيرها فَسمعه موسىٰ كما سيأتي تحقيق الكلام فيه و ما نحن فيه أيضاً من هذا القبيل فقوله: **كُنْ فيكون** ليس المراد به التّلفظ بلفظة كُن، ثمّ يتّكون بعد ذلك شئ بل قوله تعالىٰ فِعله الذّي نُعبّر عنه بالإنشاء والإيجاد وأن شئت أن تَعرف حقيقة الأمر في المقام فأستمع لما يُتلىٰ عليك من كلام أمير المؤمنين عليه السلام و سيّد الوّصيين باب مدينة العلم في نهج البلاغة في خطبة التّوحيد[2].

مَا وَحَّدَهُ مَنْ كَيَّفَهُ وَلَا حَقِيقَتَهُ اَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ وَلَا اِيَّاهُ عَنَىٰ مَنْ شَبَّهَهُ وَلَا صَمَدَهُ مَنْ اَشَارَ اِلَيْهِ وَتَوَهَّمَهُ كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَكُلُّ قَائِمٍ فِى سِوَاهُ مَعْلُولٌ

١- النساء = ١٦٤ ٢- خ - ١٨٦

فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ مُقَدِّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ غَنِيٌّ لاَ بِاسْتِفَادَةٍ لاَ تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَلاَ تَرْفِدُهُ الْأَدَوَاتُ سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ وَالإِبْتِدَاءَ أَزَلُهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَامَشْعَرَ لَهُ وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لاَ ضِدَّ لَهُ وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لاَ قَرِينَ لَهُ ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ وَالْوُضُوحَ بِالْبُهْمَةِ وَالْجُمُودَ بِالْبَلَلِ وَالْحَرُورَ بِالصَّرَدِ مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا.

مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا لاَ يُشْمَلُ بِحِدٍّ وَلاَ يُحْسَبُ بِعَدٍّ وَإِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا وَتُشِيرُ الْآلاَتُ إِلَىٰ نَظَائِرِهَا مَنَعَتْهَا مُنْذُ الْقِدْمَةَ وَحَمَتْهَا قَدُ الْأَزَلِيَّةَ وَجَنَّبَتْهَا لَوْلاَ التَّكْمِلَةَ بِهَا تَجَلَّىٰ صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ وَبِهَا امْتَنَعَ عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ وَلاَ يَجْرِى عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْحَرَكَةُ وَكَيْفَ يَجْرِى عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَأَبْدَاهُ وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثَهُ إِذاً لَتَفَاوَتَتْ ذَاتُهُ وَلَتَجَزَّأَكُنْهُهُ وَلاَ مْتَنَعَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءٌ إِذْ وُجِدَ لَهُ أَمَامٌ وَلَالْتَمَسَ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ وَإِذاً لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلاً بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولاً عَلَيْهِ وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ فِى غَيْرِهِ الَّذِى لاَ يَحُولُ وَلاَ يَزُولُ وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُوداًوَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُوداً جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ وَطَهُرَ عَنْ مُلاَمَسَةِ النِّسَاءِ لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتُقَدِّرَهُ وَلاَ تَتَوَهَّمُهُ الْفِطَنُ فَتُصَوِّرَهُ وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ وَلاَ تَلْمِسُهُ الْأَيْدِى فَتَمَسَّهُ وَلاَيَتَغَيَّرُ بِحَالٍ وَلاَ يَتَبَدَّلُ فِى الْأَحْوَالِ وَلاَ تُبْلِيهِ اللَّيَالِى وَالْأَيَّامُ وَلاَ يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظَّلاَمُ وَلاَ يُوصَفُ بِشَئٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ وَلاَ بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ وَلاَ بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَلاَ بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ وَلاَ يُقَالُ لُ حَدُّ وَلاَ نِهَايَةٌ وَلاَانْقِطَاعُ وَلاَ غَايَةٌ وَلاَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَتُقِلَّهُ أَوْ تُهْوِيَهُ أَوْ أَنَّ شَيْئاً يَحْمِلُهُ فَيُمِيلَهُ أَوْ يُعَدِّلَهُ. لَيْسَ فِى الْأَشْيَاءِ بِوَالِجٍ وَلاَ عَنْهَا بِخَارِجٍ يُخْبِرُ لاَ بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ وَيَسْمَعُ لاَ بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ يَقُولُ وَلاَ يَلْفِظُ وَيَحْفَظُ وَلاَ يَتَحَفَّظُ وَيُرِيدُ وَلاَ يُضْمِرُ يُحِبُّ وَيَرْضَىٰ مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ

كُنْ فَيَكُونُ لاَ بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذٰلِكَ كَائِناً وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلٰهاً ثَانِياً لاَ يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ وَلاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ خَلَقَ الْخَلاَئِقَ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَىٰ خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ الىٰ أخر.

الخطبة الشّريفة ففي هذه الخطبة أشار عليه السلام الىٰ ما نحن بصدده حيث قال يُخبر لا بلسانٍ ولهوات و قوله يقول و لا يلفظ و أصرَح من ذلك قوله يقول لمن أراد كَونه كُن فَيكون لا بصوتٍ يَقْرع و لا بنداءٍ يسمع و أنّما كلامه سبحانه فعلٌ منه أنشأه و مثله ما لم يكن الخ فهذه الكَلمات الّتي صدرت من باب مدينة العلم تغنينا عمّا ذكروه في إثبات المدّعىٰ وكلّه أو بعضه مخدوشة لا يمكن التّعويل عليه فقد صرّح عليه السلام بأنّ كلامه سبحانه فعلٌ منه أنشأه و مثله ما لم يكن من قبل ذلك كائناً أي أنّ كلامه سبحانه هو فعلٌ بعينه و هو مَنشأ إيجاده الممكنات لا أنّ كلامه يوجد الفعل كما ربّما يتوهّم وبين المقامين بونٌ بعيد اذا عرفت هذا فنقول كلمة كُن، لا خصوصّية لها و أنّما هي مثل سائر الكلمات الموجودة ما بَين الدّفتين فأنّ الكتاب من أوّله الىٰ أخره كلام اللّه واللّه تعالىٰ هو الّذي يقول **بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**.

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الىٰ أخر الكتاب إلاّ أنّه لا يَتّلفظ بلفظٍ و لا يكون لِلفظه صوتٌ يُقرع و لا فيه نِداءٌ يُسمَع بل كلامه فعلٌ منه أنشأه و مَثّله ما لم يكن كائناً من قبل و هذا هو الأصل في جميع الأوامر والنّواهي والوَعد والوَعيد و غيرها وكلمة كُن، مثل سائر الكلمات و محصّل الكلام هو أنّ هذه الحُروف الموجودة في الكتاب ليست بعينها ممّا تلّفظ به تعالىٰ و أنّما هي دالّة علىٰ مراده و مقصوده وأن شئت قلت كلامه تعالىٰ أعني به فِعله تجلّىٰ بهذه الحروف و الكلمات لنا لنفهم مراده لا أنّها بعينها كلامه المَلفوظ به اذ لا لفظ

هناك أصلاً ألا ترىٰ أنّ كلام اللّه تعالىٰ في كلّ قومٍ أُنزل بلسانه ولُغته من العِبري والسّرياني والعَربي وغيرها والكلام واحد في الجميع كما أنّ المتّكلم أيضاً واحد و أنّما يوجد المعاني في قالب الألفاظ المتّداولة عند كلّ قوم بُعث النّبي منهم فأفهم وتأمل في المقام **وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّٰهُ اَوْ تَاْتِينَآ اٰيَةٌ كَذٰلِكَ**

حكىٰ اللّه تعالىٰ عن الكفّار الّذين أنكروا التّوحيد و إدّعوا عليه إتّخاذ الأولاد شيئاً أخر وهو خلافهم في النّبوة و سلوكهم في ذلك طريق العناد فقال اللّه تعالىٰ عنهم قال الّذين لا يعلمون من اليهود أو النّصارىٰ أو مُشركي العَرب لولا يكلّمنا اللّه أي هلاّ يكلّمنا اللّه تعالىٰ معاينة فيُخبرنا بأنّك نبّي و قيل هلاّ يُكلّمنا بكلامه كما كَلَّم موسىٰ و غيره من الأنبياء أو تأتينا أيةٌ كذلك **قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ** قيل هم اليهود حيث إقترحوا الأيات علىٰ موسىٰ **تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ** أي قلوبهم في الكفر والعناد والقسوة والإعتراض علىٰ الأنبياء بعضها شبيهةٌ ببعضٍ و ذلك لأنّ اليهود قالت لموسىٰ أرنا اللّه جَهرةً و قالت النّصارىٰ للمسيح أنزل علينا مائدة من السّماء و قالت العَرب لنبيّنا حوّل لنا الصّفا ذَهَباً و هذا كلّه يدّل علىٰ قلّة إيمانهم وضعف إعتقادهم باللّه و رسوله بل يدّل علىٰ عنادهم و لجاجهم في الحقّ وإلاّ قد بيّنا الأيات والمعجزات الّتي يُعلم بها صحّة نبوكّة محمّد ﷺ **لِقَوْمٍ يُّوقِنُونَ** أي يستّدلون بها من الوجه الّذي يجب الإستدلال به فأيقنوا لذلك و بعبارةٍ أخرىٰ أنّ فيما ظَهر من الأيات الباهرات الدّالة علىٰ صدق النّبي كفاية لمن ترك التّعَصب والعناد و قيل أنّ المراد بقوله: **قَدْ بَيَّنَّا الْاٰيٰاتِ لِقَوْمٍ يُّوقِنُونَ** أي إنّا ثّقد بيّنا العَلامات التّي من أجلها غَضب اللّه علىٰ اليَهود وجعل منهم القِردَة والخنازير وأعدَّ لهم العذاب المُهين في معادهم والّتي من أجلها أخزىٰ اللّه النّصارىٰ في الدّنيا وأعّدَ لهم الخزي والعذاب الأليم في الأخرة والّتي من

أجلها جَعل سُكّان الجّنان الّذين أسلموا وجوههم لِلّه و هم محسنون في هذه السّورة وغيرها فأعلموا الأسباب الّتي من أجلها إستّحق كلّ فريقٍ من اللّه ما فعل به من ذلك وخصّ اللّه بذلك القوم الّذين يُوقنون لأنّهم أهل التّثبت في الأمور والطّالبون معرفة حقائق الأشياء علىٰ يقينٍ و صحّةٍ فأخبر اللّه جلّ ثناؤه أنّه بيّن لِمن كانت هذه الصّفة صفته ما بيّن من ذلك ليزول شكّه ويعلم حقيقة الأمر إذا كان ذلك خبراً من اللّه جلّ ثناؤه وخبر اللّه هو الخبر الّذي لا يعذر سامعه بالشكّ فيه وقد يحتمل غيره من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السّهو والغلط والكذب و ذلك منفّيٌ عن خبره إنتهىٰ.

أمّا قوله تعالىٰ: **اِنّآ اَرْسَلْناكَ بِالْحَقّ بَشيراً وَّنَذيراً وَلاٰ تُسْأَلُ عَنْ اَصْحابِ الْجَحيمَ** في قوله تعالىٰ :**وَلاٰ تُسْأَلُ** وجوه من القراآت.

أحدها: ضّم التّاء و رفع اللاّم و عليه فاللاّء لِلنفي و الفعل مبنيٌ للمفعول و موضعه من جهة الإعراب الحال أي و غير مسؤلٍ بعطفه علىٰ بشيراً و نذيراً، والمعنىٰ **اِنّآ اَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشيراً وَّنَذيراً** غير مسؤلٍ.

ثانيها: فتح **التّاء** كذلك بناء علىٰ أنّ الفعل معلوم مبني للفاعل و يكون موضعه النّصب أيضاً علىٰ الحال عطفاً علىٰ، بشيراً ونذيراً، والمعنىٰ **اِنّآ اَرْسَلْناكَ بِالْحَقّ بَشيراً وَّنَذيراً** غير سائلٍ عنهم.

ثالثها: بفتح التّاء والجزم في اللاّم علىٰ النّهي أي **اِنّآ اَرْسَلْناكَ** كذلك و لا تسأل عن أصحاب الجحيم والمشهور من الأقوال هو الأوّل والمعنىٰ **اِنّآ اَرْسَلْناكَ بِالْحَقّ بَشيراً وَّنَذيراً** أي مُبشّراً و مُنذراً غير مسؤل عن أصحاب الجحيم أي و ليس عليك إجبارهم علىٰ القبول منك فهو نظير قوله:

قال اللّه تعالى: **فَلاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ**(١).

قال اللّه تعالى: **لَيْسَ عَلَيْكَ هُديهُمْ**(٢).

١- الفاطر= ٨ ٢- البقرة= ٢٧٢

قال اللّه تعالى: **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لٰكِنَّ ٱللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ**[1].

قال اللّه تعالى: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**[2] و أمثال ذلك من الأيات.

والحاصل أنّ وظيفة الرّسول الإرشاد والهداية ثمّ البشارة والإنذار فالبشارة للمطيع والإنذار للعاصي أمّا قبول الدّعوة من النّاس أو عدم قبولهم إيّاها فهو خارج عن وظيفة الرّسول و كذلك الدّخول الىٰ الجّنة والنّار قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه و قرأ ذلك بعض أهل المدينة و لا تسأل جَزماً بمعنى النّهي مفتوح التّاء من تسأل و جَزم اللاّم منها و معنىٰ ذلك علىٰ قراءة هؤلاء **إِنَّآ اَرْسَلْنٰاكَ بِالْحَقِّ بَشيراً وَّنَذيراً** لتبليغ ما أرسلت به لا لتسأل عن أصحاب الجحيم فلا تسأل عن حالهم و تأوّل الّذين قَرَؤوا هذه القراءة ما حدّثنا أبو كريب قال حدثّنا وكيع عن موسىٰ بن عبد عن محمّد إبن كعب قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم ليت شعري ما فَعَل أبواي فَنزلت لا تسأل عن أصحاب الجحيم، ثمّ بعد ذلك قوّي الطّبري قول المشهور و هو الرّفع، أعني رفع التّاء ليكون الفعل منفيّاً لا مَنهيّاً و ساق الكلام فيه الىٰ أن قال فإن ظَن ظانٌ أنّ الخبر الّذي رُوي عن محّمد بن كعب صحيح فأنّ في إستحالة الشكّ من الرّسول في أنّ أهل الشّرك من أهل الجحيم و أنّ أبوَيه كانوا منهم ما يدفع صحّة ما قاله محمّد إبن كعب إنتهىٰ موضع الحاجة منه.

أنا أقول غرضه في الجملة الأخيرة أنّ الرّسول كان يعلم أنّ أهل الشّرك من أهل الجحيم وأنّ أبوَيه كانا منهم، ولم يكن شاكّاً فيه حتّىٰ يقول ليت شعري ما فعل أبواي و لمّا كان كذلك فقول محمّد إبن كعب أنّ شأن نزول الآية كان قول رسول اللّه ليت شعري ليس بصحيح مثلاً.

و تبّعه علىٰ هذا القول غيره من مُفسّري العّامة كالزّمخشري في الكشّاف والقرطّبي في جامع أحكام القرآن بزعمه، و البيضاوي في أنوار التنزيل

١- القصص = ٥٦

٢- الانعام = ٩١

والسّيوطي في الدّر المنشور و زاد في الحديث فما ذكرهما حتّىٰ توفّاه اللّه، والآلوسي في روح المعاني و قال بعد نقله الحديث و لا يخفىٰ بعد هذه الرّواية لأنّه ﷺ كما في المُنتخب عالمٌ بما آل اليه أمرهما، وإبن كثير الدّمشقي في تفسيره فأنّه قال بعد نقله ما نقلناه عن الطّبري و قد ردّ إبن جرير هذا القول المرّوي عن محمّد إبن كعب وغيره في ذلك لإستحالة الشكّ.

من الرّسول ﷺ في أمر أبَويه ثمّ قال: وهذا الّذي سلكه هاهنا فيه نظر لإحتمال أنّ هذا كان في حال إستغفاره لأبويه قبل أن يعلَم أمرهما فلّما علمَ ذلك تَبّرأ منهما وأخبَر عنهما أنّهما من أهل النّار كما ثَبت هذا في الصّحيح و لهذا أشباهٌ كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكره إبن جرير إنتهىٰ.

و قال في تفسير روح البيان ولمّا أُمر رسول اللّه بتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين كان يذكر عقوبات الكّفار فقام رجل فقال يا رسول اللّه أين والديَّ فقال في النّار فَحزن الرّجل فقال ﷺ أنّ والديك و والديّ و والديَّ إبراهيم في النّار، فَنزل قوله تعالىٰ: **وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ**[1] فلَم يسألوه شيئاً بعد ذلك و محصّل الكلام في المقام أنّ مُفسّرى العّامة قد أجمعوا علىٰ ذلك تبعاً للطبّري إنتهىٰ ما أردناه ذكره من أقوالهم فنقول نسأل عن الطّبري ومن حذي حَذوه من العّامة من أين ثَبت لكم أنّ أبَويه ﷺ في النّار، فإن قالوا لأنّهما ماتا علىٰ الكُفر و من مات علىٰ الشّرك والكفر فهو في النّار، نقول لهم من أين علمتم أنّ أبَويه ماتا علىٰ الشِّرك والكفر و من أخبركم به غير محمّد إبن كعب المجهول، ألستُم مُعتقدين بطهارة مولد النّبي و نَسَبه ﷺ من دنس الشّرك وشين الكفر، فأن قلتم لا نعتقد هذا نقول لكم ألستُم معتقدين بِصّحة نبوّة عيسى إبن مَريم قبل نبّينا فأن لم تعتقدوا و ذلك فأنتم كافرون باللّه



١- البقرة= ١١٩

وبرسوله لأنّ إنكار واحدٍ من الأنبياء و لا سيّما أولي العظم منهم كإنكار الجميع فمن لم يعتقد بصحّة نبّوة عيسىٰ وَمن قبله من الأنبياء كيف يدّعي الإسلام وقد دلّت الأيات على ذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ اٰتَيْنٰا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنٰاتِ وَ أَيَّدْنٰاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰآ أُوتِيَ مُوسٰى وَ عِيسٰى وَ مٰآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**(٣).

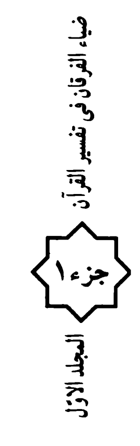
و أمثالها من الأيات وقد وَرَد أكثر مِن سِتة وعشرين آية في المسيح ورسالته و قد ثبت أنّ كلّ رسول إذا كان صاحب شريعةٍ وكتاب يجب علىٰ النّاس متابعته في كلّ ما جاء به من عند اللّه الىٰ أن يأتى رسول بعده ناسخاً لشريعة من قبله و لذلك نقول كلّ النّاس كانوا مأمورين بالإتّباع عن شريعة موسىٰ الىٰ أن بعث اللّه عيسىٰ ابن مريم وهكذا كان النّاس مأمورين بإتّباع شريعة عيسىٰ الىٰ أن بعث اللّه نبّينا صلى الله عليه وآله وسلم و هو خاتم الأنبياء وشريعته ناسخة لجميع الشّرائع قبله قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللّٰهِ ٱلْإِسْلاٰمُ**(٤) و قال ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فَلن يقبل منه و هو في الأخرة من الخاسرين اذا عرفت هذا فإعلم أنّ النّاس قبل نبّينا كانوا مأمورين بمتابعة شريعة عيسىٰ عليه السلام فمن كان مؤمناً كان كذلك و من لم يكن مؤمناً باللّه و برسوله كان كافراً فالنّاس في عَهد الجاهلّية بين كافرٍ باللّه ورسوله و مؤمنٍ بهما و أباء الرّسول و أمّهاته كانوا من المؤمنين قطعاً و قد وردت به روايات كثيرة ليس المقام محلّ ذكرها.

أن قلت لا نسّلم الرّوايات الدّالة علىٰ إيمانهم قلتُ أيّ دليلٍ دلّ علىٰ كفرهم

١- البقرة= ٤
٢- البقرة= ٨٧
٣- البقرة= ١٣٦
٤- آل عمران = ١٩

حتّىٰ يقال أنّ أبويه في النّار، أَيقول الطّبري و أمثاله كلّ من مات و لم يُدرك النّبي مات علىٰ الكُفر والشّرك و مأواه النّار فاذا كان عبد اللّه بزعم هؤلاء في النّار فعبد المطّلب و هاشم و عبدمناف و هلّم جرّاً كلّهم في النّار نَعوذ باللّه من الخُبث و سُوء السّريرة ألم يَعلموا أنّ عبد اللّه مات قبل أن يولد النّبي و أمّه آمنة ماتت و هو ابن أربع أو خمس سنين فَماذا منهما أن لم يُؤمنا بالنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم و هو صغير أو لم يُولد بعد اللّهم إلاّ أنّ يقال كان حقّ عبد اللّه أن يُؤمن بالجَنين في عالم الرّحم و حقّ آمنة أن تُؤمن بالإسلام الّذي جيءَ به بعد أربعين سنة بعد موتها و لا يَبعد من هؤلاء الجهّال أن يقولوا بهذه المقالة أعاذنا اللّه من هذه الخرافات والأباطيل التّي إنتَقَشت في الأوراق بإسم التفسير ثمّ طَبعت وإنتشرت في الأفاق ولنختم الكلام في هذه المقالة فأنّها ليست أوّل قارورةٍ كُسرت في الإسلام.

■



وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصارىٰ حَتّىٰ تَـتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ اِنَّ هُدَى اللّٰهِ هُوَ الْـهُدىٰ وَلَـئِنِ اتَّـبَعْتَ اَهْوٰآئَهُمْ بَعْدَ الَّذي جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مٰالَكَ مِنَ اللّٰـهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاٰ نَصيرٍ ﴿١٢٠﴾ اَلَّذينَ اٰتَـيْنٰاهُمُ الْكِـتٰابَ يَتْلُونَه حَقَّ تَلاٰوَتِهِ اُولٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَّكْفُرْ بِهِ فَاوُلٰٓئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يٰابَنِىٓ اِسْرٰآئيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِىٓ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ اَنّـي فَـضَّلْتُكُمْ عَـلَى الْعٰالَمينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْماً لاّٰ تَجْزِي نَـفْسٌ عَـنْ نَّفْسٍ شَيْئاً وَّلاٰ يُقْبَلُ مِنْهٰا عَدْلٌ وَّلاٰ تَنْفَعُهٰا شَـفٰاعَةٌ وَّلاٰ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

◁ اللّغة

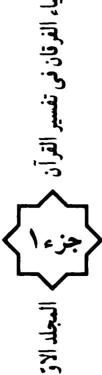
تَتَّبِعَ: الاِتّباع الإقتفاء.

مِلَّتَهُمْ: الملّة كالدّين و هو إسم لما شرع اللّه تـعالىٰ لعباده علىٰ لسان الأنبياء ليتوصّلوا الىٰ جوار اللّه.

وَاتَّقُوا يَوْماً: الىٰ أخر الأية، قد مرّ شرح لغاتها وتفسيرها سابقاً أية (٤٨).

◁ الإعراب

هُوَ الْهُدىٰ هو يجوز أن يكون توكيداً لإسم أنّ وفصلاً ومبتدأً و قد سبق نظيره مِنَ الْعِلْمِ في موضع نصب علىٰ الحال من ضمير الفاعل في جاءك اَلَّذينَ اٰتَيْنٰاهُمُ مبتدأ و أتيناهم صلته يَتْلُونَه حال مقّدرة من هُم، أو من الكتاب حَقَّ منصوب على المصدر اُولٰٓئِكَ مبتدأ ويُؤمنون به خبره والجملة خبر الّذين



و لا يجوز أن يكون يتّلُونه خَبر الّذين لأنّه ليس كلّ من أُوتي الكتاب تلاه حقّ تلاوته والباقي واضح.

◁ التّفسير

قوله تعالىٰ: **وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارىٰ حَتّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** قيل في شأن نزولها أنّ اليهود والنّصارىٰ كانوا يسألون النّبي ﷺ الهُدنة و يَرونه أنّه أن هاد بهم وأمَهَلهم إتَّبعوه فنزلت الآية و قال تعالىٰ: **وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارىٰ** و لا النّصارىٰ، أتىٰ بكلمة لَن و هي لنفي الأبد ليدّل الكلام أنّه لا يكون أبداً أي أنّهم لن ترضوا عنك أبداً حتّىٰ تتبع مِلّتَهم أي دينهم و شريعتهم و قيل قبلتهم **قُلْ اِنَّ هُدَى اللّٰهِ** أي قل لهم أنّ دين اللّه الّذي يَرضاه هو الهدىٰ و قيل المراد بهُدىٰ اللّه القرأن يعني أنّ القرأن هو الّذي يهدي الىٰ الجنّة لا طريقة اليهود والنّصارىٰ و قيل معناه دلالة اللّه هي الدّلالة و هدىٰ اللّه هو الحقّ ذكر هذه الوجوه الطّبرسي في المجمع **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ اَهْوَآئَهُمْ بَعْدَ الَّذي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** قيل معناه أي لأن إتّبعت مقاصدهم و قيل المعنىٰ أن صلّيت الىٰ قبلتهم بعد الّذي جاءك من العلم أي من البيان أو من الدّين **مٰالَكَ مِنَ اللّٰهِ** أي ليس لك من اللّه **مِنْ وَّلِيٍّ** يَحفظك من عقابه **وَلاٰ نَصيرٍ** أي مُعين وظهير وإستدّلوا بهذه الآية علىٰ أنّه علِم اللّه تعالىٰ أنّه لا يعصي يصّح وَعيده لأنّه علم أنّ نَبّيه لا يتّبع أهوائهم فَجرىٰ مَجرىٰ قوله و لان أشركت ليحبَطّن عملك والمقصود التّنبيه علىٰ أنّ حال أُمّته فيه أغلَظ من حاله لأنّ منزلتهم دُون منزلته و قيل الخطاب للنّبي ﷺ والمراد أُمّته وفي مسائل:

الأولىٰ: أنّ الكافر لا يَرضىٰ عن المُسلم إلاّ بإتّباعه مِلّته و شريعته أي ترك شريعته والأخذ بسريعته الكافر وفي قوله: **لَنْ تَرْضىٰ** دليل علىٰ ذلك لأنّ كلمة لَن لنفي الأبد أي لَن تَرضىٰ أبداً و لذلك نهىٰ اللّه تعالىٰ عن إتّخاذ الكفّار أولياء:

قال اللّه تعالىٰ: **لا تَتَّخِذُوا اَلْكافِرِينَ أَوْلِيٰآءَ مِنْ دُونِ اَلْمُؤْمِنِينَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **يآ أَيُّهَا اَلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ اِيمٰانِكُمْ كٰافِرِينَ**[2].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَنْ يَجْعَلَ اَللّٰهُ لِلْكٰافِرِينَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**[3].

قال اللّه تعالىٰ: **لا تَتَّخِذُوا اَلَّذِينَ اَتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَ لَعِبًا مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتٰابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ اَلْكُفّٰارَ أَوْلِيٰآءَ**[4].

و لكن المسلمين لمّا غفلوا عن هذه الدّقيقة وأخَذوا الكفّار أولياء لأنفسهم صاروا لا محالة أذِلاّء بحيث لا يُعتَنىٰ بهم أصَلاً في زماننا هذا فَوقعُوا فيما وَقعوا في الذّلة والحقارة والفقر والإستئصال في الدّين والدّنيا:

قال اللّه تعالىٰ: **خَسِرَ اَلدُّنْيٰا وَ اَلْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ اَلْخُسْرٰانُ اَلْمُبِينُ**[5].

و من المعلوم أنّ منشأ هذا الخُسران والضّعف والمَسكَنة ليس إلاّ لأجل إعراضهم عن الدّين وإقبالهم الىٰ الهَوىٰ والنّفس الأمارة:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**[6].

الثّانية: أنّ اللّه تعالىٰ قال: **حَتّٰى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** و لم يقل دينهم و ذلک لوجود الفرق بين المِلّة والدّين فأنّ المِلّة عبارة أو إسم لِما شَرعه اللّه لعباده في كتبه و علىٰ أَلسنة رُسله فكانت المِلّة والشّريعة سواء و أمّا الدّين فهوا عبارة عمّا يفعله العباد عن أمره ولذلك قال بعضهم الملّة والشّريعة ما دعا اللّه عباده الىٰ فِعله والدّين ما فَعله العباد عن أمره فقوله حتّىٰ تتّبع ملّتهم معناه حتّىٰ تَفعل ما يفعلونه و تَعمل بما يَعملون و بعبارة أخرىٰ حتّىٰ تتابعهم في أقوالهم و أفعالهم و هذا القدر يكفي لهم فلا يضرّ بهم دينك الّذي تعتقده في قلبك و أحياناً في عَملك لأنّ الدّين أعني به الإعتقاد الصّحيح لا يضّر بالكفر و الكافر اذا لم يكن

١- النّساء= ١۴۴
٢- آل عمران= ١٠٠
٣- النّساء= ١۴١
۴- المائدة= ۵٧
۵- الحج = ١١
۶- طه = ١٢٣

فيه عَملٌ يطابقه أى يُطابق الاعتقاد كما ترىٰ هذا في أكثر المسلمين في زماننا هذا حيث أنّهم إعتقدوا باللّه و رسوله و بَقوا علىٰ إعتقادهم و اذا نظرت الىٰ أعمالهم تراها مخالفة لِلإسلام فهم مسلمون باطناً كافرون ظاهراً من حيث العمل و لذلك لم يقل في دينهم اذ قلّما يتّفق أنّ المُسلم يترك الإسلام و يأخذ بدين اليهود أو النّصارىٰ أمّا ترك العَمل فهو سَهلٌ.

الثّالثة: في قوله: **إِنَّ هُدَى اللّٰهِ هُوَ الْهُدىٰ** إشارة الىٰ أنّ الهداية الحقّيقة مُنحصرة به تعالىٰ و لذلك قال أنّ هُدىٰ اللّه هو الهُدىٰ بتقديم المسند اليه أعني هو علىٰ المسند و هو الهُدىٰ الّذي يفيد الحصر والدّليل علىٰ إنحصار الهداية به تعالىٰ هو أنّ الهداية لها مَعنيان:

أحَدها: إرائة الطّريق.

الثّانى: الإيصال الىٰ المطلوب.

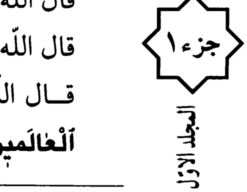
فأن كان المراد بها الأوّل فلا شكّ أنّه تعالىٰ أعلم بالطّريق من غيره اذ المراد بالطّريق طريق السّلوك اليه والتقرّب بجنابه و معرفة الطّريق بهذا المعنىٰ مختصّ به والأنبياء و الأوصياء و العلماء أخذوه عنه و أن كان المراد الإيصال الىٰ المطلوب فهو أيضاً مختصّ به تعالىٰ لأنّ الإيصال الىٰ المطلوب معناه تهيئة الأسباب المُؤدية الىٰ المقصود و هو مسبّب الأسباب لا غيره وأن أريد بالإيصال التوفّيق فهو أيضاً له فثبت أنّ الهداية مُنحصرة به و اذا كان كذلك فصحّ أن يقال أنّ هُدىٰ اللّه هو الهُدىٰ و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّ ٱللَّهَ لَهٰادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓا إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلاٰ هٰادِىَ لَهُ**[٢]

قال اللّه تعالىٰ: **وَ كَفىٰ بِرَبِّكَ هٰادِيًا وَ نَصِيرًا**[٣]

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ هُدَى ٱللّٰهِ هُوَ ٱلْهُدىٰ وَ أُمِرْنٰا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعٰالَمِينَ**[٤].



١- الحجّ= ٥٤
٢- الأعراف= ١٨٦
٣- الفرقان= ٣١
٤- الأنعام= ٧١

و حيث أنّ الهداية مختصّة به.

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ**[1].

والأيات الدّالة علىٰ أنّ الهداية أوّلاً وبالذّات له تعالىٰ و ثانياً و بالعَرض لغيره كثيرة وفيما ذَكرناه كفاية و عليه فقوله لرسوله **(قُل أنّ هُدىٰ هو الهُدىٰ)** حقّ و صدق فأنّ الأنبياء أيضاً قد اهتدوا به و لا يحتاج الكلام الىٰ التّأويل و صَرف الأية عن ظاهرها.

الرّابعة: قوله: **وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ اَهْوَآئَهُمْ بَعْدَ الَّذى جاۤءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** فيه إشارة الىٰ أنّ العالم يُؤخذ بعلمه فقوله بعد ذلك **مالَكَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاٰ نَصيرٍ** مترتّب علىٰ ترك الهداية بعد العلم بها أمّا في صورة الجهل فليس كذلك فأنّ الجاهل معذور لجهله والعالم مأخوذٌ بعلمه ضرورة أنّ العلم حجّة علىٰ العالم والجهل ليس من الحجّة بشئٍ فالمعنىٰ بعد ما علمت أنّ الهُدىٰ في الحقيقة هُدىٰ اللّه لأن إتّبعت أهوائهمً وتَركت الهُدىٰ مالك من اللّه من ولّي و لا نصيرٍ، أي تنقطع و لاية اللّه و نُصرَته عنك و مرجعه الىٰ أنّ اللّه يكلكً الىٰ نَفسك و لا خُسران أشدّ منه

قوله تعالىٰ: **اَلَّذينَ اٰتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَه حَقَّ تِلاوَتِهِ اُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَاُولٰئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ** يمكن أن يراد بقبوله، الذين، اليهود والنّصارىٰ لأنّ سياق الآية يقتضي ذلك و يحتمل أن يكون المراد مطلق أهل الكتاب حتّىٰ المسلمين و هو الحقّ لعدم دليل علىٰ إرادة الخَاص مضافاً الىٰ أنّ إرادة العموم أولىٰ من إرادة الخُصوص لدخول الخاصّ تحت العَام و لا عكس فالمعنىٰ، **اَلَّذينَ اٰتَيْناهُمُ الْكِتابَ** أي أعطيناهم الكتاب يتلونه أي يتلون الكتاب حَقّ تلاوته وفيه وُجوه.

أحدها: يَتّبعونه حقّ إتّباعه بأن لا يحرّفوه و لا يغيروه بل يعملون بحلاله و يقفون عند حرامه.

١- التّوبة= ٣٣

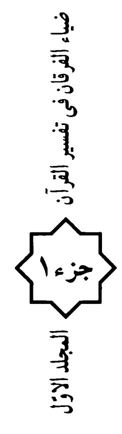
ثانيها: أنّ المراد به يَصفونه حقّ صفته في كتبهم لمن يسألهم عن النّاس.

ثالثها: الوقوف عند ذكر الجنّة والنّار فَيسأل في الأولىٰ و يستيعذ في الأخرىٰ.

رابعها: أي يقرؤنها حقّ قرائتها يرتلون ألفاظها و يفهمون و يتدبرون في معانيها.

خامسها: أن المراد يعملون حقّ العمل به بحُكمه و يؤمنون بمتشابهه و يَكِلُون ما أشكلَ عليهم الىٰ أهله.

و قد روي القُرطّبي بأسناده عن النّبي ﷺ أنّه قال: يتلونه حقّ تلاوته أي يتّبعونه حقّ إتّباعه وأيضاً رَوي عنه ﷺ أنّه قال إذا مرَّ بآية رحمةٍ سأل وإذا مرَّ بآية عذاب تَعَوّذ ثمّ قال اللّه تعالىٰ: أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أي أنّ الّذين يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون بالكتاب حقّاً و من يكفر به، أي بالكتاب، فأولئك هم الخسرون، في الدّنيا والأخرة، قال في تفسير الميزان في وجه ربط الآية بما قبلها يمكن أن تكون الجملة بقرينة الحصر المفهوم من قوله:أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ جواباً للسؤال المقدّر الّذي يسوق الذّهن اليه في قوله وَلَنْ تَرْضىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارىٰ وهو أنّهم إذا لم يكن تطمعُ في ايمانهم فمن ذا الّذي يؤمن منهم و هل توجيه الدّعوة اليهم باطلٌ لغوٌ، فأجيب بأنّ الّذين آتيناهم الكتاب والحال أنّهم يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون بكتابهم فيؤمنون بك، أو أنّ أولئك يؤمنون بالكتاب كتاب اللّه المُنزّل أيّا ما كان أو أنّ أولئك يؤمنون بالكتاب الّذي هو القرآن وساق الكلام الىٰ أن قال والمراد بالّذين أُوتوا الكتاب قوم من اليهود والنّصارىٰ ليسُوا مُتّبعين للهوىٰ من أهل الحقّ منهم وبالكتاب التّوراة والإنجيل وأن كان المراد بهم



المؤمنون برسول اللّه وبالكتاب القرآن فالمعنىٰ أنّ الّذين آتيناهم القرآن و هم يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون بالقرآن لا هؤلاء المتّبعون لِأهوائهم انتهىٰ.

أقول تفسير الآية ظاهر و لا يحتاج الىٰ هذه التكلّفات الّتي هي من قبيل الأكل من القفا و ذلک لأنّ اللّه تعالىٰ أخبر في الآية عن حقيقةٍ لا شكّ فيها لأحدٍ و هي أهل الكتاب سواء فيهم اليهود والنّصارىٰ والمسلمون وغيرهم و بالجملة كلّ من أعطي الكتاب أيّ كتابٍ كان لو يتلونه حقّ تلاوته بأن لا يُحرّفوه و لا يُغيّروه ويدبّروا في آياته ثمّ يعملون بها فأولئك يؤمنون به أي يؤمنون بأنّه من عند اللّه و من لم يكن كذلك لا يؤمن به قطعاً ففي الآية حثُّ علىٰ التّدبر في الكتاب و ترغيبٌ الىٰ العمل به ومن الواضح أنّ الكفر به يوجب الخُسران والوبال في الدّارين، ثمّ فيها مَنعٌ عن التّلاوة من غير تفهّمٍ و تدّبر تلويحاً لمن يقدر عليه:

قال اللّه تعالى: **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْاٰنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُها**[1].

قال اللّه تعالى: **كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوٓا اٰياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ**[2].

والأيات الحاثّة علىٰ التدّبر كثيرة و لا شكّ أنّ الإيمان يحصل من التدّبر و التعقّل وما حصل بغير التدّبر لا فائدة فيه والحاصل أنّه ينبغي لأهل الكتاب أن لا يكونوا من مصاديق، ربّ قال القرآن والقرآن يلعنه و هكذا الأمر في التّوراة والإنجيل وغيرهما من الكتّب السّماوية والىٰ هذا المعنىٰ يُشير.

ما رواه في إرشاد الدّيلمي عن الصّادق عليه السلام في قوله: اَلَّذِينَ اٰتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَه حَقَّ تَلاوَتِهِ قال عليه السلام يرتّلون آياته و يتّفقهون به، و يعملون بأحكامه، ويرجعون وَعده، و يخافون وعيده، و يعتبرون

١ - محمّد = ٢٤

٢ - ص = ٢٩

بقصصه، و يأتمرون بأوامره و ينتهون بنواهيه، ما هو واللّه حفظ آياته ودرس حُروفه وتلاوة سُوره ودَرس أعشاره و أخماسه حَفظُوا حُروفه و أضاعُوا حُدوده و أنّما هو تدّبر آياته والعَمَل بأحكامه قال اللّه تعالىٰ: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه:انتهىٰ.

و أمّا قوله تعالىٰ: **يابَنِىَ اِسْرائيلَ اذْكُروُا نِعْمَتِيَ الَّتِىَ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ اَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلىَ الْعالَمِينَ** فقد مرّ الكلام في تفسير الأية[1].

و هكذا قوله: **وَاتَّقوُا يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَّفْسٍ شَيْئاً وَّلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَّلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَّلا هُمْ يُنْصَرُونَ** قد مرّ تفسيرها سابقاً[2]

■

۱- البقرة= ۴۷ ۲- البقرة= ۴۸

وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ رَبُّه بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاٰ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

◁ اللّغة

ابتَلَىٰٓ: الإختبار يقال بلوته أي إختبرته قيل هو مأخوذ من البَلَىٰ يقال بَلَىٰ و بلاءً أي خَلق والخلق ضدّ الجديد يقال ثوبٌ خَلق فإذا قيل، بَلوتُه أي إختبرته كأنّي أخلقته من كثرة إختباري له.

ذُرِّيَّتِي: الذُرّية أصلها الصّغار من الأولاد وأن كان قد يقع على الصّغار والكبار معاً في التّعارف ويُستعمل لِلواحد والجمع و فيها ثلاثة أقوال.

أحدها: أنّها من ذَرأ اللّه الخلق فترك هَمزة نحو رُويّة و برّية.

ثانيها: أنّ أصلها، ذُروية.

ثالثها: أنّها فعليةٌ من الذّر نحو قمرّية وباقي اللّغات واضح.

◁ الإعراب

وَإِذِ ابتَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ إذ في موضع نصب علىٰ المفعول به أي إذكُر، والألف في إبتلىٰ، منقلبة عن واو وأصله من بَاىٰ يَبلُوا إذا أختبر، و في إبراهيم، بالنّصب مفعوله به ورَبُّهفاعل الفعل جَاعِلُكَ يتعدّى الى مفعولين لأنّه من جَعَل بمعنىٰ صَيّر لِلنَّاسِ يجوز أن يتعلّق بجاعل أي لأجل النّاس و أن يكون في موضع نصب علىٰ الحال والتقدّير إماماً للنّاس فلمّا قدّمه نصبه علىٰ ما ذكرناه قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي المفعولان محذوفان و التقدّير أجعل فريقاً من ذريتي إماماً لاٰ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ هذا هو المشهور علىٰ جَعل العَهد هو الفاعل و يقرأ الظّالمون علىٰ العكس والمعنيان متقاربان.

◁ التّفسير

وَاِذِ ابْتَلىٰٓ اِبْراهيمَ رَبُّه بِكَلِماتٍ فَاَتَمَّهُنَّ في إبراهيم لغات،

أحدٰيها: إبراهيم بالألف والياء و هو المشهور.

ثانيها: بدون الياء.

ثالثها: إبراهام بألفين.

رابعها: إبراهُم بألف واحدة و ضمّ الهاء وبكلّ قرأ و هو إسمٌ أعجميٌ معرفة و جمعه، إِبارَه عند قومٍ وعند آخرين بُراهم، و قيل فيه إبارَهة، ،وبرَاهِمة.

والمعنىٰ وإذكروا او**وَاِذِ ابْتَلىٰٓ اِبْراهيمَ رَبُّه بِكَلِماتٍ** ، أي إختبرَ قال بعض المفسّرين و هو مجاز وحقيقته أنّه أمر إبراهيم ربّه وكلّفه وسُميّ ذلك إختباراً لأنّ ما يستعمل الأمر منّا في مثل ذلك يجري مجرىٰ الإختبار والإمتحان فأجرىٰ علىٰ أمره إسم أُمور العباد علىٰ طريق الإتّساع وأيضاً فأنّ اللّه تعالىٰ لمّا عامل عباده معاملة المُبتلىٰ المُختر إذ لا يجازيهم علىٰ ما يَعلمه منهم أنّهم سَيفعلونه قبل أن يقع ذلك الفعل منهم كما لا يجازي المُختبر للغير ما لم يقع الفعل منه سمّيَ أمره إبتلاءً وحقيقة الإبتلاء تشديد التّكليف انتهىٰ.

أقول توضيح الآية يستدّعي التكلّم في أُمور.

الأمر الأوّل: في تفسير قوله **وَاِذِ ابْتَلىٰٓ اِبْراهيمَ رَبُّه**.

الأمر الثّاني: في تفسير قوله **بِكَلِماتٍ فَاَتَمَّهُنَّ** و أنّه ما المراد بها.

الأمر الثالث: في قوله **اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً**.

الأمر الرّابع: في قوله **وَمِنْ ذُرِّيَّتي**.

الأمر الخامس: قوله **لاٰ يَنالُ عَهْدِي الظّالِمينَ**.

الأمر الأوّل: قوله تعالىٰ:**وَاِذِ ابْتَلىٰٓ اِبْراهيمَ رَبُّه** قلنا أنّ الإبتلاء الإختبار وقد جاء هذا المعنىٰ في كثير من الأيات بألفاظ مختلفة كلّها يفيد ذلك المعنىٰ في حقّ العباد.

قال اللّه تعالىٰ: **فَأَمَّا ٱلْإِنْسانُ إِذا ما ٱبْتَلٰيهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ، وَ أَمّا إِذا ما ٱبْتَلٰيهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهٰانَنِ**(١).

قال اللّه تعالى: **إِنّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ ٱلْجَنَّةِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ ٱلسَّيِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ ٱلصّابِرِينَ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصىٰ لِما لَبِثُوا أَمَدًا، وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ**(٤).

قال اللّه تعالى: **وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَ ٱلْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوالِ وَ ٱلْأَنْفُسِ وَ ٱلثَّمَراتِ**(٦).

قال اللّه تعالى: **إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**(٧).

قال اللّه تعالى: **لَتُبْلَوُنَّ فِيَ أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ**(٨).

قال اللّه تعالى: **ألم، أَحَسِبَ ٱلنّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ**(٩).

والأيات كثيرة فَيُعلم بذلك أنّ الإبتلاء والإختبار كان واقعاً ثابتاً في جميع الأزمنة وفي كلّ الأُمم بل ولكلّ واحدٍ من آحاد النّاس كائناً من كان و هو ممّا لا سبيل لِلإنكار اليه فأنّ قوله تعالىٰ: **أَحَسِبَ ٱلنّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا** نصّ في المُدّعىٰ لأنّ النّاس يشمل جميع الأفراد و هكذا قوله: **وَ لَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**(١٠)

و أنّما الكلام في جهة الإبتلاء و أنّه لِم يختبر اللّه عباده و ما المصّلحة فيه و المفروض أنّه عالم بحال العبد و لا يخفىٰ عليه شئ من أقواله و أعماله و نيّاته

١-الفجر= ١٥/١٦
٢- القلم= ١٧
٣- الأعراف= ١٦٨
٤- محمّد= ٣١
٥- الأنبياء= ٣٥
٦- البقرة= ١٥٥
٧- الكَهف= ٧
٨- آل عمران= ١٨٦
٩- العنكبوت= ٢
١٠- العنكبوت=٣

و قد قالوا أنّ العلّة علم المُختبِر بحال المُختبَر أو كشف الحقيقة على المُختبِر والمُمتحِن و كلّ هذه الأمور لا يتأتىٰ في حقّ اللّه تعالىٰ ألا ترىٰ أنّ المعلّم يختبر المتعلرم لِلإطّلاع علىٰ حاله و أن ينكشف له إستعداده و هذا أمرٌ واضح لا خفاء فيه بحسب العُرف وحيث أنّ اللّه عالمٌ بما في الضّمائر فضلاً عن الظّواهر فلا يحتاج الىٰ الإختبار لأنّه في الحقيقة من تحصيل الحاصل فلابّد من وجود مَصلحةٍ فيه و تلك المَصلحة هي الّتي خَفيت علىٰ أكثر أهل العلم فَضلاً عن غيرهم من الجهّال فإنّا ما وجدنا في تحقيقات القوم وكلماتهم ما يكشف القناع عن وجه هذا الإبهام فنقول بحوله و قوّته، الإختبار منه تعالىٰ لِلعَبد ليس لأجل الإنكشاف لأنّه تعالىٰ قد أحاط بكلّ شئٍ علماً بل لأحد الأمرين.

أحدهما: كشف الحقيقة علىٰ العبد و ذلك لأنّ العبد ربّما يظّن في حقّ نفسه خيراً فإذا قيل له لست كذلك أي لَست من المؤمنين مثلاً قال أنا منهم بلاشكّ و لا شبهة و لا يمكن إخراجه من الشّبهة إلاّ بالإختبار لِيَعلم أنّه لم يعرف نفسه فيخرج بذلك عن الإشتباه والغلط ألا ترىٰ أنّ كثيراً من النّاس يُعيّبون علىٰ غيرهم بألسنتهم أو بقلوبهم فالفقير يغضب على الغنّي والجاهل علىٰ العالم والمظلوم على الظّالم و هكذا فإذا صار الفقير غنّياً والضّعيف قوّياً يصير الأمر بالعكس أي يصير الضّعيف بعد وصوله الىٰ القُدرة ظالماً والفقير بعد غناه بخيلاً مُمسكاً والجّاهل بعد صيرورته عالماً لا يعمل بِعلمه و هكذا في جميع الأصناف والطّبقات و كشف هذه الحقيقة وظهور هذه السَّريرة لا يمكن إلاّ بالإختبار في كلّ إنسانٍ بحسبه و لاجل ذلك قال اللّه تعالىٰ: **أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ** فهذا عبد الملك بن مروان قبل وصوله الىٰ المقام كان معتكفاً في المسجد أكثر الأوقات بحيث قيل له حماقة المسجد و هو الّذي قال في خلافة يزيد بن معاوية بعد وقعة الطيف كيف لا يسقط السّماء علىٰ الأرض من هذه الجناية و لّما وَصَل الىٰ القدرة وجَلس مَجلس يزيد فَعَل ما فَعَل من القتل والجّناية ما لم يقدر علىٰ ضبطه وثَبته في

التّواريخ والسِّير احد من المُؤمنين واحدىٰ جناياته قتل النّاس بأمره في مسجد الحرام و هَدم الكعبة في قصّة عبد اللّه بن الزّبير وكفىٰ في ظُلمه أنّ حجّاج بن يوسف الثّقفي لَعنه اللّه أَحد عُمّاله وقس عليه البواقي و هكذا الأمر بالنّسبة الىٰ جميع الخلفاء و الحكّام و السّلاطين و الأمراء الىٰ زماننا هذا و منه الىٰ يوم ظهور العَدل المطلق هذا بالنّسبة الىٰ الحكّام و هكذا الحال في جميع الأصناف والسِّر فيه أنّ الإنسان قبل القدرة علىٰ الشّئ لايقدر على معرفة نفسه و مراتب إيمانه و إعتقاده فأن قدر ولم يفعل عرف نفسه و علم مقامه بحسب الإيمان هذا كلّه بالنّسبة الىٰ غير المعصوم ظاهر.

ثانيها: أنّ اللّه تعالىٰ قد يُريد به أنّ يعرف عَبده في خلقه لا أنّه أراد به إخراجه من الإشتباه و مِن هذا القبيل إختبار الأنبياء والأوصياء فأنّ الإنسان الكامل بصيرٌ بحاله عارفٌ بنفسه و مقامه واللّه تعالىٰ أيضاً عالمٌ بصدقه و صفائه و أنّه مُنزّه عمّا يقول الجاهلون و لكن قدره في النّاس مجهول حتّىٰ أنّ النّاس يظّنون أنّه كأحدٍ منهم و لا سبيل الىٰ معرفته إلاّ بالإمتحان فَيبتليه ببَلاءٍ لِينكشف به جوهر ذاته و حسن إعتقاده ومَعرفته و بذلك يظهر الفرق بينه و بين غيره من النّاس، و هذه مَصلحة قوّية ثمّ في المقام إحتمال أخر و هو أنّ الإمتحان يوجب خروج العبد من النّقص الىٰ الكَمال و ذلک لأنّ الخروج عن الإبتلاء بنحوٍ أحَسن لا يمكن إلاّ بالَصبر علىٰ المَشاق والصّبر عبارة عن كفّ النّفس و منعها عمّا تَشتهيه وكمال الإنسان ليس إلاّ فيه اذا عرفت هذا فنرجع الىٰ أصل البحث و نقول:

قوله تعالىٰ: **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ** دالّ علىٰ أنّ اللّه تعالىٰ قد إبتلىٰ عَبده و نبّيه بشئ كان لائقاً بمقامه و هو الكَلمات فأتَمهنّ إبراهيم.

الأمر الثّاني: إختلفوا في المراد بها علىٰ أقوال.

منها ما روي عن ابن عبّاس وقتادة أنّ اللّه تعالىٰ أمره بعشرة سُنن، خمسٌ في الراس فأمّا التّي في الرأس فالمَضمضة

والإستنشاق والفرق وقصّ الشّارب والسّواك و أمّا الّتي في الجَسد فالختان و حَلق العانة، وتقليم الأظفار ونتف الأبطين والإستنجاء.

و في روايةٍ أخرىٰ عنه أنّه إبتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين شيئاً عشرة منها في براءة التّائبون العابدون الحامدون الىٰ أخرها و عشرة في الأحزاب أنّ المسلمين والمسلمات الىٰ أخرها وعشرة في سورة المؤمنين الىٰ قوله: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** و عشرة في سأل سائل الخ و في رواية ثالثة أنّه أمره بمناسك الحجّ، والوقوف بعرفة والطّواف والسّعي بين الصّفا والمروة رمي الحجار والإفاضة.

و منها ما عن الحَسن إبتلاه اللّه بالكواكب وبالقَمر وبالشّمس وبالجنان و بذبح ابنه و بالنّار و بالهجرة و كلّهنّ و في لِلّه فيهنّ.

و منها ما عن مجاهد إبتلاه اللّه بالأيات التّي بعدها و هي أنّي جاعلك للنّاس إماماً، الآية فهذه هي الأقوال التّي ذكروها في المقام و تركنا بعضها مخافة الإطالة و عدم الفائدة و عن كتاب الخصال عن المضّل بن عمر عن الصّادق عليه السلام قال: سألته عن قول اللّه **وَإِذِا ابْتَلَىٰ إِبْرٰاهِيمَ رَبُّه بكَلَماتٍ**، ما هذه الكَلمات فقال هذه الكلمات هي التّي تَلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه و هو أنّه قال ياربّ أسألك بحقّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و علّي عليه السلام و فاطمة عليها السلام والحَسَن عليه السلام والحسين عليه السلام إلاّ تبت علّيً أنّه هو التّواب الرّحيم، فقلت له يابن رسول اللّه فما يعني عزّ وجلّ بقوله: **فَأَتَمّهن** قال عليه السلام: يعني أتمّهن الىٰ القائم أثني عَشر إماماً تسعة من ولد الحسين انتهىٰ.

و روىٰ في مجمع البيان عن الصّادق عليه السلام: أنّه إبتلاه اللّه به في نومه من ذبح ولده إسماعيل أبي العَرَب فأتّمها إبراهيم و عزم عليها و سلم لأمر اللّه فلمّا عزم قال اللّه ثواباً له لِما صدّق و عَمل بما أمَرَه

اللّهإنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ إماماً ثمّ أمر اللّه عليه الحَنيفّية و هي الطّهارة و هي عشرة أشياء خمسة منها في الراس و خمسة منها في البَدن فأمّا التّي في الرأس فأخذ الشّارب و إعفاء اللّحي وطعم الشّعر والسّواك والخلال وأمّا التّي في البَدن فَحلق الشّغر من البَدن والختان و تقليم الأظافر و الغُسل من الجنابة و الطّهورة بالماء فهذه الحنيفية الطّاهرة التّي جاء بها إبراهيم فلم تنسخ و لا تُنسخ الىٰ يوم القيامة وهو قوله: وإتَّبع ملة إبراهيم حَنيفاً وأمثال ذلك من الأحاديث و أهل البيت أدرىٰ بما فيه.

الأمر الثّالث: في قوله: **اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً** قال القُرطبي الإمام القُدوة ومنه قيل لخيط البّناء إمام وللطّريق إمام لأنّه يؤم فيه للمسالك أي ليقصد فالمعنىٰ جعلناك للنّاس إماماً يأتّمون بك في هذه الخصال فَجَعله اللّه إماماً لأهل طاعته فلذلك إجتمعت الأمم علىٰ الدّعوىٰ فيه انتهىٰ ماذكره.

أقول الذي نقلناه عنه كلّ ماذكره في تفسير الجملة فعلىٰ قوله جَعَل اللّه إبراهيم إماماً لِيَأتّم به النّاس في هذه الخصال أعني بها الختّان ونتف الإبطين و الإستنجاء و الإستنشاق و أمثالها والإمامة بهذا المعنىٰ الذّي ذكره القُرطبي و أمثاله هي التّي سأل إبراهيم ربّه و **قٰالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتي قٰالَ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** فلقائل ان يقول للقُرطبي أيّ ربطٍ بين قولهُ تعالىٰ: **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** و بين الإمامة في الإستنجاء و تقليم الأظافر ونتف الإبطين و أمثالها أنظروا ياأهل الإنصاف الىٰ هذه التفاسّير كيف تلّبوا الأيات عمّا هي عليه ثمّ كيف أطفأوا نور اللّه بزعمهم و لم يعلموا أنّ اللّه متّم نوره و لو كره الكافرون.

و قال الطّبري في تفسير الآية و أنّما أراد جلّ ثناؤه بقوله لإبراهيم **اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً** أنّي مصيّرك تؤمّ من بعدك من أهل الإيمان بي و برسُلي فتقدّمهم أنت و يتّبعون هديك ويَستنون بسنّتك الّتي تعمل بها بأمري إيّاك ووَحَي اليك انتهىٰ.

أقول ما ذكره الطّبري أيضاً يكشف عن خبثه أو جَهله و ذلك لأنّ قوله تعالىٰ: **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** لا يناسب ما ذكره لأنّ الإمامة في الأمور التّي ذكرها الطّبري و أمثاله من العامّة لا يشترط فيها العدالة قطعاً فكيف يقول اللّه في جواب إبراهيم **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ**، ألَيس لإبراهيم و غيره أن يقول ياربّ أنت جَعلتني إماماً في قصّ الشّارب والسِّواك والختان و أمثالها ممّا ذكروه فكيف تقول في جوابي لا ينال عهدي الظّالمين و العدالة ليست بشرطٍ في هذه الأمور، و هذا الّذي نقلناه عنهما موجود في سائر تفاسيرهم بأدنىٰ تفاوت في الألفاظ.

الأمر الرّابع: قوله: **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** قد مضىٰ معنىٰ الذُّرية والمراد بها في شرح اللّغات و في المقام نقول كلمة مِن، للتّبعيض أي و أجعل من ذُرّيتي من يوشح بالإمامة وتوشح لهذه الكرامة والحقّ أنّه علىٰ وجه السّؤال من اللّه تعالىٰ أن يجعلهم كذلك و قيل أنّما قال ذلك ليعلم هل يكون في عقبه أئمّة يقتدى بهم والوجه الأوّل أحسن وأليق بالمقام وكيف كان سؤاله هذا يدّل علىٰ شرف الموضوع و عِظمه.

الأمر الخامس: قوله **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** **إختلفوا في المراد بالعَهد،**

رُوي عن ابن عبّاس أنّه النّبُوة وقال السّدي ومجاهد هو الإمامة وقال قتادة هو الإيمان و قال عطاء هو الرّحمة و قال الضّحاك هو دين اللّه و قيل عَهده أمَره والحقّ أنّ المراد به الإمامة و هو المَرّوي عن الباقر عليه السلام و الصّادق عليه السلام أي لا يكون الظّالم إماماً لِلنّاس.

فَعن عيون الأخبار بأسناده الىٰ الرّضا عليه السلام: والحديث طويل، يقول عليه السلام فيه أنّ الإمامة خصّ اللّه عزّ وجلّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوّة والخُلّة مرتبة ثالثة وفضيلة شرّفه بها و أشار بذكره فقال عزّ وجلّ: إِنّي جٰاعِلك لِلنّٰاس إِمٰاماً فقال سُرورا بها مِن

ذرّيتي قال اللّه عزّ وجلّ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ فأبطلت هذه الآية إمامة كلّ ظالم الىٰ يوم القيامة و صارت في الصّفوة انتهىٰ.
و عن الكافي بأسناده قال أبو عبد اللّه عليه السلام: و قد كان إبراهيم نبيّاً و ليس بإمام حتّىٰ قال اللّه اِنّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ اِمٰاماً قال و من ذُرّيتي فقال اللّه لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ من عَبَد صَنماً أو وَثناً لا يكون إماماً انتهىٰ.
و بأسناده عن زيد الشّحام قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ إتَّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتَّخذه نبيّاً و أنّ اللّه إتَّخذه نبيّاً قبل أن يتَّخذه رسولاً و أنّ اللّه إتَّخذه رسولاً قبل أن يتَّخذه خليلاً و أنّ اللّه إتَّخَذه خليلاً قبل أن يتَّخذه (يَجعله) إماماً فلمّا جَمع له الأشياء قال: اِنّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ اِمٰاماً قال عليه السلام فمِن عِظَمها في عين إبراهيم قٰالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قٰالَ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ قال لا يكون السّفيه إمام التّقي انتهىٰ.
و بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال عليه السلام: أنّ اللّه إتَّخذ إبراهيم عَبداً قبل أن يتَّخذه نبيّاً وإتَّخَذه نبيّاً قبل أن يَتَّخذه رسولاً الحديث كما مرّ.
و عن كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل يقول فيه قد خطر علىٰ من ماسه الكفر تَقَلّد ما فوّضه اللّه الىٰ أنبياءه و أولياءه بقوله لإبراهيم لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ أي المشركين لأنّه سمّى الشّرك ظلماً بقوله أنّ الشِّرك لظلمٌ عَظيمٌ فلمّا علم إبراهيم أنّ عهد اللّه تبارك إسمه بالإمامة لا ينال عَبده الأصنام قال وأجنُبني وبنّي أن نعبد الأصنام انتهىٰ.
و لقد أجاد صاحب الكشّاف في المقام فقد أجرىٰ اللّه الحقّ علىٰ لسانه حيث قال أي من كان ظالماً من ذُرّيتك لا يناله إستخلافي و عهدي اليه بالإمامة وأنّما ينال من كان عادلاً بريئاً من الظّلم و قالوا في هذا دليل علىٰ أنّ

الفاسق لا يصلح لِلإمامة و كيف يصلح لها مَن لا يجوز حكمه وشهادته و لاتجب طاعته و لا يُقبل خبره و لا يقدّم للصّلاة وكان أبو حنيفة يفتي سرّاً بوجوب نصرة زيد بن علّي رضوان اللّه عليهما وحمل المال اليه والخروج معه علىٰ اللّص المتقلّب المتسمّىٰ بالإمام والخليفة كالدّوانيقي و أشباهه و قالت له إمرأة أشرت علىٰ ابني بالخروج مع إبراهيم ومحمّد ابني عبد اللّه ابن الحَسن حتّىٰ قُتل ليتنا مكان إبنك وكان يقول في المنصور وأشياعه لو أرادوا بناء مسجد وأرادوني علىٰ عدّ أجره لما فعلتُ، وعن ابن عينية لا يكون الظّالم إماماً قطّ و كيف يجوز نصب الظّالم للإمامة والإمام أنّما هو لِكّف الظّلمة فاذا نصب من كان ظالماً في نفسه فقد جاء المَثل السّائر من إسترعىٰ الذّهب ظَلَم انتهىٰ ماذكره بألفاظه و عباراته و الإنصاف أنّه أدّىٰ حقّ المقال فأن كان قد إستَبصر في أواخر عُمره كما قيل فهو وإلاّ فكلامه هذا حجّة عليه يوم القيامة فيُسأل عنه ايّ فرقٍ بين الدّوانيقي و غيره من خلفاء الغاصبين أليس جميعهم منصوبين للإمارة والإمامة من قبل النّاس ثمّ ألَيس كلّهم ظالمين، ألَيس الدّوانيقي و أمثاله من ثمرات السّقيفة و أيّ ذنبٍ للمنصور و غيره إلاّ مُتابعتهم الخلفاء الأوّلين في غصب الخلافة والتصدّي لأمر الإمامة من غير نصٍّ من النّبي و صلاحّيته في أنفسهم فأن كانت الإمامة تثبت بالنصّ كما نقول به فأيَن النصّ فيهم و أن لم يكن بالنّص بل تثبت بتعيين أصحاب الحلّ والعقد فكلّهم فيه سواء و أن كانت العدالة من الشّروط فيها فلا تجد في كلّ الخلفاء من إتّصف بها و حيث أنّ النّاس عيّنوهم لِلإمامة و جعلوهم خلفاء رسول اللّه فهؤلاء النّاس من أكمل مصاديق قوله من إسترعىٰ الذّنب ظلم، و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ يَنقلبُون و حيث إنّجر الكلام الىٰ هنا فلا بأس بالإشارة الىٰ ما ذكره الرّازي في تفسيره لهذه الآية قال:

المسألة الرّابعة: الرّوافض إحتجّوا بهذه الآية علىٰ القدح في إمامة أبي بكر و عُمر من ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنّ أبابكر و عُمر كانا كافرين فقد كانا حال كفرهما ظالمين فَوجب أن يصدق عليهما في تلك الحالة أنّهما لا ينالان عهد الإمامة البتة واذا صدق عليهما في ذلك الوقت أنّهما لا ينالان عهد الإمامة البتة و لا في شئ من الأوقات ثبت أنّهما لا يصلحان لِلإمامة.

الثّاني: أنّ من كان مذنباً في الباطن كان من الظّالمين فأذن ما لم يعرف أنّ أبا بكر وعُمر ما كانا من الظّالمين المذنبين ظاهراً وباطناً وجب أن لا يحكم بامامتهما و ذلک أنّما يثبت في حقّ من تثبت عِصمته ولمّا لم يكونا معصومين بالاتّفاق وجَب أن لا تتحقّق إمامتهما البتة.

الثّالث: قالوا كانا مشركين وكلّ مشرك ظالم والظّالم لا يناله عهد الإمامة فيلزم أن يناله عهد الإمامة أمّا أنّهما كانا مشركين فبالإتّفاق و أمّا أنّ المشرك ظالمٌ فلقوله تعالىٰ: **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** و أمّا أنّ الظّالم لا يناله عهد الإمامة فلهذه الآية لا يقال أنّهما كانا ظالمين حال كفرهما فَبعد زوال الكفر لا يبقىٰ هذا الإسم لأنّا نقول:

الظّالم مَن وجد منه الظّلم وقولنا وجُد منه الظّلم أعمّ من قولنا وجُد منه الظّلم في الماضي أو في الحال بدليل أنّ هذا المفهوم يمكن تقسيمه الىٰ هذين القسمين و مورد التّقسيم بالتّقسيم بالقسمين مشترك بين القَسمين و ما كان مشتركاً بين القسمين لا يلزم إنتفاؤه لإنتفاء أحَد القسمين فلا يلزم من نفي كونه ظالماً في الحال نفي كونه ظالماً والّذي يدّل عليه نظراً الىٰ الدّلائل الشّرعية أنّ النّائم سمّي مؤمناً والإيمان هو التصدّيق والتصديقّ غير حاصل حال كونه نائماً فدّل علىٰ أنّه يسمّىٰ مؤمناً لأنّ الإيمان كان حاصلاً قبل اذا ثبت هذا وجَب أن يكون ظالماً لظلم وجد من قبل وأيضاً فالكلام عبارة عن حروفٍ متوالية والمشي عبارة عن حصولات متوالية في إحياز متابعة مجموع تلك الأشياء البتة لا وجود لها فلو كان حصول المشتقّ منه شرطاً في كون الإسم المشتقّ حقيقة وجب أن لا يكون إسم المتكلّم والماشي و أمثالهما حقيقة في

شئ أصلاً و أنّه باطلٌ قطعاً فدّل علىٰ أنّ حصول المشتقّ منه ليس شرطاً لكون الإسم المشتقّ حقيقة انتهىٰ ماذكره بألفاظه و عباراته ثم قال والجواب كلّ ما ذكرتموه معارضٌ بما أنّه لو حلف لا يسلم علىٰ كافر فسلّم علىٰ إنسان مؤمنٍ في الحال إلاّ أنّه كان كافراً قبل بسنين متطاولة فأنّه لا يحنث فدّل علىٰ ما قلناه و لانّ التّائب عن الكفر لا يسمّىٰ كافراً والتّائب عن المَعصية لا يُسمّىٰ عاصياً فكذا القول في نظائره ألا ترىٰ الىٰ قوله تعالىٰ و لا تَكنوا الىٰ الّذين ظَلموا، فأنّه نهىٰ عن الرّكون اليهم حال إقامتهم علىٰ الظّلم و قوله ما علىٰ المُحسنين من سبيل معناه ما أقاموا علىٰ الإحسان علىٰ أنّا بيّنا أنّ المراد من الإمامة في هذه الأية النّبوة فَمن كَفَر باللّه طَرفة عينٍ لا يَصلح للنبوّة انتهىٰ.

فنقول أمّا تقريره الدّليل فهو ممّا لا غُبار عليه والحقّ أنّه أجاد في تقرير الإستدلال بما لا مزيد عليه و أمّا جوابه عن الإستدلال فهو ناقص مخدُوش بل هو بالمغالطة أشبه و ذلک لأنّ لفظ الإمام في العُرف واللّغة يطلق علىٰ معنيين:

أحدهما: الحكومة والمارة فأنّ الإمام في اللّغة عبارة عمّن يؤتمّ به في أمَر الدّنيا والدّين و الحاكم كذلك و لذلك يطلقون عليه الإمام فأنّ النّاس علىٰ دين ملوكهم و بعبارةٍ أخرىٰ الإمام قد يطلق علىٰ الحاكم في الظّاهر لأنّه متكفّلٌ لتنظيم الجيش في الحروب وتعيين الولاة والقضاة في البلاد و سدّ الثّغور و دفع الأعداء و بالجملة كلّ ما يجب في سياسة المُدن و حفظ الأمّنية في الإجتماع و أن كان في ذلك مُستعيناً بغيره ممّن هو أعلم و أدَهىٰ منه.

ثانيهما: الإمامة في أمر الدّين والدّنيا واقعاً بحيث يكون الإئتمام به مُوجباً لسعادة الدّارين وحلاوة النّشأتين مصوناً عن السّهو والنّسيان والخطأ والطّغيان والظّلم والعدوان والكذب و البهتان و أمثال ذلك من الإنحرافات علماً و عَملاً و قولاً و فعلاً كما قال اللّه تعالىٰ: **أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَنْ يُهْدٰى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**(۱).

۱- يونس = ۳۵

والأمانة بهذا المعنىٰ يشترط فيها أمور من العصمة والعلم والشّجاعة والعفّة وبالجملة جميع الكمالات النّفسانية اذا عرفت هـذا فـنقول الإمـامة بـمعنى الأوّل لا تجمع مع الرّسالة والنّبوة لعدم وجود هذه الصّفات فيه و أمّا الإمامة علىٰ القول الثّاني قد يكون مع الرّسالة وقد لا تكون و ذلک لأنّ شرائط الرّسالة موجودة في الإمام فأن كان مراد الرّازي الإمام بالمعنىٰ الأوّل فما ذكره صحيحٌ لأنّه لابدّ للنّاس من أميرٍ برّ أو فاجر ويطلق عليه الإمام لغةً و عرفاً فيكفي كونه عادلاً حين التصدّي الىٰ الفَرض أن وجد.

أمّا الإمامة بالمعنىٰ الثّاني فلابدّ لها من الشّروط المـذكورة وأن لا يكـون ظالماً من أوّل الأمر مثل النبوّة فلا يكفي فيها عدم كون الحاكم ظالماً حـين التصدّي فقط فما ذكره في أخر كلامه و هو أنّ المراد من الإمامة في هذه النبوّة فَمن كفر باللّه طرفة عينٍ لا يصلح للنبوّة فقط فهو مخالفٍ لصريح الآية لأنّ اللّه تعالىٰ يقول أنّي جاعلك للنّاس إماماً، ولمّا قال إبراهيم: **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** فالمراد بالعَهد الإمامة قطعاً اذ ليس البحث في النّبوة والأية أيضاً ساكتة عنها ألا ترىٰ أنّ الآية تنادي بأعلىٰ صوتها أنّ اللّـه جـعَل إبراهيم إماماً لا نَبيّاً فقوله تعالىٰ **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي** راجع الىٰ الإمامة في صدر الآية فَحمل العَهد علىٰ النّبُوة تحتاج الىٰ دليل و اذ ليس فليس.

و ثانياً، لو كان المراد من الإمامة النّبوة كما إعترف به فلم لم يقل أنّي جاعلك للنّاس نبيّاً و قال إماماً فيُعلم بذلك أنّ المراد بالإمامة غير النّبوة و هو المطلوب.

سلّمنا أنّ المراد بالإمامة في الآية النّبوة لكن النّبوة لا تـجتمع مَـعَ الكـفر والظّلم سابقاً و لاحقاً كما صرّح به و قال فَمن كَفَر باللّه طرفة عينٍ لا تـصلح للنبوّة فكذا الإمامة لا تجتمع اذ المفروض أنّ المراد بها النّبوة و حكم الأمثال واحد فينتج أنّ من كفر باللّه طرفة عينٍ لا يصلح للامامة أيضاً لإت حادهما علىٰ قوله واذا كان كذلك فالإمامة والنّبوة قد تجتمعان كما في المقام و قد لا تجتمعان و نحن أيضاً نقول به اذ ليس كلّ نبّيٍ بامامٍ كما لا يكون كلّ إمامٍ بنبّيٍ

فمورد الإجتماع إبراهيم الخليل عليه السلام بنصّ الآية و أمّا مورد الإفتراق من الطّرفين فلابدّ من وجوده فيهما أمّا النبوّة التّي ليست فيها إمامة كأكثر الأنبياء غير الخليل بل جميعهم فأنّ الكتاب لم يعلم بإمامة أنبياء السّلف سوىٰ إبراهيم ولو قلنا بإمامة أُولي العزم منهم فالباقون و هو واضح و أمّا الإمامة التّي ليست فيها النبوّة فأين مصدّاقها و علىٰ الرّازي الجواب و أمّا نحن فنقول الأئمّة المَعصُومون و بعبارةٍ واضحة لا شكّ أنّ الإمامة و النبوّة كلّيتان من حيث المفهوم لصدّق كلّ واحدٍ منهما علىٰ كثيرين و لا نعنىٰ بالكلّي إلاّ هذا فأنّهم قالوا المفهوم أن إمتَنع فرض صدقه علىٰ كثيرين فجزئيّ و إلاّ فكلّيّ و معلوم أنّ الإمامة و النبوّة لم يمتنع فَرض صدقهما علىٰ كثيرين وكلّ كُلّيَين لابدّ أن يكون بينهما إحدىٰ النِّسب و هي التّباين والتّساوي، و العموم و الخصوص المطّلق، و العموم و الخصوص من وجهٍ و هذا مِمّا إتفقّ عليه الكّل و حينئذٍ فنقول، لا يمكن التّباين لأنّ شرط وجوده سلب الكلّي من الطّرفين مثل لا شئ من الإنسان بحجرٍ، و لا شئ من الحِجر بإنسانٍ و أنّما قلنا لا يمكن، إذ لا يصحّ أن يقال، لا شئ من النّبي بإمامٍ و لا شئ من الإمام بنبّي، و ذلك لإعترافه بأنّ المراد من الإمامة في الآية النبوّة فلو كانت متبايّنتين لا يصّح إجتماعها و هو يقول به فإذاً لا يقول بالتّباين، و لا يمكن التّساوي أيضاً لأنّ الشّرط فيه صدق الكلّية من الطّرفين علىٰ عكس التّباين مثل كل إنسان بشر وكلّ بشَرٍ إنسان، و معلوم أنّ مانحن فيه ليس من هذا القبيل أيضاً إذ لا يصحّ أن يقال كلّ نبّيٍ إمام وكلّ إمامٍ نبّي و الرّازي أيضاً لا يقول به لأنّه يقول المراد من الإمامة في هذه الأية النبوّة معناه أنّ الإمامة في غير الآية ليست كذلك و إلاّ فحقّ العبارة أن يقال قد بيّنا أنّ المراد من الإمامة النبوّة ولم يقل به بقىٰ في المقام من النّسب الأربع إثنان، عمومٌ وخصوصٌ مطلق و عموم و خصوص من وجهٍ.

أما العموم والخصوص المطلق فالشّرط في تحققه صدق الكلّية من جانبٍ واحدٍ، كما بين الإنسان والحيوان، فنقول كلّ إنسانٍ حيوان و لا نقول كلّ حيوان

إنسان بل بعضه إنسان وبعضه ليس بإنسان، وما نحن فيه ليس من هذا القبيل أيضاً إذ لا يصّح، كلّ نبّيٍ إمام و لا كلّ إمامٍ نبّيٍ ولمّا لم يصّدق الكلّمة من أحد الطَّرفين فهو أيضاً خارجٌ عن النّزاع، بقىٰ في المقام العُموم والخُصوص من وجهٍ ويشترط في صدقه الإجتماع في موردٍ والإفتراق في موردين، مثاله الحيوان والأبيض.

لا تصدق الكلّية فيهما من الطّرفين فلا يكونا متساويين، إذ لا يصحّ كلّ حيوانٍ أبيض، لأنّ بعض الحيوانات أسوَد، و لا كلّ أبيضٍ حيوانٍ لأنّ الثّلج والعاج و القرطاس و أمثالها أبيض و ليس بحيوان، و لا يصحّ سلب الكلّي أيضاً من الطّرفين فلا يقال لا شئ من الحيوان بأبيض، و لا شئ من الأبيض بحيوان لكذبهما، فلا يكون بمتباينين، و لا يصّح سلب صدق الكلّية من جانبٍ واحدٍ و هو أيضاً ظاهر فلا يكونان بعمومٍ و خصوصٍ مطلق، فهما من قبيل العموم والخصوص من وجهٍ فيقال بعض الحيوان أبيض وبعض الأبيض حيوان كالحمار الأبيض و هذه مادّة الإجتماع، و بعض الحيوانات ليس بأبيض كالبقر الأسود و بعض الأبيض ليس بحيوان كالثلج والعاج و أمثالهما إذا عرفت هذه القاعدة المسلّمة عند الكلّ فنقول الإمامة والنّبوة حيث أنّهما كلّيتان و لا يكون بينهما من النّسب التّساوي و التّباين و العموم و الخصوص المطلق كما مرّ فلا محالة بينهما العموم من وجهٍ فمادّة الإجتماع إبراهيم الخليل و بعض الأنبياء علىٰ قولٍ ونبّينا صلى الله عليه وآله وسلم قطعاً و هذا ظاهر وأمّا مادتّي الإفتراق فنقول بعض الأنبياء ليسوا بإمام أمثال هود و صالح و يُونس و نُوح و هكذا و بعض الإمام ليسو بنبّيٍ، أمّا علىٰ مذهبنا فهم الأئمة الأثني عشر وأمّا علىٰ قول الرّازي فلا نعلم و لا يعلمَ هو أيضاً فلابدّ له من تعيين المصدّاق فأن قال بما نقول فهو المطلوب.

وإلاّ فلابدّ له من أن يقول هم أبو بكر و عُمر و عثمان و أمثالهم و هو لا يقول بإمامتهم بالمعنىٰ الّذي ذكره من أن المراد بالإمامة في الآية النبوّة بل يقول بإمامتهم لا بهذا المعنىٰ و هو خارج عن البحث و عن مورد الآية فيجب علىٰ

الرّازي و أمثاله إمّا إنكار الآية رأساً من الكتاب، و أمّا تفسير الإمامة بالمعنىٰ الّذي ذكرناه وأنّ المراد بالعَهد هو الإمامة أيضاً لا غيرها والآن يجب علينا نقل كلامه في العَهد أيضاً.

المسألة الخامسة : قال الجمهور من الفقهاء والمتكلّمين الفاسق حال فِسقه لا يجوز عقد الإمامة له و إختلفوا في أنّ الفسق الطّارئ هل يبطل الإمامة أم لا و إحتجّ الجمهور علىٰ أنّ الفاسق لا يصّلح أن تعقد له الإمامة بهذه ووجه الإستدلال بها من وجهين.

الوجه الأوّل: ما تبيّنا أنّ قوله: **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** جوابٌ لقوله: **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** و قوله: **ومن ذريّتي** طلبٌ للإمامة التّي ذكرها اللّه تعالىٰ فوجب أن يكون المراد بهذا العَهد هو الإمامة ليكون الجواب مطابقاً للسؤال فتصير الآية كأنّه قال تعالىٰ لا ينال الإمامة الظّالمين وكلّ عاصٍ فأنّه ظالمٌ فكانت الآية دّالة علىٰ ما قلناه، فأن قيل ظاهر الآية يقتصي إنتفاء كونهم ظالمين ظاهراً وباطناً و لا يصّح ذلك في الأئمة والقضاة، قلنا أمّا الشّيعة فيستّدلون بهذه الآية علىٰ صحّة قولهم في وجوب العصمة ظاهراً وباطناً و أمّا نحن فنقول مقتضىٰ الآية ذلك إلاّ إنّا تركنا إعتبار الباطن فتبقىٰ العدالة الظّاهرة معتبرة، فأن قيل أَليسَ أنّ يونس عليه السلام قال:**سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**[1] و قال آدم: **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا** قلنا المذكور في الآية هو الظّلم المطلق و هذا غير موجودٍ في آدم و يُونس عليهما السّلام انتهىٰ.

و نحن نقول في المقام قوله مقتضىٰ الآية ذلك أي وجوب العصمة ظاهراً وباطناً من أصّح الأقوال و أمّا قوله إلاّ إنّا تركنا إعتبار الباطن فتبقىٰ العدالة الظّاهرة مُعتبرة ففيه ما لا يخفىٰ و هو أنّه لم تركتم إعتبار الباطن بعد الإقرار بأنّ مقتضي الآية إعتبار العصمة ظاهراً و باطناً، اليسَ هذا مخالفة لنصّ الكتاب، اليسَ هذا من قبيل نؤمن ببعضٍ و نكفر ببعضٍ، ثمّ ما الفرق بينكم و بين اليهود

١- الانبياء= ٨٧

حيث أنكروا أوصاف النّبي أو حذفوها من التّوراة أو فسرّوا الكتاب لإتباعهم علىٰ الأميال والأهواء و نحن نرجو أن يكون الرّجل مع الإعترافات الصّريحة من المُتبصرين وإلاّ فقد تمّت الحجّة بعلمه و اقراره على نفاقه وليس له جواب عند اللّه يوم القيامة إذا سُأل عنه بعد إقراره بأنّ مقتضىٰ الآية كذا وكذا فبأيّ دليل ترك إعتبار الباطن حتّىٰ تبقى العدالة الظّاهرة مع أنّها أيضاً لا تبقىٰ إلاّ بمجرّد الإدّعاء إذ كيف يمكن بقاء العدالة الظّاهرة مع عَدم العِصمَة و هذا الكلام من الرّازي مع توغّله في العقليّات والنقليّات عجيبٌ بل هو من قبيل المثل السّائر الغريق يتشبّث بكلّ حشيش هذا كلامه في الوجه الأوّل من الوجهين في معنىٰ العهد في الأية.

أمّا الوجه الثّاني: أنّ العَهد قد يستعمل في كتاب اللّه بمعنىٰ الأمر:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِيٓ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**(١)

أي أَلَم آمركم بهذا:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ** (٢).

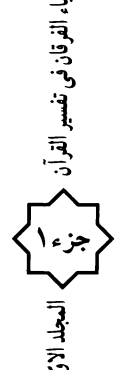
يعني أمرنا ومنه عُهود الخلفاء الىٰ أُمرائهم وقضاتهم إذا ثبت عهد اللّه هو أمره فنقول لا يخلو قوله: **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** من أن يُريد أنّ الظّالمين غير مأمورين و أنّ الظّالمين لا يجوز أن يكونوا فمن يقبل من يقبل منهم أوامر اللّه تعالىٰ و لمّا بطل الوجه الأوّل لإتّفاق المسلمين علىٰ أنّ أوامر اللّه تعالىٰ لازمة للظّالمين كلزومها لغيرهم ثبت الوجه الأخر و هو أنّهم غير مؤمنين علىٰ أوامر اللّه و غير مقتدين بهم فيها فلا يكونون أئمّة في الدّين فثبت بدلالة بطلان إمامة الفاسق قال عليه السلام لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق و دلّ أيضاً علىٰ أنّ الفاسق لا يكون حاكماً وأنّ أحكامه لا تنفذ إذ ولي الحكم وكذلك لا تقبل شهادته و لا خبره إذا أخبر عن النّبي و لا قوله إذا أفتىٰ و لا يقدم للصلاة وأن كان هو بحيث لو إقتدىٰ به فأنّه لا تفسد صلاته انتهىٰ.

١- يس = ٦٠ ٢- آل عمران = ١٨٣

موضع الحاجة من كلامه ثمّ ذكر كلاماً عن أبى‌بكر الرّازي في أبي حنيفة حاصله أنّ أبا حنيفة أيضاً كان علىٰ هذا المذهب و انّه لم يفرّق بين الخليفة والحاكم في أنّ شرط كلّ واحدٍ منهما العدالة و لَم يجوّز كون الفاسق إماماً و خليفة كيف و روايته غير مقبولة وأحكامه غير نافذةٍ الىٰ آخر ما قال ونحن نقول في جوابه لا ننكر أنّ العَهد قد يستعمل في كتاب اللّه بمعنىٰ الأمر و غيره و ليس كلامنا في معنىٰ العهد مطلقاً و لا في موارد إستعماله و أنّما الكلام في المراد به في هذه الآية فإذا فرضنا أنّ العهد في قوله تعالىٰ: **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِيّ آدَمَ**: بمعنىٰ الأمر لا يلزم منه أنّ العَهد في كلّ مورد معناه الأمر و هو واضح والعَهد في الآية التّي نتكلم فيها بقرنية السّياق ليس معناه الأمر لأنّ اللّه تعالىٰ قال: **اِنّي جاعِلُكَ لِلنّاسِ اِماماً** ولمّا سأل إبراهيم ما أعطاه اللّه لذّريته قال تعالىٰ في جوابه **لا يَنالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ** أي لا ينال ما أعطيتك من الإمامة الظّالمين فالعَهد كناية عمّا أعطاه اللّه و هو الإمامة و هو أيضاً قد إعتَرف به في طّي كلماته حيث قال فَوجب أن يكون المراد بهذا العَهد هو الإمامة ليكون الجواب مطابقاً للسّؤال والحمد لِلّه علىٰ كلّ حالٍ ونحن علىٰ ذلك من الشّاكرين.

تنبيهٌ:

إعلم أنّ الأرض لا تخلو عن الحجّة و إلاّ لساخت الأرض بأهلها و المراد بها من عنده الحُجج والبيّنات والعلوم الدّينية ثمّ أنّ الحُجّة قد يُعبّر عنها بالرّسول وقد يُعبّر عنها بالنّبي و ثالثاً بالإمام فالإمامة قد تكون مع النبوّة والرّسالة كما في نَبّينا صلّی الله علیه و آله وسلّم و إبراهيم الخليل و قد لا تكون كما في الأئمّة المَعصُومين أمّا الشّرائط من العِصمة و الشّجاعة و العدالة و غيرها فهي في الكلّ علىٰ حدٍّ سواء و تفصيل الكلام موكولٌ الىٰ محالّه ولِنَختُم البحث حول الآية الشّريفة و نُشير الىٰ بعض ما وَرد من الأخبار في المقام من طريق العامّة والخاصّة.



أمّا العامّة:

فقد روي ابن المغازلي الشّافعي بأسناده عن عبد اللّه ابن مسعود قال: قال رسول اللّه ﷺ: أنا دعوة إبراهيم قلتُ يا رسول و كيف صرتَ دعوة أبيك إبراهيم قال أوحىٰ اللّه عزّ وجلّ الىٰ إبراهيم **إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً** فأستّخف إبراهيم الفَرح قال: **وَمِنْ ذُرِّيَّتي** ائمّة مثلي فأوحىٰ اللّه عزّ وجلّ اليه أن يا إبراهيم أنّي لأعطيك عهداً لا أفي لَك به قال يا ربّ ما العَهد الّذي لا تفي لي به قال لا أعطيك لظالمٍ من ذُريّتك عَهذاً قال إبراهيم عندها وأجنُبني وَبَنِّيَ أن نعبد الأصنام ربّ أنّهنَّ أضّلَّلن كثيراً من النّاس فقال النّبي ﷺ فأنتَهت الدّعوة إلَّي والىٰ علّي لَم يسجُد أحدَنا لَصَنمٍ قطّ فأتّخذني نبّياً واأتّخذ علّياً وصياً، وروي الواحدي في تفسير قوله تعالىٰ: **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ** قال في تفسير ذلك لا ينال عَهدي الظّالمين أعلَمه أنّ في ذرّيته الظّالم وقال السّدي عهدي بنبّوتي يعني لا ينال عَهدي ما عهدتُ اليك من النبّوة والإمامة في الدّين من كان ظالماً من وُلدك وقال الفرّاء لا يكون للنّاس إمامٌ مُشرك.

وأمّا الخّاصة:

أعني بها الشّيعة فقد تواترت الأخبار عنهم في المقام وكفاك في ذلك إنّهم إتّفقوا علىٰ أنّ المراد بالعَهد الإمامة وأنّه لا ينالها كافر أو ظالم أو فاسق مطلقاً ولو بِلحظةٍ وقد مرّ بعض الأخبار في أوائل البَحث ولِنُشر الىٰ بعضٍ آخر تكميلاً لِلبحث.

منها ما رواه المفيد بأسناده عنهم في حديثٍ قال عليه السلام: كان إبراهيم نبّياً وليس بإمامٍ حتّىٰ قال اللّه تبارك وتعالىٰ: **إِنِّي جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً** قال **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي** فقال اللّه تعالىٰ: **لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ**

من عَبد صَنماً أو وَثَناً أو مثالاً لا يكون إماماً إنتهىٰ.

و منها ما رواه في بصائر الدّرجات بأسناده عن الصّادق عليه السلام أنه قال: يُنكرون الإمام المفروض الطّاعة و يَجحدونه واللّه ما في الأرض منزلة أعظم من منزلة مفترض الطّاعة لقد كان إبراهيم دَهراً ينزل عليه الوَحي حتّىٰ بَدا لِلّه أن يَكرمه ويُعظّمه فقال: جٰاعِلُكَ لِلنّٰاسِ إِمٰاماً فعُرف إبراهيم ما فيها من الفضل فقال وَمِنْ ذُرِّيَّتِي أي وأجعل ذلك في ذريّتي قال اللّه عزّ وجلّ: لاٰ يَنٰالُ عَهْدِي الظّٰالِمِينَ قال عليه السلام إنّما هو في ذريّتي لا يكون في غيرهم إنتهىٰ[1].

و قد روي أحاديث كثيرة إن شئت فراجعه، ولعمري أنّ الأمر أوضح من أن يخفىٰ علىٰ ذي مسكةٍ ولكن حُبّ الشّئ يعمي ويصّم ولِنعم ما قيل:

لقد كتموا آثار آل محمّدٍ محبّوهم خوفاً وأَعدائهم بُغضاً
فأُبرزَ مِن بَين الفَريقين نَبذة بها مَلاءَ اللّه السّموات والأرضَ

والعَجَب كلّ العَجب من أكثر مُفسّري العّامة أمثال الطَبَري والقُرطبي والآلُوسي والبيضاوي و إبن كثير الدمشقي و نظرائهم مِمّن أطالوا الكلام في تفاسيرهم فيما لا فائدة فيه لا في الدّنيا و لا في الأخرة بحيث صارت كتُبهم مجلّدات و أمّا في الآية و أمثالها ممّا يرتبط بإعتقاد النّاس ودينهم إمّا سكتُوا عن البحث فيها بالمرّة و أمّا قَنَعُوا بَسَطرٍ أو بِسَطرين في توضيح لغات زعماً منهم أنّ إطفاء الحقّ يكفي في تثبيت الباطل غافلاً عن أنّ لِلحقّ دولة ولِلباطل جَولة كلّ ذلك لِعَدم إحساسهم المَسئوليّة عند اللّه و نحن نقول لهم فأنتظروا إنّا معكم من المُنتظرين.

لو كان لِلمرء فكراً في عواقبه
ما شأن أخلاقه حرصُ ولا طمعُ

١- الأحاديث نقلناها عن كتاب غاية المرام ص ٢٧٠ وص ٢٧٢

وكـيف يُـدرك مـا فـي الغـيب مـن حَـدَثٍ
مـن لَـم يَـزَل بـغُرور العـيش يَـنخَدع
يســعىٰ الفــتىٰ لأمــورٍ قــد تـضّر بـه
ولَــيس يــعلم مــا يأتــي ومـا يَـدَعُ
دَع مــا يُــريب وخُـذ فـيما خـلقتُ له
لعـــلّ قـــلبك بـــالإيمان يــنتفعُ
أنّ الحــياة كـثوبٍ سـوف تَـخلعه
وكـــلّ ثــوبٍ إذا مــا رُثّ يَـنخَلعُ

هذا تمام الكلام في الآية الشّريفة وتفصيل الكلام في الإمامة وشرائـطها يستدعي تأليفاً مُستّقلاً وفقّنا اللّه تعالىٰ له

■

وَاِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثٰابَةً لِّلنّٰاسِ وَاَمْناً وَّاتَّخِذوُا مِنْ مَّقٰامِ اِبْرٰاهيمَ مُصَلًّى وَّعَهِدْنٰاۤ اِلىٰۤ اَبْرٰاهيمَ وَاِسْمٰاعيلَ اَنْ طَهِّرٰا بَيْتِيَ لِلطّٰۤائِفينَ وَالْعٰاكِفينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿۱۲۵﴾ وَاِذْ قٰالَ اَبْرٰاهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً اٰمِناً وّارْزُقْ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ مَنْ اٰمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ قٰالَ وَمَنْ كَفَرَ فَاُمَتِّعُهُ قَليلاً ثُمَّ اَضْطَرُّهُ اِلىٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَبِئْسَ الْمَصيرُ ﴿۱۲۶﴾ وَاِذْ يَرْفَعُ اِبْرٰاهيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَاِسْمٰاعيلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰاۤ اِنَّكَ اَنْتَ السَّميعُ الْعَليمُ ﴿۱۲۷﴾

◁ اللغّة

الْبَيْتَ: أصل البَيت مأوىٰ الإنسان باللّيل لأنّه يقال باتَ، إذا قام باللّيل ثمّ قد يقال للمسكن بيت من غير إعتبار اللّيل فيه وجمعه أَبيات وبيُوت و عبّر عن مكان الشّيء بأنّه بيتُه، وبيت اللّه والبَيت العتيق مكّة.

مَثٰابَةً: قيل معناه مكاناً يكتب فيه الثّواب.

اَمْناً: الأمن ضدّ الخوف.

فَاُمَتِّعُهُ: أُمتع علىٰ وزن أصرف من باب التّفصيل و هو متّكلم وحده من المضارع و ماضيه متّبع و هو مأخوذ من المتاع و معناه إنتفاعٌ ممتّد الوقت.

الْقَوٰاعِدَ: جمع قاعدة.



◁ الإعراب

وَاِذْ في موضع نَصب علىٰ المفعول به أي أُذكر جَعَلْنٰاجَعَل بمعنىٰ صَيَّر و قيل بمعنىٰ خَلَق أو وضع فَيكون مثابةً، حالاً وأصل مثابة مثُوبة لأنّه من ثاب

يثوب اذا رجع و عليه فمعناه محلّ الرّجوع لِلنّاسِ صفة لمثابة وّاتّخِذوُا يُقرأ علىٰ لفظ الخبر والمعطوف عليه محذوف تقديره فثابوا وإتَّخَذوا ويُقرأ علىٰ لفظ الأمر فيكون مستأنفاً مِنْ مَّقَامِيجوز أن يكون من للتّبعيض أي بعض مقام إبراهيم مصّلىٰ ويجوز أن تكون مِن بمعنىٰ في و يجوز أن تكون زائدة علىٰ قول الأخفش مُصَلًّى مفعول إتَّخذُوا وألفه منقلبة عن واوٍ و وزنه مفعل و هو مكان لا مصدر و يجوز أن يكون مصدراً و فيه حذف مضاف و تقديره مكان مُصّلىٰ أي مكان صلاةٍ والمقام موضع القيام و ليس بمصدرٍ هنا لأنّ قيام إبراهيم لا يتّخذ مُصلّىٰ اَنْ طَهِّرَا يجوز أن تكون أن هنا بمعنىٰ أي المفسرة لأنّ عَهدنا بمعنىٰ قلنا والمفّسرة تَرد بعد القول و ماكان في معناه فلا موضع لها علىٰ هذا و يجوز ن تكون نصّدرية وصلتها الأمر السُّجُودِ جمع ساجد و قيل هو مصدر و فيه حذف مضاف أي الرُكّع ذوي السّجُود اجْعَلْ هٰذا بَلَداً، إجعل بمعنىٰ صيّر و هذا مفعول الأوّل، و بلداً مفعول الثّاني اٰمِناً صفة مفعول الثّاني مَنْ اٰمَنَ، مَن بَدلٌ من أهله و هو بَدل بعض من كُلّ مَنْ كَفَرَ في مَن وجهان:

أحدهما:بمعنىٰ الّذي.

ثانيهما: نكرة موصوفة و موضعها نصب والتّقدير قال وأرزُق من كَفر.

فَأُمَتِّعُهُ عطف علىٰ الفعل المحذوف قَلِيلاً نعتٌ لمصدر محذوف أو لظرفٍ محذوف ثُمَّ اَضْطَرُّهُ الجمهور علىٰ رفع الرّاء وقرئ بفتحها و وَصَل الهَمزة علىٰ الأمر بِئْسَ الْمَصِيرُ،المَصير فاعل بئس والمخصوص بالذّم محذوف و تقديره و بئس المصير النّارمِنَ الْبَيْتِ في موضع نصب علىٰ الحال من القواعد ويجوز أن يكون في موضع نصب مفعولاً به بمعنىٰ رَفعها عن أرض البيت لإسماعيل معطوف علىٰ إبراهيم والتّقدير يقولان ربّنا، و يقولان هذه في موضع الحال و قيل إسماعيل مبتدأ والخبر مَحذوف أي يقول ربّنا.

◁ التّفسير

قال اللّه تعالىٰ: **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ** الىٰ قوله: **وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**

الواو في **وَإِذْ جَعَلْنَا** للعطف و هو معطوف علىٰ قوله: **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** والمراد بالبَيت الّذي جَعَله مثابةً لِلنّاس هو البيت الحرام و هو الكعبة ورُوي أنّه أنّما سُمّي البيت الحرام لأنّه حَرُم علىٰ المشركين أن يدخلوه وسُمّي الكعبة لأنّها مُرَبَعة و صارت مُرّبعة لأنّها بحذاء البيت المعمور و هو مُرّبع وصار البيت المأمور مُرّبعاً لأنّه بجذاء العرش و هو مرّبع و صار العَرش مُرَبَعاً لأنّ الكلمات التّي بني عليها الإسلام أربع وهي سبحان اللّه والحمد لِلّه و لا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر ذكره الطّبرسي في المجمع، قوله تعالىٰ: **جَعَلنا** أي صَيّرنا أو وَضَعنا أو خَلَقنا البيت مثابةً أي مَرجعاً لِلنّاس كما قال ورقة ابن نوفل في الكعبة:

مَـــثاباً لإفـــناء القــبائل كـلّها   تَخُبّ اليها اليَعملات الذّوامـل

هذا اذ قلنا من ثاب يَثوب مثاباً بمعنىٰ رَجَع ويحتمل أن يكون مِن الثّواب أي يُثابُون هناك فالبيت مكان الثّواب، و الىٰ هذا يشير من قال:

جُـــعل البَـــيت مـــثاباً لهـــم   ليس مـنه الدّهـر يقضون وَطر

والأصل فيه مثوبة فقلبت الواو ألفاً أتباعاً لثاب يثُوب وأمناً أي مأمناً قيل جَعَله اللّه مأمناً لِلنّاس بأن حَكم أنّ من عاذَ به وإلتَجأ اليه لا يخاف علىٰ نفسه ما دام فيه ولِعِظَم حُرمته لا يُقام في الشّرع الحَدّ علىٰ من جَنىٰ جِناية فإلتَجأ اليه و الىٰ حَرمه ولكن يُضّيق عليه في المطعم و المَشرب والبيع والشّراء حتّىٰ يخرج منه فيقام الحدّ عليه فأن أحَدَث فيه ما يوجب الحدّ عليه أُقيم الحدّ عليه لأنّه هَتك حرمة الحَرَم فهو آمن من هذه الوجوه و قيل قبل الإسلام أيضاً كان كذلك فأنّ الرّجل كان يرىٰ قاتل أبيه فيه فلا يتّعرض له و هذا شئ كانوا قد توارثوه من دين إسماعيل فَبَقوا عليه الىٰ أيّام نبّينا صلّى الله عليه وآله وسلّم.

أقول روىٰ علّي ابن إبراهيم بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال:



أنّ إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بادية الشّام فلمّا وُلد له من هاجر إسماعيل إغتّمت سارة من ذلك غمّاً شديداً لأنّه لم يكن له ولد منها و كانت تُؤذي إبراهيم في هاجر و تغمّه فشكىٰ إبراهيم ذلك الىٰ اللّه عزّ وجلّ فأوحىٰ اللّه اليه أنّما مَثل المرأة مثل الضّلع العوجاء إن تَركتها إستَمتعت بها وأن أقَمتها أكسّرتها ثمّ أمَره أن يخرج إسماعيل و أُمّه فقال ياربّ والىٰ أيّ مكانٍ قال الىٰ حرمي و أمَني و أوّل بُقعةٍ خلقتُها من الأرض و هي مكّة فأنزل اللّه عليه جبرئيل بالبراق فَحمل هاجر و إسماعيل و إبراهيم و كان إبراهيم لا يَمُّر بموضعٍ حَسنٍ فيه شجرٍ وزرعٍ و نخيلٍ إلاّ و قال ياجبرئيل الىٰ هاهنا فيقول لا أمض أمضِ حتّىٰ وافىٰ مكّة في موضع البيت و قد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتّىٰ يرجع اليها فلمّا نزل في ذلك المكان كان فيه شَجر فألقت هاجر علىٰ ذلك الشّجر كساءً كان معها إستّظلوا تحته فلمّا سَرحهم إبراهيم ووَضَعهم وأراد الإنصراف عنهم الىٰ سارة قالت له هاجر يا إبراهيم أتَدّعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع فقال إبراهيم اللّه الّذي أمَرني أن أضَعكم في هذا المكان هو يكفيكم ثمّ إنصرف عنهم فلّمابلغ كداء وهو جَبل بذي طوىٰ إلتَفت إبراهيم فقال ربّ أنّي أسكَنت من ذُرّيتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرّم ربّنا ليَقيموا الصّلاة فإجعل أفئدة من النّاس تهوىٰ اليهم وأرزقهم من الثّمرات لعلّهم يشكرون، ثمّ مضىٰ وبقيت هاجر فلمّا إرتفع النّهار عطش إسماعيل قام وطلب الماء فقامت هاجر في الوادي في موضع السّعي فنادت هل في الوادي من أنيس فغاب عنها إسماعيل فَصَعدت علىٰ الصّفاء وَلَمع لها السّراب في الوادي فَظنّت أنّه ماء فَنزلت في بطن الوادي وسَعت فلمّا بلغت المَسعىٰ غاب عنها

إسماعيل ثمّ لَمَع لها السّراب في ناحية الصّفاء فهبطت الىٰ الوادي تطلب الماء غاب عنها إسماعيل عادت حتّىٰ بلغت الصّفا فنظرت حتّىٰ بلغ فَعَلت ذلك سبع مرّات فلمّا كانت في الشّوط السّابع وهي علىٰ المروة نظرت الىٰ إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعادت حتّىٰ جمعت حَوله وملأ فأنّه كان سائلاً فَزمّته بما جعلته كَوله فلذلك سُمّيت زَمزَم وكانت جُرهُم نازلة بذي الحجاز وعرفات فلمّا ظهر الماء بمكّة عكفت الطّير والوَحش علىٰ الماء فَنَظرت جُرهُم الىٰ تعكّف الطّير والوَحش علىٰ ذلك المكان فأتَبعتها حتّىٰ نظروا الىٰ إمرأةٍ وصبّي نازلين في ذلك الموضع قد إستّظلا بشجرةٍ وقد ظَهر الماء لهما فقالوا لهاجر من أنتِ وما شأنك وشأن هذا الصّبي قالت أنا أُمّ ولَد إبراهيم خليل الرّحمٰن وهذا ابنه أمَره اللّه أن يُنزلنا هاهنا فقالوا لها أتَأذنين لنا أن نكون في القرب منكم فقالت لهم حتّىٰ يأتي إبراهيم فلمّا زارهم إبراهيم يوم الثّالث قالت هاجر ياخليل اللّه أنّ هاهنا قوماً من جُرهُم يسألونك أن تأذن لهم حتّىٰ يكونوا بالقُرب مِنّا أَفَتأذن لهم في ذلك فقال إبراهيم نِعم فأذنت هاجر لهم فَنَزلوا بالقُرب منهم وضَربوا خيامَهم فأَنست هاجر وإسماعيل بهم فلمّا زارهم إبراهيم في المرّة الثّانية نظر الىٰ كثرة النّاس حَولهم فَسّر بذلك سروراً شهيداً فلمّا تحرّك إسماعيل وكانت جُرهم قد وهبوا لإسماعيل كلّ واحدٍ منهم شاة وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان فلمّا بلغ إسماعيل مبلغ الرّجال أمَر اللّه إبراهيم أن يبني البيت فقال ياربّ في أيّ بقعةٍ قال في البقعة التّي أنزلت علىٰ آدم القبة فأضاء لها الحَرم فَلم تزل القُبة التّي أنَزلها اللّه علىٰ آدم قائمة حتّىٰ كان أيّام الطّوفان أيّام نوح فلمّا غرقت الدّنيا رَفع اللّه تلك القُبّة وغرقت الدّنيا إلاّ موَضع البيت فسُمّيت البَيت العَتيق لأنّه أُعتِق من

الغَرق فلمّا أمَر اللّه عزّ وجلّ إبراهيم أن يبني البيت لم يَدر فـي أيّ مكانٍ يُبنيه فَبَعث اللّه عزّ وجلّ جبرئيل فَخَطّ له موضع البيت فَأنزل اللّه عليه القواعد من الجنّة و كان الحَجر الّذي أنزل اللّـه عـلىٰ آدم أشدّ بياضاً من الثّلج فلمّا مَسَّه أيدي الكفّار إسوَّد فَبنىٰ إبـراهـيم البيت ونقل إسماعيل من ذي طوىٰ فَرفعه في السّماء تسعة أذرُعٍ ثمّ دلّه علىٰ مَوضع الحَجر فإستَخرجه إبراهيم وَوضَعه في موضعه الّذي هو فيه الأن فلمّا بني جَعل له بابين باباً الىٰ الشّرق وباباً الىٰ الغرب والباب الّذي الىٰ الغرب يسـمّىٰ المسـتجار ثـمّ ألقـىٰ عـليه الشّجر والأذخر وألَقت هاجر علىٰ بابه كساء كـان مَـعها وكـانوا يكونون تحته فلمّا بنىٰ و فَرغ منه إبراهيم و إسماعيل و نَزل عليهما جبرئيل يوم التّروية لثمان من ذي الحجّة فقال ياإبراهيم قُم فأرتق من الماء لأنّه لم يكن بمنىٰ وعرفات ماء فسمّيت التّروية لذلك ثـمّ أخَرجه الىٰ منىٰ فبات بها ففَعل به ما فَعل بآدم فقال إبراهيم لمّا فَرغ من بناء البيت ربّ إجعل هذا البَد آمناً وأرزق أهله من الثّمرات من آمن منهم باللّه واليوم الأخر وقال فى ثمرات القلوب أي حُبّهم الىٰ النّاس انتهىٰ.

و عن المنذر الثّوري عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن الحَجر فقال نزلت ثلاثة أحجار من الجنّة الحَجر الأسود إستودعه إبـراهـيم و مقام ابراهيم و بنى اسرائيل قـال ابـوجعفر عليه السلام ان اللّـه اسـتودع ابراهيم و الحَجَر الأبيض وكان أشدّ بياضاً من القراطيس فـإسوّد من خطايا بني آدم وعن جابر الجعفي قال محمّد ابن علّي ياجابر ما أعظم فرية أهل الشّام علىٰ اللّه يزعمون أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ حيث صعد الىٰ السّماء وضَع قَدمه علىٰ صخرة بيت المقدس ولقد وضع عبد من عباد اللّه قَدَمه عـلىٰ حَـجرٍ فأمـر اللّـه تـبارك وتـعالىٰ أن

تتّخذوه مُصّلىٰ ياجابر أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ لا نظير له ولا شبيه تعالىٰ اللّه عن صفة الواصفين وجلّ عن أوهام المتّوهمين وإحتجب عن أعين النّاظرين لا يزول مع الزّائلين ولا يفل مَع الأفلين ليس كمثله شيئ وهو السّميع العليم.

و عن عبد اللّه ابن غالب عن أبيه عن رجل عن علّي ابن الحسين عليه السلام: قول إبراهيم إجعل هذا بَلداً أمناً وأرزق أهله من الثّمرات من أمَن منهم باللّه، إيّانا عني بذلك وأولياءه وشيعته أو شيعة وصيّه قال عليه السلام ومن كَفَر فأُمتّعه قليلاً ثمّ أضطّره الىٰ عذاب النّار قال عني بذلك من جَحد وصيّه و لم يتّبعه من أُمّته وكذلك اللّه قال هذه الأمر انتهىٰ.

و عن أبي سلمة عن أبي عبد اللّه عليه السلام: أنّ اللّه أنزل الحَجر الأسود من الجنّة لآدم وكان في البيت دُرّة بَيضاء فَرفعه اللّه الىٰ السّماء وبقىٰ أساسه وهو حيال هذا البيت وقال يدخله كلّ يوم سبعون ألف مَلَكٍ لا يرجعُون اليه أبداً فأمر اللّه إبراهيم و إسماعيل أنئ بنيا البيت علىٰ القواعد.

و أمّا العامّة:

فقد ذكروا في كيفيّة القصّة في بناء البيت أنّ اللّه عزّ وجلّ أوحَىٰ الىٰ آدم اذا هُبطت إبنِ لي بيتاً ثمّ أحفُف به كما رأيت الملائكة تحّف بعرشي الّذي في السّماء قال عطاء فَزَعم النّاس أنّه بناه من خمسة أجُبل من حراء و من طور سيناء، و من لبنان و من الجوديّ و من طور زيتا وكان ربُضه من حراء قال الخليل والرّبُض هاهنا الأساس المستدير بالبيت من الصَخر و عن ابن عبّاس قال لمّا أُهبط آدم من الجنّة الىٰ الأرض قال له آدم إذهب فإبن لي بيتاً وطُف له وأُذكرني عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي فأقبل آدم يتّخطىٰ و طويت له الأرض وقبُضت له المفازة فلا يقع قَدمه علىٰ



شيءٍ من الأرض إلاّ صار عمراناً حتّىٰ انتهىٰ الىٰ موضع البيت الحرام و أنّ جبرئيل ضَرب بجناحيه الأرض فأبرر عن أُسّس ثابت علىٰ الأرض السّابعة السّفلىٰ و قذفت اليه الملائكة بالصّخر فما يطيق الصّخرة منها ثلاثون رجلاً و أنّه بناه من خمسة أجبُل كما ذكرنا وقد روي في بعض الأخبار أنّه أُهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنّة فضُربت في موضع الكعبة ليسكن اليها و يطوف حَولها فلم تَزل باقية حتّىٰ قَبض اللّه آدم عليه السلام ثمّ رُفعت و في روايةٍ أنّه أُهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده كذلك الى زمان الغرق ثمّ رَفعه اللّه فصار في السّماء وهو الّذي يُدعىٰ البيت المعمُور فهذا بناء آدم عليه السلام ثمّ بناه إبراهيم ثمّ رووا بأسانيدهم عن على ابن أبي طالب أنّه قال أنّ اللّه تعالىٰ أمَر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشّام ومعه إبنه إسماعيل و أُمّه هاجر وبعث معه السّكينة لها لسان تتّكلم به يغدُو معها إبراهيم اذا غَدت و يَرُوح معها اذا راحت حتّىٰ انتهت به الىٰ مكّة فقالت لإبراهيم إبنِ علىٰ موضعي الأساس فَرَفع البيت هو و إسماعيل حتّىٰ انتهىٰ الىٰ موضع الرّكن فقال لإبنه يابنّي حبسني حَجراً أجَعله عَلماً لِلنّاس فجاءه بحجرٍ فلم يَرضه و قال حبسنى بغيره فَذَهب يلتمس فجاءه و قد أتىٰ بالرّكن فَوضعه مَوضعه فقال ياأبَت من جاءك بهذا الحَجر فقال من لَم يَكلنِي اليك، و قال ابن عبّاس، صالح أبو قبيس ياإبراهيم ياخليل الرّحمٰن أنّ لك عندي وديعة فخُذها فاذا هو بحَجرٍ أبيض من ياقوت الجنّة كان آدم قد نَزل به من الجنّة فلمّا رَفع إبراهيم و إسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربعة فيها رأس فنادت أن أرفعاه علىٰ تربيعي فهذا بناء إبراهيم ثمّ ذكروا في المقام ما لا حاجة لنا في نقله من المتّفرقات أقول أهل البيت أدرىٰ بما في البيت فما نقلناه عنهم بطُرقنا هو المُعتمد في المقام وغيره.

إعلم أنّ البيت علىٰ ما هو المشهور و عليه إتّفقت الأخبار من الطّرفين بناه آدم أبو البَشَر ثمّ رَفَعه اللّه في طوفان نوح أو غرق وخرب فيه ثمّ بناه إبراهيم و إسماعيل علىٰ ما مرّ ذكره ثانياً ثمّ هَدمَته قريش في عَهد رسول اللّه قبل مَبعثه و جعلوا يبنُونه بحجارة الوادي تحملها قريش علىٰ رقابها فرفعوه في السّماء عشرين ذراعاً في المرتبة الثّالثة و ذلك قبل البعث بخمس عشرة سنة، ثمّ لمّا غزا أهل الشّام عبد اللّه إبن الزّبير و خرقت الكعبة من حريقهم هَدمها إبن الزّبير وبناها وزاد فيها خمسة أذرع من الحجر حتّىٰ أُبدي أساً نظر النّاس اليه فبنىٰ عليه البناء وكان طول الكعبة ثماني عشر ذراعاً فلمّا زاد فيه إستقصره فزاد في طوله عشرة أذرع و جَعَل لها بابين أحدهما يدخل منه والأخر يخرُج منه وزاد في البيت يلي الحَجَر ستة أذرع وزاد في طولها تسعة أذرع والأقوال مختلفة و كيف كان فلمّا قتل إبن الزّبير كتَب الحجّاج الىٰ عبد الملك يخبره بذلك فأمَرَه بَبناءه علىٰ ما كان و ذلك لأنّ البيت خَرِب في فتنة إبن الزّبير علىٰ ما هو مسطور في التّواريخ فبناه حجّاج إبن يوسف بأمر عبد الملك و هو الموجود في زماننا هذا واللّه أعلم.

إذا عَرفت هذا فلنرجع الىٰ تفسير ألفاظ الأيات فنقول قوله تعالىٰ: **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ** أي وإذكروا إذ جَعَلنا أي صيّرنا البيت و هو الكعبة **مَثَابَةً** أي مرجعاً ومآلاً أي **لِّلنَّاسِ** لجميع النّاس **وَأَمْناً** أي جَعلناه وَصيرناه محلاً لِلأمن والأمان كما قال تعالىٰ في موضع آخر: **وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَّاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** أي وإتّخذوه مصلىٰ **وَّعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ** أي أمرناهما **أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ** من الفرث والدّم الّذي كان يطرحه المشركون عند البيت قبل ان يصير بيد إبراهيم و إسماعيل أو طهِرّاه من الأصنام الّتي كانوا يعلقونها علىٰ باب البيت قبل إبراهيم، أو طَّهِراه بنياناً بكماله علىٰ الطّهارة كما قال سُبحانه: **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللّٰهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ**



بُنْيانَهُ عَلىٰ شَفٰا جُرُفٍ هٰارٍ[1] وأنّما أضاف البيت الىٰ نفسه تفضيلاًله علىٰ سائر البقاع **لِلطّٰائِفينَ وَالْعٰاكِفينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** المراد بالطّائفين علىٰ المشهور بين المُفسّرين الزّائرين و بالعاكفين هم المجاورون و قوله تعالىٰ: **الرُّكَّعِ السُّجُودِ** أي المُصّلون و قيل جميع المسلمين لأنّ من شأنهم **الرُّكَّعِ السُّجُودِ** والرّكع جمع الرّاكع والسّجود جمع السّاجد ونقل عن عطا أنّه قال إذا طاف به فهو من الطّائفين فإذا جَلَسَ فهو من العاكفين فإذا صلىٰ فهو من الرّكع السجود و قوله تعالىٰ: **وَاِذْ قٰالَ اَبْرٰاهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذٰا بَلَداً اٰمِناً وَارْزُقْ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ** المراد بالبَلَد مكّة، آمناً أي إجعله ذا أمنٍ و قيل معناه يأمنون فيه كما يقال ليلٌ نائم أي ينام فيه و قال إبن عبّاس حراماً محرّماً لايصطاد طيره و لا يقطع شَجَره و لا يختلي خلاه وهل كان الحَرَم آمناً قبل دعوة إبراهيم أو صار آمناً بعد الدّعوة فيه قولان، فعلىٰ الأوّل، كان دُعاء إبراهيم تأكيداً لِحُرمته **وَارْزُقْ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرٰاتِ مَنْ اٰمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ** أي وأرزُق أهل الحَرَم من أنواع الرّزق والثّمرات من آمنَ منهم باللّه واليوم الأخر وفيه إشارة الىٰ أن دعاءه عليه السلام خاصّ لهم و أمّا **وَمَنْ كَفَرَ فَاُمَتِّعُهُ قَليلاً** أي قال اللّه تعالىٰ قد أُستجيبت دعوتَك في حقّ المؤمنين و أمّا من كَفَر فأُمتّعه في الدّنيا قليلاً **ثُمَّ اَضْطَرُّهُ اِلىٰ عَذٰابِ النّٰارِ وَبِئْسَ الْمَصيرُ** أي أدفعه بعد الموت الىٰ النّار وأسوقها اليها وبئس المأوىٰ والمَرجع النّار **وَاِذْ يَرْفَعُ اِبْرٰاهيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَاِسْمٰاعيلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰآ اِنَّكَ اَنْتَ السَّميعُ الْعَليمُ** وقد بيّنا كيّفية بناء البيت علىٰ يَد إبراهيم وإسماعيل تفصيلاً و أمّا الأخبار الواردة في فضيلة الحجّ وكيّفيته وأقسامه فسيأتي عند قوله تعالىٰ: **وَ لِلّٰهِ عَلَى ٱلنّٰاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطٰاعَ إِلَيْهِ سَبيلًا**[2] و نتكلم أيضاً هناك في بعض أسراره ودقائقه إن شاء اللّه تعالىٰ.

■

١- التوبة= ١٠٩
٢- آل عمران = ٩٧

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

◁ اللّغة

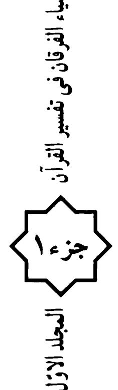
الإسلام الإنقياد مَنَاسِكَنَا، مناسِك جمع مَنسَك و هو محَل العبادة لأنّه محَل النَّسك ومكانه والنُّسك العبادة يقال رجل ناسِك أي عابد.

◁ الإعراب

مُسْلِمَيْنِ لَكَ مفعول ثان ولَك، مُتّعلق بمُسلمين وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَآ يجوز أن تكون من، لابتداء غاية الجَعل فيكون مفعولاً ثانياً أُمَّةً مفعول أول مُّسْلِمَةً نعت لإمة لَّكَ علىٰ ما تّقدم في مُسلمين وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا،مَناسكَنا مفعول ثانٍ والباقي واضح

◁ التّفسير

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ هذا من تمام دُعاءهما قالا ربّنا وإجعَلنا مُسلِمينَ لَك، أي إجعلنا مُطيعَين مُنقادَين لَك في مستقبل عمرنا كما جَعلتَنا مُسلِمينَ في مضىٰ منه و قيل إجعَلنا مُوَحّدين مُخلِصين لَك حتّىٰ لا نعبُد إلاّ إيّاك و لا ندعُوا ربّاً سِواك **وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** أي و إجعل من أولادنا كذلك و أنّما قال من ذُرّيتنا، فأتىٰ بكلمة مَن الّتي تُفيد التّبعيض لأنّه تعالىٰ قد أعلَمه سابقاً أنّ في ذُرّيته مَن لا ينال عَهده في قوله: **ومن ذريته** قال: **لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**. و قوله **وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا** أي عَرّفنا المناسك التّي تتّعلق النّسك بها لنفعله عندها والمراد بالمناسك أعمال الحجّ من الطّواف بالبيت



والسّعي بين الصّفا و المَروة و الإفاضة من عرفات و رمي الحَجر و غيرها من الأفعال و الترّوك حال الإحرام و بالجملة كلّ ما تجب مراعاته في الحجّ ليتّم العَمَل به كما هو حقّه **وَتُبْ عَلَيْنَا اِنَّكَ اَنْتَ التَوّابُ الرَّحِيمُ** قيل أنّهما قالا هذه الكلمة ليقتدي بهما النّاس فيها كما هو كذلك في جميع الموارد اذا صَدرت من المعصُوم اذ العصمة تنافي الذّنب حقيقة و في قوله الرّحيم إشارة الىٰ أنّه تعالىٰ هو المنعم علىٰ عباده بالنِّعم العظام و تكفير الأثام والسّيئات و نحن نقول آمين.

■

رَبَّنا وَابْعَثْ فيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ اٰيـاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْـحِكْمَةَ وَيُـزَكّـيهِمْ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ ﴿١٢٩﴾

◁ اللّغة

وَابْعَثْ: البعث إثارة الشّئ و توجيهه.

رَسُولاً: فعولٌ من الرّسالة أي مُرسلاً.

يُزَكّيهِمْ: التّزكية التّطهير في الباطن أي تطهير القلب عن الأوساخ.

◁ الإعراب

وَابْعَثْ فِيهِمْ ذكر الضمّير علىٰ معنىٰ الآية و لو قال فيها لَرجع الىٰ لفظ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ في موضع نَصب لرسول و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في منهم.

◁ التّفسير



قال المفسّرون المراد بالرّسول في دعاء إبراهيم هو نبّينا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لما رُوي عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: أنا دعوة إبراهيم وبشرىٰ عيسىٰ يعني قوله ومُبَشراً برسولٍ يأتي من بعدي إسمه أحمد وبه قال الحَسن وقتادة وجماعةٍ من العلماء و في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديثٍ: فلمّا أجاب الله إبراهيم وإسماعيل و جَعل من ذُرّيتهما أُمّة مسلمة و بعث فيها رسولاً منها يعني من تلك الأُمّة يتلو عليهم أياته و يزّكيهم و يعلّمهم الكتاب والحكمة ورَدف إبراهيم و إسماعيل دعوته الأولىٰ بدعوته الأخرىٰ و سأل تطهيراً من الشّرك و من عبادة الاصنام ليصّح أمره فيهم و

لا يتّبعوا غيرهم فقال و أجنبني و بَنّي أن نعبد الأصنام أنّهن أضَللَن كثيراً من النّاس فمن تَبعني فأنّه منّي و من عَصاني فأنّك غفورٌ رحيم فى الآيه دلالة على أنّه لا يكون الأئمّة و الأُمّة المسلمة التّي بعث فيها محمّد ﷺ إلاّ من ذُرّية إبراهيم لقوله و أجنُبني و بَنّي أن نعبد الأصنام انتهىٰ.

و في تفسير علّي ابن إبراهيم وأمّا قوله: وَابْعَثْ فيهِمْ رَسُولاً منهم فأنّه يعني ولد إسماعيل فلذلك قال رسول اللّه ﷺ أنا دعوة إبراهيم.

و عن كتاب الخصال عن أبي إمامة قال قلت يارسول اللّه ما كان بَدو أمرك قال دعوة إبراهيم و بُشرىٰ عيسىٰ ورأت أُمّي أنّه خرج منها شئ أضاءت منه قصور الشّام انتهىٰ.

أقول المراد بالكتاب القرأن وبتعليمه تعليم قراءته ومعانيه والمراد بالحكمة والمعرفة بالدّين علىٰ قول و قيل المراد به الفقه والفهم، والمراد بالتّزكية التّطهير من وَضَر الشّرك و قيل أن الأيات تلاوة ظاهر الألفاظ و الكتاب معانيها و الحكمة الحُكم و هو مراد اللّه بالخطاب من مطلقٍ و مقيدٍ و مفّسرٍ و مُجملٍ و عُمومٍ و خصوصٍ و العزيز معناه المنيع الّذي لا ينال و لا يغالب و قيل معناه الّذي لا يعجزه عن شئ لقوله تعالىٰ: **وَ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ** [۱].

و قال الكسائي العزيز الغالب ومنه قوله تعالىٰ: **وَ عَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ** [۲] وفي المَثل من عَزّ بَزّ، أي من غلب سلب و قيل العزيز الّذي لا مثل له لقوله تعالىٰ: **لِيسِ كَمِثْلِهِ شَيْئٌ** و أمّا الحكيم فهو الّذي يَضع الأشياء في مواضعها.

■

۱- الفاطر = ۴۴　　۲-ص = ۲۳

وَمَنْ يَّرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ اِبْرٰاهِيمَ اِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنٰاهُ فِي الدُّنْيا وَاِنَّهُ فِي الْاٰخِرَةِ لَمِنَ الصّٰالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ اِذْ قٰالَ لَهُ رَبُّهٓ اَسْلِمْ قٰالَ اَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصّىٰ بِهٰآ اِبْرٰاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰابَنِيَّ اِنَّ اللّٰهَ اصْطَفىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلاٰ تَمُوتُنَّ اِلاّٰ وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

◁ اللّغة

يَّرْغَبُ: أصل الرّغبة السّعة في الشّئ يقال رَغب الشّئ إتّسع **الرّغبة والرّغب** والرّضي السّعة في الإرادة فاذا قيل رغب فيه واليه يقتضي الحرص عليه كقوله تعالىٰ: **إِنّآ إِلَى ٱللّٰهِ رٰاغِبُونَ**[1] وإذا قيل رغب عنه إقتضىٰ حَرف الرّغبته عنه و الزُّهد فيه و ما نحن فيه من هذا القبيل.

مِّلَّةِ اِبْرٰاهِيمَ: المِلّة كالدّين إسم لما شرع اللّه تعالىٰ لعباده علىٰ لسان الأنبياء ليتّوصلوا به الىٰ جوار اللّه والفرق بينهما أنّ الملّة لا تضاف إلاّ الىٰ النّبي بخلاف الّدين.

سَفِهَ: السَّفه خفّة في البَدن و منه قيل زمامٌ سفيه كثير الإضطراب و ثوبٌ سفيه رَديْ النَسّج و إستعمل في خِفّة النّفس لنقصان العقل وفي الأمور الدّنيوية والأخرّوية فقيل سفه نفسه.

اصْطَفَيْنٰاهُ: أصل الصّفا خلوص الشئ من الثّوب ومنه الصّفا للحجارة الصّافية والإصطفاء تناول صَفو الشئ كما أنّ الإختيار تناول خيره والإجتباه تناول جباتيه.

١- التوبة= ٥٩

اَسْلِمْ: الإسلام الخضوع والإنقياد لِلمُستسلم.
وَوَصّىٰ: الوَصّية التّقدم الىٰ الغير بما يعمل به يقال وَصّىٰ، أي أنشأ فَضلَه و تواصىٰ القوم إذا أوصىٰ بعضهم الىٰ بعضٍ.

◁ الإعراب

وَمَنْ يَرْغَبُ مَن إستفهام بمعنىٰ الإنكار ولذلك جاءت، إلاّ، بعدها لأنّ المنكر منّفي وهي في موضع رفع بالابتلاء، ويرغَب، الخَبر و فيه ضمير يعود علىٰ، مَن، **اِلاّ مَنْ**مَن في موضع نصب علىٰ الإستثناء و يجوز أن يكون في موضع الرّفع بدلاً من الضّمير في، يرغَب، و مَن، نكرة موصوفة أو بمعنىٰ الّذي **نَفْسَهُ** مفعول، نفسه، لأنّ معناه جهل **فِي الْاٰخِرَةِ مُتَعلق** بالصّالحين أي و أنّه من الصّالحين في الأخرة و **الألف** و **اللاّم** للتّعريف **في** مُتّعلق بفعل محذوف نبيّنه الصّالحين تقديره أنّه لصالح في الأخرة و هذا يسمّىٰ التّبيين **اِذْ قٰالَ لَهُ**، إذ ظرف لإصطفيناه و يجوز أن يكون بدلاً، في الدّنيا **يَعْقُوبُ** معطوف علىٰ إبراهيم و مفعوله محذوف تقديره وأوصىٰ يعقوب نَبيّه **اصْطَفىٰ**،**الألف** في آخره بَدل من ياء بدل من واو و أصله من الصّفوة **وَاَنْتُمْ** في موضع حال.

◁ التّفسير

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ اِبْراهيمَ قلنا أنّ الإستفهام بمعنىٰ الإنكار أي وما يرغب عن ملّة إبراهيم و يعرض عنه **اِلاّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** أي إلاّ الجاهل بأمر نفسه فلا يُفكّر فيها و قال أبو عُبيدة المعنىٰ أهلَكَ نَفسه و قد إستّدل بهذهمن قال أنّ شريعة إبراهيم شريعة لنا إلاّ ما نسخ منها و هذا كقوله، ملّة أبيكم إبراهيم، و قوله أن إتّبع ملّة إبراهيم **وَلَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا**أي إخترناه للرّسالة فيها فجعلناه صافياً من الأرجاس والأدناس والأصل في إصطفيناه بالتّاء

أبدلت التّاء طاءً لتناسبها مع الصّاد في الإطباق واللّفظ شقّق من الصّفوة ومعناه تخيّر الأصفىٰ **وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** أي من الفائزين قال قتادة المراد بالأية اليهود والنّصارىٰ رَغبوا عن ملّة إبراهيم وإتّخذوا اليهوديّة والنّصرانية بدعة ليست من اللّه أقول في الآية دلالة علىٰ أنّ ملّة إبراهيم هي ملّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ ملّة إبراهيم داخلة في ملّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم مع زيادات في ملّة محمّد فبيّن أنّ الّذين يرغبون من الكفّار عن ملّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الّتي هي ملّة إبراهيم قد سفهوا أنفسهم و هو معنىٰ قول قتادة والرّبيع أمّا قوله: **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ** الأية معناه ولقد إصطفيناه حين قال له ربّه أسلِم فأسلم و ذلك لأنّ قوله: **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ** مُتّعلق بقوله: **وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ** و موضعه نصب كما تقدّم.

قال بعض المفسّرين أنّما قال إبراهيم ذلك حين أفَلَت الشّمس فقال: **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ،إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ** [1] و أنّه أسَلَم حينئذٍ و هذا يدّل علىٰ أنّه كان ذلك قبل النّبوة و أنّه قال له ذلك إلهاماً إستدعاه به الإسلام فأسَلم حينئذٍ لمّا وضح له طريق الإستدلال بما رأىٰ من الأيات والعِبر الدّالة علىٰ توحيده و لا يصّح أن يوحي اللّه تعالىٰ اليه قبل إسلامه بأنّه نبّي اللّه لأنّ النّبوة حال إعظامٍ وإجلالٍ و لا يكون ذلك قبل الإسلام وأنّما قال إصطفيناه علىٰ لفظ المتكلم مَع قوله: **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ** علىٰ لفظ الغائب للتّصرف في الكلام كما قال الشّاعر:

باتت تشكي الىٰ النّفس مُجهشة وقد حَملتك سَبعاً بعد سبعينا

والإسلام واجب علىٰ كلّ مكّلفٍ وأن إختَلَفت شرائع الأنبياء فيما يتّعبدون من الحلال والحرام لقوله تعالىٰ: **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** [2] وأنّما الإسلام هو الإخلاص لِلّه بالعَمل بطاعته وإجتناب معصية و ذلك واجب علىٰ كلّ متّعبدٍ و كلّه إسلام.

أن قلت ألَيس ناسخاً لجميع الأديان والشّرائع قبله فاذاكان كذلك فما معنىٰ

١- الأنعام= ٧٨
٢- آل عمران= ١٩

قوله تعالىٰ: **وَمَنْ يَّرْغَبُ عَنْ مِّلَّةِ اِبْرٰاهِيمَ اِلاّٰ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**

قلتُ الجواب من وجهين:

أحدهما: أنّه ليس معنىٰ النّسخ نسخ أحاد الأحكام بل معناه نسخ المجموع من حيث المجموع و هو لا ينافي بقاء بعض الأحكام في الدّين النّاسخ وما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ الأصُول من العقائد والأحكام التّي كانت في دين إبراهيم لم تُنسخ في ديننا و لا في سائر الأديان بعد إبراهيم وأنّما المنسوخ بعض الأحكام من الفروع نِعم بعض الأحكام أيضاً يُنسخ من جهة الكّيفية أو الكّمية مثلاً الصّلاة كانت ثابتة في الأديان السّابقة كما في الإسلام ولكن الصّلاة في الإسلام كمّاً و كيّفاً تغايرها في سائر الأديان و هكذا الحجّ و الزّكاة و الصّوم و أمثالها ألا ترىٰ أنّ المسيح يقول: **وَ أَوْصٰنِي بِالصَّلٰوةِ وَ اَلزَّكٰوةِ مٰا دُمْتُ حَيًّا** (١)

ثانيهما: فرقٌ بين الملّة والدّين إعتباراً بعد صدقهما علىٰ أصل الشّريعة فأنّ الملّة لا تكاد توجد مضافة الىٰ اللّه و لا الىٰ أحاد الأُمّة بل مورد إستعمالها حَمَلة الشّرائع دون أحادها فلا يقال ملّة اللّه كما لا يقال ملّتي أو ملّة زيد، والدّين ليس كذلك يقال دين اللّه ودين زيد اذا عرفت هذا فنقول المنسُوخ هو الدّين أي دين اللّه و هو أحاد الأحكام كمّاً أو كيّفاً و أمّا الملّة فَليست منسوخة لأنّها عبارة عن حمَلة الشّرائع في كلّ عصر و زمان فالملّة أُضيفت الىٰ إبراهيم بإعتبار أنّه كان حاملاً للشريعة لا بإعتبار أنه كان جاعلاً لها فأنّ الجاعل هو اللّه تعالىٰ و المجعول هو الدّين فعلىٰ هذا لا معنىٰ لنسخ الملّة بل هي باقية الىٰ الأبد وبعبارةٍ أخرىٰ حَملة الدّين لا تنسخ بل هي باقية الىٰ يوم القيامة و أمّا المَحمول أعني به الشّريعة أو الدّين أو ما شئت فَسمّه فهو يُنسخ.

و أمّا قوله تعالىٰ: **وَوَصّىٰ بِهآ اِبْرٰاهِيمُ بَنيهِ وَيَعْقُوبُ يٰابَنِيَّ اِنَّ اللّٰهَ**

١- مريم = ٣١

اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ اِلاَّ وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ الضّمير في قوله، بها قيل أنّها تعود الىٰ الكلمة في قوله: **اَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰالَمِينَ**، و قيل أنّها تعود الىٰ الملّة و هو الأقوىٰ لأنّه مذكور في اللّفظ والمعنىٰ أنّ إبراهيم وَصّي بالملّة والشّريعة بنيه أي وَصّاهم بحفظها و مراعاتها والعمل بها وكذلك يعقوب فأنّه أيضاً أوصىٰ اليهم و قال: **يٰابَنِيَّ اِنَّ اللّٰهَ** الآية و عليه يصير معنىٰ الآية هكذا وَصَّىٰ بالملّة إبراهيم وبعده يعقوب بنيه الخ و بنو إبراهيم إسماعيل و أُمّه هاجر القبطية و هو أكبر ولُد و نقله إبراهيم الىٰ مكّة و هو رضيع و قيل كان له سنتان و قيل أربع عشرة سنة والأوّل أصّح و قد مرّ الكلام في كيفيّة نقله الىٰ مكّة و بعده إسحاق و أُمّه سارة و ولد بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سَنة و مات إسماعيل و له مائة و سبع و ثلاثون سنة و قيل مائة و ثلاثون و عاش إسحاق مائة و ثمانين سَنة و مات بالأرض المقّدسة و دفن عند أبيه إبراهيم وأمّا إسماعيل فقد مات بمكّة و دفن بها، ثمّ لمّا توّفيت سارة أُمّ إسحاق تزوج إبراهيم قنطوراً بنت يقطن الكنْعانية فولدت له مدين، و مداين و نهشان و زمران و نشيق و شيوخ ثمّ توّفىٰ عليه السلام وكان بين وفاته و بين مولَد النّبي نحو من ألفي سنة وست مائة سنة و اليهود ينقصُون من ذلك أربع مائة سنة و أمّا أولاد يعقوب فَسيأتي ذكرهم في سورة يوسف و منهم من قرأ يعقوب بالنّصب عطفاً علىٰ بنيه و عليه فيكون يعقوب داخلاً فيمَن أوصَىٰ و هو بعيد عن الصّواب لأنّ يعقوب لم يكن فيما بين أولاد إبراهيم لمّا وصّاهم و لم ينتقل أحد أنّ يعقوب أدرَك جدّه إبراهيم وأنّما ولُد بعد موته نعم هو أوصىٰ بنيه كما أوَصَىٰ جدّه إبراهيم بنيه، قيل أنّما سُمّي يعقوب لأنّه والعيص كانوا توأمين حين الولادة قالوا خرج من بطن أُمّه آخذاً بعقب أخيه العيص وإستشكل فيه بعض الأُدباء و قال وفي ذلك نظر لأنّ هذا إشتقاق عربي و يعقوب إسم أعجمي وأن كان قد وافق العَرّبية في التّسمية به كذكر الحَجل فأنّه يسمّىٰ يعقوب و عاش

يعقوب مائة و سبعاً و أربعين سنة و مات بمصر وأوصىٰ أن يحمل الىٰ الأرض المقّدسة و يدفن عند أبيه إسحاق فَحَمله يوسف اليهما و دَفَنه عنده و قوله: **يٰابَنِيَّ** معناه أن يابَنّي وكذلك هو في قراءة أُبَي وابن مسعود والضّحاك قال الفّراء أُلغيت أن لأنّ التّوصية كالقول وكلّ كلامٍ يرجع الىٰ القول جاز فيه دخول أن وجاز إلغاؤها و هو نداء مضاف و هذه ياء النّفس لا يجوز هنا إلاّ فتحها لأنّها لو سُكنت لإلتقىٰ ساكنان و مثله بمُصّرخي و كسُرت (إنّ) لأنّ أوصىٰ و قال واحد و قيل علىٰ إضمار القول ومعنىٰ الإصطفاء الإختيار كما قال الشّاعر.

يـابن مـلوكٍ وَرثُـوا الأمـلاكـا   خـلافة اللّـه التّـي أعـطاكـا

لك إصـطَفاها ولهـا إصطفاكـا

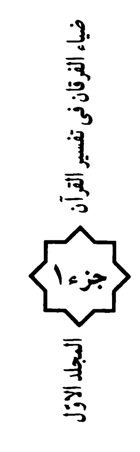
والمعنىٰ أنّ إبراهيم وبعده يعقوب أوصىٰ بَنيه أي قال لهم أنّ اللّه إصطفىٰ أي إختار لكم الدّين أعني به الإسلام و الألف و اللاّم فيه للعَهد لأنّهم كانوا عَرفوه **فَلاٰ تَمُوتُنَّ اِلاّٰ وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ** والمعنىٰ ألزموا الإسلام و دوموا عليه و لا تفارقوه حتّىٰ تموتوا و في هذا الكلام وَعظٌ وتذكير للموت بالتّضمن و ذلك لأنّ الموت حقّ في رقاب العباد وكّ إنسان يعلم أنّه يموت بالأخرة و لا يدري متىٰ فاذا أُمر بأمرٍ لا يأتيه الموت إلاّ و هو عليه فقد توجه الخطاب من وقت الأمر دائباً لازماً و قوله: **وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ الواو** للحال أي لا تموتُوا إلاّ علىٰ الإسلام و قيل معناه محسنُون بربّكم الظّن و قيل مُخلصُون و قيل مفوّضون والمأل في الكلّ واحد ونحن أيضاً نرجو أن نموت علىٰ الإسلام أن شاء اللّه تعالىٰ.

فأن قلت ما معنىٰ النّهي في الآية في قوله: **فَلاٰ تَمُوتُنَّ اِلاّٰ وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ** والموت خارج عن الإختيار والنّهي عن الشّئ اذا كان خارجاً عن القُدرة لا معنىٰ له قلتُ معناه فلا يكن موتكم إلاّ علىٰ حال كونكم ثابتين علىٰ الإسلام فالنّهي وأن كان في الظّاهر تعلّق بالموت إلاّ أنّه في الواقع تعلّق بكونهم علىٰ

خلاف الإسلام و هذا كقولك لا تُصّل إلاّ وأنت خاشع فلا تنهاه عن الصّـلاة ولكن تنهاه عن ترك الخشوع في حال صلاته فأن قلت لم ادخل حرف النّهي علىٰ الصّلاة وليس بمنّهي عنها.

قلتُ السّر فيه إظهار أنّ الصّلاة التّي لا خشوع فيها كلا صلاة فكأنّه قال أنهاك عنها اذا لم تصّلها علىٰ هذه الحالة هكذا قرّره بعض المحقّقين أقول ما ذكره حقّ ولكن المثال الّذي مثل به ليس في موضعه والأحسن أن يقال لا تصّل بغير الطّهور أو لاتصّل في المكان المغصُوب و ذلک لأنّ الصّلاة بغير خشُوع مأمورة بها لا منّهية عنها بخلاف الصّلاة بغير طهورٍ فإفهم ولكنّ المناقشة في المثال ليست من دأب المحصّلين والحاصل أنّ الوجد فيها إظهار أنّ مَوتهم لا علىٰ حال الثّبات على الإسلام موتٌ لا خير فـيه و هـو كـذلك لأنّـه ليس بـموت السّعُداء.

■



أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قٰالَ لِبَنِيهِ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قٰالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبٰائِكَ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ إِلٰهاً وٰاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مٰا كَسَبْتُمْ وَلاٰ تُسْأَلُونَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقٰالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصٰارىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

◁ اللّغة

أَمْ: هي منقطعة و الهمزة فيها للإنكار.

شُهَدٰاءَ: جمع شهيد بمعنىٰ الحاضر.

حَضَرَ: الحضُور خلاف الغَيبة.

حَنِيفاً: الحَنف هو ميل عن الضَّلال الىٰ الإستقامة والحَنيف المائل الىٰ ذلك و تَحَنف فلان أي تَحَرّي طريق الإستقامة.

◁ الإعراب

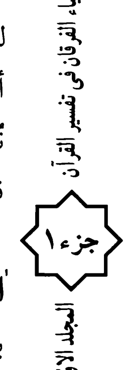
أَمْ كُنْتُمْ هي المنقطعة أي بل كنتُم شُهَدٰاءَ علىٰ جهة التَّوبيخ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ الجمهور علىٰ نصب يعقوب ورفع المَوت وقُرِئ بالعكس والمعنيان متقاربان و اذ الثّانية بدل من الأوّل والعامل في الأولىٰ شهداء وكذا في الثّانية مٰا تَعْبُدُونَ،ما إستفهام في موضع نَصب والعامل فيه تعبدون و ما هنا بمعنىٰ مَن، و لهذا جاء في الجواب إلٰهك و يجوز أن تكون ما علىٰ بابها و يكون ذلك إمتحاناً لهم من يعقوب مِنْ بَعْدِي أي من بعد مَوتي فَحُذف المضاف إلٰهاً واحداً حال موطئة كقولك رأيتُ زيداً رجلاً صالحاً و إسماعيل يجمع علىٰ

سماعلة و اسماعيل **تِلْكَ اُمَّةٌ** الإسم منها، تي، و هي من الأسماء الإشارة للمؤنث و اليّاء في جملة الإسم و قال الكوفيون التّاء وحدها الإسم و الياء زائدة و حذفت اليّاء مَع اللاّم بعدها **قَدْ خَلَتْ** صفة لأمّة **لَهٰا مٰا كَسَبَتْ** في موضع الصّفة أيضاً ويجوز أن يكون حالاً من الضّمير في خَلَت، و يجور أن يكون مستأنفاً **وَلاٰ تُسْأَلُونَ** مُستأنف لا غير **حَنِيفاً** حال من إبراهيم و قيل هو منصوب بإضمار راعني.

◁ التّفسير

اَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰاءَ اِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ قالوا الخطاب لليهُود والنّصارىٰ الّذين ينسبُون الىٰ إبراهيم ما لم يؤص به بنيه وأنّهم علىٰ اليّهودية والنّصرانية فَرَد اللّه عليهم قولهم وكَذبَهّم علىٰ جهة التّوبيخ، أشهَدتكم يعقوب وعلمتم بما أوصىٰ فَتّدَعُون عن علمٍ أي لم تشهدوا بل أنتم تفترُون وأم بمعنىٰ بَل، أي بل أَشهِد أسلافكم يعقوبَ و قوله: **اِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ** أي فقد مات الموت و أسبابه **اِذْ قٰالَ لِبَنِيهِ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي** وعَبّر عن المعبود، بما و لم يقل، مَن، لأنّه أراد أن يختبرهم و لو قال، مَن، لكان مقصوده أن ينتظر مَن لهم الإهتداء منهم و أنّما أراد تجربتهم فقال، ما و قيل أنّ، ما، هنا بمعنىٰ، مَن، أي من تعبدون من بعدي أي بَعد مَوتي، و حكي أن يعقوب حين خيّر كما تُخيّر الأنبياء إختار المَوت و قال أمهلوني حتّىٰ أوصي بَنّي وأهلي فَجمعَهم و قال لهم هذا فاهتدوا و**قٰالُوا نَعْبُدُ اِلٰهَكَ**.

فأروه بقوتهم علىٰ الّدين و معرفتهم باللّه تعالىٰ: **قٰالُوا نَعْبُدُ اِلٰهَكَ وَاِلٰهَ اٰبٰاءِكَ اِبْرٰاهِيمَ وَ اِسْمٰاعِيلَ وَ اِسْحٰاقَ اِلٰهاً وٰاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** بَدأ بذكر الجّد أوّلاً ثمّ إسماعيل العَّم ثانياً ثمّ إسحاق و قلنا أنّ إسماعيل كان أكبر من إسحاق و هو عمّ يعقوب وجَعَله أباً له لأنّ العَرب يُسّمي العمّ أباً كما تُسّمىٰ الجدّ أباً لأنّه يجب تعظيمه كتعظيم الأب ولهذا قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم رُدّوا علّي



أبي يعني العبّاس عمّه، و قوله: **نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** أي مُذعنون مقرّون بالعبودّية خاضعون فتقادون مُسلمون لأمره و نَهيه قولاً و عقداً و قيل داخلون في الإسلام يدّل عليه قوله أنّ الّدين عند الإسلام **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مٰا كَسَبْتُمْ وَلاٰ تُسْأَلُونَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** والمعنىٰ أنّ إبراهيم و أولاده قد مَضوا و ماتوا، لها، أي لتلك الأمّة ما كَسَبت من الأعمال خيراً و شّراً ولكم، يا معشر اليهود والنّصارىٰ، ماكسبتم، من الأعمال من طاعةٍ أو معصيةٍ **وَلاٰ تُسْأَلُونَ** أنتم **عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** أي عمّا كانوا يعملون آبائكم و أسلافكم و في الآية إشعار بأن: **كُلُّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**[1] و أنّ اللّه تعالىٰ لا يُعاقب أحداً بذنب آخر لقوله تعالىٰ: **وَ لاٰ تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ**[2] قيل في الأية دلالة علىٰ بطلان قول المجّبرة حيث قالوا أنّ الأبناء مواخذون بذنوب الآباء و أنّ ذنوب المسلمين تُحمل علىٰ الكفّار **وَقٰالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصٰارىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَّ مٰاكٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** قيل أنّ الآية نزلت في عبد اللّه إبن صوريا وكعب إبن الأشرف و جماعة من اليهود والنّصارىٰ أهل نجران حيث خاصموا أهل الإسلام كلّ فِرقةٍ تزعم أنّها أحقّ بدين اللّه من غيرها فقالت اليهود نبيّنا أفضل الأنبياء و كتابنا أفضل الكُتب و قالت النّصارىٰ كذلك و قال كلّ فريقٍ منهما للمؤمنين كونوا علىٰ ديننا تهتدوا فأنزَل اللّه هذه الآية و قيل إبن صوريا قال لرسول اللّه يا محمّد ما الهُدىٰ إلاّ ما نحن عليه فإتّبعنا تهتدوا و قالت النّصارىٰ مثل ذلك فأنزَل الأية.

و عليه فالضمير في قالوا يرجع الىٰ اليهود والنّصارىٰ فقال اللّه تعالىٰ في جوابهم، قل يا محمد بل ملّة إبراهيم حَنيفاً، أي قل لهم بل نَتّبع دين إبراهيم أو إتّبعوا دين إبراهيم حَنيفاً، أي مُستقيماً و قيل مائلاً والمقصود دين الإسلام وفي الحنيفة أقوال.

١- المدثر= ٣٨ ٢- الانعام = ١٦٤

أحدها: أنّها حجّ البيت.

ثانيها: إتّباع الحقّ.

ثالثها: إتّباع إبراهيم فيما أتىٰ به من الشّريعة الّتي صار بها إماماً لِلنّاس بعده من الحجّ و الختان و غير ذلك من شرايع الإسلام.

رابعها: أنّها الإخلاص لِلّٰه وحده وما كان من المشركين، يعني إبراهيم ما كان من المشركين نفى اللّه تعالىٰ الشّرك عن ملّته وأثبته في اليهود والنّصارىٰ حيث قالوا عُزير ابن اللّه والمَسيح ابن اللّه، و قوله: **قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ** حجّة علىٰ وجوب إتّباعها لسلامتها عن التّناقض و وجوده في اليّهودية و النّصرانية فلذلك صارت ملّة إبراهيم أحرىٰ بالإتّباع من غيرها قالوا و من التّناقض في اليّهودية منعهم من جواز النّسخ مع وجوده في التّوراة و إمتّناعهم من العَمل بما تقّدمت به البشارة في التّوراة من متابعة النّبي الأُمّي مع إظهارهم التّمسك بها و إمتناعهم من الإذعان لما دَلَّت عليه المعجزات من نبّوةِ عيسىٰ و محمّد مع إقرارهم بنّبوة عيسىٰ لدلالة المعجزات عليها الىٰ غير ذلك ومن التّناقض في قول النّصارىٰ قولهم الأب والإبن وروح القُدس إلٰهٌ واحدٌ مع زعمهم أنّ الأب ليس هو الإبن وأنّ الأب إلٰه والإبن إلٰهٌ وروح القُدس إلٰهٌ الىٰ غير ذلك من الأمور ويحتمل أن يكون المراد أنّ إبراهيم عليه السلام كان مُقراً مُعترفاً بالتّوحيد و أمّا اليهود والنّصارىٰ فليسوا كذلك لأنّ النّصارىٰ يقولون بالتّثليث واليهود بالتّشبيه فَثبت أنّهم ليسوا علىٰ دين إبراهيم واقعاً وأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم لمّا دعا الىٰ التّوحيد فهو أحَقّ بإبراهيم منهم فقولهم لرسول اللّه أو المؤمنين كُونوا هُوداً أو نصارىٰ تهتدوا و لا موقع له لأنّ الملاك فيها ليس ما ذكروه بزعمهم الفاسد و هو واضح.

■

قُولُوٓا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَآ اُنْزِلَ اِلَيْنا وَ مٰآ اُنْزِلَ اِلىٰٓ اِبْراهيمَ وَ اِسْمٰاعيلَ وَ اِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْاَسْبٰاطِ وَمٰآ اُوتِيَ مُوسىٰ وَ عيسىٰ وَ مٰآ اُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَّبِّهِمْ لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿۱۳۶﴾ فَاِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مٰآ آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّ اِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّمٰا هُمْ في شِقٰاقٍ فَسَيَكْفيكَهُمُ اللّٰهُ وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ ﴿۱۳۷﴾ صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ اَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَّنَحْنُ لَهُ عٰابِدُونَ ﴿۱۳۸﴾

◁ اللّغة

وَ الْاَسْبٰاطِ:أصل السّبط إنبساط في سهولةٍ ويعبّر به عن الجود والسّبط ولَد الوَلد كأنّه إمتداد الفروع.

تَوَلَّوْا: أي أعرضوا.

شِقٰاقٍ: الشّقاق المخالفة و كونك في شقٍ غير شقٍ صاحبك أو من شَقّ العصا بينك و بينه.

صِبْغَةَ اللّٰهِ: قيل الصِّبغة دين اللّه و فطرته التّي فَطر النّاس عليها و قيل ما أوجَده اللّه في النّاس من العقل المميّز.

◁ الاعراب

مِنْ رَّبِّهِمْ الضّمير يعود الىٰ النّبيين خاصّة فعلىٰ هذا يتّعلق مِن بأُوتي الثّانية بَيْنَ اَحَدٍ، أحَد هنا هو المستحمل في النّفي لأنّ بين لا تضاف إلاّ الىٰ جمع أو الىٰ واحدٍ معطوف عليه و قيل بمعنىٰ فريق بِمِثْلِ مٰآ آمَنْتُمْ بِهِ الباء زائدة ومثل صفة لمصدرٍ محذوف وتقديره إيماناً مثل إيمانكم و الضّمير يرجع الىٰ اللّه و

القرأن و محمّد و ما، مصّدرية و قيل مثل زائدة و با، بمعنىٰ الّذي **صِبْغَةَ اللّٰهِ** نصب بفعل محذوف أي إتّبعوا دين اللّه و قيل هو إغراء أي عليكم دين اللّه و قيل هو بَدلٌ من ملّة إبراهيم **مَنْ اَحْسَنُ** مبتدأ و خبر **مِنَ اللّٰهِ** في موضع نصب وصبغةً منصوب علىٰ التّمييز.

◁ التّفسير

قُولُوٓا اٰمَنّٰا بِاللّٰهِ وَمٰآ اُنْزِلَ اِلَيْنٰا الآية الخطاب للمسلمين و قيل للنّبي والمؤمنين وكيف كان فاللّه تعالىٰ أمَرهُم بإظهار ما تَدّينوا به من الشّرع فبدأ بالإيمان لأنّه أوّل الواجبات و لأنّه الأصل في جميع الشّرائع والنّبوات فقال لهم، قولوا أيّها المسلمُون آمنّا باللّه بتوحيده وتنّزهه عمّا لا يليق بجنابه **وَمٰآ اُنْزِلَ اِلَيْنٰا** أي آمنّا بما أُنزل الينا من اللّه تعالىٰ بواسطة الرّسول أيضاً **وَمٰآ اُنْزِلَ اِلَيْنٰا وَ مٰآ اُنْـزِلَ اِلىٰٓ اِبْـراهـيمَ وَ اِسْـمٰاعيلَ وَ اِسْـحٰاقَ وَ يَـعْقُوبَ وَ الْاَسْبٰاطِ** الىٰ قوله **مِنْ رَبِّهِمْ** أي نُؤمن بما أُنزل اليهم جميعاً و ذلك لأنّ الإيمان باللّه و رسوله لا يكمل إلاّ بالإيمان بجميع الأنبياء قبله من آدم الىٰ خاتم الأنبياء فَمن أنكروا واحداً منهم كَمن أنكَر الجميع قال اللّه تعالىٰ: **وَ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِمٰآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مٰآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (١) و قوله تعالىٰ: **وَ الْاَسْبٰاطِ** إشارة الىٰ أولاد الأنبياء أي نُؤمن بما أُنزل اليهم أيضاً و ذلك لأنّ الأسباط و أن لم يكونوا بأنبياء و لكن بعضهم كان منهم وتوضيح ذلك إجمالاً هو أنّ **الأسباط** جمع سبط مثل حمل و أحمال و الأسباط في بني يعقوب كالقبائل في ولد إسماعيل وهم أثني عشر سبطاً من أثني عشر ولداً ليعقوب و أنّما سُمّي هؤلاء بالقبائل ليفصل بين ولُد إسماعيل و ولُد إسحاق و مع ذلك فقد بعث منهم عدّة رُسل كيوسف و داود و سليمان و موسىٰ و عيسىٰ فقوله تعالى:**وَ الْاَسْبٰاطِ** أي نؤمن بما أُنزل اليهم معناه ما أُنزل علىٰ

١- البقرة= ٤

الأسباط الّذين بُعثوا كما ذكرناه ومحصّل الكلام في الآية إشعارٌ بأنّ الإيمان لا يكمل إلاّ بالإيمان بجميع الأنبياء وما أُنزل اليهم من الكتب السّماوية وتخصّيص موسىٰ وعيسىٰ بالذّكر مع دخولهما في الأسباط إعتناء بشأنهما وأنّهما من المرسلين بل و من أُولي العَزم منهم و قيل في وجه التّخصيص أنّ اليهود و النّصارىٰ كانوا يحتجون بهما فَكفرت اليهود بعيسىٰ ونبّينا وكفرت النّصارىٰ بسليمان و نبّينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و الىٰ ما ذكرناه من لزوم الإيمان بالجميع قال اللّه تعالىٰ: **لاٰ نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** فأنّ الفَرق بينهم بالإيمان ببعضٍ والكُفر ببعضٍ أخر كفرٌ وإلحادٌ و خروجٌ عن الإسلام و الإيمان و معنىٰ الايمان بهم الإعتقاد بأنّهم جميعاً أنبياء و بُعثوا في زمانهم لإرشاد الخلق و هدايتهم الىٰ الخير و السّعادة وكلّ ما جاءوا به من عند اللّه حقّ و أمّا جواز العَمَل بأديانهم و شرائعهم في كلّ عصرٍ و زمانٍ فلا فأنّ عيسىٰ نسخ بشريعته دين اليهود و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم نسخ بشريعته دين النّصارىٰ و غيره لأنّ نبّينا خاتم الأنبياء و دينه و هو الإسلام أخر الأديان لقوله تعالىٰ: **وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اَلْإِسْلاٰمِ دينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِى اَلْاٰخِرَةِ مِنَ اَلْخاسِرينَ**[1] هذا هو الإعتقاد الصّحيح في الإسلام و لاجل ذلك قال تعالىٰ: **فَاِنْ اٰمَنُوا بِمِثْلِ مٰاۤ اٰمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا** أي فأن آمن اليهود والنّصارىٰ و غيرهم كائناً من كان بمثل ما آمنتم به بأن آمنوا بالله و برسوله وجميع الأنبياء فقد إهتَدوا كما إهتَديتم **وَّ اِنْ تَوَلَّوْا** أي أعَرضوا عن الإيمان كذلك **فَاِنَّمٰا هُمْ فى شِقٰاقٍ** و خلاف اذ فارقوا الحقّ وتمّسكوا بالباطل فصاروا مخالفين لِلّه تعالىٰ **فَسَيَكْفيكَهُمُ اللّٰهُ** وعَد اللّه رسوله بالنّصرة و كفاية أعداءه و من أصَدق من اللّه قيلاً وقد قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ اَلَّذىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَ دينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ**[2] **وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ** أي أنّه تعالىٰ يَسمع ما يقولون ويَعلم ما يُبطنُون و لا يخفىٰ عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء.

١- آل عمران = ٨٥ ٢- التوبة = ٣٣

قوله تعالىٰ: **صِبْغَةَ اللّٰهِ وَمَنْ اَحْسَنُ مِنَ اللّٰهِ صِبْغَةً وَّنَحْنُ لَهُ عٰابِدُونَ**
قيل أنّ النّصارىٰ كانوا اذا وِلُد لهم مولود غمَّسُوه في ماءٍ طَهُور يجعلون ذلك تَطهيراً له و يُسمّونه العمّودية فقيل صبغة اللّه أي تطهير اللّه لا تطهيركم بتلك الصِّبغة و هو قول الضّراء و قال قتادة اليهود تصبغ أبناءها يهوداً والنّصارىٰ تصبغ أبناءها نصارىٰ فهذا غير المعنىٰ الأوّل وأنّما معناه أنّهم يُلقّون أولادهم اليّهودية والنّصرانية فيصبغونهم بذلك لما يشربون قلوبهم منه، فيل صبغة اللّه التّي أمَر بها ورَضيها يعني الشّريعة لا صبغتكم، و قال الجبائي سُمّي الدّين صَبغة لأنّه هيئة تظهر بالمشاهدة من أثَر الطّهارة والصّلاة و غير ذلك من الأثار الجمّيلة التّي هي كالصِّبغة قال الشّاعر:

فـي صِـبغة اللّـه كـان اذ نَسىٰ العَـهد وخلّىٰ الصّواب اذ عَزَما

والصِّبغ في الأصل ما يلّون به الثّياب فأن قلنا صَبغة اللّه بَدل من قوله ملّة إبراهيم كما ذهب اليه الأخفش فالمعنىٰ قل يامحمّد بل ملّة إبراهيم حَنيفاً هي صِبغة اللّه لا ما تَدّعُونه من غسل التَّعميد و أن قلنا نصب علىٰ الإغراء تقديره إتَّبعوا صِبغة اللّه وألزموا صِبغة اللّه أي دين اللّه كما ذهب اليه ابن عبّاس ويَظهر من بعض رواياتنا أنّها الإسلام و هو قريب ممّا قاله ابن عبّاس و قيل هي شريعة اللّه التّي هي الختان و هو التّطهير قاله الفرّاء و قيل فطرة اللّه التّي فَطر النّاس عليها و قيل العقل المُميّز وكيف كان فالمعنىٰ والمقصود أنّ اللّه تـعالىٰ أمَـر المسلمين بأن يقولوا آمنّا وصَبغنا اللّه بالإيمان صبغةً لا مثل صبغتكم و طَهّرنا به تطهيراً لا مثل تطهيركم بل صبغةً و تطهيراً بالإيمان والدّين الخالص و من أحَسن من اللّه صِبغةً و أنّما سُمّيت المِلّة الصِّبغة لأنّ النّصارىٰ إستعاذوا في ختان أولادهم بماء أصفر يصبغ أولادهم فرّد اللّه سبحانه عليهم قاله بـعض علماء اللّغة، و نحن له عابدون، أي مُطيعون مُنقادون في إتّباعنا ملّة إبراهيم صِبغة اللّه، قال بعض أهل التّحقيق أنّ صبغة اللّه فطرته و هو كقوله فطرة اللّه التّي فَطَر النّاس عليها لا تَبديل لِخَلق اللّه، وقَرَّر هذا الوجه بأنّ الإنسان موسومٌ

في تركيبه و بُنيته بالعجز والفاقة والأثار الشّاهدة عليه بالحدوث والإفتقار الىٰ الخالق فهذه الأثار كالصِّبغة له وكالسّمة اللاّزمة انتهىٰ.

أقول أحَسن الأقوال في معنىٰ الصِّبغة الدّين و هو الإسلام و هو الّذي عَبَّر اللّه تعالىٰ عنه بألفاظٍ مختلفة كلّها يرجع اليه كما عَبَّر عنه بالكلمة:

في قوله: **وَ كَلِمَةُ ٱللّٰهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا**(١)

و بالدّين في قوله: **يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللّٰهِ أَفْوَاجًا**(٢)

و بالصّراط المستقيم في قوله: **اِهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم.**

و بالهُدىٰ في قوله: **ذٰلِكَ هُدىٰ اللّٰه.**

و بالنّور في قوله: **يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ ٱللّٰهِ**(٣)

و بالحَبل في قوله: **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّٰه وَ لاٰ تَفَرَّقُوا.**

والسّبيل في قوله: **أُدْعُ إِلٰى سَبِيلِ رَبِّكَ** و غير ذلك من التّعابير.

عباراتنا شتّىٰ وحُسنك واحدٌ وكلٌّ الىٰ ذلك الجمال يُشير

نُقل عن ابن عبّاس أنّ بني إسرائيل سَألوا موسىٰ و قالوا له أيَصبغ ربّك فقال موسىٰ في الجواب اللّه اللّه أن كنتم مؤمنين فأوحىٰ الّه تعالىٰ اليه و من أحَسَن من اللّه صِبغةً.

عن الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام: في قوله تعالىٰ: صِبْغَةَ اللّٰهِ قال عليه السلام: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق عنه.

و عن علّي ابن إبراهيم بأسناده عنه عليه السلام قال: صِبْغَةَ اللّٰهِ الإسلام.

و في حديث أخر قال عليه السلام: الصّبغة أمير المؤمنين بالولاية في الميثاق.

■

١- التوبة = ۴٠
٢- النصر = ٢
٣- الصف = ٨

قُلْ اَتُحٰآجُّونَنَا فِي اللّٰهِ وَ هُوَ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ وَلَنَآ اَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ اَعْمٰالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿۱۳۹﴾ اَمْ تَقُولُونَ اِنَّ اِبْرٰاهِيمَ وَ اِسْمٰاعِيلَ وَ اِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ وَالْاَسْبٰاطَ كٰانُوا هُوداً اَوْ نَصٰارىٰ قُلْ ءَاَنْتُمْ اعْلَمُ اَمِ اللّٰهُ وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَه مِنَ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ ﴿۱۴۰﴾ تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهٰا مٰا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مّٰا كَسَبْتُمْ وَلاٰ تُسْئَلُونَ عَمّٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ﴿۱۴۱﴾

◁ اللّغة

اَتُحٰآجُّونَنٰا: الحُجّة الدّلالة المُبّينة للمحجّة أي المقصد المستقيم والّذي يقتضي صحّة اخد النّقيضين والمُحاجّة أن يطلب كلّ واحدٍ أنّ يَرّد الأخر عن حُجّته ومَحَجّته.

وَالْاَسْبٰاطَ: جمع السّبط و هو ولَد لولَد وقد مرّ شرحه.

◁ الإعراب

اَمِ اللّٰهُ مبتدأ والخبر محذوف و تقديره، أَم اللّه أعَلم و أم هاهنا متّصلة أي أيّكم أعَلم و هو إستفهام بمعنىٰ الإنكار كَتَمَ شَهٰادَةً، كَتَم يتّعدىٰ الىٰ مفعولين وقد حُذف الأوّل منهما تقديره كتم النّاس شهادةً عِنْدَه صفة لشهادة و كذلك مِنَ اللّٰهِ والباقي واضح.

◁ التّفسير

قوله تعالىٰ: **اَتُحٰآجُّونَنَا فِي اللّٰهِ وَ هُوَ رَبُّنٰا وَ رَبُّكُمْ** الآيـة لا شكّ أنّ **الهمزة** للإستفهام الإنكاري أي لِمَ تُحاجّونا وفي المخاطب وجوه:

أحدها: أنّه خطاب لليهود والنّصارىٰ.

ثانيها: أنّه خطاب مع مشركي العَرب حيث قالوا لو لا أُنزل هذا القرأن علىٰ رجلٍ القَريتين عظيم والعَرب كانوا مُقّرين بالخالق.

ثالثها: أنّه خطاب مع الكلّ والقول الأوّل ألَيق وأنَسب بنظم الآية و سياق الكلام.

و أمّا معنىٰ المحاجّة والمراد بها فقيل أنّ ذلك كان قولهم أنّهم أولىٰ بالحقّ والنّبوة لتّقدمها فيهم و عليه فالمعنىٰ **اَتُحاۤجُّونَنا فِي اللّٰهِ** إصطفىٰ رسوله من العَرب لا منكم و تقولون لو أنزل اللّه علىٰ أحدٍ لأنزل عليكم و ترونكم أحقّ بالنّبوة منّا و قيل أنّها عبارة عن قولهم نحن أحقّ بالإيمان من العَرب الّذين عبدوا الأوثان، و قيل أنّها قولهم نحن أبناء اللّه و أحباؤه و قولهم لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هُوداً أو نصارىٰ و قولهم كونوا هُوداً أو نصارىٰ تهتدوا و يحتمل أن يكون معناها أتُحاجّوننا في دين اللّه و هو ربّنا وربّكم، ففيه وجهان:

أحدهما: أنّ اللّه تعالىٰ أعَلم بتدبير خلقه و بمن يصلح للرّسالة وبمن لا يصلح لها فلا تعترضوا علىٰ ربّكم فأنّ العبد ليس له أن يَعترض علىٰ ربّه بل يجب عليه تفويض الأمر بالكلّية اليه.

ثانيها: أنّه لا نسبة لكم الىٰ اللّه إلاّ بالعُبُودية و هذه النّسبة موجودة فينا أيضاً و لمّا كانت النّسبة مشتركة بيننا وبينكم فلِمَ تُرجحون أنفسكم علينا بل التّرجيح لنا لإنّا مخلصون له في العُبُودية و لستم كذلك و هو المراد بقوله ونحن له مخلصُون وأمّا قوله تعالىٰ **وَلَنَآ اَعْمٰالُنٰا وَ لَكُمْ اَعْمٰالُكُمْ** فقيل المراد منه النّصيحة في الدّين كأنّه تعالىٰ قال لنَبّيه قل لهم هذا القول علىٰ وجه الشّفقة والنّصيحة أي لا يَرجع الّي من أفعالكم القبيحة ضَرر حتّىٰ يكون المقصود من هذا القول دَفعه و أنّما المراد نُصحكم و إرشادكم الىٰ الأصلح وبالجملة فالإنسان أنّما يكون مَقبُول القول اذا كان خالياً عن الأغراض الدُّنيوية و أمّا اذا كان لشيءٍ من الأغراض لم ينجع قوله في القلب البتة.

و أمّا قوله تعالىٰ: **اَمْ تَقُولُونَ اِنَّ اِبْراهِيمَ وَ اِسْماعِيلَ وَ اِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَالْاَسْباطَ كانُوا هُوداً اَوْ نَصارىٰ** الآية قرأ ابن عامر و حمزة و الكسائي و حفص عن عاصم أمَ تقولون بالتّاء علىٰ الخطاب كأنّه قال أتُحاجّوننا أَم تقولون، الآية بالياء علىٰ أنّه اخبار عن اليهود والنّصارىٰ فعلىٰ الأوّل تكون أم متّصلة و تقديره بأي الحُجّتَين تتّعلقون في أمرنا بالتّوحيد فنحن مُوحدّون أَم باتّباع دين الأنبياء فنحن مُتّبعون، و يحتمل أن تكون منقطعة بمعنىٰ بل أَتقولون و الهمزة للإنكار أيضاً و أمّا علىٰ القراءة الثّانية فهي منقطعة لا غير و ذلك لإنقطاع معناه بمعنىٰ الإنقطاع الىٰ حجاج آخر غير الأوّل كأنّه قيل أَتَقولون أنّ الأنبياء كانوا قبل نزول التّوراة والإنجيل هوداً أو نصارىٰ و ليس كذلك لأنّ الأنبياء كانوا علىٰ التوحيد والحَيّفية بشهادة التّوراة و الإنجيل و لمّا كان هذا القول باطلاً منهم بهذه الوجوه لا جرم أورَد اللّه هذا الكلام في معرض الإستفهام علىٰ سبيل الإنكار والغرض منه الزّجر و التّوبيخ و أن يقرّر اللّه في نفوسهم أنّهم يعلمون كذبهم فيما يقولون و أمّا قوله **قُلْ ءَاَنْتُمْ اَعْلَمُ اَمِ اللّٰهُ** فمعناه أنّ اللّه أعلم و أصدق و قد أخبَر في التّوراة والإنجيل والقرآن علىٰ لسان رسوله أنّهم كانوا مسلمين مُبرّئين عن اليهودية و النّصرانية و قوله: **وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَه مِنَ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ** أي و من أظلَم منكم معاشر اليهود والنّصارىٰ إن كَتَمتم هذه الشّهادة من اللّه والحال أنّه تعالىٰ ليس بغافلٍ عن أعمالكم السّيئة التّي منها كتمان الشّهادة فهو الكلام الجامع لكلّ وعيد فأنّ من علم أنّه تعالىٰ علم بسّره و علانيته و لا يخفىٰ عليه خافية و أنّه من وراء مجازاته إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً لا تمضي عليه طرفة عين إلاّ و هو حذرٌ خائف و قوله: **تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ مّا كَسَبْتُمْ وَلاٰ تُسْئَلُونَ عَمّا كانُوا يَعْمَلُونَ** ففيه إشارة الىٰ **كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهينَةٌ**[1] و ذلك لأنّ قوله تعالىٰ: **تِلْكَ اُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ** معناه أنّهم

۱- المدثر = ۳۸

مَضوا علىٰ ما كانوا عليه فأن أحَسَنوا فاللّه يُحبّ المُحسنين و يُجزيهم بأحَسن ما كانوا يَعملون و أن أساؤوا فهو تعالىٰ أعَلم بحالهم أن شاء عذّبهم و إن شاء غَفر لهم وكيف كان ما مضىٰ مضىٰ **وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ** أي أنتم لا تُؤخذون بأعمالهم بل تُؤخذون بأعمالكم فأعمال السَّلَف لاتنفعكم فلا تَتّكلُوا علىٰ فَضل الأباء والأسلاف اذ كلّ واحدٍ يُؤخذ بعَمَله فأنتم لا تُسألون، غداً يوم القيامة عمّا كانوا يعملون أي عن أعمال الأسلاف والأباء و قال بعض المفسّرين يعني تعالىٰ ذكره بقوله: **قُلْ اَتُحَاجُّونَنَا فِي اللّٰهِ** قل يا محمّد ﷺ لمعاشر اليهود والنّصارىٰ الّذين قالوا لك و لاصحابك كونوا هوداً أو نصارىٰ تهتدوا و زعموا أنّ دينهم خير من دينكم وكتابهم خير من كتابكم لأنّه كان قبل كتابكم و زَعموا أنّهم من أجل ذلك أولىٰ باللّه منكم، أتُحاجّوننا في اللّه و هو ربّنا وربّكم، بيده الخيرات واللّه الثّواب والعقاب و الجزاء علىٰ الاعمال الحَسنات منها والسّيئات فَتزعمون أنّكم أولىٰ باللّه منّا من أجل أنّ نبّينا بعد نبّيكم وكتابنا بعد كتابكم و ربّكم و ربّنا واحد وأنّ لكلّ فريقٍ منّا ما عَمل و إكتَسب من صالح الأعمال و سَيّئها و يجازي فَيُثاب أو يُعاقب لا علىٰ الأنساب وقِدَم الدّين والكتاب.

رَوىٰ الطّبري بأسناده عن ابن عبّاس أنّه قال: **اَتُحَاجُّونَنَا** أي أتُجادلوننا فأمّا قوله: **وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** فأنّه يعني ونحن لِلّه مُخلصوا العبادة والطّاعة لا نُشرك به شيئاً و لا نعبد غيره أحَداً كما عَبد أهل الأوثان مَعه الاوثان وأهل العجل معه العجل و هذا من اللّه تعالىٰ توبيخ لليهود وإحتجاج لأهل الإيمان يقول اللّه تعالىٰ للمؤمنين من أصحاب محمّد ﷺ قولوا أيّها المؤمنون لليهود والنّصارىٰ الّذين قالوا لكم كونوا هُوداً أو نصارىٰ تَهتدوا أتُحاجّوننا في اللّه يعني بقوله في اللّه في دين اللّه الّذي أمرنا أن نُدين به وربّنا وربّكم واحدٌ عَدلٌ لا يجُور وأنّما يُجازي العباد علىٰ ما إكتَسبُوا و تَزعمُون أنّكم أولىٰ باللّه

منّا لِقِدَم دينكم وكتابكم ونبّيكم و نُحن مُخلصون له العبادة لم نُشرك به شيئاً و قد أشركتم في عبادتكم إيّاه فَعَبد بعضكم العِجل وعَبَد بعضكم المسيح فأنّىٰ تكونوا خيراً منّا و قال في قوله تعالىٰ: **اَمْ تَقُولُونَ اِنَّ اِبْرٰاهِيمَ وَ اِسْمٰاعِيلَ وَ اِسْحٰاق** الىٰ قوله: **ءَاَنْتُمْ اَعْلَمُ اَمِ اللّٰهُ** أي أمَ تَزعمون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هُوداً أو نصارىٰ علىٰ ملّتكم والحال أنّ اليّهودية والنّصرانية أنّما حَدثت بعد هؤلاء الّذين سمّاهم اللّه من أنبياءه و هذه الأية أيضاً إحتجاج من اللّه تعالىٰ لنّبيه علىٰ اليهود والنّصارىٰ الّذين ذكر اللّه قِصصهم يقول اللّه لِنَبّيه أتُحاجّوننا في اللّه فهاتوا برهانكم علىٰ ذلك فنتّبعكم عليه أمَ تقولون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب و الأسباط كانوا هُوداً أو نصارىٰ ءَأنتم أعلَم بهم و بما كانوا عليه من الأديان أم اللّه و قوله تعالىٰ: **وَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهٰادَةً عِنْدَه مِنَ اللّٰهِ** أي أيّ إمرؤٍ أظلَم منهم وقد كَتمُوا شهادة عندهم من اللّه بأنّ إبراهيم وإسماعيل و إسحاق و يعقوب والأسباط كانوا مسلمين فَكَتمُوا ذلك ونَحلُوهم اليّهودية والنّصرانية.

و قال بعض المفسّرين و من أظلَم ممّن كَتَم شهادة عند اللّه، أي كَتم شهادة عنده من اللّه أهل الكتاب كَتموا الإسلام وهم يعلمون أنّه دين اللّه وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة والإنجيل أنّهم لم يكونوا يهود و لا نصارىٰ وكانت اليّهودية والنّصرانية بعد ذلك بزمانٍ.

و قيل المراد بكتمانهم الشّهادة كتمانهم أمر محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ونبّوته و هو كان موجوداً في التّوراة والإنجيل وهم كانوا يعلمون ذلك و قوله: **وَمَا اللّٰهُ بِغٰافِلٍ عَمّٰا تَعْمَلُونَ** أي ليس اللّه بغافلٍ من كتمانكم الحقّ فيما ألزَمَكم في كتابه بيانه لِلنّاس من أمر إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب و الأسباط في أمر الإسلام و أنّهم كانوا مسلمين و أنّ الحنّيفية المُسلمة دين اللّه الّذي علىٰ جميع الخلق التّدين بها دون اليّهودية والنّصرانية و غيرهما من المِلل و لا هو ساهٍ عن

عقابكم علىٰ فعلكم ذلك بل هو ثابت عليكم حتّىٰ يجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهل في عاجل الدّنيا وأجل الأخرة، و أمّا قـوله: **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ** الأية فقد مضىٰ تفسيرها وأنّما أُعيدت الآية هاهنا لغرضٍ أخر و هو زجرهم عن الإشتغال بوصف ما عليه الأُمم السّالفة عن الدّين بل ينبغي لهم التّوبة الىٰ ما هم عليه الأن من الدّين والحمد لِلّٰه ربّ العالمين.

انتهىٰ الجزء الأوّل من الكتاب ويتلوه الجزء الثّاني أوّله قوله تعالىٰ: **سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ** إن شاء اللّٰه تعالىٰ.

■

الفهرست